مركز البحوث الإسلامية
إستانبول

كشف الأسرار وهتك الأستار

جمال الدين يوسف بن هلال بن أبي البركات الصفدي
(ت. ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م)

تحقيق

أ. د. بهاء الدين دارتما

المجلد الثالث

نشريات وقف الديانة التركي

بسم الله الرحمن الرحيم

كشف الأسرار وهتك الأستار

مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية

تمّ إدراج "مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية" كمشروع إطاري يضم في طياته عدة مشاريع فرعية في جدول الأعمال من قِبَل مركز البحوث الإسلامية (إسام/ISAM) بهدف إخضاع التراكم الفكري فيما بين القرنين الهجريين السابع والثالث عشر (١٣-١٩م) -الذي يمكن أن يطلق عليه اسم "العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية"- لدراسة علمية كما يليق به واستخراج ما حملته هذه الفترة من أبعاد علمية وفكرية لما يقارب سبعة قرون. وفي تصور كتابة التاريخ المعاصرة قد سُعي إلى كتابة تاريخ الحضارة الإسلامية على أساس فرضية أن تطور الحضارة الإسلامية بصفة عامة والفكر الإسلامي وعلومه بصفة خاصة قد تعرض للانقطاع بعد الغزو المغولي. فإن وجهة النظر هذه التي تشكلت في الغرب في القرن التاسع عشر، وانتشرت بين المسلمين أثناء فترة الاستعمار هي التي جعلت أحكامنا المتعلقة بالتاريخ الإسلامي ناقصة، مما حال بيننا وبين أن نتناول تاريخ الإسلام بفكره وفنونه ومؤسساته وشخصياته الرائدة وأدبه وأحداثه في وحدة متماسكة.

ولا تسلّط الدراسات في هذا المجال الضوء على فترة من فترات التاريخ الإسلامي فحسب؛ بل ستجلي أيضا حقبة مهمة من حقب التاريخ البشري. وإن هذا المشروع سيكون وسيلة لبعثِ المسائل العلمية المناقشة في العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية من جديد، وإلحاقها بقضايا العالم العلمي والفكري، وبالتالي سيستفاد إلى أقصى حد من التراث العريق في بناء عهد جديد واستدراك المسائل الراهنة وتحليلها وانتقادها ومناقشتها.

وفي إطار الأعمال العلمية المتعلقة بهذه الفترة سيفسح هذا المشروع المجال لعقد دراسات عن العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي وتاريخ العلوم الإسلامية التجريبية، وكذلك العلوم البشرية وميادين الفنون في الحضارة الإسلامية إلى جانب الدراسات المقارنة بين الإسلام وسائر الحضارات الأخرى. وستركّز المشاريع المرتقبة على أراضي الدولة العثمانية وجنوب الصحراء الكبرى، وكذلك على شبه القارة الهندية منذ سلطنة دلهي، بالإضافة إلى آسيا الوسطى وإيران بعد الغزو المغولي. هذا ويتوقع إصدار منشورات في إطار المشروع مثل الفهرسة والتأليف والتحقيق والترجمة.

المنهج الفكري عند ابن تيمية ونقده للمتكلمين (بالتركية)، مَحمّد سعيد أوزَروارلي، ٢٠٠٨؛ ٢٠١٧.
دراسة فتح الباري وعمدة القاري من جهة تحليل المتن(بالتركية)، ياووز كُوكْطاش، ٢٠٠٩؛ ٢٠٢٠.
الوزارة في العهد السلجوقي (بالتركية)، فتح يحيى آياز، ٢٠٠٩؛ ٢٠١٧.
التاريخ الإداري والاقتصادي للعثمانيين (بالتركية)، خليل إينالجيق، ٢٠١١؛ ٢٠١٨.
مدرسة فخر الدين الرازي في أصول الفقه (بالتركية)، طونجاي باش أوغلو، ٢٠١١؛ ٢٠١٤.
عبد القادر الجيلاني والقادرية (بالتركية)، عدالت چاقر، ١-٣، ٢٠١٢؛ ٢٠٢١.
فخر الدين الرازي في عهد التحول للفكر الإسلامي (بالتركية)، عثمان دمير - عمر تورك أر (تحرير)، ٢٠١٣.
الكفاية في الهداية، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد آروتشي، ٢٠١٣؛ ٢٠٢٢.
المنتقى من عصمة الأنبياء، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد بولوط، ٢٠١٣؛ ٢٠٢٢.
الطرق الصوفية في تركيا: تاريخ وثقافة (بالتركية)، سميح جيحان (تحرير)، ٢٠١٥.
مرشد الشيوخ الثلاثة: الخلوتية وفرع الرمضانية وكوستندلي علي علاء الدين أفندي (بالتركية)، سميح جيحان، ٢٠١٥.
تراث الحواشي في التفسير وحاشية شيخ زاده على أنوار التنزيل (بالتركية)، شكري معدن، ٢٠١٥.
فهرس الوقفيات لسجلات محاكم إستانبول الشرعية (بالتركية)، إعداد: ب. آيدين، إ. يورداقول، آ. ايشيق، إ. قورت، أ. يلديز، ٢٠١٥.
كتاب القواعد الكلية في جملة من الفنون العلمية، محمد الإصفهاني، تحقيق: منصور كوشينكاغ - بلال تاشقين، ٢٠١٧.
عضد الدين الإيجي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، أشرف آلطاش (تحرير)، ٢٠١٧.
القاضي البيضاوي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، مستقيم آريجي (تحرير)، ٢٠١٧.
العلاقة بين النحو وأصول الفقه (بالتركية)، عثمان گومان، ٢٠١٧.
سلامة الإنسان في محافظة اللسان، ميرزا زاده محمد سالم، تحقيق: مراد صولا، ٢٠١٨.
معاني الأسماء الإلهية، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
شرح الفاتحة وبعض سورة البقرة، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
دليل تحقيق النصوص لمركز البحوث الإسلامية (إسام) (بالتركية)، إعداد: أوقان قدير يلماز، ٢٠١٨.
شيخ بدر الدين: فقيه عثماني (بالتركية)، مصطفى بولند داداش، ٢٠١٨.
رسالة في أدب المفتي، محمد فقهي العيني، تحقيق: عثمان شاهين، ٢٠١٨.
كتاب تقريب الغريب، قاسم بن قطلوبغا، تحقيق: عثمان كسكين‌أر، ٢٠١٨.
كشف الأسرار وهتك الأستار، يوسف بن هلال الصفدي، تحقيق: بهاء الدين دارما، ١-٥، ٢٠١٩.
تراث الكشاف: أثر الكشاف للزمخشري في تراث التفسير (بالتركية) مَحمّد طه بُويالِق، ٢٠١٩.
التسهيل شرح لطائف الإشارات، الشيخ بدر الدين، تحقيق: مصطفى بُولَنْدْ دَادَاشْ، ١-٣، ٢٠١٩.
جامع الأصول، ركن الدين السمرقندي، تحقيق: عصمت غريب الله شِمْشَك، ١-٢، ٢٠٢٠.
تسديد القواعد في شرح تجريد العقائد - حاشية التجريد - منهوات الجرجاني والحواشي الأخرى، محمود الإصفهاني - الجرجاني، تحقيق:
آ. آلطاش، م. علي قُوجَه، ص. كولْ آيدِن، م. يتيم، ١-٣، ٢٠٢٠؛ ١-٢، ٢٠٢١.
لب الأصول، ابن نجيم، تحقيق: محمد فال السيد الشنقيطي، ٢٠٢٠.
التسديد في شرح التمهيد، السغناقي، تحقيق: علي طارق زياد يلماز، ١-٢، ٢٠٢٠.
نظام الحقوق العثماني: أساس الدولة العلية، مَحمّد عاكف آيدن (بالتركية)، ٢٠٢٠.
نظرية الجسم في الفلسفة الإسلامية: تراث حكمة العين، مَحمّد سامي باغا (بالتركية)، ٢٠٢٠.
تراث الشروح والحواشي في كتابة السير: مُغلْطاي بن قليج نموذجًا، گُولْلُو ييلديز (بالتركية)، ٢٠٢٠.
علي القوشجي مفسّرًا، مَحمّد جيجَك (بالتركية)، ٢٠٢١.
حاشية علي القوشجي على شرح الكشاف للتفتازاني، علي القوشجي علاء الدين علي بن محمد السمرقندي، تحقيق: مَحمّد جِيجَك، ٢٠٢١.
شرح عقود رسم المفتي، ابن عابدين محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز الحسيني الدمشقي، تحقيق: شَنُول صَيْلان، ٢٠٢١.
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي، تحقيق: محمد طه بويالق، أحمد أيتب،
ضياء الدين القالش، محمد عماد النابلسي، ١-٩، ٢٠٢١.
النحو في التراث العلمي الإسلامي (بالتركية)، نائل أُوكُونْجُو (تحرير)، ٢٠٢٢.
الفتاوى الصغرى، نجم الدين يوسف بن أحمد بن أبي بكر الخاصي الخوارزمي، تحقيق: عبد الخالق أُويْغُورْ، ١-٢، ٢٠٢٢.
دليل تحقيق النصوص (النصوص التركية العثمانية) إعداد: برات آچيل، صادق يازار، قدير طورغود، أوزگور قاواق (بالتركية)، ٢٠٢٢.
الهوادي في شرح المسالك، حمزة بن دُرْغُودْ الأيديني، تحقيق: علي بولوط، ٢٠٢٢.
ابن عابدين الفقيه العثماني (بالتركية)، مصطفى آلش، ٢٠٢٢.
اللمعة في الحدوث والقدم والقضاء والقدر وتحقيق التكليف، إبراهيم بن مصطفى الحلبي المَداري، تحقيق: منذر شيخ حسن، ٢٠٢٢.
الغرف العلية في تراجم متأخري الحنفية، شمس الدين ابن طولون، تحقيق: علي السيد عبد اللطيف، ١-٣، ٢٠٢٣.

مركز البحوث الإسلامية
إستانبول

كشف الأسرار وهتك الأستار

جمال الدين يوسف بن هلال بن أبي البركات الصفدي
(ت. ٦٩٦هـ/١٢٩٦م)

تحقيق
أ. د. بهاء الدين دارتما

مراجعة
أ. د. بكر طوبال أوغلي

المجلد الثالث

نشريات وقف الديانة التركي

نشريات وقف الديانة التركي
رقم النشر ٧٦٦-١
نشريات إسام ٢٢٧
سلسلة عيون التراث الإسلامي ٣٧

كشف الأسرار وهتك الأستار
يوسف بن هلال الصفدي

المجلد الثالث

تحقيق أ.د. بَهاء الدّين دارْتْمَا

المراجعة أ.د. بَكر طُو پَالْ أُوغْلِي

لقد تم إعداد كتاب كشف الأسرار وهتك الأستار بإشراف اللجنة العلمية للتحقيق بـ مركز البحوث الإسلامية (İSAM) التابع لوقف الديانة التركي.

İSAM yayınları
İcadiye - Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
الهاتف: 50 08 474 216 90+ www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

إدارة النشر محمد سَعَادْ مَرْتْ أُوغْلُو
إشراف الطبع أردال جَسار
تحرير قسم التحقيق أُوقَانْ قَدير يِلْماز، أُوزخان أَنْجَقَار
التدقيق النهائي لقسم الدراسة (التركي) مصطفى دَمِيرْآي
التصحيح (العربي) أُوزْخان أَنْجَقَار، أُوقَانْ قَدير يِلْمازْ
(التركي) عيسى قايا أَلْپ، إسماعيل أَرْيِلْكِين
التصميم علي حيدر أُولُوصُويْ، حسن حسين جان (غلاف)، رمزي حاج مصطفى (خط الغلاف)
سكرتير النشر سماء دوغان

تم إعداد هذا الكتاب
من قبل مركز البحوث الإسلامية (إسام / İSAM)
في إطار مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية.
منسق المشروع طُونْجاي باش أُوغْلُو

İkinci Klasik Dönem

تم طبع هذا الكتاب بقرار مجلس إدارة إسام
رقم ١٨/٢٠١٨ وتاريخ ٢٠١٨/١٢/٢١.

الطبعة الأولى: إستانبول - بيروت، آذار ٢٠١٩م / ١٤٤٠هـ
الطبعة الثالثة: أنقرة، أغسطس ٢٠٢٣م / ١٤٤٥هـ
ISBN 978-625-7672-69-6 (مجموعة)
978-625-7672-72-6 (المجلد الثالث)

الطباعة والنشر والتوزيع
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
TDV Yayın Matbaacılık Tic. İşletmesi
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No: 11 Yeni Mahalle / Ankara
الهاتف: 9131 354 312 90+ الفاكس: 9132 354 312 90+ bilgi@tdv.com.tr

يوسف بن هلال الصفدي
كشف الأسرار وهتك الأستار / يوسف بن هلال الصفدي؛ التحقيق: بَهاء الدّين دارْتْمَا. الطبعة الثالثة – إستانبول؛ أنقرة: مركز البحوث الإسلامية (إسام)؛ وقف الديانة التركي، ٢٠٢٣.
المجلد الثالث، ٦٣٢ صفحة؛ ٢٤ سم. – (نشريات وقف الديانة التركي؛ ٧٦٦-١. نشريات إسام؛ ٢٢٧. سلسلة عيون التراث الإسلامي؛ ٣٧)
يحتوي على الفهارس والمصادر
(المجلد الثالث) 978-625-7672-72-6 (مجموعة) ISBN 978-625-7672-69-6

فهرس المحتويات

سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾

الحمد لله الذى أنزل علىٰ عبده الكتٰب، أي بطريق الرسالة مع جبريل، لقوله: نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ.[١] فلمّا تبين هناك صورة الإنزال لم يحتج إلى تفصيله في كل مكان. وقدم ذكر الكتاب في سورة الفرقان،[٢] وأخّره في الكهف عن ذكر العبد ليعيد الضمير على الأقرب. وقوله تعالى: **ولم يجعل له عوجا**،[٣] ولم يقل: ولم يجعل فيه عوجا، لأنه لو قال كذلك لانتفى العوج عنه في نفسه ولم ينتف عنه من غيره. فلمّا قال: "له" دل على أنه لا يكون له الاعوجاج لا من نفسه ولا من غيره، لأن قولك: "له" أعم من قولك: "فيه". والعوج بكسر العين وفتح الواو وهو الاسم من الاعوجاج، وبفتح العين للعُود وبكسرها لغيره. وأصله من عاج يعوج، ومعناه الميل، كقول الشاعر:

عُـجْ[٤] بـالـمَـطـيّ عـلـى الـمـنـازل فـلـهـن فـي قـلـبـي مـنـازل.[٥]

أي حُلّ بالمطي.

ولمّا كان الاعوجاج زيادة في الميل غُيِّرت صيغة المصدر التي هي بفتح العين وسكون الواو. وجعلت في الاسم مكسورة العين مفتوحة الواو، وامتاز صيغة المصدر عن صيغة الاسم. ولمّا كان الاعوجاج في نفسه أكثرَ من الميل غيرت صيغة العبارة منه، تقول في اللازم: تَعوّج يَتعوج تَعوُّجا، واعوجّ يعوَجّ إعوجاجا فهو معوّجّ وأعوجُ،

١ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/١٩٣-١٩٤).

٢ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (سورة الفرقان، ٢٥/١).

٣ جميع النسخ + قيما.

٤ العَوْج الانعطاف فيما كان قائما فمال، كالرمح والحائط وكلُّ ما كان قائما... يقال عاج بالمكان وعوّج أي أقام، وقيل: عاج به أي عَطَف عليه ومال (لسان العرب، «عوج»).

٥ لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر.

وفي المتعدي عوّج يعوج تعويجا. وإنما قال: **عِوَجا**، ولا انعواجا[1] ولا تعوُّجا ولا عَوْجا، لأن هذا الاسم ههنا أولى من غيره وأحسن، لكونه على وِزان القرائن التالية له في أواخر الآيات، و ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ.[2] وقوله تعالى: **قيّما**، معطوف على ما قبله، وتقديره أنزل على عبده الكتاب قيما، ومعناه ثابتا، ومنه ٱلۡقَيُّومُ،[3] أي الدائم. وقَيِّمٌ أصله قَوْيِم،[4] فأدغمت الواو[5] والياء الواحدة في الأخرى وهو [بمعنى] فَعِيل الذي هو مؤكِّد "قائم" الذي معناه الثبوت، من قوله تعالى: إِلَّا مَادُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمًا،[6] أي دائمَ القيام. فإذا أردت المبالغة في قائم قلت: قيّم مثل سيّد / الذي هو مثل سميع وعليم. [٢٤٧و]

فإن قيل:[7] ما الحكمة في تأخيرها؟ قلنا: لتدل على حُكم القيّومية في مستقبل الزمان أنه لا يكون له فيه عوجٌ أبدا، فافهم ذلك. وليعلم أيضا من احتمال هذه العبارة إن كان له عوجٌ من تأويل بعض المبطلين فذلك العِوج لا يكون قيّما بل يضمحل ويزول. وقوله: **لينذر بأسا شديدا من لدنه**، قدّم هذه الكلمة لتمهيد الوِزان، وتقدير الكلام: ماكثين فيه أبدا من لدنه، لقوله: وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا.[8] وإنما أتى بها في موضعها لتدل على زيادة التخويف مع ذكر الإنذار، ولتكون[9] دالة على أن الكتاب من لدنه، والبأس من لدنه والأجر من لدنه. ولو قدمها فذكرها بعد الكتاب، أو أخّرها فذكرها بعد الأجر لم تدلَّ على الجملة، فذكرها في الوسط مع البأس الذي لو لم يذكرها معه لم يُفهَم هذا القدرُ من التخويف. وأمّا الكتاب والأجر فقد عُلم أمرهما من مواضعَ أُخَرَ، أنهما من لدنه، فلَزِم وفُهم ههنا. فانظر لهذا التصرف الذي يُطرِب. **ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصّٰلحٰت أن لهم أجرا حسنا، مٰكثين فيه أبدا.**

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾

---

١ أي ولم يقل: انعواجا...

٢ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ (سورة الزمر، ٢٣/٣٩).

٣ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ (سورة البقرة، ٢٥٥/٢)؛ و(سورة آل عمران، ٢/٣).

٤ جميع النسخ: قييم.

٥ أي واو قَوْيِم.

٦ ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗا﴾ (سورة آل عمران، ٧٥/٣).

٧ ش: فإن قلت.

٨ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ (سورة النساء، ٤٠/٤).

٩ جميع النسخ: وليكون.

﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ٥﴾

ما لهم به من علم ولا لآبائهم، نظير قوله تعالى: بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ.[١] **كبرت كلمة تخرج من أفوٰههم**، يخصِّص النصارى بالقول بأفواههم دون غيرهم، كما بيّنا في قوله: ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ.[٢] **إن يقولون إلا كذبا**.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾

فلعلك بٰخع نفسك، إذا وقفت، **علىٰ ءاثٰرهم**، يعني إذا أهلكناهم وخرَّبنا ديارهم وتَبقى الآثار من الديار أو القوم،[٣] كعظام أو غير ذلك من أثر يدل على أنه كان ههنا مؤثّر[٤] من الناس. فإذا وقفت عليها تَبخَع نفسك تشبيها بالشخص الذي يبخع[٥] إذا رأى الامر الهائل. وذلك الكلام ههنا من الله تعالى لرسوله جاء بحكم البِشارة له بما سيكون، أي لا يحزنْك تكذيبُهم لك وكَذِبُهم على الله بالولد. فلعلك عن قريب تَرى خرابَ ديارهم ومحوَ آثارهم عقابا لهم إلى أن تتأسّف عليهم لكونهم لم يؤمنوا فهلكوا. ولفظة "لعل" لا تخرج عن مفهومها. وإنما قال: **لعل**، ولم يقل: إنّ،[٦] لأن دلالتها أنقص[٧] ليطابق بذلك ما وقع في الوجود من رؤيته لما تمّ على بعض الناس وقد تم بعده أكثر. فهي كما بيّن في قوله تعالى: وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ.[٨] وقوله: **إن لم يؤمنوا بهٰذا الحديث أسفا**، تقديره: باخع نفسك من الأسف، وإنما أخرت لتشبيه أواخر الآي.

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧﴾

وقوله: **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها**، أي من الزينة التي هي للأرض، وتكون[٩] الجملة

---

١ سورة الروم، ٢٩/٣٠.

٢ ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ (سورة التوبة، ٣٠/٩).

٣ ش: والقوم.

٤ الأثر بالتحريك ما بقي من رسم الشيء والتأثير إبْقاءُ الأثر في الشيء وأثّر في الشيء ترك فيه أثرا (لسان العرب، «أثر»).

٥ ك ن: ينبخع. | بخَعَ نفسَه يَبخَعها بخعا: قتلَها غيْظا أو غمّا (لسان العرب، «بخع»).

٦ أي إنك باخع نفسك.

٧ ك: أنقض.

٨ ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ (سورة الرعد ٤٠/١٣).

٩ ك ن: ويكون.

موضوعة[1] محمولة،[2] **لنبلوهم**، لأن الابتلاء [الذي] يكون بزينة الأرض أظهر وأولى وإن كان بغيرها. وهذا لا يختص بالنبات فقط، بل لمّا كان ما على الأرض من زينة تشبه[3] زينة الأرض جاءت من صيغة اللفظ كذلك، ولهذا لم يقل: زينة الأرض.[4] وهذا مفهوم من قوله تعالى: ﴿[اعْلَمُوا] أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾.[5] فهذا إشارة إلى أنه كل ما قد رزقناه للمؤمنين والكفار إنما هو زينة وهو ذاهب. وإنما قد رزقناهم إياه، **لنبلوهم**، به، **أيهم أحسن عملا**. ولا شك أنه تعالى يعلم أيهم أحسن، ولكن المراد أنهم هم يعلمون فيصبح العلم منه ومنهم بصورة واحدة. ولهذا قال بنون الجمع: لِنَعْلَمَ في عِدَّة مواضع،[6] وقال ههنا ما يلزم عنه مثل ذلك.

ويجب أن تَفتح مسامعَ قلبك لنفعه[7] من هذه الآية ما يتحقق به المراد بزينة تفنى فتَصْعُب[8] عنه الدنيا، تعلم أنها ليست بشيء وأنها لا تُساوي عند الله جناحَ بعوضة.[9] وذلك أن تَعلم أن المراد بخلق الإنسان إنما هو أمر يتحقق له في النشأة الثانية. فلو خلق الله تعالى [الإنسان] هناك أولا وأعطاه بحسب ما علم منه أنه لو جاء إلى هذا العالم واكتسب فيه لِمَا استحق بكسبه غير ذلك لَمَا كان يتحقق الإنسانُ عدل الله ولا يعترف بفضله سبحانه، ولكانت الحجة للعبد على الحق الربِّ، إذ[10] أحلّه في رتبة ناقصة عن رتبة أخيه. فلمّا أوجده الله في هذا العالم وأوضح له الحجة وأقام الحجة بالرسل والعقول عادت زبدة إيجاد هذا الوجود، **لنبلوهم أيهم أحسن عملا**، فتزول اللائمة عن الحق / وتقوم الحجة على سائر الخلق. ومن فكّر في هذا فتح له بابٌ عظيمُ الجَدْوَى [٢٤٧ظ]
في الإعراض عن زينة الدنيا. وعلى هذا الأُسّ المتينِ ينبني إيمان المحققين. ولو شرح البليغ العارفُ ما يستحقه هذا الفصل من الشرف والفضل لأتى على مجلدات جَمّة، ولكن المتذهّن الفَطِن الواعي إذا انصرف بفكره وصِدْق اضطراره إلى معرفة هذا

---

١ جميع النسخ: موضوعا.

٢ ش ن: محموله.

٣ ك ن: يشبه.

٤ ش + جاءت من صيغة اللفظ كذلك ولهذا لم يقل زينة الأرض.

٥ ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ (سورة الحديد، ٢٠/٥٧).

٦ انظر مثلا: سورة البقرة، ١٤٣/٢؛ وسورة سبأ، ٢١/٣٤.

٧ أي لينتفع.

٨ ك: فيصعب.

٩ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «لو كانت الدنيا تَعْدِل عند الله جناحَ بعوضة ما سقى كافرا منها شَرْبَةَ ماءٍ» (سنن الترمذي، الزهد ١٣؛ والمستدرك للنيسابوري، ٣٠٦/٤).

١٠ ش ك: إذا.

فُتح له ما لا تسعه الطُّرُوس.[١] فاقتصرنا على التنبيه عليه بما تشهده النفوس.

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾

ولمّا بين الله لنا أن ما على الأرض من الزينة[٢] إنما هو للابتلاء لا غير عرفنا أنه سيذهب كلُّه ويفنى، وأن الذي من أجله كان الابتلاء هو الذي يبقى فهو العمل فضَرَب[٣] المثل بأهل الكهف. فلهذا قال عن كل ما على الأرض: **وإنا لجٰعلون ما عليها صعيدا جرزا**، أي إنه يصير كالصعيد، وهو التراب الذي أَصْعَدَ من الأرض لا يخالطه غيرُه من نبات أو غيره. والجُرُز اليابس، لقوله: أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ.[٤] وزبدة القول وتقديره: أفحسبت أنّا نتغافل عن الظالمين ولا نَسْلُبهم ما متعناهم[٥] به مما هو زينة نَخْتبر بها حسنَ عملهم؟

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾

أم حسبت أن أصحٰب الكهف والرقيم كانوا من ءايٰتنا عجبا. وهذا النظم جاء على مذهب العرب في الخروج من التغزل إلى المدح، كقوله: وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا،[٦] كما بيّنّاه في هذه الآية تالية للمقدر المحذوف الذي ذكرناه أو مثله. والمعنى أنا لا نغفل عمن فعل شرا كالكفار ولا عمن فعل خيرا من بين الكفار كأهل الكهف، ثم بيّن قصتهم. وإنما بيّنها دون غيرها لأن الناس في زمن النبي عليه السلام اختلفوا في أمرهم وادعوا معرفة أمرهم، ينبهك على ذلك قوله: فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا، الآية، فعرّف الله رسوله أن أقوال الناس فيهم باطلة وأنهم لا يعرفون عِدّتهم، وأشار بإشارات تنبه على عِدّتهم، ولهذا قال: مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ.[٧]

فإن قيل: ما فائدة إخفاء عدة أهل الكهف ولِم لَم يصرح بذلك؟ فيُحتمل أن **يقال**: إن من فوائد ذلك الحَثَّ على سلوك سبيل التفكر والاستنباط الذي به يُفتح

١ الطِّرْس الصحيفة، والجمع طُرُوس (لسان العرب، «طرس»).

٢ ش ك: من زينة.

٣ ن: ضرب.

٤ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ (سورة السجدة، ٢٧/٣٢).

٥ جميع النسخ: ولا نسليهم ما متعناهم، والمثبت من م.

٦ ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ (سورة الرعد، ٥/١٣).

٧ الآية ٢٢ من هذه السورة.

على القلوب من أسرار الغيوب أشرفُ المطلوب، إذ مَن ولج[1] هذا البابَ شهد منه العُجاب؛ ومن الجائز أن يحمل على كلام الله تعالى ما لا يُشوّشه، بل يعظم الانتفاع به وإن لم يكن هو جملةَ القصد به. وذلك كما يُفهَم من هذه القصة على طريق التمثيل النافع أن من اعتزل[2] أصنام أهوائه وعُبّادها من مدينة جسمه وأوى إلى كهف قلبه أُوتي رحمةً من لدن ربه. فهذا وأمثاله[3] داخل في قوله تعالى: **إذ أوى الفتيةُ**، أي الشباب، **إلى الكهف فقالوا ربنا ءاتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا**، على هذا يجب أن يَبني أمْرَه كلُّ معتكف ومُتخَلٍّ[4] في خلوة الله تعالى. وقوله: **رشدا**، محركة الشين لتماثل أواخر الآي، ولم يمكن فتحها إلا بفتح ما قبلها. وهذا الاسم يقال بضم الراء وسكون الشين.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

فضربنا، ضربتُ على يده، إذا منعتَه التصرفَ، ومنه ضربت على السطر، أي أبطلته وهي استعارة. **علىٰ ءاذانهم**، أخبارهم التي تُسْمَعُ بالأذن. والمعنى أنه لم يَسمع أحد لهم خبرا، **فى الكهف سنين عددا**. و"سنين"، منصوبة على ظرف الزمان. وقوله: **ثم بعثنٰهم**، "ثم" ههنا جاءت عطفا على ما تقدم وإن لم يكن بعثا، بل فضربنا ثم بعثنا بعد ذلك، **لنعلم**، هذا خطاب بالمألوف المعروف. وأفضل ما قيل فيه: أن المراد ما معناه لنعلم مَن نريد إعلامه، فهو بصورةِ ما يفعله المعلّم المتلطف بالمتعلم، إذ يقول له: افعل هذا لنعلم، والمراد لتعلم.[5] وهذا في الحقيقة صحيح على ظاهره، لأن قوله: **لنعلم**،[6] إذا لم تكن مصروفة إلى نون العظمة فمعناها: لنعلم أنّا وأنتم مثلا. ومتى كان العلم مختصا به لم تكن العبارة بهذه الكلمة أولى بل غيرُها. ومتى علموا هم كما علم فلا جائزٌ إلا هذه العبارة فيعود المعنى لنعلم جميعا علما واحدا، لأنهم متى علموا بعد ما علمه قبلُ عادتِ الحجة عليهم، وظهر لهم العدلُ منهم، وهذا هو المراد. ولهذا قال بعد آيات: وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ.[7] فإذا علموا ما علمه الله عاد الأَوْلى أن يقول / تعالى: [٢٤٨و]

---

١ وَلَجَ (يَلِجُ وُلُوجًا): دخل (لسان العرب، «ولج»).

٢ ش ك: من أعزل.

٣ ن: ومثاله.

٤ جميع النسخ: ومختل.

٥ ن: لنعلم.

٦ ش - وهذا في الحقيقة صحيح على ظاهره لأن قوله لنعلم.

٧ الآية ٢١ من هذه السورة.

لنعلم، فافهم هذا جيدا. وقوله: **أيُّ**، هو الفاعل فرُفع، والجملة في موضع المفعول لقوله: **لنعلم**، إلى آخر الآية ولم يتعين فلم يظهر نصبه. وقد بيّنّاه في سورة مريم عند قوله: أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا،[١] بيانا شافيا، فقف عليه. وقوله: **الحِزْبَيْنِ**، حزب حقٍّ وحزبِ باطل، وهم القائلون: رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ.[٢] وقوله: **أحصىٰ**، هو فعلٌ ماضٍ، **لما لبثوا أمدا**، وأخِّر للوِزان. وتقديره أحصى أمدا لما لبثوا.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾

وقوله: **نحن نقص**، ولم يقل: نتلو، كما قال: نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ،[٣] ليعرّفَنا أنه يحذُو في حكايته عنهم حِذْوَ القَصّاص الذي يقتصّ الأثر خطوةً بعد خطوة فلا يُخلّ بشيء من حديثهم. وقوله: **عليك نبأهم بالحق**، أي بصورة الحق لا بصورة الباطل كما يقول هؤلاء المختلفون ويدّعونه. ثم ابتدأ فقال: **إنهم فتية ءامنوا بربهم وزدنٰهم هدى**، كقوله: وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى.[٤]

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾

وربطنا علىٰ قلوبهم، بالصبر والكتمان عن قومهم، كقوله: إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا.[٥] فربط الله على قلوبهم وهم في قومهم. **إذ قاموا فقالوا ربنا رب السمٰوٰت والأرض لن ندعوَا من دونه إلٰها لقد قلنا إذًا شططا**، بعيداً[٦] عن الحق، والشطط مجاوزة القدر في كل شيء.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾

هٰؤلاء قومنا اتخذوا من دونه ءالهة. **لولا**، بمعنى هلا، وهي في الماضي توبيخ وفي المستقبل تحريض، **يأتون عليهم**، على آلهتهم شُهودا، **بسلطن بين**. **فمن أظلم**

---

١ ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ (سورة مريم، ٦٩/١٩).

٢ الآية ٢٢ من هذه السورة.

٣ ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة القصص، ٣/٢٨).

٤ سورة مريم، ٧٦/١٩.

٥ ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة القصص، ١٠/٢٨).

٦ جميع النسخ: بعيد.

ممن افترى على الله كذبا. "افترى" افتعل من فَرَى يفري الذي هو الخرق.[1] وههنا هو خرق في الحق، وقد جاء مثل هذه العبارة بلفظ الخرق،[2] والمراد به الافتراء وهو قوله: وَخَرَقُوا لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ.[3]

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ١٦﴾

ومن تمام كلامهم لبعضهم بعضا، **وإذ اعتزلتموهم وما**، والذي، **يعبدون إلا الله**. والمعنى وإذ قد اعتزلتموهم واعتزلتم سائر ما يعبدون سوى الله. فقوله: سوى الله لا جائز أن يكون هو أيضا من جملة معبوداتهم أو معبودا لبعضهم، لما تقدم أولا من قوله: هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً،[4] ولم يقل: معه بل قوله: **من دونه**، يريد بها ما دون الله فقط. ولهذا قبله أيضا: لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا.[5] وفرقٌ بين أن يكون الاستثناء بإلّا من جملة فيها ما استثنيته فما أوجبته وبين أن يكون[6] ما استثنيته بإلّا خارجا عما أوجبته. فافهم هذا لتفهم[7] به الاستثناء عند قوله: مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ،[8] فإنه غير جزء من الدوام المنسوب إلى السماوات والأرض بل خارج عنها، لكنه لمّا كان مشاركا لها في ذكر الخلود قُرن بها. وكذلك ههنا لمّا كان الله تعالى معبودا وإن لم يكن لقومهم قُرن في الذكر مع الاستثناء. واعلم أن لفظة "إلا" تأتي بمعنى "سوى" وبمعنى "غير" وبمعنى "لكن". وهذه الالفاظُ نظائرُ. وإنما يُفهَم[9] ببعضها في بعض المواضع أوضحَ مما يُفهَم بالبعض الآخر، فاجعلها في كل موضع بحسب المراد من الوجه الذي يتم به البيان. وأما كونه لم يقل: "وما تعبدونه"[10] قليلا يتخصص معبوداتهم. وإنما أراد في الحال والاستقبال فتكون[11] هذه العبارةُ أبانت عن أنهم لا يعبدون الله بوجه بل يعبدون غيره. ونحن لا نعبد غيره بوجه بل نعتزل غيره بكل وجه.

---

[1] فَرَى فلان الكذبَ يَفْرِيه: إذا اختلقه. وافتراه: اختلقه. وفَرِيتُ: دُهِشْتُ وحِرْتُ. فَرِيَ الرجل يَفْرَى فَرىً: بُهِت ودُهِش وتحير (لسان العرب، «فرا»).

[2] ك ن: الحرق.

[3] ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٠٠).

[4] من الآية السابقة.

[5] الآية ١٤ من هذه السورة.

[6] ش – الاستثناء بإلا من جملة فيها ما استثنيته فما أوجبته وبين أن يكون.

[7] ن: لنفهم.

[8] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ (سورة هود، ١١/١٠٧، ١٠٨).

[9] ش: وإنما تفهم.

[10] ن: وما يعبدونه.

[11] ك ن: فيكون.

وإذ قد اعتزلتم ذلك، **فأووا إلى الكهف يَنْشُرْ لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا**، أي رِفْقا. وعدل به للوِزان. **ومن أمركم**، ليس "من" ههنا للتبعيض بل لتبيين الجنس.

﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

وترى الشمس إذا طلعت تزْوَر، يظن الجَهَلَة أن هذا تطويل في الحكاية ولا فائدة فيه، وهي حكمة. ومن بعض فوائده أنه أفاد تحديد المكان، لأن اليمين والشمال إنما هما باعتبار الإنسان الداخل في مشهور اللغة، ولو كانت باعتبار غيره لَبَيَّنَهُ الله تعالى. فبذلك علمت[1] أن بابه قُبْلِيّ، وعلمت جميع[2] جهاته بهذا اللفظ الوجيز الذي يُمكن أن يتميز المكان به عن غيره. وقوله: **تزْور**، وتَزْوَرُّ[3] وتَزَّاوَرُ، الجميعُ معناه الميل، **عن كهفهم ذاتَ اليمين**، منصوبة بتقدير "مِن". ومعنى "ذات" الجهة، أي من الجهة التي هي صاحبة اليمين لتكون[4] الجهةُ مضافة إلى اليمين، لا اليمين إلى الجهة، فيكون اللفظ مُشعرا بيمين الداخل لا بيمين الجهة، لا يتحقق إلا بيمين الداخل. ولهذا قال: **وترىٰ**، ليكون الخطاب للرائي./ **وإذا غربت تَقْرِضُهم ذاتَ الشمال**. يقال في اللغة: قرضتُ [٢٤٨ظ]
الشيء إذا قرِضته[5] -بالكسر- إذا قطعتَه. ومنه الفأرة تَقرِض الثوبَ. والقرض أيضا[6] قول الشعر خاصة فهو مثله في الماضي والمستقبل، لأنه قطعة قُرضت من الشعر، فهو القريض. وكذلك بعينه في قرض المال ومثله من الترك. قرضتُه بمدينة كذا، أي تركته وخلفته. فالكلام ههنا معناه أن الشمس إذا طَلَعت تَميل عن كهفهم من جهة يمين الداخل فلا تدخل إليه جملة، لأن المشرق عن شمال الداخل فيكون الشعاع عند طلوع الشمس إنما هو من جهة يمينه. فجعل الله الكهف -لِما سبق في علمه

---

١ جميع النسخ: علمنا.

٢ ن - جميع.

٣ قال الفراء في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ قرأ بعضهم تَزْوَارُ يريد تَزاوَرُ، وقرأ بعضهم تَزْوَرُّ وتَزْوَارُّ، قال: وازْوِرارُها في هذا الموضع أنها كانت تَطْلُع على كهفهم ذات اليمين فلا تصيبهم، وتَغْرُب على كهفهم ذات الشمال فلا تصيبهم (لسان العرب، «زور»).

٤ ك ن: ليكون.

٥ القَرْض القَطْع، قَرَضه يَقْرِضه بالكسر قَرْضاً وقرَّضَه: قطعَه (لسان العرب، «قرض»).

٦ ن - أيضا.

أنه سيأوي إليه أصحابُه- على صورة موافقة بحيث تكون[1] الشمس محجوبة عن جملة الكهف بجانبه الذي يلي المشرق إذا طلعت. فأما إذا غربت فإنها تَترُكهم من جهة شمال الداخل. وعبّر عن الشمس بقوله: **تزَٰوَرُ**، أولا. ثم قال بلفظ "عن" ليَتَبَيَّن[2] أنها عند الطلوع تَميل عن جملة الكهف. ثم غيّر العبارة إذا غربت وجعلها مُنْبئة عن أهل الكهف لا عن الكهف لنعلم أنها لم تَمِل في الغروب كما مالت في الطلوع. وهذا يدل على أن الشمس إذا غربت تدخل إليهم ولكن لا تمر عليهم، فيعتدل الهواء بحرارتها ولا يقرعهم حرُّها. ونسب[3] التزاور والقرض إلى الشمس مجازا. فهي تميل عن الكهف إلى خارج إذا طلعت وتميل عن الكهف من داخل إذا غربت. **وهم**، مع هذه الحالة، **فى فَجْوَة منه**. والفجوة الناحية المتسعة، ومنه الفِجَاج والفَجّ.[4] ومن تخيل هذه الصورة وتصورها على هذا الوضع[5] العجيب تحقق أن ذلك من آيات الله، أعني من العلامات الدالة على تقدم العلم الأزلي بما يكون من هذا الكهف. فلهذا قال بعد قوله: **وهم فى فجوة منه**: **ذٰلك من ءايٰت الله**، لأنهم لو كانوا[6] في ثغور[7] أو مكان ضيّق لم تمرَّ عليهم الشمسُ ولم يكن ذلك عن حكمة. فلمّا كانوا في مكان متسعٍ من الكهف ومع هذا لا تمر عليهم[8] الشمس ولا تدخل إليهم إلا بعد انكسار حرها وهو عند الغروب كان ذلك آية بلا شك.

من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا. الولي هو الذي يتولاه[9] الشخص، وإذا كان الولي لا يُرشد فكيف من هو أبعد منه. فلهذا نسب الإرشاد إلى الولي، لأنه أولى من غيره لقربه.

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾

١ ك ن: يكون.

٢ ش ك: لنبين.

٣ ن: ونصب.

٤ الفَجُّ الطريق الواسع بين جَبَلين. وقيل في جبَل أو في قُبُلِ جَبَل وهو أوسع من الشِّعْب. الفَجُّ المَضْرِب البعيد. وقيل: هو الشِّعْب الواسع بين الجبَلين. وقال ثعلب: هو ما انخفض من الطرق وجمعه فِجاج (لسان العرب، «فجج»).

٥ ش: هذا الموضع.

٦ ك ن: لو كان.

٧ جميع النسخ: ثغوار. | الثغْر والثغرة كل فرجة في جبل، أو بطن واد، أو طريق مسلوك. الثغر ما يلي دار الحرب، والثغر موضع المخافة من فروج البلدان (لسان العرب، «ثغر»).

٨ ن: عليه.

٩ ش ك: يتوالاه.

وقوله: **وتحسبهم أيقاظا وهم رقود**، **أيقاظا**، اسم للجمع مأخوذ من تصريف أفعل لتدل على المبالغة في صفة اليقظة، كما تقول: زيد أيقظ من عمرٍو.[١] وهذا الكلام يدل على أنهم كانوا مفتّحين الأعينَ بلا شك فتحسبهم أيقاظا. ودليله قوله: **لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا**، الآية. فإن الرائي لأقوام مفتّحِينَ[٢] الأعينَ كأنهم أيقاظ وهم رُقود يحصل عنده رُعبٌ بلا شك. **ونقلبهم ذات اليمين**، أي على جهة ذات اليمين منهم، **وذات الشمال**. **وكلبهم بٰسط ذراعيه بالوصيد**، تقديره بموضع الوصيد، أو[٣] بقرب الوصيد. ولهذا لم يقل: في الوصيد. وقيل: هو الباب. ويُحتمل أن يقال: إن الوصيد اسم معناه من قوله: نَارٌمُّؤۡصَدَةُۢ[٤] الذي معناها مُشعَلة، فهو الموضع الذي يُشعل فيه النار، وهو الذي من عادته أن يكون في دِهْليز[٥] المكان أو حَرَمِه. وإنما حكمة هذا الكلام أنه عرّفَنا حُسن تأديبهم لكلبهم، وأنه لم يكن عندهم في الفجوة التي هم فيها رُقود، بل كان خارجا منهم ليحفظهم من حيوان يدخل عليهم، فمات مكانَه. وتصريف الوصيد من وَصَدَت النارُ تَصِد مثل وقدت تقد وهو لازم، وأوصد النارَ يوصدها متعدٍّ، مثلَ أوقد يوقد. والفرق بين أوصد وأوقد أن "أوقد" يدل على إيقاد النار بعد خمودها وانطفائها. وأما الإيصاد فإنه يدل على الاشتعال[٦] القوي، ولهذا قال الله تعالى: نَارٌ مُّؤۡصَدَةُۢ، ولم يقل: مُوقَدة. **لو اطّلعتَ عليهم لولّيت منهم فرارا ولَمُلِئْتَ منهم رُعبا**.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩﴾

وكذٰلك، أي ضربنا على آذانهم كذلك، / **بعثنٰهم ليتساءلوا بينهم**. **قال قائل منهم كم لبثتم؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم**. ولما كان المراد تعريف العباد بأن الكثير من السنين يظنه النائم يوما بل بعضَ يوم دلّنا الله بهذه الألفاظ وأمثالها على أن من كان في الدنيا غافلا [٢٤٩و]

---

١ اليَقَظةُ نقيض النوم. والفِعل استيقظ، والنعت يَقْظان والتأنيث يَقْظى ونسوة ورجال أيْقاظٌ [قال] ابن سيده: قد استيقظ وأيْقَظَه هو واستيقظه (لسان العرب، «يقظ»).

٢ ن: مفتح.

٣ ن: أي.

٤ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ (سورة البلد، ٩٠/١٩-٢٠).

٥ ن: من دهليز.

٦ ش: الإشعال.

كالنائم فإن عمره كله كبعض يوم وإن كان مائين من السنين. وقد بيّنّا في البقرة حكمة مثل ذلك في قوله تعالى: قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ.[1] وأما قوله ههنا: **ليتساءلوا**، فهو عائد على أهل الكهف. وهذا التساؤل هو فتنة لهم وابتلاء ليظهر هل يقضون بالظن في لبثهم أو يقفون معه. فلم يقضوا بل أسندوا علْمَ ذلك إلى الله تعالى تقييدا[2] منهم في الحكم. **قالوا ربكم أعلم بما لبثتم، فابعثوا أحدَكم بوَرِقِكُم هٰذه إلى المدينة**، إعلاما أنهم صحبوا[3] معهم شيئا من مالهم ولم[4] يخرجوا عن أحكام العقل، إذ التوكل والانقطاع إلى الله لا يُخرج عن أحكام العقل ولا يُبطل عن المتوكل كسبه واجتهادَه. وعرّفَنا أن مَن انقطع إلى الله وجب عليه أن يأكل من الطعام الحلال الطاهر لقوله عنهم: **فلينظر أيها أزكى طعاما**، لقوله: قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ.[5] وقوله: **فَلْيأتكم برزق منه**، ليعرّفَنا زهْدَهم وأنهم لم يشتروا شيئا للتمتع بل للضرورة. فإن الرزق يدل على ما يرزقه الله مما تَقوم[6] به الحياة لا على ما يقصد به التمتع والفضول. وقوله: **ولْيَتَلَطّف**، ليعرّفَنا مكارم أخلاقهم عند معاملتهم للناس مع تحقق كفر الناس، فكيف غيرهم من المؤمنين، وليعرفنا تأديبهم وتعليمهم لمن يخدمهم وإن كان واحدا منهم، وليعرفنا كتمانَ حالهم خوفا من الأذى؛ وأنهم لم يعتمدوا على إيمانهم ويعتقدوا أن لا أحد يصل إليهم بسوء لكونهم على الحق، بل نظروا إلى ما يتعلق بهم وإلى ما يرجع عليهم من كسبهم فقالوا: **ولا يُشعِرَنَّ بكم أحدا**.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

وكذٰلك، أي نحن أيضا، **أعثرنا عليهم**؛ "أعثر" لفظٌ متعد، وهو إذا أوجب لغيره أن يُعْثَر واللازم عثَر يَعثُر. وقد بيّنّا[ه] في المائدة عند قوله: فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا

١ ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٥٩).

٢ ش ك: تقيد.

٣ ش ك: صخبوا.

٤ ن – ولم.

٥ سورة الأعلى، ٨٧/١٤.

٦ ن: مما تقدم.

ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا.[١] وإنما[٢] وقعت المماثلة في الماضي والمستقبل -لِما مصدره عِثارا بالحَجَر، ولما مصدره عُثورا من الاطلاع- لمماثلة في المعنى. فهو من قولك: عَثَرْتُ في السوق على ثوب رخيص فاشتريته. وإنما يقول ذلك إذا لم يقصد الصعود إلى السوق لأجله، لكنه لقيه[٣] اتفاقا. فهو كمن عثر[٤] بحَجر لم يكن في حسابه. وتقدير القول وكذلك أعثرنا الناسَ عليهم، **ليعلموا**، الناس، **أن وعد الله**، بألسنة الرسل في أنه يحيي الموتى، **حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنٰزعون بينهم**. قدم "بينهم" ههنا لأن أهل الكهف غائبون عنهم، فالنزاع بينهم حَسْبُ، وأخّر "بينهم" في طه،[٥] لأن المتنازَع فيهم حاضر. فلما تنازع هؤلاء في البين وأولئك في الأمر ذكر الأهمّ منهما في كل موضع عقيبَ ذكر التنازع.[٦] فقوله ههنا: **إذ يتنٰزعون بينهم**، إشارة إلى أهل المدينة. وقوله: **أمرهم**، إشارة إلى أمر أهل الكهف. **فقالوا ابنوا عليهم بنيٰنا**، أي بِنْية. وإنما قالوا ذلك تشكيكا فيهم وسوءَ ظنهم بهم، يدلك[٧] على ذلك قولُه: **ربهم أعلم بهم**. **قال الذين غلبوا علىٰ أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا**. وهذا من جملة الأمارات الدالة عليهم.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢﴾

سيقولون ثلٰثة رابعهم كلبهم، إنما بدأ بالثلاثة لأنه قال أولا: أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ،[٨] على الجمع[٩] الذي هو أكثر من الاثنين. فلما بدأ بالثلاثة وجعل رابعَهم ولم يقل: "رابعهم كلب" أو ما أشبهه ليكون ذلك تخصيصا لكلبهم على غيره. ولهذا تممت عدتهم به ليستدل على أن فيه شيئا من أوصافهم كالقناعة وغير ذلك. وتكراره لقوله: **ثلٰثة رابعهم**، و **خمسة سادسهم**، و **سبعة وثامنهم**، لينبهنا[١٠] على أن عِدّتهم

---

١ ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ (سورة المائدة، ١٠٧/٥).

٢ ن – وإنما.

٣ ك: لقيته.

٤ ن: أعثر.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ (سورة طه، ٦٢/٢٠).

٦ ن + هؤلاء.

٧ ن: بذلك.

٨ الآية ٩ من هذه السورة.

٩ ك ن: على الجميع.

١٠ ش ن ر ك: ونبّهنا، والمثبت من م.

كانت على مثل هذه السياق من الكلام، ثم نبّهنا على أنهم كانوا أفرادا وبالكلب يكونون أزواجا. ولهذا لم يقل: أربعةٌ خامسهم، ولا ستةٌ، ولم يَتعدَّ العشرة فيقول: أحد
[٢٤٩ظ] عشر، ثانيَ عشرَهُمْ كلبهم ولا غير ذلك، علمنا أنهم / ليسوا فوق العشرة، إذ لو كانوا فوق ذلك لقال الناس فيه كما قالوا فيما دونه، فجاز أن يكونوا تسعة وعاشرُهم كلبُهم على سياق الكلام الأول. ولمّا لم يذكر الله هذا القَسْم وأبطل ما سواه مما قالوه بقوله: **قل ربي أعلم بعدتهم**، لم ينتف أن يكون بعض الناس يقول به. ولهذا قال الله تعالى: **ما يعلمهم إلا قليل**. لكنه لمّا لم[1] يكن في زمن الرسول عليه السلام من يقول به قال الله تعالى: **فلا تمار فيهم إلا مراء ظُهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا**. ويحتمل أن يكون قوله: **ويقولون خمسة سادسهم كلبهم**، ثم فصل بقوله: **رجما بالغيب**، وقال بعد من يقول: **رجما بالغيب**، قولا وزاد على ما قالوه أولا واوا في قوله: **وثامنهم كلبهم**، ليدل[2] على أن مِن الناس مَن يقول ذلك أيضا. وقد علمت أن القسمين الأولين أتى بعدهما، **رجما بالغيب**. ولو كان الفِرَق الثلاث يقولون: **رجما بالغيب**، لجاءت بعد الفرقة الثالثة، فدل على أن الفريقين الأولين وهم الأكثرون[3] يقولون ذلك رجما بالغيب. والفريق الثالث وهو القليل يقولون: سبعة، وتقدير الكلام من الله والأمرُ كذلك: **وثامنهم كلبهم**، فهو حكاية عمن يُعلَم، وفيه تنبيه.

ثم قال بعد قوله: **ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم**: **قل ربي أعلم بعدتهم**، أي وقد علَّمني فيما أنزله عليّ لكنه، **ما يعلمهم إلا قليل**. وقد فصل بين الفريقين [الأولين] فالفريق[4] [الثالث]، والفريق هو القليل. ولا يلزم من[5] كون الفريق الثالث قسما ثالثا أن تكون[6] الفِرَق متساوية في العدد. ثم قال الله تعالى لنبيه عليه السلام منبها لنا على أنه قد عرّفَه بهذا الكلام، كأنه قال: وإذ قد علمت عدتهم، **فلا تمار فيهم إلا مراء ظُهرا ولا تستفت فيهم**، في أهل الكهف، **منهم**، من القائلين، **أحدا**، يدل على الفِرَق الثلاثة. وذلك لأنه عليه السلام لمّا علمه الله مما أنزله عليه استغنى عن أن يستفتي أحدا من سائر الناس وإن كان فيهم مَن يعلم. ولا يجوز أن يكون بعضهم قال الحق وهو لا يعلم. ولو كان كذلك لقال الله تعالى: **رجما بالغيب**، أخيرا، بل الذي قال بعد قوله:

[1] ك - لم.
[2] هذه الجملة خبر "أن يكون".
[3] ش ن ر ك: هم الأكثر وبمن، والمثبت من م.
[4] ش ن ر ك: فالقريق، والمثبت من م.
[5] جميع النسخ - من، والمثبت من م.
[6] ك ن: أن يكون.

رجما بالغيب، كان يعلم. ولو كان الجميع لا يَعلم لم يكن في هذا التقسيم فائدةٌ ولو كان ذكره لغوا، إذ في قوله: **ما يعلمهم إلا قليل**، كفاية. فافقه ذلك وافقه ما يحتمله الكلام من قوله: **ما يعلمهم**، أي من هذا الكلام المنزَّل ما يعلمهم في مستقبل الزمان إلا قليل، وإلا إذا كان لا تعلق للآتين بما علمه سائر الماضين فلا فائدة في الإخبار. ولهذا لم يقل: "ما عَلِمَهم" بل بلفظ صالح للماضي والمستقبل. والعلم لا يكون إلا نقلا أو عقلا؛ فالنقل لا يقوم عليه دليل، ولهذا لم تظهر صحته إلى الآن، والعقل لا يعلم الغيب. وإنما يعلم مما جاء من الغيب وهو القرآن ما دله الله عليه وجعل استنباط علمه إليه. ولمّا كان تحقُّق العدة لا فائدة فيه للمؤمنين، إذ لا فرق بين أن قد كانوا سبعةً أو تسعة أو غيرَ ذلك، ولا للكفار أيضا فيه فائدة، إذ هو مجردُ دعوًى وهم يكذّبون الآتي بها وبما معها لم يصرح النصُّ بذلك. بل فَهِم العالم أن القائل سبحانه قد أنزل كلامه على صورة محكَمة في البيان والدلالة، يلزم عنها فهمُ ما أودعه فيها من ذكر العدة التي لم يعرض بذكرها ذكر اختلاف القائلين فيها إلا إعلاما بها للقليل من الناس، ولكن على صورة اللغز[1] الذي يَتوصل إلى العلم به من سائر الناس قليلٌ من كثير منهم؛ ويكون القصد نفس العلم لا المعلوم، إذ لو كان المعلوم هو القصد ههنا لَمَا جاز إلا التصريح به. فافقه ذلك فهو أولى ما فُهم. والله أعلم بكلامه وأقدر من عباده على الدلالة على مراده بقِسْم من أقسامه.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله. تقديره أن يشاء ذلك: أن تقول، لأن المتقدم، **ولا تقولن**، فيكون المتأخر المضمَر مفهوما بالمتقدم المظهر. كما
[٢٥٠و] لو قلت: لا تصومَنّ إلا أن يشاء الله، أي / أن تصوم ولا تأكلن إلا أن يشاء الله، أي أن[2] تأكل. ولا يحسن أن يكون تقدير الكلام ولا تأكُلَنّ إلا أن يشاء الله[3] أن تسافر، بل لو قال: لا تُسافِرَنّ إلا أن يشاء الله لكان تقديره أن تسافر، لأنه قدم بأنه به تكون الدلالة على ما أخّر. فافقه هذا جيدا لئلا تضل في هذه وأمثالها. فإذا فهمت ذلك فاعلم

---

[1] ش: على صورة العلم.
[2] ن – أن.
[3] ش – أي أن تأكل ولا يحسن أن يكون تقدير الكلام ولا تأكلن إلا أن يشاء الله.

أن هذه الآية إنما أتت في وسط قصة أهل الكهف لتعلق معناها بأهل الكهف. فهذا الخطاب خاص بالنبي عليه السلام في واقعة مخصَّصة بأهل الكهف. والمفهوم منها هو ما روي أنه عليه السلام كان سُئل عن قصتهم فوعد أنه غدا يقول،[1] وذلك[2] ثقة منه بربه سبحانه وتعالى. فصدقه الله في ذلك وعلّمه بقوله: نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ.[3] ونهاه أن يقول عن شيء: "غدا أنا فاعل" إلا أن يشاء الله أن يقول ذلك، وهذا نهي عن القول فلا يكون دليلا على عدم القدرة المخلوقة للعبد، بل هو دليل على القدرة على أن يقول. ولهذا نهى عما هو[4] قادر على قوله.

ولهذا بعده: **واذكر ربك، وقل**. ولهذا غيّر اللفظ فقال: **أنْ**، بفتح الهمزة، وقال: **يشاء**، بزيادة الياء، فهذا خاص بالنبي عليه السلام. وسباق الكلام وسياقه شاهد بذلك، فلا جائزٌ أن يُفهَم من هذا الموضع ما يُفهَم من الاستثناء المذكور في آخر سورة الفتح،[5] إذ لا تعلق له به من هذا النص وإن كان الاستثناء بقوله:[6] إِن شَاءَ اللَّهُ،[7] واجبا في كل موطن مما هو مثل هذا وغيره. فافهم ذلك ولا تخرج بلفظ المشيئة إلى ما يلزم الجبر. فالمجبَر لا يؤمر ولا يُنهى. فهذا حكمة إتيان هذه الآية في وسط قصة أهل الكهف. ولهذا بعد ذلك: **واذكر ربك إذا نسيت**، ليكون الأمر بالذكر عامّا عند كل نسيان. **وقل عسىٰ أن يهدين ربي لِأَقرَبَ مِن هٰذا**، الذي قد نسيته،[8] **رَشَدا**، أي إلى أقرب منه فيما يرشدني، فيكون المقصود الرشدَ وإن لم يكن بالشيء المعين المُنْبِئ. ولو قلنا: إن مراد الآية[9] تعليم الاستثناء والأمر به لم يكن في ذلك حجة للجبرية. بل يكون المعنى ولا تقولن لشيء: إني فاعل ذلك غدا، أي لا تجزم بهذا ومثله إلا وتقول: أن يشاء الله، فحذف "تقول" التي هي بمعنى الأمر ودل عليها بما يجب أن يقول، وكونه قدَّم "ولا تقل" عُلِمَ من ذلك ما معناه، بل قل: أن يشاء الله. ويكون معنى قوله:

---

[1] وذلك أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الرُّوح فقال: أخبركم غدًا ولم يقل: إن شاء الله، فلبث الوحيُ أيّامًا ثم نزلت هذه الآية (اللباب لابن عادل، ١٢/٤٥٨، ٥٥٣).

[2] ن: ذلك.

[3] الآية ١٣ من هذه السورة.

[4] أي الله تعالى.

[5] ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ (سورة الفتح، ٤٨/٢٧).

[6] ش ك: بقولك.

[7] وهذه العبارة ذكرت في مواضع كثيرة، منها ما ورد في سورة البقرة، ٢/٧٠؛ وسورة يوسف، ١٢/٩٩؛ وسورة الكهف، ١٨/٦٩؛ وسورة القصص، ٢٨/٢٧.

[8] ش – الذي قد نسيته.

[9] جميع النسخ: المراد الآية، والمثبت من م.

واذكر ربك إذا نسيت، أي إذا نسيت الاستثناء فاذكر ربك مستغفرا؛ وهذا كقوله: وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ.[١] ولمّا كان نسيان الاستغفار مخالفةً علّمه ههنا الذكر الذي هو ههنا الاستغفار عن[٢] النسيان، ويكون قوله: **عسىٰ أن يهدين ربى**، وتمامه أمرا بترك الشيء الذي لم يقارنه الاستثناء والإعراضِ عنه إلى ما يهدي الله إليه. ولفظ القرآن أدل على المعنى الأول. والله أعلم.

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ۝٢٥﴾

ولبثوا فى كهفهم ثلٰث مائة سنين وازدادوا تسعا، ولم يقل: ثلاثمائة وتسعا، لينبّه على أن اللبث كان ثلاثَمائة، فلمّا بُعثوا ازدادوا تسعا بعد البعث. ولولا أن الله تعالى أعثر عليهم لم يَعلم بهم أحدٌ، إذ فائدة بعثهم هو ليعلم الناس صحة البعث. فلو أنهم لم يروا أحياء لم تَحصل[٣] الفائدة؛ ولَأَنْ يراهم الكثير من الناس أولى من أن يراهم القليل ليكون الأمر بالكثير أولى بالتحقيق المعروف بالاستفاضة وأبعدَ عن التقليد الموقِع في الظن والشك. ولا يكون هذا إلا في زمن طويل.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦﴾

وقوله: **قل الله أعلم بما لبثوا**، هذا جواب لمن أنكر ذلك وادَّعى غيره. ثم قال: **له غيب السمٰوٰت والأرض**، أي له علم غيبَيْن ومن له ذلك فهو أحق أن يُسنَد إليه علمُ ما غاب عنا. **أبصر به وأسمع**، تقول العرب كذلك بمعنى ما أبصره وما أسمعه، والكلام عن الله سبحانه. ثم عطف على قوله: وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ،[٤] والكلام يعود إلى قوله: وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا،[٥] فقال: **ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا**.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧﴾

ثم نسق على قوله: قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ،[٦] [قوله:] **واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلمٰته**، إشارة إلى أنها لا تُنسَخ فتبدَّل كما بُدِّلت التوراة والأنجيل بها، فافقه هذا جيدا.

---

١ سورة آل عمران، ١٣٥/٣.
٢ ن - الاستغفار عن.
٣ ك ن: لم يحصل.
٤ الآية ٢٢ من هذه السورة.
٥ الآية ٤ من هذه السورة.
٦ من الآية السابقة.

[٢٥٠ظ] ثم نسق على قوله: مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ / مِن وَلِيٍّ،[١] [قوله:] **ولن تجد من دونه ملتحدا**، اسم المكان الذي يُتَّخَذ فيه الملتحد تشبيها باللحد الذي يُخفي الميتَ. وأخّر الجملة للوِزان. وجعل الخطاب له وإن كان المراد كل سامع، وهو كقوله بعده:

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾﴾

واصبر نفسك، هي منصوبة على فقدان الخافض، وتقدير[٢] القول واصبر في نفسك. وحكمته أنه لمّا كان الشخص قد يصير على عمل الشيء وهو كاره له أو مُكرَه وهو في نفسه غير صابر وإن كان في الظاهر صابرا نبّهَنا الله تعالى على أن الصبر يجب أن يكون في نفس الصابر باطنا، ولا يكون ذلك إلا مع قوة الإيمان بالله وتحقق الجزاء على الصبر، ولهذا خاطب الله به رسوله عليه السلام. **مع الذين يدعون ربهم بالغدوٰة والعشى يريدون وجهه**، بالأقوال والأفعال والدعاء من بعض صفاتهم فهو علامة دالة عليهم. وهذا تنبيه بالغ على الصاحب الصالح ندب إليه [من هو] أشرف، وكفى بذلك. وقوله: **ولا تَعْدُ عيناك عنهم**، دليل على أن لا طريق إلى الله إلا مع هؤلاء، إذ لا أشرفَ من الرسول وقد أُمر بهذا الأمر، كما تقول: اجعل هذا نَصْب عينك، أي لا تلتفت إلى غيره، **تريد زينة الحيوٰة الدنيا؛ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا**، عقابا له، **واتبع هوٰه وكان أمره فُرُطا**، معناه من التفريط الذي هو تضييع الواجب وإهمال الضروري. **وفرطا**، بضم الفاء والراء للفرق بينها وبين المصدر المفتوحِ الفاءِ الساكنِ الراءِ من فَرَط العقد يَفرُط فَرْطا،[٣] والأصل في المعنى واحد، يقال على الصور ويستعار للمعاني. والفرق بين الاسم والمصدر يُفهَم بالقياس في قولك: أكل يأكل أكلا والاسم الأُكُل، كقوله: أُكُلُهَا دَآئِمٞ.[٤]

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

---

١ من الآية السابقة.

٢ ك ن: تقديره.

٣ فَرَط في الأمر يَفرُط فَرْطا: أي قصّر فيه وضيّعه حتى فات (لسان العرب، « فرط»).

٤ ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَا﴾ (سورة الرعد، ٣٥/١٣).

وقل الحق، تقديره وقل: هذا هو الحق، **من ربكم**، يشير إلى القرآن المتلوّ بقوله قبلُ: وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ.[١] **وقل**، ولهذا جاءت لفظة "الحق" مرفوعة غير منصوبة. ثم أخبر عن الناس أجمعين بقوله: **فمن شاء فليؤمن**، بما تتلوه،[٢] **ومن شاء فليكفر**. ولمّا كان الإخبار عن أهل الكهف هو من جملة القرآن كان التخصيص من أجلهم بمشيئة الكفر والإيمان. وجاء الكلام مطلقا ليَعُمّ[٣] سائر الناس في سائر الأزمان. وهذا تصريح بالغ بأن الله تعالى شاء أن يكون للإنسان مشيئةٌ إن شاء الإنسان أن يَكْفر كفر بمشيئة نفسه التي هي شاء الله أن تكون له، وإن شاء أن يؤمن آمن. ولولا ذلك لَمَا جاز أن يقول بعده: **إنا أعتدنا للظّلمين**، أي الذين ظلموا أنفسهم بمشيئتهم الكفر وكذّبوا الحق من ربك. **نارا أحاط بهم سرادقها**. السرادق هي[٤] الشُّقَّة المحيطة بالخيمة أو الحائطُ الثاني المحيط بحائط الدار. **وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل**، هو النحاس الذائب حين يكون في النار. وإنما شَبّه به دون غيره لأنه يَحفظ الحرارة أكثر من سائر الأجساد. **يَشْوِي الوجوهَ، بئس الشرابُ وساءت**، السرادق[٥] **مرتفقا**، وهو المكان الذي يكون به الرفق بالشخص. والمعنى [أنهم] إذا اشتد عليهم السعير خرجوا إلى السرادق ليرتفقوا فيه مستغيثين من العطش فأُغِيثوا بالمُهْل بئس الشراب، يعني مع كونه حارا في مرتَفَق محيط بهم لا يخرجون منه أبدا.

ولمّا ذكر حال الظالمين الذين[٦] ظلموا أنفسهم بمشيئتهم الكفر ذَكَر قبالتَه حالَ المؤمنين الذين أفلحوا بتزكية أنفسهم إذا شاءوا الإيمان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾﴾

أولٰئك لهم جنّٰت عدن تجرى من تحتهم الأنهٰر يحلون فيها مِن، لتبيين[٧] الجنس، **أَسَاوِرَ مِن**، للتّبعيض، **ذَهَبٍ**، ذَكَر النوع من الحُليّ الذي يليق بالمؤمنات ليرغّبهن في الإيمان

---

١ الآية ٢٧ من هذه السورة.

٢ ك ن: بما يتلوه.

٣ ك: ليقم.

٤ ن – هي.

٥ ش – السرادق، صح هـ.

٦ ن – الذين.

٧ ن: لتبين.

وإن كان ذلك يَحسن بالمؤمنين، لأنه من ملابس ملوك الأعاجم. فذكره ليكون الترغيب عامًا لمن يؤمن ويعمل صالحا من ذكر أو أنثى. **وأساور**، جمع سِوَار، وهو جمعٌ غريب أوجبه الاشتراك في أصله. فمنه سُور، وأَسْوار، وسُورة، وسُوَر القرآن. ونقول:[1] هذا الخلط له سُورَة قوية، والجمع سُورَات. فلهذا امتاز هذا الاسمُ بهذه الصيغة في فُرَاده وجَمْعِه. **ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك**، جمع

[٢٥١و] أريكة وهي / سَرير معمول من خشب الأراك. مَثّل بها لطِيبِ رائحته، وهو[2] كقولك: سَبيكة وسبائك. ولمّا قدم قوله عن أهل النار: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾،[3] قال عن أهل الجنة: **نعم الثواب وحسنت مرتفقا**، إشارةً إلى أن هذا العطاء ثواب عملهم، كما كان ذلك العقابُ جزاءَ عملِهم الذي هو بمشيئتهم اختيارا لا بمشيئتنا إجبارا. وبيّن أن هذا مثل بقوله بعده:

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾

واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين، أي ولم نجعل[4] للآخر شيئا، **من أعنٰب وحففنٰهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا**.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾

وكان له، لصاحب الجنتين، **ثمر**، كثيرة قد اجتمعت. ويقال بفتح الثاء فيكون جمع ثمرة، وبضمها فيراد به التكثير والمباينة، وبالفتح يطلق على ثمر من جنس واحد وإن عبّر به عن أكثر. وثِمار جمع الجمع، وللمبالغة أثمار.[5] **فقال لصٰحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا**.

---

١ ك: وتقول.

٢ ش: وهي.

٣ الآية ٢٩ من هذه السورة.

٤ ن: ولم يجعل.

٥ قرأ عاصم وأبو جعفر ويعقوب بفتح الثاء والميم، وأبو عمر بضم الثاء وإسكان الميم، والباقون بضم الثاء والميم (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٣٦٦؛ والبدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ١٩٢).

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾

ودخل جنته، أي الواحدةَ، لأن الداخل لا يُمكنه الدخولُ إلا إلى واحدة بعد واحدة، فلهذا لم يقل: جَنَّتَيْه، **وهو ظالم لنفسه**، بسوء مشيئته لنفسه وحسْنِ ظنه بها واعتقاده أنه على الحق. **قال ما أظن أن تبيد هٰذه أبدا**، أي زعم ذلك في نفسه وبلسانه. **وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلىٰ ربي لأجدن خيرا منها منقلبا**، أي إنه لم يرَ أن ما أُوتِيَهُ في الدنيا كان ابتلاء بل جزاءً.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾

قال له صاحبه، الفقير، **وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا**. هذا برهان يردّ به على صاحبه لما جحد البعث بقوله: وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً،[1] إذ كل ما تلاه عليه بَعْثٌ. **لٰكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا**. قوله: "لكن" مشددة النون. فلمّا أُشبعت الشدةُ كتبها الأوائل بالألف، لأنهم كانوا يجعلون موضع فتحة أَلِفًا، فبقي في رسم المصحف ولم يغيَّر دلالةً على صحة النقل وأمانة الضابط. ويحتمل أن يكون المقصود لكنْ أنا، فأُدغمت الألف وجعل موضعها الشدةُ. ولمّا كان الشدة على نون أسقط تكرارها. ولهذا أَفرد الكلام بعده فقال: **هو الله ربي**، الآية.

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١﴾

وقوله: **ولولا**، وهلا، **إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله**، أي ما شاء لك أن تقوله،[2] وفسره بقوله: **لا قوة إلا بالله**، لأن هذا رد على قوله: مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦ،[3] تنبيها له أنه[4] ما ينبغي للعاقل أن يتقوّى على غيره بماله وجاهه، لأنه ربما ذهب وزال. وإنما يجب أن يتقوّى بالله، لأنه القوي العزيز الدائم. **إنْ**، شرطية، **ترَنِ أنا أقل منك مالا وولدا**،

---

[1] من الآية السابقة.
[2] شر ك: أن نقوله.
[3] الآية ٣٥ من هذه السورة.
[4] ش: له أن.

وجواب الشرط، **فعسىٰ ربي أن يؤتينِ خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء.** سياق الكلام يُفهَم منه[1] أن حُسبانا سَحْبان[2] وبذلك يتم المعنى. ويدلك على ذلك قوله: **فتصبح صعيدا زلقا.** لكنه أراد أن يفيدنا معنى آخر فقال: حُسْبانا[3] الذي هو مشتق من الحساب ليَنبِّهَنا على أن تلك السَّحبان إنما هو[4] بحسبان، كقوله: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾،[5] أي بحساب، وهي مثل[6] رُجْحان ونُقْصان، وليست مثل شُهبان ورُكبان وقُضبان ورُهبان.[7] وأما حسبان فهي في حقيقة اللغة المَرامي، أصلها السهام يرمى[8] بها في طَلَق[9] واحد، وهذا الإنباء فيما تقدم. وقوله: **أو يصبح ماؤها غورا**، أي قد غار في غور.[10] **فلن تستطيع له طلبا.**

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾

وأحيط بثمره، أي أحيط في الذهاب والهلاك فلم يبق منه شيء. **فأصبح يقلب كفيه علىٰ ما أنفق فيها**، من[11] عمره وملكه، لأن الجنة التي مَثّل بها هي الدنيا، والثانية هي الجنة في الأخرى،[12] وهذا محتمل من اللفظ وإن كان المَثَل قائما بنفسه. ومن عادة[13] الذي يفوته الشيء ويَذهب منه أن يَفْرُك يديه مقلّبا لهما واحدةٌ فوق ظَهرِ الأخرى تقليبَ[14] متأسفٍ متندمٍ على ما فاته. وقوله: **وهي خاوية علىٰ عروشها**، بيّناه في مثله

[1] ن – منه.

[2] السَّحْبُ جَرُّك الشيءَ على وجه الأرض كالثوب وغيره... ورجل سَحْبانٌ أي جُرافٌ يَجْرُف كُلَّ ما مَرَّ به وبه سُمِّيَ سَحْبان (لسان العرب، «سحب»).

[3] الحُسْبانُ الحِسابُ... وقال الزجاج ﴿بِحُسۡبَانٖ﴾ يدل على عَدَد الشهور والسنين وجميع الأوقات. وقال الأخفش في قوله تعالى ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗا﴾ معناه بِحِسابٍ فحذَف الباءَ (لسان العرب، «حسب»).

[4] ش + إنما.

[5] سورة الرحمٰن، ٥٥/٥.

[6] ن – مثل.

[7] لأن الحُسبان والرجحان والنقصان كل منها على صيغة المفرد؛ وشهبان جمع شهاب، وركبان جمع راكب، وقضبان جمع قضيب، ورهبان جمع راهب.

[8] ن: ويرمى.

[9] يقال: عَدا الفرس طَلَقًا أَو طَلَقين، أي شوطا أَو شوطين. والطَّلَق الشوط الواحد في جري الخيل (لسان العرب، «طلق»).

[10] الغَوْر: القَعْر من كل شيء وعُمْقُه وبُعدُه (تاج العروس للزبيدي، «غور»).

[11] ش ك – من.

[12] ن: في الآخرة.

[13] ك: ومن عاده.

[14] ك: تعليب.

في سورة الحج.[١] ويحتمل خاويةٌ من التمر / على وجود عروشها، لأن النص صرح [٢٥١ظ] بذهاب الثمر في قوله: **وأحيط بثمره**، ولم يقل: بشجره. فافهم ثمرة الحياة ما هي في الدنيا، واحذر من حبوط الأعمال فيها لئلا تكون ممن يقلِّب كفيه. **ويقول يٰليتنى لم أشرك بربى أحدا**. ويدلك على أن ذلك يقوله[٢] في الآخرة عند كشف الغطاء قوله: **ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا**، من نفسه.

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

ثم أتبعه مبينا لِما قلناه بقوله: **هنالك الولٰية لله الحقِّ**، ولغيره الباطل. والمعنى هنالك في الآخرة تكون الموالاة لله هي الحق. ورفع "الحق" ههنا على الخبر.[٣] ثم قال: **هو**، أي لا شركاؤه، بل، **هو خير ثوابا وخير عقبا**، أي التولي له يحصل عنه خيرُ ثوابٍ، وعقبى العمل معه خيرُ عقبى، وليس كعقبى مَن أحيط بثمره. وعقبى بالياء مثل زُلفىً وأخرى وإن كتبت بالألف، وأصلها عُقْبَة فحذفت الهاء وعوضت بياء لينة مثل قُرْبَى وقُرْبَة وحركة القاف[٤] من أجل وِزان القرائن.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

ولمّا ضرب المَثل الأول[٥] حققه بعده بما دل على ما قصده أولا بالمثل، فقال مبينا: **واضرب لهم مثل الحيوٰة الدنيا**، تقديره: أيضا، **كماء أنزلنٰه من السماء فاختلط به نبات الأرض**. الباء في "به" باء السبب. **فأصبح**، من بعد ذلك بمدة مّا، **هشيما تذروه الريٰح**، بعد ما كان كثيفا نَضِرا قد اختلط بعضُه ببعض وتداخل من خصبه وزيّه.[٦] ثم أشار بقوله[٧] مجملا: **وكان الله علىٰ كل شيء مقتدرا**، إلى قدرته على إذهاب الدنيا وما فيها من سائر الفاني، وعلى إعطائه أضعاف ذلك من الباقي، لأن المقتدر على كل شيء مقتدرٌ على الضدين.

---

١ ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ (سورة الحج، ٢٢/٤٥).

٢ جميع النسخ: بقوله، والمثبت من م.

٣ قرأ أبو عمرو والكسائي برفع الحق والباقون بالجرّ (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٣٦٧).

٤ العُقْب والعُقُب: العاقبة، مثل عُسْر وعُسُر. ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي عاقبة (لسان العرب، «عقب»).

٥ أي بالآية ٣٢ وما بعدها من هذه السورة.

٦ ش ك: من خصبه وريه. | الزِّيّ: الهيئة (لسان العرب، «زيا»).

٧ ن: قوله.

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾﴾

ولما كان قد ذكر الدنيا وأنها زينة ذاهبة، وذكر المحبوبات فيها وأنها كذلك فانية؛ ثم ذكر من قدرته ما يوجب للعاقل أن يطلب الأمورَ الباقية، لأنها هي التي يجب أن تُرَجَّى وتُؤَمَّل؛ ثم فصل ما ذكره أولا وذكر أقرب الأشياء إلى المرء، وهو ما يعتمد عليه أكثر الناس فقال: **المال والبنون زينة الحيوٰة الدنيا والبٰقيٰت**، التي هي، **الصٰلحٰت**، من الأعمال، **خير عند ربك ثوابا وخير أملا**؛ إذ الإنسان يؤمّل أن ينتفع بماله أو بولده. فعرّفه أن عمله خير له من أعز الأشياء وأقربها إليه، لأن بيْن يديه هول القيامة فقال: **ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة**. أما تسيير الجبال كقوله: تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ؛[1] وكقوله: وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ،[2] إشارةٌ إلى يومٍ ناره تُكلّس[3] الجبال من حرها وتَنسفها الرياحُ فيسيِّرها كما تَسير الغُيومُ.[4] وقوله: **بارزةً**، كقوله: وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا.[5] وإنما قال: **بارزة**، ولم يقل: مُبْرَزَة، لأن الموتى قد صار أكثرهم ترابا. فإذا برزوا من الأرض إنما يَبرز ترابُهم وأَرَضِيّهم. فلهذا تُرى الأرض في نفسها بارزة. ولهذا بعده: **وحشرنٰهم فلم نُغادر**، نترك، **منهم أحدا**.

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴿٤٨﴾﴾

وعرضوا علىٰ ربك صفا، إشارة إلى عظم الموقف من أنهم وإن كثروا فهم صف واحد. وقوله: **لقد جئتمونا كما خلقنٰكم أول مرة**، هو إثبات لصدقه، وتكذيب لهم وتبيينُ أن ذلك أمر سهل مثل أول مرة، كقوله: كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ.[6] ولهذا أتبعه بقوله: **بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا**.

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾

---

١ ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ (سورة النمل، ٨٨/٢٧).

٢ سورة المرسلات، ١٠/٧٧.

٣ التكليس التمليس [الطلي بالكلس] (لسان العرب، «كلس»).

٤ الغَيْم السحاب، وقيل: هو أن لا ترى شمسا من شدة الدَّجْن، وجمعه غيوم (لسان العرب، «غيم»).

٥ سورة الزلزال، ٢/٩٩.

٦ سورة الأنبياء، ١٠٤/٢١.

ووضع الكتٰب، الذي كتبته الملائكة الحَفَظَة في حياتهم من الحسنات والسيئات، كقوله: وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ.[١] **فترى المجرمين مشفقين مما فيه**، مشفقين على أنفسهم خائفين حَذِرِين. **ويقولون يٰويلتنا مال هٰذا الكتٰب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة**، أي[٢] من خطايانا، **إلا أحصٰها**. وهذا يبين المراد بقوله عليه السلام: «إن لله تسعةً وتسعين اسما مَن أحصاها دخل الجنة»،[٣] أي جمعها اتصافا بها. **ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا.**

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾

وإذ قلنا للملٰئكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس. أتى بهذه القصة ههنا ليخوّفَنا كي لا نعصي كما عصى إبليس وكيلا نَتبعَه[٤] فنَحزنَ، ونشفق[٥] إذا اتخذناه أو اتخذنا ذريته أولياء بعد ما قد ثبتت العداوة. / فعرّفَنا قِدمَ العداوة وأن ذلك إنما يَظهر [٢٥٢و] لنا في ذلك اليوم الذي فيه تُوضَع الكتب. والمراد بذريته شياطين الإنس والجن مما يوسوس في الصدور، أو يماثل في سائر الأمور. ولهذا نهانا أن نتخذ منهم أولياء وأصدقاء. فإنما يضل الشخص بوليه وقرينه. قال الله تعالى: وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ،[٦] وكقوله: وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم.[٧] وأخبر أن إبليس، **كان من الجن ففسق عن**، اتباع، **أمر ربه. أفتتخذونه وذريته**، أي ما يتولد منه وينسب إليه،[٨] **أولياء من دوني وهم لكم عدو، بئس للظٰلمين بدلا**. قال عن الأولياء: **ما أشهدتهم خلق السمٰوٰت والأرض**، فكيف تُشركون بهم، **ولا خَلْقَ أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا.**

١ ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (سورة الزخرف، ٨٠/٤٣).

٢ ش - أي.

٣ سنن ابن ماجه، الدعاء ١٠؛ وسنن الترمذي، الدعوات ٨٢.

٤ ن + فنحزن.

٥ ك: فنحزن ونشفق. وفي هامش ك: فنخون.

٦ سورة الزخرف، ٣٦/٤٣.

٧ ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ (سورة فصلت، ٢٥/٤١).

٨ ش - أي ما يتولد منه وينسب إليه، صح هـ.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾

ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم، أي مستغيثين بهم لكشف ضرِّهم. **فدعوهم**، أي دعا المشركون شركاءهم، **فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم مَوْبقا**، مَهْلِكا، من قوله: أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا،[1] أي يهلكهن.

﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

ورءا المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها، المواقعة هي المفاعلة من وقع يقع. والمعنى المغالبة في الوقوع فيها والهربِ منها، وكوقوعهم عليها ووقوعها عليهم. **ولم يجدوا عنها مصرفا**، مكانا ينصرفون عنها إليه.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾

ولقد صرفنا فى هٰذا القرءان، قدَّم القرآنَ للاهتمام به،[2] ثم قال: **للناس من كل مثل وكان الإنسٰن أكثر شيء جدلا**.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾

لفظة "ما" في قوله: **وما منع الناس**، استفهام لا نفي، كقوله: وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ.[3] وتقديره: فهم لا يؤمنون إلا أن تأتيهم سنةُ الأولين من الإهلاك، أو أن يأتيهم العذاب من عند الله حين تتوفاهم الملائكة قبل[4] أن تأتيهم سنة الأولين قُبُلا. و[يكون] المعنى: "مقابلا لهم". وغيّر للوزان. يقال: رأيته قُبُلًا وقِبَلًا، أي مقابلة وعيانا. وفي العين القَبَل هو إقبال سواد العين إلى الأنف كأنه ينظر إلى طرفِ أنفه.[5]

---

١ ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ (سورة الشورى، ٤٢/٣٣-٣٤).

٢ يشير المؤلف رحمه الله بقوله هذا إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٨٩).

٣ ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ (سورة النساء، ٣٩/٤).

٤ ش – من الإهلاك أو أن يأتيهم العذاب من عند الله حين تتوفاهم الملائكة قبل.

٥ كتاب العين للخليل بن أحمد، «قبل».

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ٥٦﴾

وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين. ويجٰدل الذين كفروا بالبٰطل ليدحضوا به الحق، مضموم الياء، هو فعل مستقبل رباعي من أدحض يدحض، وهو أبلغ من دَحَض يَدحَض الثلاثي، لأن "أدحَض"[1] يتعدى إلى مفعولين وهو أن يوجب لغيره أن يَدْحض الحق وأن يوجب لغيره ذلك إلا وقد دحضه هو أولا. فلهذا كان هذا اللفظ أبلغ. **واتخذوا ءايٰتى وما**، الذي، **أنذروا**، أي به **هُزُوا**، بضم الهاء والزاء، مشتق من قولك: هَزِئَ يَهْزَأُ هَزْءاً بفتح الهاء وسكون الزاء في المصدر ورفع الهاء في الاسم ليمتاز عن المصدر كالأَكْل في المصدر والأُكُل في الاسم. وحرّكتِ الزاء لأجل أواخر الآي.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧﴾

ومن أظلم ممن ذكر بـٔايٰت ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه، إنا جعلنا علىٰ قلوبهم أكنة،[2] من الكِنّ، وهي جمع الأَكنّ أَكِنَّة مثل الأعز والأَعِزَّة، وهي في المعنى أبلغ من معنى الستور،[3] ولذلك لم يقل: أَسْتارا، لأن الأستار قد تَستر[4] ولا تَكِنّ. وقوله: **أن يفقهوه**، ولم يقل: يقرؤوه، لأن المقصود إنما هو فقهُ معانيه. ولهذا أتبعه بقوله: **وفى ءاذانهم وقرا. وإن تدعهم إلى الهدىٰ فلن يهتدوا إذا أبدا**. فانظر إلى هذا العقاب الهائل واستعذ بالله. فكثير من الناس الآن معاقَبون به.

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ٥٨﴾

وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم، في الدنيا، **بما كسبوا لعجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا**، مرجعا، مآلهم ورجوعهم إليه، فهو اسم الموضع الذي يُجازَوْن فيه حين يَرجعون ولا موئلَ لهم دونه.

---

[1] جميع النسخ: دحض.
[2] ش + أن يفقهوه.
[3] جميع النسخ: السور، والمثبت من م.
[4] ش ك: قد تستمر.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

وتلك القرىٰ أهلكنٰهم لمّا ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا، المُهْلَك مفعول من أَهْلَكَ يُهلك فهو مُهلِك ومُهْلَك بفتح اللام.[1]

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾

وإذ قال موسىٰ لفتٰه، معطوف على [قوله:] وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ،[2] **لا أبرح حتىٰ أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا**، جمعه حقاب.[3] ويقال: إنه[4] نيّف وثمانون سنةً. **ومجمع البحرين**، يعني الحُلْو والمالح. فإن الماء الكثير يُسمَّى بحرا، فهو يشير إلى مكان بعيد فيه مجمع مائين معروف عنده وعند / فتاه ليفتّش على عالِم يفيده ويعلّمه، فافقه ذلك. [٢٥٢ظ]
فهذا الذي طاف من بقاع الأرض ما شاء الله هذا كان همّه، بدليل قوله: ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ،[5] ولمثل هذا المقصود تكون السِّياحة.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾

فلما بلغا مجمع بينهما، مكسورة النون للإضافة، **نسيا حوتهما**، قرأ بعضهم "نسي[6] حوتهما" إشارة إلى الفتى فقط، واحتج بقوله أخيرا: فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ.[7] والعرب تقول[8] عن الجماعة: نَسُوا زادهم، وإنما ينساه متعهد الزاد. وأيضا فإنه متى لم يذكر المتعهد غيره فقد نسي أيضا. وهو الحوت تزوّداه إذ لم يكن لهما ما يأكلانه في تلك الأماكن سوى ما هو من طعام البحر. **فاتخذ سبيله في البحر سَرَبا**، مصدر وتحريك الراء لأجل وِزان القرائن. وهو من قولك: سَرَب يَسرُب سَرْبا إذا دخل في سَراب، وهو السِّرْداب[9] الذي يُكْتَنّ[10] فيه، والاسم سِرب بكسر السين. والأولى أن أصل اللفظة من سَرَب الفحل

---

[1] "لمهلكهم": قرأ شعبة بفتح الميم واللام وحفص بفتح الميم وكسر اللام والباقون بضم الميم وفتح اللام (البدور الزاهرة البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ١٩٤).
[2] الآية ٥٠ من هذه السورة.
[3] ش: جمع حقيب؛ ك ن: جمع حقب.
[4] ن – إنه.
[5] الآية ٦٤ من هذه السورة.
[6] لم أعثر على هذه القراءة فيما بين يدي من المصادر المعتبرة.
[7] الآية ٦٣ من هذه السورة.
[8] ك: يقول.
[9] السرداب: بناء تحت الأرض للصيف (تاج العروس للزبيدي، «سردب»).
[10] ش: يكن.

يَسرُب سَرْبا إذا توجه للمرعى، وحركة الراء للوِزان. فاتخذت الحوت توجها في الماء كسبيله في الحياة أولا.

فإن قيل: إنما نسي فتى موسى فكيف قال: **نسيا**؟ فالجواب أن فتى موسى نسي ثانيا أن يُذكِّر قصةَ الحوت لموسى. وأما قوله أولا: **نسيا**، فالجواب أنه أراد كليهما عند الإيواء إلى الصخرة حين الراحة لم يَذْكُرْ أحدهما لصاحبه[1] الحوتَ حتى يأكلاه إشارةً إلى أنهما من شدة حرصهما وقوة طلبهما وعظمِ اجتهادهما في الظفر بما تقوم[2] به الأرواحُ في المعاد نَسِيَا ما تَقوم به الأجسادُ من الزاد. فَلِنِسْيان أنفسهما من الأكل نسيا المأكول كلاهما. فهذا[3] معنى النسيان منهما معا، ولم يكن ذلك من الشيطان. وأما النسيان الذي كان من الفتى بمفرده، وهو أن يَذْكُرَ لسيده ما جرى من الحوت، فذلك من الشيطان، إذ هذه هي[4] صفته. وانظر إلى أدب هذا الغلام مع سيده حتى إنه لم يذكر الغداء إلا بعد أن ذكر السيدُ له بقوله: **فلما جاوزا**، مجمع البحرين ولم يعلما بذلك، وهو مُشعر بأنهما عَبَرا في ماء إلى ناحية أخرى من البر، كقوله: وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ.[5] فلمّا وصلا مجمع البحرين وجاوزاه، **قال لفتىٰه ءاتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هٰذا نصبا**، تعبا، وأصله من الانتصاب للمشي أو القيام.

﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣﴾

أوينا، فعل لازمٌ. وقوله: **نسيت**، وتمامُه تصريح بأن بعض الأمور عائدة إلى الإنسان وإلى شيطانه. والمعنى أنساني أن أذكر ما جرى للحوت من عجب وإلا لكفى قوله: **نسيت الحوت**. فلمّا سمع موسى ما دله على ماءٍ يحيي الميت.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾

قال ذٰلك ما كنا نبغ، من سفرنا. **فارتدا علىٰ ءاثارهما قصصا**، أي ذلك الذي جرى للحوت من الحياة هو ما كنا نبغي لأنفسنا أي ما يحيى به الموتى، وهو إشارة إلى علم

١ ش – لصاحبه.
٢ ن: بما تقدم.
٣ ن – فهذا.
٤ ك ن – هي.
٥ سورة الأعراف، ١٣٨/٧.

تحيى به القلوبُ الميتةُ وعالمٍ كالبحر. وأما في ظاهر الكلام فقوله: **ذلك ما كنا نبغ،** هو إشارة إلى، **مجمع البحرين،** لقوله أولا: لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ.[1] وقيل:[2] الكلام ههنا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا،[3] أي ولم يعلما.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

وقوله: **فوجدا عبدا من عبادنا ءاتينٰه رحمة من عندنا،** لفظة "عندنا" مخصوصة بالذات، وهذا هو الفرق بينهما وبين: وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ،[4] أي عنده. ومجمع البحرين العجيبُ هو الجمع بين العلم والعمل. والمراد منهما[5] النتيجة الحاصلة عن جمعهما.[6] فإن آخر الكلام دل على أن موسى إنما قَصد المكان من أجل من به، وذلك ليتعلم. فإن كان إنما قصد لغير ذلك فلما وجد ذلك ترك قصده الذي أراد مثله أن يمضي لبلوغه. "ولو جُعْنا[7] فهو أعظم وأجلّ قَدرا". فافهم كيف يجب الاجتهاد ليُظْفَرَ بمن قال الله تعالى في حقه: **وعلمنٰه من لدنا علما.**

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾

قال له موسىٰ، بعد ما سمع منه ما سمع[8] مِن علم وجب عليه أن يتبعه من أجل ذلك العلم. ولولا أن ذلك[9] العلم اللدني يُمكن أن يتعلمه [مِن] غير من أُوتِيَه لَما قال موسى: **هل أتبعك علىٰ أن تعلمن مما علمت رشدا.** أراد أن يعرّفَنا في هذه القصة كيف يجب أن يكون المتعلم مع المعلّم والمعلِّمُ مع المتعلم. ودل بالمفهوم على ما يجب أن يسلكه العبد مع الرب سبحانه، فإن كثيرا من الناس لا يَرضون بقضاء الله / سبحانه [٢٥٣و]
فهم في بابِ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ.[10] وهذا المراد من الشيخ وهو أن يعرّف المريد طريق الوصول وصورةَ السير، ثم يخلّي بينه وبين ربه.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾
﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾

---

١ الآية ٦٠ من هذه السورة.
٢ ك: وقيل.
٣ الآية ٦١ من هذه السورة.
٤ ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ (سورة يوسف، ٢٥/١٢).
٥ ن: والمراد من جمعهما.
٦ ك ن: عن جمعها. وفي هامش ك: عن جمعهما.
٧ ن: ولو جعلنا.
٨ ك + ما سمع.
٩ ك ن - ذلك.
١٠ الآية ٧٨ من هذه السورة.

وكيف تصبر علىٰ ما لم تحط به خبرا. عرّفَنا أنه لا يَقدر على الصبر إلا مَن ترك العقل عند الشروع.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾﴾

قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا، لا يصح الاتباعُ إلا بهذا.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾﴾

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾﴾

فانطلقا حتىٰ إذا ركبا فى السفينة خرقها، خرق السفينة. وبمثله[1] عرفَنا أن الله تعالى يَدفع كبار المصائب بصغائرها، فهي عين النعمة وإن كانت نقمة. **قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا،** الإمْر من الإمرة كالقِطْع من القِطْعَة، وهي من أَمِرَ يَأْمَر إذا صار أميرا، تقول: ما لك أن تعمل علي إمْرَة، أي وِلاية، لأن موسى رأى من صاحبه ما يقتضي ذلك من أفعال الوُلاة وأفعال الأمراء.

﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾﴾

والمعنى، **ألم أقل،** ثم بدأ[2] وإن كان القول الثاني هو الأول بعينه، لكنه مخبر به عن مستقبل الأمر وهو مؤكد للماضي.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾﴾

وقوله: **قال لا تؤاخذنى بما،** أي بسبب الذي، **نسيت،** من الشرط، **ولا ترهقنى،** تلحقني، **من أمرى عسرا،** يَعْسُر. يقال: راهق الغلام إذا بلغ سنَّ الرجال. فقال: ولا تلحقني من أمري بعسر، لأنه يَعسر عليه مفارقته.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾﴾

---

[1] جميع النسخ: ومثله

[2] ش: بدا.

فانطلقا حتىٰ إذا لقيا غلٰما فقتله، قال أقتلت نفسا زكية، كانت دون البلوغ، **بغير نفس، لقد جئت شيئا نكرا. قال ألم أقل لك**، ثم جزم فقال: **إنك لن تستطيع معى صبرا**. زيادة "لك" في هذه تدل على قوله: **ألم أقل لك**، إن صحبتني، ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ﴾[1] والتي قبلها تدل على قوله: **إنك لن تستطيع معى صبرا**. فالأولى إخبار لموسى عليه السلام بحاله قبل وقوع ذلك منه، والثانية إخبار بحاله الواقع وبما سيكون منه من ذلك بعينه، والثالثة جزم وفراق. وإنما أخّر الفراق ليقع ما جزم بوقوعه فيكونَ معذورا في مفارقة موسى باعتراف موسى كقوله: **قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصٰحبنى قد بلغت من لدنى عذرا**، أي من جهة ذاتي وباطني.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾

فانطلقا حتىٰ إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما. هذا مع احتمال أن موسى لم يأكل من حين فَقِد الحوت، ثم استعمله صاحبه في مناولة[2] الحجارة، لقوله: **فوجدا فيها جدارا**، وهو ما يبنى بالحجارة فقط من غير طين. لهذا قال: **يَنْقَضّ**، أي يسقط، فلم يقل: يَخْرَب، بل، **يريد أن ينقض فأقامه**. فلم يقل: فعمّره أو بناه. **قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا**.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾

أما السفينة فكانت لمسٰكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم، لا أمامهم، **ملك يأخذ كل سفينة غصبا**. اعلم أن هذه الكلمة تستعمل ولا يراد بها الجهة، أعني "وراء"، بل كما يقال: وراءه عائلة كبيرة،[3] ووراءه طَلَبٌ وخَلْفَه مال وعِيال، وهذا هو المراد ههنا.

---

[1] الآية ٧٠ من هذه السورة.

[2] ك: في مناوله.

[3] ن: كثيرة.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾

وأما الغلٰم فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما، يُلحقهما الولدُ المذكور بشؤمه بعد بلوغه، **طغيٰنا وكفرا**، أي من أجل طغيانه وكفرِه يُلحقهما بالطغيان والكفر.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾

فأردنا، -بعد إرادة الله لقوله أخيرا: وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى[١]-، **أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكوٰة وأقرب رحما**، من الرحمة مثل يُسْر ويسرة، وعُسْر وعسرة. وفي ذلك موعظة للصبيان ولو كان الأبوان مؤمنَين إذا فقدا ولدا. فإن الله أعلم بمصلحتهما. وفي الحديث «أطفال الكفار خُدّم أهل الجنة»،[٢] وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ.[٣]

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

وأما الجدار فكان لغلٰمين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صٰلحا. عرّفَنا أن الأب الصالح ينفع الولد الصالحَ، إذ ذكر الأب ههنا. وهناك[٤] عرّفَنا أن الأبوين الصالحين المؤمنين لا ينفعان ولدَهما حتى ولا من القتل إذا كان الولد غير صالح، ولو كان صغيرا، وكفى بابن نوح موعظةً كبيرا. فقال في الأولى: فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا،[٥] وفي الثانية: فَأَرَدْنَا،[٦] وفي / الثالثة أدبا مع الله لنسبة الخير إليه: **فأراد ربك أن يبلغا** [٢٥٣ظ] **أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك. وما فعلته عن أمرى**، ههنا هو الاسم،[٧] فمن قدر على أن لا يفعل إلا عن أمره فقد قدر عليه. **ذٰلك تأويل ما لم تَسْطِعْ عليه صبرا.**

---

١ من الآية الآتية.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٧٧/٦. | وفيهم عشرة أقوال أصحها ما دل عليه الحديث من "أنهم في الجنة"، ثانيها أنهم في مشيئة الله تعالى، ثالثها أنهم تبع لآبائهم في النار، رابعها أنهم في سرح بين الجنة والنار، خامسها وعليه الأكثر أنهم في النار، سادسها أنهم سيصيرون ترابا، سابعها أنهم يمتحنون في الآخرة فمن امتثل دخل الجنة وإلا فالنار، ثامنها أنهم يبقون في المحشر، تاسعها الوقف، عاشرها الإمساك، وفي الفرق بينهما دقة وخفاء فليتأمل (كشف الخفاء للعجلوني، ١٣٦/١).

٣ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾... ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ (سورة الطور، ١٧/٥٢، ٢٤).

٤ أي في الآيتين السابقتين.

٥ الآية ٧٩ من هذه السورة.

٦ من الآية السابقة.

٧ أي كلمة "الأمر" ههنا ليست مصدر أَمَرَ يَأْمُرُ، بل هي اسم بمعنى الرأي.

قوله: **تَسْطِعْ**، بغير تاء[1] الافتعال، هي بالتاء الزائدة تدل على امتناع الأمر لا في نفسه بل من جهة اختيار المختار، وبغير تاء تدل على امتناعه في نفس الأمر، كان من جهة الاختيار ممتنعا ولا ينعكس. فعبر بالصورتين كأنه قال: لا أنت تصبر ولا هذا مما يصبر عليه. وأما المراد بهذا الاختبار وبيان ما يرد عليه فقد ذكرناه في آخر السورة.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾

ويسئلونك، العطف منبه أنهم سألوه قبل ذلك أسئلةً كقصة أهل الكهف وغيرها، **عن ذى القرنين**، سمي بذلك لِمُلكه من الشرق إلى الغرب. ولم يملك من أقصى القبلة إلى الشمال بل ما بين السدين: السد الشمالي والسدِّ الجنوبي. وليس في التواريخ ذكر مَن بَنَى الشمالي. ولو فهموا كلام الله تعالى لعلموا أن الذي بناه هو الإسكندر كما سيظهر. **قل سأتلو عليكم منه ذكرا**، أي قرآنا، ومعناه ههنا ما تتذكرون به وتعلمون أن هذه الدنيا ليست بدار مُقام، وهو ذكر بعض أحواله العجيبة.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾

إنا مكنا له فى الأرض، مُلكه، **وءاتينٰه من كل شىء**، نؤتيه الملوك، **سببا**، لما يريده.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾

فأتبع سببا، يعني فأتبع مقصودا له مقصودا لنا، وهو سبب لمقصود لنا، فهذا سر هذه العبارة. **حتىٰ إذا بلغ مغرب الشمس**، عرّفَنا أنه قصد المغرب أولا. وقوله: **وجدها تَغْرُب فى عينٍ حَمِئَة**، بوزن فعلة[2] للمبالغة في الحُمُوّ. وتصريفها من حَمِيَ الماء يَحْمَى فهو حام. ومنه قوله تعالى: نَارٌ حَامِيَةٌۢ.[3] فإذا أردت المبالغة في حُمُوته قلت: فهو حَمِيّ على وزن فعيل ومؤنثه حمية بغير همز. وليس معناها من قوله تعالى: مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ،[4]

---

[1] ش ك: تستطيع بغير فاء.

[2] ن: فعيلة. | الحَمْي الحرارة المتولدة من الجواهر المحميّة كالنار والشمس، ومن القوة الحارة في البدن. قال تعالى: ﴿في عين حامية﴾ أي حارة. (المفردات للراغب، «حمى»). حمئة: قرأ الشامي وشعبة والأخوان وأبو جعفر وخلف بألف بعد الحاء وإبدال الهمزة ياء خالصة وصلا ووقفا، والباقون بحذف الألف وتحقيق الهمزة (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ١٩٦).

[3] ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۞ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ (سورة القارعة، ١٠١/٩-١١).

[4] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (سورة الحجر، ١٥/٢٦).

إذ لو كانت كذلك لقال: حمائيّة بتقديم الألف وتشديد الياء بعدها، كقولك: شَجَرية وسَحَرِيّة. والمعنى أنه بلغ إلى ما بلغ في الحُمُو بحيث لو أراد السير فيه لم يُمكن سيرُ السفن به لكون السفن لا يكون إلا مُقيَّرة[١] بالقَيْر،[٢] وذلك يحله الماء الحارّ. فلهذا كان انتهاء السير إلى بلوغ هذا الماء إذا كان قد سار بَرّا وبحرا وإلا فالعين في البر متصلة بالبحر. وقوله: **في عين**، ولم يقل: في ماء لينبه أن هناك عينا عظيمة منها يفيض[٣] هذا الماءُ فيُسخّن[٤] ما يجاوره من المياه مع موازاته[٥] للشمس[٦] وحرارتها، وأن الشمس برأي العين تُرَى غاربةً في هذه العين من الماء لسعتها وعِظمها. **ووجد عندها**، عند العين في البر، **قوما. قلنا يٰذا القرنين إما أن تعذب**، إن عصَوْك، **وإما أن تتخذ فيهم حسنا**، إن أطاعوك.

[وقوله تعالى: **قلنا يٰذا القرنين**، نبّهَنا بقوله تعالى: **قلنا**، على أن ذلك لم يكن من قصده وإنما كان من قصد الله، فكان قصده سببا لوقوع ما يَتِمّ به قصدُ الله تعالى كما بيّنّا].[٧]

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

قال أما من ظلم فسوف نعذبه، هذا قوله لهم، وقوله: **فسوف**، أي إن لم يَتُبْ. **ثم يرد إلىٰ ربه فيعذبه عذابا نكرا**. من أراد النصر من الملوك فليكن كلامه وأفعاله هكذا، فيكون مقامه في الناس مقام النبي عليه السلام الذي إنما يدعو الناس إلى الدين ويعاملهم بالعدل. **وأما من ءامن وعمل صٰلحا فله جزاءً الحسنىٰ**، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.[٨] **وسنقول له من أمرنا يسرا**، أي يَسهل عليه عملُه لا ما يشق، وكذلك ما به يحصل اليسرُ في معايشهم وأرزاقهم.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

---

١ المُقَيَّرَة: المَطْلِيَّة بالشحم أو الدهن أو القار (تاج العروس للزبيدي، «عبد»).

٢ القَيْر والقَارُ لغتان: صُعُد يذاب فيُستخرَج منه القار وهو شيء أسود تطلى به الإبل والسفن يمنع الماء أن يدخل (لسان العرب، «قير»).

٣ ن: يغيض.

٤ جميع النسخ: فيسخره، والمثبت من م.

٥ ش: مع موازبة؛ ن: مع مواته.

٦ ش: الشمس.

٧ ما بين المعقوفين كتب في جميع النسخ إلى آخر الآية ٨٨، فنقل إلى هنا.

٨ سورة الرحمٰن، ٦٠/٥٥.

ثم أتبع سببا[١] **حتىٰ إذا بلغ مطلع الشمس**، وراء بَرْبَر[٢] من تلقاء بُلْغار،[٣] **وجدها تطلع علىٰ قوم لم نجعل لهم من دونها سترا**، أي جبلا يسترهم منها. وقوله: **كذٰلك**، أي وقلنا له في المغرب. وقال أيضا: **كذٰلك**، فاستغنى بكلمة واحدة عن حكاية قولهما.[٤] فانظر إلى هذا الإيجاز مع الإبلاغ الواضح. وقوله: **وقد أحطنا بما لديه خبرا**، يعرّفنا[٥]
[٢٥٤و] أنه تعالى أحاط علما بعُدْوان / الناس الذين بين يديه. ولهذا ألهمه السير إلى جهاتهم.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾

ثم أتبع سببا حتىٰ إذا بلغ بين السدين، إشارة إلى السدّ الجنوبي والشمالي. فالشمالي[٦] يقال: إنه عظيم في طوله ممتَدٌّ على جبال كثيرة طويلة والسد فوقها. وقوله تعالى: **بَلَغَ**، يدل على أنه لم يَتَعَدَّ في السير إلى أكثر من ذلك. وقوله: **وجد من دونهما**، أي من دون السدّ الشمالي ومن دون السدّ الجنوبي. وليس معنى "السدين" الجبلين[٧] اللذَين بينهما سدٌّ واحد، إذ مفهوم اللفظ ينافي هذا المعنى، والوجود يشهد بخلافه وهو وجود سدين أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب. وإذ قد علمتَ أن السدين أحدهما شمالا والآخر جنوبا، وعلمت أن الإسكندر مَلِكَ وأتبع سببا إلى أقصى المغرب ثم إلى أقصى المشرق فقد علمت أنه إنما[٨] ملك من الجنوب والشمال ما بين السدين، وأن مِن دون كل واحد منهما قوما، وأن يأجوج ومأجوج خلقٌ مفسدون في الأرض وهم وراء السدين من الجهتين. والله على كل شيء قدير. وقد صرح النص بذلك وعين القوم الموجودِين من دونهما. ولهذا قال: **قوما لا يكادون يفقهون قولا**، فهم إذًا يفقهون بعض القول. وهؤلاء غير يأجوج ومأجوج، لأن أولٰئك من وراء السدين

---

١ ش + ثم.
٢ بلاد بربر: بلاد واسعة من برقة إلى آخر بلاد المغرب والبحر المحيط. سكانها أمة عظيمة (آثار البلاد لزكريا القزويني، «بلاد بربر»).
٣ بلغار: مدينة على ساحل بحر مانيطس. قال أبو حامد الأندلسي: هي مدينة عظمية مبنية من خشب الصَّنَوْبَر. وسورها من خشب البلّوط. وحولها من أمم الترك ما لا يعد ولا يحصى. وبين بلغار وبين قسطنطينية مسيرة شهرين وبين ملوكهم قتال (آثار البلاد لزكريا القزويني «بلغار»).
٤ ك: قوليهما.
٥ جميع النسخ: اعلم، والمثبت من م.
٦ ك ن – فالشمالي.
٧ ن: والجبلين.
٨ ك ن: أنه إذا.

وهؤلاء من دونهما في الجهتين. وقيل: هم التُّرك وسُمُّوا تركا لترك ذي القرنين لهم مع الناس، مع أنهم لا يكادون يفقهون قولا، وهم الذين شكَوْا من يأجوج ومأجوج. ولهذا بعده: **قالوا يٰذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا**، وهو مصدر وجُعل ههنا اسما للشيء المخروج، **علىٰ أن تجعل بيننا وبينهم سدا**.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾

قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة، أي برجال تقوّي من معي[١] وبما أستدعيه من أرضكم لتعينني على العمل. **أَجْعَلْ بينكم وبينهم رَدْمًا**، وهو[٢] عبارة عن البناء إذا وقع كلُّه بعضُه على بعض، فهو أعرضُ[٣] من الحائط المبني وأمنع منه.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾

ءاتونى زبر الحديد، هي قطع الحديد التي تضرب في مَسْبَكَة. **حتىٰ إذا ساوىٰ**، ذو القرنين بالزبر، **بين الصدفين**، بفتح الصاد وهو ما يصدف الردم. والصدفة عبارة عن الطين والكِلْس أو مثله يطرّي[٤] الحائط من الجهة الواحدة. فإذا طرى من الجهة الآخرى فقد صار ذا صدفتين، ولا فرق بين التذكير والتأنيث. وذلك أنه لمّا أراد الإسكندر أن يبني حائطا من حديد ويذيبَ النحاس ويصبَّه عليه لم يُمكن فعلُ ذلك إلا بأن يبني حائطين رقيقين قويين بينهما من البعد مقدار عرض الحائط الذي يكون من حديد ونحاس، ثم كلّس ذينك الحائطين تكليسا محكمًا من ظاهرهما وباطنهما كي[٥] لا يَخرجَ منهما شيء من ذائب النحاس. فصار اسمُ كل واحد من ذينك الحائطين صَدَفا؛ إذ ليس هو الحائط المطلوبَ، وإنما قصد به أن يكون حكمُه حكمَ صدف قوي بصدف ذائب النحاس المصبوب فيه عن التبدد والخروج. وإنما سمي ذلك صدفا تشبيها بصدف الحيوان الذي يصدف عنه الأذى. فلما بنى الإسكندر الصدفين ساوى[٦] بينهما بالحديد، أي ملأ حتى تساوى بينهما، **قال انفخوا**، إشارة إلى أنه أتى بنَحّاس فأمرهم أن يذيبوه[٧]

---

١ ن: من سعى.

٢ ن: هو.

٣ يعني أوسع. | ك: فهو أعرض.

٤ طرّى البناءَ: طيّنه (تاج العروس للزبيدي، «طرو»).

٥ ك ن: كيما.

٦ ن: مساوي.

٧ ك: أن تذيبوه

ويجعلوه قِطْرا يقطر.[1] والقطر اسم للنحاس المذاب. فأمرهم أن ينفخوا عليه، **حتى إذا جعله نارا قال ءاتونى أفرغ عليه قطرا**. ويحتمل أن يكون قوله: **قطرا**، منسوقا بقوله: **انْفُخُوا**، وأخِر للوزان. وتقديره انفخوا على قطر حتى إذا جعله نارا، أي كالنار فآتوني[2] به أُفْرِغْ على الحديد، فحذف به. وأخر "قطرا"[3] واستغنى عن ذكره أولا بقوله: **انفخوا**، فافهمه.

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾

قال هٰذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا. وهذه العلامة، أعني قوله: **جعله دكاء**، وقع بعضها، وإن كان المراد: وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً،[4] لكن الكلام ههنا عن السد بمفرده. فالذي جرى إنما هو أول الوعد وعلامة منذرة ببقيته[5] / ودالةٌ على صدقه وصحة وقوعه. وذلك إن ملك التَّتَر[6] الذي [٢٥٤ظ]
خرج أولا من وراء السد الشمالي لم يخرج إلا بأن خرّب موضعا منه، وخرج إلى هذه البلاد. وذلك مما نقله الثقاتُ أن ملكهم سار أياما وراء تلك الجبال المبنى عليها السدُّ، حتى استضعف مكانا من السدّ واستقر به، فأمر عسكره الكثيرَ[7] العددِ فقطعوا أشجارا وجمعوا أحطابا وألقوا بعضَها على بعض في ذلك المكان حتى وَفِيَ الحطب من السد وتحته ما لا يحصى مقداره. ورمى فيه نارا وتباعد عنه مسافةَ أيام خوفا من لهبه. وصبر عنه شهورا وعاد إليه وقد صعد لهيب النار إلى السد فأذاب منه قطعة كبيرة. فدخلوا منها. والذي اضطرّ ملكَ التتار إلى ذلك أنه تعذر عليه أن يعبر بالكثير من جنوده من الدَّرْبَنْد، فتحيّل بذلك وعبر بجنوده ودكّته خيله. والتتار هم غير الترك الذين كانوا دون السد، لأن التتار وراءه وليس هم يأجوج ومأجوجَ. وقد نطقت

---

[1] ن: بقطر.

[2] ن: فأتوني.

[3] ن: قطر.

[4] سورة الحاقة، ١٤/٦٩.

[5] ش ك: بيقينه.

[6] التتار/التتر: قبيلة مغولية، استقرت بعد القرن الخامس للميلاد في منغوليا الشرقية ومنشوريا الغربية. وشكلت جزءا من جحافل جنكيز خان التي اجتاحت أوروبا الشرقية في مطالع القرن الثالث عشر. وخلال القرن الرابع عشر دخل التتار في الإسلام (المورد لمنير البعلبكي، «التتار/التتر»).

[7] ك ن: الكبير.

كتبُ بني إسرائيل بيأجوج[١] وسُمِّي ملكهم جُوج. وإن الله تعالى يقول على لسان بعض أنبيائهم: ها أنا إليك جُوجُ ملكُ مأجوج، وأجذبك بلحيتك وأخرجك من أرضك أنتقم بك ممن عصاني.[٢] هذا مسطور عندهم إلى الآن وإن كان المراد ما سيكون بعد ذلك. ويحتمل أن يكون ذلك عند فتح السد الجنوبي، ولهذا بعده: **وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض**، أي بعضَ يأجوجَ في بعض الناس. ويريد بقوله: **يموج**، أي كموج البحر كثرة. ثم قال: **ونُفخ فى الصور فجمعنٰهم جمعا**، والصُّور هو الذي إذا نفخ فيه عادت الأرواح إلى أجسامها التي كانت لها. والمراد أن ذلك سهل على الله سبحانه أي بنفخة واحدة، فأراد التقريب بمَثَلٍ مفهوم لنا.

﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١﴾

وعرضنا جهنم يومئذ للكٰفرين عرضا، أي أبرزْنا لهم ما هو الآن مخفي عنهم. ولهذا بعده: **الذين كانت أعينهم فى غطاء عن**، رؤية،[٣] **ذكرى**، وهو ههنا القرآن، ولهذا أتبعه بقوله: **وكانوا لا يستطيعون سمعا**.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢﴾

أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء، يريد الذين أضلوهم. **إنا أعتدنا**، من العتيد،[٤] **جهنم للكٰفرين نزلا**.

﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾

قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمٰلا، الذين ضل سعيهم فى الحيوٰة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، هذه الآية[٥] تقطع الأكباد، ومثلها: سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ.[٦]

---

١ ن - وقد نطقت كتب بني إسرائيل بيأجوج.
٢ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.
٣ ش - رؤية، صح هـ.
٤ شيء عَتِيدٌ مُعَدٌّ حاضِر (لسان العرب، «عتد»).
٥ ش ك + التي.
٦ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف، ١٨٢/٧). وانظر أيضا: سورة القلم، ٤٤/٦٨.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ١٠٦﴾

وقد وصفهم بقوله: **أولٰئك الذين كفروا بٔايٰت ربهم ولقائه فحبطت أعمٰلهم**، الفرق بين الهبوط والحبوط أن الحبوط هبوط يتبعه تلاف الشيء وهلاكه. **فلا نقيم لهم يوم القيٰمة وزنا**، مبني على قوله: فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ،[1] أي وزن ذرة. والمثقال مأخوذ من الثقل.

قوله: **ذٰلك**، أي ذلك الحبوط، وأنا لا نقيم لهم وزنا، هو جزاؤهم. ثم عرّفه وأوضحه بقوله: **جهنم**.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾

إن الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت كانت لهم جنّٰت الفردوس نزلا، النزل هو المكان المُعَدُّ ليكرَم به النازل فيه. وقيل التقدير: يتزلون فيها نزلا لا رحلةَ بعده. وحُذفتِ الواو[2] للوِزان. ولهذا بعده: **خٰلدين فيها لا يبغون عنها حولا**، إشارة إلى أن الله تعالى لا يخرجهم منها، وهم لا يسأمون ولا يَملّون فلا يبغون عنها تحولا، وغُيّرت الكلمة للوِزان.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾

قل لو كان البحر مدادا لكلمٰت ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمٰت ربي، هذا لا يلزم منه أن تَنفد كلماتُ الرب بعده، لأن اللفظ إنما تَعيَّن به نفادُ البحر قبل نفاد الكلمات. ولهذا أتبعه بقوله: **ولو جئنا بمثله مددا**، أي مددا لذلك المثل. ولم يتعين لذلك المثل نهاية ولا للمدد، بل كأنه قال: ولو أمددناه بمثله أبدا، أي مثلا بعد مِثْل، فإن مثل المثل هو مثل وهلم جرا.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾

---

[1] سورة الزلزال، ٩٩/٧.

[2] أي من كلمة "نزولا".

وقوله: **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إلىّ**. / لمّا كان قد نطق بهذه الأمور الغيبية [٢٥٥و] علّمه الله تعالى التواضع والاعتراف بوصفه؛ وأنه لا يعلم من الغيب في هذه الأمور وغيرها إلا ما يوحيه[١] الله إليه، ليتحقق[٢] بذلك أن هذا الكلام المعبِّر عن الغيب كلامُ الله تعالى، إذ لا يَعلم مَن في السماوات والأرض الغيبَ إلا الله.[٣] وقوله: **أنما إلٰهكم إلٰه وٰحد**، ليعرّفَنا أنه ليس ثَمّ آخَرُ يعلم الغيب. ثم ختم القول من جهته بالتوحيد وبالعمل الصالح ونفي الشرك من جهة العبيد فقال: **فمن كان يرجوا لقاء ربه**، أي على صلاح، فاكتفى بلفظ الرجاء، **فليعمل عملا صٰلحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا**. نسأل الله ذلك.

[نظرة موجزة في محتوى السورة]

ويجب أن تفقه المقاصد الجُمَليّة[٤] من القِصص الجزئية. فإنه تعالى كرَّر الأمثال بالأقوال والأفعال[٥] ليتحقق[٦] المرادُ في أفهام العباد فتتضح[٧] المحجة وتقوم الحجة. فافقه كيف بدأ هذه السورةَ بالحمد على إنزال الكتاب نذيرا وبشيرا مفصَّلا. ثم تلا الأقوالَ بالأفعال، وقال: لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا.[٨] ثم ذكر أنواعا من الابتلاآت بالقليل والكثير للصغير والكبير. ثم ختم بلقاء الله الذي هو غاية كل مطلوب ونهاية كل محبوب. وقيّده بعمل صالح بحسب ما يلزم السالكَ، وشَرَطَ نفي الشرك إعلاما أنه يغفر ما دون ذلك.[٩] فبدأه بكلام الله تعالى ثم ختم بلقاء الله كأنه قال: هذا هادٍ إلى هذا. وبيّن أن ذلك إنما يكون بالعمل في مدة المَهْل، والعمل لا يكون إلا بعلم أو اتباع.[١٠] فضرب الله المثل بموسى وصاحبه[١١] فيما ابتلاهما به تعليما للعباد وتنبيها على بذل الاجتهاد في بلوغ المراد.

[قصة موسى والخَضِر والتفضيل بين النبي والولي]

وقد قيل: إن موسى المشار إليه ههنا هو غير موسى النبي عليه السلام إلا أن يكون صاحبُه غيرَ الخضر، وهذا هو الأظهر ولا يظهر لنا من نص القرآن أنه كان الخضر.

---

١ جميع النسخ: يوجبه، والمثبت من م.
٢ ن: لتتحقق.
٣ ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (سورة النمل، ٢٧/٦٥).
٤ ش: الجميلة.
٥ ش – والأفعال.
٦ ش ك: ليحقق.
٧ ن: فيتضح.
٨ الآية ٧ من هذه السورة.
٩ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (سورة النساء، ٤/٤٨، ١١٦).
١٠ ن: واتباع.
١١ ن – وصاحبه.

وفي الحديث[١] أنه رأى خَضِرًا[٢] ولم يعرّفه بالألف واللام. والتواريخ تَنطق أن الخضر لم يكن في زمن موسى عليه السلام بل خُلق بعد وفاة موسى بعدة من السنين، وكان نبيا من أنبياء بني إسرائيل. وقصته إلى الآن مشهورة فيهم. وكان في زمن ملك من ملوكهم وهم يقرءون ذلك السِّفْرَ، واسمه عندهم إلياس واسم غلامه اليشع[٣] وهو اليسع النبي من بعده في بني إسرائيل.

ويحتمل أن هذا كان من موسى قبل النبوة إشارة إلى عظم اجتهاده وعلوّ[٤] همته. وهذا هو أظهر الأقوال، لأن موسى من بعد النبوة أُرسل ولم يكن له وقتٌ يصرفه في تعلُّم علم، بل هو المكلَّم من العليم الحكيم سبحانه والمكتفى به من خلقه. لكنه على تقدير أن يكون ذلك صدرَ من موسى بعد النبوة. نقول:[٥] إن تخصيص الحق لأحد الخلق بفضل من لدنه لا يلزم عنه عمومُ التفضيل على مَن هو أفضل منه. وفي الحديث: «إن من أمتي رجالا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يَغبِطهم النبيون والشهداء يوم القيامة لقربهم ومكانهم»،[٦] رواه الحكيم الترمذي[٧] في كتابه المعروف **بختم الأولياء**.[٨] وهو[٩] حديث مشهور. وقد يقع في بعض الأفهام أن هذا الحديث يعطي أن يكون الوليُّ أقرب إلى الله تعالى وأفضل من النبي؛ وليس كذلك بل كل نبيٍّ وليٌّ ولا ينعكس، كما أن كل رسول نبي ولا ينعكس. وهذا الحديث يُفهَم منه معنيان. أحدهما الإعلام بأن العبد متمكن بكسبه أن يبلغ درجة النبي في القرب من ربه، وأعني بالقرب قربا عن الكسب، فهو من باب الجزاء لا عن الوهب الذي هو من باب الابتلاء. والمعنى الآخر هو الإعلام بأن في أمة محمد عليه السلام من هو في القرب من الله[١٠] كقرب أحد أنبياء بني إسرائيل. فلا يحزنْ أحد لانقطاع النبوة من هذه الأمة واتصالها في بني إسرائيل،[١١]

---

١ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر الحديثية المعتمدة.

٢ ن: خضر.

٣ ش: اليسع. | لعله اليشوع: يشوع بن نون، زعيم عبراني، كان خادم موسى عليه السلام في البرية خلال فترة الخروج من مصر. تولى قيادة القبائل العبرانية (اليهودية) بعد موت موسى ودخل بها أرض فلسطين (المورد لمنير البعلبكي، «اليشوع»).

٤ ن: وعلوا.

٥ جميع النسخ: تقول.

٦ ختم الأولياء للحكيم الترمذي، ص ٣١٨، ٣٩٤. وانظر أيضا: مسند أحمد بن حنبل، ٣٤١/٥، ٣٤٢.

٧ أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر، باحث، صوفي، عالم بالحديث وأصول الدين. من أهل ترمذ. توفي سنة نحو ٣٢٠هـ/٩٣٢م (الأعلام للزركلي، ٢٧٢/٦).

٨ حلية الأولياء لأبي نعيم الإصفهاني، ٥/١.

٩ ن: وفي.

١٠ ن – من الله.

١١ أي قبل بعثة النبي محمد عليه الصلاة والسلام.

لأن المراد من النبوة بيان طريق الاكتساب لا غير. وإذ[1] قد تمّ البيان فقد عاد المقصود وسلوك[2] الطريق، وهو واجب على كل إنسان، فالنبي وغيره في ذلك مشتركان. وإذ قد أمكن أن تكون الأفراد من هذه الأمة بمنزلة الأنبياء من الأمم الخالية. فقد تم العدل من الحق وقد لزم الاجتهاد / من الخلق. ولهذا يَغبِطهم النبيون لكونهم في رتبتهم من [٢٥٥ظ] القرب، وليسوا في رتبتهم من النبوة. فالتمكين من الحق مساوٍ لجميع الخلق، لأن الشريعة واحدة، وقد اتصفهم بقوله: لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.[3] فالتفضيل والاختصاص رأس مالٍ خُلق فيك وخلق لغيرك مثلُه زاد أم نقص. وإنما تثاب على كسبك[4] برأس المال لا على رأس[5] المال. فإن الكسب إليك ورأس المال إليه. وإنما تطالَب بما إليك لا بما إليه. وهذا معنى وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ،[6] ونظيره إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ.[7] فبالعلم بهذه الجملة ينحلّ كل إشكال، وبالعمل بها يُبلغ سائرَ الآمال.

[معنى تفضيل الله تعالى للعبد ومعنى ابتلائه]

وإذا فقهت هذا فاعلم أن التفضيل من جهة الله تعالى في الأرزاق وخلق الصور والأخلاق فضل من جهة الخلّاق. وكل شيء صدر منه أو عنه هو على وفق العلم ومقتضى الحكمة، لتقدم العلم السابق بما يجب أن يُمتحن به المخلوق من الخالق، إذ فائدة هذه النشأة الأولى ليس إلا الابتلاء ليتحقق العبد ما يستحقه في النشأة الثانية من الجزاء؛ من غير ميل[8] منه سبحانه فيما حكم به أولا عن العدل ولا هوىً فيما أتى من الفضل، بل كل ذلك بحق كما بيّنّاه في عدة مواضع وكما سنبين. وذلك أن جملة النشأة الأولى هي للامتحان[9] كما نَطق القرآنُ. فكل مِنحة في الأزل محنة للعمل تجلى بها الحق لمبتليه وخاطبه بالقرآن من لسان تاليه: إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ.[10] وهذا كله ومثله للتفضيل للعبد به من جهة كسبه وإن كان فضلا من جهة ربه، لأنه تعالى قد امتحن العبد به. فلا يُمدَح أحد بذلك بل يحمد الأحد المالك بدليل قوله تعالى:

---

١ ن: وإذا.

٢ ش ك: سلوك.

٣ انظر مثلا: سورة الأنعام، ١٥٢/٦؛ وسورة الأعراف، ٤٢/٧؛ وسورة المؤمنون، ٦٢/٢٣.

٤ ن: على كسبه.

٥ ش ك: إلا على رأس.

٦ سورة النجم، ٣٩/٥٣.

٧ سورة الحجرات، ١٣/٤٩.

٨ ن – ميل.

٩ ن: الامتحان.

١٠ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (سورة الإنسان، ٢/٧٦).

فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ،[1] الآية. فلم يرَ[2] لنفسه فضلا ولا رأى ذلك جزاء بل ابتلاء. ولا فرق بين العطية الظاهرة والباطنة إذا كان ذلك لا تعلق له بالكسب بل من لَدُنِ الرب. فالنبي مُبتَلًى بنبوته كأحد العباد بِصناعته أو علمه أو بضاعته، ولا فضل في ذلك له إلا بما ينويه ويفعله. فالفضل كله ابتلاء في النشأة الفانية، والتفضيل كله جزاء في النشأة الثانية. ألا ترى[3] إلى قوله تعالى: وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا، ثم قال: وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ، ثم قال: أَجۡرًا عَظِيمٗا،[4] إعلاما أن ذلك وإن كان بعد الجزاء فهو مرتب عليه. فلهذا سماه أجرا وإن كان عظيما. وأما قوله: وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا،[5] فذلك لا يَنقص أجرَه في الآخرة، بل هو بيان للأبرار أن المُوحِّد لا تتسلط عليه النار. وجميع ذلك ليمتحنه في الدنيا وليَنبِّه غيرَه على صحة الجزاء في الأخرى. وهذا كقوله تعالى: وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا، ثم قال: لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ،[6] وتمام الآية. وقبالة ذلك قوله تعالى: كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ.[7] ويعم جميعَ ما قلناه قوله تعالى: وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ، إلى مدة بقائكم في الدنيا، ولهذا بعده: وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ،[8] أي فتُجزَوْن بما تَعملون. ولمّا كان معنى هذا الكلام يَرِد عليه إشكالٌ في بعض[9] الأفهام ضرب الله المثل بنبي وولي[10] كلاهما ممتحنان فيما أتاهما عائد عليهما كسبهما. فلا يقال: هذا النبي أم الولي أفضل إذا كان ما أُوتِيَه كلُّ شيء ليس بالعمل بل هو للابتلاء في مدة المَهْل إلى انقضاء الأجل.

فإن قيل: ما فائدة تعريف الحق بهذه القصة للخلق؟

فالجواب أن ذلك شريعة تقضي بالواجب على كل متعلِّم وطالب. ففائدة هذا التعريف جليلة في باب الإيقاظ والتخويف. فالإيقاظ يوجب بذْل الجهد في الاكتساب،

---

١ ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ (سورة النمل، ٤٠/٢٧).

٢ أي سليمان عليه السلام.

٣ ك ن: ألا يرى.

٤ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ (سورة النساء، ٤٠/٤).

٥ ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (سورة العنكبوت، ٢٧/٢٩).

٦ ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ۝ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ (سورة الجن، ١٦/٧٢-١٧).

٧ ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ (سورة الأعراف، ١٦٣/٧).

٨ سورة الأنبياء، ٣٥/٢١.

٩ ن: إشكال بعض.

١٠ ن: ولي.

والتخويفُ يُلزم الطلابَ بسلوك الآداب، إذ من مال عن الوفاق قيل له: هذا فراق، وهذا من مخلوق وخلاق. والعارف بهذا يفرّع من كل أصل ما يُربي على مائةِ فصلٍ. كل ذلك إعلام بشرف العلم المختص بوليٍّ ووجوبِ الاجتهاد في طلبه على كل إنسان ولو كان في درجة نبي. وأما جُلّ بقية ما يرد من الإشكال فهو بأن تعلم [أن] الأخبار عن بعض الأنبياء في بعض الزمان لا يَلْزَمُ أن تَعُمَّ سائرَ / الأنبياء في جميع الأزمان، ولا [٢٥٦و] يَلزم من كون النبوة واحدة أن يتساوَى كلُّ نبي في الأرض، ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.[١] وهذا التفضيل مبني على العلم السابق بما يكسبه العبدُ بصفاته، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.[٢] وقد علّم الله الكتابةَ من لدنه لعيسى، و[كان] يُعلِّمها بالاجتهاد موسى، ولم يُعلِّمْها النبيَّ عليه السلام، وذلك ليكون إعجازه بالقرآن أتمَّ وأعظم، ولو أذن له في تعليمها للزمه الاجتهادُ وإن كان سيِّدَ العباد. ومن تدبر هذا المقال زال عنه الإشكال، إذ قد اتضح أن جملة المراد بيان شرف العلم ووجوب الاجتهاد. وقد تحقق أن كل ما في النشأة الأولى من السرّاء والضراء وعلوم الأولياء ونبوة الأنبياء ومن سائر الأشياء ليس إلا للابتلاء، وأن النشأة الآخرة ليس إلا للجزاء وإن [كان] بما لا يُحصى من أنواع العطاء. وقد بان أن الاختصاص في الأزل هو على وفق العلم بما سيكون من العمل، وهو مع ذلك فضل من الرب يبتلي به العبد. وليس ذلك فضيلة للعبد، بل هو كما اختص ذا المال[٣] بماله وعُشرُه كعشر الفقير إذا أخرجه ولو على عياله. فكلاهما ممتثِل للأمر، متساوٍ في الأجر، متمكن من ترك هواه، مقتدر على الاتصاف بما كلّفه من صفات الله. فقد خلقه الله في أحسن تقويم[٤] من جهة ذاته، فإن حدث له قبحٌ فمن جهة صفاته، وصفاته إليه فعائدها عليه. وإذا علمت بالإيجاب العقلي أن الله تعالى لم يخلق النشأتين عن عبث ولا اضطرار لزم أن يكون قد خلقها عن غنىً واختيار، وأنهما بجملة ما فيهما مخلوقان[٥] من أجل الإنسان، وأنه تعالى خلق الإنسان من أجل أن يُسبغ عليه أنواعَ الفضل والإحسان، وأن ذلك لا يكون كلاما إلا بأن يكون دائما، ولا يكون دائما إلا في دار باقية. ولزم أن يكون ذلك مما يتحقق الإنسان أنه بحق من جهةِ كسبه

---

١ أي هذا ثابت بآية ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٥٣).

٢ سورة الأنعام، ٦/١٢٤.

٣ ش: ذو المال.

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (سورة التين، ٩٥/٤).

٥ ن: مخلوقات.

لا بهوىً من جهة ربه. فوجب أن يخلقه أولا في عالَم الفناء للابتلاء، ثم ينقله ثانيا إلى عالم البقاء. وتكون[1] جملة ما في عالم[2] البقاء للجزاء وما يترتب على الجزاء، إذ لو خلقه أولا في عالم البقاء فأثابه بما علم منه لما حقق الإنسان أن ذلك بعدل، ولما تحقق قدرُ ما يمنحه الله به بعد ذلك من فضل. فقد بان أن جميع ما في النشأتين ليس عن ميل أو هوى من الخالق بل على وفق الحكمة ومقتضى العلم السابق. وإنما يفقه ذلك من تحقق أنه تعالى علم ما سيكون من كل إنسان في كل آن وزمان، فخلقه على صورة يتمكن بها عن كسبه. لو علمها الإنسان من قبل لاقترحها على ربه. فكل ما أُوتِيَه المرء هو على وفق ما سبق في العلم الأزلي بما يجب أن يمتحن به هذا الممتحن المخصوص بهذا العمل،[3] فلا يصح امتحانه إلا بهذا المقدار المقسوم من الخلق والأخلاق والأرزاق والعلوم، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.[4] فخلق الله الإنسان على صورته[5] في الصفات لا في الذات وإن كان جسمُه في النشأة الأولى من الأعراض الفانيات. وهذا بحديث صحيح في صحيح مسلم، يؤمن به كلُّ عاقل مسلم. فلمّا أعطاه سبحانه أزلا من ذلك الجود بحسب ما يصدر منه عملا في هذا الوجود، ويقدر طاقته مما يمتحن به من المذموم والمحمود وكان الإنسان من بعدُ موجبا لِما أُعطيه من قبلُ فخلقه الله على ما هو عليه بحق من خَلق وخلق ورزق. ولذلك مكّنه من الاتصاف بالأسماء وفَتح له باب التوبة والدعاء، فبان له في النشأة الأولى ما كان من قبلها أزلا وما سيكون بعدها في النشأة الآخرة أبدا. وإن كلَّ ذلك أصله من جهة الإنسان، وعائد إليه وموقوف عليه، حتى كان صفته عملا جادت عليه[6] بصفته أبدا وأزلا. وفي ذلك أقول،[7] شعرا:[8]

جادت عليه صفاته بصفاتِهِ	فسما بها وعلا إلى درجاتِهِ
ونظيره بالعكس منه لسابق	في علمنا ينحطّ في دركاته
والعلم قبل وبعدُ منا واحدٌ	وكذلك الإمداد في أوقاته

[1] ش: ويكون.

[2] ك - عالم، صح هـ.

[3] ن: العلم.

[4] سورة الحجر، ٢١/١٥.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله خلق آدم على صورته» (المصنف لعبد الرزاق الصنعاني، ٤٤٤/٩؛ وصحيح مسلم، البر ١١٥، والجنة ٢٨).

[6] أي على العبد.

[7] ش ك - وفي ذلك أقول.

[8] ش ك: شعر.

/كُـلًّا نُـمـد بـمـا نـراه أهـلـه | للنـار ذاك وذا إلـى جنّاتـه [٢٥٦ظ]
والسبق لم يك[١] عن هوىً منا ولا | ميلٌ لموهوبٍ رَقي بِهِباته
بل عِلْمُنا لمّا أحاط بكسبه | أعطاه تمكينا بمَوهوباته
الأمر مبنيٌّ على أفعاله | ومهيّأ[٢] أزلًا على هيئاتِهِ[٣]
بالكسب آتيناه قبل حياته | ما يستحقُّ بها وبعد مماته
وجميع ذلك مِنْحَةٌ في محنةٍ | للمستطيعِ إلى أَوَانِ وفاته
فالنشأتان لمنحة ولمحنة | من كسبه الموجودِ عن نيّاته
فيه يحقق فيهما[٤] من عدلنا | والفضل ما لا ريب في آياته
فكأنه قد كان قبل كيانه | ورأى جمالا جلّ في حَضَراته
فأراده فأجيب حتى يُبْتَلى | فسرى مع الأهوال في طرقاته
قد كابد الحظّ المُشِقّ بكل ما | هو فيه بين حُماته وعُداتِه
وإذا تذكّر عَوْدَه في صورة الـ | خَلّاقِ[٥] من أوصافه لا ذاته
سهَّلَ العسير وقال: أحيا[٦] مُبْتَلًى | من خالقي بجميع مخلوقاته
وهْو[٧] المعين على البلاء فليس | إلا جوده قد عاد من عاداته
فليدرِ هذا العبد أين مقامُه | وَلْيَدْعُ بالأنفاس في حالاتهْ.

اللّهم بدعائك لي سألت، وباستجابتك مني[٨] أجبت. ولولاك لم أكُ شيئا مذكورا. ولا حول لي ولا قوة إلا بك. فأعذني من فتنة تَشغل بصري ومعرفةٍ تَحجُب بصيرتي. واغفرلي جرمي بالقول، وجرمي في العمل، وعقلي في الكسل، وغفلتي[٩] في المَهَل، وتبصّري في الأمل، وتَعامِيّ عن الأجل. ولا تؤاخذني بانحرافي عن الأمر، وميلي إلى النهي، وإدباري في الجهاد، وتقصيري في الاجتهاد، وتقلبي[١٠] في الأحوال، وثباتي على الحال وثَبَاتي إلى المُحال. وأرني ابتلاءك لي بالأقوال والأفعال والهيئات والهِبات حتى لا آسَى على ما فات، ولا أفرح بما هو آت، ولا أفتتن بنفسي وقومي في يقظتي[١١] ونومي.

---

١ ك ن: لم يكن.
٢ ك: ومهتاء.
٣ ك ن: هيأته.
٤ ش ك: فهما.
٥ ن: الخلاف.
٦ أَحْيَا: صيغة المتكلم وحده من حَيِيَ يحيا.
٧ ن: هو.
٨ ن: من.
٩ جميع النسخ: وغفلي.
١٠ ن: وتقليبي.
١١ ك: في يقظيتي.

فلا أرى إلا إياك، ولا يراني سواك. ولا تُرني بقدر مرآتي فتحْجُب[1] بك عند ذاتي. ولا تؤاخذني[2] بمقتَرَحاتي. وأَعِذْني مما تعلم، وأَعِذْني إلى ما ترحم. وأسألك بي حيث شئتُ كما شئتَ من غير غيرية مني فأنت الأكرم. وصلى الله على محمد الكامل المقدَّم وعلى آله وأصحابه وسلَّم.

تمت سورة الكهف، وبتمامها تم النصف الأول من كتاب **كشف الأسرار وهتك الأستار**. فمن رأى فيه كلاما ناقصا فليطالع مثله فيه، ولْيَتَأَنَّ في الجزم بالرد على ما يجده. فإني ردَدْتُ نظري فيه من سنة سبع وسبعين وستِّمِائَةٍ إلى أواخر سنة أربع وثمانين. ولم أبيِّضه إلا بعد ما خِفتُ أن أَموت. فأسأَلُ عن ذلك فلا يقلدْني أحدٌ في شيء مما قلته وليعتمد وصاياي في مواضعها منه. والله الهادي بفضله ومنّه. والحمد لله وحده، وصلاته على سيدنا محمد وسلامه.

[1] ك: فيتحجب.

[2] ن: ولا يؤاخذني.

إلحاقٌ فيه بيانٌ لِما تقدم ونفعٌ عام وخاص يَفهمه[1] أهلُه

ولـم أحرِّر فيه العبارة بنفي ما قد يعارض بعضَه، وذلك لمعنيين، أحدهما خوفي من التطويل، والثاني إني قصدتُ به التنبيه على ما عندي لا إثبات دعوى صحته، لأن قولي لا يغني الضريرَ ولا يقلدني فيه الناقدُ البصير. فأوجبتُ على إنصافي[2] لنفسي أن أُبدي ما عندي غيرَ حاصرٍ لأدلته لِما قدّمتُه من العذر، وليكون ثبوته في عقد القلوب / عن يقينٍ صدر عن اجتهادها، فيتحقق فيها الحقُّ تحقيقا لا أجده،[3] تجده [أنت] محقَّقا من كلامي. فأقول غيرَ مجتنب لتكرار بعض[4] الكلام، إذ في تكراره إيضاحٌ لأصولٍ علمُها ضروري، فافقه. ذلك لاحظُ واحدٍ أو لاحظه.[5] [بل] يوجَد غيرُه، وله أن لا يوجَد، وليس عليه أن يوجَد ولا عليه أن لا يوجد.[6] [٢٥٧و]

[بيان الأصلين الأصيلين لفهم كلام الله تعالى]

إذ قد تأصل أولا قولُنا له[7] ولزم، وتأصل أيضا انتفاءُ قولنا عليه، إلا ما جعله هو على نفسه سبحانه، فهو من بابٍ له. فافهم ولا تخرج عن هذا الأصل حتى يصحَّ وإلا لـم تنتفع[8] بما بعده. فإذا صح ذلك فكلُّ ما هو من بابٍ له صحيح، وكل ما هو من بابٍ عليه فاسد، لأن [ما هو] عليه يرجع إلى غير أصل فيفضي إلى فصل، كما أن له يرجع إلى أصل فيفضي إلى وصل.[9] فَابْنِ على هذه القاعدة سائر أمرك في سرك وجهرك تَصلْ إلى الله في فهمك بعقلك لا بوهمك. فإذًا لا يقال: ذاته سبحانه تقتضي الوجود، ثـم يعلَّل بأنه خير من العدم. ولا يقال: ذاته تقتضي[10] الإحسانَ وإن كان غنيا أو يقتضي الفيض لعلة أو لغير علة، فلا يقال: يقتضي بوجه لأن ذلك من بابٍ عليه. ولكن يقال: ذاته تقضي،[11] لأن ذلك من بابٍ له. وأنت تتحقق أن قولنا: "يقتضي" هو من باب القول بالفيض المنسوب إلى مذهب الفلاسفة. وقولنا: "تقضي" هو من باب القول

---

[1] ن: يفهم.

[2] ك: فأوجب لي اتصافي.

[3] ش: لا أجدها.

[4] ن – بعض.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يقصد بالضمير الغائب نفسه.

[6] ك: أن يوجد.

[7] أي لله تعالى.

[8] ك: لم ينتفع؛ ن: لم ينفع.

[9] ك ن: إلى أصل.

[10] ك: يقتضي.

[11] ن: تقتضي.

بالاختيار المنسوب إلى الأنبياء عليهم السلام. فالقول: بالفيض يؤديك إلى فصل عن الله وبالاختيار يؤديك إلى وصل بالله. فلنَعُدْ إلى القول بالاختيار آمنين مُحِقّين. فهذا أصل أولٌ ضروري تام.

الأصل الثاني أنه يجب أن يُفهَم أن كل كلام لا يكون له غايةٌ فليس له فائدة، لأنه غير محدود، وما ليس بمحدود ليس بكلام مفيد، فهو إذًا لغوٌ. فغاية كلامنا في باب معرفة الله ليس إلا تعظيمَ الحق في أفهام الخلق لا تعظميه من حيث ذاتُه تعالى، لأنه لا يَقبل الزيادة ولا النقصان. فاجعل هذه الغاية أصلا ثانيا في عين عقلك. وخذِ العهدَ عليه أن لا يرى شيئا إلا بها وحذّره، وقل له: لا تَمِلْ ولا تَمَلَّ بل كرر هذا أبدا لئلا تَضلَّ.

وإذ قد حصل عندنا حاصلان هما أصلان، أحدهما من جهة الخالق وهو قولنا: "له لا عليه"، والآخر من جهة المخلوق وهو تعظيم الحق في أفهام الخلق، فلنُسَمِّ ما من جهة الخلق "أصلَ البداية"، وما من جهة الحق "أصلَ النهاية"، ولنحصرْ كلامنا بين بداية ونهاية ليكون محدودا فيعودَ مفيدا وإلا فهو لغوٌ وهوًى يُستعاذ منهما. فاحذرْ أن تَبحث مع نفسك أو غيرك إلا بعد تقرير هذا الشرط والالتزام به، فهو معيار[1] الحق وبه تَظهر غلطاتُ كثيرٍ من الخلق. وعلى هذا التقرير يجب أن تَفهم أنه لمّا احتمل أن يقع في الأذهان أن الله تعالى يَقدر أن يخلق قال الله تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ. فلمّا احتمل في بعض القول أنه تعالى بعد أن خلق قد لا يَقدر أن يُعدم ما خلق قال[2] الله تعالى: ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ.[3] ولمّا احتمل أنه تعالى قد لا يَقدر أن يَخلق ثانيا من أماته أولا قال الله تعالى: ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، فذكر القيامة ووعد بالنشأة الثانية وسماها الآخرة، إذ بعدها نشأة أخرى. ولمّا احتمل أنه تعالى قد يَخلق الثانيةَ، ولكنه قد لا يَقدر يُبقيها سرمدا بل يَعود الأمر على ما كان عليه أولا قال الله تعالى: خَالِدِينَ فِيهَا، وقال: عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ.[4] وكل هذه الصُّوَر تُعطي علاماتِ كمال القدرة له سبحانه في أفهامنا، لأن مَن عمل ذلك لا شك هو قادر على ما شاء من مثله. فلم يبق للعقول قَدْحٌ فيه ولا صورة من صور القدرة بتوهم[5] مُتوهم إلا وهي له سبحانه.

[1] ن: مصار.

[2] ن – قال.

[3] ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ (سورة الحج، ٦٦/٢٢).

[4] ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (سورة هود، ١٠٨/١١).

[5] ك: يتوهم.

[نقد نظرية الفلاسفة في خلق العالَم]

ولمّا اختلفت عقولُ الخلق في الآراء والعقائد عقلا جاء الشرع بأعلى ما في العقل وحيا. وإن من أعطى[1] العقل حقه لم ينته به إلا إلى النبوة. وهذا يتحقق للمتأمل من قول الفلاسفة أن سبب إيجاد العالم جودُ البارئ وأن جوده عينُ ذاته. فلزمهم في أول كلامهم أن يكون العالَم محدَثا ولزمهم من آخره أن يكون العالم قديما. فعاد كلامهم منقوضا بكلامهم لازما. وحلُّ هذا الإشكال هو بأن تَعلم أن الحكماء / قالوا [٢٥٧ظ] حسنا صحيحا، لكنهم لم يُعطوا العقلَ حقَّه ولم ينتهوا فيه إلى حده، فَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ[2] في عقولهم. وهذا العقل هو تعظيم الصانع فيه باعتقاد الوصف الأبلغ ليكون لله المَثَلُ الأعلى في العقول كما نقول. وذلك أنه لمّا كانت كل طائفة من ذوي الآراء والديانات لم تذهب إلى ما ذهبت إليه في اعتقادها في البارئ إلا من باب التعظيم له تعالى عاد التعظيم له سبحانه أصلا أجمع عليه المختلفون بأسرهم. وهذا الأصل يجب أن يكون موصولا به ينتقض ما خالفه، لأنه من علم الراسخين في العلم ولا مخالفَ له من سائر العقلاء. فَلْنَبْنِ[3] عليه ونقول: سلّمنا أن سبب إيجاد العالم جود البارئ، ولكنكم غلطتم في فهمكم الجودَ[4] بقولكم: هو عين البارئ. فألزمكم الغلط أن تُلزموا الله تعالى بالإيجاد، والله تعالى لا يلزمه شيء لأنه القادر المطلق. وبيان ذلك أن الجود لا يصح أن يُنسب حقيقةً إلا إلى فاعل مختار غني عن الفعل. وهذا الفاعل إن فعل لمقتضٍ من حيث هو لم يكن جوادا، وإن فعل لموجِب من حيث غيرُهُ لم يكن جودا. فهو في الأول[5] مطبوع وفي الثاني معاوض، فلا يستحق الحمد على أحدهما ولا يصح عليه اسم الجود بوجه منها. مثال الأول كالنور عن قرص الشمس لا حدَّ لها عليه، إذ هو لازم لها بل هو جزء لها ومقومها. ومثال الثاني كمن يجود ليحمد ويُشكر أو لسبب مّا، وهذا بَيْعٌ وليس بجود. ومن وضع هذا الاسم على مسماه وهو الجود علم سبب إيجاد الوجود. فحينئذ يتعالى الله في عقله المحدود إلى نهاية عقله، إذ لا نهاية فيه لربه، وفي غاية المجهود غاية المقصود. ووضعُ هذا الاسم على مسماه هو بأن ترجع إلى الأصل فتَعلم أنْ لا معنى للقادر المطلق إلا أنه هو الذي ليس عليه

---

[1] ك ن: من إعطاء.

[2] سورة الأنعام، ٩١/٦؛ وسورة الحج، ٧٤/٢٢؛ وسورة الزمر، ٦٧/٣٩.

[3] ش: فلنبين.

[4] ك ن – الجود.

[5] ك ن: فهو الأول.

أن يفعل بوجه. فإذا فعل الخير لا لمقتضٍ من نفسه ولا لموجِب من غيره كان هذا جوداء لأنه لا عن اضطرار ولا لعِوَض، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[1] وغير هذا لا يقال له جود بالحقيقة بل مجازا. فقد ثبت أن سببَ إيجاد الوجود هو محضُ الجود؛ لكنهم غلطوا في الفهم لجعْلهم الجودَ هو فاعلَ الجود، ولوقوف أفهامهم في تعظيم البارئ دون حده المحدود. وإذ قد ثبت أن الله[2] تعالى حقيقةَ الجود بهذا الشرح والشرط، وأنّ به ظهر الوجود. فقد وجب له الحمد المطلق من مخلوقاته بنفس إيجاده لهم، ثم بما بعد ذلك من نِعَم لا تحصى[3] عدداء[4] فهو ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.[5] وأما ما توهموه جودا فليس بجود، من نُسب ذلك إليه لا يستحق الحمد عليه. شعر:

لا يستحق الحمد مَن فَضْلُه ... لا باختيار منه في الفضلِ
ما الجود جودا وَهْو عن مقتضٍ ... أو موجِبٍ يلزم بالفعل
وإنما الجود لذي قدرة ... مطلقةٍ في المنع والبذل
لا يقتضي شيئا ولا ضِدَّه ... ففعله بالفضل لا العدل
وَهْو غني الذات عن فعله ... فحمده فرض على العقل
من أبدأ الكل بلا موجب ... حقٌّ له الحمد على الكل.[6]

وكذلك ينبغي أن يكون فعل العبد ليكون ربا في الفعل كما قال أبو علي الرُّوذْبَاري:[7]

من لم يكن بك فانيا عن حبه ... وعن الهوى والأُنس والأحباب،
فكأنه بين المراتب واقفٌ ... لمنال حظ أو لحُسن مآب.[8]

وقد بيّنّا كيف[9] ذلك في حد العقل المقتدي[10] بالشرع، وشرحناه في أول شرح

---

[1] ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (سورة الأعراف، ٥٤/٧).

[2] ن: أن الله.

[3] ك ن: لا يحصى.

[4] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ (سورة إبراهيم، ٣٤/١٤؛ وسورة النحل، ١٨/١٦).

[5] ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (سورة طه، ٥٠/٢٠).

[6] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

[7] أبو علي محمد بن أحمد بن القاسم الروذباري من كبار الصوفية، سكن مصر. وكان من أهل الفضل والفهم. له تصانيف حسان في التصوف نقلت عنه. لزم الجنيد وصحبه وصار أحد أئمة الزمان. وصار شيخ الصوفية ورئيسهم بها. وكان يتفقه بالحديث ويفتي بالمقاطيع. توفي سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م (الأنساب للسمعاني، ١٠٠/٣-١٠١).

[8] انظر: لطائف الإشارات للقشيري، ٣٩٦/١.

[9] ن - كيف.

[10] ش: المقتد؛ ن: المفيد.

مواقف النِّفَّري[1] رحمه الله وهو قولنا: "فأوقَفَني هذا العرفان عند مراده مني لي، لا عند مرادي منه لي أو له. أشهدني ذلك غناه فأراني ما هو له خالصا إنما هو ما هو لي خالص. فعملت لي[2] من أجله لا من أجلي له ولا لي. فوجب عليّ لي ما قد سطرته، وللواقف عليه العدولُ / عنه، إما لغلطه عن تحقيقي أو لتحقيقه غلطي لفظا أو فهما، [٢٥٨و] والسلام". وإنّ ذكرْنا هذا الكلام ههنا [يصير] تنبيها على ما يلزم من فهم معناه، فليفهم.

[نقد نظرية وحدة الوجود]

ولقد شاهدت أقواما ورأيت كتبا عمّهم الضلالُ من كونهم بنَوا أمْرهم على أن الصفة عين الذات للبارئ تعالى. ثم ادَّعوا أن أحدهم يتصف بصفة البارئ فيكون صفته عين ذاته فتكون[3] ذاتُه ذاتَ البارئ عز وجل، فنفوا السِّوىَ مطلقا. ولقد هلك عدوُّ نفسه الذي أداه توحيدُه إلى نفي السِّوىَ الثابت عينُه والصحيحِ بكل دليل أَيْنُه. ومن جحد عين وجوده أو نسب إلى نفسه ما لا تقتضيه لمراسم حدوده بأن يقول: إنه عين معبوده، أو كل شيء عينه سبحانه فلا خفاء[4] بجهله. ولكنّ بعض الرجال لَحظَ أن عبادته عائدة عليه فرأى من هذا الوجه أنه العابد والمعبود. وهذا لا يُعطي الجحودَ ولا ينفي الغيرية من الوجود. ومنهم من غلب عليه الحبُّ فقال بالاتحاد كناية عن فرط القرب. ومنهم من اشتدّ حبُّه حتى انتفى في نظره سوى محبوبه، فلم يَر لنفسه وجودا. وفرقٌ بين فاقد السوى في نظره وبين فاقد السوى في نفسه وعدم حقيقته من جهة أنه صفة الصانع سبحانه. فالسوى ثابت العين والأين[5] لجميع الخلائق، ومن حيثه ظهر اسمُ البديع والخالق. فسبحان مَن أنطق العوالم باسمه وعلّم الناطق منها بالوحي إلى فهمه، فالسوى وإن كان حجابا عليه فهو هاد إليه. فكل عين حجاب إن وقفتَ[6] ودليل إن سلكت، فالخالق لا يُحجَب والمخلوق لا يَحْجُب.[7] وإنما هو وقوفك بالله أو وقوفك بسواه، وأنت حجابك عن السوى بوقوفك بالله. ولمّا كنت أنت من جملة السوى

---

١ أبو عبد الله محمد بن عبد الجبار بن الحسن النِّفَّري، عالم بالدين، متصوف. نسبته إلى بلدة نفر بين الكوفة والبصرة. من كتبه: المواقف، والمخاطبات. توفي سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م (الأعلام للزركلي، ١٨٤/٦).

٢ ن - لا عند مرادي منه لي أو له أشهدني ذلك غناه فأراني ما هو له خالصا. إنما هو ما هو لي خالص فعملت لي.

٣ ك ن: فيكون.

٤ ن: فلا جفاء.

٥ ك: والأمن.

٦ ن: إن وقعت.

٧ ن - والمخلوق لا يحجب.

واحتجبتَ عنك ظننت أنه لا سوى. وليس المراد أنْ لا سِوىَ بل المراد كله يتعلق بالسوى. ولكن فرقٌ بين من وقف مع السوى بربه وبين من وقف مع السوى بنفسه. وأبلغُ التعريف في هذا الباب هو ما ضرب الله به المثلَ في الأمر لإبليس بالسجود لآدم. فأراد الله من إبليس الوقوفَ مع السوى بربه، وأراد إبليسُ الوقوف مع الله بنفسه؛ فكأنه يقول بالمفهوم: يا أيها الإنسان! وقوفك مع ربك بنفسك فصلٌ، ووقوفك مع نفسك بربك وصل. وهذان المعنيان هما معنى الشرائع ومحل التكاليف الجامعُ بين الأمر والنهي. وإذا كان الواقف مع السوى بربه ناجيا فكيف الواقف مع ربه بربه؟ ولكن الأول أول الشريعة، والآخَر آخر الشريعة. وكذلك[1] إذا كان الواقف بالسوى مع ربه هالكا فكيف الواقف بالسوى مع السوى؟ فافقه هذا الكلام وقيِّدْ نفسك بأن تكتفي[2] من هذا التفهيم بأن يكون الاختيار[3] منك عبارةً عن ذاتك والأمرُ من الله عبارةً عن ذاته. فمن خالف أمر الله فقد خالف الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله. وإنما كان كذلك لأننا نحن لا نعرف إلا الأمر ولم نكن إلا بالأمر وهو "كُنْ"،[4] فهو حدّنا، فلنقف مع حدنا ومع من عنه كنا. فقم[5] بالأمر إلى أن يقيمك الأمر فتكون آلة لا فاعلا، وإن كنت فاعلا لا آلة. فالأول عبد يَفعل بالحق مع الخلق وهو منهم، أعني العبد. والثاني رب يَفعل بالعبد مع الخلق وكأنه ليس منهم، أعني العبد. فيجوز أن يقال عن العبد: هو الخلق بمعنى أنه واحد من جملتهم. ويجوز أن يقال[6] عنه:[7] هو الحق بمعنى أنه مَصْدَرٌ بقوله وبفعله يصدر الحقُّ إلى الخلق من باب الأمر. وهذا[8] مقام الرسول عليه السلام: إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ.[9]

وهذا[10] إنما ذكرته لئلا يشتبه عليك شيءٌ من كلام الصوفية المحققين فتظنَّ أنه خارج عن الشريعة أو أعلى منها، بل هو نهاية الشريعة ولبّها. ويجب أن يتأصّل عندك أن المحسن المطلق سبحانه مكّن الإنسان بقدرة على فعلِ شيء وضدِه ليُحسن إليه

---

[1] ن: كذلك.

[2] ك ن: بأن يكتفي.

[3] ن: الاختبار.

[4] هذه اللفظة ذكرت في مواضع عديدة، منها ما ورد في سورة البقرة، ١١٧/٢؛ وسورة آل عمران، ٤٧/٣، ٥٩؛ وسورة الأنعام، ٧٣/٦.

[5] ن: فعم.

[6] ك ن: أن يقول.

[7] ن: عنهم.

[8] ش: وهنا.

[9] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (سورة الفتح، ١٠/٤٨).

[10] ش: وهنا.

بالجزاء على فعل الجميل وعلى ترك القبيح. وهذا التمكين هو كمال الإنسان، / وهو [٢٥٨ظ] من الحق تعالى تمام الإحسان، وليس من باب الجزاء بل من باب الابتداء. فإن أعطاه سبحانه عطاءً آخرَ من لدنه فهو إحسان آخر يستحق عليه الحمد. وإن منعه فالمنع إحسان يستحق عليه الحمد، لأنه لو منحه بما منعه لأفسده.

فإن قيل:[١] هو جعل العبد على حد لا يقدر أن يحمل مع الإحسان إلا مقدارا مخصوصا، ولو شاء لجعله يحمل أكثر، لأنه تعالى قادر، فكيف يكون محمودا على ما منع؟ فالجواب أن كمال الإنسان هو أن يكون مكتسبا متمكنا بقدرة على الشيء وضدِّه كما تقدم. فكل عطاء يَنقص[٢] [الله] عليه كمالَه منعٌ، وكل منع يتمم له كماله عطاءٌ. ومن تحقق هذا العرفانَ فإن امتنع عنده[٣] المنعُ من جهة الحق -وإن كان جائزا من جهة الخلق- فالحمد لمستحق الحمدِ بالمنع[٤] كما هو مستحقه بالعطاء الموهوب[٥] من لدنه رحمةً بعد الجزاء بما عَلِمْنا من الدعاء. ويجب أن يُفهَم[٦] أن كلَّ عطاء أو منع باطنا أو ظاهرا فقد جمع بين الفضل والعدل. فكونه على وفق العلم السابق بما يستحقه زيدٌ هو عدل، وكونه بعينه ابتلاء له هو فضل، إذ الغني[٧] مبتلًى مطالَبٌ بالبذل، والفقير مبتلًى مطالب بالصبر؛ وكلاهما له الأجر.

فإن قيل: إن كان العبد مُمَكّنا من الاكتساب الحسنة والسيئة فكلاهما من نفسه، وإن لم يكن ممكنا فكلاهما من ربه، وهذا غير قوله تعالى: مَآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ.[٨] وقد وجدنا كثيرا من الآيات ينسب البارئُ تعالى فيها الخير إلى الرب والشر إلى العبد؟ فالجواب أن العبد ممكَّن من السيئات ليتجنبها ومن الحسنات ليكتسبها، فيعلو بالاجتناب كما يعلو بالاكتساب. ولا شك أن السيئة إذا لم يقدر على اكتساب بها لا يَقدر على اجتنابها. فخُلق قادرا على اكتسابها من أجل أن يكون قادرا على اجتنابها. فإن تصرّف بالقدرة فيما خلق له وهو الاجتناب كان ذلك فضلا من ربه، وبذلك أُمِر. وإن تصرف بالقدرة فيما لم يخلق[٩] له وهو الاكتساب كان ذلك ظلما من نفسه نهي وعن ذلك نُهي.

---

١ ش: فايده قيل.
٢ ن: ينقص.
٣ ن: عند.
٤ ن: لمنع.
٥ جميع النسخ: الواهب.
٦ ن: أن تفهم.
٧ ش: إذ الفتى.
٨ سورة النساء، ٤/٧٩.
٩ ك ن: لم تخلق.

وهذا إيضاح تام ينحلّ به كلُّ مشكل في بابه. ولقد تاهت فيه عقولُ أكابرَ من علماء. وإلى هذا أشارت طائفة المتصوفة بقولهم: "فَعَل بربه" وإلى ضده بقولهم: "فَعَل بنفسه". واعلم أن قيمة كل موجود بمقدار نفعه، ومتى عظُمت قيمتُه عظم قدره في الأنفس. ولمّا عمّ نفع الأنبياء عظم قدرهم وعلَتْ رتبتهم، لأنهم جمعوا بين عالم الغيب الذي انفرد الأولياء بالاطلاع عليه وبين عالم الشهادة الذي لا يصل الجمهور إلا إليه. ولمّا ضَعُف الأولياء عن مقام الأنبياء سقط عنهم التكليف، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.[1] ولمّا قوي الأنبياء على القيام بمصالح العالم بعد القيام بمصالح أنفسهم كُلِّفوا بقدر طاقتهم. فواحدهم يسع الكل إذا توجه إلى الخلق ويتقدم على الكل إذا توجه إلى الحق. ولهذا تقدم السِّراج فتأخر جبريل ليلة المعراج. فأخص الموجودات المكلف، وغاية الكون الاكتساب؛ والعمر جوهر نفيس فلا تَصْرِفْ منه ذرة إلا في كسب، ولا تكسب إلا ما كُلِّفتَه. وإذا أبحت النظر إلى الله لا تنظر إليه إلا مكلفا عنه مأمورا منه لتكون[2] ناظرا إليه به.

[1] سورة البقرة، ٢/٢٨٦.

[2] ن: ليكون.

سورة مريم

وهي تسعة وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كٓهيعٓصٓ ١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢﴾

كٓهيعٓصٓ، ذكر، تقديره: هذا ذكرُ، **رحمة ربك**، ونُصب، **عبدَه**، أي لعبده، **زكريا**. ولمّا كان الحق سبحانه لا يَنسى، وإنما إذا ذَكَر العبدُ ربه ذكره ربُّه سبحانه وتعالى، كقوله: فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ.[1] ولمّا كان[2] زكريا قد ذكر ربه بهذا الدعاء والسؤال ذكره الله عز وجل بالإجابة. ولمّا كان الذكر ينقسم إلى قسمين: ذكرِ رحمة وذكر نقمةٍ أضاف الذكرَ ههنا إلى الرحمة، فهو ذكر رحمة كانت من الله لعبده زكريا.

﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤﴾

إذ نادىٰ ربه، أخبر أولا عن الآن الذي كان فيه الذكر من الله وجعله مقرونا[3] بنداء زكريا في حين واحد إخبارا لنا بسرعة إجابة الله تعالى لأنبيائه وأوليائه. لهذا قال: **إذ نادى ربه نداء خفيا**، عن غير ربه، والإخلاص أحق بذلك النداء. وأيضا إنه عرّفَنا صورة النداء بقوله: **خفيا**. ولفظ النداء بقوله: **قال رب إنى وهن العظم منى**، بالكِبَر وعيّنه لأنه أقوى ما في البدن، فكيف غيره. **واشتعل الرأس شيبا**، استعارةٌ، لأن ما يشتعل بالنار يصير رمادا، فشبه لون الشعر الشائب بما يلزم عن الاشتعال؛ وذكر الرأس لأنه يَعمُّ جميعَ الشَّعر الذي فيه لاحتمال أن يكون قد شاب البعضُ. فعرّفَنا بذلك أن جملة الرأس كان شائبا، وذلك من علامات الكبر. ثم لمّا فرغ من ذكر حال من أحوال البدن المتغير ذكر ما لم يتغير أبدا فقال: **ولم أكن**، أي قط، **بدعائك**، أي بدعائي إياك، **رَبِّ**، أي يا رب، **شقيا**. وأراد بقوله: **رب**، ليعرّفَنا أن الدعاء ههنا هو قوله: **رب**، فاعرف. ولهذا قال أولا: **إذ نادىٰ ربه**.

---

[1] سورة البقرة، ٢/١٥٢.

[2] ر: وكان.

[3] جميع النسخ: معذوقا.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾

وإني خفت الموٰلي، العبيد. ويحتمل أن يكون من الأولياء، لقوله تعالى: وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ،[1] فقال: وإني خفت الأولياء. **فهب لي... وليّا... يرث**، أراد الولد الذكر، إذ الأنثى لا ترث الكلّ وإن رُدّ عليها الباقي، **من وراءي**، من بعدي، أي بعد وفاتي، ومنه وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ،[2] أي بعدهم.[3] فاللفظ يُستعمل للمكان ويستعمل للزمان كبقية الظروف، فاستعمل هذه الكلمة في هذين الموضعين للزمان. **وكانت امرأتي عاقرا**، أي[4] لمّا كانت تَصلح للولادة فكيف الآن، فلهذا قال: **وكانت**. **فهب لي من لدنك وليا**، أي لا عن عمل مني أستوجب به هذه الهبة بل جودا من لدنك. وهذا هو طلب العارف، لأنه على وفق الجود الأول الذي به خُلقت الأكوان كما ستفهم. والولي الذي سأله مشتق من أولياء الله تعالى وإن كان المراد ولدا يرث، إذ لفظة الولي تُطلق على المعنيين.

وقوله: **يرثني**، أي دنيًا، **ويرث من ءال يعقوب**، أي الكتاب، كقوله تعالى: وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ.[5] ولهذا قال ههنا: يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ.[6] **ويعقوب**، ههنا هو إسرائيل، وآله بنو إسرائيل. ولمّا كانت لفظة الوِراثة[7] الثانية هي وراثةَ الكتاب من الله لآل يعقوب أخّر ذكْرَ آل يعقوب وذكرها بعد قوله: **يرثني**، تأدبا. فجعل وراثة المال من زكريا والكتاب من آل يعقوب، أي يرثني ويرث[8] الكتاب الذي ورثّته المُصْطَفَيْنَ[9] من آل يعقوب، كقوله: ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا.[10] **واجعله رب رضيا**، أي مرضيا، وعدل به للوزان وأخّر. وتقديره: وليا واجعله رضيا يرثني[11] لجواز أن يكون رضيا في وِراثة المال فقط، فلهذا ذكر الجعل بعد الوهب. وكل هذه الكلمات لم ينطق بها زكريا، وإنما أضمرها وذكر الله فذكره الله وأظهرها / عنه. وبهذا يُفهَم[12] معنى قوله تعالى عنه: [٣٦٠و]

[1] سورة النساء، ٣٣/٤.

[2] ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (سورة الكهف، ٧٩/١٨).

[3] ر - أي بعدهم، صح هـ.

[4] ر - أي.

[5] سورة المؤمن، ٥٣/٤٠.

[6] الآية ١٢ من هذه السورة.

[7] ر: الوارثة.

[8] ش + من آل يعقوب.

[9] ش - المصطفين، صح هـ.

[10] سورة فاطر، ٣٢/٣٥.

[11] ك - يرثني، صح هـ.

[12] ش ك: تفهم.

نِدَآءً خَفِيًّا،[١] فهو ما لا يطّلع عليه ملكٌ يكتبه ولا شيطان يُفسده. والله يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى.[٢] فكان زكريا مشغولا بالذكر عن السؤال، والله عليم بما يَخطر في البال، كما قال بلسان بعض الأولياء: مَن شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين.[٣] ويحتمل أن يكون قوله: **رضيا**، بمعنى راضيا كما تقول: عَلِيًا تريد عاليا، وعَرِيًا بمعنى عاريا، والفرق بينهما المبالغة في الصفة. فسأل وليا[٤] ودعا له أن يجعله الله راضيا[٥] عن ربه، كما قال: رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ.[٦] ولفظة "رَضِيّ" بمعنى فعيل الذي هو بمعنى الفاعل والمفعول.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧﴾

يٰزكريا إنا نبشرك بغلٰم اسمه يحيىٰ لم نجعل له من قبل سميا. كان من جملة البِشارة صفةَ الاسم المبشِّر بحياة المبشَّر به. فلمّا سمّاه الله تعالى يحيى علم[٧] زكرياء أنّ يحيى يحيى فتمتِ البشرى. وإنما قال تعالى: **لم نجعل له**، ولم يقل: لم نجعله، **سميا**، لمن قبله إشارة إلى تعظيم يحيى، وأنه لو كان الله تعالى قد جعل [له] سميا من قبل لكان ذلك المسمى سميا لهذا يحيى، وهذا هو المسمى حقيقة. وعرّفنا بقوله: مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ،[٨] أنه لم يطمع زكريا في الحياة إلى أن يرث يحيى منه الكتابَ بل يرثه من آل يعقوب. وتعجب زكريا إذ لم يكن يطمع بذلك من نفسه ولا من زوجته، فتعجب من نفسه لا من ربه. وهذا كما تعجبت سارةُ ومريم من أنفسهما مع الإيمان، لأن التعجب يدل على حقيقة الإيمان، إذ لو لم يصدق ذلك لَمَا تعجب منه بل كان يكذّبه بدءًا.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾

فلهذا، **قال رب أنىٰ يكون لى غلٰم وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا**، من العُتُوّ، وهو الكبر الذي يوجب الصلابة. وذلك كالعِرْق الذي عتا وكبُر، فلا يمكن أن يلين

---

١ الآية ٣ من هذه السورة.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ (سورة طه، ٧/٢٠).

٣ هذا حديث وليس قولًا لبعض الأولياء كما ذكر المصنف. عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» (سنن الترمذي، فضائل القرآن ٢٥).

٤ ر: واليا.

٥ ر: رضيا.

٦ سورة المجادلة، ٢٢/٥٨.

٧ ش + أن.

٨ من الآية السابقة.

وينعطف أو يتقوّم، فقد جاوز الحدَّ. وكان زكريا عليه السلام قد بلغ في الكبر إلى حدٍّ بحيث لم يبقَ فيه ميلٌ إلى النساء، ولا انعطاف على لذة بوطئهن، ولا قدرةٌ على ذلك.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾

قال كذٰلك قال ربك هو عليّ هين، ولمّا استصعبَ وقوعَ ذلك من نفسه خُوطب بلفظ الهيّن كقوله: وَهُوَأَهْوَنُ عَلَيْهِ.[1] فذكر الهيّن في النشأة الأولى والأهون في النشأة الثانية تمثيلا ونسبة لِما في أفهامنا ممن يقول للشيء: كُن فَيَكُونُ.[2] ثم قال: **وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا**.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾

قال رب اجعل لي ءاية، هذه الآية علامةٌ، وليست آية يستدل بها زكريا على صدق هذا الوعد. وإنما يَستدل بها على الوقت الذي يكون فيه الوطئ، لأنه كان عاجزا عنه ولم تكن له إليه داعيةٌ. **قال ءايتك ألا تكلم الناس**، أي لا تَقدر أن تُكلم الناس[3] **ثلٰث ليال سويا**. أراد بقوله: **لا تكلم الناس**، كلاما سويا[4] **ثلٰث ليال**، لأن الوحي والإشارة كلام لكنه غير سويّ. وقيل: المعنى ثلاث ليالٍ سويةٍ بأيامها. وأُبدلت الهاءُ [المنقوطة] ألفا لأجل الوزان مثل، قوله: بَغِيًّا،[5] ودليله قوله في الموضع الآخر: ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ.[6] والأول أولى لأن قوله: **ثلٰث ليال**، لا يدل على أيام كما لا تَدل الأيامُ على الليالي في قوله: أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ،[7] وهي لا تدل على أن الليالي معهن. ولو كان أحدُهما دالًّا على الآخر لكان في ذكره كفاية. فلهذا بين في أحد الموضعين الليل وفي الآخر النهار، وبين الكلام الذي هو غير سَويّ بقوله مع النهار: إِلَّا رَمْزًا.[8]

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾

---

١ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (سورة الروم، ٢٧/٣٠).

٢ هذه العبارة ذكرت في مواضع عديدة، منها ما ورد في سورة البقرة، ١١٧/٢؛ وسورة آل عمران، ٤٧/٣، ٥٩؛ وسورة الأنعام، ٧٣/٦.

٣ ك + كلاما سويا.

٤ ر - كلاما سويا.

٥ الآية ٢٠ من هذه السورة.

٦ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ (سورة آل عمران، ٤١/٣).

٧ سورة البقرة، ١٨٤/٢.

٨ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ (سورة آل عمران، ٤١/٣).

فخرج علىٰ قومه من المحراب، في صُبَيْحَةِ يومٍ وهو لا يَقدر أن يَتكلم، ولهذا قال: **فخرج**. وقال بعده: **فأوحىٰ إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا**. وكان من عادته أن يأمرهم / بذلك بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس، ويسبحَ معهم. فلم يستطع أن يأمرهم [٢٦٠ظ] بلفظة فأمرهم وحيا بإشارة. فهموا منها ذلك من غير أن يكلمهم، وهي الرمز. وقيل: الكلام أن يُفهم المعنى باللفظ، والوحيُ أن يفهم اللفظ بالمعنى الواقع في النفس جملة بإشارة أو إلهامٍ أو مثلِ ذلك. وأراد ههنا بالوحي مثالا للسرعة فهو غير وحي النبوة؛ وقد يكون الموحى كلاما كالقرآن. ثم أنجز الله وعده، وحذف في النص من حين الحمل إلى أن صار يحيى صبيا يحكم بين الناس بالحق من الكتاب.

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾

يٰيحيىٰ خذ الكتٰب بقوة وءاتينٰه الحكم صبيا. الحكمُ من الحكمة كالقُلّ من القِلّة، وهو كقوله تعالى: وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ.[1] والمعنى أنه قد يؤتى تلاوةَ الكتاب ولكنه لا يفهمه، فمتى فَهِم أحكامَه حَكم بها. فأراد: آتيناه الحكم بما حكم الله به في كتابه صبيا. وذلك مما لا يقدر عليه غيرُه إلا بعد العمر الطويل والحُنْكَةِ[2] وكثرةِ التعلم.

وقوله: **وحنانا من لدنا وزكوٰة**، أي وتَحَنَّنا عليه وزكّيناه زكاةً رحمة من لدنا، يدل[3] على الحنان وما قبله. ثم عرّفَنا أنه كان أهلا لذلك فزاده الله من فضله، وذلك بقوله: **وكان تقيا**. ولهذا لم يقل: فكان.

وقوله: **وبرا**، معطوف أي وكان برّا، **بوٰلديه ولم يكن جبارا عصيا**، أي عاصيا مثل ما قلنا،[4] أي[5] رضيّا راضيا.

ويحتمل -وهو الأولى- أن المعنى يُفهَم منه عطف اللفظ على قوله: **وءاتينٰهُ الحكم**، **وحنانا من لدنا**. ثم عطف على [قوله:] **وءاتينٰهُ**، بعد قوله: **من لدنا**، فقال:

١ ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (سورة النساء، ٤/١١٣).

٢ الحُنْكَة: التجربة والبَصَر بالأمور (تاج العروس للزبيدي، «حنك»).

٣ ك: يعود.

٤ ش + أي.

٥ جميع النسخ: إن.

وزكوة، ليعرفنا أن الزكاة التي آتاه الله جزاءً على تقواه. ولهذا أخّر ذكْر الزكاة فجعلها بعد قوله: **من لدنا**، ليكون الحكم والحنان من لدن الله تعالى. يقال: حنّ إليه، أي اشتاق، وحنّ عليه أي شَفِق، وكذلك تحنّن عليه.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾

وسلم عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا، بحياة الإيمان والجسد،[1] لأنه مطلق.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾

واذكر في الكتب مريم، إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا. قيل: لهذا اتخذتْه النصارى قبلة. والنبذ هو الإلقاء والطرح. وهي التي انطرحت في مكان شرقي، وانفردت فيه لعبادة الله تعالى. ولم يَنبِذها أهلُها ولا نَبذتْهم، بل خلت بنفسها فعادت هي كالمنبوذة وهي النابذة. وإنما خلت بنفسها للتعبد. وذكر الأهل لأنه من ترك القريبَ فهو للبعيد أتركُ.

ولهذا قال: **فاتخذت من دونهم حجابا**، سِترا. افهم المعنى من قوله: فانتبذت فاتخذت. **فأرسلنا إليها روحنا**، جبريل. وهذا دليل على أن الروح تُنسَب إلى الله تعالى ولا يراد بها نفسُ الله تعالى. ولهذا جاءت هذه العبارة في قصة عيسى ليكون كلٌّ من عيسى وجبريل روح الله. **فتمثل لها بشرا سويا**. وهذا الحجاب اتخذته في منزل[2] أهلها. ولهذا قيل: إنها كانت في الحيض، لأنها في الطهر كانت في المحراب دائما. وليس هذا بشيء لاحتمال أن يكون المحراب فيما اتخذته أيضا من الحجاب، وإنما كانت في خلوة. فلمّا احتجبت عن الخلق كُشف لها من جهة الحق في صورة الخلق، فعيسى روحُ الله رسولٌ من البشر وجبريلُ روحُ الله رسولٌ في صورة البشر.

﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾

قالت إني أعوذ بالرحمن منك، وقوله: **إن كنت تقيا**، معناه أنه يُستعاذ بالله من التقي ومن / غير التقي، ولكن من جهة المستعيذ. وأمّا من جهة المتسعاذ منه فذلك إن لم [٢٦١و]
يكن تقيا فإنه لا يَنْثني ولا تُغيّره الاستعاذة من حيثه، فافهم ذلك. فهذا وجه قولها:

[1] ش: والجد.

[2] ر: في منزلة.

إن كنت تقيا، لأن الأتقياء يخوّفون بالله، والفُسّاقَ بالسلطان، والمنافقين بالناس. فلمّا لمحت عليه سيماء التقوى خوّفته بالله.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩﴾

قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلٰما زكيا. زكا النباتُ إذا خصب وكثر، وزكا الجسم إذا سَمِن. والزكي أيضا بوزن فعيل هو المزكّى: إذا قال قولا وادعى دعوًى فإن الله يزكيه ويتمم له ما بدا به.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠﴾

قالت أنىٰ يكون لى غلٰم، وفي آل عمران أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ.[1] فههنا ذكر الغلام لأنها تقدم لها ذكرُه بقوله: لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا.[2] وقد تقدم أيضا ذكرُ الغلام في قصة زكريا،[3] فأتبع القصة القصة وجعل اللفظ كاللفظ. وعرّفَنا في ضمن ذلك بمغايرة الألفاظ في قصة واحدة أن المراد معنى اللفظ لا صورتُه بعينه لئلا يلزم أن يكون إبراهيم عليه السلام تكلَّم بلسان[4] العرب، وكذلك غيرُه ممن حكى الله عنه قولَه لقومه.[5] ففهَّمنا أن المراد معنى ما قيل، لكنه جاء بأحسن عبارة في مواضعه من التنزيل. ولمّا تعجبت مريم كتعجب زكريا ذكرت سببَ[6] تعجبها وأنه من نفسها لا من ربها كما ذكر زكريا مثل ذلك[7] فقالت: **ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا**. ليس معنى اللفظ: "ولم أك" من البُغاة اللاتي هنّ الزواني من النساء. فإن قولها: **ولم يمسسنى بشر**، كافٍ، إذ ذلك عامٌّ فيما حَلّ وحُرّم. وإنما أصل اللفظة من بغى يبغي، أي طلب، ومنه سُمّي النساء الزواني بذلك لأنهن يطلبن الرجال طلبا محرّما. والمعنى ههنا ولم أك بغية، أي باغيةً ولدا كما بغى زكريا ذلك. فهذه[8] لم تبغِ من ربها ولدا ولم يمسّها[9] بشر. فإن التي ليست ذات بعل بل مسّها بشرٌ يجوز أن يأتيها ولدٌ وإن لم تَطلب الولدَ، والتي تطلب الولد يجوز أن يُعطيَها الله ولدا ويخلقه بقدرته وإن لم يمَسّها بشرٌ. ولمّا كانت مريم عليها السلام

---

[1] ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٤٧).

[2] من الآية السابقة.

[3] الآيات ٧-٩ من هذه السورة.

[4] ك: بلغة.

[5] انظر مثلا لإبراهيم عليه السلام: سورة الأنبياء، الآية ٥٢ وما بعدها.

[6] ش: سببت.

[7] انظر: الآية ٧ من هذه السورة.

[8] ر - لهذه.

[9] ك ن: ولم يمسسها.

قد أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا،[1] قالت قولا يدل على القسمين، وهو أنها[2] لم يمسسها بشر، ولم تك باغية، أي طالبة من الله ولدا كما طلب زكريا. وغيّر اللفظ لمشابهة أواخر الآي، إذ كان ذلك جائزا في كلام العرب.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرًا مَّقۡضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

قال كذٰلك قال ربك هو عليّ هين، ولنجعله ءاية للناس ورحمة منا، كقوله: وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ.[3] ثم ذكر الله ما دل على إنجاز الوعد وتمام الحمل ووضع الولد فقال: **وكان أمرا مقضيا**.

﴿۞فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾

فحملته فانتبذت به، وهذا غير الانتباذ الأول. لهذا بعده: **مكانا قصيا**، بعيدا من أهلها. وقوله: به، أي بسببه وإلا فقوله: **فحملته**، يدل على أنها إذا انتبذت إنما تنتبذ به، لكنها بسببه انتبذت إلى مكان بعيد من قومها حياءً منهم.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

وقوله: **فأجاءها**، أي، **المخاض**، هو الذي أوجب لها المجيء وهو بمعنى أصارها، مِن صار يصير فهو مُتعَدّ. والمخاض أصله من مخض اللبنُ بفتح الخاء وضمها وكسرها مَخْضا، والاسم مَخاض،[4] كقولك سمِع يَسمَع سَمعا وسَماعا. ولمّا كان الجنين عند خروجه يَمخَض مكانَه من أمه سمِّي ذلك مَخاضا. ومنه قيل للفصيل إذا استكمل الحولَ ودخل في السنة الثانية: ابن مَخاض، لأنه فُصِل عن أمه وأُلحقت أمه بالمَخاض سواء لَقِحت أو لم تلقَح. وقوله: **إلى جِذْع النخلة**، ولم يقل: إلى النخلة ليدل[5]

---

[1] ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء، ٩١/٢١). وانظر أيضا: سورة التحريم، ١٢/٦٦.

[2] ر – لم يمسسها بشر ولما كانت مريم عليها السلام قد احصنت فرجها قالت قولا يدل على القسمين وهو أنها، صح هـ.

[3] الأنبياء، ١٠٧/٢١.

[4] مَخِضت الحامل يَمْخَض مَخْضا ومخاضا: دنا ولادها وأخذها الطَّلْق. المخاض: وجع الوِلادة وهو الطلق [أي وجع الولادة] (المعجم الوسيط، «مخض»).

[5] ش ك: يدل.

/ على أنه إنما كان جذعا فقط، ولم يكن فيه رَطْب. فمالت إلى جذع النخلة من [٢٦١ظ] فرط الألم، إذ لم تكن في بناء أو مسكن فآوَتْ إلى جذعٍ هناك. **قالت يٰليتنى مت قبل هٰذا**، الذي أقاسيه من الألم عند المَخض. ولذلك قالت: **هٰذَا**، أي هذا المخاضِ الذي أجاءها. ولو قالت ذلك حياء لقالته من حين الحمل، لأنه لمّا حملته انتبذت به، فافهم. وقوله:[١] **وكنت نسيا مَنْسيا**، فالنسي هو الشيء المتروك، والمنسيُّ هو بمنزلة ما لم يُذكر أبدا.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾﴾

فنادىٰها، عيسى، ولهذا قال: **من تحتها**. ولو كان جبريل لكان الأولى أن يقول: من فوقها، فافهم. بل هو معطوف على قوله: فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ.[٢] وحكى ما جرى لها، وقال بعد شدة الطلق ومكابدةِ مَا تمنت لأجله الموتَ ما دل على الخلاص، وأنها قد وَلدت فناداها المولودُ من تحتها: **ألا تحزنى**، يحتمل أنها حزنت لما رأت أنها لا بد أن يقال لها: لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا،[٣] وتمامه. فأراها المعجزَ الذي يوجب لها تصديقَ ذلك لينفي عنها الحزن، أي: لا تحزني أنتِ في نفسكِ وإن كان قد يقال: لكِ ما يَحْزُن. والنهي عن الشيء لا يلزم أن يكون[٤] قد وقع، بل هذا ههنا على طريق البِشارة. ولهذا بعده: **قد جعل ربكِ تحتكِ سريا**، فافهم قوله: من **تحتها**، وقولَه: **تحتك**، الذي لا يكون إلا عن عيسى. والدليل على صحة ما قلناه هو أنها لم تُشِرْ[٥] إليه حين سُئلت عنه إلا بعد علمها بنطقه. وإعادة الضمير في قوله: **من تحتها**، إلى مريم أولى من إعادته إلى، **النخلة**، لأنه أقرب مذكورٍ. ولهذا ذكر الجذع ولم يقل: إلى النخلة. وقيل: السريّ من سراة الناس، أي ساداتهم. وفي العبرانية "سَار" بمد السين تفسيرها رئيس. والحق أن السَّرِيّ ههنا هو ما ورد أنه سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن السريّ فقال: «الجَدْوَل»،[٦] وهو النهر الصغير. ويكون المراد بقوله ههنا:[٧] **تحتك**، أي اخْفِضْ من مكانكِ. ولهذا بعده بالواو: **وهُزّى**. وقوله: **إليكِ**، يدل على هَزّة واحدة إلى جهتها.

---

١ جميع النسخ: وقولها.
٢ الآية ٢٢ من هذه السورة.
٣ الآية ٢٧ من هذه السورة.
٤ ش: أن تكون.
٥ ش: لم تشير.
٦ جامع البيان للطبري، ١٥/٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩.
٧ ش – ههنا.

وقوله: **بجذع**، يدل على جذع فقط. فكان تَساقَطَ الرطبُ منه معجزةً. وقوله: **النخلة**، يدل على نخلة معروفة، لأن مثل هذه النخلة لا تُجهل، وموضعُها الآن في بَيْت لَحْم[1] قريبا من القدس، وذلك أمر مشهور. وقوله: **تُسقط**، تقديره يتساقط ما يسقط منه، **عليكِ رُطَبا جَنِيًا**، مفعول،[2] من جنى الثمرةَ يجني، ولا تُجنَى الثمرةُ إلا عند بلوغها وأوانِ الانتفاع بها. وكان السلف من أجل مريم تبركا يستحبون للنفساءِ الرُّطَبَ.

﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

وقوله: **فكلي**، أي منه، **واشربي**. دل على ما قلناه في السَّرِيّ وهو الجدول. وقوله: **وقَرِّي عينا**، هو من القرار بعد اضطراب العين بالبكاء من الألم، لأن الباكي لا تزال عينُه مضطربةً، فإذا سكنت ونامت قيل: قرّت عينُه. **فإما**، هذه ليست العاطفةَ وإنما هي "إنْ" الشرطية فضُمَّت إليها "ما" فصارًا شيئا واحدا خطا ولفظا. ويؤكَّد بها أولُ الفعل كلام القسم، وبالنون المشددة يؤكَّد آخرُ الفعل. فهي ههنا كما في البقرة عند قوله: فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى.[3] وقوله: **تَرَيِنّ**، النون الثقيلة في الامر للمؤنث بكسر ما قبلها: اِضْرِبِنّ زيدا ولا تَشْتُمِنّ عمرا، وهو مثل: **ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا**. الصوم عبارة عن الإمساك، وقد يكون

[٣٦٢و] الإمساك [عبارة] عما يدخل / إلى الفم من الطعام، أو عما يخرج منه من الكلام. ولمّا علّمها[4] عيسى ما علّمه الله وجعله رسولا إليها به كان في نفس الكلام لها. **فقولى إنى نذرت**، [فيه] ما يدل على أمر من الله لها بالنذر. ويحتمل أن لا يكون ذلك القول منها بالفم بل بالإشارة الدالة، ولهذا قال بعده مثله: فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ.[5] ولو قيل: بل قالت هذا باللفظ المذكور بعينه لكانت مأمورةً بأن تقوله فقط. فالذي أمرها بالنذر والإمساكِ أمرها بأن تقول هذا اللفظ بعينه فقط، فهي ممتثلة لأمره. وهي لم تُكلِّم أحدا من الناس من تلقاء نفسها وإن كَلّمته هذا اللفظَ بعينه بفيها، وإنما أراد أن لا تُكلِّم الناسَ ليكلمهم عيسى.

---

[1] بيت لحم: قرية على فرسخين من بيت المقدس (آثار البلاد لزكريا القزويني «بيت لحم»).

[2] أي كلمة "جنيا" صفة على صيغة "فعيل" بمعنى مفعول.

[3] ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٣٨).

[4] ك - علمها، صح هـ.

[5] الآية ٢٩ من هذه السورة.

﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾

ولمّا كانتْ قد سمعتْ كلامَه أولا بقوله: **ألا تحزني**، أشارت إليه أن يكلمهم بعد قوله تعالى: **فأتت به قومها تحمله**، والفاء للتعقيب، أي فناداها فأتت به. وفائدة قوله: **تحمله**، لنفي توهُّمِ أن عيسى كان ماشيا، لأنه صدر عنه ما يدل على المشي وهو النطق. **قالوا يٰمريم لقد جئتِ شيئا**، أي بشيء، **فريا**، أي فِرْيَة، ومعناه كاذبة. وأخَّر فرية للوِزان، ونصبها على الحال. وحذف الهاء كما حذف في غيرها وأبدلها بالألف.

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾

يٰأخت هٰرون، كان لها أخٌ صالح وأب صالح وأم صالحة. فذكر الثلاثة الذين هم أولو الأرحام. ويحتمل أنهم قالوا ذلك لِما يعلمونه من صلاحها فنسبوها في الصلاح إلى هارون أخي موسى عليهما السلام، والأول أولى. **ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا**، من قوله: وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ.[1] ولمّا كانت هذه اللفظة[2] تدل على الطلب عبّر بها من قبل عن طلب الولد،[3] وعبّر بها ههنا عن طلب المحرّم، وأصل المراد واحد لكنه يُحمل في كل موضع على ما يليق به. وإذا وجدنا الأحسنَ فلا نَعدل عنه إلى الحسن.

﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾

فأشارت إليه، أي سَلُوه عن أمري وعن أمره. **قالوا كيف نكلم من كان**. "كان" تأتي في كلام العرب بمعنى "لم يزل وهو كذا"، ومنه وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا،[4] وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا.[5] والمراد ههنا مَن هو، **فى المهد صبيا**. ويجوز أن يسمَّى الحجر مهدا، وكذلك كلّ ما[6] يمهَّد للصبي.

﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢﴾

فلمّا سألوه، **قال إنى عبد الله**، كان أولُ كلامه للناس أن أقرّ بالعبودية وهو ابن يومه

[1] ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ (سورة النور، ٣٣/٢٤).
[2] أي كلمة بغيّة.
[3] أي في الآية ٢٠ من هذه السورة.
[4] سورة الفرقان، ٢٩/٢٥.
[5] انظر مثلا: سورة النساء، ١٧/٤، ٩٢، ١٠٤ وغيرها.
[6] ر - ما.

لئلا يُتَّخَذَ إِلَهًا في زمن مَا. ءاتنى الكتٰب وجعلنى نبيا، وجعلنى مباركا أين ما كنت، وأوصٰنى بالصلوٰة والزكوٰة ما دمت حيا، وبرا بوٰلدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا. ذكر الجعْل الذي هو من جهة الله، وذكر الوصية التي هي من كسب عيسى. وفيه إشعار بأن من لم يقُم بالصلاة والزكاة وبرّ الوالدين فهو من الجبابرة الأشقياء.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾

وقوله: والسلٰم علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا، كونُه أتى بالسلام بالألف واللام وفي قصة يحيى بغير ألف ولام[1] لأن في يحيى كان الله هو القائلَ فجاء بغير ألف كما تبدأ مسلِما، وفي هذا جاء على صورة الإخبار من عيسى.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤﴾

ذٰلك عيسى ابن مريم، أي لا ما تقوله[2] النصارى بل هذا، قول الحق الذى فيه يمترون، يختلفون اليهود والنصارى، لأن هذا القول لم يكن معلوما عندهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، أعني قوله: وجعلنى نبيا. بل اليهود يزعمون أنه وُلد من الزنى وكان ساحرا، والنصارى يعتقدون فيه الإلٰهية. وليس من الفريقين مَن قال حقا بل باطلا. وهذا هو قول الحق كقوله تعالى: إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ.[3]

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦﴾

[٣٦٢ظ] ما كان لله أن يتخذ / من ولد، جيء بمِن ههنا لتدل على النفي العام، لأنك إذا قلت: "ما عندي فرسٌ" جاز أن يكون عندك أكثرُ من فرس، فإذا قلت: "ما عندي مِن فرس" فمِن دلت على نفي الواحدة والجميع. ثم قال: سبحٰنه إذا قضىٰ أمرا فإنما يقول له كن فيكون. ثم عطف على قول عيسى: إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ،[4] [قوله:] وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هٰذا صرٰط مستقيم.

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ١٥ من هذه السورة.
[2] ك: لا ما يقول؛ ر: لا يقوله.
[3] سورة آل عمران، ٦٢/٣.
[4] الآية ٣٠ من هذه السورة.

فاختلف الأحزاب، قوم تَحزّبوا عليه فكذبوه، وقوم فيما بعدُ تحزّبوا له فجعلوه إلٰها. وقوله: **من بينهم**، أي ذلك الاختلاف إنما نشأ من بينهم، كما قال تعالى: وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ.[١] **فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم**.

﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾

أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا، تقدم في الكهف مثلُه،[٢] وهو تعجبٌ بلفظ الأمر. والدليل على أنه ليس بأمر أنه يكون في المذكر والمؤنث والتثنية والجمع واحدا، تقول: يا زيدانِ أَحْسن بعمرو[٣] ولا تقول: أَحْسِنا. ولهذا لم يقل[٤] ههنا: "به"، أعني باليوم، بل: **بهم**. فالمعنى ما أَسْمَعَهم وما أبصرهم في ذلك اليوم. لهذا بعده: **لٰكن الظّٰلمون**، في الدينا، **اليومَ فى ضلٰل مبين**، عما يُبصرونه أو يَسمعونه[٥] في ذلك اليوم. ثم أمره بعد ذلك بإنذارهم حجةً عليهم.

﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٩﴾

فقال: **وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم**، مقيمون، **فى غفلة وهم لا يؤمنون**، تقديره غير مؤمنين، فهو في موضع نصب على الحال، وغُيّر للوِزان.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٤٠﴾

إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون، فنجزيهم وصفهم.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢﴾

ثم عطف على قوله أولا: ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ [عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ]،[٦] فقال: **واذكر فى الكتٰب إبرٰهيم إنه كان صديقا**، هو القائم بحد[٧] الصدق مع ربه ونفسِه والناس في كل آنٍ وحال.

---

[١] سورة البقرة، ٢/٢١٣.

[٢] ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ (سورة الكهف، ١٨/٢٦).

[٣] ر: بعمر.

[٤] ر: لم نقل.

[٥] ش: أو يستمعونه.

[٦] الآية ٢ من هذه السورة.

[٧] ك: يحد.

هذا هو الأولى بأن يكون، نبيا. وبالصدق تُنال جميعُ خيرات الدنيا والآخرة. فإبراهيم صدق أباه: **إذ قال لأبيه يأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا.**

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾

يٰأبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى؛ أشدُّ ما على النفس الاقتداء، إذ هو خروج عن الحظوظ والمعارف. فهو الشريعة الكلية والسبيلُ العامُّ الهادي. ولهذا قال: **أهدك صرٰطا سويا.**

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾

يٰأبت، مخاطبة العالِم[1] المتلطف، ولم يقل: يا آذر كما قال له: يا إبراهيم. **لا تعبد الشيطٰن، إن الشيطٰن كان للرحمن عصيا.**

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾

يٰأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن، إشارة إلى أن رحمة الحق سبحانه تقضي في الدنيا بتعذيب العُصَاة لعلهم يرجعون. وقوله: **فتكون للشيطٰن وليا**، أي إن لم ترجع ثم لا تستطيع بعد ذلك أن تتوب. ويجب أن تعلم أن المؤمن إذا مسّه عذابٌ في الدنيا نبّهه على التوبة وساقه إلى الغفران، وكذلك الكافر، لقوله تعالى: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ،[2] وكقوله تعالى: فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟.[3] فإن لم يرجع فيسوقه إلى الكفر وموالاةِ الشيطان. ومن ههنا يُعلم أنه لا يكون العقاب في الدنيا إلا بالضلال. وهذا الكلام هو أنموذجُ ما قاله إبراهيم لأبيه في أزمنة كثيرة حتى جاوبه أبوه.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾

قال أراغب أنت عن ءالهتى، وَقْفٌ. **يٰإبرٰهيم لئن لم تنته لأرجمنك**، أي بالحجارة على سبيل الطرد كما يُطرد الكلبُ. ويحتمل أن يكون على صورة الاستعارة، كقوله: رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ.[4] و[يقال]: فلان رُجم بسوء عند المَلِك. وقوله: **واهجرنى مليا**، معناه

---

[1] ر: العام.

[2] وردت هذه العبارة في آيات كثيرة، منها ما ذُكر في سورة السجدة، ٢١/٣٢؛ وسورة الزخرف، ٤٨/٤٣؛ وسورة الأحقاف، ٢٧/٤٦.

[3] ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٤٣/٦).

[4] ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ (سورة الكهف، ٢٢/١٨).

أَرْجُمك ودع / تَهْجُرني مليا بهَجري، لأنه[1] ما أحد يريد أن ولده يهجره، بل هو من [٢٦٣و]
قبيل: أضربك وفارِقْني. ويقال: فلان مليٌّ بهذا الأمر أو الدَّين إذا كان قادرا عليه كامل الأمر فيه. وقيل: هو من المَلَاوَة وهو الدهر الطويل،[2] ولا بأس بذلك. والأولى أنه عائد على قوله: **لأرجمنك**، أي مليا برجمك، وأخِّر للوِزان.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾﴾

قال سلٰم عليك، أي لا بأس عليك مني ولو رجمتني، فإني لا أوذيك على أذاك لي بل لك مني سلامة. ولكن **سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا**، ذُكر[3] عند قوله: كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا.[4] ومعناه ههنا مستقضيا[5] حوائجي إليه فيقضيها، أي يُبلّغني أقصى مآربي.[6] والحفيّ هو المستقصي في الشيء إلى أقصاه. ويُحمَل معناه في كل مكان على ما قصد بذلك الكلام. وقيل: هو ههنا الحفاوة وهي البشاشة واللطف.

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾﴾

وأعتزلكم، أي أنت وقومَك، **وما تدعون من دون الله وأدعوا ربي، عسىٰ ألا أكون بدعاء ربي شقيا**، مثلكم بدعاء ما تدعونه.

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾﴾

فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحٰق ويعقوب، لمّا اعتزل الأشرارَ وَهَبه الأخيارَ. ومن أراد سلامة الدارين فليعتزل قُرنَاء السوء. فإن صحبة الأشرار تُورث سوء الظن بالأخيار، وصحبةَ العلماء الأخيار تُورث حسْنَ الظن بالله. **وكلا جعلنا نبيا**.

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾﴾

ووهبنا لهم من رحمتنا، أي ليس العطية منا لهم من باب الجزاء والعدل بل من باب الهبة والفضل. وهذه الهبة بعد الجعل، فافهم. ثم قال: **وجعلنا لهم لسان صدق عليا**،

---

[1] ش: لأن.

[2] الإملاء الإمداد، ومنه قيل للمدة الطويلة مَلَاوَةٌ من الدهر ومَلِيٌّ من الدهر؛ قال تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ (المفردات للراغب الإصفهاني، «ملا»).

[3] أي بيّن معناه.

[4] ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا... يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ (سورة الأعراف، ١٨٧/٧).

[5] جميع النسخ: متقصيا.

[6] ر: مأربي.

أي عاليا، لأنه لا أعلى في رُتَب الصدق من لسان النبي. وأضاف اللسان إلى الصدق، لأنه لا يخبر إلا عن الصدق. ولو أضاف الصدق إلى اللسان لجاز أن يضاف إليه غيره أيضا، وهذا دليل على عصمة الأنبياء من الكذب، فاعرفه.[1]

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١﴾

كرر لفظة "كان" إنباءً أن الإخلاص لم يكن له بطريق النبوة بل كان من قبلها مخلصا ثم نُبِئَ، فافهم. وأخر ذكر النبوة للوِزان.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾

ونَديناه من جانب الطور الأيمن، بكسر النون إضافة إلى الجبل، وفي طٰه بالفتح[2] إضافة إلى الجانب ليُعلَم أن المناجاة كانت من أيمن الأيمن، فافهم. والمراد يمين موسى، لأن الجبل لا يمينَ له ولا شمال، ولهذا[3] لم يقل: اليمين بل، **الأيمن**، فهو المسنوب إلي يمين موسى. **وقربناه نجيا**.

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾

وفي قوله: **ووهبنا له من رحمتنا أخاه هٰرون نبيا**، دليل على فضيلة الدعاء لقوله: وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي هَٰرُونَ أَخِي،[4] فوهب الله هارون النبوة لأجل موسى رحمةً منه سبحانه.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾

واذكر فى الكتٰب إسمٰعيل إنه كان صادق الوعد، وعد أباه بالصبر على الذبح فوفى به، لقوله: سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ.[5] **وكان رسولا نبيا**.

﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾

---

[1] ر: فافهمه.

[2] يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ (سورة طه، ٨٠/٢٠).

[3] ر – ليعلم أن المناجاة كانت... والمراد يمين موسى لأن الجبل لا يمين له ولا شمال ولهذا.

[4] سورة طه، ٢٠/٢٩-٣٠.

[5] ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (سورة الصافات، ٣٧/١٠٢).

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦﴾

واذكر فى الكتٰب إدريس، قيل: سمِّي بذلك لدرسه العلومَ ونظرِه في علم الحساب والنجوم. وقيل: «هو أول من خط بالقلم».[١] **إنه كان صديقا نبيا**.

﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾

وقوله: **ورفعنٰه**، أي بالعلم والإيمان، **مكانا عليا**، كقوله تعالى: يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ.[٢] وإنما وصفهم الله بهذه الأوصاف ليقتدى بهم في أمثالها. والمكان / ههنا استعارة، ويريد به المكانة والرتبة. [٢٦٣ظ]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾

أولٰئك الذين أنعم الله عليهم، ثم قال لا للتبعيض بل لتبيين الجنس:[٣] **من النبيين**، ثم قال للتبعيض: **من ذرية ءادم وممن حملنا مع نوح**، أي ومن ذرية مَن حملنا، **ومن ذرية إبرٰهيم وإسرٰءيل**. ثم قال لتبيين الجنس: **وممن هدينا واجتبينا. إذا تتلىٰ عليهم ءايٰت الرحمن خروا سجدا وبكيا**، زيادة الواو ليُفهَم بها أن منهم قوما يخرّون سجدا بكيا، ومنهم قوم يخرون[٤] سجّدا غير بكي، وبكيا غيرَ سجّد. والنصب على الحال.

﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾

فخلف من بعدهم خلف، الأصل فيه كلُّ ما عَقَبك، فبتسكين اللام يُستعمل في الطالح وبتحريكها في الصالح. **أضاعوا الصلوٰة واتبعوا الشهوٰت**. افهم بأي شيء عاقب مَن أضاع الصلاة واتبع الشهوات؟ وانظر كيف قدم ذكْرَ إضاعة الصلاة وأتبعه بما بعده إعلاما أن باب اتباع الشهوات هو إضاعةُ الصلوات، فينطبق على ذلك في المعنى قولُه: إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ،[٥] واحذر. **فسوف يلقون غيا**، أي يَلقون منا غيا نجعلهم من الغاوين عقابا وجزاء على ما بدا منهم. وإنما قال: **فسوف**، أي إن لم يتب منهم من تُمكِنُه التوبةُ الآنَ ويُسلمْ وإلا عاقبناهم بذلك.

---

[١] انظر: فتح الباري للعسقلاني، ٣٧٥/٦.
[٢] سورة المجادلة، ١١/٥٨.
[٣] ر: بل للتجنيس.
[٤] ش – سجدا بكيا ومنهم قوم يخرون.
[٥] سورة العنكبوت، ٤٥/٢٩.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ۝٦٠ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ۝٦١﴾

ولهذا أتبعه بقوله: **إلا من تاب وءامن وعمل صٰلحا فأولٰئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا**، أي يدخلون أولئك الذين يتوبون من هؤلاء إلى الجنة مع النبيين المذكورين ولا يُظلمون شيئا، في، **جنّٰت عدن**. يقال: عَدَن بالمكان إذا أقام به على مرّ الزمان. **التي وَعَد**، بالخير، وقد[1] يقال: وعد بالشر، ولا يقال: تواعد وأوعد إلا بالشر. ولمّا كان الوعد ههنا بالخير قال بعده: **الرحمنُ عباده بالغيب**، لأن الجنة الآن غائبة عن الأعين، فالإيمان بها إيمان بالغيب. فهو وعدٌ منه بالغيب، أي بالغائب الآنَ عن الأبصار والبصائر. ويحتمل وهو الأولى أن يكون قوله: **بالغيب**، عائدا على العباد بمعنى وعد عبادَه الذين يعبدونه إيمانا منهم بالغيب، فهم لا يعبدونه على حرف،[2] لأن الغيب لا يُعلم بوجه، فكل ما يُعلم فيُعبد الله عليه فهو حرف. فمن ادعى معرفة الله فإنما عرف حرفا فعبده. ومن عبد حرفا فهو أشد ضلالا ممن عبد الله على حرف. ولمّا كانت غاية المعرفة الاعترافَ بالجهل بالله مع الإيمان به كان ذلك إيمانا بالغيب. وكذلك الإيمان بالوعد، **إنه كان وعده مأتيا**، مفعول من[3] أتى يأتي.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝٦٢﴾

لا يسمعون فيها لغوا إلا سلٰما، من الملائكة، لقوله تعالى: وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم.[4] وهذا الدخول والتسليم فائدته أنهم يأتون بما يطلبه العبد، فافهمه. وقد بيّنّاه في قوله تعالى: دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ.[5] ولهذا بعده ههنا: **ولهم رزقهم فيها**، وإنما قال: **بكرة وعشيا**، تمثيلا بأهل الدنيا في أيامهم وأحوالهم.

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣﴾

تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا، يتقي المخالفةَ. ولمّا قدم ذكرَ السلام

---

[1] ر - وقد، صح هـ.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ (سورة الحج، ١١/٢٢).

[3] ر - من.

[4] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ (سورة الرعد، ٢٣/١٣-٢٤). | ر - لا يسمعون فيها لغوا إلا سلما من الملائكة لقوله تعالى والملٰئكة يدخلون عليهم من كل باب سلٰم عليكم، صح هـ.

[5] ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ (سورة يونس، ١٠/١٠).

الذي هو من الملائكة في الجنة عطف بالواو على قوله: لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا،[١]
[قوله:] **وما نتنزل**. وإنما عطف على غير مذكور لقوة الدلالة على الملائكة في قوله: **وما نتنزل**، ولأنه ذكر السلام في الجنة قبله، إذ هو أيضا أدل على الملائكة من غيرهم في الجنة. واعترَضت هذه الجملةُ بين كلام الملائكة وسلامهم المتقدِّمِ إعلاما أنهم إنما يسلّمون بكرة وعشيا ومعهم / الرزق، وهو يشتمل على كل ما يُرزَقه المؤمن. [٢٦٤و]
ولمّا أفرد القول الأول بقوله: إِلَّا مَن تَابَ،[٢] وأخبر بقوله: مَن كَانَ تَقِيّٗا،[٣] جاء الخطاب من الملائكة بالإفراد لذلك التقي إشارة إلى أن هذا الرزق والعطاءَ ليس من عندنا بل من عند ربك.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ٦٤﴾

وما نتنزل إلا بأمر ربك، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذٰلك، وما كان ربك نسيا، لا يُهمل،[٤] أي لا يَنْسَى عملك الذي عملته في الدنيا فلا يجازيك به في الأخرى.
وأما قوله: **له ما بين أيدينا**، فهو يُستعمَل في الدلالة على الحال والاستقبال المتصل بالأبد. وقوله: **وما خلفنا**، يريد به ههنا ما تقدم قبل إيجادهم، فإنه قد عاد خَلْفَهم حين الخطاب لهم،[٥] ويريد به الماضي المتصل بالأزل. وقوله: **وما بين ذٰلك**، يريد به من مدة إيجاد الله للملائكة، أعني من ذلك الحين وهو قبل آدم إلى حين هذا الخطاب، وهو بعد انقضاء الدنيا، لأنه خطاب الملائكة للمؤمن في الجنة. فلهذا قال ههنا: **وما بين ذٰلك**، دون بقية المواضع، فافهم.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ٦٧﴾

ثم أتبعه بمثله من ذكر البين فقال: **رب السمٰوٰت والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر**،

---

[١] من الآية السابقة.
[٢] الآية ٦٠ من هذه السورة.
[٣] من الآية السابقة.
[٤] جميع النسخ: لا يهمز.
[٥] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٣٠).

أي اقصد أن تصبر، **لعبٰدته هل تعلم له سميا**، اسمه تعالى المشار إليه ههنا هو[1] ما سمّى به نفسه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.[2]

وليس في هذه الآيات خطابٌ للنبي صلى الله عليه وسلم. ولهذا بعد ما ذَكَرَ المؤمنين مع الملائكة في الجنة ذكر الكافرَ مع الشياطين في النار فقال: **ويقول الإنسٰن**، مُنكِرا متعجِّبا ومستبعِدا ومانعا: **أءذا ما مت لسوف أخرج حيا**.

أولا يذكر، بمعنى يتذكر أولى من قراءة من قرأ بتخفيف الذال،[3] **الإنسٰن أنا خلقنٰه من قبل ولم يك شيئا**. وبهذا علمنا أن الإنسان له أوّلٌ، وبقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾،[4] علمنا أنه ليس له آخر.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨﴾

فوربك لنحشرنهم والشيٰطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا، على الرُّكَب.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩﴾

ثم لننزعن من كل شيعة أيهم، مرفوعةَ الياءِ كقوله: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾،[5] وهي في موضع نصب، ولكنها جُعلت الضمةُ فيها ضمةَ بناء كما بُنيت "مَن" و"ما". تقول: أَكرِمْ أيَّهم أفضلُ واضربْ أيهم أنذل.[6] ولو قلت: اضرب مَن أنذلُ وكُلْ ما أطيبُ تريد ما هو أطيب ومن هو أنذل لم يجز. فلمّا خالفت أَخواتِها زال تمكُّنها فوجب أن تُبنى والضمُّ أقوى الحركات فبُنيت عليه تعويضا عن المحذوف. والمعنى أيهم هو أشد، أي الأشد من القوم العتيّ[7] من تلك الشيعة. فكيف لا ننزع[8] مَن دونه في القوة إشارة إلى قدرته سبحانه وأنه لا يُعجزه شيءٌ، **أشدُّ على الرحمن عتيا**.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠﴾

ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى، أي يكونوا، **بها صليا**.

---

[1] ر ك - هو.

[2] سورة الإخلاص، ١/١١٢.

[3] قرأ بتخفيف الذال والكاف المضمومة نافع وابن عامر وعاصم، مضارع ذكر، والباقون بالتشديد مع فتح الكاف [يَذَّكَّر] مضارع تذكّر، والأصل يتذكر أدغمت التاء في الذال (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٣٧٩).

[4] ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (سورة هود، ١٠٨/١١).

[5] ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ (سورة الكهف، ١٢/١٨).

[6] ش: أنزل. | النَّذْلُ والنذيل: هو الخسيس المُحتقَر في جميع أحواله (تاج العروس للزبيدي، «نذل»).

[7] ش: الغني.

[8] ش ك: لا ينزع.

﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١﴾

وإن منكم إلا واردها، الورود الدخول بدليل أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ،[١] وبدليل وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ.[٢] ولم يقل: وندخل. **كان على ربك حتما مقضيا**. وهذا لا يناقض قوله: لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَا، فذلك إنما هو، وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ،[٣] أي بعد ورود الناس.[٤] ولا يَعْصِبُ عليك ذلك وقد آمنت بقوله تعالى في الدنيا: قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ.[٥] فيوشك أن إبراهيم التذّ بالنار.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢﴾

ثم ننجي الذين اتقوا، النجاة على قدر الدرجات، ولهذا بعضُهم يعذَّب / ويخرَج، [٢٦٤ظ] ولفظ التقوى يقع على الجميع. ولهذا عبّر به ليَعُمَّ مَن عذِّب ويَخُصّ مَن لا يعذَّب. فلا تفهم مِن ثَمّ أنها تختص بالخواص فقط بل تختص بالورود. فبعضٌ يَنجو بعد العذاب وبعضٌ يدخلها آمِنا، وذلك من جملة النِّعَم وتمام اللذة. وذلك أن المؤمن يرى العذاب وهو[٦] سالمٌ منه وعدوّه واقع به. ثم يتضاعف نعيمُهم في الجنة بما شاهدوه من النار. ولهذا قال تعالى: لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ،[٧] أي إنهم يشاهدون ذلك ولا يحزنهم. وهذا من أبلغ النِّعَم. قال رجل من الصحابة لآخر: أيقنتَ بالورود؟ قال: نَعم، قال: فأيقنتَ بالصدر؟ قال: لا، قال: ففيم الضَّحِك ففيم التثاقل؟[٨] **ونذر الظٰلمين فيها جثيا**، وهم الذين حشرهم مع الشياطين أولا حولَها.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ٧٣﴾

وإذا تتلىٰ عليهم ءايٰتنا بينٰت، جاء منصوبا على الحال، **قال الذين كفروا للذين ءامنوا**، هذا القولُ في الدنيا ليردّوهم عن الإيمان؛ ولو كان في الجنة والنار على رأي بعضهم لكان الأولى أن يقول: قال الذين آمنوا للذين كفروا، بل هذا القول في الدنيا.

١ ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٩٨/٢١).

٢ من الآية التالية.

٣ سورة الأنبياء، ١٠٢/٢١.

٤ ش ك: النار.

٥ سورة الأنبياء، ٦٩/٢١.

٦ ر – هو.

٧ سورة الأنبياء، ١٠٣/٢١.

٨ مدارك التنزيل للنسفي، ٩٩٠/٢.

ولهذا قال أولا: **وإذا تتلى. أيُّ الفريقين خير مقاما وأحسن نَدِيًّا**، والندي هو النادي، وعَبِّر للوِزان، وهو المجلس، أعني الموضع الذي يُجلس به. فكان الكافرون في بدء الإسلام لهم المقام الحسنُ والنادي الرحْبُ، وكانوا يعيِّرون المؤمنين بأن مساكنهم دون مساكنهم ويُزَهِّدُونهم في الإسلام بهذا الكلام ومثلِه، كأن الكفار جعلوا ذلك حجةً لهم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾

فقال تعالى: **وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن**، من هؤلاء، **أثْثا ورِءْيًا**، مهموز، وأصله من رأى الشيءَ رؤيةً، والرأيِ هو الاسم، وهو ههنا كالمَنظر، أي أحسن أثاثا ومنظرا.[١]

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

قل من كان فى الضَّلٰلة، مختارا لها، والفاء جواب الجزاء في قوله: **فليمدد له الرحمن مدا**، في الضلالة عقابا له. وقوله: **فليمدد**، دعاء عليه، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقوله، أي من كان مني ومنكم في الضلالة فالله يَمدّه فيها بها. وقيل: هو إخبار بصورة الأمر. وكثيرا ما تَستعمله العربُ، تقول: من زارنا فلنكرمه، تريد إيجابَ الإكرام والتأكيدَ لإلزام النفس به. **حتىٰ**، هذه هي التي تُحكى بعدها الجُملُ، ألا ترى أن الجملة قد حُكيت بعدها بقوله: **إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب**، كالقتل والسبي، **وإما الساعة. فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا**، قدمَ ذكر العذابِ على ذكر الساعة إعلاما أنهم بين عذابين: إما عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وإما عذاب الآخرة فقط. وهذا جواب لقولهم: أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا.[٢]

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

ثم نبه على أن عذابهم في مزيد بما ذكره عن المؤمنين فقال: **ويزيد الله الذين اهتدوا هدى**، جعل جزاءَهم في الدنيا على هداهم هدًى كما جعل عقابَ الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

---

[١] قال الفراء: الرِّئي المنظر (لسان العرب، «رأى»). | ورئيا: قرأه بتشديد الياء من غير همز قالون وابن ذكوان وكذا أبو جعفر والباقون بالهمز (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٧٧).

[٢] الآية ٧٣ من هذه السورة.

فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا.[١] وأتبعه بحالهم في الآخرة فقال:[٢] **والبٰقيٰت الصٰلحٰت خير عند ربك ثوابا وخير مردا.** فلو قيل: هذا كقول القائل: الصيف أحرّ من الشتاء، فالمعنى الصيف في حره أبلغ من الشتاء في برده. ولهذا قال: **عند ربك**، وإن كان الكفار غيرَ ذلك.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ
ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾
وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

أفرأيت الذى كفر بـٔايٰتنا وقال، مع كفره وهو مقيم عليه، أي لا أبالي وسأقيم على ما أنا عليه ويكون لي ما أختاره. / فهذا معنى قوله: **لأوتين مالا وولدا.** قال[٣] الله تعالى: [٢٦٥و] **أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا.** ثم كذّبه الله، أي إنه لم يطلع ولم يتخذ فقال: **كلا**، وقفٌ، لأنه بمعنى[٤] النفي والردِ لما قبله، أي ليس الأمر كما زعم بل هو مفتون. **وكلا**، هي مؤكِّدة "لا"، فإنها لا يحسن أن تؤكَّد بلام التأكيد، فافهم ذلك. **سنكتب ما يقول**، أي في المستقبل من مثل أقواله هذه، أي نكتب عليه ما قاله واعتقده من أنه مثاب على كفره بآياتنا، أو أن[٥] الحق معه بدليل ما آتيناه من مال وولد. وذلك منا فتنة، لقوله[٦] تعالى: أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ،[٧] الآية. فقال ههنا مثله: **ونَمُدّ له من العذاب**، سمّي الشيء باسم ما يئول إليه. والإمداد ههنا هو بما يفتنه من المال والولد، **مَدّا.** وهذا العذاب في الآخرة يتقدمه العذابُ في الدنيا، كقوله تعالى: إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا.[٨] **ونرثه ما يقول**، أي نرث الذي قاله وهو المال والولد، ويموت هو، **ويأتينا فردا**، لا مالَ له يُنجيه ولا ولد يواليه.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾

واتخذوا من دون الله ءالهة ليكونوا، آلهتهم، **لهم**، وقوله: **عزا**، أي اتخذوهم آلهة عزا، أي اعتزازا بهم، وأخِر للوِزان.

---

١ ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ (سورة البقرة، ١٠/٢).

٢ ر – فقال.

٣ ر: وقال.

٤ ش: لأنه معنى.

٥ ر: وأن.

٦ ر: كقوله.

٧ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (سورة المؤمنون، ٥٥/٢٣-٥٦).

٨ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (سورة التوبة، ٨٥/٩).

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾

كلا سيكفرون بعبادتهم، المتخذون يكفرون. ويحتمل عودته على الآلهة، كقوله: مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ،[1] وهذا أولى. **ويكونون**، الآلهة، **عليهم**، ثم قال: **ضدا**، أي بالضد مما ظنّوه، إذ صاروا عليهم لا لهم، لأن العابدين كانوا لهم أولياء وسيكون المعبودون للعابدين أعداء، فيكونون عليهم بالضد. ولهذا لم يقل: ويكونون لهم ضدا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾

ألم تر أنا أرسلنا الشيطين على الكفرين تؤزهم أزا، هذا للكافرين، ومثله: وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ،[2] أي من المؤمنين. والأزيز صوت غليان القِدر. وفي الحديث: «إنه كان يصلي ولجوفه أزيزٌ كأزيز المِرْجَل من البكاء».[3] وإنما قال: كأزيز المرجل، أي وهو يَغلي بما فيه على النار. فهذه اللفظة استعارة لِما يفعله شياطين الإنس بالكفار في الدنيا. وذلك أن الأزَّ كالهزّ، ولكن الهز تحريك مِن خارج، والأز تحريك مِن داخل. ولمّا كان الغليان يحرّك جملةَ أجزاءِ ما في المرجل ليظهر له أزيزٌ، فكذلك الشياطين تحرك جملة أجزاء بواطن الكفار كتحريك النار لِما في المرجل. ولا يكون[4] تحريك الشياطين إلا إلى شر لا إلى خير. وهذا على صورة المَثل والاستعارة، كقوله: وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ، وقد قال قبله: وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم.[5] ولمّا كان الشيطان يحرّك الكافر إلى اتباع الهوى والشهوات ويُتبعه الدنيا ويُتعِبُه في أغراض نفسه تعبا يوجب للكافر أن يظهر[6] للكافر من فرط تعبه وكَدْحِه وكَدِّه في حطام الدنيا أزيزٌ جاءت هذه اللفظة دالةً على هذا المعنى. وكما يفعل شياطينُ الجن بالإنس كذلك يفعل[7] شياطين الإنس بالإنس. ولهذا جاء الكلام مطلقا ليَعُمّ جُلَّ[8] أبناء الدنيا تؤزُّهم الشياطين. وقد تقدم أن المراد مَثَلٌ يُفهَم به المقصود.

---

[1] ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ (سورة القصص، ٢٨/٦٣).

[2] ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ (سورة الزخرف، ٤٣/٣٦).

[3] سنن النسائي، السهو ١٨؛ والمستدرك للنيسابوري، ١/٢٦٤.

[4] ر ك + في.

[5] ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٦٤).

[6] ش: أن يظهره.

[7] ش ك: تفعل.

[8] ش: وجل.

﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ٨٤﴾

فلا تعجل، بطلب العذاب الواقع، **عليهم إنما نعد لهم عدا**، قدَّرناه، فإذا جاء آخرُه جاء من العذاب أولُه.

﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥﴾

يوم نحشر المتقين **إلى الرحمن وفدا**، الوفد جمعُ وافد، وهو قاصدٌ وارد، وجمع الجمع وُفود وأوفاد. وهم / الرسل يُقدَّمون على الملوك بالصلح والبِشارات، فلهم الجوائز. [٢٦٥ظ]

﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ٨٦﴾

ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا، صفة لجهنم، فهي ورد كقوله تعالى: وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا.[١] والمعنى أنهم يَرِدُون جهنمَ عِطاشا، فهي الوِرْد لهم.

﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾

ثم أخبر عن المجرمين خاصة أنهم، **لا يملكون الشفعة**، أي لا يملكون ما تؤدي إليه الشفاعةُ من النجاة والسلامة. فالمراد بقوله ههنا: **لا يملكون**، أي لا تنالهم[٢] ولا تفيدهم، فهو كقوله: فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ.[٣] وليس المراد أنهم لا يَشفعون في غيرهم، لأن الكلام ليس عن المتقين، فإن المتقين لا يحتاجون إلى شفاعة، إذ الشفاعة لا تكون إلا في مُجرِم، والمجرم لا ينفع نفسَه فكيف يَشفع في غيره. فبعض المجرمين لا تُفيدهم الشفاعة لأنهم يخلَّدون في النار. وبعضهم بعد ورودها تَنفعه الشفاعةُ فيَخرج منها فهو يَملك الشفاعةَ، وهم مَن استثناهم مِن المجرمين بقوله: **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا**. والعهد ما عاهدوا الله عليه، وعاهدهم، كقوله تعالى: لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ،[٤] الآية. فمن كان قد اتخذ عند الله عهدا وتمسك به لكنه اجترح من المعاصي ما لا يَخلد به في النار فذلك هو الذي يملك الشفاعةَ بمعنى أنها تَنفعه وتُفيده وتُنقذه من العذاب. ويحتمل أن يكون المراد بقوله عن المجرمين: **لا يملكون الشفعة**، مُنبئا عن أن المتقين يَملكون الشفاعة بإذن الله. فيكون هذا من جملة ما وعد الله به المتقين وسلبه المجرمين،

---

[١] الآية ٧١ من هذه السورة.

[٢] ش ك: لا ينالهم.

[٣] سورة المدثر، ٤٨/٧٤.

[٤] ﴿... وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ (سورة المائدة، ١٢/٥).

وهذا أحسن الوجهين. ولهذا إن المؤمن يَشفع كما جاء به الحديث.[1] فكأنه قال: لا يملك المجرم شفاعة، وإنما لا يملكها إلا من اتخذ عهدا وهو المتقي.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨﴾

ثم وصف المجرمين بقوله عنهم: **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا**.

﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩﴾

لقد جئتم شيئا، بشيء، **إدًّا**، الإدّ الداهية والشيء الفظيع.[2]

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١﴾

تكاد السمٰوٰت يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا، أي فتَنْهَدُّ هَدّا ويريد هدّة واحدة. وقُلبت الهاءُ[3] ألفا للوِزان، كقوله: فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ.[4] والمعنى أنه كادت تقوم قيامةُ القائلين لذلك فتَنفطر السماءُ وتَنشق الأرض وتخرّ الجبال وتنهدّ من أجل ذلك عقابا لهم على، **أن دعوا للرحمن ولدا**.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢﴾

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾

إن كل من فى السمٰوٰت والأرض إلا آتى الرحمن عبدا، له سبحانه.

﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤﴾

لقد أحصٰهم، أحاط بكل صفة من ظواهرهم وبواطنهم. **وعدّهم عدا**، فلا ينقص عددُه ولا يزيد.

﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾

وكلهم، أي كل واحد منهم خاصةً، **ءاتيه يوم القيٰمة فردا**، بمفرده.

[1] انظر مثلا في سنن الترمذي، صفة القيامة ١٢؛ والمستدرك للنيسابوري، ٤٩٨/٤.

[2] ش: الفضيع.

[3] أي الحرف الأخير من كلمة "هَدّة".

[4] ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ (سورة الحاقة، ١٤/٦٩).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾

إن الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت سيجعل لهم الرحمن ودا، حُبّا في صدور بعضهم لبعض، كقوله: وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ [تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ].[1] وهذا من أعظم النِّعَم وأتم السرورِ. والمرادُ أنه يجعل ذلك في الجنة. ولهذا قال بالسين. فهذا وُدٌّ من جهة الخلق، ولهم أيضا ودٌّ من جهة الحق، كقوله تعالى: يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ.[2] ولهذا ذكره الله تعالى مطلقا.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧﴾

ثم قال لنبيه عليه السلام: **فإنما يسرنٰه**، أي القرآن، ودل عليه بقوله: **بلسانك**، أي العربي، ولم يُردِ العضوَ بل من البيان، **لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا**، مخاصمين، من قوله:[3] وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ.[4]

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ٩٨﴾

وكم أهلكنا قبلهم من قرن، هل تحس منهم من أحد، [مِن] أحسّ يُحس لازم، أحسستُ الشيء: وجدت حسه أو أدركته بشيء من حواسّي، ومنه فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ،[5] أي ظن ووجد. والحس والحَسيس الصوت الخفي. وتقول: حسّ الدابةَ وأحس بالأمر. والمعنى هل تجد في باطنك / إحساسا. **أو تسمع**، بأذنك، **لهم ركزا**، والركز [٢٦٦و] صوت خفي، [أي هل تسمع لهم ركزًا]، كما تسمع من صوت ركزك شيئا في الأرض، يقال: ركز رمحه إذا غرزه في الأرض، ومنه الرِّكاز وهو الدفين، لأنه رُكز في الأرض، فجُعل له منها مركزٌ، أي مكان يَثبت به، ومنه مركز الدائرة. والإشارة إلى أن ليس لهم حسّ فوق الأرض ولا تحتها فيَشعر به ذو الإحساس الباطن بباطنه، أو يَسمع لهم ركزا بأذنه في ظاهره، بل هَلكوا جملة بعد عِظَم أمرهم، فكيف هؤلاء![6]

---

١ سورة الأعراف، ٤٣/٧.

٢ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ (سورة المائدة، ٥٤/٥).

٣ ك - من قوله.

٤ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ (سورة البقرة، ٢٠٤/٢).

٥ ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (سورة آل عمران، ٥٢/٣).

٦ ش + تمت سورة مريم، يتلوها إن شاء الله تعالى سورة طٰه، والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله.

سورة طٰهٰ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طه ① مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ② إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ③ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ④﴾

طٰهٰ، ما أنزلنا عليك القرءان لتشقى، ما أنزلناه، **إلا تذكرة لمن يخشىٰ**، **تنزيلا ممن خلق الأرض**. كلُّ سامٍ سماءٌ، فقوله:[1] **والسمٰوٰتِ**، يَعُمُّ السبعَ وما فوقها، ولهذا قال: **العلىٰ**.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ⑤﴾

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ⑥﴾

له ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرىٰ، ولم يقل: وما فوق السماء، إذ كلّ فوقية سماءٌ.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ⑦﴾

وإن تجهر بالقول، تقديره أو تُسِرَّه، **فإنه يعلم السر**، أي في السماوات والأرض وغير ذلك. والسِّرُّ بالحقيقة ما لا يكون جهرا بوجه. وأما بالنسبة والإضافة فهو قد يظهر بوجه ويَخفى بوجه. ولم يقل: والخفيَّ،[2] بل، **وأخفى**. فأخفى مما نسره هو ما لا نعلمه مما اسْتَسَرَّ فينا عنا وما لا تقع الإشارة إليه منا.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ⑧﴾

ولما قال: **الله لا إلٰه إلا هو**، أعقبه[3] بقوله: **له الأسماء الحسنىٰ**، ليُحقّق له في أنفسنا تعظيمَ الذات بما نحققه[4] من أحسن الصفات.

---

[1] ر: بقوله.
[2] ر: الخفي.
[3] شر ك: عينه.
[4] ر: بما يحققه.

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝١٠﴾

ولمّا كان الخطاب لنبيه صلى الله عليه وسلم قال مسلّيا له بقصة مَن قبله: **وهل أتىٰك حديث موسىٰ، إذ رءا نارا**، عن يمينه، وكان قد تاه عن الطريق، **فقال لأهله امكثوا**، أي قِفُوا مكانكم، **إنى ءانست نارا**، وكانت نارا تُؤنس الرائي لا تُوحِشه، **لعلى ءاتيكم**، أي أجيء إليكم، **منها بقبس**. ولو قال: آتيكم قبسا لكان يُفهَم منه أن يعود هو قبسا، فكأنه قال:[1] لعلّي آتيكم منها بقبسٍ منها.[2] فقدم "منها" ولم يكررها. والقبس قليل النار، وهو ما اشتُعل منها في حُراق[3] أو مثله. والشهاب ما كان من النار له لهب هو لسان. فالالتهاب غير الاشتعال، تقول: اشتعلتُ النار في الحطب إذا أضرمتَها[4] وأوقدتَها به. ولهذا قال: وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا،[5] ولم يقل: والتهب.[6] لأنه بياض دَبّ كما تَدُبّ النارُ في الحطب أو الفحم قليلا قليلا من غير لهب. واللَّهَبة اللسان، فالشهاب لسان هو لهب النار. ومنه سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٍ.[7] والقبس هو الشعلة القليلة بغير لهب. والجذوة الجمرة، لأن الجذوة يُصطلى بها. لهذا قال: لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ. وقوله: بِشِهَابٖ قَبَسٍ،[8] أي بلهبِ شعلةٍ. فالنار في الفتيلة شعلةٌ والفتيلة بها مشتعلةٌ. فإن كان لها لهبة كالسراج الموقود فتلك اللهبة شهاب. وقوله: **أو أجد علىٰ النار هدى**، أي على ضوئها هدى إلى السبيل المقصودة له، لأن مسيره كان ليلا.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢﴾

فلما أتىٰها نودى يٰموسىٰ، إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى، اعلم أن تقدير الكلام: إنك طُوى بالواد المقدس. ويحتمل أن يكون من قولك: طَوَى يطوي فهو طاوٍ، تريد متابعةَ الصوم، فأخِر وغيِّر للوِزان. فتكون هذه اللفظة / صفةً لموسى [٢٦٦ظ]

---

[1] ر – قال.

[2] ر – بقبس منها.

[3] نارٌ حِراقٌ وحُراق تُحْرِق كلَّ شيء (لسان العرب، «حرق»).

[4] ضَرِمت النار ضرَما، اشتعلت، وأضرمها وضرَّمها شُدِّد للمبالغة (تاج العروس للزبيدي، «ضرم»).

[5] سورة مريم، ٤/١٩.

[6] ر: التهب.

[7] سورة المسد، ٣/١١١.

[8] ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ (سورة النمل، ٧/٢٧).

واسمًا يختص به لا بالوادي. وأما الطوى فهو الجوع وهو من طَوِيَ بفتح الطاء والياء وكسر الواو، ويَطْوَى بفتح الواو، ويقال: صام، وطوى يطوي، ويتصرف منه طُوىً كقولك: هدى يهدي ويتصرف منه هدًى. ويوصف الفاعل بهذا الاسم للمبالغة، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾،[١] والمعنى هذا هادٍ. وكذلك طُوىً بمعنى طاوٍ، والله أعلم بكلامه. وهذا يدل على كثرة ما كان موسى عليه السلام يَستعمله من الجوع والصوم؛ بل من الطي الذي لا يكون إلا بعد صوم. فكان موسى طاويا في تلك الليلة، لكنه لم يكن قد قدّم صومَ يومٍ واحد بل صوم أيامٍ، فلم يُنْعَت بأنه طاوٍ بل طُوىً. وهذا أفصح مما نُقل في كتب اللغة أن الوادي طُوِي مرتين، أي قدِّس، فإن الوادي يحتمل أن يكون قدِّس بما حلّ فيه من التجلي فسمِّي بهذا الاسم. وإذا صح أن يُسمَّى الوادي به فأولى من ذلك أن يسمَّى موسى به. وكذلك قول مَن قال: إن الله تعالى خَصَّ بعضَ الأراضي بصلاح الهواء الموجب لصلاح روح الساكن بها، كما ذكر علماءُ بني إسرائيل عن أرض البيت المقدس أن فضاءها يوجب للنفس أن تصير حكيمة. فإذا جاز أن تسمَّى الأرض بهذا الاسم من أجل ما خُصت به، فكذلك جاز أن يسمَّى به موسى أيضا لما خُصَّ به. فإن تلك الأرضِ إنما قدِّست من حينِ التجلي، أعني الوادي المقدس.

وأما خلعُ النعلين فظاهره أدبٌ وباطنه بالتأويل عجبٌ. فثباتُ قلبِ المحِق في المحبة هو بأن يَلبس ثوب الطُّوى، وثبات قدمِ الصدق في السير بالوادي المقدس[٢] هو بأن يخلع السِّوى. وليس هذا الأسلوب من غرض الكتاب وإن فُهم منه الأحسنُ والعُجاب؛ إذ الإشارات بالعبارات لا تُحصى، وتنوُّع الاعتبارات بها على حسب الأحوال لا تُستقصى. وإذا لزم العجز عن بيان الغايات وجب الوقوف مع البِدايات بفهم ظواهر الآيات. ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾.[٣]

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾

وأنا اخترتك فاستمع لما يوحىٰ، بين أن هذه المناجاة[٤] كانت وحيا.

[١] سورة الجاثية، ١١/٤٥.
[٢] ر ك - بالوادي المقدس، صح هـ.
[٣] سورة البقرة، ٢٤٧/٢.
[٤] ر: المناجات.

إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلوٰة لذكري، أي حين ذكري. واللام ههنا كقوله: أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ،[1] ونظير هذه الآية قوله تعالى: وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ.[2] ومما يظهر من هذه الآية أن المراد هو إقامة الفريضة عند سماع الأذان، لأنه ههنا هو الذكر. ولمّا كان هذا الإخبار عن موسى عائدا إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم جاء اللفظ مبيّنا لِما هو الأَولى بهذه الأمة ندبا إلى ذلك وتنبيها على فضيلة أول الوقت. وقيل معناه: وأقم الصلاة لي. وذِكْرُه هو باسم من أسمائه تعالى فهو كقوله: سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ [ٱلْأَعْلَى]،[3] وهذا من باب قوله تعالى: فَصَلِّ لِرَبِّكَ [وَٱنْحَرْ]،[4] وهذا جيد. ويُحمل على لفظ الآية ههنا ما معناه أن تكون إقامتك للصلاة من أجل أن تذكرني لا لمجرد الصلاة، فتكون اللام لام كي لئلا يكون المصلّي لاهيا، أو مفكرا، أو ناسيا، أو ساهيا عن ذكر الله في الصلاة، أو قام لطلب حاجة، بل للذِّكر. فقد جاء بلسان بعض الأولياء: "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أُعطي السائلين".[5] ويحتمل ما معناه تعظيما لذكري.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾

ثم خوّف العباد فقال: **إن الساعة ءاتية أكاد أخفيها**، وهذا يدل على[6] شيء قد أظهره ولم يُخفِه، لكنه كاد. فمعناه أكاد أن أُخفيها ذاكرا / لها، أي لا أُجري ذكراها، فكيف أعيّن وقتها. وهذا يُعلَم من قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ، الآية، ولهذا قال: لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ.[7] وقوله: **لتجزىٰ**، اللام في قوله: **لتجزى**، لام كي، وليست عائدة على الإخفاء فإنه لم يُخْفِها، بل تقدير الكلام: أن الساعة آتية، **لتجزى كل نفس بما تسعىٰ**. [٣٦٧و]

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾

فلا يصدنك عنها، أي عن الإيمان بها، **مَن لا يؤمن بها**، أي بقيامها وإتيانها. **واتبع هوىٰه فتردىٰ**، من الردى وهو بمعنى الهلاك.[8]

---

[1] ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ (سورة الإسراء، ٧٨/١٧).

[2] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ (سورة الأعلى، ١٤/٨٧-١٥).

[3] سورة الأعلى، ١/٨٧.

[4] ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ (سورة الكوثر، ٢/١٠٨).

[5] عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» (سنن الدارمي، فضائل القرآن ٦؛ وسنن الترمذي، فضائل القرآن ٢٥).

[6] ر - يدل على، صح هـ.

[7] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ (سورة الأعراف، ١٨٧/٧).

[8] ش: وهو من الهلاك.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾

وقوله: **وما تلك بيمينك يٰموسىٰ**، ليتأمل موسى عصاه ويقِرّ معترفا بلسانه قبل انقلابها ثُعبانا لتكون المعجزة أظهر باعترافه. وقد رأينا من يعاني الشَّعْبَذَة يأخذ الجَوْزة في كفه ويقول للرائين:[١] ما هذه؟ فيقال: جوزة، فيُلقيها[٢] من يده فإذا هي بيضة بصورة من الدَّكّ[٣] والخفة؛ وإنما قال لهم: ما هذه، ليكون العجب بما شاهدوه بعد اعترافهم أولا أشدَّ، وليس ذلك على سبيل الإيناس. فهذا مثل ظاهر لتفهم، وكلام الله أجل وأعظم. وقوله: **تلك**، يُفهَم منه المخاطبة من مكان عالٍ لمن هو في مكان مستفلٍ.[٤] وفي التوراة أن موسى رأى النار تلتهب في شجر السّنا،[٥] والسنا غير مأكول، أي بالنار.

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨﴾

وقوله: **قال هى عصاى**. زيادة "هي" ليدل على أنه لم يكن في يده غيرُها. وقوله: **أتوكؤا عليها**، وصفها أولا بأخص صفاتها. ثم قال: **وأهش بها علىٰ غنمى**، والهَشّ صوت يَظهر من الراعي عند سوق الغنم كالصفير يشبه أن يكون هاءً وشينًا. ولو كان الهش عند إمساك الغنم لقال: وأَهُش بها غنمي، ولم يقل: "على". ولو كان لطردِ الذئب لقال "عن". وقوله: **ولى فيها مـٔارب**، حاجات؛ واحدتها مأرُبة ومأرَبة بضم الراء وفتحها وكذلك الإربة، والإرب الحاجة. وكان يجب أن يقال ههنا: "آخَر" فعدل به[٦] للوِزان فقال: **أخرىٰ**. انظر إلى جواب موسى عليه السلام كيف أتى به تاما لا يحتمل أن يقال له بعد ذلك: لأي شيء حملتها؟ وإنما كان الجواب كذلك لِما يلزم عن السؤال. وذلك لكونه سأله عن شيء ظاهر: ما هذا؟ والسؤال عما هو ظاهرٌ للعقل مرئيٌّ للعين يدل على استكشاف غير المرئي من مآربِ المسئول عنه به، كما تقول لمن في يده كتابٌ: ما هذا؟ فيكون السؤال عن المعلوم متوجها على ما يتعلق بالمعلوم مما هو غير معلوم، فيكون الجواب حينئذ: كتاب. ثم يُتمم الغرضَ فيقول فيه كيت وكيت. فالسؤال عن العصا كذلك.

---

١ ش ك: للرائن.

٢ ش ك: فيقلبها. وفي هامش ك: فيلقيها.

٣ ك: من الدل؛ ش + فيلقيها. وفي هامش ك: دك. | **الدَّكُّ**: ما استوى من الرمل وسهل (لسان العرب، «دكك»).

٤ ش: مستقل.

٥ السَّنا والسَّناءُ: نبتٌ يُكتَحَلُ به يمدُّ ويقصر واحدته سَناةٌ. وقال أبو حنيفة: السَّنا شُجَيْرَة من الأَغْلاث تُخْلَط بالحِنّاء فتكونُ شِبابًا له وتُقَوّي لَوْنَه وتُسَوِّده وله حمل أَبيضُ إذا يَبِس فحركَتْه الريح سَمِعْتَ له زَجَلا (لسان العرب، «سنا»).

٦ ر: فعدل بها.

وزبدته أن يُعلَم أن العصا لم تكن جاءته من الغيب، أو أخذها ذلك الوقتَ، أو كانت من قبل قد ظَهر لموسى أن لها خاصيةً أو سرًا يُفعل بها من أجله كذلك. فذكر موسى ما لا بد من العصا من أجله وإن كان له بها انتفاعٌ بصُوَرٍ شتى كقتل حيّة وقلعِ حشيشة وغير ذلك. فجمع الجميعَ بقوله: **ولى فيها مآرب**. ثم أمره الله بوضعها فصارت حيّةً. ومن شأن العصا أن يَذبَّ بها حاملُها عن نفسه الحيّةَ وما شاكلها. وإنما جعل الله ما[1] من شأنه أن تدفع به الحية حيةً ليكون الإرهابُ أشدَّ. ثم أمره أن يأخذها، ونهاه عن الخوف بعد أن خاف وانهزم. فكان انقلابِ العصا حيّةً دليلا لموسى على أن الحية تنقلب عصا. ولما قال له: **ولا تخَفْ**، ذهب عنه جملة الخوف.

[٢٦٧ظ] وفي هذه القصة من التعليم / ما لا يَخفى[2] على من أراد أن يرسل رسولا في مهمّ من أنه يجرّبه ويمتحنه هل يَصْلُح لِما يريد منه المرسِل له أم لا؟ فإن موسى لو لم يأخذ الحيّةَ بيده لم يُقدِم على فرعون. فأخْذه لها دليلٌ على صحة الإيمان. وفي ذلك إعلام أن الذي ذلّل لك هذه الحيةَ وكفَّ بأسَها عنك هو الذي يذلل فرعون ويكفُّ بأسَه. وأيضا قدّم الله لموسى ذلك لئلا يَخاف من الحيّة إذا وضعها بين يدي فرعون. وفي ذلك حِكَمٌ يطول شرحها. وإنما ذكرت أنموذجا تَفهم به مثله.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾

وقوله: **قال ألقها يٰموسىٰ، فألقىٰها فإذا هى حية تسعىٰ**. ولأرباب التأويل من المتصوفة في قوله: **ألقها**، بعد ذكر المآرب، وفي رؤية المآرب بعد الإلقاء حيةً، وفي الأخذ لها بعد المعرفة بها كلامٌ حسن ليس من غرض الكتاب.

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾

وقوله: **قال خذها ولا تخف سنعيدها**، إلى[3] **سيرتها الأولىٰ**، لا عصًا أخرى بل هي بعينها.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾

واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء، أي من غير مرض بسوء كالبَرَص.

---

[1] ر - ما.
[2] ش: ما لا تخفى.
[3] ش - إلى؛ ك - إلى، صح هـ.

ولم يحتج أن يذكر له ههنا وأعدَّها تخرج سيرتَها الأولى لِما تقدم في العصا، فافهم ذلك. وهو في التوراة مبسوط كما قلنا.[١] والجناح ههنا يريد به جملةَ اليد، أعني مع الساعد والعضد. فإن جملة يد الإنسان تُشبه جناحَ الطائر. وإنما وضع يده اليمنى تحت إبطه من اليد اليسرى وأدخلها من زِيقِه الذي هو جيب ثوبه. وأصله من جاب، أي قطع، ولا يتناقض القولُ إذا فهمت. ولهذا قال: **واضمم**، ههنا وفي مثله ليدل على حركة تُشبه الضمَّ كما تضم الحشيشَ مثلا باليمنى إليك فتصير اليمنى عند الإبط الأيسر. وقوله:[٢] وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ،[٣] يريد اليد التي ابيضّت، وكل واحدة منهما جناح. وقوله: **ءايةً أخرىٰ**، ليدل على آيةٍ أولى.

﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ٢٣﴾

وقوله: **لنريك من ءايٰتنا الكبرىٰ**، تقديره لنريك الكبرى من آياتنا. ولهذا لم يقل: الكُبَر. ولا تظنَّ أن الصغرى والكبرى تَصلُح لجمع[٤] المؤنث، فالجمع صُغَر وكُبَر. فليست الكبرى ههنا صفةً لجميع الآيات، بل يريد بها آية واحدة، فافهم ذلك بدليل قوله: فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ.[٥] لكن ههنا نكتة وهي أن كل آية هي كبرى في نفسها، وهي أكبر مما قبلها بدليلِ وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَا،[٦] فالأولى كبرى ثم الأخرى أيضا كبرى. ولهذا قال ههنا: **الكبرىٰ**، بعد قوله: أُخۡرَىٰ،[٧] لتعود الصفة للأخرى. ويجب أن تفهم أن الأكبر كبير أيضا فلا يتناقض، وسأزيدك بيانا في موضعه.

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾

اذهب إلىٰ فرعون إنه طغىٰ. قال رب اشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى، واحلل عقدة من لسانى، يفقهوا قولى، أي احلُلْ يفقهوا وإلا كيف يفقهونه. فآتاه الله ما سأل ولم يَحُلل العُقَدَ كلَّها، لأن موسى عليه السلام لم يسأل حلَّ العُقَد بل عقدة، ولم يسأل ذلك

---

١ انظر: الخُروج ٧/٨-١٠.

٢ ر - وقوله.

٣ ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ (سورة القصص، ٣٢/٢٨).

٤ ش ك: لجميع.

٥ سورة النازعات، ٢٠/٧٩.

٦ سورة الزخرف، ٤٨/٤٣.

٧ من الآية السابقة.

إلا ليفقهوا قوله. فآتاه الله ما سأل وأبقى في لسانه ما أبقاه ليعرفه فرعون. ولهذا قال أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا.[1] والدليل على أنه لم يَحُلّ سائرَ العُقد قولُ فرعون: وَلَا يَكَادُ يُبِينُ.[2] والدليل على أنه تعالى آتاه سُؤْلَه أنهم فقِهوا قوله. فدل النص على أنه كان في لسانه عُقَدٌ كالألثغ[3] في جُلّ[4] الحروف مثلا، ولكن من جملة العُقَدِ عقدة واحدة إذا حُلّت فقهوا قوله. ولهذا قال: يفقهوا، الذي يدل على تأملٍ منهم واستلزام من اللفظ. فأجاب الله سُؤْلَه وحل العقدةَ المشار إليها إذ ذلك هو الذي / سأل موسى ربه. وبهذا الإيضاح [٣٦٨و]
تزول المناقضة بين قوله تعالى: قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ،[5] وبين قوله: وَلَا يَكَادُ يُبِينُ.[6] فافهم هذا المعنى ما أحسنه كونُه حل عقدةً وأبقى غيرَها من العُقَد التي يُمكن أن يُفقه قولُه مع وجودها في لسانه. ولهذا جاءت منكَّرةً لتدل على عقدة من جملة عُقَد، كأنه قال: واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، إذا حَلَلْتَها فإنك أعلم بها.

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

واجعل لى وزيرا من أهلى، هٰرون أخى، اشدد به أزرى، وأشركه فى أمرى. جزم على الأمر وجعل الطلب بقوله: **وأشركه**، لسبب يعود على موسى وأخيه. وهو، **كى نسبحك كثيرا، ونذكرك كثيرا**. وهذا يُفهَم منه فضيلة القرين، وأن مثل موسى لم يستغن عن ذلك. ويُفهَم أيضا منه[7] أن من اتخذ قرينا إنما ينبغي أن يتخذه لمثل ذلك. ويُفهَم منه أيضا أن موسى وهارون مع جلالة القدر وعلوّ المنزلة لم يَقنعا من الذكر إلا بالكثير، فكيف غيرهما.[8]

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

---

[1] سورة الشعراء، ١٨/٢٦.

[2] ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (سورة الزخرف، ٥٢/٤٣).

[3] الألثغ الذي لا يستطيع أن يتكلم بالراء. وقيل: هو الذي يجعل الراء غينا أو لاما، أو يجعل الراء في طرف لسانه، أو يجعل الصاد فاء (لسان العرب، «لثغ»).

[4] ك: في حل.

[5] الآية ٣٦ من هذه السورة.

[6] ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (سورة الزخرف، ٥١/٤٣-٥٢).

[7] ك + فضيلة القرين وإن مثل.

[8] ك: ذكرهما.

﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ٣٧﴾

قال قد أوتيت سؤلك، السؤل مشتق من السؤال، **يموسىٰ.**

ولقد مننا عليك مرة أخرىٰ، أي بغير سؤال وهذه[1] المرة بسؤال، ومَن[2] منّ بغير سؤال فكيف لا يَمُنّ وقد سُئل، والمن وإن[3] كان جنسه واحدا فأنواعه متعددة.

﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾

ولهذا قال: **إذ أوحينا إلىٰ أمك ما يوحىٰ، أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليمّ**، القذف هو الإلقاء والدفع، والمِقذاف هو الذي يُدفع به المركبُ. وقوله: **ما يوحى**، إشارة إلى ما من شأنه أن يوحى إلى الناس أبدا.[4] ولا يكون ذلك إلا وحي المنام. فإن هذا هو ما يوحى إلى الناس يقينا. واليمّ بحر النيل، لا ما شُقّ لبني إسرائيل وكلاهما يقال له: بحر يمّ،[5] لقوله تعالى: وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ.[6] **فليلقه اليم بالساحل**، سمِّي بذلك لأن الماء يَسْحَله أي يَقْشِره.[7] **يأخذه عدو لى**، وإن لم يكن من أجل موسى، **وعدو له**، وإن لم يكن من أجلي؛ لأن فرعون كان عدوّا لله بلا شك، وكان عدوّا لموسى من أجل قتلِه القبطيَّ[8] بدليل قوله: وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ،[9] الآية. فلهذا لم يقل عدو لي وله لئلا تعود العداوة من وجه واحد. فالمراد فرعون وإن كان الأخذ بغير يده، كما يقال: "خلع عليه السلطانُ" وإن لم يَرَه. **وألقيت عليك محبة منى ولِتُصنَع علىٰ عينى**، تقديره ليحبوك ولتصنع.[10] يقال: جارية مصنَّعَة، وصنَّعْتَ الجارية تغذّيها[11] حتى سمنت، والمراد أن تُدهَن وتُنظَّف وتُغذَّى. **[ولتصنع علىٰ عينى]**، على ما تراه عيني، كقوله: وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا.[12] وهو في العرف لفظ يقال ويراد به العناية، كما تقول:

[1] ك: هذه.

[2] ك: من.

[3] ر - وإن.

[4] ك - أبدا.

[5] ر - يم.

[6] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ (سورة الفرقان، ٥٣/٢٥).

[7] ش: أي يفشره.

[8] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾ (سورة القصص، ١٥/٢٨).

[9] ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾ (سورة الشعراء، ١٩/٢٦).

[10] ك + يريد به أن.

[11] ش: تعهدتها.

[12] ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ (سورة هود، ٣٧/١١).

عينيك على ولدي في هذا الطريق، وإني لأراعي فلانا بعيني، استعارة تنبئ عن فرط الاهتمام به والرعاية له، وذلك الصنع.

﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠﴾

إذ تمشي أختك فتقول، لأن أمه كانت وقَّفتْ أختَه من بعيد لتنظر ما يجري له، فمشت إليهم وقد رفعوه من البحر وهو يبكي[1] ولا يرضع[2] ثدي مرضعة، لأن الله حرم ذلك عليه[3] إلهاما إلى أن جاءت أمّه فرَضَع فسمَّتْه موسى، وقالت: إنما سميته موسى لأن من الماء مسَّيْتُه، من المسّ، وهذا مقلوب اللغة العبرانية في التوراة.[4] وقوله: **هل أدلكم علىٰ من يكفله**، هو من جملة ما منّ الله به على موسى إذ ألْهم أختَه ذلك. **فرجعنٰك إلىٰ أمك كى تقر عينها ولا تحزن**. **وقتلت نفسا**، أي ورُبِّيت[5] وكَبُرتَ إلى أن قتلت نفسا واغتممتَ لذلك، **فنجينٰك من الغم**. وقوله: **وفتنٰك فتونا**، أي واختبرناك اختبارا. وهذا الاختبار بعد قوله: **فنجينٰك من الغم**، يدل على أنه اختبره ببنات شعيب / عليهما السلام يدلك قولُها: إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ.[6] فإنها علمت منه الأمانة. ويدلك قوله ههنا[7] بالفاء جوابا لقوله: **وفتنٰك**: **فلبثت سنين فى أهل مدين**، إنما لبث من أجل النساء، فافهم ذلك. **ثم جئت علىٰ قدر يٰموسىٰ**، أي في الوقت الذي قدِّر لإرسالك. والمعنى أن الله تعالى امتحنه مرة بعد مرة فوجده أهلا للنبوة. وهذا الإخبار عنه إنما هو تعليم للعباد وإعلام لهم أن الأنبياء يُفتَنون، فكيف غيرهم. فهذا مراد النص وإن كان العلم محيطا أزلا بالكل. فلمّا قتل النفس[8] اعترف و قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ.[9] [٢٦٨ظ]

---

[1] ر – وهو يبكي.

[2] جميع النسخ: وهو لا يقبل، والمثبت من م.

[3] ر: عليه ذلك.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابنا، ودعت اسمه "موسى" وقالت: إني انتشلته من الماء» (الخروج ٢/١٠).

[5] ر: ورييت.

[6] ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ (سورة القصص، ٢٨/٢٦).

[7] ر: ههنا قوله.

[8] أي القبطي.

[9] ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ (سورة القصص، ٢٨/١٥).

وتاب فتاب الله عليه وغفر له، وحصل في نفسه غم فنجاه الله منه. وابتلاه ببنات شعيب فوجده أمينا. فكانت رعاية الغنم له سِياحة ورياضة قبل رعاية الأمة. وكان كثير التجوع مع عظم احتياجه إلى الغذاء لفرط قوته. وكان شيعب عليه السلام رَأى فيه ما أوجب له[1] أن يَخطُبه لابنته.

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾

واصطنعتك لنفسي، مشتق من الصنيع[2] والصنيعة وهي صنع خير يُنقذ[3] من شر. فاصطنعه الله تعالى وخلصه من قتلِه القبطيَّ، لأن موسى قَالَ رَبِّ نَجِّنِي.[4] ولا يُشكِلْ عليك فهمُ العبارات التي لا يجوز أن يكون الخطاب العام إلا بمثلها لتُفهَم.[5] ولو لم تكن قد جاءت بلفظ يُشبه ألفاظنا وهو كمخاطباتنا لم يفهمها إلا الخاصُّ فقط. ففيما جاءت عليه من الصيغة[6] مصلحة عامة يُفهَم منها مصلحة خاصة ولا ينعكس لو جاءت بالعكس. ومثلُ ذلك قوله عليه السلام: «أُمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم».[7]

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾

يقال: ونى في الأمر يني وَنْيا ووُنِيّا إذا فتر، وهو وَانٍ ومتوانٍ. وهذا قبالةُ قولِ موسى: وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا.[8] فقال الله تعالى لهما: **ولا تنيا**. فالمراد الإعلام بفضيلة الذكر.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله: **اذهبا إلى فرعون إنه طغىٰ**، الذهاب الأول أمرٌ لهما بالذكر حيث ذهبا[9] أبدا كما شَرط موسى،[10] والثاني لمّا بَعُدَ كرّره مضافا إلى فرعون. **فقولا له قولا لينا لعله يتذكر**،

---

١ ر ك – له.

٢ ك: من الصنع.

٣ ك: تنقذ.

٤ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (سورة القصص، ٢١/٢٨).

٥ ر: لنفهم.

٦ ك: من الصنعة.

٧ رواه أبو الحسن التميمي من الحنابلة في العقل له عن ابن عباس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي بلفظ "بُعِثْنا معاشرَ الأنبياء نخاطب الناس على قدر عقولهم"، وله شاهد عن سعيد بن المسيب مرسلا بلفظ "إنا معشرَ الأنبياء أُمرنا...". انظر: كشف الخفاء للعجلوني، ١٩٦/١. وانظر أيضا: كنز العمال لعلاء الدين الهندي، ٢٤٢/١٠.

٨ الآية ٣٤ من هذه السورة.

٩ ك: حيث ذهب.

١٠ لعله يشير إلى الآية ٢٤ من هذه السورة.

بما يرغّبه في النعيم، أو يخشىٰ، مما يُرهبه[1] من الجحيم بما تقولان[2] له من الذكر والموعظة تارة وتارة، وكذلك يجب أبدا. فاعرف ما علّم الله عباده وهو المرسِل سبحانه مثلَ موسى إلى مثل فرعون. ومع هذا أمره أن يقول له: قولا ليّنا، ليكون[3] ذلك القولُ من موسى قولَ من يرجو لعل أن، يتذكر أو يخشىٰ، فافهم ذلك ومثلَه ولا تغفله وتقول: من أين أُصبت؟

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾

قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط، من التفريط لا من الإفراط، وفَرَط العِقْد يفرُطه إذا نَثَر حَبَّه ففرّقه مِن نظمه وبَذَره من سِلكه. والمعنى أن يَفرُط منه قولٌ تعديا، علينا أو أن يطغىٰ، بفعل يفعله بنا.[4] فإن الخوف من الظالم القادر إنما[5] يكون بأحد صورتين: إما بالقول وهو أن يَفرُط منه كلامٌ على المظلوم لا له وإن لم يكن فيه إهلاكٌ بل أذية أو حَبس، وإما أن يطغى بفعل يفعله كالقتل ومثله. ولمّا كان ما يصدر من فرعون ينقسم إلى قسمين: مسموع ومرئيّ. قال، لهما الله تعالى: لا تخافا إنني معكما أسمع، ما يقول وأرى، ما يفعل.

﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٤٨﴾

فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرٰءيل ولا تعذبهم، بعد هذا الكلام،
فإننا، قد جئنٰك بـاية من ربك، والسلٰم / علىٰ من اتبع الهدىٰ. يريد بالسلام السلامةَ [٢٦٩و]
من العذاب الذي يذكره بعدُ بقوله: إنا قد أوحى إلينا أن العذاب علىٰ من كذب وتولىٰ.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾

قال فمن ربكما، وأومى إلى المعروف عنده فقال: يٰموسىٰ.

---

[1] ش: فما يرهّبه.
[2] ش ر: بما يقولان.
[3] ش ك: يكون.
[4] ر ك: بناء.
[5] ك - إنما.

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۞٥٠﴾

قال ربنا الذى أعطىٰ كل شىء خلقه، أي خِلقتَه التي هو عليها، كقوله: هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ.[1] **ثم هدىٰ**، كل[2] حيّ إلى مصلحته؛ وبذلك فهمنا قوله: **كل شىء**، أنه يريد به كلَّ مخلوق من حيّ وغيره، **خلقه ثم هدىٰ**، الحيّ.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۞٥١﴾

ثم نسق على قوله: إِنَّا قَدۡ أُوحِىَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ،[3] ولم يكن فرعون يؤمن بعذاب الآخرة، فلهذا، **قال فما بال القرون الأولىٰ**. تقديره لمْ تعذَّب كما زعمت بل عاشت وماتت في عزّها.

﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۞٥٢﴾

قال علمها، أي علم الله بما كان منها، **عند ربى فى كتٰب**، مثّل بالصورة المعلومة عندنا. لهذا بعده: **لا يضل ربى**، عن أعمالها، **ولا ينسىٰ**، أي فيجزيهم بأعمالهم في الآخرة إذا لم يعذبهم في الدنيا.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۞٥٣﴾

ثم ذكر ما يدل كلَّ ذي عقل بعقله على الصانع وعلى البعث الذي يكون به الجزاءُ والعذاب الذي أنكره فرعون بقوله: فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ؟[4] فجاوبه موسى بإثبات العلم للصانع سبحانه بقوله: **الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا**، السَّلْك بالفتح مصدر سلكت الخيطَ في الإبرة أو سلكت الشيء في الشيء فانسلك فيه إذا أدخلته فيه. والسِّلْك خيطٌ تسلكه في بطون الحَبّ فيصير عِقدا. فقوله: **وسلك**، أي وأدخل، لكم فيها سبلا، تَسلكونها. **وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزوٰجا**، تقديره شتى، **من نبات**، وأخِّر للوِزان، **شتىٰ**، الأشتاتِ المتفرقاتِ في أجناسها وأنواعها وصُوَرِها.

[1] سورة آل عمران، ٦/٣.
[2] ك: كلا.
[3] الآية ٤٨ من هذه السورة.
[4] الآية ٥١ من هذه السورة.

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

كلوا وارعوا أنعٰمكم، إن فى ذٰلك لآيٰت، لا تتناهى كثرةً في علمكم. ولهذا قال: **لأولى النهىٰ**. ثم أتبعه بقوله: **منها خلقنٰكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرىٰ**، أي فتجازيكم[1] بأعمالكم. ومن فَهِم ما قلناه لم يعارضه قولُ بعض الزنادقة أنه لا يتعذر على أحد أنه إذا سُئل عن شيء أن يقول: علمُه عند ربي ثم يصفه، إذ ما أوضحناه حكمة بالغة لمثلها بُعثت الرسل، أعني إثباتَ العلم والقدرة والبعث الذي يلزم عنه الجزاء. فلما ثبت هذا عُلم منَ الجملة حالُ القرون الأولى والأخرى بسؤال فرعون وما لَزم عن جوابه.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾

ولقد أرينٰه ءايٰتنا، تقديره التي أريناه، وقوله: **كلها**، مقدم، والمعنى فكذبها كلها. ولمّا كان التكذيب من فرعون يعم الآيات وغيرها أضافه إلى ما بعده وجعله مطلقا فقال: **فكذب وأبىٰ**.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾

قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يٰموسىٰ. لم يكن فرعون معتقدا صحةَ السحر وإلا لكان هذا القول ردا عليه. ولهذا قال: **فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا**، نصب على البدل من قوله: **موعدا**، وقوله: **سُوًى**، أي مستوٍ، وعدل به للوِزان. والمراد أن لا تكون فيه تَلْعَةٌ[2] تحجُب. **وسوى**، مثل عِدًى وثِنى وثُنى.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾

قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحىً. يوم الزينة، هو يوم يتزين الناس فيه

[1] جميع النسخ: فيجازيكم، والمثبت من م.

[2] التَّلْعةُ أَرض مرتفعة غليظة يتردَّد فيها السيلُ ثم يَدْفع منها إلى تَلْعة أَسفل منها (لسان العرب، «تلع»).

كيوم الجمعة في الإسلام، لأن الله تعالى أمر فيه بالسعي إلى المسجد،[١] وقد قال: خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ.[٢] ومثله يوم العيد في بقية الاديان، أو يوم موكب الملك كما للملوك أيام معلومةٌ لركوبهم. وقوله: **ضحىً**، هو الوقت الذي / يكون الناس فيه في [٢٦٩ظ]
أكثر الأمر أكثرَ مقدارا. وذلك أن الذي يريد الخروج من منزله قد خرج والذي يريد الدخول إليه ما أنّ له أن يدخل. فعين لهم موسى حينا وأهمل ذكْرَ المكان لِما يلزم أن يكونوا عليه في يوم الزينة من الكثرة خصوصا. وقد حُشر الناس فلزم أن يكونوا في موضع متَّسع من بَرّ، أو ميدان، أو مثله.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ٦٠﴾

فتولّىٰ فرعون فجمع كيده، أي جمع ما يكيد به من السحرة، **ثم أتىٰ**. وهذا الكلام يدل على أن فرعون نفسَه تولّى هذه القضية، إذ تولى عن الحق إلى جمع السحرة المجتمعين من بلاده بأمره، لأنه عرَف الحقَّ وزاغ عنه، لقوله تعالى: وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا.[٣]

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ٦١﴾

ولمّا كان فرعون إنما جمع السحرة ليكيد بهم موسى لا ليظهر الحق، **قال لهم موسىٰ ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب**، هذه اللفظة بعينها في التوراة وهي بالعبري[٤] "يَشْحِيتْخُمْ"، ومعناها يُهلككم.[٥] **وقد خاب من افترىٰ**، أي وأنتم تعلمون خيبةَ المفتري.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ٦٢﴾

فتنٰزعوا، أي[٦] السحرة، **أمرهم**، في أمرهم، **بينهم**، لمّا سمعوا كلامَ موسى استشعرت قلوبُ بعضهم بالإيمان فتنازعوا سرا. لهذا بعده: **وأسروا النجوىٰ**، أي إلى البعض الآخر.

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ (سورة الجمعة، ٩/٦٢).

٢ سورة الأعراف، ٣١/٧.

٣ سورة النمل، ١٤/٢٧.

٤ ش ك - بالعبري.

٥ انظر لمعرفة المزيد: التَّثْنِيَة ٩/٢٣-٢٥.

٦ ر - أي.

﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ۝٦٣ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ۝٦٤﴾

ثم حكى قول البعض الآخر وهو ما قالوه لهؤلاء المنازعين الذين أسروا فقال عمن لم يُسِرّ:[1] **قالوا إن هٰذٰن** بالياء، قال أبو عمرو: وإني لأستحيي أن أقرأ "إن هذان"[2] والقرآن أفصح اللغات. وروى عيسى بن عمران عن عثمان قال: أرى فيه لحنا وستُقيمه العرب بألسنتها.[3] وقرأ ابن كثير[4] بالتخفيف،[5] كقوله: وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ،[6] فاللام فيها كقوله: **لسٰحرٰن يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلىٰ،** الأمثل، هو الأشبه بالحق، ويريد الطريقة التي يُضرب بها المثل من عظمها. فقد علمت أنه لمّا قال موسى للسحرة: وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ[7] تنازع السَّحَرَةُ في سحرهم. والمنازعة المجاذبة إلى جهتين، فبعض السحرة[8] أبى أن يلقي حبله أو عصاه مع كونه يعلم أنه مفتر، والجميع آمنوا. وليس السحرة هم المشار إليهم بقوله: فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ،[9] بل أولئك الذرية غير السحرة كما بيّناه في موضعه. وأما السحرة فلما تنازعوا قبل الإلقاء قال بعضهم لبعض: **فأجمعوا،** بفتح الألف وكسر الميم وهي قراءة سائر القُرّاء[10] غير[11] أبي عمرو. يقال: أجمعت على الأمر، أي أزمعت عليه وعزمتُ على فعله، لأن فرعون كان قد جمعهم لكيده بهم. ولمّا تنازعوا كان التنازع في أمرهم لا في أمر موسى وهارون. ولهذا لم يقل: في أمرهما كما قال: **ويذهبا.** فلمّا قال: **فتنٰزعوا،** دل على قسمين. أحدهما لم ير أن موسى وهارون بساحِرَيْن، وذلك من حين قال لهم: لَا تَفۡتَرُواْ.[12]

---

[1] ر - عمن لم يسر.

[2] زاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٢٩٧/٥.

[3] المرجع السابق، ٢٥١/٢.

[4] أبو معبد عبد الله بن كثير الداري المكي، أحد القراء السبعة. كان قاضي الجماعة بمكة. وهو فارسي الأصل. توفي بمكة سنة ١٢٠هـ/٧٣٨م (الأعلام للزركلي، ١١٥/٤).

[5] قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف بتشديد إن وهذان بالألف وتخفيف النون، وافقهم الشنبوذي والحسن. وقرأ ابن كثير وحده بتخفيف إنْ وهذان بالألف مع تشديد النون، وقرأ حفص كذلك إلا أنه خفف نون هذان وافقه ابن محيصن. وقرأ أبو عمرو إن بتشديد النون وهذين بالياء مع تخفيف النون (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٣٨٤).

[6] سورة الشعراء، ١٨٦/٢٦.

[7] الآية ٦١ من هذه السورة.

[8] ر ك - السحرة.

[9] ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡ﴾ (سورة يونس، ٨٣/١٠).

[10] انظر: كتاب العنوان لإسماعيل بن خلف الأندلسي، ص ١٣٠؛ وإتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٣٨٥.

[11] ر - سائر القراء غير، صح هـ؛ ش - سائر القراء غير.

[12] الآية ٦١ من هذه السورة.

والقسم الآخر من السحرة هم الذين **قالوا إن هٰذٰن لسٰحرٰن، فأجمعوا كيدكم**، أي لهذين الرجلين ولا تخافوا. **ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلىٰ**.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ۝٦٦﴾

قالوا، حينئذ جميعا: **يٰموسىٰ إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقىٰ. قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعىٰ**. افهم قوله: **يخيل**، الذي يدلك على أنه لم يكن ذلك حقيقةً بل خيالا كما بيّنّاه في البقرة.[1] ولم يقل: إنهن حيّات بل رأى نفسَ الحبال والعصي على ما كانت عليه غير أنها تسعى متحركةً. ويحتمل / أن [٢٧٠و]
يكون حذف لفظ "الحيات" لِما دل عليه من قوله: **تسعىٰ**.

﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾

فأوجس فى نفسه خيفة موسىٰ، الوَجْس الصوت الخفي. واعلم أن الخوف الذي حصل لموسى إنما كان بطباع البشر، وإنما كان ظهوره منه أمرا مقصودا لله، إذ لم يصرفه عنه مع قدرته سبحانه على ذلك. والحكمة فيه أن السحرة لمّا رأوه وأحسوا منه ذلك عَلِموا أنه ليس بساحر. فإن الصانع لا يفزع من صنعته. فكان ذلك الخوف دليلا لهم على أن موسى ليس بصانع كما ظنوا وإن كان ذلك في نفسه، لكنه يظهر في مَخايله ولَمَحاته وغير ذلك فناجاه الحقُّ من موضع الخوف في قلبه:

﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٦٨﴾

﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾

وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا، أي مهما كانوا قد صنعوا. وهذه الحالة كانت خبيئة[2] لموسى لم يُخبره[3] الحقُّ تعالى بها إلا في وقتها ليزداد إيمانُه بالمُمِدّ له بما لا يقدر غيرُه عليه عند احتياجه إليه. فقال تعالى له: **إنما صنعوا**، "ما"[4] ههنا بمعنى الذي، **كيد سٰحر، ولا يفلح الساحر حيث أتىٰ**. وقولُ مَن قال: إنها أعني العصا ابتلعت حِملَ ثلاثمائةِ بعيرٍ،

---

[1] انظر تفسير سورة البقرة، ٢/١٠٢-١٠٣.

[2] ش: خبية.

[3] ر: لم يخبر.

[4] ش - ما.

فالنص يدل على مهما صنعوا[1] ولو كان ثلاثمائة ألف. وكونه جاء مطلقا فهو أبلغ في التعظيم من أن يكون محصورا بعِدَّة يحتمل أن لو زادت لم تتلقّف العصا ذلك.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾

فألقي السحرة، كلُّهم، سجدا، ولم يقل: "فألقوا نفوسهم" أو "فسجد السحرة" بل أُلقي كل واحد منهم فبقي مُلقًى زمانا على الأرض كالميت. لكنه أُلقي ساجدا على وجهه حياءً من موسى وخوفا من الله تعالى لما[2] غلب عليهم من شدة الإيمان بالله. فلمّا رفعوا رءوسهم، قالوا ءامنا برب هٰرون وموسىٰ. فالقول بعد ما أُلقُوا لأنهم غُلبوا أولا عن الكلام. وقوله: سجدا، بوزن فُعَّل ينبئ عن المبالغة في صفة السجود. فما أعجب أمْرَهم إذا أَلقوا حبالهم للكفر والجحود، ثم أَلقوا بعد ساعة رءوسهم للإيمان والسجود، فما أعظم الفرقَ بين الإلقائين. فتأمل صورة هذه الواقعة والْحَظْ بذهنك مَمالِكَ مِصْرَ، وقد حشر الملكُ علماءها لمثل هذا الخبر الذي لم يكن لِيُسمَع بمثله. وكم قد حضر مع العلماء من كل بلد من النُّظّارة، وتفكر في ذلك المحفل والجموعُ مجتمعون على موسى وفي يده عصاه، وقد رأى ما أَلقوا وكلُّهم في صفٍّ واحد وهو مقابلَهم، والله تعالى يقول له: لَا تَخَفْ،[3] بعد ما رأى ما رآه من حبالهم وعصيِّهم. ثم انظر إلى سجود السحرة، وتأمل كلامهم وإيمانهم. فلعلك أن تكون منهم، لكنك مسحور بما خُيِّل إليك من حبال الدنيا وحبائل الشهوات. فسَلِ الله النجاة واستغفره في سائر الأوقات.

﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ٧١﴾

قال ءامنتم له، ولم يقل: "به"، لأن الإيمان بالله لموسى أي اتباعا له، كقوله: فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ،[4] ولم يقل: "بموسى". قبل أن ءاذن لكم. إنه لكبيركم الذى علمكم السحر. فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلف ولأصلبنكم فى جذوع النخل، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقىٰ، أنا أم رب موسى.

---

[1] ر - صنعوا؛ ك - صنعوا، صح هـ.

[2] ر: لوما.

[3] يشير المؤلف إلى الآية ٦٨ من هذه السورة.

[4] ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡ﴾ (سورة يونس، ١٠/٨٣).

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾

قالوا لن نؤثرك علىٰ ما جاءنا من البينٰت والذى، أي وحقِّ الذي، **فطرنا**. ولمّا عرَفوا الحقَّ هانت عليهم الدنيا فقالوا من قوة إيمانهم في ذلك المحفل لمثل ذلك المَلِك بعد ذلك الوعيد: **فاقض**، أي الآن، **ما أنت قاض**، أي كان ما كان. **إنما تقضى هٰذه الحيوٰة الدنيا**.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾

إنا ءامنا بربنا ليغفر لنا خطٰينا وما أكرهتنا عليه من السحر. وهذا دليل على أن التنازع كان[1] بين السحرة. فلما تنازعوا أكرَهَهم فرعونُ على السحر فكانوا مكرَهين / على ذلك. ويحتمل أن التنازع كان بين السحرة وبين فرعون وقومه. ولمّا ذكر فرعون [٢٧٠ظ] عن نفسه ما خوّفهم به من العذاب ذكروا له عن ربهم ما يرجونه من الثواب، فقالوا: **والله خير وأبقىٰ**.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾

ولمّا كان مَن خالف من يستحق به الثوابَ يجب عليه العقابُ فصّلوا ما قالوه بعد ذلك فقالوا: **إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيىٰ**، بيّنّاه في مثله.

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

فهؤلاء كانوا سَحرةً وبالإيمان عادوا وَعَظَةً. ولمّا كان هذا الكلام متضمنا معنى كلامهم وحكاه الله عنهم عاد هذا من كلام الله لا كلامِهم بعينه.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾

ثم قال تعالى: **ولقد أوحينا إلىٰ موسىٰ أن أسر بعبادى**، الإسراء السير بالليل. وفي التوارة

[1] ر – كان.

مكتوبة أنهم خرجوا ليلا،[١] وفيها أن بني إسرائيل لمّا خرجوا من عين شمس[٢] كانوا ستّمائةِ ألفٍ رجالا سوى الأطفال، وأقاموا بمصر أربعمائة وثلاثين سنة.[٣] وقوله تعالى: **فاضرب**، تقديره فاضرب بعصاك البحر تكشفْ، **لهم طريقا في البحر يبسا، لا تخفُ**، إخبار لا نهي، **دركا**، لحوقا؛ ودليله: قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّآ.[٤] وقول القائل: ما عليّ دَرَكٌ، أي لحوقُ عيبٍ[٥] أو نقص. **ولا تخشى**، أي مما يُخشى منه في البر ولا في البحر.[٦]

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾

فأتبعهم فرعون بجنوده، أتبعتُ زيدا بعمرٍو إذا جعلت عمروا يتبعه. ويحتمل أن يكون حذَف قوله: بَغْيًا وَعَدْوًا،[٧] لأنه أثبته في غير هذا المكان، وقد بيّنّاه فيه، فافهمه. وفي التوراة أن فرعون وخاصته لما لحقهم كان معه ستُّمائةِ راكبٍ[٨] فرسانا وجميعُ رُكّاب مصر، لكن فرعون جعل لكل ألف من بني إسرائيل واحدا من خاصته.[٩] **فغشيهم**، من الغشيان وهو الإتيان، **من اليم ما غشيهم**، من الغشاوة. فإن البحر لم ينطبق عليهم، بل لمّا دخلوا موضع بني إسرائيل جاءهم من ماء البحر بقدر ما غطاهم ليَخْنُقَهم فقط، وبقي كل فِرْق كالطَّوْد العظيم[١٠] إلى أن شاء الله تعالى ليرى بنو إسرائيل عدوَّهم في الغرَق ونفوسَهم في النجاة.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾

وأضل فرعون قومه وما هدىٰ، أي ما هدى أحدا قط لا قومه ولا غيرَهم مما مضى من الزمن. فافهم حسن هذا الكلام الذي يُظن أنه كُرّر لتأكيد.

---

١ انظر: الخُرُوج ١٢/٣٠-٣١، ٤٢، ١٦/٦.

٢ عين الشمس: مدينة كانت بمصرَ محلّ سريرِ فرعونَ موسى بالجانب الغربي من النيل، والآن انطمست عمارات فرعون بالرمل وهي بقرب الفسطاط (آثار البلاد لزكريا القزويني، «عين الشمس»). وانظر أيضا: معجم البلدان لياقوت الحموي، «عين الشمس».

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «وأما إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر فكانت أربعمائة وثلاثين سنة» (الخُرُوج ١٢/٤٠).

٤ ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/ ٦١-٦٢).

٥ ش ك: وعيب.

٦ ش ك: في البحر ولا في البر.

٧ ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ (سورة يونس، ١٠/٩٠).

٨ ر - راكب، صح هـ.

٩ انظر لمعرفة المزيد: التوراة، الخُرُوج ١٤/٦-٧، ٩.

١٠ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/٦٣).

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠﴾

يٰبنى إسرٰءيل قد أنجينٰكم من عدوكم ووٰعدناكم جانب الطور الأيمن، بالنصب ليعود على "الجانب"، والمواعدة ليسمعوا كلام الله تعالى. **ونزلنا عليكم المن والسلوىٰ**. في التوراة أنهم كانوا يلفظون المنَّ بكرةً والسلوى عشيّة.[1] وأمرهم موسى أن لا يدخروا، فادّخر بعضهم منه، فنَتِنَ ودَوّدَ[2] في ليلته إلا ليلةَ السبت ويومها. فإنه لم يتغير. وكان في يوم السبت لا ينزل شيء من المنّ، وأكلوا المنّ أربعين سنة.[3]

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ٨١﴾

كلوا من طيبٰت ما رزقنٰكم، إباحةٌ في صورة الأمر. **ولا تطغوا فيه**، الضمير عائد على "ما"، **فيحل**، بكسر الحاء فيجب وبضمها ينزل،[4] ولو ضمها لقال: "بكم"، فكسرها وقال: **عليكم**، وهي مثل يَحِقّ عليكم، **غضبى ومن يحلل**، بمعنى يَحل، ولو ضم الياء لعاد متعديا، **عليه غضبى فقد هوىٰ**، سقط، وهو من قوله: أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ.[5]

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾

وإنى لغفار لمن تاب وءامن وعمل صٰلحا ثم اهتدىٰ، أي اهتدى إلى الإسلام ومن قبلُ إلى اتباع / نبيّ وقته لئلا يَدَّعيَ أحد الناس التوبة والإيمان بالله والعمل الصالحَ، [٢٧١و]
فقيده بالهدى. ويُفهَم من هذا الكلام أن لو انفرد المنفرد بأحد الأوصاف الثلاثة كمن تاب، ثم أدركته الوفاةُ فلم يدخل الإيمان في قلبه بل أسلم، أو من آمن ولم يلحق أن يعمل صالحا. فيكون تقدير الكلام ولمن آمن ولمن عمل صالحا، ويكون قوله أخيرا:

١ انظر لمعرفة المزيد: الخُرُوج ١٦/١١-١٧.

٢ داد الطعام ونحوه يدود دَوْدا: صار فيه الدود. ودَوّد الطعام: داد (المعجم الوسيط، «داد»).

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «وأكل بنو إسرائيل المن أربعين سنة حتى جاءوا إلى أرض عامرة. أكلوا المن حتى جاءوا إلى طرف أرض كنعان» (الخُرُوج ١٦/٣٥).

٤ ومن يحلل، قرأ الكسائي بضم الحاء في الأول وضم اللام الأولى في الثاني، والباقون بكسر الحاء في الأول واللام في الثاني (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٣٨٧؛ والبدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٢٠٦).

٥ ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ (سورة الحج، ٣١/٢٢).

ثم اهتدىٰ، عائدا على كل واحد بمفرده لجواز أنه قد يَعمل صالحا ولا يكون مهتديا. وإذا جاز الغفران مع انفراد أحد الأوصاف بشرط الاهتداء فقد لزم مع الجميع.[1]

وهنا نكتة وهي قوله تعالى: **وإني لغفار**، ولم يقل: لغافر، وذلك أن العبد إذا تاب ونقض التوبةَ ثم تاب فالعبد توّاب والله له غفار لتكرر الوصف، وكذلك في الوصفين الآخرين. ولمّا لزم من قوله: **وإني لغفار**، تكرارُ التوبة من العبد التي لا تكون مكررة منه إلا بعد تكرر[2] الذنب، وكذلك في الإيمان، وكذلك في العمل. قال بعد ذلك: **ثم اهتدىٰ**، ولهذا جعلها أخيرا ولم يقل: واهتدى بل "ثم" لتكون عائدة على كل وصف من الأوصاف الثلاثة بشرط أن يكون آخر أمره الاهتداءَ إلى وصفه الذي ربما لا يعود إليه، كما لو تاب من ذنب وعاد إليه مرات، إذا لم يكن آخر أمره الاهتداء إلى التوبة فلا يُغفر له ذلك؛ وكذلك في الإيمان والكفر بعد ثلاث مرات خاصة لما بيناه في موضعه؛ وكذلك في العمل الصالح ولو مراتٍ كثيرةً. والاهتداء افتعال بتاء الاختيار.[3] والعرب تسمِّي كلَّ خير هدًى وكلَّ شر ضلالا. وهذا الكلام استلزمناه من قوله أولا: **وإني لغفار**، والله أعلم بكلامه.

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣﴾

وما، بمعنى وأي شيء، **أعجلك عن قومك يٰموسىٰ**، أي عن صحبة قومك معك، لأن الله تعالى وعد قومه المناجاة.

﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾

قال هم أولاء علىٰ أثرى، واصلون، **وعجلت إليك رب لترضىٰ**، الرضا مطلوبٌ لموسى دوامُه وإن لم يكن عن غضب من الحق. وأما لبني إسرائيل فلما كان قد تقدم منهم، إذ قيل لهم: اهۡبِطُوا مِصۡرًا إلى قوله: وَبَآءُو بِغَضَبٖ.[4] فموسى طلب لهم من ربه الرضا.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥﴾

قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك، أي امتحناهم فسقطوا في الفتنة. **وأضلهم السامرى**، ذُكر في موضع آخر.

---

[1] ر: مع الجمع.

[2] ر: بعد تكرار.

[3] ر: الاختبار.

[4] ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (سورة البقرة، ٢/٦١).

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦﴾

فرجع موسىٰ إلىٰ قومه، بعد المناجاة، **غضبٰن أسفا**، ذُكر في أول الكهف. **قال يٰقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا**، بقوله: وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ،[١] من أجل المناجاة. **أفطال عليكم العهد**، أي[٢] مدةُ إنجاز الوعد بما عهد إليكم. **أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى**، لأنهم وعدوه أن يقتفوا أثرَه إلى الطور من أجل المناجاة. وهذه المعاتبة إنما هي لمن اختار موسى من قومه للمناجاة.[٣] وعنهم قال: هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي.[٤]

﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧﴾

فأخلفوا لمّا اختلفوا مع مَن عبد العِجْلَ منهم حين عَجِل موسى واعتذروا بأن، **قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا**، أي باختيار منا، لأن الإنسان يملك اختياره. **ولٰكنا حُمّلْنا أوزارا**، جمعُ وِزر، لأنها لم تكن لهم، **من زينة القوم**، القبط. وذلك عند الخروج من مصر. وذلك بيّنٌ في التوراة الآن.[٥] وهو أن الله تعالى أمر موسى أن يأمر بني إسرائيل أن يستعيروا عواريّ من المصريين.[٦] وذلك في قتلِ كلِّ بكر مِن كل بيت من بيوت المصريين كما تقدم الكلام.[٧] وفي تلك الليلة خرج بنو إسرائيل من مصر ومعهم تلك العواري ولم يردّوها، فهم حُمِّلوها ولم يكونوا هم حَملوها من تلقاء أنفسهم، ومَن / حمِّل شيئا فقد حَمله. ولهذا تصح القراءة بالصورتين.[٨] وقولهم: **فقذفنٰها**، القذف طرح الشيء. [٢٧١ظ]
فكذٰلك، أي فمثل[٩] ذلك **ألقى السامرى**، إلينا من القول. وهذا كما يقال في الكلام: هذه صورة الحال. وهو أن السامري قال: إنكم قد حُمِّلتم أوزارا من زينة القوم

---

١ الآية ٨٠ من هذه السورة.

٢ ش: أم.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا...﴾ (سورة الأعراف، ١٥٥/٧).

٤ الآية ٨٤ من هذه السورة.

٥ انظر: الخُرُوج ١٢/٣٥-٣٦.

٦ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة، الخُرُوج ٢٢/٣.

٧ انظر: سورة البقرة، ٤٩/٢؛ وسورة إبراهيم، ٦/١٤.

٨ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وأبو جعفر ورويس بضم الحاء وكسر الميم مشددة، وافقهم ابن محيصن، والباقون بفتح الحاء والميم مخففة (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٣٨٧؛ والبدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٢٠٧).

٩ ش: أي مثل فمثل.

فاقذفوها فقذفناها. فهذا الكلام اعتذار من العقلاء المؤمنين بين يدي موسى. ثم تمم هؤلاء المؤمنون[1] الكلام مخبرين موسى عند عودته إليهم وعتابِه عليهم، ومخبرين عن أنفسهم أنهم لم يوافقوا بقيةَ بني إسرائيل في عبادة العِجْل. لكن هؤلاء نسبوا الكلام أولا إلى أنفسهم كما يَفعل مَن يشفع فيقول: أخطأنا ولم يكن ذلك بمَلْكنا، ولٰكنا فعلنا ذلك لكيت وكيت.

﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨﴾

ولهذا لمّا أخبروا موسى بتمام ما جرى قالوا عن السامري وعن بقية بني إسرائيل: **فأخرج**، أي من النار، **لهم**، أي لعُبّاد العجل، **عجلا جسدا**، أي بلا روح، **له خوار**، أي فقط كخوار العجل. **فقالوا**، الذين عبدوه: **هٰذا إلٰهكم**، ثم قالوا: **وإلٰه موسىٰ فنسى**، وهذه الواو ليس المراد بها العطف على قوله: **إلٰهكم وإلٰه موسىٰ**. فإنهم كلهم معترفون أن موسى لم يكن له عجلٌ إلٰها قط. وإنما معناه وأما إلٰه موسى فإنه قد نسي بني إسرائيل في هذا الموضع، بمعنى قد تركهم وأهملهم.

﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩﴾

ثم تمم المؤمنون المذكورون الكلامَ لموسى منكرين بين يديه على من اتخذ العجل إلٰها وقالوا: **أفلا يرون**، أي الذين عبدوه، **ألا يرجع إليهم قولا**، أي لا يجيبهم إذا خاطبوه. **ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا**، أي كما يملك ربنا سبحانه. فهذا جميعه حكاية قولهم في ذلك الوقت لموسى عليه السلام.

فافْهم ذلك وادْرِ ما قد أوضحتُه لك بفضل الله وحَوله. وإذا طالعت ما قيل في هذه الآية عرفت ما قلته بمطابقة النص[2] له. فلم أفهم هذا إلا بعد قراءة التوراة والإنجيل والزبور والتنزيل؛ وبعد إحكام لغة التوراة وفهمِها والفهمِ بها ما قال سائرُ أنبيائهم المشهورين فيهم بالكتب؛ وبعد مجالسة من فُتح على قلبه من لدن الحق فيضٌ وسؤالِه عن مشكلات في القرآن، وبعد رياضات ومطالعات[3] كتبٍ وعلوم حلّت عني عُقد التقليد، وعَقَدْت في قلبي عقيدة حبٍّ لفهم الكتاب العزيز مطابقة

[1] ش ك: المؤمنين.
[2] ك - النص، صح هـ.
[3] ر: ومطالعة.

ولزوما يؤخذ عن لفظه. ومع هذا فأنا أوصيك أن لا تقلدني فيما قلته ولا تقلد أحدا غيري. وإنما كُنْ مع الدليل[1] ما أمكنك إن كان الله قد مكّنك، وادع الله فإنه الفتاح العليم.

ثم تمم هؤلاء القوم كلامَهم وأخبارهم لموسى عند حضوره غضبان أسفا وهو يعاتب الصالحين بهذا العتاب اللين، إذ يقول: أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا؟[2] فأجابوه بما قلناه، وأخبروه عن أخيه وما جرى له في هذه القصة مع القوم السفهاء وما قالوا له وما قال لهم، فقال الصالحون لموسى مما جرى من هارون معتذرين عنه.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾

ولقد قال لهم هٰرون من قبل، أي قبل عبادتهم للعِجل وهو حين قالوا: هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ:[3] **يٰقوم إنما فتنتم به**، بالعِجل، أي إن الله ابتلاكم وامتحنكم، إذ أضلّكم السامري ودعاكم إليه فاجبتموه، وليس هذا العِجل ربَّكم. **وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى**. وهذا كلام يُفهَم منه أن هارون قاله لبني إسرائيل بصياح وانزعاج وهو يقلِّب يديه ويستغيث فيهم، وقعد[4] بينهم ليُسمعهم نصيحته لهم. وربما كان يبكي لحُرْقته[5] عليهم وأسفِه وحزنه.

﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾

/فأجابوه إجابةَ مهمِلٍ لكلامه كمن يدافع الوقتَ ليفعل ما يريده. وهو أن، **قالوا** [٢٧٢و]
لن نبرح عليه عٰكفين حتىٰ يرجع إلينا موسىٰ. إذا كان الفعل الذي يلي "حتى" بمعنى الماضي ولفظه مستقبلا، فلك فيه الوجهان: الرفع والنصب، فالرفعُ لأن "حتى" لا تَعمل في الماضي، والنصبُ بإضمار "أنْ" عند البصريين، وبالظرف[6] عند الكوفيين. تقول العرب: سِرْنا حتى ندخلُ مكة بالرفع، أي حتى دخلناها. وإذا كان بمعنى المستقبل فالنصب لا غير. فهؤلاء القوم اعتذروا عن هارون، ثم فرغ كلامهم من ههنا.

[1] ش ك – مع الدليل.
[2] الآية ٨٦ من هذه السورة.
[3] الآية ٨٨ من هذه السورة.
[4] جميع النسخ: وقعدوا.
[5] ش: طريقته.
[6] جميع النسخ: بالظرف، والمثبت من م.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ۝٩٣﴾

ولمّا أخبر الله عنهم ما قالوه وهو صورة ما كان تمم سبحانه بقية الواقعة التي جرت، فقال ما جرى بين موسى وهارون بعد ما فرغ كلام موسى للمؤمنين وجوابهم له، **قال يٰهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن**، تقديره فجعلك أنك لا تتبعني، **أفعصيت أمرى**؟ وهذا القول من موسى لهارون وموسى قائم يخاصمه. وقد أنشب يديه في رأس أخيه يجذبه ليرميه إلى الأرض. وهذا من تمام الحكمة وأحسن الردع وأفضلِ التدبير من موسى لبني إسرائيل، إذ لاطف أولئك أولا بذلك السؤال، وقابل أخاه بهذا المقال وهذا الفعال، وهو أكبر منه سِنًّا؛ فأنشب فيه يديه دون غيره ليَخاف الراءون ويرتدع الباقون ويقولَ الناس في أنفسهم: إذا كان هذا فعْلَه بأخيه وهو عظيم في بني إسرائيل ونبيّ مثله فما حال الغير؟ وقد رأينا من يؤدب الكبيرَ قُدّامَ الصغير، والعالمَ قُبالةَ الجاهل، والقرابة بين يدي الأجنبي، ويكون له بذلك مقصودٌ صالح. وإنما فعل موسى ذلك عن خبرة وفهم، فهو من جملة الواجب، فافهمه. ولا تجهل فتظنَّ الجهل بموسى عليه السلام حتى أدّاه الغيظُ والغضبُ إلى فعل لا يليق.

﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ۝٩٤﴾

فأجاب هارون: **قال يبنؤم**، هذا بطريق التحنُّن، لأن نصَّ[1] التوراة يخبر[2] بأن هارون بن عمران وكلا الوالدين من يوخيبذ[3] أم موسى، **لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرٰءيل ولم ترقب قولى**، في جمع كَلِمِهم،[4] لأنه كان أوصاه بذلك.

﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ۝٩٦﴾

قال فما خطبك يٰسمرى. قال بصرت بما لم يبصروا به، يقال: بصر بَصارة بمعنى علم وفهم. فالمراد ههنا علمت ما لم يعلموه، وأخذ يذكر حالَه كما سيأتي بيانه في شرح قوله: **فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها**. يقال: فلان قابض على دينه

[1] ش ك: لأن النص.
[2] ش: تخبر.
[3] ك: من يوخيبند.
[4] ر: كلمتهم.

إذا كان عاملا به مصرّا عليه. وإنما قال: **قَبْضَةً**، إشارةً إلى أنه تمسك من الدين بما هو كالقبضة من شيء كثير يجب قبضُه والتمسكُ به. فهذا معنى قوله: **قبضة**، وذلك من باب الاستعارة. وأما قوله: **من أثر الرسول**، فإنه يقال: فلان يتبع أثَرَ شيخه أو نبيّه إذا سلك مسلكَه في حالة تختص به. فهذا معنى الأثَر ههنا. وأما قوله: **الرسول**، فإنما أراد به موسى عليه السلام. وقال ذلك تأدبا كما تُخاطَب الملوك بالإجلال والهيبة لا بكاف المخاطب، فهذا معنى قوله ههنا: **الرسول**. وقوله: **فنبذتها**، بمعنى[1] فتركتها، وهو كقوله: فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ.[2] فهذا معنى [قوله:] **فَنَبَذْتُها**، والمراد القبضة. وإذا فهمت جملة ألفاظ الآية تلخَّص لك المعنى وفقهت المراد من هذه الحكاية؛ وأنه رجل عَلِم وعَمِل، وترك ففُتن فافتتن، وأقر فعُفي عنه في الدنيا وأُخِّر إلى موعد. فكأنه قال: علمت من الحق ما لم يعلموا / به فتمسكت بشيء من أثرك يا موسى. وبعد ذلك سوَّلت لي نفسي نبْذَه فنبذته. وما ذلك إلا أنه نبذ الحقِ وطلب الرياسة على بني إسرائيل بعد علمه بالحق من سلوكه أثَرَ الرسول، فسولت له نفسُه طلب الرياسة فعمل العِجل. ثم اعترف لموسى بالتسويل الذي هو من نفسه وأقر بأن ابتداء الضلال منه بقوله: **وكذٰلك سولت لى نفسى**، سولت له نفسُه، أي زيَّنت كأنها جعلت ذلك سؤْلَه. والسُّؤْل ما يسأله الإنسان، يُهمز ولا يهمز، يقال: سأل يسأل، والأمر منه سلْ، ومن المهموز اسأل. والأَولى أن يُستعمل المهموز في سؤال الشيء المطلوب، كقوله: وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ.[3] وغيرُ المهموز في القول، كقوله: سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ.[4] ويُستعمَل المهموز في الحالتين، لأنه أتم لفظا فصار أشمل. فكأن السامري لمّا سأله موسى عن أمره ذكر السبب الموجب لِما فعله واعترف أنه أخطأ وأن ذلك من تسويل النفس الأمّارة بالسوء. [٢٧٢ظ]

﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ٩٧﴾

فلمّا أقر لموسى ارتفع عنه استحقاقُ القتل. ولهذا، قال، له موسى بالفاء: **فاذهب**، أي إذا كان حالك هذا **فإن لك**، ولـم يقل: عليك، **فى الحيوٰة**، أي في مدة حياتك،

[1] ر – بمعنى، صح هـ.
[2] جميع النسخ + كأنهم لا يعملون. | ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٨٧).
[3] سورة النساء، ٣٢/٤.
[4] سورة القلم، ٤٠/٦٨.

أن تقول لا مساس، فأمره بقول يقوله[1] لئلا يقتله مَن وجده، إذ من الواجب أن لا يقتل بل يبقى بقية عمره بين بني إسرائيل ليعلموا أن الذي جعل لهم إلٰها قد قُهر وغلب وبطلت دعواه وعاد عاجزا خائفا. وذلك بعد الاعتراف الذي هو توبة. ولو[2] لم يتب لاستحق القتلَ والنار. فلمّا أظهر التوبة ذهب عنه استحقاق القتل وبقي الأمر فيما يتعلق بباطنه راجعا إلى الله تعالى. ولهذا قال له موسى عليه السلام: **وإن لك مَوْعدا لن تُخْلَفَه**، بفتح اللام،[3] وهو القيامة. **وانظر إلى إلٰهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه**، وهي مضاعفة حَرَقَ المخففة الراء. وقيل: معناها بَرَده بالمِبرد. وظاهر اللفظ أنه عليه السلام أمر بحريق[4] العِجل حرقا بعد حرق إلى أن صار كالرماد. ثم ذرّه في البحر. ولمّا كانت المعادن لا تحترق سريعا احتاجت في حرقها إلى أن يضاعَف لها الإحراق مرة بعد مرة، وربما استعان محرّقها على حرقها بوضع شيء من الأدوية. وقوله: **ثم لَنَنسِفَنَّهُ فى اليم نَسْفا**، أي نسفا بعد نسف، والقصد[5] أن تفرَّق أجزاؤه كما تَنسِف الريحُ شيئا فتَذْرِيه، وربما كان النسف بالمبرد وهو بعد وضعه في النار، وهذا هو مفهوم اللفظ. وتكون فائدة حرقه أبلغ، إذ الإلٰه هو الذي يُنجي عابدَه من النار ومن لم يُنج نفسَه كيف ينجي عابِدَه؟!

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ٩٨﴾

[مَن السامري؟]

والسامري مشتق من سامر يسامر وسَمَر يَسمُر، وهو الذي يتحدث في السامر،[6] كقوله: مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا،[7] أي في السامر.[8] فهو منسوب إلى السامر، كقولك: جامع وجامعي. والسامرة الآن طائفة قليلة من اليهود.[9] ويحتمل أنهم سُمّوا بهذا الاسم

[1] ش: فأمره بقوله.

[2] ر: فلو.

[3] قرأ المكي والبصريان بكسر اللام، والباقون بفتحها (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٢٠٧). وانظر أيضا: كتاب العنوان لإسماعيل بن خلف الأندلسي، ص ١٣٠.

[4] ش: بتحريق.

[5] ك - والقصد، صح هـ.

[6] السَّمَر حديث الليل، والسامِرُ الموضعُ الذي يجتمعون فيه للسمر. وقال: وسامِرٌ طال فيه اللهو والغزلُ... (كتاب العين للخليل بن أحمد، «سمر»).

[7] ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ (سورة المؤمنون، ٦٧/٢٣).

[8] ر - أي في السامر.

[9] قبيلة من قبائل بني إسرائيل، قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم، إليهم نسب السَّامِرِيُّ الذي عبد العجل الذي سُمِعَ له خُوَارٌ. قال الزجاج: وهم إلى هذه الغاية بالشام، يعرفون بالسامريين (لسان العرب، «سمر»).

لأن علماءهم كانوا يجلسون في السامر ويضعون لتُبّاعهم دينا، أكثره خارج عن دين الربانيين. وهؤلاء يزعمون أنهم هم[١] أرباب التوراة دون بقية اليهود من الربانيين والقرابين.[٢] ولهم لسان غير لسانهم العبري لكنه قريب منه / قربا كثيرا. ويدّعون أنهم [٢٧٣و] أطهار وأن سواهم من[٣] سائر الخلق أنجاس، وأن كل ما يُمسكه غيرهم من سائر الخلق فقد تنجّس، وذلك في أكثر الأشياء. فهم طولَ أعمارهم في عذاب وعقاب،[٤] ولا حِجْرَ بأعظم من هذا الحرج والضيق العظيم. و قد سمعتَ قول الله تعالى عن جملة اليهود: فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ.[٥] فهؤلاء معاقَبون بعقاب عجيب، وعليهم من أنفسهم وكيلٌ قد قيّد أيديهم وأرجلهم، وجعل على أبصارهم الغشاوة عن رؤية سوى ما هم فيه، وجعل الأغلال في أعناقهم ولكن بقيد وغِلٍّ لا يفكُّه إلا الله تعالى. والصحيح أن هذا الإسم عُرِّب ولا أصل له في[٦] العربية، وأصله في العبرانية "شُومَر" بإمالة الميم، وتفسيرها حافظ، لأن هؤلاء حفظوا دينهم بالوقوف مع نص التوراة لا غير. وأما سواهم فإنهم واقفون مع كلام حكمائهم. فهؤلاء أولى بحفظ الدين من سائر بني إسرائيل. ولا شك أن في التوراة علامات البركات وعلاماتِ اللعنات[٧] لمن لم يعمل بجميع ما فيها.[٨] وهؤلاء لا يشكون أن علامات اللعنات ظاهرة عليهم مع دعواهم أنهم على محض التوراة. فيلزمهم إما الإقرار بأنهم ليسوا مع التوراة، وإما أن يعتقدوا ظلمَ البارئ لهم، تعالى عن ذلك.

وأما السامري المذكور فإنه لا يتعلّق له بقضية هؤلاء ولا له بهم نسبة. ومما قيل: إن السامري المذكور ههنا كان يَعلَم شيئا من السحر، وأراد أن يرأسَ في بني إسرائيل بالسحر كرياسة الرسول موسى، فقال مقرا: بَصُرْتُ، أي من العلم، بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ، أي من علم السحر، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا،[٩] أي فعلت ما يفعله الرسول من الدعاء إلى عبادة الإلٰه فنبذتها بالدعاء إلى غيره. وهذا قريب مما قدمناه وإن كان غيرَه.

---

١ ش – هم.

٢ ش: والقرائن. | القُرْبانُ: جَلِيسُ المَلِك الخَاصُّ، أي المُخْتَصُّ به. وعِبَارَةُ الجَوْهَرِيّ وابْنِ سِيدَه: جليس الملك وخاصَّتُه لقُرْبه منه، وهو واحدُ القَرَابين. وقَرَابِينُ الملكِ: وزراؤُه وجُلَساؤُه وخاصَّتُه (تاج العروس للزبيدي، «قرب»).

٣ ك – من.

٤ ش ك: ولا عقاب.

٥ ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (سورة النساء، ١٦٠/٤).

٦ ر – في.

٧ ش + ظاهرة عليهم.

٨ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: التّثْنِية، ١/٢٨-٦٨.

٩ الآية ٩٦ من هذه السورة.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾

كذٰلك نقص عليك من أنباء، أخبار، **ما قد سبق**، من الأمم السالفة لتعلمه. **وقد ءاتينٰك من لدنا ذكرا**.

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾

يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا، إنما مثّل بالنفخ إشارةً إلى سرعة الأمر، وأن ذلك يشبه نفخة واحدة فتقع الأجساد وتسقط ميتة. ثُمَّ نفخة أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ.[١] وقوله: زُرْقًا، مثّلهم بالمضروب الذي قد بقي جسدُه أزرق من شدة الضرب، كما قال تعالى عنهم: يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ.[٢]

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾

يتخٰفتون، خَفَتَ نَفْسُهُ إذا كان لا يَظهر، ومعنى "تخافت" إذا أظهر اليسير من نفسه عند الحديث. ويريد بذلك أنهم يحدثون بعضُهم لبعض بنفس شخصٍ خافتٍ من شخصٍ تَخافتَ. فهو مفتعل للخُفُوت،[٣] خشية ورهبةً في ذلك اليوم. فقال: **يتخٰفتون بينهم**، فيقولون: **إن لبثتم إلا عشرا**، يريدون جملة اللُّبث أحياء وأمواتا إلى يوم البعث، ويريد بالعشر عشرةَ أيام من أيام الدنيا. وقد جاء في آخر الروم: مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ.[٤] وجاء في قضية أهل الكهف: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ،[٥] كما بيناه. فافهم أن الجميع أريد به التقليل مثلا لا التحديد[٦] حقيقة، فهذا في التقليل، ومثله في التكثير كما بيناه في قوله: كَأَلْفِ سَنَةٍ،[٧] وفي قوله: خَمْسِينَ أَلْفَ.[٨]

---

[١] ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (سورة الزمر، ٦٨/٣٩).

[٢] ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ (سورة محمد، ٢٧/٤٧).

[٣] أي كلمة "تخافت" صيغة المطاوعة من المصدر: الخفوت.

[٤] ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ (سورة الروم، ٥٥/٣٠).

[٥] ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ (سورة الكهف، ١٩/١٨).

[٦] ش ك: لا للتحديد.

[٧] ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (سورة الحج، ٤٧/٢٢).

[٨] ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (سورة المعارج، ٤/٧٠).

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

نحن أعلم بما يقولون، في ذلك اليوم. **إذ يقول أمثلهم**، بقول الحق، **طريقةً**، أو[1] في طريقة من القول، أي في صورة مّا من صُوَر القول الحق، **إن لبثتم إلا يوما**، واحدا، عرّفَنا أن هذا المقول هو قولُ أمثلهم بالحق في[2] طريقة من القول. وأمّا في طريقة[3] حقيقة الأمر / فليس إلا لحظة متكررةٌ ووجود بين عدمين من ماض ومستقبل لا يُجحد ولا يُدرك. [٢٧٣ظ]

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾

ويسئلونك عن الجبال، أنّى تكون في ذلك اليوم وكيف يكون[4] حالها؟ والسؤال في جميع القرآن بعده "قل" بحذف الفاء، لأن الأجوبة في الجميع كانت بعد السؤال إلا هنا، أي إذا سُئلتَ: **فقل ينسفها ربي نسفا، فيذرها قاعا صفصفا**، قاعُ الدار وسطُها المتساوي. ويقال: صفصف الشيءَ إذا جعله مصفوفا[5] وإن لم يكن صفوفا؛[6] وصفّفه إذا جعله صفوفا، وصفّه إذا جعله صفا. ولمّا كان القاع هو المتساويَ في الأرض، لكنّ ذلك المتساوي مع كونه متساويا قد يكون مائلا إلى جهة مّا[7] من الجهات الأربع، والمصفوفَ قد يكون مصفوفا لكن بعضه أرفع من بعض فبعضه أخفض من البعض أكّدَ القول وبيّنَه بقوله: **لا ترى فيها عوجا**، ميلا عن الاستواء، **ولا أمْتًا**، الأمت هو المكان العالي. فالقاع ليس فيه ميل، والصفصف ليس فيه موضعٌ عالٍ. فقال: **قاعا**، لا تَرى[8] فيه عوجا، **وصفصفا**، لا تَرى فيه أمتا.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾

يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له، أي للداعي، ولو كان لليوم لقال: يومئذ لا عوج له يتبعون الداعي. والمعنى أن الداعي في ذلك اليوم لا ميل له إلى جهة دون أخرى بل كلٌّ يسمعه بصورة واحدة، كأنه يتوجه إليه ويناديه. **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع**،

---

[1] ر – أو.
[2] ر + صورة.
[3] ر – طريقة.
[4] ر – يكون.
[5] ك: مصفوصا.
[6] ش ك: صفوا.
[7] ش ك: إلى جهتها.
[8] ش ك: لا يرى.

أيها السامع في ذلك اليوم، **إلا همسا**، وهو الصوت الخفي كأصوات أخفاف[1] الإبل، إذ ليس[2] ذلك كأصوات الحوافر.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾

يومئذ، ظرف، ومعناه يومَ حينَ يكون كيت وكيت به، فنسب اليوم إلى الحين تمييزا له عن غيره من الأيام. **لا تنفع الشفْعة**، أحدا، **إلا من أذن له الرحمن**، أن[3] يشفع فيه، **ورضى له قولا**، تقديره ورضي قولَه، وغيّر للوزان. والمعنى إلاّ من هو بهذه المثابة عند الله فإن الشفاعة تنفعه. فافهم هذا لتَعلم أن الكلام متعلّقة بالمشفوع فيه لا بالشافع، ولو كان بالشافع لقال: لا تُقبل الشفاعة إلا ممن أُذن له. ودليل ما قلناه بلفظ النفع: فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ.[4] والكلام ههنا هو للتخويف فهو راجع إلى المسيئين. فما تنفع المسيئ شفاعةٌ إلا بهذين الشرطين: أن يأذن الله له خاصة بالتعيين أن يُشفع فيه، والثاني أن تكون أقواله مرضيّة عند الله، كقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ] وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ.[5] فلا تفهم أنه تعالى يأذن للشافع مطلقا. ولو جاز ذلك لجاز أن يُشفع في الكفار. وبيان ذلك معلوم من قوله تعالى: وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ.[6] فهذا محكم ما قدمناه ههنا من المتشابه.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾

وقوله: **يعلم ما بين أيديهم**، أي ما كان[7] بعد الكون الدنيوي،[8] **وما خلفهم**، قبل الكون. وأضاف ذلك إليهم إعلاما أنه يعلمهم بكل وجه من كل وجه. **ولا يحيطون به علما**، بوجه، وإن علموا ما علّمهم، وهو قوله: وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.[9]

﴿۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾

وعنت الوجوه. العاني الأسير، وهو مشتق من العَناء، وهو الذل الذي يظهر على وجه المقهور المعذَّب. وعَنِيَ بالكسر عَناء، أي تَعِب ونَصِب، وعنيتُ بحاجتك أعني بها عناية،

---

[1] ر: أخفاق.
[2] ش: الإبل فليس.
[3] ش ك: أي.
[4] سورة المدثر، ٧٤/٤٨.
[5] سورة الأحزاب، ٣٣/٧٠-٧١.
[6] سورة الأنبياء، ٢١/٢٨.
[7] ر - كان.
[8] ر - الدنيوي، صح هـ.
[9] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٨٥).

للحي القيوم، بوزن أيوب من آب يئوب، وهو القائم على كل نفس بما كسبت.[١] وهذا الوزن يدل على المبالغة فيما يوصف به. **وقد خاب من حمل ظلما**.

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ١١٢﴾

ومن يعمل من الصٰلحٰت وهو مؤمن، بهذا الكتاب، **فلا يخاف ظلما ولا هضما**. وقوله: **من الصٰلحٰت**، أي ما يُمكنه.[٢] والهضم النقصان مع التغير، هَضَمت المعدةُ الغذاءَ إذا نقصته[٣] وغيرته، فلا يَخاف هذا العاملُ أن يُظلَم فيُزاد عذابا أو يُنقص ثوابا. / والمعنى لا يخاف من ظُلم لا من كثير ولا من[٤] قليل. وقد بيّنّا هضما في عدة [٢٧٤و]
مواضع، وفي قوله تعالى: طَلۡعُهَا هَضِيمٞ.[٥]

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ١١٣﴾

ثم عطف على قوله: كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ،[٦] [قوله:] **وكذٰلك أنزلنٰه قرءانا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون**، مخالفتَه بما فيه من الوعيد، **أو يُحدث لهم**، الوعيدُ، **ذكرا**. والإحداث إيجاد ما لم يكن، فالمحدَث ضد القديم. ولمّا قال: **أو يحدث لهم ذكرا**، والذكر ضد النسيان، علِمنا أنهم إذا سمعوه ربما أحدث لهم سماعُه تذكرا. وعُدل باللفظ للوِزان. والمراد أن يتذكروا ما عاهد الله عباده عليه ووعدهم وتواعدهم به في هذا القرآن مما سيكون في الدنيا والآخرة، فيكون ذكر ما نَسُوه محدَثا.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾

فتعٰلى الله، أي عما يقولونه وعما يعتقدونه. ولمّا قدّم قوله: أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ،[٧] قال بعده: **ولا تعجل بالقرءان**، أي بأحكامه وبما أوحينا فيه إليك من إهلاكهم وبما تواعدناهم به، وهذا كقوله: فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا.[٨]

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ (سورة الرعد، ١٣/٣٣).

٢ ش ك: ما يمسكه.

٣ ش ك: إذا أنقصته.

٤ ش ك - من.

٥ ﴿وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/١٤٨).

٦ الآية ٩٩ من هذه السورة.

٧ من الآية السابقة.

٨ سورة مريم، ١٩/٨٤.

والمعنى أنهم وإن كانوا قد استحقوا ما تواعدناهم به فإنما نُمهلهم لأنا نعلم من مصلحةِ من يتوب منهم وقيامِ الحجة على من يعصي ما لا تعلمه أنت، إذ مع ملكنا لهم وقدرتنا عليهم لا نعاملهم إلا بالحق. ولهذا لمّا[1] قال: **فتعٰلى الله**، أعقبه بقوله: **الملك الحق**. ثم قال: **ولا تعجل**، أي فقل: **فتعٰلى الله ولا تعجل بالقرءان**، أي بأحكامه عليهم، **من قبل أن يقضىٰ إليك وحيه**. ولهذا بعده: **وقل رب زدنى علما**. فهو كان عليه السلام يعجل بنزول القرآن، أي بما يأمره فيه من قتال الكفار، كقوله تعالى: قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ،[2] وكقوله: فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ.[3] فإن القرآن نزل في عدة سنين، فلمّا أبطأ عليه صلى الله عليه وسلم نزول آية بمثل ما قدمناه قال الله له: قل سبحان الله القادر الحق في أحكامه، ولا تعجل، وقل رب زدنى علما، فإنك لا تعلم حكمة تأخير ما نؤخره من نزول القرآن. ويحتمل ما معناه وقل رب زدني قرآنا، وعدل به للوزان، فسماه بالأعم إشارة إلى أنك لا تطلب ما يختص بالكفار من القرآن. وإنما لك أن تَطلب زيادةً مما يوحى.

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾

ثم قال عاطفا على قوله: أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا،[4] فيتذكروا ما نسوه مما عهدنا إليهم: **ولقد عهدنا إلىٰ ءادم من قبل**، أي قبل أن نعهد إلى ذريته، **فنسى**، وأكل من الشجرة. ويجب أن تعلم أن النسيان لم يكن عذرا لآدم وإلا ناقَضه قولُه تعالى: وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ.[5] والجواب أن آدم لم يأكل في وقت القول الذي قاله إبليس. فلمّا خرج إبليس من الجنة بمعصيته لم يكن له سبيل إلى آدم إلا بوسوسته، وكذلك إلى يوم القيامة. وأما النسيان فله اعتباران. أحدهما بمنزلة[6] مَن أكل صائما فلا جناح عليه، والآخر بمنزلة من ترك الشيء متعمّدا، أو مهمِلا كما تقول: نسي عهدي، أي نبذه، وهذا يعطي الذم لا العذرَ. ومنه قوله تعالى: إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا.[7] ونسيان آدم كان من قبيل الترك الذي يستحق عليه الذم، ولهذا احتاج إلى التوبة. وقوله: **ولم نجد له عزما**، أي على قهر الوسوسة، فصار النسيان له من قبيل النبذ والمخالفة. لهذا قال:

[1] ك – لما، صح هـ.
[2] سورة التوبة، ٢٩/٩.
[3] سورة التوبة، ٥/٩.
[4] الآية ١١٣ من هذه السورة.
[5] سورة الأعراف، ٢١/٧.
[6] ك – بمنزلة، صح هـ.
[7] ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ (سورة البقرة، ٢/ ٢٨٦).

ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا.[١] فلم يكن له عزم على التحفظ من المعصية بل لمّا طال العهد عليه نسي، وكذلك أولاده. فلا تعجل بالقرآن في إهلاكهم. فنحن أعلم بمن يتوب منهم كما تاب أبوهم. فهذا جملة المعنى وإن تقدمت العبارة أو تأخرت، فافهمه من الجملة، والله أعلم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ١١٦ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ١١٧﴾

ولما ذكر آدمَ مذكِّرا بمعصيتِه واعظا / لأبنائه به ذكر إبليسَ الذي عصى قبله وكرَّر [٢٧٤ظ]
القصة بصورة المَثَلِ لنبيه عليه السلام، لأنه لمّا قال ولا تعجل بأحكام القرآن عليهم[٢] ضرب مثلا باثنين عصيا فأصرَّ أحدهما وتاب الآخر فقال: **وإذ قلنا للملٰئكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبىٰ. فقلنا يٰـادم إن هٰذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقىٰ**، أي بتعب الدنيا من الحرث وغيره، وغلب ذكْرَ الرجال إذ التعب بهم أولى، وعدل عن التثنية للوزان. ودل عليها[٣] بقوله: **يُخْرِجَنَّكُما**.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ١١٩﴾

إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرىٰ، وأنك لا تظمؤا، تَعطَش،[٤] **فيها ولا تضحىٰ**، أي لا يَمَسُّك فيها[٥] حرُّ الضحى؛ وهو من ضحيت بكسر الحاء وفتحها معا. ويقال: للشمس ضَحاءٌ ممدودٌ، إذا برزت، والمستقبل في المعنيين، أضحى لازم.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ١٢٠﴾

فوسوس إليه الشيطٰن قال يٰـادم هل أدلك علىٰ شجرة الخلد وملك لا يبلىٰ، أي شجرةٍ إذا أكلتَها تكون خالدا. وفي التوراة سماها شجرة المعرفة.[٦] فأجابه آدم، لأنه رجع عن الوحي إلى العقل والعلمِ اللذَين هما بخلاف الوحي. وهذا مثل عجيب يجب أن تَفهمه، وهو أن سائر المخالفين والغالطين إنما غلطوا باتباع عقولهم وعلومهم

---

١ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (سورة الأعراف، ٢٣/٧).

٢ انظر: الآية ١١٤ من هذه السورة.

٣ أي على الشقاوة.

٤ ك: تعتش.

٥ ك - فيها.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «وأوصى الرب الإلٰه آدم قائلا: من جميع شجر الجنة تأكل أكلا، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت» (التّكوين ١٦/٢-١٧). وانظر أيضا: التّكوين ٩/٢.

المخالِفة للوحي، وذلك هو الهوى والجهل. فكلُّ من جنح إلى عقله ومعرفته المخالفةِ للشرع فقد أكل من الشجرة التي عصى آدم بسببها. فإن لم يتب فقد اتبع إبليس في تكبره عن امتثال[1] الأمر، لأنه إنما خالف أيضا بالعقل، لكنه عقلٌ مخالف للأمر مائلٌ إلى الهوى.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾

فأكلا منها فبدت لهما سوءتهما وطفقا، بادرا مسرعين،[2] **يخصفان عليهما من ورق الجنة. وعصىٰ ءادم ربه فغوىٰ**، خاب، وقيل: ضل، ومن ضل فقد خاب فيما قصد. واعلم أنه استوحش كثيرٌ من الناس أن يلحقوا بالأنبياء عليهم السلام ذنوبا وحملتهم التبرئة[3] لهم على مخالفة الكتاب، لأنهم يلتمسون لألفاظه المخارج البعيدةَ بالحِيَل الضعيفة التي لا يخيَّل لمن علم أنها لتلك الألفاظ بشكل، ولا تليق[4] بالمعاني؛ كقولهم في غوى: بَشِم أي اتّخم، وجعلوها من غَوِي الفصيل بكسر الواو يغوى بفتحها غوًى. والغيّ الذي هو ضد الرشد، مصدره غيًا من غوى بفتح الواو يغوي بكسرها. ولو أمكنهم في عصى مثل هذا[5] لعملوه.[6] وقد علمت أنْ ليس في غوى إلا ما في عصى.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

ثم اجتبٰه ربه فتاب عليه وهدىٰ، بمعنى وهداه وحذفت[7] للوزان. ولهذا جاء بعد آياتٍ ههنا: فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ،[8] وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي.[9] وقوله بعده: وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ،[10] وتمام الآية، وقوله أيضا: فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ،[11] كقوله من قبل: فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ.[12] فقابلِ الآياتِ فإن المفهوم من الجملة له ما ليس للمفهوم من التفصيل. والاجتباء افتعال كالاصطفاء وهي من جبى يجبي الجابي، أي استخرجه فتاب عليه من ذنبه.

---

[1] ش ك: عن الامتثال.

[2] ش - بادرا مسرعين؛ ك - بادرا مسرعين، صح هـ.

[3] ش: التنزيه.

[4] ر ك: وتليق.

[5] ر - مثل هذا.

[6] ر: لعلموه.

[7] ر: حذفت.

[8] من الآية التالية.

[9] الآية ١٢٤ من هذه السورة.

[10] الآية ١٢٩ من هذه السورة.

[11] الآية ١٣٠ من هذه السورة.

[12] الآية ١١٤ من هذه السورة.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ١٢٣﴾

قال اهبطا منها جميعا، يشير إلى آدم وحواء، إذ الكلام ههنا عنهما، لأن إبليس أُخرج وحده من قبله، وسكن آدم وحواء إلى أن وسوس لهما. فافهم ذلك ههنا وفي مواضعه. وقد تقدم قوله: فَأَكَلَا،[١] عن آدم وحواء. و"جميع" بوزن فعيل من جمع يجمع، أي مجموعِين. فهذا اللفظ وإن كان المقصود به جملةً ففيه ما يدل على أن إبليس مع آدم وحواء مجتمعٌ بهما لا يفارق، ولهذا يجب أن يُحذر منه أبدا. وقوله: **بعضكم لبعض عدو**، يشير إلى آدم وذريته وإبليس وذريته وجنوده. والمعنى هو ما يرجع من وسوسته على النساء / والرجال من أولاد آدم وحواء كما أنه وسوس للآباء. [٢٧٥و] فالعداوةُ بين الذَّكرِ والأنثى تكون في دار الدنيا، وليست إلا بالوسوسة أوّلا. ولهذا بعده: **فمن اتبع هداى**، وَمَنْ أَعْرَضَ،[٢] ثم بعده في آخر القصة وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ،[٣] فافهم المراد بترتيب هذه الكلمات في مواضعها. **فإما يأتينكم منى هدى**، فاتبعوه، **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقىٰ**.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ١٢٤﴾

ومن أعرض عن ذكرى، أي الذي اذكره به، كقوله عن القرآن: وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ.[٤] **فإن له**، في الدنيا، **معيشة ضنكا**، في ضنك وهو الضيّق الصَّعْب. **ونحشره يوم القيٰمة أعمىٰ**، القلبِ كما كان في الدنيا، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ.[٥]

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ١٢٥﴾

قال رب لم حشرتنى أعمىٰ وقد كنت بصيرا، بالأمور في دنيايَ.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾

١ الآية ١٢١ من هذه السورة.
٢ من الآية التالية.
٣ الآية ١٣١ من هذه السورة.
٤ سورة الزخرف، ٤٤/٤٣.
٥ سورة الحج، ٤٦/٢٢.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾

وكذٰلك نجزى من أسرف، مِن هؤلاء إلى[1] يوم القيامة على نفسه في المعاصي، **ولم يؤمن**، بعد إسرافه، **بئايٰت ربه**، ويُسلمْ له. ثم عرّفَنا أن هذا مَثَل، **ولعذاب الآخرة أشد وأبقى**.

﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ١٢٨﴾

أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم، وفي السجدة مِن قَبْلِهِم؛ المعنى أن هناك يدل على قرون خَلَتْ من أول الزمان إليهم، وفي هذه بحذف "من" تدل على قرون منهم إلى أول الزمن. والفائدة في ذلك أن ما هناك يدرَك بالخبر وهو ما في السجدة، ولهذا قال بعده فيها: أَفَلَا يَسۡمَعُونَ،[2] وما ههنا متبِّه على ما يدرَك بالعيان لقربه منهم، **من القرون يمشون فى مسٰكنهم**. ولهذا قال[3] بعده: **إن فى ذٰلك لآيٰت لأولى النهىٰ**، العقول الصحيحة. وسمِّي[4] العقل نُهىً لأنه يَنهى صاحبه عما لا يليق. ومعنى الآية أفلَم يكن هاديا لهم ما يرونه من مساكن القرون الخالية قبلهم، إذ هم يمشون فيها فتكونَ لهم علامةً دالة على أنهم إن كذبوا كما كَذّب مَن قبلهم عُوقِبوا بمثلِ عقابهم. ثم نبّه على أن ذلك الاعتبار إنما هو لأرباب العقول المتصفة بالنُّهى[5] عما كان عليه مَن قبلهم من التكذيب. فافهم المراد بالعبارة.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ١٢٩﴾

ولولا كلمة سبقت من ربك، وهي من حين أُهبط آدم، وذلك قوله تعالى: وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ،[6] أي كل واحد إلى حين مخصوص، **لكان**، العذاب الذي عذِّب به من قبلكم، **لزاما**، أي ملازما. وقوله: **وأجل مسمى**، معطوف على الكلمة، فافهمه. وهذا جميعه كالشارح لقوله: وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ[7] كما بيّنّاه. ولهذا قال ههنا بعد هذا الإيضاح المتقدم:

---

[1] جميع النسخ: وإلى.

[2] ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾ (سورة السجدة، ٢٦/٣٢).

[3] ر - قال.

[4] ر ك: سمي.

[5] ر: بالنهي.

[6] سورة البقرة، ٣٦/٢.

[7] الآية ١١٤ من هذه السورة.

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

فاصبر علىٰ ما يقولون وسبح بحمد ربك، إذا[1] قال: الحمد لله، فهو تسبيح بالحمد، **قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن ءاناىٔ اليل**، "من" لتبيين الجنس، أي سبِّح من ءاناىٔ اليل في آنٍ يُمكنك، **فسبح وأطراف النهار**. نصب "أطراف" على الظرف، أو على ما قبله وهو "من"، فنصبه لفقدان الخافض. ولم يُرِد الصلاة بهذا الأمر بل التسبيح، ولهذا قال: **ءاناىٔ اليل**. وأما الصلاة فإنه قال: أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ،[2] ولم يقل: "أطراف". **لعلك ترضى**، ولا يكون الرضا عائدا إلى غير[3] إلا إما أن يُسلموا وإما أن يستقِصّ الله منهم وينصر عليهم المؤمنين. ولا يكون الرضا عائدا على غير المذكور بل هو متعلق بقوله: **فاصبر على ما يقولون**.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾

ولهذا بعده: **ولا تمدن عينيك إلىٰ ما متعنا به أزوٰجا منهم زهرة الحيوٰة الدنيا**. / نصب "زهرة" لفقدان الخافض، أي ما متعناهم به من[4] زهرة الحياة الدنيا، و"من" ههنا لتبيين الجنس. وسمّاها زَهرة لِما يَعرض لها من الذبول كما يعرض للزهرة، **لنفتنهم**، لنمتحنهم، **فيه**، كقوله: لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ،[5] والمراد النساء. وقوله: **ولا تمدن**، يُفهم منه مدُّ النظر، ويُفهَم منه قصد الابتداء به، تقول: لا تمدّ يدك إلى هذا. **ورزق ربك خير وأبقىٰ**، وهو كلام للنبي صلى الله عليه وسلم ليعُمَّ الخطابُ. وأريد[6] بالرزق الزوجة وإن جاز إطلاقه. [٢٧٥ظ]

﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

ولمّا ذكر ما يعطفه على أهله من جهته[7] أمره أن يأمرهم بما يَعطفه عليهم من جهتهم فقال: **وأمر أهلك بالصلوٰة**، فذلك لهن زينة وحلْية باطنة أحسنُ وأبقى من زينة الزهرة

---

١ ش ك: إذ.

٢ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ (سورة هود، ١١/١١٤).

٣ ر – عائدا إلى غير؛ ر ك + الله.

٤ ش ك – من.

٥ ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ (سورة المائدة، ٥/٤٨).

٦ ر: ويريد.

٧ ش ك: من جهة.

في الحياة الدنيا التي هي المرأة التي فُتن بها هؤلاء. **واصطبر عليها**، أي وصلِّ أنت، ثم زاد معنى آخر يُفهَم منه الدوام وهو الاصطبار. والغرض أن يكون قد أمرهم بأقواله وأفعاله. ولمّا أمره بالصلاة والاصطبار عليها والأمرِ بها كأنه قال: إنما سألناك ذلك، **لا نسئلك رزقا نحن نرزقك**. وذكر الرزق عقيبَ ذكرِ الصلاة إعلاما أنها من أكبر شيء يُدرّ[1] أرزاقنا، لأن الشكر قيدُ الموجود وصيد المفقود. **والعُقبة للتقوىٰ**، أي لمن يلزم التقوى. أقام الصفة مقام الموصوف، إذ الصفة لا تقوم[2] بغير موصوف، فعدل بها عنه للوِزان، وهو كقول الشاعر:

وعــاقـبــةُ الـصــبـر الـجـمـيـل جـمـيـلـةٌ[3]

والمراد عاقبة الصابر.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣﴾

وقالوا لولا يأتينا بـآية من ربه، هلا يأتينا بآية كما أُرسل الأولون.[4] **أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولىٰ**، أشار إلى أن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم هو بينةُ ما جاء في الصحف الأولى. فكأن الصحف دعوى وهذا بينة تصدِّق تلك الدعوى، وهو كقوله: حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ، ثم قال: رَسُولٞ[5] أي برسالة. وذلك أن ما جاء في التوراة من الوعد لبني إسرائيل بقوله تعالى لموسى عليه السلام: قل لهم نبيا يقيم لكم الله من إخوتكم مثلي، ويجعل كلامه في فيه، ويكلم إليكم بجميع ما أوصيه.[6] لا شك أن هذا كلام لا يُفهَم منه في حقيقة الأمر سوى دعوى مجردة. فلمّا جاء هذا الرسول صلى الله عليه وسلم بما جاء به كان هو بينةَ ما جاء[7] في الصحف، وهو المصدِّق لها بمجيئه وبما جاء به.

---

[1] ر: بدر. | يُدِرّ: يكثّر (لسان العرب، «درر»).

[2] ش ك: لا يقوم.

[3] البيت لعلي بن الجهم، وتمامه:

وعــاقـبــة الـصـبـر الـجـمـيـل جـمـيـلـةٌ
وأفـضـل أخـلاق الـرجـال الـتـفـضّـل.

انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي، ص ٩٢.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٥).

[5] ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ﴾ (سورة البينة، ٩٨/١-٢).

[6] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا. أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه» (التّثنية ١٨/١٧-١٩).

[7] ر - جاء؛ ك - جاء، صح هـ.

﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤﴾

ولو أنا أهلكنٰهم بعذاب من قبله، من قبل المرسَل بالآيات، **لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع ءايٰتك من قبل أن نذل ونخزىٰ.**

﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٥﴾

قل كل، منا ومنكم، **متربص فتربصوا**، ولكن، هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ.[1] **فستعلمون من أصحٰب الصرٰط السوى ومن اهتدىٰ**، الوصفان لواحد، تقول لولدك: ستعلم من يكسوك ومن يطعمك، فتكرار "من" للتفخيم، والله أعلم.

١ ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَا﴾ (سورة التوبة، ٩/٥٢).

سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾

اقترب للناس، اللام صلة وتأكيد لإضافة الحساب إليهم، كقولك: أَزِف لِلْحَيّ رحيلُهم،[١] والأصل رحيل الحي دنا،[٢] **حسابُهم وهم فى غفلة معرضون**. لمّا قال[٣] في آخر السورة المتقدمة: فَسَتَعْلَمُونَ[٤] حسُنَ أن يقول بعدها ما تقديره: لا تستعجلوه[٥] كأنكم وقد جاء ما توعدون، فقال: **اقترب**، لأنه بالنسبة إلى ما مضى قريب. **وهم فى غفلة**، عما أريد لهم،[٦] **معرضون**، عن التذكرة.

﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ۝٣﴾

ما يأتيهم، "ما" نافية، **من**، لتبيين الجنس، **ذكر من ربهم محدث**، ينسخ ما تقدم. والمحدَث ضد القديم من الذِّكر الآتي، وكلاهما محدثٌ من وجهٍ قديمٌ من وجه وباعتبار ونسبة، أو وصف ذاتي لهما.

[مسألة خلق القرآن]

قال أبو علي:[٧] إن هذه الآية / دالة على حدوث[٨] القرآن من جهة الله وحدوثِ[٩] [٢٧٦و] كل كلام الله؛[١٠] لأنه هو قال ذلك،[١١] ولأن الذكر هو القرآن، لقوله: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

---

[١] شں ك: رحيله.

[٢] شں ك: دانا.

[٣] شں: لما قالوا.

[٤] ﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ (سورة طه، ١٣٥/٢٠).

[٥] ك: لا تستعجلوا.

[٦] ر ك: بهم.

[٧] لعله هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي. من أئمة المعتزلة ورئيس علماء الكلام في عصره. وإليه نسبة الطائفة الجبائية. له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب. نسبته إلى جبى (من قرى البصرة). اشتهر في البصرة. توفي سنة ٣٠٣هـ/٩١٦م (الأعلام للزركلي، ٢٥٦/٦).

[٨] ر: على حدث.

[٩] ر: وحدث.

[١٠] انظر لمعرفة المزيد: اللباب لابن عادل، ٤١٤/٦، ٤٢٩/١٠.

[١١] أي لأن الله تعالى قال: "مُحْدَث".

﴿وَقُرۡءَانٌ﴾[1] ومثله في الشعراء: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾،[2] وقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا﴾،[3] ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾،[4] ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾؛[5] وذلك نص في حدوث القرآن بلا شبهة. وما أحدثه الله فقد خلقه. فمن أنكر حدوث القرآن فقد رَدّ هذه الآيات، ومن ردّ آية من القرآن فقد كذّب الله وخرج عن الإسلام. ومن تأوّل ذلك على أن إتيان الذكر هو المحدَث فقد غلط، لأن الله تعالى جعل قوله صفة للذكر لا لغيره، تم كلامه.

فنقول في بيان ما نريده من إيضاح الحق في هذه المسألة هو أن اسم القرآن وخطه وقراءته وغير ذلك مما يُنسَب إليه ويسمَّى به قد يقال ويراد به المسمى، وقد يقال ولا يراد به المسمى؛ كما تقول: زينب طالق ولم تُرِد زوجتَك، فيكون الاسم غير المسمى، وإن كان هو هو لكنّ المراد ضمير المتكلم،[6] والألفاظ سميت كلاما لدلالتها على الكلام وعلى المراد به. فاعلم أننا اتفقنا مع الخصوم أن كلام الله واحد، وله معنى واحد وحقيقة واحدة. والأشكال المنقوشة في القرطاس تخالف بحقيقتها المقطعةَ في اللّهَوات،[7] وتخالف ما في القلب. وقد سمِّي كلٌّ من ذلك كلاما، ولا مناسبة إلا من حيث الدلالة، وهو معنى قول السلف: إن كلام الله مكتوبٌ في مصاحفنا، مقروء بألسنتنا، محفوظ في قلوبنا غير حالٍّ فيها، كما أن النار مكتوب في القرطاس، مقروء باللسان، غير حالّ فيها. والقرآن تارة يُطلق على المقروء وهو كلام الله وصفتُه غير مخلوق، وتارة يطلق على القراءة، وتارة على المكتوب. فإذا أضيف إلى ذلك قرينة، كما تقول: قرأت نصف القرآن فيكون حادثا ومخلوقا، لأنه يشير إلى ما يتجزى ويُمسّ، كما قال: «لا يمسُّ القرآنَ جنبٌ».[8] وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾،[9] أي يسمع ما يدل عليه، كما تقول: انظر إلى قدرة الله، أي إلى ما دل على قدرة الله من مخلوقاته. فقدرة[10] الله وكلامه

---

[1] ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ (سورة يس، ٦٩/٣٦).

[2] ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾ (سورة الشعراء، ٥/٢٦).

[3] ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ (سورة الزمر، ٢٣/٣٩).

[4] الآية ٥٠ من هذه السورة.

[5] ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (سورة الحجر، ٩/١٥).

[6] أي نية المتكلم.

[7] أي مخارج الحروف.

[8] لم أهتد إليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر، فنحوه عن علي قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئنا القرآن على كل حال ما لم يكن جنبا» (سنن الترمذي، الطهارة ١١١). وانظر أيضا: مسند أحمد بن حنبل، ٨٣/١، ١٣٤.

[9] ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ (سورة التوبة، ٦/٩).

[10] ش: وقدرة.

وصفاته كلها قديمة كذاته غير مخلوق. وسيأتيك فيما أصّلناه من الكلام[1] على الصفات ما يُنقذك من الضلال في مُشْتَبِه العبارات.

فإذا[2] فهمت ما قلناه فهمت معنى قوله: **مُحْدَثٍ**. ولهذا بعده: **إلا استمعوه وهم يلعبون، لاهية**، نصب على الحال، **قلوبهم، وأسروا النجوى الذين ظلموا**، قالوا: **هل هٰذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون**، أي لكم بصائر تُبصرون بها الحقَّ وتفرِّقون بها بينه وبين الباطل.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤﴾

قال ربي يعلم القول فى السماء والأرض، أي ما يقال فيهما. **وهو السميع العليم**، لكل جهر وبكل سِرٍّ.

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾

وقوله: **بل قالوا**، أي وقالوا فيما أسروه من النجوى: **أضغٰث أحلٰم بل افترىٰه بل هو شاعر، فليأتنا بـاية كما أرسل الأولون**، كقلب الأعيان في العصا والثعبان.[3]

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

ما ءامنت، برؤية الآية، **قبلهم**، قريةٌ، **من**، كل، **قرية أهلكنٰها أفهم يؤمنون**. وهذا معطوف على ما قبله من ذكر الآية، أي ما آمنت بالآيات قبلهم من قرية أُهلكت أفهم يؤمنون إذا رأوا الآيات. وذلك احتجاج عليهم بالأوائل، إذ لو كانت الآيات سببا لإيمان هؤلاء لكانت سببا لإيمان أولئك، ولم تكن. وقوله: [قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ] وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ،[4] أي لا غيره. وتكرار العلم أخيرا بعد ذكره أولا، فالأول / عائد على [٢٧٦ظ]
قوله أولا: وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى،[5] فقال مطلقا: ربي يعلم القول الذي يقال في السماء والأرض، فدخل في ذلك نجواهم التي أسرّوها، والثاني عائد على مطلق العلم وإن لم يكن قولا.

[1] ر - من الكلام، صح هـ.

[2] ش ك: وإذا.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (سورة الأعراف، ١٠٧/٧؛ وسورة الشعراء، ٣٢/٢٦).

[4] الآية ٤ من هذه السورة.

[5] الآية ٣ من هذه السورة.

وذلك نظير قوله: يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى،[1] [و]كقوله: يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ.[2]

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾

وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسئلوا أهل الذكر، المراد التوراة، وهو اسم الجنس، **إن كنتم لا تعلمون**، وهذا جواب قولهم:[3] إن هذا إلا بشر مثلكم.[4]

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾

وما جعلنٰهم جسدا لا يأكلون الطعام، أي وما جعلناهم بجسد وهم لا يأكلون بل الأكل من لوازم الجسد ذي الحياة. **وما كانوا خٰلدين**، في الدنيا بل أجرينا عليهم الموت.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾

ثم صدقنٰهم الوعد، بالنصر في الدنيا، **فأنجينٰهم ومن نشاء**، ممن لا يستحق النجاة بعمله. وهذا مما يفتح بابَ الرجاء وحسن الظن بالله تعالى. **وأهلكنا المسرفين**.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾

لقد أنزلنا إليكم كتٰبا فيه ذكركم، وهو القرآن، وأضافه إليهم إعلاما أن الذكر الأول المذكور في الآية المتقدمة ذكر غيرهم كالتوراة ومثلِه، هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى.[5] **أفلا تعقلون**.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١﴾

وكم قصمنا، القصْم كسر الصُّلب، والله قاصم الجبابرة، **من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما ءاخرين**.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢﴾

فلما أحسوا، أدركوا ببعض حواسهم، **بأسنا**، بقتالِ مَن يقاتلهم، **إذا هم منها**، من القرية، **يركضون**، الركض أشد العَدْو بشدة الوطء.

[1] ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (سورة طه، ٧/٢٠).

[2] سورة الأنعام، ٣/٦.

[3] ر: قولكم.

[4] يشير المؤلف إلى الآية ٣ من هذه السورة.

[5] الآية ٢٤ من هذه السورة.

﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ١٣﴾

ثم قال بعضهم لبعض: **لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه**، نُعِمْتم فيه من أموالكم، **ومسٰكنكم**، أي وإلى مساكنكم، **لعلكم تسئلون**، أي لعلكم تَخرُجون عن شيء يُطلب منكم من الأموال وتُتركون على ما تقدم لكم من الحال. وذلك كما يَطلب أحد الملوك من بلدٍ أشرف على أَخْذِه، فيطلب من أهل البلد قطيعة تكون فداءَ أنفسهم. والبأس ههنا هو القتال. وذكر الطلب بلفظ السؤال، كقوله تعالى: وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ.[١]

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤﴾

قالوا يٰويلنا إنا كنا ظٰلمين، لأنفسنا. ثم أخبر تعالى أن قولهم: **يٰويلنا**، هو دعواهم ونداؤهم دائما إلى أن هلكوا عن آخرهم. وذلك يدل على شدة البلاء الدائم، فهم يستغيثون بالويل.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ١٥﴾

فما زالت تلك، الدعوى، **دعوٰىهم حتىٰ جعلنٰهم حصيدا خٰمدين**، كما تَخمُد النارُ. ومثّل بذلك لأنهم كانوا من شدة بأسهم كالنار ومن حُسن ما كانوا فيه من النعيم كالزرع فحُصد الزرع وخَمدت النارُ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦﴾

ثم أضمر ما تقديره في المعنى: إننا لم نفعل ذلك الذي فعلناه من إيجادهم وإعدامهم عبثا أو لعبا إذ خلقناهم أو ما هو أعظم منهم فقال ما يجمع ذلك وغيرَه: **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لٰعبين**.

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾

لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذنٰه من لدنا إن كنا فٰعلين؛ ليس كذلك، **بل نقذف بالحق**،

---

١ ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ (سورة محمد، ٣٦/٤٧).

في كل زمن نبيٍّ، **على البٰطل**، الذي قام به أهله. **فيدمغه فإذا هو زاهق**. والإشارة بالحق ههنا[1] إلى القرآن، والباطل كَذِبهم وما نسبوه إلى الله ورسوله ووصفوهما[2] به من الباطل والكذب. ويقال: دَمَغَه إذا ضربه ضربة بلغت دماغَه فأهلكته، وهي ههنا استعارة. وهذا كقوله: ذكره إذا قطع ذَكَرَه،[3] ورآه إذا قطع رئته.[4] والزاهق[5] الهالك إذا عُدم ولم يَبْقَ له أثرٌ. **ولكم الويل مما تصفون**، أي هذا الذي وصفناه فعلُنا وهو الحق، وأنتم لكم الويل مما تصفونه من الكذب، فالأمر على صورة ليست كما تزعمون.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩﴾

وله من فى السمٰوٰت والأرض، أي وليس لكم سوى الويل. **ومن**، والذين،[6] **عنده**،
[٢٧٧و] من الملائكة، **لا يستكبرون / عن عبادته ولا يستحسرون**، يَكِلّون ويقطعون،[7] كقوله: وَهُوَ حَسِيرٞ.[8]

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١﴾

أم اتخذوا ءالهة من الأرض، ثم سأل فقال: **هم ينشرون**، الأموات. وقوله: **هم**، ليعود الضمير على الآلهة دون الذين اتخذوا.

﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾

ثم قال: **لو كان فيهما ءالهة إلا الله**. "إلا" ههنا بمعنى سوى وهي في موضع رفع، لأنها وصف الآلهة. ولهذا أُعربت إعرابَ الاسم الواقع بعد "إلا" وهو الرفع. ولا يجوز أن يكون الرفع على البدل، لأن البدل إنما يكون في النفي لا في الإيجاب، وهذا في حكم الإثبات، فمعناه: غير الله. **لفسدتا**، وإذا انتفى أن يكونا إلٰهين انتفى أكثر من ذلك.

---

[1] ر: ههنا بالحق.

[2] ر: ووصفوا لهم.

[3] أي جَبّه.

[4] ك: ريته.

[5] ر: الزاهق.

[6] ر ك: والذي. وفي هامش ك: والذين.

[7] ر: وينقطعون.

[8] ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ (سورة الملك، ٦٧/٤).

والفساد لازم عن الشركة، إذ الإلٰهان لهما مشيئتان، فلو شاء أحدهما دوران الفلك يَمْنَةً والآخر يسرةً لفسد الفلك. **فسبحٰن الله رب العرش عما يصفون.**

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

لا يسئل، هو سبحانه يوم القيامة، **عما يفعل**، في الدنيا: لِم فعلتَ في الدنيا هذا؟ أي لا يُسأل ليُجزى كما يُسأل عباده، لقوله: وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ،[1] أي عما اكتسبوه فهو لا يُسأل عن كسبه، **وهم يسئلون**، عن كسبهم. فالمعنى أنه تعالى ليس له خالق يسأله كما يُسألون يوم القيامة. ولو كان هو الفاعلَ لأفعال العباد لكان هو المسئول، وقد تقدم أنه لا يُسأل وهذا تناقض. لكنه لمّا قدم قوله: أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ، ثم[2] قال كمقالة السائل الملزِم بسؤاله حجة وبرهانا بقوله: هُمْ يُنشِرُونَ،[3] قال بعده: **لا يسئل عما يفعل**، أي إنه تعالى لا يموت ولا يُنشَر ولا يُحاسَب ويُسأل كما يُنشر المخلوقون الذين اتخذتموهم آلهة من الأرض، ويُسألون عما بدا[4] منهم فيُجزون به يوم السؤال. فاقتصر على لفظ السؤال للزوم الباقي عنه. فافهم ذلك جيدا محقّقا. ولا تَفهمْ أن العباد لا يجوز لهم أن يَسأل بعضهم لبعض عن حكمة أفعال الله تعالى وحكمة أوامره وأحكام عدله وصورةِ انتفاء الظلم عنه، أو أنه سبحانه يوم القيامة لا يكون مسئولا من العباد عن أفعاله بهم. فذلك[5] كله باطل وجهلٌ ممن اعتقد أن قصد الآية ذلك. وقد كذبه الله تعالى بقوله تعالى عنه: قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا، فجاوبه بالحجة البالغة المفحِمة، قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا،[6] وتمام الآيات. فافهم بقلب فهل في كلام الله هذا شكٌّ.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أم اتخذوا من دونه ءالهة. لمّا قال قبله: أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ،[7] قال ههنا: **أم اتخذوا من دونه**، أي مَن سواه كان ما كان. ولمّا تقدم قولُه: لَفَسَدَتَا،[8] وكان ذلك بصورة البرهان

---

١ سورة الصافات، ٣٧/٢٤.

٢ ك - ثم.

٣ الآية ٢١ من هذه السورة.

٤ ك: عما بدأ.

٥ ك - يوم القيامة لا يكون مسؤولا من العباد عن أفعاله بهم فذلك، صح هـ.

٦ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ (سورة طه، ٢٠/١٢٦).

٧ الآية ٢١ من هذه السورة.

٨ الآية ٢٢ من هذه السورة.

الدال على الوحدانية قال ههنا: **قل هاتوا برهٰنكم**، أي كما جئتكم ببرهاني. ثم ذكر البرهان بقوله: **هٰذا ذكر من معي وذكر من قبلي**، أي هذا كلام الله في الأمم السالفة وفيما جئت به يَشهد أنه واحد. ويجب أن تفهم أن ما لا دليل عليه عقلا فتجويز وجوده تقديرٌ عقلي. والمجوَّز عقلا المقدَّر ذهنا ليس بإله. فلا تَغفُل عن هذه الدقيقة وافرُق في المعقولات بين تقدير المحال لفظا أو فرضا وبين تجويز وجوده عقلا أو عقدا. واعلم أن المذكور بقوله: **هاتوا برهٰنكم**، وأمثاله هو فرض محالٍ لفظا ليبين بطلانَه عقلا. **بل أكثرهم لا يعلمون الحق**، الذي أنزله الله، **فهم معرضون**.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾

وما أرسلنا من قبلك من رسول، "من" لتبيين الجنس، **إلا نوحى إليه أنه لا إلٰه إلا أنا فاعبدونِ**.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾

وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحٰنه، عما يقولون، **بل عباد مكرمون**، تقديره بل هم
[٢٧٧ظ] عباد، / أي الذين اتخذهم من الناس والملائكة عباد.

﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾

لا يسبقونه بالقول، فيقولون قبل أن يوحي إليهم ما يقولونه، **وهم بأمره يعملون**، أي لا قوْلَ لهم ولا فعْلَ إلا بالأمر. ومن كان مع الله كذلك فهو مَلَكيّ.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾

يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، أن يشفعوا له وإلا إذا كان الله قد ارتضاه فأيّ حاجة به إلى الشفاعة، وبيانه في قوله: مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ.[1] **وهم**، في كل حال ويلزم عنه أنهم عند الشفاعة بعد الإذن لمن ارتضى، **من خشيته مشفقون**، هيبةً له سبحانه.

[1] سورة البقرة، ٢/٢٥٥.

﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ومن يقل منهم إنى إلٰه من دونه فذٰلك نجزيه جهنم. كذٰلك نجزى الظٰلمين، ومن جملتهم هؤلاء. وهذا الكلام عن الملائكة والناس المكرَمين.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾

أولم ير الذين كفروا أن السمٰوٰت والأرض، يريد بالسماوات هنا جمْعَ سماء، من العلو، كقوله: أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً.[١] ويشير بهذه الآية إلى إنزال المطر من السماء وإخراج النبات من الأرض. لهذا قال: **كانتا رتقا**، وهو ضد الفَتْق، **ففتقنٰهما. وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون**، أي وهم أعني الكفار يرون ذلك. فهذا التفسير الذي قدمناه برهان دال على الصانع يرونه الكفار. وأما ما قيل: إن السماوات والأرض كانتا رتقا في العدم ففتقهما بالوجود، فهذا ليس بصحيح عند الكفار، لأنهم كانوا[٢] يقولون بقدم العالَم على الأكثر، إلا أن يكون الاحتجاج مخصَّصا، وعمومه أنسب لأن الاحتجاج على الكل لا البعض. والماء ههنا يريد به النُّطف،[٣] وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ،[٤] أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ.[٥]

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾

وجعلنا فى الأرض روٰسى أن تميد بهم، تميل وتتحرك، **وجعلنا فيها فجاجا**، الفج الطريق الواسع بين جبلين، ومنه مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ.[٦] وجعل الفجاج، **سبلا**، لتُعرف الطرقاتُ بالأودية والجبال، **لعلهم يهتدون**.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾

وجعلنا السماء، الدنيا، **سقفا محفوظا**، وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ.[٧] **وهم عن ءايٰتها**، علاماتها الدالة على عظم خالقها، **معرضون**. ولهذا مدح مَن لم يُعرض بقوله:

---

١ سورة الرعد، ١٧/١٣.
٢ ش - كانوا.
٣ ر: اللطف.
٤ سورة النور، ٤٥/٢٤.
٥ سورة المرسلات، ٢٠/٧٧.
٦ ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (سورة الحج، ٢٧/٢٢).
٧ ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ (سورة الحجر، ١٦/١٥-١٧).

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ.[1] ومَن علم شيئًا مِن علم النجوم مما لا يخالفه شرعٌ رأى عجائبَ يطول الكلامُ فيها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

ولمّا ذكر السماء وآياتها ذكر الليل الذي أظهر به الكواكبَ، فأرانا بالنور نهارا وبالظلمة ليلا، إذ لولا الظلمة لَمَا علمنا أن في السماء بروجا وكواكبَ مختلفةَ المقادير والأماكن وضعا، ومختلفةَ الحركات طبعا. فجمع ذلك بقوله: **وهو الذى خلق اليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون**. مثّلهم بالسابح في رأي العين والسماءَ بالبحر، وكذلك سماها سقفا. وقال ههنا: **فى فلك**، ولم يقل: في ماء. كل ذلك على طريق التمثيل. والفلك يريد به ههنا[2] الأعلى، وقد بيّنّا ذلك في موضعه.[3]

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾

وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، وهذا يحتمل أن يكون منسوقا بقوله: وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا.[4] ويحتمل أن يكون[5] معناه ما قيل من[6] أنهم كانوا ينتظرون وفاةَ النبي صلى الله عليه وسلم، فقال الله تعالى: **وما جعلنا**، الآية. **أفإن مت**، يعني الآن، **فهم الخلدون**، أي بل الكل ميتون ومسئولون.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

فالإنسان مبتلًى في كل آن وبكل حال، وقد يُبتلى في الابتلاء كمن به فقرٌ وأتاه مرض، فإن زال الثاني ظن أن الفتنة قد زالت جملة. وإنما زال نوع والجنس باقٍ ما دام في الدنيا.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

---

[1] سورة آل عمران، ١٩١/٣.

[2] ر: ههنا يريد به.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (سورة يس، ٤٠/٣٦).

[4] الآية ٧ من هذه السورة.

[5] ك - منسوقا بقوله وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا ويحتمل أن يكون، صح هـ.

[6] ش - من.

وإذا رءاك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا، / يقولون: **أهٰذا الذى يذكر ءالهتكم،** [٢٧٨و]
بسوء، **وهم بذكر الرحمن،** المراد ههنا أنهم يكفرون بالرحمن، ولما تقدم قوله: **يذكر ءالهتكم،** قال على طريق المحاذاة: **وهم بذكر الرحمن هم كٰفرون.** وتكرار "هم" لئلا يعود الضمير بقوله: هم، على الآلهة بل على عُبّادها.

﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾

ثم قال: **خلق الإنسٰن من عجل،** مذكَّر عجلة، فهو يعود في أحواله إلى ما منه خُلق، وهذا من باب الذم، لا لأن الله تعالى جعله كذلك، إذ لو جعله كذلك[١] لَمَا ذمه ولناقض أولُ الآية آخرَها بقوله: **سأوريكم ءايٰتى فلا تستعجلونِ،** ولكن هذا مبالغة. وإنما خوطب العربُ بما تَعلم كقولهم: خُلق فلان من الكرم، وكأنه خلق من الصدق.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾

﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٣٩﴾

لو يعلم الذين كفروا، لو يعلمون اليوم حالَهم في ذلك اليوم، **حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون،** أي لو يعلمون ذلك لَمَا استعجلوا بالعذاب. والمعنى لو يعلمون[٢] حين لا يكون كذا.

﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٤٠﴾

بل تأتيهم، النار، **بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون.**

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٤١﴾

ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق، فحاط، **بالذين سخروا منهم،** من الرسل، لقوله: فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ،[٣] ولم يقل: بهم، وكقوله: إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا.[٤] **ما كانوا به يستهزءون،**

---

١ ك - إذ لو جعله كذلك، صح هـ.

٢ ر: والمعنى لا يعلمون.

٣ ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة التوبة، ٧٩/٩).

٤ ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ (سورة هود، ٣٨/١١).

وهو العذاب، لأنهم كانوا يكذّبونه ولا يصدقون بوقوعه. ولهذا قالوا: متى هذا الوعد؟

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قل من يكلؤكم، يحفظكم، **بالليل والنهار من**، عذاب، **الرحمن**، وهو كقوله: مَن ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ.[1] **بل هم عن ذكر ربهم**، وهو القرآن، **معرضون**.

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾

أم لهم ءالهة تمنعهم من دوننا، المعنى من دوننا تَمنعهم من عذابنا. وهنا نكتة، وهي أن تقديم المنع يُعطي الاهتمام بذم الآلهة، ولو أخّره[2] كما قلناه لأعطى الاهتمام بمدح البارئ وإظهار القدرة منه سبحانه. وأما هذا الذي قاله فهو يدل على أن المراد ذم الآلهة بإظهار العجز منهم. ولهذا بدأ الآية بذكرهم وتمم ما أراده من وصفهم، فافهم مثل هذه. ثم أخبر عن بقية وصف الآلهة بقوله: **لا يستطيعون نصر أنفسهم**، فكيف ينصرون غيرهم، **ولا هم منا يُصْحَبُون**، المعنى ولا نحن أصحاب لهم، لأن الصاحب يَعضد صاحبه، فغير اللفظ للوِزان، أي وليس لهم منا صحبةٌ بل الشيطان صاحبهم.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

بل متعنا هٰؤلاء وءاباءهم حتىٰ طال عليهم العمر. أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها، جمع طرف بتحريك الراء، وليس المراد به ههنا طرف الشيء الذي هو آخره وإن كان المعنى يرجع إلى ذلك، لكنه ليس المقصود طرفَ الأرض نفسِها. وإنما هو مأخوذ من قوله تعالى: لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟[3] ويريد بذلك طائفة منهم. وقوله: **ننقصها**، هو مأخوذ من[4] النقص الذي هو ضد الزيادة. وأما قوله: **من أطرافها**،

---

[1] ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (سورة الأحزاب، ١٧/٣٣).

[2] ش ك: ولو أخر.

[3] ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾ (سورة آل عمران، ١٢٧/٣).

[4] ش – قوله تعالى ليقطع طرفا من الذين كفروا ويريد بذلك طائفة منهم وقوله ننقصها هو مأخوذ من، صح هـ.

فمعناه من طوائفها، أي نهلك[١] طائفة بعد طائفة. وعبر بهذه العبارة لأنه إنما يُبتدأ بطرف الشيء ثم يوصَل إلى وسطه. والمراد فتح بلاد الكفار المجاورة للمسلمين. ولهذا بعده: **أفهم الغٰلبون**.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قل إنما أنذركم بالوحى، أي بما يوحَى إليّ. **ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون**، تمثيلا بالأصم، ولكن عن سماع الإنذار، وليس بهم مِن صمم.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يٰويلنا إنا كنا ظٰلمين، وذلك حيث لا ينفع الاعتراف ولا يفيد الندمُ.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

ونضع المٰوزين القسط، أي بالعدل، **ليوم القيٰمة**، كقوله: أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ،[٢] أي حين دلوكها. **فلا تظلم نفس شيئا**، والحساب على النفس ليَعُمّ الذكر والأنثى والعبد والحرَّ. **وإن كان**، الشيء، **مثقال حبة / من خردل أتينا بها وكفىٰ بنا حٰسِبين**. [٢٧٨ظ]

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

ولقد ءاتينا موسىٰ وهٰرون الفرقان، وهو التوراة، فرّق بها بين الحق والباطل والحلال والحرام، ووصفها بالواو، كما تقول: زيد صديقك وصاحبك وخليلك، فوصفها بأنه قد جعلها فرقانا، **وضياء وذكرا للمتقين**.

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون، على أنفسهم. وعطف على قوله:

---

[١] ش: أي تملك.

[٢] ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ (سورة الإسراء، ٧٨/١٧).

وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا[1] [قوله:] وهٰذا ذكر مبارك أنزلنٰه أفأنتم له منكرون.

﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١﴾

ولقد ءاتينا إبرٰهيم رشده من قبل، أي من قبل أن يبلغ رشده بالاحتلام الذي جعله الله حدًّ من تجب عليه الصلوات[2] والعبادات، ودليله: وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ، ثم قال: فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا،[3] وهذا هو المفهوم من الإطلاق. وأما[4] تخصصه[5] ههنا فإنه لمّا قال: وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ،[6] ثم عطف عليه بقوله: وَهَٰذَا ذِكۡرٞ،[7] قال: **ولقد ءاتينا إبرٰهيم رشده من قبل**، أي من قبل موسى. **وكنا به عٰلمين**، أي بسريرته، فكان ما آتيناه على وفق العلم من قبل بما سوف يكون منه من بعدُ.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢﴾

إذ قال لأبيه وقومه ما هٰذه التماثيل التي أنتم لها، أي لعبادتها، **عٰكفون**، لازمون. والتماثيل الأصنام التي جعلوها أمثالا لله تعالى.

﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ٥٣﴾

﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٥٤﴾

فلمّا قلدوا آباءهم عابهم وعاب آباءهم وردّ عليهم، **قال لقد كنتم أنتم**، لتأكيد الضمير المستتر، **وءاباؤكم فى ضلٰل مبين**، بمعنى مبيَّن وهو مفعول.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦﴾

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧﴾

وتالله لأكيدن أصنٰمكم بعد أن تولوا مدبرين، ثم ولّوا.

﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ٥٨﴾

---

[1] الآية ٤٨ من هذه السورة.

[2] ر ك: الصلاة.

[3] سورة النساء، ٦/٤.

[4] ش: وإنما.

[5] ش ك: تخصيصه.

[6] الآية ٤٨ من هذه السورة.

[7] من الآية السابقة.

فجعلهم جذٰذا، فُتاتا. جذّ الشيءَ قطعه، والجَذْوَة[١] أصلها قطعة من النار، **إلا كبيرا لهم لعلهم إليه**، إلى الكبير، وقيل: إلى إبراهيم، وليس كذلك لأنهم إذا رجعوا إلى الكبير بما نسبه إبراهيمُ إليه ولم يجدوا ذلك صحيحا في عقولهم رجعوا محجوجين[٢] من إبراهيم، فربما رجعوا بعد ذلك إلى إبراهيم، إذ رجوعهم إلى إبراهيم بنفس ترك الكبير دون الاحتجاج لا يصح، ولا يصح[٣] أيضا بالتكسير. فيكون الرجوع إلى إبراهيم نتيجةَ الرجوع إلى الكبير بما قاله إبراهيم لهم، **لعلهم [إليه] يرجعون**.

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٩﴾

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ٦٠ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ٦١﴾

قالوا سمعنا فتى يذكرهم، بسوء، **يقال له إبرٰهيم. قالوا فأتوا به علىٰ أعين الناس**، أي بمشهد منهم ومعاينة له، **لعلهم يشهدون**، عليه. [و]إنه قال: وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم.[٤]

﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ٦٢﴾

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣﴾

قال بل فعله كبيرهم هٰذا فاسئلوهم إن كانوا ينطقون. قيل: بيّن ذلك لهم على صورة الاستهزاء. وليس كذلك بل لأمر مقصود له ليُلجئهم إلى ما قالوه بعدُ فيحجَّهم بقولهم، وذلك أتم في بلوغ الغرض. ولهذا قصد أولا ما رتّب عليه غرضه وهو قوله: لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ،[٥] أي إذا قال لهم: **بل فعله كبيرهم**، ظهر منه القولُ الذي قالوه وهو: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ،[٦] فيحُجُّهم بكلامهم، إذ الجواب له بذلك منهم لازم بحسب ما قدمه لهم من قولٍ بعده، فافهم ذلك.

---

[١] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (سورة القصص، ٢٨/٢٩).

[٢] ر ش: محجوبين.

[٣] ك - ولا يصح، صح هـ.

[٤] الآية ٥٧ من هذه السورة.

[٥] الآية ٥٨ من هذه السورة.

[٦] الآية ٦٥ من هذه السورة.

وما روي عن أن إبراهيم كَذَبَ ثلاثَ كَذَباتٍ،[1] وأن هذه أحدها فلا تُقبل الرواية. فإن قيل: يلزم[2] الطعن في الرواة. قلنا: ذلك أولى من الطعن في إبراهيم عليه السلام، ولا يكون إبراهيم كاذبا،[3] ولا يجوز أن يكون النبي كاذبا[4] بوجه أبدا، لأنه معصوم من الكذب خاصة. فافهم ذلك[5] / جيدا. وهذا الاحتجاج ههنا هو كما بيّنّاه في قوله: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.[6] فههنا لم يَسلب عن آلهتهم الإلٰهية التي نسبوها إليهم بل حجهم بما تقتضيه جبلَّةُ الفِطَرِ من أن الإلٰه تكون له القدرة والعلم، فحقَّق عندهم سلْبَ القدرة عن آلهتهم بقوله: **بل فعله كبيرهم**، وسلْبَ العلمِ بقوله:[7] **فاسئلوهم**. فكان الجواب أولا منهم بالحال دون المقال. [٢٧٩و]

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤﴾

وهذا كان قصد إبراهيم أولا.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾

ثم نكسوا، حياءً وخجلا، **علىٰ رءوسهم**، هذا على طريق التمثيل. ولهذا لم يقل: ثم نكسوا رءوسهم، لأن المراد بيان صورة معنوية طرأتْ على العقول لا صورةٍ جسمانية حدثت للأبدان. وهذا كما يقال: سُقط في يده،[8] فهو من باب ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «لم يَكْذِبْ إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كَذَباتٍ: ثِنْتَيْنِ في ذات الله، قوله: "إني سقيم"، وقوله: "بل فعله كبيرهم هذا"، وواحدةً في شأن سارة. فإنه قَدِم أرض جبار ومعه سارةُ كانت أحسن الناس. فقال لها: إن هذا الجبار إن يَعلمْ أنكِ امرأتي يغلبني عليكِ، فإن سألكِ فأخبريه أنك أختي. فإنك أختي في الإسلام. فإني لا أعلم في الأرض مسلما غيري وغيرَك. فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، أتاه فقال له: لقد قدمتْ أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لكَ. فأرسل إليها فأُتي بها. فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة. فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها. فقبضت يده قبضة شديدةً. فقال لها: أُدْعِي الله أن يُطلق يدي ولا أضرّكِ، ففعلت. فعاد فقُبضتْ أشدَّ من القبضة الأولى. فقال لها مثل ذلك. ففعلت. فعاد فقُبضتْ أشد من القبضتين الأوليَيْن. فقال: ادعي الله أن يطلق يدي، فلكِ الله أن لا أَضُرَّكِ. ففعلت وأطلقت يده. ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان. فأخرجها من أرضي. وأعطها هاجر. قال فأقبلتْ تمشي. فما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف فقال لها: مَهْيَمْ؟ قالت: خيرا. كفَّ الله يد الفاجر وأَخْدَمَ خادما» (صحيح مسلم، الفضائل ١٥٤؛ والسنن الكبرى للبيهقي، ٣٦٦/٧). | مَهْيَمْ: أي ما أمرُكِ وشأنُكِ (النهاية لابن الأثير، «مهيم»).

[2] ر: يلزم؛ ش + يلزم؛ ك: فلزم. وفي هامش ك: يلزم.

[3] ر + بوجه أبدا.

[4] ك - ولا يجوز أن يكون النبي كاذبا، صح هـ.

[5] ش - ذلك، صح هـ.

[6] ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ (سورة البقرة، ٢٥٨/٢).

[7] ك - بل فعله كبيرهم وسلب العلم بقوله، صح هـ.

[8] سُقِطَ في يد الرجل زلَّ وأخطأ، وقيل: ندم (لسان العرب، «سقط»).

فَيَدۡمَغُهُۥ،[١] والمراد أهل الحق وأهل الباطل. فكما أن المراد بالدمغ ما يؤخذ على صورة التمثيل بمن أصيب بضربة بلغت دماغه فأهلكته، فكذلك التنكيس على الرءوس. ولهذا وقع الاعتراف منهم قهرا كمن نُكس على رأسه فقالوا: **لقد علمت ما هٰؤلاء ينطقون**.

﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦﴾

قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا، أي في شيء أو بشيء، **ولا يضركم**، لأنها لم تدفع عن نفسها فكيف تدفع عن غيرها.

﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾

قالوا حرقوه، مضاعفة في الإحراق، **وانصروا ءالهتكم إن كنتم فٰعلين**، أي فاعلين جزاءَ ما فعل، لأن الذي يكفر بالإلٰه يستحق النار، وهذا كَفَر بها وكَسَرها.

﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾

قلنا يٰنار كونى بردا، فلو لم يقل: **وسلٰما علىٰ إبرٰهيم**، لناله من ألم البرد أضعاف ألم الحرّ.

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠﴾

وأرادوا به، بإبراهيم بما فعلوه، **كيدا**، مع علمهم بصحة ما جاء به. **فجعلنٰهم الأخسرين**.

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾

هذه كلفظ[٢] التوراة.[٣]

---

١ الآية ١٨ من هذه السورة.

٢ ش ك: اللفظ.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «قال الرب لأبرام: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك، وتكون بركة. وأبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض. فذهب أبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط. وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران. فأخذ أبرام ساراي امرأته، ولوطا ابن أخيه، وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران. وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى أرض كنعان. واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة. وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض. وظهر الرب لأبرام وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض. فبنى هناك مذبحا للرب الذي ظهر له. ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته. وله بيت إيل من المغرب وعاي من المشرق. فبنى هناك مذبحا للرب ودعا باسم الرب. ثم ارتحل أبرام ارتحالا متواليا نحو الجنوب» (التكوين ١٢/١-٩).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾

ووهبنا له إسحٰق ويعقوب نافلة، منا نفّلناه[1] بهما، لأن العطية الأولى إنما كانت إسماعيلَ. وفي التوراة أن إبراهيم لمّا جاءته البشرى بإسحاق قال: يا رب ليت إسماعيلَ يحيى بين يديك. فقال له: ولإسماعيل سمعتُك ها أنا باركته وأنميته جدا جدًا اثني عشر شريفا يولد وتكون منه أمة عظيمة،[2] هذا نصها الجلي. فكان إسحاقُ ويعقوب نافلة. **وكلا جعلنا صٰلحين**.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾

ولوطا ءاتينٰه حكما، يقبله المحكوم عليه به، لأنه مما تعرف العقول بصحته، وهذا من باب ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[3] **وعلما**، من لدنا. **ونجينٰه من القرية التى كانت تعمل الخبٰئث**، كرّر النجاة لأن الأولى نجاة لهما من قوم إبراهيم، والثانية تختص بلوط من قريته. **إنهم كانوا قوم سوء فٰسقين**.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾

ونوحا إذ نادىٰ من قبل فاستجبنا له فنجينٰه وأهله من الكرب العظيم، شدة الغمّ تُشبه الكرب لأنها[4] تسخّن القلبَ.

﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

ونصرنٰه، بسلامته، **من القوم الذين كذبوا بـٔايٰتنا**، ولهذا لم يقل: على القوم.

---

[1] ش: نقلناه.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «وقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك! فقال الله: بل سارةُ امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه إسحاق. وأقيم عهدي معه عهدا أبديا لنسله من بعده. وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأُكثره كثيرا جدا اثني عشر رئيسا يلد، وأجعله أمة كبيرة» (التّكوين ١٧/١٨-٢٠).

[3] سورة النساء، ٦٤/٤.

[4] ك - لأنها، صح هـ.

ويحتمل ما معناه من دون القوم، لأن الله تعالى لم ينصر المكذبين. **إنهم كانوا قوم سوء فأغرقنٰهم أجمعين.**

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨﴾

وداوٗد وسليمٰن إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم، النفْش بثُّ الشيء المجتمع. ويقال عن الحيوان والإنسان إذا عدا[1] مسرعا هاربا[2] من شيء: نَفَش، ولا يقال ذلك إلا إذا كان في جمع فانفرد منهم[3] هربا كما تنفُش الشيء المجتمع من القطن مثلا فتَفرَّقُ أجزاؤه بسرعة. فهذه الكلمة عبّر بها على طريق التمثيل إعلاما أن الغنم انبثّت في الحرث مسرعة فرَعَتْه / وأهلكته بعَدوِها فيه كأنها لم تُطِعِ الراعيَ لها بل هربت وعجز [٢٧٩ظ] عن ردها فهلك الحرث. **وكنا لحكمهم شٰهدين،** أضاف الحكم إلى القوم، كقوله: لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ.[4] فالإشارة ههنا إلى القوم المحكوم لهم لا المحكوم عليهم، لأن الحاكم ينبغي أن يحكم للمظلوم، ويلزم منه الحكمُ على الظالم، فذكر الله سبحانه ما يلزم الحاكمَ. ولهذا لم يقل: لحكمهما.[5] ولمّا كان الحكم لأحد الفريقين من وجه وللآخر من آخر اكتفى في العبارة عن بيان المحكوم له منهما مفصلا، وذكره بقوله: **لحكمهم،** مجملا. ومن قال: إنما الإشارة إلى داود وسليمان وإن كان بلفظ الجمع، إذ التثنية جمعٌ عند أرباب اللغة فذلك جائز، والأول أولى. والله أعلم.

﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾

ففهمنٰها سليمٰن، إشارة إلى أن ذلك الحكم لم يكن من علم تقدم بل بفهم[6] بديهي، لمّا توجه سليمان إلى التماس الحكم الحقّ[7] لا من علم[8] متقدم فهّمه الله الأولى. وقيل: إن داود كان قد حكم أولا بالعلم وكان حُكما حسنا، فحكم سليمان بالفهم

---

[1] ش: إذا غدا.

[2] ش ك: هربا.

[3] ك - من شيء نفش ولا يقال ذلك إلا إذا كان في جمع فانفرد منهم، صح هـ.

[4] الآية ١٠ من هذه السورة.

[5] ش: لحكمها.

[6] ر: بل من فهم.

[7] ك - الحق، صح هـ.

[8] ش - تقدم بل بفهم بديهي لما توجه سليمان إلى التماس الحكم الحق لا من علم، صح هـ.

فكان أحسن، لا أن داود أخطأ، لقوله بعده: **وكلا ءاتينا حكما وعلما**. والفهم لا يكون إلا من علم كما يفهم المفتي من علم الشريعة ما يفتي به. ومن فوائد الإخبار بهذه القصة الإعلامُ بأن الله تعالى قد يؤتي الصغير من الفهم ما لم يؤتِه الكبير وإن كانا عالمين، وأن الفتوى بالفهم أولى من الفتوى بالعلم وحده إذا كان الفهم بعلم. فآتى الله الحكم والعلم للوالد والولد في تلك الواقعة وغيرها. وخَصّ الولد بالفهم في تلك الواقعة خاصة تخصيصا للولد لا تخطئةً للوالد. ولهذا لما ذكر ما خَص به الولد ذكر بعده ما خص به الوالدَ. فقال: **وسخرنا مع داوۥد الجبال يسبحن والطيرَ**، تَسبح أيضا معه، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.[1] فكان داود يفقه تسبيحَ[2] ما سخّره الله يسبّح معه. **وكنا فٰعلين**، أي ليس من إلٰه غيرنا يفعل ذلك.[3]

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

وعلمنٰه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم، وهو الزَّرَد[4] إعلاما أنه أفضل ما تَحصَّن به متحصنٌ. **فهل أنتم شٰكرون**.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾

ولسليمٰن الريح، سخّرناها، **عاصفة**، شديدة في الهبوب، وإذا أمرها صارت رُخاءً أو أشد، لهذا قال: **تجرى بأمره إلى الأرض التى بٰركنا فيها**. إنما قال: **إلى الأرض**، لأنه كان في الأرض المقدسة، وكان[5] يَروح على الريح من الأرض المقدسة إلى حيث يشاء من مسيرةِ شهر، ويعود في نهاره إلى الأرض المقدسة. فلهذا قال: **إلى**، إذ جريان الريح من الأرض المقدسة إليها غدوًّا ورواحا كما بيّنّاه في موضعه.[6] **وكنا بكل شىء عٰلمين**.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

ومن الشيٰطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذٰلك وكنا لهم حٰفظين، من الهلاك

[1] سورة الإسراء، ١٧/٤٤.

[2] ش: تسبح.

[3] ر: كذلك.

[4] الزرْد والزرَد حِلَقُ المِغْفر والدرع (لسان العرب، «زرد»).

[5] ر: فكان.

[6] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ (سورة سبأ، ٣٤/١٢). وانظر أيضا: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (سورة ص، ٣٨/٣٦).

في غوصهم البحارَ ومقاساتِهم الأخطار. وذلك الحفظ من أجل سليمان، والإشارة إلى شياطين الإنس والجن.

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وءاتينٰه أهله ومثلهم معهم، شرحُ ذلك في قصة بمفردها من كلام أنبياء بني إسرائيل. وقوله: **رحمةً من عندنا**، إشارة إلى أن ذلك بغير عمل منه بل بسؤال فقط. وقوله: **وذكرىٰ للعٰبدين**، أي من بعده إذا[1] ابتلاهم الله في النفس والمال والولد والآل يصبرون ويتضرّعون.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

وإسمٰعيل وإدريس وذا الكفل، النصيبِ. وقد قيل: إنه نبي دعا على قوم أُرسل إليهم فكذبوه، فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم.[2] وكان له نصيب من عذابهم،[3] إذ[4] لم يستغفر لهم أو يُعرض عنهم. فلمّا اعترف / بذنبه ودعا الله أنقذه من العذاب وأدخله في [٢٨٠و]
الرحمة، وسمّاه الله بهذا الاسم كما سمَّى "ذا النون" إشعارا بتشابه[5] بينهما في الأفعال كما تشابها في الأسماء. واستدل هذا القائل بقوله تعالى: وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا.[6] وهذا عندي من باب الظن، والله أعلم بكلامه. **كلٌّ من الصٰبرين**.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

وذا النون إذ ذهب مغاضبا، لله، **فظن أن لن نقدر عليه**، ثم اعترف بقدرة الله عليه، **فنادىٰ فى الظلمٰت**، ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمةِ الليل، **أن لا إلٰه إلا أنت سبحٰنك إنى كنت من الظٰلمين**.

---

١ ك: إذ.
٢ ش: وأهلكهم.
٣ ر - عذابهم، صح هـ.
٤ ر ك: إذا.
٥ ش: يتشابه.
٦ سورة النساء، ٨٥/٤.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾

فاستجبنا له ونجينٰه، بالواو، لأن النجاة ههنا بعد الاستجابة، إذ[1] دعاؤه كان ليتوب عليه، وأيوبُ دعاؤه لطلب الكشف. وقوله: **من الغم**، لأن يونس أيضا كان في غم[2] مِن كفر قومه، كما كان نوح في كَرْب.[3] **وكذٰلك ننجي المؤمنين**، إذا نادونا.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾

وزكريا إذ نادىٰ ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوٰرثين. فاستجبنا له، دعاءه. **ووهبنا له يحيىٰ وأصلحنا له زوجه**، أصلحها للولادة لقوله: وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا.[4] فاستجاب الله منه في الولد وفيها،[5] ولولا ذلك لجاز أن يكون الولد من غيرها. **إنهم كانوا يسٰرعون فى الخيرٰت ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خٰشعين**. الكلام مقطوع من عند قوله: **وأصلحنا له زوجه**، والباقي عمن تقدم من الأنبياء، لهذا لم يقل: كانا. فذكر الجملة ليعُمَّ سائرَ المذكورين، ومنهم هؤلاء. وقوله: **وأنت خير الوٰرثين**، أدبٌ مع الله لكونه طلب وارثا وهو اعتراف منه بقوله تعالى: إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ.[6]

وقوله: لَّن نَّقۡدِرَ، من القدرة وهو من جنس قوله: مُغَٰضِبٗا،[7] كقول موسى عليه السلام: فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ.[8] وهذا إخبار من الله سبحانه لنا بأن هؤلاء الأنبياء عليهم السلام كانوا مكلَّفين مكرَهين على ما كلِّفوه ومغتالين[9] منه، ولم يكونوا راغبين في الأمر والنهي.

---

[1] ش ك: إذا.

[2] يشير المؤلف إلى الآية ٨٣-٨٤ من هذه السورة.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ٧٦ من هذه السورة. وانظر أيضا: سورة الصافات، ٧٦/٣٧).

[4] ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ (سورة مريم، ٥/١٩).

[5] ر: وقيها.

[6] ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ (سورة مريم، ٤٠/١٩).

[7] الآية ٨٧ من هذه السورة.

[8] ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ (سورة الشعراء، ١٣/٢٦).

[9] جميع النسخ: ومقتالين. | غلت القدر ونحوها غليا وغليانا: فارت وطفحت بقوة الحرارة. غلى الرجل: اشتد غيظه (المعجم الوسيط، «غلا»).

[حكمة ابتلاء الأنبياء بالشدائد]

ويلزم من مفهوم هذا الكلام وجوبُ الزهد في الدنيا والخمولِ وترك التعرض للولايات وما يجري مجراها وأنه لا يجوز أن يُقبَل إلا كَرها.[١] لأنه إذا كان الأمر والنهي قد زهد فيه مثلُ هؤلاء، وذلك[٢] مع شرف الرسالة وعظمِ المرسِل[٣] وكثرةِ المرسَل إليهم وعلوّ قدر الرسول فيهم وغيرِ ذلك مما يُتوقع من جزيل الأجر وجميلِ الذكر في الدارَيْن، فكيف إذا كان الأمر جميعه بالضد. فهذا بعض فوائد الإخبار بمثل هذه الأخبار[٤] وعن مثل هؤلاء، مضافا إلى أن هؤلاء كان لهم من الأُنس بالله والتمكينِ أنهم يتكلمون بين يديه بما يعرض لهم وتنزع إليهم نفوسهم كما يكلم المرء صاحبه. ولا يقال: إن ذلك كفر، أو لا يجوز أن يَصدر من نبي، بل ذلك مما يَدل على عظم قدر النبي عند الله تعالى. فإن سَذاجة[٥] القلب وقلة التعمق في تأويل الكلام وما شاكل ذلك دال على علوّ الرتبة عند الله تعالى، كما دلّ العاقلَ كونُ النبي محمد صلى الله عليه وسلم أميّا لا يعرف الكتابة[٦] ولا الشعر[٧] ولا مثل ذلك. ومع ذلك يُوحَى إليه مثلُ هذا[٨] القرآن. فهذا الكلام الذي أخبر الله به عن الأنبياء المذكورين هنا ليس المقصود به تعظيمَ الأنبياء فقط -وإن تضمن ذلك- بل المقصود به أن الله تعالى ابتلى مثل هؤلاء بمثل هذه البلايا فدعوا فاستجاب لهم. وأيضا إن بعضهم مع جلالة قدره بدا منه ما به استحق أن يَستجنّ في بطن الحوت.[٩]

فلمّا اعترف ودعا فرّج الله عنه. فالمراد ذكر المغفرة من الرب لا ذكر الذنب من العبد. ولمّا كان الأنبياء ومَن / دونهم وهم الأولياء لا يجوز لهم أن يكون لأحدهم مع الله [٢٨٠ظ] اختيارٌ، وأراد الله أن يعرّفَنا أنهم غير مجبَرين على الطاعة بل يمكن أن يقع منهم ما قد وقع من يونسَ وداودَ وغيرهما[١٠] كان في هذا الإخبار من الله تعالى عدةُ منافع. منها أن نعلم أن النبي يجوز أن يقع منه ما يجب عليه الاستغفار من[١١] أجله، فمَن نحن حتى لا نحترز؟

---

١ وفيه "اذكروا الله ذكرا خاملا"، أي منخفضا توقيرا لجلاله. يقال: خمل صوته إذا وضعه وأخفاه ولم يرفعه. انظر: النهاية لابن الأثير، «خمل».

٢ ر: ذلك.

٣ ر ك + إليهم.

٤ ك - بمثل هذه الأخبار، صح هـ.

٥ أي بساطة القلب وخالصه.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٤٨).

٧ ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ (سورة يس، ٣٦/٦٩).

٨ ر - هذا.

٩ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۞ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۞ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (سورة الصافات، ٣٧/١٣٩-١٤٢).

١٠ وفي هامش ك: وغيرهم.

١١ ر: ومن.

ومنها أن الخاطئ بين يدي المَلِك مع معرفته بما لا يعرفه غيرُه منه هو أشد عقابا ممن عذرُه جهله. وإذا غفر سبحانه لمثل أولئك مع علمهم فنحن أولى بالطمع في رحمته لجهلنا، فبيَّن ذلك لئلا نقنط ولا نيأس.[1] ومنها تعليم العباد أنه لا يجوز أن يكون لهم مع الله اختيارٌ ولو كانوا في رتبة الأنبياء، فإن الله تعالى لا يسامحهم بل يعاقبهم إلى يوم البعث إلا إن تابوا. ومنها أن ذنبا يستحق به الإنسان أن يبقى إلى يوم البعث[2] مسجونا في بطن حوت قد جعل الله الاعتراف والتوبة تمحوه. ومنها الإعلام بفضيلة الدعاء من الطائع كدعاء زكريا في نيل المطلوب له، ولو كان من الممتنع عرفا وعادة؛ ومن العاصي ولو كان قد أتى بعظيمة كيونس عليه السلام؛ ومن المبتلَى ولو كان بأشد البلاء كأيوب عليه السلام. فإذا فهمنا ذلك ومثلَه تحققنا أن للدعاء[3] فضيلة ورتبةً لم نكن لنعرفها[4] بغير هذه الإخبارات الإلٰهية التي لا شك في صدقها. فيجب حينئذ اجهاد النفس في الدعاء دائما، لأننا لا نخلو من حال من هذه الأحوال ولو كنا في رُتَب الأنبياء. وهذا المعنى من أشرف المطالب، لأنه دل على غاية التخويف لنا وغاية الرحمة منه سبحانه وغاية الفضل -إذ يُعطينا بكلام نقوله- ما يستحيل وقوعه في العقل، وإذ يجازي فلا يُضيع عملَ عاملٍ،[5] كقوله تعالى: **والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلنٰها وابنها ءاية للعٰلمين.**

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾

وقوله: **إن هٰذه أمتكم أمة وٰحدة وأنا ربكم فاعبدون.** خطاب للأنبياء جميعهم، وتقديره وقلنا لهم: إن هذه. ثم أخبر سبحانه عن هذه الأمة المشار إليها بأنها واحدة وأن ربها واحد وإن كانت من أول الزمان إلى آخره. فعرّف بحالهم وفعالِ كل فرقة[6] منهم. ثم قال تعالى عاطفا على قوله الأول، أي إنا فعلنا وأرسلنا وقلنا.

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣﴾

وتقطعوا أمرهم، في أمرهم بغيا، بينهم. ثم أخبر سبحانه كالمتواعد لهم بالجزاء فقال: **كلٌّ إلينا رٰجعون.**

---

[1] ش ك: لئلا يقنط ولا ييأس.

[2] ش + إلا إن تابوا.

[3] ش: الدعاء.

[4] ش ك: لم تكن لتعرفها.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ (سورة آل عمران، ١٩٥/٣).

[6] ش + قرية. في هامش ك: قرية.

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤﴾

ثم قسمهم فقال: **فمن يعمل من الصٰلحٰت**، وهي كل ما يَصلح به المرء، وأفضلُها حسن الخلق. ولهذا قيل: اخْرِق العادة في أخلاقك تُخْرَق لك العادة. وكل ذلك لا يفيد إلا مع الإيمان. لهذا قال: **وهو مؤمن**، أي برسوله في وقته، فهذا هو الشرط. فما آمن بالله من كفر برسوله. فإذا كان مؤمنا، **فلا كفران لسعيه**؛ كفرٌ وكفرانٌ، كقولك:[١] شُكْر وشكران، وهو من كفر يكفر، أي لا يُبخس من سعيه شيءٌ. **وإنا له**، لسعيه، **كٰتبون**، فهؤلاء فريق.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝٩٥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦﴾

ثم قال عن الآخر: **وحرٰم**، ما نحن كاتبون من الأجر للمؤمن الذي تقدم ذكره حرامٌ، **علىٰ قرية أهلكنٰها**، بسبب، **أنهم لا يرجعون**، إلينا بالتوبة والاستغفار، أي بل يُصرّون. وهذا منسوق في المعنى على قوله في أول السورة: مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا.[٢] فحذف ههنا المحذوفَ لما دل عليه بالمُثْبِت قبل وبعد، ولهذا لم يقل: يُرجَعون بضم الياء وفتح الجيم الذي يُعطي الرجوعَ في الآخرة بل بكسرها. **حتىٰ إذا فتحت**، طرق **يأجوج ومأجوج / وهم من كل حدب ينسلون**، النَّسْلان ضرب من السير. [٢٨١و]

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧﴾

واقترب الوعد الحق فإذا، "إذا" للمفاجاءة، تقول: خرجت فإذا زيد بالباب، **هي شٰخصة أبصٰر الذين كفروا**، يقولون: **يٰويلنا قد كنا فى غفلة من هٰذا**، الأمر الذي تَشخص له الأبصارُ. ثم رجعوا إلى أنفسهم، فقالوا: **بل كنا ظٰلمين**، لأنفسنا[٣] بتكذيب الرسل.

﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾

فقال تعالى في ذلك اليوم وهو إخبار لأمثالهم في الدنيا: **إنكم وما تعبدون من دون الله**، وهذا الكلام مخصَّص بالمشركين. ولهذا لم يقل: إن كل كافر بل، **إنكم**،

---

١ ش ك: لقوله.
٢ الآية ٦ من هذه السورة.
٣ ش ك: بأنفسنا.

يشير إلى عُبّاد غير الله، ولم يقل: "ومن" بل، وما، فأراد الأصنام التي اتخذوها آلهة، لأن "ما" يعبَّر بها عمن يعقل وعمن لا يَعقل فتُحمل ههنا على ما ينفي المعارضة ويَخرج من هذا عيسى عليه السلام، بل آلهتهم، وهم، **حصب جهنم**. الحصب مشتق من الحَصْباء وهي الحصى التي يُحصب بها.[1] **أنتم لها وٰردون**، أي أوّلا وآلهتُكم بعدكم، ولهذا قدم قوله: **إنكم**.

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾

ثم قال: **لو كان هٰؤلاء ءالهة ما وردوها**. ثم أخبر سبحانه فقال عن الجميع: **وكل فيها خٰلدون**.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون، سلاما إلا لغوا بضد أصحاب الجنة؛[2] وسكت عنه لأنه بيَّن ضدَّه ولا يناقضه [قوله:] سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا.[3]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾

ثم رجع إلى وصف الخواص من الأواخر والأوائل فقال: **إن الذين سبقت لهم منا الحسنىٰ**، سبقت في العلم القديم الذي لم يزل.

[علم الله القديم وفعل العبد]

وذلك أن علم الله سبق[4] لعمل زيدٍ فهو متقدم على العمل ولا يغيّره ولا يكون زيد مجبَرا على العمل بسبق علمِ الله لعمله، لأن العلم يتبع المعلوم ولا يغيره. فلمّا علم الله ما يكسبه زيد من الخير وما يعِينه الله به ويزيده من الإيمان جزاءً على إيمانه كَتَب له الخير والحسنى لعلمه بما يكون منه وما يستحقه. فلا شك أن الحسنى التي هي جزاء زيد في عمله في الدنيا سبقت في علم الله قبل أن يُخلَق زيدٌ. ولمّا كان زيد لا يَستحق الجزاء

---

[1] الحَصَبُ: كل ما ألقيته في النار من حطب وغيره. وفي التنزيل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾. وحصبته أحصبه رميته بالحصباء (لسان العرب، «حصب»).

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ (سورة الواقعة، ٥٦/٢٥-٢٦). وانظر أيضا: سورة مريم، ١٩/ ٦٢؛ وسورة النبأ، ٧٨/٣٥.

[3] ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ (سورة الفرقان، ٢٥/١٢).

[4] ك - سبق، صح هـ.

إلا بعد العمل والله تعالى قد كتب له الجزاء قبل العمل نسبه سبحانه إلى نفسه فقال: **سبقت لهم منا**، أي سبقت لهم علما. وستفهم زيادةً على ما فهمتَه كيف سبقت علما أيضا. فهذه صورة أولة، إنما ذكرتُها ليزول اعتقاد الجبر من نفسك. وليس مراد الآية ذلك وإن كان محتمِلا، ولا يقابِل المرادَ أن تَعْلم أن جميع ما يفعله الله مع المؤمن في الدنيا إنما هو إحسان من عند الله تعالى لا جزاءٌ على عمله، لقوله: مَآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ.[1] وأما جزاؤه فهو في الآخرة وزيادةٌ يزيده بعد ذلك عليه، لقوله تعالى: لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ[2] وأمثالِ ذلك. ولا شك أنه تعالى إذا أعطاهم في الدنيا حُسْنَى بأي صورة كانت ولم يَحسُبها عليهم من جزائهم فقد سبقت الحسنى منه، فافهم منه. وهذا بشرى لسائر المؤمنين. ثم إن هذه الحسنى في الدنيا هي على وفْق ما تقدم به العلمُ بما يكون من زيدٍ المحسِن إلى نفسه. وما هو في العلم لا يقال له: حسنى،[3] بل علمٌ بالحسنى التي سيفعلها الله من لدنه مع عبده بعد وجوده. وأما قبلُ فليس إلا علمٌ فقط. ولمّا كانت الحسنى المشارُ إليها في الدنيا علامة دالة للمؤمن على الحسنى في الأخرى قال بعد ذكرها: **أولئك عنها مبعدون**، وتمامه. فهذا هو الحق الذي يصح به تكليف الخلق، وإلا[4] إذا كانت الحسنى أزلا لا على وفق العلم بما سيكون من العبد عملا فقد عادت ميلا من الحق وسقطت اللائمة عن الخلق، وذهبت فائدة الوَعَظَة والمُصنفين بل سقطت فضيلة العلماء والمرسلين. / ونعوذ بالله من التديُّن [٢٨١ظ]
بهذا الدين. فليس هذا كمن اعترف بفضل الرحمن وفضيلة الإنسان وفائدة القرآن.

﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢﴾

لا يسمعون حسيسها، أي محسوسَها وهو ما يُحسّ منها بأحد الحواس. **وهم في ما اشتهت أنفسهم خٰلدون**.

﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾

---

١ ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ (سورة النساء، ٤/٧٩).
٢ سورة فاطر، ٣٥/٣٠.
٣ ش: له حتى.
٤ ك + وإلا.

لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقىٰهم الملٰئكة، يقولون لهم: **هٰذا يومكم الذى كنتم توعدون**. وهذا جميعه، **يوم نطوى السماء كطى السجل**، وهو الصحيفة تُطْوَى على ما فيها من الكتابة احترازا لأجل الكتابة، وما ليس فيه كتابة فلا يُطْوَى. وقوله: **للكتب**، أي لأجل[1] الكتابة التي[2] تكون في السجل. ثم أخبر سبحانه عن قدرته، وذلك بما يشهده عقلُ العاقل بما بدأه الله من نشأته فقال: **كما بدأنا أول خلق نعيده**، فإن الذي خلق أولَ مرة قادر على أن يخلق ثانيا وما شاء، ثم قال: **وعدا علينا إنا كنا فٰعلين**، ما نعِد[3] به وما نُخلف.[4]

﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾

ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر، بعد أن كتبنا في التوراة، **أن الأرض**، المُخْبَرَ عنها بقوله: وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ،[5] **يرثها عبادى الصٰلحون**. ويحتمل أن تكون الإشارة أيضا في الدنيا إلى ما يرثه المسلمون ويفتحونه من بلاد الكفار، كقوله: وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ [وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَا].[6] ولا يلزم أن تكون الأرض الموروثة المذكورة ههنا سائرَ أرض الدنيا بل هذا كقوله تعالى: أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ.[7] والأول أولى لقوله: **إن فى هٰذا**، أي[8] الوعدِ الذي كتبناه في الذكر والزبور والقرآن، **لبلٰغا لقوم عٰبدين**. ويحتمل الإطلاق بقوله:[9] **إن فى هٰذا**، أي القرآن.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾

وما أرسلنٰك، أي بعد هؤلاء المرسلين المذكورين الذين أهلكنا من أممهم المكذِّبين، **إلا رحمة للعٰلمين**.

﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨﴾

ثم ذكر أُسَّ[10] الرحمة فقال: **قل إنما يوحىٰ إلىّ أنما إلٰهكم**، هو، **إلٰه وٰحد، فهل أنتم مسلمون؟**

---

١ ش ك: أي اجعل.
٢ ك - التي.
٣ ك: ما نعيد.
٤ "وما نخلف": أي لا نخلف وعدنا ولا نترك ما وعدْنا.
٥ ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُ﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٧٤).
٦ سورة الأحزاب، ٢٧/٣٣.
٧ ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ (سورة المائدة، ٣٣/٥).
٨ ر - أي.
٩ ك + بقوله.
١٠ ش: أسس.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۖ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾

فإن تولوا، عما دعوتهم إليه من الإسلام، **فقل ءاذنتكم**، أخبرتكم،[1] **على سواء**، أي مثل ما أُخبرتُ به عن[2] ربي من غير زيادة ولا نقصان. وهذا كقوله: فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ،[3] أي مثل ما نبذوا إليك. **وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون**، به من العذاب.

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠﴾

إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون، فيجازيكم بمثله.

﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١﴾

ثم عطف على القول بمثله فقال: **وإن أدرى لعله**، لعل العذاب إن كان بعيدا، **فتنة لكم**، هذا كقوله: نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ.[4] ولهذا قال ههنا: **ومتع إلى حين**، يشاء الله.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾

قل رب احكم بالحق، بيننا. **وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون**، من الشرك وما يتعلق به مما[5] أَثْبتَه عنهم في هذه السورة.

---

١ ش ك - أخبرتكم، صح هـ.
٢ ر: من.
٣ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ (سورة الأنفال، ٨/٥٨).
٤ سورة لقمان، ٣١/٢٤.
٥ ر ك: بما.

سورة الحجّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ١﴾

يٰأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، زلّ وزلزل مثل دكّ ودكدك.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ٢﴾

يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت. يقال: "المرضع" إذا كانت امرأة معها ولد لغيرها تُرضعه، وبالهاء[1] إذا أرضعت ولدها أو ولد غيرها، فعم الكلامُ. ثم قوله: **كل مرضعة**، يدل على ذهولها عن ولدها الطفل. وقوله: **عما أرضعت**، بلفظ الماضي يدل على الصغير والكبير، فلم يبقَ إلا ذاتُ الحمل، فذكرها[2] بقوله: **وتضع كل ذات حمل حملها**. وبدأ بذكر النساء لفرط عنايتهن وشَفَقَتهن، فأخبر بعموم غفلتهن عمن يكون مخلوقا عنهن صغيرا وكبيرا، رضيعا وفطيما، ذكرا وأنثى، لهن ولغيرهن. وأتبعه بوضع كل جنين من أولات الأحمال. ثم ذكر بعد ذلك حال الرجال فقال: / **وترى** [٢٨٢و]
الناس سكٰرىٰ، بالخوف والعذاب، **وما هم بسكٰرىٰ**، من خمر. وقوله: **الناس**، يعمّ الذكور والإناث، ولكنه إنباءٌ بحال النساء عن عِظَم هول الساعة وإنباءٌ بما بعده بحال مَن تقوم عليه الساعة. ولما كان الرجال أجدر بالسكر والعذاب والوعيد قال بعده: **ولٰكنّ عذاب الله شديد**.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ٣﴾

ومن الناس من يجٰدل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطٰن مريد، أي قُدّامَهم هذا الأمرُ العظيم، ومنهم مَن هذا حالُه.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾

ثم وصف الشيطان بقوله: **كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير**.

---

١ أي "المرضعة".

٢ جميع النسخ: فذكره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾

يٰأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث، إذ بالإيمان به[1] تتحقق[2] صحةُ هذا الوعيد المذكور أولا، **فإنا خلقنٰكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة**، سميت علقة لتعلقها بالرحم. ولهذا يقال: علِقت المرأة من الزوج، وذلك في أول الأمر. والمضغة قطعة من لحم كما يُمضَغ في الفم. وقوله: **مُخَلَّقَةٍ**، مثل مصورة،[3] **وغير مخلقة**. لمّا قال: **من تراب**، دل على آدم. ولو قيل: إن الأغذية من التراب والنُّطَف من الأغذية لجاز. فقوله: **ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة**، هذا مخلوق كلُّه لا مخلَّق، وتقديره في الجميع: ثم خلقكم مِن كذا، لأن ذلك كله بَعْثٌ. فلمّا وصل إلى المضغة بيّن أن المضغة قد تخلّق بعد هذا فتصوَّر وقد تَسقط قبل أن تصوَّر فتكون غير مخلقة وهو ما تُسقطه الحامل تارة إما مضغةً وإما مصوَّرةً. فلا تَفهمْ من مضغة مخلقة أنه أراد أنها قد تَخلّقتْ قبلُ، إذ لا يصح أن يقال: إنها مخلقة قبلُ بل[4] مخلوقة كالعلقة والنطفة، إذ كل واحدة من هذه الصفات الثلاث هو مخلوق مما قبله خلقا واحدا، فيكون الثاني غير الأول بل منه. وليس فيه ما يعبَّر عنه بمضاعفة الخلق حتى يقال: إنه مخلَّق، لأنه شيء واحد لا اختلاف فيه. فأما المضغة فإنها بعد ذلك تخلَّق عظاما مختلفة، كلُّ عَظْمٍ له شكل وصورة فهذه هي المخلَّقة. وقبل أن تَخلّق تكون مخلوقة لا مخلَّقة بل كما قبلها مخلوقة.[5] ولهذا قال في سورة المؤمنين: ثُمَّ خَلَقْنَا الْمُضْغَةَ،[6] أي نفسَها عظاما[7] مختلفة الأشكال، فهي أعني المضغة من ههنا مخلقة،[8]

---

[1] ر - به، صح هـ.

[2] ش: ليتحقق؛ ك: يتحقق.

[3] ش + متصورة؛ ك - مصورة، صح هـ.

[4] ك - بل، صح هـ.

[5] جميع النسخ: مخلقا.

[6] ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/١٤).

[7] ر - عظاما.

[8] ر: مختلفة.

فصارت المضغة قد تخلّق بعد، وقد لا تَخلَّقُ. فكأنه قال: مصوّرةً، أي[1] بعد أن كانت مضغة وغير مصورة بل مضغة على حالها. ولهذا قال: **لنبين لكم**، أي نبين لكم قدرتنا على البعث بما بينّاه لكم من كيفية كونكم في الأرحام، وكيف خلقناكم وبعثناكم من صورة إلى صورة. ومن بدأ الخلق فهو قادر على إعادته. والدليل على أن الأول لم يُقرَّه[2] في الأرحام هو المضغة التي تارة تسقط مصورة وتارة غيرَ مصورة لكي يبيّن لنا قوله بعده: **ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى**، وهو ههنا أجل الولادة، أي وما لا نشاء أن نقره فهو إلى أجل، ثم يَسقط مضغةً تارة مصورة وتارة غير مصورة، وتارةً تامة التصوير وتارة بعض التصوير. وكل ذلك إلى أجل، ولكنه غير الأجل المسمى، وما أقررناه في الأرحام فهو المسمى.

ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم، أي ثم يحييكم إلى بلوغ الأشدّ. **ومنكم من يُتَوَفَّىٰ**، في بعض هذه المُدَد المذكورة ويعمّ الجميعَ قبل الخروج من الرحم وبعده. وفي هذه الآية دليل على صحة ما شرحناه في سورة الأنعام[3] في الأجل المسمى. قلنا: في الرحم أجلان وفي الدنيا أجلان، والمسمى منهما[4] هو التمام. فكما أن المولود إذا لم يستكمل الأجل المسمى في الرحم ووُلد / قبله لم يَعِش في الدنيا حياة الأجساد، [٢٨٢ظ]
فكذلك المولود إلى ذلك العالم إذا لم يَستكمل الأجل المسمى في الدنيا ووُلد قبله لم يعش في الآخرة حياة الأرواح. وقد بيّنّا أن قوله تعالى: لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ،[5] يريد به المسمى، وهو أجلُ الله. وقوله: وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا،[6] يريد به غير المسمى، وهو أجل الإنسان الذي هو[7] بكسبه. ولهذا نسب الله أحد الأجلين إليه سبحانه وهو المسمى والآخرَ إلى النفس. فاعلم واعمل إن شئت. **ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا**، فيعلم حينئذ أن تلك الزيادة نقصٌ فيزهد في الحياة بالأجساد ويعمل على الجهاد، ولا يكون كما قال: أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ.[8]

---

١ ك - أي، صح هـ.

٢ ش ك: لم يقر.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٢/٦).

٤ ش: ههنا. وفي هامش ش: منهما.

٥ ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (سورة المنافقون، ١٠/٦٣).

٦ سورة المنافقون، ١١/٦٣.

٧ ر - هو، صح هـ.

٨ ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ (سورة البقرة، ٩٦/٢).

واللام في "لكيلا" لام العاقبة والصيرورة. **وترى الأرض هامدة**، أي دارسة[1] دائرة.[2] **فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت**، عند خروج النبات منها، لأنها تنشقّ به، **وربَتْ**، بالماء، لأنها إذا ابتلّت به علَتْ وزادت. **وأنبتت من كل زوج**، كالرمّان الحامض والحُلْوِ. وهو إشارة إلى ما له مثل فهو به زوجٌ، إذ ما ليس له مثل فهو فرد وهو الله سبحانه، فما عداه فمخلوق[3] أزواجا كما بيناه من الثمار ومن كل مزدوج في شكله كورق كل نبت. وقوله: **بهيج**، أي ذي بهجة وكل واحد من الصوَر المذكورة بعد قوله تعالى: **إن كنتم فى ريب من البعث**، هو مثال للبعث يوم القيامة، وهو في نفسه الآن بعثٌ. لهذا عدّده بقوله: **ثم**، مرة بعد مرة إلى قوله: **وترى الأرض**، فهذا بعثٌ آخر يشهده[4] كل ذي بصر، وما قبله يَشهده كلُّ ذي بصيرة. ولهذا قال بعد الجميع: **ذٰلك**، أي كله شاهد، **بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتىٰ وأنه علىٰ كل شيء قدير.**

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾

ومن الناس من يجٰدل فى الله، أي فيما يدل على إثبات آلهة أخرى، كقوله: وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ،[5] أو في آياته، أو في صفاته، أو ذاته، **بغير علم**، أي بل بجهل منه، **ولا هدى**، بل بهوى. وذلك أن المجادِل إما أن يكون صاحب علم، وهذا هو المجتهد، أو صاحبَ هدًى فهو على الحق، وهذا هو المقلد. **ولا كتٰب منير**، وهو ما أُنزل على الرسل، إذ به أنارتِ السبلَ؛ **ثانى عطفه**، ونصب "ثانى" على الحال وأضيف فلم يُنَوَّن. **ليضل**، غيره، **عن سبيل الله، له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيٰمة عذاب الحريق.**

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾

---

١ دَرَسَ الأثرُ ودرسته الريحُ أي محَتْه (لسان العرب، «درس»).

٢ تقول للمنزل وغيره إذا عفا ودرس: قد دَثَرَ (لسان العرب، «دثر»).

٣ ش ك: ومخلوق.

٤ ش ك: فيشهده.

٥ ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ (سورة الرعد، ١٣/١٣).

ومن الناس من يعبد الله علىٰ حرف، حرفُ كل شيء طرفه وحدّه، ومنه حرف الجبل وحرف السيف، وسمّي حرف التهجي حرفا لأن الحروف أطراف الكَلِم، وقيل: هو من الانحراف. والمحرَّف المميَّل، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾[1] أي يُميلونها في التأويل إلى مقاصدهم كما تفعل المجبرة في الآيات المتشابهة. ومعنى قوله ههنا: **علىٰ حرف**، أي على طرف[2] واحد، ويريد به وجها واحدا من الخير فقط، لأنه شرحه بقوله: **فإن أصابه خير اطمأن به**. وقيل: إما سمّي الحرف حرفا لشدة ميله فهو اسم صفته كما تقول: مَيْل، فإنه يميل إلى الشيء وضده بالمعنى، إذ جيمُ جَنة جيم جحيم، فمال إلى الطرفين. وبه تُميل المعاني كيف شئت. ويكون / معنى قوله: **يعبد الله علىٰ حرف**، أي [٢٨٣و]
على ميل إلى هوى ولا ينتقض ما قدمناه. ولهذا قال: **وإن أصابته فتنة**، يمتحنه الله بها، **انقلب علىٰ وجهه**، عن الإسلام والكفر. **خسر الدنيا والآخرة**، وهو ضده[3] المؤمن، لأنه كسبهما. **ذٰلك هو الخسران المبين**، وتقديره انقلب.

﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

يدعوا، وقوله: **من دون الله**، يعمّ كلَّ مدعوّ دونه، **ما**، هي ههنا شيء، ويريد به وَثَنًا فقط، ووصفه بقوله: **ما لا يضره**. ثم قال عنه أيضا: **وما لا ينفعه**. ووصف الداعي بقوله: **ذٰلك هو الضلٰل البعيد**، أي عن الهدى. فالمراد بهذه العبارة البديعة ما نُبيّنه في جملة الآيتين، فافهمه جيدا تزدد إيمانا. وهو أنه لمّا كان كل مدعوٍّ من دون الله ينقسم إلى قسمين. أحدهما لا يعقل، جاءت العبارة عنه في الآية الأولى بمَا يريد بها الأوثان. والثاني يعقل، جاءت العبارة عنه في الآية الثانية بمَنْ، ويريد بها الإنسان.[4] وأوجب في الأولى[5] سلْبَ القدرة عن الأوثان، وأثبت في الثانية إمكان القدرة للإنسان. ففصل بين المدعوَّين بكلمتين وهما ما، ومَن، فدل بهما على اثنين مختلفين. وجعل كل كلمة منهما في أحد الآيتين، وخصَّص كل مدعو في آيته بصفتين. فتأنَّ في قراءة الآيات، وقابل بينهما وبين هذه الكلمات.

---

[1] سورة النساء، ٤٦/٤ وسورة المائدة، ١٣/٥، ٤١.
[2] ر ك: على حرف.
[3] ر: ضد.
[4] ر - ويريد بها الإنسان.
[5] ر ك: في الأول.

وأما قوله: **ما لا يضره**، ثم قال: **وما لا ينفعه**، والمراد واحد وهو الوثن. فذلك[1] إعلام بأن العاجز ولو عن إحدى الصفتين لا يجوز أن يكون إلَهًا. وإذا كان العاجز عن إحدى الصفتين مذموما لِعجزه عن القدرة المطلقة و[كونِ] داعيه في ضلال بعيد فقد لزم أن العاجز عن الصفتين أشد ذما وداعيَه[2] أبعد ضلالا. ولا يكون أبعد من ضلال هذا الداعي إلا من، **يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه**، لأنه متى كان الذي يدعو ما لا يضره وما لا ينفعه مذموما وهو في ضلال بعيد، فكيف حال من يدعو مَن ضره أقرب من نفعه؟ فلمّا تحقق ههنا ذمُّ هذا الداعي عاد بعده إلى ذم هذا المدعو، فقال: **لبئس المولىٰ**، ذلك المدعو إن كان مولى، **ولبئس العشير**، إن كان عشيرا، فإن المعاشرة لا تكون[3] إلا من اثنين. فالكلام في الآية الأولى أراد به الأصنام. ولهذا قال أخيرا: **ذٰلك هو الضلٰل البعيد**، إذ الداعي لِما لا يضر ولا ينفع عابثٌ فضلا له بعيد عن الهدى. وفي الآية الثانية أراد البشر،[4] ولهذا قال أخيرا: **لبئس المولى ولبئس العشير**. فإن الإنسان لا يدعو لحوائجه من البشر إلا من هو فوقه أو مثله فإما مولًى وإما عشير[5] فلا تَنافِيَ[6] بين الآيتين في قول مَن قال: كيف نفى الضُّرّ في الأولى وأثبته في الثانية؟ وهذه الجملة يُفهم منها أن الإنسان لا يجوز له أن يدعوَ في حوائجه وعند الفتن إلا الله تعالى، ويجتنبُ سواه.

وأما قوله: **أقرب من نفعه**، فنقول: إن الإنسان يضر وينفع بإذن الله لكن ضره أقرب من نفعه كما نبين. والله تعالى يضر وينفع[7] لكن نفعه أقرب من ضره. بيانه أن الله تعالى يريدك لك، وهذا غاية النفع منه سبحانه، وهو يبدؤك بالإحسان ولا يبدؤك بالإساءة بل قد يجازيك عليها بمثلها لا غيرَ.[8] فإن أصابك منه ضُرٌّ فإنما يكون جزاء لما قدّمته، فالضر منه بعيد، لأنه بعد ما قدمتَ، والنفع منه ابتداء فهو أقرب والضر أبعد بلا شك. والإنسان بالعكس فإنه يريدك له، وهذا غاية الضر. وقد يبدؤك بالإساءة، فإن أصابك منه النفع فهو جزاء لما بَدَا منك أو لِما قد / يبدو، فهو بعد ما وقع منك أو يتوقع فهو أبعد، فضره أقرب بلا شك. فانظر ما أحسن هذا النظم وأتمَّ هذه العبارة والتحريرَ بقوله: **أقرب**. [٢٨٣ظ]

---

[1] ر + إعجاز.

[2] ر: وداعية.

[3] ش ك: لا يكون.

[4] ش: البشير.

[5] ر ك: عشيرا.

[6] ش ك: فلا ينافي.

[7] ش – بإذن الله لكن ضره أقرب من نفعه كما نبين والله تعالى يضر وينفع، صح هـ.

[8] ش – بل قد يجازيك عليها بمثلها لا غير، صح هـ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾

ولمّا ذكر النفع نسب إلى نفسه تعالى أبلغ النفع وهو الكلي الباقي ليلزم من ذلك قدرته على الجزئيّ[١] الفاني فقال: **إن الله يدخل الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت جنّٰت تجرى من تحتها الأنهٰر**. أي من يَقدر على هذا كيف لا يقدر على نفعِ من يدعوه؟ وعبَّر عن دفع الضر عن الداعي وعن إطلاق القدرة والاختيار له سبحانه وحده بقوله بعده: **إن الله يفعل ما يريد**.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾

وتمم الكلامَ بقوله: **من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة**؛ فليس الضمير راجعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: **[لن] ينصره الله**. إذ[٢] لم يتقدم له ذكرٌ، والعرب لا تُضمر قبل المذكور إلا إذا وَثقتْ بعلم السامع، وليس ههنا ما يدل على ذلك، بل ظاهره يقتضي رجوع قوله تعالى: **من كان يظن**، إلى الداعي من دون الله ما لا يضره،[٣] وهو الذي قال عنه أولا: ومن الناس الذين يعبدون الله على حرف. فقال ههنا: **من كان**، أي من الناس الذين يعبدون الله على حرف، **يظن أن لن ينصره الله**، أي يظن أن الناصر له إنما هو غير الله في الدنيا والآخرة، **فليمدد بسبب**، أي كائنًا مَن كان، **إلى السماء ثم ليقطع**، عنه ما أصابه من السماء بذنبه من الفتنة التي من أجلها انقلب يدعو غير الله مستنصِرا به.[٤] **فلينظر هل يُذهِبَنّ كيدُه ما يغيظ**، من الفتنة التي أصابته. فهذا مفهوم الآية، وهي كالدليل والبرهان المصدِّق لما تقدمها، فافهمه كله جيدا. ولهذا أتبعه بذكر اليهود وبقية الطوائف، لأنهم من هذا القبيل. وفي هذا الكلام موعظة وبرهان ودلالة تامة لمن يفقه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾

وكذٰلك أنزلنٰه ءايٰت بينٰت، في صدور الذين أوتوا العلمَ.[٥] **وأن الله يهدى من يريد**.

١ ش ك: على الجزء.
٢ ش ك: إذا.
٣ لعل المؤلف يشير إلى الآية ١٢ من هذه السورة.
٤ ش: مستبصرا به.
٥ في هذا البيان من المؤلف رحمه الله إشارة إلى قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت، ٤٩/٢٩).

فلمّا ذكر الهدى مطلقا تضمن الهدى إلى فهم آيات الكتاب العزيز.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

إن الذين ءامنوا والذين هادوا والصٰبئين والنصٰرىٰ والمجوس والذين أشركوا، إن الله يفصل بينهم يوم القيٰمة، فيما يتجادلون فيه، وهذا معطوف على قوله: وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ.[1] **إن الله على كل شيء شهيد**، شاهد سبحانه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾

ولمّا قدم ما ذكره مما يوجب ويُلزم عقلا أنه لا يجوز الاتّكال إلا على الله ولا الطلبُ إلا منه ذكَرَ البرهان على ما قدم كلّه وجعل هذه الآية مؤكِّدة لِما قبلها. فذكر في أولها أن الكل في طاعته وفي آخرها أنه يفعل ما يشاء فقال: **ألم تر أن الله يسجد له من فى السمٰوٰت ومن فى الأرض**، من الملائكة، يدلك آخر الآية وهو قوله: **وكثير من الناس**، وتمامه. **والشمسُ والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب**. هذا سجود الفطرة والانقيادُ للأمر الذي خُلِقوا له، فهم ساجدون عند مَن يعتبر وينظر هيئةَ خلقِهم، فيجد الشمس في دوام سيرها على هيئة مخصوصة ساجدة لله مطيعة لحكمه وأمره. وكذلك[2] القمر والنجوم في طلوعها ومَغيبها. ولو اعتبرتَ بصورة ظاهرة لرأيتها مكبوبةً على رءوسها كأنها بصورةِ وجهٍ نظر إلى ما فوقه أولا فسجد له فكَبّ وجهه نحو الأرض وبقي ساجدا إلى يوم القيامة. وكذلك الجبال إذا اعتبرت فهي كمن ألقى نفسَه على الأرض ساجدا
[٢٨٤و] ذليلا. وكذلك / الشجر، لأن رأس الشجرة مركوز في الأرض، ومنه تجتذب غذاءَها فهي قائمة أبدا على رأسها كما بيّنّاه في موضعه. وكذلك الدواب كلها خُلقت منكّسةَ الرءوس إلى أسفل ولم تكن منتصبة الرءوس[3] كالإنسان،[4] وهذا سجود بالصورة يُبصره أولو البصر. وهم أيضا ساجدون بالمعنى سجودا يدركه أولو البصائر.

---

[1] الآية ٨ من هذه السورة.

[2] ك + الأمر.

[3] ك - إلى أسفل ولم تكن منتصبة الرءوس، صح هـ.

[4] ش ك: كإنسان.

وقوله: **وكثير من الناس، وكثير**، أي منهم، **حقّ عليه العذاب**، هذا بينّاه عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.[١] وقد بينّا في الكره أنه سجود الفطرة، والطوعَ سجود التكليف. لهذا حق العذاب على مَن لم يأت بالطوع الذي هو مشتق من الطاعة، لأنهم خُلق لهم اختيار ليسجدوا طوعا، فلم يسجدوا كما سجد المؤمنون ظاهرا. فبقي حالهم في السجود كَرْها، فهم كالدواب والشجر التي قد علمنا أنها ساجدة بالمعنى، أي نَفْسُ خلقِها على ما هي عليه سجودٌ وإن لم يَعقل كما يعقل الإنسان. فهؤلاء ألحقهم بالجمادات والحيوانات التي لا تعقل، فحق عليها العذاب بحقٍّ. ومن اعتبر حال الإنسان في الوجود [يفهم أنه] جُمع له بين الطوع والكره في السجود. وذلك مبني على ما بينّاه في قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ﴾،[٢] الآية. فالله يُمده بالخير ويثيبه[٣] لكونه اختاره،[٤] وهو ههنا عابد[٥] طوعا وكرها. والله أيضا يمدّه بالشر ويعاقبه لكونه[٦] اختاره[٧] وهو ههنا عابد[٨] كرها فقط.

ثم لمّا فرغ من هذا الكلام عطف في المعنى على قوله: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾،[٩] أي لكشف ما أصابه من الفتنة فقال: **ومن يهن الله فما له من مكرم، إن الله يفعل ما يشاء**، سبحانه. وهذه الجملة قِف معها وافهم الجملة، فإن المفهوم من الجملة يُعطي ما لا يعطيه فهمُ كل آية بمفردها.

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾

ولمّا ذكر الكثير من الناس وكثيرٌ حقّ عليه العذابُ فصلهم وميّزهم فقال عنهما: **هٰذان خصمان اختصموا**، ولم يقل: اختصما، لأنهم جمعٌ، **في ربهم. فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار**، وإذا كانت الثوب نفسُه من نار فكيف حال لابسه. ويريد بذلك إحاطة النار بجسده كما يحيط الثوبُ. **يُصَبّ من فوق رءوسهم الحميم**، وهو الحارّ[١٠]

---

[١] سورة الرعد، ١٣/١٥.

[٢] ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٢٠).

[٣] ر: ويثبته.

[٤] ش ك: اختياره.

[٥] ر ش: عائد.

[٦] جميع النسخ: كونه.

[٧] ك: اختياره.

[٨] ر + طوعا وكرها والله أيضا يمده بالشر ويعاقبه كونه اختاره وهو ههنا عابد.

[٩] الآية ١٢ من هذه السورة.

[١٠] ش ك: الحال.

الذي يحمّهم، ومنه الحُمَّى والحُمُوَّة، والأصل الحامي ويتفرع منه ما شاء الله تعالى. وقوله: **من فوق رءوسهم**، لو أسقط "من" لدل على صبٍّ غير قريب من ماء الحميم على الرأس فيَبْرُد، لأن "مِن" ههنا لابتداء الغاية، فهي للقرب، وبإسقاطها يحتمل القريب والبعيد. وقوله: ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ، أراد نوعا آخر من العذاب، لهذا عيّن في الدخان[1] ذكْر العذاب. وههنا بإثبات "مِن" أسقطه إعلاما بالمبالغة في الحرارة. وهنالك أراد العلوّ أيضا فإن الصبّ من جهة عالية على الرأس فيه عنفٌ شديد بحسب العلوّ.

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾

يصهر، يذاب، **به ما في بطونهم والجلود**، تذاب أيضا.

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾

ولهم مقمع من حديد؛ أصل المَقامِع المِقْمَع، وجمعه مقامع. وذلك كالأقباع[2] من حديد، لكنها تَقْمَعُهم، فهي بقدر[3] ما يحيط بجملة أبدانهم. لكل واحد من الحديد المُحمَى في نار جهنم مِقمعٌ.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾

كلما أرادوا، ليس من الإرادة التي هي الطلب بل مثل قوله: يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ،[4] أي إنهم كلما ظهر منهم حالة يكادون بها أن يَخرجوا من النار رُدُّوا فيها. ولمّا عرّفنا أن الذي يُردُّون به إنما هو / مقامع علمنا أن خروجهم ليس من باب بل من فوقُ [٢٨٤ظ] مِن[5] أعلى النار. ولا يكون ذلك إلا بأن يرفعهم اللهبُ حتى يكادوا، **أن يخرجوا منها من غم**، أي أنهم لا يخرجون مِن غم من الغموم بل إذا كادوا أن يخرجوا قَمَعهم المِقمعُ فيعيدهم إلى ما كانوا فيه من الغم. وهو ما[6] يَغُمّ ويغطّى من جميع جهاته كما يُغَمُّ اللحمُ في القِدْر ويطيّن[7] أحيانا وإلا لا يقال له: مغموم. وهذا هو دأبهم دائما:

---

[1] ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۞ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۞ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۞ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۞ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۞ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ (سورة الدخان، ٤٤/٤٣-٤٨).

[2] القُبْع: الشَّبُّور وهو البُوق (تاج العروس للزبيدي، «قبع»).

[3] ر: يقدر.

[4] ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ (سورة الكهف، ١٨/٧٧).

[5] ك - من، صح هـ.

[6] ش: مما.

[7] ر: ويطير.

كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا، أي ويقال لهم: **ذوقوا عذاب الحريق**، مثّل بالذوق، لأنه حاسة لا يُجحد المحسوسُ بها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾

ثم وصف ضد هؤلاء فقال: **إن الله يدخل الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت جنّٰت تجرى من تحتها الأنهٰر يحلون فيها من أساور**، أي يحلّى مِن أساور اتُّخذت،[1] **من ذهب**، ويحلّى من لؤلؤٍ ومثلِه، فالواو للعطف على "أساور" في قوله: **ولؤلؤا**. **ولباسهم فيها حرير**.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾

وهدوا إلى الطيب من القول، ذلك وصفهم في الدنيا وإن كان مطلقا. **وهدوا إلىٰ صرٰط الحميد**، هو الله سبحانه، وجاء الاسم لأجل الوِزان ولمعنوية وجوب الحمد عليهم في هذا الموطن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾

إن الذين كفروا ويصدون، الواو واو الحال، أي وحالهم مع الكفر الصدُّ،[2] **عن سبيل الله والمسجد الحرام**، يصدون الحُجّاج والآمّين عن المسجد، **الذى جعلنٰه للناس سواء**، يتساوى، **العٰكف**، المُقيم **فيه والباد**، الذي يزوره،[3] وهم سُكّان البر يقال لهم: البادية. ثم حذف الخبرَ، وتقديره: لهم عذاب عظيم، واستغنى عن ذلك بقوله: **ومن يرد فيه بإلحاد**، الباء كقوله: وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ؛[4] وقوله بالباء أيضا: **بظلم**، كما تقول: اضربه بالعصا، بالسيف، بالرمح، أي بأيّهم كان، **نذقه من عذاب أليم**، "من" لتبيين الجنس.

﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾

---

١ ش ك: اتخذه.

٢ ش – الواو واو الحال أي وحالهم مع الكفر الصد، صح هـ.

٣ ش ك: يزوروه.

٤ ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾ (سورة يونس، ١٠/١٠٧).

ولما ذكر المسجد الحرام قال: **وإذ بوأنا لإبرٰهيم**، باء: رجع، أي جعلنا، **مكان البيت**، مرجعا ومبوَّأً لإبراهيم، واللام فيه لتمييز إبراهيم، وهي كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾[1] ومعناه في قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.[2] وذكر المكان، لأن إبراهيم هو الذي رفع قواعده منه.[3] وتقديره: وأوصيناه، **أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى**، فيه توبة[4] عن القلب. لهذا ذكر البيت بعد الشرك الذي هو نَجَس. وكذلك يُفهم من قوله: **للطائفين والقائمين**، وهم المقيمون، الخواطرُ[5] القلب، **والركع السجود**.

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا، جمعُ راجل و"رجالا" مثلُ قائم وقياما، **وعلىٰ كل ضامر**، أراد به صفةً تعمّ ما يُركب، إذ لا يصل إلا ضامرُ الجنبَيْن. وقوله: **يأتين**، قيل: عائد إلى جمع الضامر؛ وليس كذلك وإنما أشار سبحانه بقوله: **رجالا**، الذي يُفهَم منه الذكورُ إلى فضيلة المشي، وبقوله: **وعلى كل ضامر**، إلى جواز الركوب، لكنه بعد المشي في الفضيلة،[6] وإنما يصلح للعاجز والمرأة. وأشار بقوله: **يأتين**، إلى النساء، لأنهن يعجزن عن المشي، فاكتفى بالنون في **يأتين**، عن ذكر النساء. ولزم ذلك من تعيين الرجال مضافا إلى ما نَدب إليه من استحباب المشي لهم. فانظر هذا الإيجاز؛[7] **من كل فج عميق**، "كل" في هذه وفيما[8] قبلها للتكثير لا للتحقيق بل على مخاطبات العرب.

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾

ليشهدوا منٰفع لهم، جَمعَ بقوله: **منٰفع**، ما يطول شرحه مما يُشهد عينا وقلبا دنيا ودينا.[9] **ويذكروا**، منصوب بالعطف على لام كي، أي وليذكروا، **اسم الله فى أيام معلومٰت**، لهم بحسب كل فرقة جاءت من جهة. وهذا الذكر وإن عمّ فهو مخصوص بأول التلبية، / أي وهم رُكّاب، **علىٰ ما رزقهم من بهيمة الأنعٰم**، ويتناول الذكر [٢٨٥و]

---

[1] ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ (سورة يوسف، ١٢/٢١).

[2] سورة الانشراح، ٩٤/١.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٢٧).

[4] ش ك: فيه توريث.

[5] ر: خواطر.

[6] ر: المشي والفضيلة.

[7] ر: الإنجاز.

[8] ر ك: في هذه وما.

[9] ر: دينا ودنيا.

عند النحر أيضا. وقوله: **فكلوا منها**، المراد في الطريق، وأما قوله في الموضع الآخر: ﴿فَكُلُوا۟﴾[١] فالمراد في مِنًى، لهذا هناك أمر أن يطعَم القانعُ وضده. وأما هنا فلم يأمر إلا بصورة الصدقة فقال: **وأطعموا البائس**، ذا البأساء كالمرض ومثلِه، **الفقير**، الذي ليس له شيء. وقد بيناه في موضع آخر.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ٢٩﴾

ولمّا كان هذا الأكل في الطريق ويتناول أيضا ما[٢] في مِنى قال: **ثم**، أي بعد ذلك، **ليقضوا تفثهم**، التفث[٣] قَشَفُ الإحرام[٤] نحو قصِّ الأظفار والشارب وحلق الرأس و[٥]العانة ومثل ذلك.[٦] ولا يُعرف لهذه اللفظة اشتقاق في العربية ولم يُستدل عليها بشعر، كذا قال أبو عبيدة.[٧] **وليوفوا نذورهم وَلْيَطَّوَّفُوا بالبيت العتيق**، لأنه أول بيت وضع[٨] للعبادة. وهذا طواف الإفاضة بعد النحر، وهو على صورة الحكاية ههنا لبيان المفروض. وسنبين ما يجب بيانه من ذلك في موضعه.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ٣١﴾

ذٰلك، يُفصل ما قبله. **ومن يعظم حرمٰت الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعٰم**. ثم كرر ما أتى في المائدة،[٩] لأن البيان من المحرَّم من الأنعام بها فقال: **إلا ما يتلىٰ عليكم**. **فاجتنبوا الرجس**، "من" لتبيين الجنس، **من الأوثٰن واجتنبوا قول الزور**،

---

١ الآية ٣٦ من هذه السورة.

٢ ر ك - ما.

٣ التفث: وسخ الظفر وغير ذلك مما شأنه أن يزال عن البدن (المفردات للراغب الإصفهاني، «تفث»).

٤ القَشَفُ قَذَر الجلد. وقيل: القشف رثاثة الهيئة وسُوء الحال (لسان العرب، «تفث»). وقشف الإحرام: وسخه.

٥ ك - الرأس و، صح هـ.

٦ انظر لزيادة الإيضاح: أحكام القرآن للجصاص، ٧٣/٥؛ وأحكام القرآن لابن العربي، ٢٨٤/٣.

٧ انظر: لسان العرب، «تفث».

٨ يشير المؤلف إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (سورة آل عمران، ٩٦/٣).

٩ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (سورة المائدة، ١/٥).

أضافه في النهي إلى الشرك، إذ لا زورَ أبلغ من الشرك. فلمّا تساويا في العقاب ساوى[1] النهيُ عنهما بلفظ الاجتناب. **حنفاءَ لله غير مشركين به، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق**، بمعنى ساحق له يَسحَقه سحقا.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾

ذٰلك، لفصل ما قبله كما تقدم. **ومن يعظم شعٰئر الله**، أي فهو خير له، **فإنها من تقوى القلوب**، تُعَظَّم، والإشارة بقوله: **فإنها**، إلى الشعائر، وليس الشعائر ههنا البُدْنَ،[2] وإنما البدن[3] من الشعائر.

ولما قدّم ذكر الأنعام بقوله: وَأُحِلَّتْ،[4] قال: **لكم فيها منٰفع**، أشار إلى جواز ركوبها قبل نحرها. ثم قال: **إلى أجل مسمى**، وهو وقت موتها، أي[5] الذي ربما كان في الطريق. **ثم محلها إلى البيت العتيق**، المحلُّ المكان الذي يحل فيه النحرُ، وقوله: **إلى البيت**، أي إلى جهة البيت.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾

ولما ذكر البيت بيَّن أن المناسك بحسب الواردين من الزُّوّار فقال: **ولكل أمة جعلنا منسكا**، موضعا يكون فيه نُسُكهم وعبادتُهم مِثلَ منهَجًا هم ناهِجوه، أي دون غيرهم، كما نجد[6] كل قوم يُحرِمون من مكان مخصوص دون الآخرين والواردين من بلاد أخرى. ثم ذكر صورة التلبية أيضا وأنها ذكرٌ، لكنه حال كونهم ركبانا على ظهور الإبل فقال: **ليذكروا اسم الله علىٰ ما رزقهم من بهيمة الأنعٰم**. والأمّة ههنا يريد بها الجماعة، من كل بلد جماعة. **فإلٰهكم إلٰه وٰحد فله أسلموا، وبشر المخبتين**، الخَبْت المطمئن من الأرض.

---

[1] ش ك: ساو.
[2] البَدَنة: ناقة أو بقرة، الذكر والأنثى فيه سواء، والجميع البُدْن والبُدُن (كتاب العين للخليل بن أحمد، «بدن»).
[3] ك - وإنما البدن، صح هـ.
[4] الآية ٣٠ من هذه السورة.
[5] ر - أي.
[6] ر: كما تجد.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾

ثم ذكر سرّ الحج وهو الذكر والصبر والصلاة والصدقة[1] فقال: **الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصٰبرين علىٰ ما أصابهم والمقيمى الصلوٰة ومما رزقنٰهم ينفقون.**

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٣٦﴾

والبدن جعلنٰها لكم من شعٰئر الله لكم فيها خير، فاذكروا اسم الله عليها صوافّ، مشتق من الصفّ، واحده صافّة والجمع صوافّ، وهي المستمرة على منهاج واحد في وقوفها لكيلا تتعذب في نحرها لسوء وقوفها. وإنما سمّيت بُدنا مشتقة من البَدِين وهو ذو البَدَن الكبير. **فإذا وجبت**، / سقطت، وسقوط الشيء الكبير على الأرض يُسمع [٢٨٥ظ]
له وَجْبَةٌ،[2] وهي صوت الوَقْع. ولثقل البدن قال: **وجبت**. وأراد بتسميتها البُدنَ دون بقية الأسماء إشعارا لنا أنها كلما كانت بَدِينة[3] كان أجرُها أكثر وأن نَصُفّها ونذكر الله عليها وهي صوافُّ للنحر. فإذا وقعت، **جُنُوبُها**، لأنها إذا نُحرت فوقعت فإنما[4] تقع على جنوبها، **فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ**، وهو ضد القانع، فإن القانع هو الذي يكتفي[5] بالقليل، والمعترّ هو الذي لا يكفيه قليلُ المأكول. فالمعتر يقال على الذي يُكثر الأكل خاصة، وكأنه مشتق من عرّ يَعُرّ مثل جرّ يجر، واعترّ مثل[6] اجترّ، يقال: فلان عرّه[7] يَعُرّ قومه، أي يَفضحهم. وكأن هذا الآكلَ لفرط أكله سمّي معترا، فأباح الله الإطعام بل أمر به حين النحر للقانع والمعتر، أي سواء كان هذا أو هذا، أي أيّهما كان. وقوله: **كذٰلك**، أي كما أمرناكم أن تطعِموا القانع والمعتر نعمة منا عليه، **كذٰلك سخرنٰها لكم**، نعمة منا عليكم، **لعلكم تشكرون.**

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٧﴾

---

١ ر: الصدقة والصلاة.
٢ الوَجْبة: صوت السقوط (لسان العرب، «وجب»).
٣ ش: بدنية. | البدين: السمين، الجسيم (كتاب العين للخليل بن أحمد، «بدن»).
٤ ر: إنما.
٥ ر ش: يتكفى.
٦ ك - مثل، صح هـ.
٧ ر ك: عرة.

لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولٰكن يناله التقوىٰ منكم. كذٰلك سخرها لكم لتكبروا الله علىٰ ما هدىٰكم، إلى شعائره، فقابِلوا النعمة بالعطاء منا فضلا بالشكر الذي هو منكم للفقراء والأغنياء بدلا. **وبشر المحسنين.**

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾

ولما كانت البِشارة للمحسن ههنا مطلقة، أي بشارة في الدنيا والآخرة ذكر قسما منها هو في الدنيا فقال: **إن الله يدٰفع عن الذين ءامنوا**، تقديره ويحبهم، وبين ذلك المقَّدر بقوله بعده: **إن الله لا يحب كل خوان كفور**، أي ولا يدفع عنه، فتأمل هذا الإيجاز لتفهم به مثله.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾

ولما ذكر الدفاع أذن لمن يَقدر[1] بأن يقاتل[2] فقال: **أذن للذين يقٰتلون**، تقديره أن يقاتلوا، وهذا إذنٌ بشرط الظلم لا أمر بالجهاد، فهو قبل نزول الأمر.[3] ثم ذكر السبب بالباء: **بأنهم ظلموا**، كان معناه: إن الذين يقاتلون بسبب أنهم ظُلموا أَذِنَّا لهم في ذلك. **وإن الله علىٰ نصرهم لقدير**، وعد لهم أنهم يُنصَرون إذا قاتلوا، وإشعارٌ بأن الله قادر على نصرهم وإن لم يقاتلوا، لكنه أذن لهم لما بينه في سورة القتال بقوله: وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ.[4]

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾

وبيّن ههنا صفة المأذون لهم فقال: **الذين أخرجوا من ديٰرهم بغير حق**. وقوله: **إلا أن يقولوا ربنا الله**، أي لم يكن لهم ذنب إلا هذا عند من أخرجهم. وجاء قوله: **يقولوا**، بلفظ المستقبل إعلاما أن الأمر في المستقبل أيضا هذا حكمُه. فلمّا بين السبب بعد

---

[1] ش + أن يقاتل.

[2] ر ك - بأن يقاتل، صح، هـ.

[3] أي الأمر الجهاد، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾ (سورة التوبة، ٩/٥).

[4] ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾ (سورة محمد، ٤٧/٤).

الإذن بالقتال أتبعه بقوله معلِّلا: **ولولا دفع اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض**، أي في زمن كل نبي، لأن مع كل نبي مؤمنين ليدفع عنهم الكفار الذين[1] في زمنهم بالمؤمنين، فقال ما معناه: لولا القتال، **لهُدِّمت صوٰمعُ وبِيَعٌ وصلوٰت**، تقام في تلك المواضع. وأشار بالصلوات إلى قتل المصلين، وهذا يستوعب ما قبل الإسلام. ثم عطف فقال: **ومسٰجدُ يُذكر فيها اسم الله كثيرا**، فخَصَّ المساجدَ بالذكر الكثير وإن احتمل في غيره مما تقدم، لكن هذا في تلك الزمن. ولا يلزم أن يكون مراد الآية أن الله اليوم يدفع عن اليهود والنصارى ليُذْكَر اسم الله في البِيَع والكنائس والصوامع. والدليل على ذلك تقديمه أوّلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾،[2] أي في كل زمن يدفع بعضَهم / ببعض فلزم أن يدفع [٢٨٦و] الكافر بالمؤمن. فاليهود والنصارى خانوا العهد في الأمر لهم باتباع الرسل فكفروا بذلك. فاختص الكلام بأمة محمد صلى الله عليه وسلم. ولهذا بعده وإن كان مطلقا مشتملا على الأزمنة المتقدمة خاصة وذلك قوله: **ولَينصرنّ الله من ينصره**، لكنه أخصُّ بهذه الأمة، ولهذا جاء بلفظ الاستقبال: **إن الله لقوى عزيز**.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

وبينه بقوله: **الذين إن مكنّٰهم فى الأرض أقاموا الصلوٰة وءاتوا الزكوٰة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر**، أي هؤلاء هم المنصورون. **ولله عٰقبة الأمور**.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود، وقوم إبرٰهيم وقوم لوط، وأصحٰب مدين. وقوله: **وكُذِّب موسىٰ**، لأن قومه لم يكذبوه. **فأمليت**، أي فأمهلت، وأخرت العقاب **للكٰفرين** ليتوبوا، أو يَحِقَّ القول عليهم قبل العقاب. **ثم أخذتهم فكيف كان نكير**، بوزن فعيل، ومعناه فاعل، لأنهم كانوا يُنكرون الله بمعنى أنهم ينكرون الجزاء، أي فانظر كيف كان حال من لا يعرفني فهو ينكرني،[3] وحذف الياء.

---

[1] جميع النسخ: الذي.
[2] الآية ٣٨ من هذه السورة.
[3] ش ك: نكيري.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ٤٥﴾

وقوله: **فكأين**، هي "أيّ" دخل عليها كاف التمثيل وتقدمت عليها الفاء بمعنى: فذلك مثلُ أيّ، **من قرية أهلكنها وهى ظالمة فهى خاوية علىٰ عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد**، أي معطلة لا تُستعمل. والعاطل ضد الجالي.

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾

أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو ءاذان يسمعون بها، كلُّ ساكت ناطق من جهة الدلالة، فكل دال على معنى من الله تعالى فهو وحي منه إلى من يفهم، فافهم. **فإنها لا تعمى الأبصٰر ولٰكن تعمى القلوب التى فى الصدور**.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٤٧﴾

ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده، لهم بالعذاب. ثم عظّم ذلك العذاب لطول مدته التي لا تنحصر فقال: **وإن يوما عند ربك**، هو عليهم، **كألف سنة مما تعدون**، وهو عندكم وعند الله يوم من أيامكم، وهذا كما تستوعد عدوّا بما يُفهِم منه تكثير الوعيد لا تحديد[1] التعديد.[2] وكذلك قوله: خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ،[3] كل ذلك للمبالغة في تعظيم ما يقاسونه من عذاب لا آخِرَ له، لأنه دل على يومٍ هذا مقداره، فكيف الشهر منه والعام.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ٤٨﴾

ثم عطف على [قوله:] فَكَأَيِّن،[4] [قوله:] **وكأين من قرية أمليت لها وهى ظٰلمة ثم أخذتها**، بهذا العذاب في الآخرة بعد عذاب الدنيا. **وإلىّ المصير**.

---

[1] ش + تحرير.

[2] ش ك: التحديد.

[3] ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ (سورة المعارج، ٧٠/٤).

[4] الآية ٤٥ من هذه السورة.

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٤٩ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٥٠﴾

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥١﴾

والذين سعوا فى ءايٰتنا معٰجزين، أي قصدُهم إبطال الآيات التي نريد إثباتها، فهذا معنى "معاجزين" أي سَعَوْا وقصدُهم هذا. **أولٰئك أصحٰب الجحيم**، وهذا كقوله: يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ.[١]

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٢﴾

ثم قال ما معناه: إنه في كل زمن لا بد من عدو للأنبياء ومعجزٍ للآيات. ولكن الله هو الناصر المُحْكِم للآيات وهو قوله: **وما أرسلنا من قبلك من رسول**، وقوله: **ولا نبىّ**، تقديره ولا أرسلنا نبيا، فقد يرسل النبي أيضا ولهذا عطفه على الإرسال؛ ولكن الرسول هو الشارع والنبي هو الحافظ، أي يحفظ شريعة غيره.[٢] **إلا إذا تمنّىٰ**، تلا، أو قال: ما يوحى إليه للناس، ومثلُه تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡ،[٣] أي أقوالهم. **ألقى الشيطٰن فى أمنيته**، في قول الرسول تأويلا. والشيطان ههنا من شياطين الإنس، ولكنّ شياطين الجن ألقوا ذلك في قلوب شياطين الإنس. وذلك ما يلقيه الشيطان في قلوب المتأوّلين والمُعجّزين / والمجادلين في آيات الله بغير علم، كما يلقي مثلا في قلوب الزائغين أن هذه الآية مناقضة للأخرى، وهذه فاسدة في المعنى ومثل ذلك من تأويل المتشابه. [٢٨٦ظ]
ولهذا بعده: **ثم يُحكم الله ءايٰته**، أي يبيّنها بالمحكم. وبعده أيضا: وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ،[٤] فافهم هذا جيدا. والإشارة بالشيطان إلى الآية التي تقدمت بقوله: وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ.[٥] ثم ذكر مثل ذلك في كل زمن لرسول أو نبي، فأولئك هم حزب الشيطان. وكلامهم يلقونه في قلوب الذين في قلوبهم مرض. ولمّا كان النسخ في العرف والعادة عبارة عن نقل ما في كتاب بتجديدِ آخرَ كان نسخ الكتب المنزلة عبارة

١ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (سورة الصف، ٦١/٨).

٢ ر + وحذف قبلك.

٣ ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١١١).

٤ الآية ٥٤ من هذه السورة.

٥ من الآية السابقة.

عن نقل مقاصدَ دينيةٍ بتجديد الألفاظ يشتمل التالي على مثل مقاصد الكتاب المقدَّم وعلى خير منه. فافهم ذلك في موضعه.

ولمّا كان الإلقاء ههنا هو بألسنة الشياطين الإنسية في قلوب بعض العباد، وبالوسوسة أيضا في قلوب الزائغين المائلين في التأويل يميلون إلى الوجه الموافق لأهوائهم من المتشابه عن الوجه الموافق للمحكم قال تعالى: **فينسخ الله ما يلقى الشيطٰن**، أي ما يلقيه في قلوب الزائغين من ذلك التأويل المخالِف للمحكم ينسخه الله من قلوب المؤمنين بالمحكم. **ثم يحكم الله ءايٰته**، التي كانت متشابهة فعادت محكمة بِرَدِّ تأويلها إلى المحكم. **والله عليم حكيم**.

﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣﴾

ولا ينسخ الله ذلك من قلوب الكفار والزائغين، **ليجعل**، الله، **ما يلقى الشيطٰن فتنة للذين فى قلوبهم مرض**. وهذه الفتنة ههنا عقاب، كقوله: نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ.[1] فهؤلاء يجدون من التأويل ما يَفتنهم فتنةَ ضلال عن الحق، فيسعَوْن في الأرض فسادا معجّزين الله بزعمهم وبالمفهوم من فعلهم واللازم عن قصدهم. وهذا حال كل من في قلبه مرض فهو منافق وإن كان قد أظهر الإسلام. **والقاسيةِ قلوبُهم**، وهم الباقون على الكفر.[2] **وإن الظٰلمين لفى شقاق بعيد**، عن الحق.

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾

ولما عرّفنا أحد الفريقين ذكر الآخر فقال: **وليعلم**، وهو معطوف على قوله: لِيَجۡعَلَ.[3] **وليعلم**، أي ليجعل عقابا وليعلم ثوابا، **الذين أوتوا العلم أنه**، القرآن والكلام الموحَى في كل زمان، **الحق من ربك فيؤمنوا به**، عن علم، **فتُخْبِتَ له قلوبهم**. ثم كما ذكر العقاب أولا لأولئك بقوله: وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ،[4] ذكر الثواب لهؤلاء بقوله: **وإن الله لهادِ الذين ءامنوا إلى صرٰط مستقيم**.

---

[1] ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ (سورة النساء، ٤/١١٥).

[2] ش ك: على الفكر.

[3] من الآية السابقة.

[4] من الآية السابقة.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾

ثم عاد إلى الإخبار عن حال المعاقَبين فقال: **ولا يزال الذين كفروا**، وتُبّاعُهم من سائر الكفار، **في مرية منه حتىٰ تأتيهم الساعة بغتة**، أي في شك وخُلفٍ، لأنهم معاقَبون بذلك. ولم يقل: "فيه" بل، **منه**، كلِّه، ولو قال: فيه، لكانوا يؤمنون ببعضه. لكن من كفر ببعضه لزمه الكفر بكله فلا ينفعه الإيمان بالبعض. والساعة ههنا ساعة القيامة. ولما كان بعض الكفار به قد تقوم عليهم القيامة،[١] أعني في آخر الزمان، وكان القول عن الكفار عامّا فصّله بقوله بعده: **أو يأتيهم عذاب يوم عقيم**، قبل القيامة يريد موتهم بأيدي المؤمنين، أو بعذاب مِن عنده سبحانه، وأخر ذكر القيامة لأجل الوِزان، فذكره بعد الساعة. والعقيم من النساء من لم تحمل لكبرها، والعاقر ما حملت قط وإن كانت صغيرة. والمراد أنه[٢] آخر أيامهم في الدنيا فهو عاقم لهم. وإن قيل: إنه سمّاه بذلك / لأنهم لا ينسلون بعده فحسنٌ، أو أنه لا يولَد بعده يوم على طريق التمثيل والاستعارة. [٢٨٧و]

﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦﴾

الملك، وهذا فائدة قوله: **يومئذ**، ليعود على الساعة، **لله يحكم بينهم**. **فالذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت فى جنّٰت النعيم**. فإن قيل: إن الملك أبدًا وأزلا لله، فما فائدة قوله: **يومئذ**؟ فالجواب أنه تعالى أخبر أنه يؤتي الملك لمن يشاء من عباده.[٣] وأما هناك فلا يؤتى أحدٌ شيئا من الملك، بل لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ.[٤] وبيانه وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ.[٥] وفي هذا إبطال لقول[٦] المجبرة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾

والذين كفروا وكذبوا بـٔايٰتنا فأولٰئك لهم عذاب مهين. افهم، لِم دخلتِ الفاءُ ههنا

---

١ ك - ولما كان بعض الكفار به قد تقوم عليهم القيامة، صح هـ.

٢ ش ك: أنها.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٢٦).

٤ ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/١٦).

٥ سورة البقرة، ٢/٢٤٧.

٦ ر: القول.

على "أولئك" ولم تدخل في البقرة عند قوله: أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ.[1] المعنى أن ما دخل فيه الفاء من خبر "الذي" وأخواتها مشبَّهٌ بالجزاء وما لم تكن فيه الفاء فعلى أصل الخبر. ولو قلت: مالي فهو لك، فإن كانت "ما" بمعنى الذي جاز، وإن كانت بمعنى المال لم يجز بالفاء [مثل] أن تقول: غلامي فهو لك.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨﴾

والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا، وهذا[2] كقوله في الشهداء: عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ.[3] **وإن الله لهو خير الرّٰزقين**.

﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩﴾

ثم بيّنه بقوله: **ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم**، بما كان في قلوبهم من الصدق حين الهجرة وبما لو عاشوا لكانوا يكسبونه، ومع هذا فهو، **حليم**، أيضا عما يعلمه من ذنوبهم، فحلُم عنهم لكونهم ماتوا في سبيله أو قُتلوا.

﴿۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾

ثم عطف على الحلم بصفة العفو في الدنيا كأنه شاهدٌ لهذه الدعوى فقال: **ذٰلك**، تقرير لِما قبل وفصلٌ لما بعدُ. **ومن عٰقب بمثل ما عوقب به**، من الله لذنب قدّمه، **ثم بُغِيَ عليه**، تقديره: من الناس، **لينصرنه الله**، أي إن أراد أن يعاقِب. والمعنى مشروح عند قوله: وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ،[4] الآية. ولولا قوله ههنا: **ثم بغى عليه**، لَمَا فهمنا، فافهم جيدا وطالعه هناك. واعلم أن لفظة "ذلك" قد تأتي كما قدمناه، أعني التفصيل، وقد تأتي تعليلا كما سيأتي بعد ههنا. وبيان ما شرحناه أن لفظ العقاب لا يكون إلا بعد الذنب. وإنما سمّي عقابا لأنه يأتي بعقب الذنب فهو يَعْقُبه. فلمّا أذنب العبد ذنبا استحق العقاب من الله عليه، فقد يعاقبه بيد بعض العباد، فيكون المعاقِب مكتسبا باغيا. وأما المعاقَب،

---

[1] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ (سورة البقرة، ٢/٣٩).

[2] ر - وهذا.

[3] ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٦٩).

[4] سورة النحل، ١٦/١٢٦.

أعني[١] المفعول معه العقاب فإنما أصابه ذلك بذنبه وإن كان بيد الباغي عليه. فهذا إن عاقب الباغي عليه من الناس[٢] بمثل ما عوقب به من الله بيد الباغي لأنه هو بعينه ما بغي عليه به نَصرَه الله، ولم يؤاخذه لكونه عاقب الباغي.[٣] ولهذا تمم الآية بقوله: **إن الله لعفو غفور**، لأنه لو صبر لكان خيرا له، إذ ما عوقب به، وإن كان بيد عبدٍ باغ، فإنما هو بما استحقه عقابا من الله، فافهمه جيدا. وقوله: **ومن عاقب**، بمعنى ومن أراد أن يعاقب، فكررْ هذه الجملة متأنيا. فقوله: **إن الله لعفو**، أي عن المعاقِب إذا عاقب الباغي عليه. وقوله: **غفور**، أي يغفر للباغي إذا عاقبه المعاقِب المذكور. فافهم أن كل واحد منهما فاعل ومفعول، لكن أحدهما معاقَب من الله بيد الباغي، ومعاقِب للباغي[٤] وهذا له العفو، والآخر وهو الباغي معاقِب عن الله ولكن من حيث لا يَعلم، ومعاقَب من خصمه على بغيه عليه فله المغفرة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١﴾

ولمّا ذكر أنه يعفو ويغفر مع علمه بأن المعاقِب لا يستحق على الباغي ذلك بل هو رحمة للباغي قال بعده مثله معلِّلا: **ذٰلك**، / العفو والغفران، **بأن الله يولج اليل فى النهار ويولج النهار فى اليل**، لمصالح العباد رحمةً منه، كقوله: وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ.[٥] **وأن الله سميع**، لِما يقولونه من الكفر، **بصير**، بما يفعلونه من المعاصي؛ أي ومع هذا هو عفو غفور لا يؤاخذهم بما يستحقونه بل يولج لهم الليل في النهار. فكرّرْ جملة الكلام وافهم أواخر الآيات لتعلم[٦] أن الجميع تلطفٌ وعفو ورحمة وتبيين لِما عنده تعالى من الرحمة والقدرة، فهو يتعرف ويتحبب إلى عباده بذلك. [٢٨٧ظ]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾

ذٰلك، شاهدٌ، **بأن الله هو الحق**، لا غيره، **وأن ما يدعون من دونه هو البٰطل وأن الله هو العلى الكبير**.

١ شـ - المعاقب أعني، صح هـ.
٢ شـ - من الناس.
٣ ك: الباقي.
٤ شـ ك: للمباغي.
٥ ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (سورة القصص، ٧٣/٢٨).
٦ شـ ك: ليعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾

ثم نسق على هذا المعنى الدال على الرحمة والقدرة [قوله:] **ألم تر أن الله أنزل**، بلفظ الماضي، **من السماء ماء فتصبح الأرض**، بلفظ المستقبل، أي إنا كما فعلنا ذلك نفعله إلى قيام الساعة. ولهذا لمّا[1] قال: **فتصبح الأرض مخضرة**، قال بعده: **إن الله لطيف خبير**.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

له ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض. وإن الله لهو الغنى، عنهما مطلقا. وكذلك يُفهم من قوله: **الحميد**، بل ذلك كله لعبيده.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾

وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسٰن لكفور، لمّا ذكر الكفر وأطلقه على اسم الجنس أراد أن يخرج منه النبيّ صلى الله عيه وسلم والأنبياء وتُبّاعهم فقال: **لكل أمة جعلنا منسكا**، وقوله: **هم ناسكوه**، أي هم[2] مقيمون على ذلك إلى أن يأتيهم منا داعٍ إلينا بما ينسخ ذلك. ويقال: نسكتُ الشيء، أي غسلتُه بالماء فطهرته. والناسك هو العابد المتطهّر. وكل ما يُعبد الله به خالصا لوجهه سبحانه فهو نُسُك. فالنسك في المأكول والمشروب والحج والصلاة وغير ذلك، لأن العبادة[3] بذلك الشيء تطهيرٌ من الذنوب. فكأنه قال: لكل أمة جعلنا فعلا. وقوله: **هم**، أي سائر الأمم فاعلوه في أزمنة أنبيائهم، وهو ما شرعناه لهم من النسك بألسنة الرسل. وهذا غير الأول، لأن الأول عن المسلمين خاصةً كما بينا، وهذا عن بقية الأمم ليَظهَر الحق، ويميّز الله من آمن ممن كفر فيُخرج المؤمن بالرسل في كل زمان من إطلاق القول أولا. **إن الإنسٰن لكفور**. ولهذا قال ههنا: **فلا ينٰزعنك فى الأمر وادع إلىٰ ربك إنك لعلىٰ هدى مستقيم**.

---

[1] ر - لما، صح هـ.
[2] ش - هم.
[3] جميع النسخ: لأنه عبادة.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨﴾

وإن جُدلوك فقل الله أعلم بما تعملون، وهذا أدب حسن من الله تعالى ينبغي أن يأخذ به نفسه كلُّ عاقل.

﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾

الله يحكم بينكم يوم القيٰمة فيما كنتم فيه تختلفون، وهذا الاختلاف منهم إنما وقع لاختلاف الشرائع المنزَّلة عليهم في كل زمن بحسب الأصلح لهم. وذلك على وفق العلم الأزلي بما سيكون منهم في كل زمن، وما يحتاجون إليه من مَنْسَك جُعل لهم. فتركُهم اتباع المنسك الثاني بعد الأول كفر من تلك الأمة، لأن الله أعلم بما يجب لها وعليها. ولهذا قال بعده ما ينبئ عن العلم الأزلي بكل ما في الكون، وذلك قوله للرسول خطابا لأولي العقول: **ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض**، أي: أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ.[1] ثم قال بضرب الأمثال: **إن ذٰلك فى كتٰب، إن ذٰلك على الله يسير**.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١﴾

ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطنا، محِقّا[2] له برهانٌ يتسلط / به على [٢٨٨و] المبطِل. **وما ليس لهم به علم**، ينتصرون به على من خالفهم. **وما للظٰلمين من نصير**.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾

وإذا تتلىٰ عليهم ءايٰتنا بينٰت تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر، من العقائد والأقوال المضمَرة لا المظهَرة. **يكادون يسطون**، من السطوة وهو إظهار الحال[3] الهائلة للإخافة، **بالذين يتلون عليهم ءايٰتنا**. **قل أفأنبئكم بشر من ذٰلكم**، أي بشرٍّ مما تضمنته الآيات من الانتصار للمسلمين والانكسار للكافرين، وهو ما قدمه بقوله:

١ ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ (سورة الملك، ١٤/٦٧).

٢ جميع النسخ: المحق.

٣ ش ك – الحال.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[1] فشر من ذلكم، النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾

يٰأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له. إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه. ضعف الطالب والمطلوب، الآلهة والذباب؛ فالآلهة تطلب ما سَلَبَ الذباب، والذباب مطلوب بما سَلَب.

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾

ثم أشار إلى مَعْدِن القوة في الخلق الدال[2] على قوة الحق فقال: **الله يصطفى من الملٰئكة رسلا ومن الناس. إن الله سميع بصير.**

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾

يٰأيها الذين ءامنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون، أي لتَكُن[3] نيتكم في فعل الخير طلبَ الفلاحِ لا الرياءَ أو غيرَه.

﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

وجٰهدوا فى الله حق جهاده، أعطِ جسدك حقه من العبادة كما أعطيت قلبك حظه من العلم. وقدم الحق على الحظ ليكون الجهاد باطنا وظاهرا، أقوالا وأفعالا، وضميرا واعتقادا.

---

[1] من الآية السابقة.
[2] ش: الدالة.
[3] ك: أي لتكون. وفي هامش ك: لتكن.

وأضاف الجهاد إلى نفسه سبحانه ليكون الجهاد خالصا لوجهه. وعنه عليه السلام أنه قال: «يكون من بعدي في المؤمنين الجهاد». فقلنا: يا رسول الله! على ما نجاهد المؤمنين الذين يقولون آمنا؟ قال: «على الإحداث في الدين. إنما الدين من الرب أمره ونهيه». فقال علي: يا رسول الله! أرأيت إن عرض لنا أمر لم يبين الله فيه قرآنا ولم تُنَصَّ فيه سنة منك؟ قال: «تجعلونه شورى بين العابدين ولا تقضون برأيٍ خاصةً».[١] فاعلم أن ما هذا شأنُه يختلف باختلاف الاشخاص والأزمان والوقائع فلم يعيَّن، ولهذا جعله شورى، وهو ما يقع فيه المشاورة ليظهر حقه من باطله. وانظر كيف جعل الشورى بين العابدين لا غيرهم، إذ المنتسبين إلى العلم كثيرٌ وبينهم يقع الخلاف. وأما العُبّاد فإن كانوا غير علماء فلا شورى لهم، لأن الشورى لا تكون لجاهل بها. فلزم أن تكون الإشارة إلى عابد عالم، فافقه.

هو اجتبٰكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج، ملةَ، كملة، **أبيكم إبرٰهيم هو، الله**، المجتبي. **سمّٰكم المسلمين من قبلُ**، قبل نزول هذا[٢] القرآن بما وعد في الكتب المنزلة من مجيئ هذا النبي العربي وصفات أمته. **وفى هٰذا**، أي بهذا القرآن أيضا سماكم المسلمين، **ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس**، فأنتم أمة وسطٌ[٣] بين الناس وبين الرسول. وقد بينا ذلك. **فأقيموا الصلوٰة وءاتوا الزكوٰة واعتصموا بالله هو مولٰكم فنعم المولىٰ ونعم النصير**. سبحانه وتعالى.

---

١ المعجم الكبير للطبراني، ٣٧٢/١١.

٢ ش - هذا.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (سورة البقرة، ١٤٣/٢).

سورة المؤمنون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢﴾

الذين هم فى صلاتهم خٰشعون، مجالس الحق موقوفة على الهيئة والسكينة، ولا تقتضي الرقص والزَّفْن،[1] فذلك بقاءٌ مع النفوس.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

والذين هم عن اللغو، من غيرهم، وَإِذَا سَمِعُوا۟ / ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ،[2] ويفهم منه [٢٨٨ظ] الإطلاق عن دواعي أنفسهم، **معرضون**.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤﴾

والذين هم للزكوٰة فٰعلون. لما كانت الزكاة ههنا ليس المراد بها زكاةَ المال فقط بل كقوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ،[3] كان لفظ الفعل أليق بها ههنا. فهم يفعلون الزكاة، أي ما يزكّيهم في كل موضع يليق به فعلُها فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾

والذين هم لفروجهم حٰفظون إلا علىٰ أزوٰجهم. انظر إلى قوله: أو ما، أي مهما، **ملكت أيمٰنهم**، ولو قال: "إما ما ملكت" لَمَا جاز الجمعُ في الوطء بين الزوجة وملك اليمين، بل هذا كقوله في النور: أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ[4] كما نبين. فإن "أو" هناك لا تمنع الجمع بين المذكورين، ولا تلزم بأحدهم دون الآخر، وكذلك ههنا.[5] ولو قال:

---

[1] الزَّفْن هو شبيه بالرقص (لسان العرب، «زفن»).

[2] ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ (سورة القصص، ٢٨/٥٥).

[3] سورة الأعلى، ٨٧/١٤.

[4] ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ...﴾ (سورة النور، ٢٤/٣١).

[5] ش ك: هناك.

"وما" لزم أن يفهم من ذلك لزوم الجمع بينهما وإلا يقع اللوم. فلفظة "أو" للإباحة إلا أن يتقدمها[1] "إمّا". ولمّا استُعملت هذه الألفاظ في الكلام وقام بعضها مقام بعض في بعض المواطن وكانت "إما" أخصّ بأحد القسمين، ولفظة "ما" أدلّ على القسمين معا، ولفظة "أو ما" تعطي إباحة القسمين استُعملت في هذا المكان ليزول الاشتباه. ومعناها ومهما ملكت أيمانُهم فهي مبيحة للوطء بملك اليمين، وهي كما قال تعالى: أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ،[2] الآية، بلفظة "أو" فهي تعطي الفُرادَ وتبيح الجمع، فافهم. **فإنهم غير ملومين**، من الله سبحانه. وفي هذه الإباحة ما يُشعر بأولوية ترك وطء ملكِ اليمين وإن جاز. وذلك[3] لذكرِ لفظ اللوم.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾

فمن ابتغى، طلبَ ما هو، **وراء**، بعد، **ذٰلك فأولٰئك هم العادون**، من العدوان.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾

والذين هم لأمٰنٰتهم وعهدهم رٰعون، من المراعاة وهي التحفظ من أدنى ميل عن الصدق.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾

والذين هم على صلوٰتهم يحافظون، وهي من المفاعلة ليُفهَم منها المبالغة في الحفظ. ومن جملة ذلك أن تكون في أول الوقت، لقوله تعالى: كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا.[4]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾

الذين يرثون الفردوس، الفَرْدَسة[5] في كلام العرب السعة. وسماهم الوُرّاثَ تمثيلا بمن وصل إليه مال من وجهٍ حقٍ. والذي كان صاحبا للمال لا يُتصور أنه يُرجَع فيه ولا ينازَع الورثةَ. ثم بشّر بعد ذلك بقوله: **هم فيها خٰلدون**.

---

[1] ش ك: أن تقدمها.

[2] ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ...﴾ (سورة النور، ٦١/٢٤).

[3] ر – وذلك، صح هـ.

[4] ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ (سورة النساء، ١٠٣/٤).

[5] ر: الفردوسة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣﴾

ولقد خلقنا الإنسٰن من سلٰلة، سُلّت، **من طين، ثم جعلنٰه نطفة فى قرار**، استقر فيه، **مكين**، ممكَّن، وهو من المُكنَة، وهو صفة القرار لا صفة المجعول.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾

ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظٰما،[١] عرّفَنا الله أن تلك النطفة المائية عادت أخيرا صُلْبَةً عظاما بين لحم ورطوبات. والعظم تُلَيِّنه الحرارةُ والرطوبة، وهذه صلبة[٢] المائية، ثم بعد ذلك كَسَا هذه العظامَ لحما من غيرها لا منها لقوله: **فكسونا العظٰم لحما. ثم أنشأنٰه**، أي الإنسان. وقوله: **خلقا ءاخر**، يشير إلى مطلق الخلق من سائر الناس إنسانا بعد إنسان، أي خلقناه كذلك بعد آدم الذي هو السلالة من طين، فافهم. ولم يعبر عن اللحم بلفظ الخلق كما قبله، لأن اللحم يَذهب في المرض ويعود في الصحة، والأعضاءُ على حالها، فعبر عنه بلفظ الكسوة، لأنه يُدفئ مثلَ حَشْو الجُبَّة تحشى به الأعضاءُ. ثم ذكر إنشاء خلقة أخرى كما فصّل من قبل. **فتبارك الله أحسن الخٰلقين**. الخلق بمعنى التقدير، وذلك أن الإنسان يخلق ما مادتُه مخلوقةٌ لله سبحانه، والله يخلق كذلك وغيرَ ذلك،[٣] أعني بلا مادة. وهذا أولى بلفظ الإبداع. ولهذا قال عن آدم: / خَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ.[٤] وقال: بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ.[٥] وأما قوله: [٢٨٩و]
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ،[٦] فاعلم أن كل إبداع خلقٌ. فيجوز أن يعبَّر بلفظ الخلق عن المبدِع ولا ينعكس، كما لا يقال: أبدع الإنسان. فقوله: هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ،[٧] يريد به[٨] الإبداع الذي هو الاختراع من غير مادة. ويجب أن تعلم أن كثيرا من الاختلاف إنما ينشأ من جهة العبارة. فيجب أن تُحقَّق أولا ويتَّفَق على المراد بها بين المتخاطبين.

---

١ ش + ثم.

٢ ر: صلبت.

٣ ر: وغير كذلك؛ ك – وغير كذلك، صح هـ.

٤ وردت هذه العبارة في آيات عديدة، منها ما ذُكر في سورة الأعراف، ١٢/٧؛ وسورة ص، ٧٦/٣٨.

٥ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (سورة البقرة، ١١٧/٢؛ وسورة الأنعام، ١٠١/٦).

٦ هذه العبارة وردت في آيات كثيرة، منها ما ذُكر في سورة الأنعام، ١/٦، ٧٣؛ وسورة الأعراف، ٥٤/٧؛ وسورة يونس، ٣/١٠.

٧ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (سورة فاطر، ٣/٣٥).

٨ ر – به.

[خلق أفعال العباد]

فنقول: إن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.[1]

فإن قيل: الأعراض ليست بأشياء لأنها تقوم بالذوات؟ قلنا:[2] هي أشياء أعراض لا أشياءُ ذوات. وإذا أمكن إيضاح الحق مع متابعة السلف فهو الأولى. فنقول: إنما يقوم بالعبد من الصفات نوعان. نوع يخلقه الله تعالى بغير قدرة العبد ولا باختياره كحركة النبض. والثاني يخلقه الله بحركة العبد واختياره، والله تعالى وهبه أن يختار فيخلق الربُّ سبحانه إن شاء كما يخلق الولد بالبِضاع إن شاء. وهذه التفرقة معلومة بالضرورة. وأما نفس الفعل فهو كالكلام والصمت والقيام والقعود وغير ذلك، فيسمى هذا النوع الثاني كسبا للإنسان لا خلقا له وإن كان خلقا لله. وفي هذه التسمية وقع الاختلاف. فالحاصل هو أنا نسمِّي فعْلَ العبد كسبا لا خلقا وفعْلَ الله خلقا لا كسبا، واسم الفعل يشملهما. فالصحيح أن أفعال العباد مقدورة لله تعالى، أعني الاختيارية مقدورة لله بجهة الإيجاد، ومقدورة للعباد بجهة الكسب؛ فالفعل مقدور بين قادرَين، ولكن بجهتين ولا شركة بينهما. مثاله عبدٌ لزيد هو ملكه بجهة الشِّرا يصح بيْعُه وعتقُه كله، والعبد كلُّه[3] ملك لله تعالى، ولا يقال: هو مشترك بين الله تعالى وبين زيد. والفرق بين الخلق والكسب أن ما وقع بغير آلة فهو خلقٌ، وما وقع بآلة فهو كسبٌ وخلق، أعني هو كسب للعبد وخلق للرب وإن كان واحدا. وكذلك ما لا يجوز تفرُّد الخالق به هو كسب، وفيه وقع النزاع؛ إذ له جهتان: إحداهما أنه مقدور للعبد كسبا، والآخر أنه مقدور للرب خلقا. وإطلاق القدرة للرب يُعطي أنه يهب من شاء ما يشاء؛[4] ولأنْ يخلقَ القادرُ قادرا أبلغ في القدرة من أنه لا يخلق إلا عاجزا. فالإنسان قادر بالحقيقة على ما خلقه الله قادرا عليه، وقدرتُه أيضا مخلوقة لله سبحانه. ولهذا قال عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾.[5] فالخلق بمعنى التقدير جائزٌ[6] أن[7] يُنسب إلى العبد، وهو المراد في هذه الآية. ولا جناح على من تكلم بكلام الله تعالى إذا فهم ما يقول.

---

[1] ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ (سورة الرعد، ١٣/١٦).

[2] ر ك: فقلنا.

[3] ش – كله.

[4] ش ك: ما شاء.

[5] ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٤٩).

[6] ش + أو.

[7] ك – أن، صح هـ.

ومن الجائز عقلا أن الله تعالى يعطي من شاء من عباده في الدنيا ما يعطيه في الأخرى من أنه يقول لشيء: كن فيكون. ولا يكون معتقد هذا مشركا، لأنه يعترف أن هذا بربه لا بنفسه فهو يتحقق أنه في زمرة المخاطَبين بقوله تعالى: **ثم إنكم بعد ذٰلك لميتون، ثم إنكم يوم القيٰمة تبعثون.**

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

ولقد خلقنا فوقكم، أي ما هو أعظم من خلقكم، **سبع طرائق**، وهذا معلوم من قوله تعالى: لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ.[١] وكل سماء من السبع طريقةٌ، بمعنى مطروقة تطرقها الكواكب، لقوله: وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ،[٢] وتمامه. **وما كنا عن الخلق غٰفلين**، يريد الخليقة وهو سائر المخلوقات.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

وأنزلنا من السماء ماء بقدر، معلوم قدرناه بحسب مصالح العباد ولو أفسد بعضَ البلاد. والمراد أنا قدرناه في السحاب لينزل قَطْرا لا نهرا.[٣] **فأسكنّٰه فى الأرض / وإنا علىٰ ذهاب به لقٰدرون.** [٢٨٩ظ]

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾

فأنشأنا لكم به جنّٰت من نخيل وأعنٰب لكم فيها، في الجنات، **فوٰكه كثيرة ومنها تأكلون**. الواو في "ومنها" يُفهَم بها أن في الفاكهة منافعَ للشم والمداواة والنُّزْهة وغير ذلك، ونأكل[٤] منها أيضا. وبيّن هذا بقوله في الأنعام: **ومنها**،[٥] فافهمه.[٦]

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

وعطف على [قوله:] جَنَّٰتٍ،[٧] [قوله:] **وشجرةً تخرج من طور سيناء**، فَيْعالٌ من السَّناء وهو الضوء. وهذه اللفظة في التوراة "سَيْناي". ونُسب الطور إلى الشجرة من حين التجلي،

---

١ سورة المؤمن، ٥٧/٤٠.

٢ سورة الطارق، ١/٨٦.

٣ ر – والمراد أنا قدرناه في السحاب لينزل قطرا لا نهرا، صح هـ.

٤ ش ك: وتأكل.

٥ انظر أيضا: سورة يٰس، ٧١/٣٦-٧٣؛ وسورة المؤمن، ٧٩/٤٠-٨٠.

٦ ش ك: فاكهة.

٧ من الآية السابقة.

لأن موسى عليه السلام رأى النار في شجرة[1] السناء،[2] والسناء غير مأكول بالنار، هذا نص التوراة. وقيل: هو شجر الزيتون، لأنه شجر النور، وهو مراد الآية ههنا. وتقديره وأنشأنا شجرة. وقوله: **تَنْبُتُ بالدهن**، أي تُنبت ثمرها بالدهن، أي ذا[3] دهن، **وصبغ للآكلين**، وكل أدمٍ[4] مائع يسمَّى صِباغا. يقال: أصبغ من هذا الزيت أو العسل، أي تأدم منه، وكأنه يَصبُغ الخبزَ عند الأكل. ولهذا قال: **للآكلين**. وخصَّص طورَ سيناءَ لاشتهاره عند الناس، ولأن شجر[5] الزيتون فيه كثير. وقوله: **بالدهن**، كما تقول: جاءني فلان بالسيف، أي ومعه السيفُ. ولمّا كان الدهن[6] مادة للنار والماءُ مضادِدا لها -وقد خلق الله مادة النار من الماء- كان ذلك من العجيب الذي يجب أن ينبَّه عليه. فلهذا قال عن الماء: فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ،[7] **وشجرةً**، يريد اسمَ الجنس. وكذلك من العجيب أيضا إذا كانت مادة النار تؤكل.

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾

ولما ذكر الأكل ذكر مشروبا وهو من جنس الأكل أيضا فقال: **وإن لكم فى الأنعٰم لعبرة نسقيكم مما فى بطونها**، بيّن في سورة النحل[8] ما أجمله ههنا. فلهذا قال ههنا: **فى بطونها**، وليعطف الكلامَ عليها بقوله: **ولكم فيها منٰفع كثيرة ومنها تأكلون**. **وعليها**، في البر، **وعلى الفلك**، في البحر، **تحملون**. وذكر "الفلك" مقرونة بالأنعام تشبيها بها في حمل الأثقال كأنها سفن البر، وتلك نُوقُ[9] البحر.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٢٣﴾

---

[1] ر: في شجر.

[2] الشنا والسَّناءُ: نبتٌ يُكتَحَلُ به يمدُّ ويقصر، واحدته سَناةٌ. وقال أبو حنيفة: السَّنا شُجَيْرَة من الأَغْلاث تُخْلَط بالحِنّاء فتكونُ شِباباً له وتُقَوِّي لَوْنَه وتُسَوِّدُه. وله حِمل أبيضُ إذا يَبِس فحركتْه الريح سَمِعتَ له زَجَلا (لسان العرب، «سنا»).

[3] ش ك: أي إذا.

[4] ك: آدم.

[5] ش: شجرة.

[6] ك - كما تقول جاءني فلان بالسيف أي ومعه السيف ولما كان الدهن، صح هـ.

[7] من الآية السابقة.

[8] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى في سورة النحل، ١٦/٥-٨.

[9] ش: فوق. | ونوق: جمع ناقة.

ولمّا ذكر الفلك ذكر صاحب الفلك وهو نوح عليه السلام فقال: **ولقد أرسلنا نوحا إلىٰ قومه فقال يٰقوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره أفلا تتقون.**

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾

فقال الملؤا الذين كفروا من قومه، قال بعضهم لبعض: **ما هٰذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم**، افهم مثلَ هذه من سياق الكلام وإن احتمل اللفظ اشتراكا[١] في المعنى، فخذ أنت ما يتمّ به المقصود دون غيره. وإن تم باحتمالين فخُذِ الأحسن لا الحسن، إذ ليس معنى "يتفضل" ههنا "يَحْسن" بل "يَفْضُل". **ولو شاء الله**، أن يرسل رسولا، **لأنزل ملٰئكة ما سمعنا بهٰذا فى ءابائنا الأولين؛ إن هو إلا رجل به جنة**، من قوله: مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ،[٢] أي هو مجنون. **فتربصوا به حتىٰ حين**، أي تَوَقّعوا ما يحلّ به إلى حين مّا.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾

قال رب انصرنى بما كذبون، أي بسبب ما أنهم كذبونِ.[٣]

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا، أي بِمَرْءًى منا وبما نوحيه إليك من علمنا لا من علمك. **فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم. ولا تخٰطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون.**

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

---

١ ش: اشتركا.
٢ سورة الناس، ٦/١١٤. وانظر أيضا: سورة هود، ١١٩/١١.
٣ ش: أنهم فذكذبون.

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين، قُرئت بفتح الميم يريد [به] مَنزلا من الفلك وبضمها،[1] أي أنزلني في الفلك مُنزلا مباركا على نفسي ومن معي.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

إن فى ذٰلك لآيٰت وإن كنا لمبتلين، بجميع ذلك، أي مختبِرين وممتحِنين نوحا وقومَه. فالابتلاء للمؤمنين والكفار ما داموا في هذه الدار. / ولمّا كانت بعض الوقائع [٢٩٠و] أدلَّ على قدرة الصانع كطوفان نوح كان ذلك، وإن كان ابتلاء لمن تقدم ففيه آيات لمن تأخر ليتحقق الآنام قدرةَ الصانع على الانتقام.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾

ثم عطف على [قوله:] فَقَالَ،[2] الأوّلةِ [قوله:] **وقال الملأ من قومه الذين كفروا؛** أما الأوائل فقد دل على أن بعضهم لم يكفر. وأما[3] هؤلاء فإن الجميع كفروا، ولهذا قدم وأخر، فافهم. ودليل ما قلناه أنه أوّلًا وصف الملأ بالكفر دون القوم كلهم، وفي الثاني وصف القوم كلهم بالكفر والملأُ منهم. فنسب الكفر إلى أقربَ مذكورٍ قبله أوّلا[4] وهو الملأ، ونسب الكفر إلى أقرب مذكور ثانيا وهو القوم. فالأوائل بعضهم كفار وهؤلاء كلُّهم كفار، إذ نسبة الكفر إلى الملأ لا يلزم عنه كفرُ القوم، ونسبة[5] الكفر إلى القوم يلزم عنه كفرُ الملأ منهم. وإذا تأملت قصة نوح وهي الأُولى فهمت أن بعض قومه آمن. وأما من بعدهم فكلهم كفار.[6] **وكذبوا بلقاءٓ الآخرة وأترفنٰهم فى الحيوٰة الدنيا ما هٰذا إلا بشر مثلكم، يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون،**

---

[1] قرأ أبو بكر بفتح الميم وكسر الزاي، أي مكان نزول، والباقون بضم الميم وفتح الزاي (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٤٠٣).

[2] الآية ٢٤ من هذه السورة.

[3] ك: وما.

[4] ر + قال.

[5] ش ك - كفر القوم ونسبة.

[6] ر: كفروا.

هذا منبّه على أن ترك الأكل والشرب مع الأنام مما يعظِّم قدْرَ فاعله في النفس وبالعكس.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أيعدكم، الآن، **أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم**؛ لو أسقط "أنكم" الأولى لكان الوعد لهم حال كونهم ترابا، ولو أسقط الثانية لكان الإخراج وهم تراب أيضا لا بشرٌ، فافهمه. فلهذا كرر "أنكم"، **مخرجون**.

﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

هيهات هيهات، لفظة معناها: مستحيل أن يكون كذا، أي بَعُدَ الأمر جدا حتى امتنع. وهي غير مشتقة من فعل، وكررِّت تأكيدا ومنعا، **لما توعدون**.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾

إن هى إلا حياتنا الدنيا. وقولهم: **نموت ونحيا**، هو على صورة الإنكار منهم، أي كيف يكون هذا؟ ولذلك لم يقل: نحيا ونموت. **وما نحن بمبعوثين**. والباء في قوله: **بمبعوثين**، كقول العرب: ما أنا بفاعلٍ كيت وكيت، أي بوجه[1] من الوجوه. فهذه تُستعمل لتأكيد النفي، فهو في قوة لام الجحود إذا اعتُبرت.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾

وهذا يدلك على أنهم كانوا يعرفون الله فلم ينفعهم ذلك مع جحد الرسول.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قال عما قليلٍ، أي عما هو قليل من الزمن. وليست[2] "ما" زائدة، إذ لو قال: "عن قليل" كان القليل منكَّرا. وهذا معرَّف تعريفَ الأعلام كقولك: هذا هو زيد؛ أي عما هو عندكم قليل، **ليصبحن نُدمين**.

---

[1] ك - بوجه، صح هـ.

[2] ر ك: وليس.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

وعرَفَنا أن الجميع هلكوا بقوله: **فأخذتهم الصيحة بالحق**، أي عدلٍ منا في الجزاء لهم في الدنيا قبل الأخرى. **فجعلنٰهم غثاء**، وهو ما يجرّه السيل من ورق بالٍ وعيدان ومثل ذلك. **فبعدا للقوم الظّٰلمين**.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

ثم أنشأنا من بعدهم قرونا ءاخرين، لو حذف "من" لدل على قوم بعدهم إما بقليل أو بكثير، وقد تكون بينهما أممٌ لم تُذكر. فلما قال: **من**، علمنا أنهم أقرب إليهم، لأن "من" لابتداء الغاية.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ما تسبق من، لتبيين الجنس، **أمة أجلها وما يستـْٔخرون**. الكلام عن الحال في الدنيا، أي ما[1] تسبق أمة أجلَها،[2] فتتقدم[3] رسولَها وما تتأخر بعد مجيء رسولٍ آخرَ فتستمر[4] على سُنتها الأولى؛ لأن الأمة برسولها، فمتى أرسل الله غيره لزم اتباعه وإن كانت تلك الأمةَ بعينها، إذ هي متى اتبعته عادت أمةً له فهي غيرها من قبل، لأنها

[٢٩٠ظ] عادت مؤمنة / بما لو لم تؤمن به كانت كافرة.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

ثم أرسلنا رسلنا تترا، تَرَى يَتْري[5] بوزن طَرَى يَطْرِي، ولم تُذكر في اللغة على أصلها، ومعناها تتبع. لهذا بعده: **كلَّ ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا**، في الإهلاك، كما أتبع بعضهم بعضا في التكذيب. **وجعلنٰهم أحاديث**، **فبعدا لقوم لا يؤمنون**.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾

---

١ ر - ما.

٢ ر + وما يستأخرون.

٣ ش ك: فتقدم.

٤ ر: تستمر.

٥ تَرَى يَتْرِي [تَريا] إذا تَراخَى في العَمَلِ فعمِل شيئا بعد شيء (لسان العرب، «ترى»).

ثم أرسلنا موسىٰ وأخاه هٰرون بـٔايٰتنا وسلطٰن مبين إلىٰ فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين، على غيرهم. إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ،[1] وهو من التطاول والقهر، فهو علو بالفساد.

﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ۝٤٨﴾

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٤٩﴾

ولقد ءاتينا موسى الكتٰب، إلى بني إسرائيل، **لعلهم يهتدون**.

﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ۝٥٠﴾

وجعلنا ابن مريم، تقديره آية، وإنما جمع لأنه كانت آية بطريق الابن. وكذلك هو آية لكونه منها بغير أب. وهذا كقوله: عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ،[2] فحُذف. وعطف على [قوله:] **ابن مريم**، **وأمّه ءاية**، **وءاوينٰهما إلىٰ ربوة ذات قرار ومعين**. الربوة الموضع المرتفع من الأرض كأنه ربا يربو، **وذاتِ قرار**، للسكان فيها، أي لم تكن خالية من أهل قرار بها، **ومعين**، من الماء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١﴾

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾

وإن هٰذه أمتكم أمة وٰحدة وأنا ربكم فاتقون، المراد أن الأمة واحدة والنسخ جائز، فإن اختلفت الفرائض بحسب المصلحة لاختلاف الأشخاص لم تختلف الأمة.

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾

فتقطعوا أمرهم، في أمرهم، **بينهم زبرا**، قِطَعا. **كل حزب بما لديهم فرحون**.

﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾

فذرهم فى غمرتهم، وهو ما غُمروا به من الغفلة والجهل، **حتىٰ**، إلى، **حين**.

---

[1] ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ (سورة القصص، ٤/٢٨).

[2] ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾ (سورة ق، ١٧/٥٠). أي عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

أيحسبون أنما، أن الذي، **نمدهم به من مال وبنين**.

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

نسارع لهم فى الخيرٰت، ليس كذلك، **بل لا يشعرون**، أنها فتنة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

إن الذين هم من خشية ربهم، أي من فرط خشيتهم لربهم، **مشفقون**، على أنفسهم وعلى غيرهم. والخشية الخوف مع تعظيم المَخْشيّ، والشَّفَقَة الحذر من المَكْر. فتكون الخشية أن تَخشى من غيرك، والشفقة أن تُشْفِق على نفسك، وإن كانا متلازمين لكنه نظرك من أحد الطرفين له اسم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾

والذين هم بئايٰت ربهم يؤمنون، إذا جاءتهم ولا يكونوا كاليهود.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾

والذين يؤتون، الفقراء والمساكين،[1] **ما ءاتوا**، أعطوا من صدقة وزكاة، تقديره: معتقدين،[2] **أنهم إلى ربهم رٰجعون**، وأخِّرت الجملةُ للوِزان. ثم وصفهم بقوله: **وقلوبهم وجلة**، ويحتمل أن يكون الحال. **وقلوبهم وجلة**،[3] إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ،[4] بسبب، **أنهم إلى ربهم رٰجعون**. وهذا كما قيل: من علامة السعادة أن تطيع الله تعالى وتخاف أن تكون مردودا، ومن علامة الشقاوة أن تعصي الله تعالى[5] وترجو أن تكون مقبولا.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

أولٰئك يسٰرعون فى الخيرٰت، أي في أعمالها. **وهم لها**، بمعنى إليها، **سٰبقون**، سابَقوا غيرَهم فسبقوا فهم سابقون.

---

[1] ر ك: والمستحقين.

[2] ر – معتقدين، صح هـ.

[3] ش – ويحتمل أن يكون الحال وقلوبهم وجلة.

[4] سورة الأنفال، ٢/٨؛ وسورة الحج، ٣٥/٢٢.

[5] ش – وتخاف أن تكون مردودا ومن علامة الشقاوة أن تعصي الله تعالى.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٢﴾

ولا نكلف نفسا إلا وسعها، ما تَسعه وهو طاقتها. **ولدينا كتٰب ينطق بالحق**، يومَ حِسابهم. **وهم لا يظلمون**.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ۝٦٣﴾

ثم رجع إلى الفريق الظالم فنسق على قوله: بَلْ لَّا يَشْعُرُونَ،[1] [قوله:] **بل قلوبهم فى غمرة من هٰذا**، الذكر. **ولهم أعمٰل من دون ذٰلك**، العمل الذي للسابقين، **هم لها عٰملون**.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ۝٦٤﴾

حتىٰ إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب. ذكر المترفين، لأن عذابهم أشد لانتقالهم من الشيء إلى ضده. **إذا هم يجـٔرون**، كما يصيح الحيوان من قلبه.[2]

﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥﴾

لا تجـٔروا اليوم إنكم منا لا تنصرون، عبّر بلفظ النصر لاستيلاء الزبانية عليهم، وعين "اليوم" لأنهم لو[3] جأَرُوا قبله لأُجيبوا.

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾

وأما اليوم المذكور فيقال لهم: **قد كانت ءايٰتى تتلىٰ عليكم فكنتم علىٰ** / **أعقٰبكم تنكصون**. المشي إلى خلفٍ نكوصٌ، ولا يكون إلا على الأعقاب فهو لا [٢٩١و] يرى ما خلفه، قال الله تعالى: نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ،[4] كمن رأى ما أبْهَتَه فمشى هاربا إلى خلفه ووجُهه إلى ما أبهته حذَرًا منه. **مستكبرين**، قدّم، **به**، أي بالقرآن، **سٰمرا**، السامر من السَّمْر مثل الباقر من البَقْر. والمعنى في سَامِرٍ وهو مجلس السَّمَر والحديث في الليل. وأخّر "تهجرون"، أي تهجرون بالقرآن في السامر، وأخِّر للوزان. والهُجْر هو الهذيان كما يعرض للمريض في الحمّى واختلاطِ الذهن. وقوله: **به**، الباء للتعدية.

---

[1] الآية ٥٦ من هذه السورة.
[2] ش: إلى قلبه.
[3] ر – لو، صح هـ.
[4] ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ (سورة الأنفال، ٨/٤٨).

فهم كانوا يتلفظون منه بما قصدُهم به المناقضةُ والرد والاستهزاء. ولهذا قال: **مستكبرين -تهجرون- به**. ولهذا بعده: **أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت ءاباءهم الأولين.**

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠﴾

أم يقولون به جنة، ليس كذلك، **بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كُرهون.**

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۝٧١﴾

ولو اتبع الحق أهواءهم، أي ما أرادوه من الشرك، كقوله: لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا،[1] ومثله ههنا: **لفسدت السمٰوٰت والأرض ومن فيهن**. يُحجّ المشرك بأن يقال له: نحن وأنت مُجمعون على واحد وأنت زدت عليه،[2] فما دليلك؟ **بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون**، أضافه إليهم، كقوله: وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ.[3]

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٧٢﴾

أم تسئلهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرزقين. خراج الأرض هو ما يُجبى في كل مدة مستمرًا من مالكها للمَلِك؛ فما يرزقه الله لمحمد صلى الله عليه وسلم مستمرًا كالخراج خير من خرجهم، أي الذي هو لا يستمر. والخرج ما يُخرجه الإنسان من ماله لله وإن لم يكن مستمرا أو معيّنا، وكذلك إذا لم يكن لله، فالخَرْجُ[4] ضدُّ الدَّخْلِ. فافهم الفرق بين الخرج والخراج.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣﴾

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤﴾

وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصرٰط لنٰكبون، إذا[5] مال بمنكبه يقال: نكّب بتشديد الكاف لمضاعفة معنى فعلِه.

---

[1] سورة الأنبياء، ٢١/٢٢.
[2] ر – عليه، صح هـ.
[3] سورة الزخرف، ٤٣/٤٤.
[4] ر: فالخراج.
[5] جميع النسخ: إذ، والمثبت من م.

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾

ولو رحمنٰهم وكشفنا ما بهم من ضر، في الدنيا وهو ما يضر كائنا ما كان،[1] **للجوا**، من اللِّجاج في طلب ما يُطغيهم، **فى طغيٰنهم يعمهون**.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

ولقد أخذنٰهم بالعذاب، الأدنى لعلهم يرجعون.[2] **فما استكانوا لربهم وما يتضرعون**، في المستقبل إلى أن يُفتَح. **حتىٰ إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون**، تقديره تضرعوا حينئذ حيث[3] لا ينفعهم. ثم قال ما معناه: هلا تضرعوا[4] لديه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

وهو الذى يحىۦ ويميت وله اختلٰف اليل والنهار، أي له[5] القدرة على أن يخالف بين الليل والنهار. ويحتمل أن يكون بمعنى افتعال الليل من قوله:[6] وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً.[7] كل واحد منهما يَخْلُف صاحبَه. **أفلا تعقلون**. والأولى أنه[8] عبارة عن رواح هذا ومجيء هذا.

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

لقد وعدنا نحن وءاباؤنا، وفي النمل لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا، ثم أخر عنها نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا.[9]

---

١ ك - في الدنيا وهو ما يضر كائنا ما كان، صح هـ.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة السجدة، ٢١/٣٢).

٣ ر - حيث.

٤ ر ك: هلا تضرعون.

٥ ش ك - له.

٦ ك - من قوله، صح هـ.

٧ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (سورة الفرقان، ٦٢/٢٥).

٨ ر ك: أن.

٩ ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (سورة النمل، ٦٨/٢٧).

المعنى أنهم أرادوا ههنا أنهم مكذوبون؛ وفي النمل أرادوا ذمَّ ما وُعدوا به إذ هو كذبٌ، فقدَّم في كل موضع ما[1] عُلم بتقديمه شدةُ الاهتمام به، فتأمله فهو دقيق. ومثلُه في تقديم ﴿مَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾[2] وتأخيرها. فأخَّر ههنا: **هٰذا من قبل**، واستغنى بالواو عاطفة على [قوله:] **وُعِدْنَا**. **إنْ هٰذا**، أي القرآن ذو المواعيد، **إلا أسٰطير الأولين**.

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

[٢٩١ط] / **قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون**، كيف خلقكم منها، ومن بدأ كيف لا يعيد إذا شاء، وكيف لا تَذَكَّرُون بإحياء الأرض بعد موتها: إنه سبحانه يُخرج الموتى أحياء منها؟

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله قل فأنى، فكيف، **تسحرون**، بالميل عنه وأنتم تظنون أنني أسحرُكم بالميل إليه؟

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾

ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلٰه إذا لذهب كل إلٰه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحٰن الله، أي تنزه، **عما يصفون**.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

---

١ ك: وما.

٢ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ (سورة البقرة، ١٧٣/٢). وانظر أيضا: سورة المائدة، ٣/٥؛ وسورة النحل، ١١٥/١٦.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾

قل رب إما ترينى ما يوعدون، أي إن أَرَيْتَني ما يوعَدون به من العذاب الأدنى، **رب فلا تجعلنى فى القوم الظّٰلمين**، لأنه ليس منهم بل يحتمل أن يكون فيهم، ولا يعذبهم الله بالاَستئصال وهو فيهم.[1] ولمّا كان من الجائز أن يعذبهم لا بالاستئصال وهو فيهم علّمه الله ما يدعو به بحيث لو أراه الله ما يَعِدهم به من العذاب لا يكون فيهم بل خارجا عنهم.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

وإنا علىٰ أن نريك، الآن، **ما نعدهم**، به من العذاب[2] في أَجَله، **لقٰدرون**، ولكن نؤخره لأجل معلوم لِما تقتضيه الحكمَةُ ولإقامة الحجة.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

وقل رب أعوذ بك من همزٰت الشيٰطين، الكلام مطلق، ويشير بالتخصيص إلى المذكورين. والهَمْز شدة الدفع، ومنه الهُمَزة[3] والهَمْز والمِهماز.[4] **وأعوذ بك رب أن يحضرونِ**، فأمره بالاستعاذة من أن يحرّكوه بهمز أو يحضروه في وقت.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

حتىٰ إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون، هذا الجمع يخاطَب به الملوك تعظيما، **لعلى أعمل صٰلحا فيما تركت** من الدنيا وخلّفتُه لغيري. **كلا إنها كلمة هو قائلها**،

---

[1] فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (سورة الأنفال، ٣٣/٨).

[2] ش - لا يكون فيهم بل خارجا عنهم وإنا على أن نريك الآن ما نعدهم به من العذاب، صح هـ.

[3] الهُمَزة الذي يَخلُف الناسَ من ورائهم ويأكل لحومهم وهو مثل الغُيَبَة يكون ذلك بالشِّدْق والعين والرأس. قال الليث: الهمّاز والهُمَزة الذي يَهْمِز أخاه في قفاه من خلفه، واللمْز في الاستقبال (لسان العرب، «همز»).

[4] المِهْماز حديدة تكون في مؤخر خُف الرائض. والهمْز مثل الغَمْز والضَغْط ومنه الهمز في الكلام لأنه يُضْغَط (لسان العرب، «همز»).

وهذا كما تقول لمن يكلمك بما لا طائل له: هو كلام، أي كلام فقط بلا فِعال. **ومن ورائهم برزخ**، وهو مدة بقائهم في القبور، **إلى يوم يبعثون**، فالبرزخ الحاجز بين الشيئين، وهو ما بين الدنيا والآخرة.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾

فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ، أي لا أنساب تنفع، كقوله: لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ.[1] **ولا يتساءلون**، لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ.[2] وفي ذلك اليوم لا يتساءلون، أي لا يطلب بعضهم من بعض شيئا، كقوله: أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا،[3] وليس من السؤال الذي هو خطاب له جواب، فافهم ليزول التناقض بقوله: فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ.[4] وأيضا إن هذا الذي ههنا يومَ البعث وما في تلك الآية هو في الجنة والنار، وهو بعد يوم الفصل الذي هو ميقات الجمع.[5]

﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣﴾

﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾

تلفح، يقال في النار، وتنفخ في الريح، **وجوههم النار وهم فيها كُلحون**، الكُلوح تقلُّص الشفتين عن الأسنان حتى تبدوَا.

﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦﴾

﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾

ربنا أخرجنا منها فإن عدنا، إلى ما أوجب لنا الدخولَ إليها وهو التكذيب، **فإنا ظلمون**.

---

1 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ (سورة لقمان، ٣٣/٣١).

2 سورة عبس، ٣٧/٨٠.

3 الآية ٧٢ من هذه السورة.

4 سورة الصافات، ٥٠/٣٧.

5 ر: الجميع. | لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ (سورة الدخان، ٤٠/٤٤). وانظر أيضا: سورة المرسلات، ٣٨/٧٧.

﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾

قال اخسئوا فيها، لغةٌ يُطرد بها الكلب، **ولا تكلمونِ،** بعدها.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩﴾

﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠﴾

فاتخذتموهم سخريا، من قوله: سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ[١] بمعنى الاستهزاء. وقوله: **حتىٰ أنسوكم ذكرى،** أي كلامي[٢] الذي / هو ذكرٌ وقرآن مبين.[٣] وذلك أنهم كانوا إذا قالوا [٢٩٢و] لهم: كلام الله وذكّروهم به يستهزءون بهم، ويضحكون منهم. وربما آل الأمر إلى أعظمَ من ذلك فسكتوا فكان سكوتُ[٤] العلماء والصالحين هو المصيبةَ الكبرى الموجبة لهم أنهم ينسون الذكر فكأن العلماء قد أنسوهم،[٥] وإذا عاد المذكِّر مُنْسِيا فقد أحاط البلاءُ، **وكنتم منهم تضحكون.**

﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١﴾

إنى جزيتهم اليوم بما صبروا، كان الجزاء، **أنهم هم الفائزون.**

﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢﴾

ثم نسق على قوله: فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ: **قٰل كم لبثتم فى الأرض عدد سنين،** أي تحتها وفوقها؟ وهؤلاء هم[٦] المذكورون في آخر الروم.[٧] وإنما كرّر ذكرهم هناك ليَحُجَّهم بالذين أوتوا العلم، فافهمه.

﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣﴾

١ ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ (سورة التوبة، ٩/٧٩).

٢ ش ك: كلام.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ (سورة يس، ٣٦/٦٩).

٤ ش ك: فسكنوا فكان سكون.

٥ ر: قد أنسوكم.

٦ ك - هم، صح هـ.

٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (سورة الروم، ٣٠/٥٥-٥٦).

قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم، من أيام الدنيا. **فاسئل العادّين**، أي سلْ مَن عدّ فيخبرك بما قلناه. والمعنى سَلِ الملائكة الذين هم أحياء يَعدّون الحسنات والسيئات ويعدون على الإنسان ما يَلْفِظ من قول. وهذا القول منهم إنما قالوه بعد الجزم به كما بيّنّا مثله في آخر سورة الروم. ولكنه تعالى هناك كذبهم وحجهم بالعلماء؛ وهنا ذكر ما هو مناسب لقولهم من وجه آخر لم يكن مِن قصدهم هو أن لبْثَهم[1] بالحقيقة لم يكن إلا يوما أو بعض يوم. فهم ههنا أيضا كاذبون. فبين الله تعالى هناك كذبَهم بطول اللبث إلى يوم البعث، وبين ههنا أن ليس كما قالوا بل هو قليل.

﴿قَـٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤﴾

قل إن لبثتم إلا قليلا، القياس ومفهوم الكلام يعطي: إلا كثيرا. فالمعنى **إلا قليلا** بالنسبة إلى ما يلبثون[2] في النار. والمقصود قِصَرُ المدة في لبثهم وإلا فَزَمن يتناهَى لا نسبة له إلى زمن لا يتناهى. وقوله: **لو أنكم كنتم تعلمون**، أي لو كنتم من العلماء لعلمتم أن مدة اللبث وإن كانت كثيرة بالنسبة إلى الدنيا فهي قليلة بالنسبة إلى الأخرى. ولهذا لم يقل: إن لبثتم إلا أقل، فإن الأقل لا تقوم به عليهم الحجةُ، ولأنه لم يكن اللبث إلا كذلك، أعني قليلا، ولم يكن يوما كما قالوا.

﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَـٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾

ثم بين أنه تعالى مكّنهم[3] في هذا اللبث القليل من العمل الذي يوجب لهم الفوزَ في اللبث الطويل، فقال موبّخا لهم: **أفحسبتم أنما خلقنٰكم عبثا**، لأنهم إذا لم يكن لهم معاد ودارُ بقاء سرمدا وهو غني عنهم فقد عاد خلقُهم عبثا. ولهذا بين ما يعتقدونه بقوله: **وأنكم إلينا لا ترجعون**، فتُجزَوْن بأعمالكم.

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾

فتعٰلى الله الملك الحق، [عن] أن يخلق شيئا عبثا كما يلزم في معتقدكم. **لا إلٰه إلا هو رب العرش الكريم**.

---

[1] ش: إن لبثتم.
[2] ر: إلى ما تلبثون.
[3] ك - مكنهم.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ١١٧﴾

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾

ثم عطف على قوله: قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي:[١] وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الرّحمين.

لما افتتح[٢] السورة بقوله: قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ، قال أخيرا: لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ، ثم ختم بالمغفرة والرحمة إعلاما أن هذا لا يكون لمن لا يفلح وتعليما للعامّ بلسان الخاص[٣] ممن أفلح.

---

[١] الآية ٩٣ من هذه السورة.

[٢] ش ك: لما فتح.

[٣] ر ك: الخص.

سورة النور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾

سورة، تقديره هذه سورة، إذ لا يُبتدأ بالنكرة، **أنزلنٰها وفرضنٰها**، بالتشديد،[1] ولو خفف لكان قد فرضها كالصلاة. ولمّا شدَّد الراء أشار إلى أنه قد جعل فيها عدةَ فرائض، كما تقول: ورقة قطَّعناها بتشديد الطاء، فإنك لا تريد[2] قَطعا واحدا، ولهذا بعده: **وأنزلنا فيها ءايٰت بينٰت لعلكم تذكرون**.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

الزانية والزاني، بدأ بالزانية، لأنها الأصل في الزنى وهو من النساء أفحش، كما بدأ بالسارق أولا[3] لأن ذلك بالرجال / أجدر. وتقدير الكلام الزاني والزانية بمنزلة واحدة [٢٩٢ظ] في الذنب والعقاب. فحذف هذه الجملةَ ودل عليها بالفاء. لهذا قال: **فاجلدوا**، الزانية أولا، وبعدها الزانيَ، **كلَّ وٰحد منهما مائة جلدة**، بجَلْد[4] وليس بعصا أو غيرِها. فأما مَن أُكره مِن ذكر أو أنثى إكراها يَخاف منه على نفسه القتلَ أو قُهر على ذلك كالطفلة فليس عليه شيء إذا قامت له بينة. وذلك لازم من قوله تعالى: إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ.[5] وفائدة ما قلناه أن يعلمه المكرَهُ، إذ لا سبيل في كل حال إلى البينة والحالة هذه فلزم الجلد. **ولا تأخذكم بهما رأفة**، وقوله: **فى دين الله**، لأن الرأفة في الدين واجبة على المسلمين، لقوله تعالى: إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ.[6] فنهانا أن نرأَف بهما رأفة الأُخوّة في الدين، **إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين**،

---

[1] قرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد الراء والباقون بالتخفيف (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٤٠٨).

[2] ك: لا يرتد.

[3] يشير المؤلف رحمه الله إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (سورة المائدة، ٣٨/٥).

[4] أي السوط.

[5] ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (سورة النحل، ١٠٦/١٦).

[6] سورة الحجرات، ١٠/٤٩.

الطائفة ههنا لا أقلَّ من أربعة. ويجب أن يكونوا هم الشهداء الأربعةَ فما زاد عليهم. وفي التوراة: لمّا ذكر الرجمَ أمر أن يبدأ الشهود برجمهما أولا وبعدهم بقية الناس.[1] وأما القرآن فلا رجم فيه. ونحن إنما قصدنا أن نبيّن نص الكتاب لا غير. وقد فصّل الله الوقائع الوجودية نصّا وعقلا كما بينا في سورة النساء؛ فقوله: وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَـٰنِهَا مِنكُمۡ[2] هما ذكران. وقوله: وَٱلَّـٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ[3] هما أنثى مع أنثى، والزانية والزاني هما كل أنثى مع ذكر. هذا مفهوم النص قرآنا وعقلا ووجودا لا غير، واللغة تُلزم به. فذكر الله القسمين في سورة النساء، وذكر هذا[4] ههنا، وجعل الحدود على هذه الذنوب الثلاثة مختلفةً نصا، واجبةً عقلا. ومن لم يكن من أهل الاجتهاد فلا نفع له بهذا الكتاب إلا بما يجده فيه من غيره. والمراد إنما هو بيان ما لا يوجد في غيره أو ما وقع فيه الخلافُ، يَعلم ذلك من نَبَذ التقليدَ واقتحم مَحَجّةَ الإنصاف.

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ③﴾

هذا فرض آخر حرَّم فيه زَواج الزاني وجعله كالمشرك. ومعناه من تزوج زانية أو مشركة فهو الزاني أو المشرك، ومن تَزوجت زانيا أو مشركا فهي الزانية أو المشركة. فهذا نهي للرجال ونهي للنساء. ولهذا[5] جاء من الطرفين وقد كان يغني ذكرُ أحدهما لو كان المراد غير ذلك. وهذه ترجمة لقوله: ٱلۡخَبِيثَـٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ،[6] الآية.

واعلم أن لفظ النكاح ههنا أراد به الزواج سواء كان بوطء أو بغير وطء، بل العقدَ الذي يبيح الوطء، وإن كانا مُزَوَّجَين. فمتى اطّلع أحدُهما على الآخر بما لا ريب فيه من الزنى حرُم عليه ووجب اللعان أو الجَلْد ثم التوبة. فإن استمر أحدهما على الفاحشة فهو حرام على صاحبه. ولمّا كان الوطء قد يكون بغير نكاح كملكِ اليمين عُبّر بلفظ النكاح الذي يدل على الزواج[7] ويلزم عنه إباحةُ الوطء. ولو ذكر الوطء

---

[1] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: حِزقِيال ٢٣/٤٣-٤٩.

[2] ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَـٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾ (سورة النساء، ١٦/٤).

[3] ﴿وَٱلَّـٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ (سورة النساء، ١٥/٤).

[4] ش ك - هذا.

[5] ر ش: لهذا.

[6] الآية ٢٦ من هذه السورة.

[7] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ٣٣ من هذه السورة.

أو مثله كالجماع أو المسّ أو المباشرة كنايةً عن نفس الفعل لم يُفهم عنه الزواجُ. وأما ما ذكره فالمفهوم منه أنه لو تزوجها ولم يطأها لَما جاز ذلك إذا كانت زانية. وكذلك لا يجوز وطء أَمة بملك اليمين معروفةٍ بالزنى، كإماء العرب والمُرصِدات للنسل من البِغاء كما سيأتي / في الفَتيات. وكل ذلك معلوم من قوله: **الزاني لا ينكح إلا زانية**، [٢٩٣و] الآية. فحُرّم الوطء لتحريم النكاح، وحرّم كلُّ واحد منهما بمفرده. فقد علمت أن مراد الآية تحريم زَواج الزاني أو الزانية[١] مضافا إلى بقية ما تضمنته مما بيناه.

فقوله: **الزاني لا ينكح إلا زانية**، معارَض بأنه قد يَنكح غيرَ زانية، لكنه لمّا لم يجز لغير الزانية أن ينكحها زانٍ لزم أن الزاني لا ينكح إلا زانية، وهو دقيق، فافهمه. وإذا أردت بيانه فافهمه مما بعده، وهو قوله: **والزانية لا ينكحها**، أي لا يستحل أن ينكحها إلا زانٍ أو مشرك. ثم قال: **وحُرّم ذٰلك على المؤمنين**. فإذا فهمتَ الزاني مع المشرك والزانيةَ مع المشركة ونظرت في قوله: وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ[٢] الآية انحلّ الإشكال. وتلخيصه أن قوله: **الزاني لا ينكح إلا زانية**، نهي للمرأة، وقولَه: **والزانية لا ينكحها إلا زان**، نهي للرجل، وكلاهما نُهيا بطريق الإخبار. ولم يُرِد أن الزانية إذا تابت لا يجوز تزويجها، أو أن الزاني[٣] إذا تاب لا يجوز للمؤمنة أن تكون له زوجة. وذلك أنه ههنا قد أقام الزاني مقام المشرك. ثم قال: **وحرم ذٰلك على المؤمنين**، فعلِمنا أن الإشارة بقوله: **وحرم ذٰلك**، هو إلى قوله: وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ. ولهذا لم يقل ههنا: وحَرَامٌ هذا، بل **وحُرم ذٰلك**. وفهمنا من قوله: حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ، أنه بعد التوبة أو الإيمان يجوز نكاح المشرك والمشركة، وكذلك بالزاني والزانية.

فإن قيل: مِن أين تتحقق[٤] توبة الزاني؟ قلنا: ذلك إلى الله كما أنّا لا نعلم يقين المشرك إذا آمن وأمرُهما إلى الله، ونحن قلنا ما ظهر.

ثم عرّفَنا في ضمن هذا الكلام أمورا كثيرة. منها عظم إثم الزنى لكونه قرَنه بالشرك، ومنها أنه حرَّم وطء الزاني وإن لم يكن بنكاح، ومنها أنه حرَّم نكاحَ الزاني بوطء أو بغير[٥] وطء، ومنها أنه أباح زواجهما مع التوبة، أعني الزانية والزاني. فبين لنا أمرا ونهيا وتحريما وتحليلا وإخبارا وغيرَ ذلك.

---

[١] ر: والزانية.
[٢] سورة البقرة، ٢/٢٢١.
[٣] ش ك: وأن الزاني.
[٤] ش ك: يتحقق.
[٥] ر: وبغير.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾

والذين يرمون المحصنٰت، بالزنى. والكلام ههنا للمؤمنين والمؤمنات. وإنما قال: **يرمون**، تشبيها لمن يرمي خصمه بسهم أو حجر. **ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمٰنين جلدة ولا تقبلوا لهم شهٰدة أبدا. وأولٰئك**، الذين يرمون بالفسق والشهداءُ أقل من الأربعة، **هم الفٰسقون**، دون الذين قُذِفوا، **إلا الذين تابوا من بعد ذٰلك**، عن رمي المحصنات وعن الشهادة عليهن إذا لم يأتوا بأربعة شهداء؛ وقوله: **وأصلحوا**؛ يفهم منه ولم يعودوا، ويُفهَم منه أصلحوا ما أفسدوه من القلوب بذلك الرمي. ولا يلزم أنهم يكذِّبون أنفسَهم عند أنفسهم، فذلك مستحيل بل يجهَدون في الإصلاح المتعلِّقِ[1] بأنفسهم وبغيرهم. **فإن الله غفور رحيم**. وهذا الجَلْد للشهداء يقتضي أن يمتنع الشهداءُ من الشهادة ما لم يكونوا أربعة. وأبلغُ من الجلد[2] قولُه: **ولا تقبلوا لهم شهٰدة أبدا**، لأن القاذف قد يُقدِم على الجلد ولا يقدم على أن لا تُقبَل له شهادة أبدا ما لم يتب فيلتجئ إلى التوبة، وهذا فائدة قوله: **أبدا**.[3]

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧﴾

والذين يرمون أزوٰجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهٰدة أحدهم، تقديره أن يشهد **أربع شهٰدٰت بالله**، بفتح العين، وإلا يظهر من القول مع رفع / العين[4] أن الشهادة تقوم مقام أربع شهاداته بالله، **إنه لمن الصٰدقين**. وهو أن يقول: أُشْهِدُ[5] اللهَ واللهِ إني لمن الصادقين، أو مثل ذلك ليجمع بين الشهادة والقسم، يكرِّر ذلك أربع مرات كما يقوِّله[6] الحاكم. **والخٰمسةُ أن لعنت الله عليه إن كان من الكٰذبين**، فإذا قال ذلك وجب أن تُجلد المرأةُ. [٢٩٣ظ]

[1] ش: المعلق.
[2] ر ك: من الجلدة.
[3] ر – لأن القاذف قد يقدم على الجلد ولا يقدم على أن لا تقبل له شهادة أبدا ما لم يتب فيلتجئ إلى التوبة وهذا فائدة قوله أبدا، صح هـ.
[4] قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف برفع العين، والباقون بنصبها (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٤٠٨).
[5] ش ك: اشهدوا.
[6] ش ك: كما يقول.

﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩﴾

ويدرؤا، يدفع، **عنها العذاب أن تشهد أربع شهٰدٰت بالله إنه لمن الكٰذبين. والخٰمسة أن غضب الله عليها إن كان من الصٰدقين**. وأما أن يفرّق بينهما بعد هذا فلا يظهر ذلك من هذا النص إلا إذا شهد الشهداء الأربعة أو أقرّتْ بحيث يَثبت الحد. فأما ما لم يَثبت حدٌّ فلا فراقَ، بل إن أراد الزوج [أن] يطلّقها فله ذلك من بعدُ كما له من قبل، وليس لها أن ترمي الزوج كما له أن يرميها، لأن الله تعالى لم يبين ذلك لها. فافهم ذلك من النص. وإن كانت حاملا أُلحق الولد بالزوج ما لم يجب الحد، ولا يكون على الولد إثم أو ذنب لم يجترحه. ومتى وجب عليها حد حرم عليه تزويجها، أعني البقاء معها، ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾،[١] إذ لو استمر معها لكان هو الزاني بها أيضا إلا إذا تابت فإن الله يقبل التوبة، ويجب الحد سواء كان قبل التوبة أو بعدها. هذا ما فهمتُه من النص، والله أعلم بكلامه.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠﴾

ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم، تقديره لاستأصلكم بعذاب من عنده، أو ما هذا معناه. قال الشاعر:

وأقسم لو شخصٌ أتانا رسولُه سواك ولكن لم نجد لك مَدفعا.[٢]

أي لرددناه.[٣]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾

ثم قال: **إن الذين جاءو بالإفك عصبة**، تقديره هم عصبة، **منكم، لا تحسبوه شرا لكم، بل هو خير لكم**، أي عند الله، لأنه يريد[٤] الحسنات لكم. ثم قال: **لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم**، أي بما قاله زُورا وإفكا. **والذى تولىٰ كبره**، في كِبْرِه باقيا عليه ولم يتب،

---

١ الآية ٣ من هذه السورة.
٢ البيت لامرئ القيس. انظر: معاني القرآن لأبي جعفر النحاس، ١٥٨/٦؛ وزاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٨٧/٤؛ واللباب لابن عادل، ٣/١٤١.
٣ ش ك: رددناه.
٤ ر: لأنه يزيد.

منهم له عذاب عظيم، هذا وإن كان مخصَّصا بقضية جرت، ففيه الإطلاق الذي يعم مثلَها. فالقصة المخصَّصة يجعلها الله مَثَلا نفهم به مِثْله فيكون إخبارا في قوة النهي أو الأمر لِنَتَنَبّه لمثله في المستقبل دائما.

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾

لولا إذ سمعتموه، أي في حين سمعتموه[1] لا بعده، والمسموع الإفك، **ظن المؤمنون والمؤمنٰت بأنفسهم خيرا**، أي ببعضهم، لقوله: وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ؛[2] **وقالوا هٰذا إفك مبين**. ومن تمام القول: **لولا جاءو عليه بأربعة شهداء، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولٰئك عند الله هم الكٰذبون**.

إن قيل: قد يكون الشهداء أقل من أربعة وهم صادقون وإن لم يُقبل قولهم؟ فالجواب أنه تعالى لما فرض أولا جَلْدهم وأثبت فسقهم أبدا ما لم يتوبوا كان حكمُ ما دون الأربعة عنده كذلك دائما، فجاءت هذه الآية الثانية مخبِرة عما هو عند الله من الحكم[3] في الآية الأولى. فهذه تعليم لنا بما يجب أن نقوله[4] ليكون ما دون الأربعة عندنا كما هو عند الله فنحكمَ بحكمه فيهم.

ثم بيّن فيما سيأتي[5] أنه إنما حكم بذلك وشرعه فضلا منه وأنه يزكي من يشاء، وذلك لحكمة هو أعلم بها، إذ لولا ذلك الحكم لَمَا زكى أحد. ففسّق القليل من الشهداء مع جواز صدقهم[6] حينا مّا لَيزكّي الكثير من المؤمنين مع احتمال[7] فسق قليل منهم حينا مّا. وهذا أعظم الفضل والرحمة، وبه ينعقد الحياء من الله في صدر المؤمن مضافا إلى حِكَم أُخَر يفقهها المتفطّن، كإزالة الشَّحْناء[8] التي توجب / القتالَ فتُذهب الأرواح والأموال. ومن دقّق الفكر وردّد النظر في آيات هذا الفصل رأى من تكرار ذكر الفضل أفضل موجِب وأعجبَ مُعجبٍ يُحقِّق[9] للقرآن برهانا ويزيد المؤمنَ إيقانا وإيمانا.[10] [٢٩٤و]

١ ش – أي في حين سمعتموه.

٢ ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٦١).

٣ ر: عما هو من الحكم عند الله.

٤ ش: بما يجب أن نقول له؛ ر: مما أن نقوله.

٥ انظر الآية ٢١ من هذه السورة.

٦ جميع النسخ: صدقه.

٧ ر: مع جواز.

٨ الشَّحْناء: الحقد والعداوة (لسان العرب، «شحن»).

٩ ر: أفضل لموجب وأعجب لمعجب تحقق.

١٠ ش ك: المؤمن إيمانا.

والكذب لا[١] يعود إلى الشهداء خاصة إذا كانوا أقلّ من أربعة بل على العُصْبة، ومنهم الشهداء. فنهى الله سبحانه أن يُقبل قولهم ولو كانوا عصبة إلا بأربعة شهداء.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة، الرحمة والفضل في كل منهما، **لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم**، تقديره أيضا في كل منهما. فقدم قوله: **فى الدنيا والآخرة**، للوِزان وليُفهم أن الفضل فيهما أيضا.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

إذ تلقونه بألسنتكم. التلقي أن تَسمع كلام صاحبك إذا[٢] ألقى إليك القول. وقوله: **بألسنتكم**، أي أقوالا فقط من غير أن تُحقِّقوها.[٣] لهذا بعده: **وتقولون بأفواهكم**، أي من غير أن يكون لذلك صحة. و[قال] مثل هذا عن النصارى: ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ.[٤] ولهذا بيّنه ههنا بقوله: **ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم**.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

ثم عطف على مثله: **ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهٰذا سبحٰنك هٰذا بهتٰن عظيم**.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

---

[١] ر – إن قيل قد يكون الشهداء أقل من أربعة وهم صادقون وإن لم يقبل قولهم فالجواب... ومن دقق الفكر وردد النظر في آيات هذا الفصل رأى من تكرار ذكر الفصل موجب وأعجب تحقق للقرآن برهانا ويزيد المؤمن إيمانا والكذب لا، صح هـ.

[٢] ر: إذ.

[٣] ش ك: من غير أن ما يحققها؛ ر: من غير ما يحققها.

[٤] ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (سورة التوبة، ٣٠/٩).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

ثم قال عن تلك الواقعة وعن أمثالها دائما: **إن الذين يحبون أن تشيع الفٰحشة فى الذين ءامنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة. والله يعلم وأنتم لا تعلمون**. ويُفهَم من هذا أن لو وقعت فاحشة لا ينبغي للمؤمن أن يُحِبَّ إشاعتَها.[1]

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

ولمّا كان هذا الوصف وما قبله من خطوات الشيطان قال تعالى: **يٰأيها الذين ءامنوا لا تتبعوا خطوٰت الشيطٰن، ومن يتبع خطوٰت الشيطٰن**، تقديره فله جهنم. ثم وصف الشيطان بما يَظهر من متبعيه[2] ليُشعر أن مُتَّبِعه أيضا شيطان من شياطين الإنس. ولهذا جاء الكلام بصورة يحتمل أن تكون وصفا للتابع والمتبوع معا فقال: **فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر**. وهذا التعريف لنا ههنا بحال الشيطان وما يأمر به هو نهيٌ لمن يعمل الفواحش وعن كل ما يُنكَر من محبة الفاحشة، أو محبة إشاعتها وغيرِ ذلك. ولهذا جاء الكلام مطلقا بقوله: **يٰأيها الذين ءامنوا... ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا ولٰكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم**.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

ولا يأتل، من الإلية وهي القسَم، والأولى أنه من الامتناع لا من الإلية،[3] ولهذا لم يقل: ولا يَتَألَّ. وهذا كقوله: لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا.[4] فقال: ولا يمتنعْ، **أولوا الفضل منكم والسعة**، لبُخلٍ أو هوًى، **أن يؤتوا أولى القربىٰ والمسٰكين والمهٰجرين فى سبيل الله**، أو لذنب صدر منهم إلى أُولي السعة. لهذا قال: **وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم**،

---

[1] ش ك – ويفهم من هذا أن لو وقعت فاحشة لا ينبغي للمؤمن أن يحب إشاعتها.

[2] ر: من متبعه.

[3] ش ك: الامتناع لأن من الإلية.

[4] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ (سورة آل عمران، ١١٨/٣).

والله غفور رحيم. فأتبعه[١] سبحانه ذكر هذه الآية ههنا في وسط الكلام إشعارا بأن أُولي القربى والمذكورين إذا قذفوكم لا تؤاخذوهم ولا تمنعوا بِرّكم عنهم لأجل ذلك، وهو عامّ أيضا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾

إن الذين يرمون المحصنٰت، اكتفى بذكرهن عن ذكر المحصَنين، ودل على ذلك بقوله بعد: أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ،[٢] ولم يقل: مُبَرّآت. والحصانة تكون بالأهل والبعل. وقوله: **الغُفلات**، أي عما قيل فيهن، **المؤمنٰت**، أخبر الله عن فاعلي[٣] ذلك أنهم، **لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم**.

﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ / وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [٢٩٤ظ]

﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾

يومئذ يوفيهم الله دينهم، جزاءهم، **الحق**، بالحق. **ويعلمون أن الله هو الحق المبين**.

﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٢٦﴾

ثم قال ما تقديره: إنما، **الخبيثٰت للخبيثين**، أزواج، وهذا يمنع ما يَدعيه أصحاب البدع في عائشة رضي الله عنها. فإن احتجوا بزوجة نوح فتلك أخبر الله عنها، وهؤلاء بَرّأهن الله ومدحهُنّ. **والخبيثون للخبيثٰت والطيبٰت للطيبين والطيبون للطيبٰت**. وهذا الكلام وإن اختص بالنساء والرجال[٤] فتدخل فيه الأقوال، لقوله: وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ.[٥] ووجه التكرار معلوم من قوله: ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ، ولو قال أحدَ اللفظين لكان الكلام يتعلق بالمذكور دون الآخر، فأراد الله أن يأمر الرجل أن يتجنب المرأة الزانية ويأمرَ المرأة أن تتجنب[٦] الرجل الزاني، واستغنى بقوله:

١ ر: فاتبعوه.

٢ الآية ٢٦ من هذه السورة.

٣ ش ك: عن فاعل.

٤ ر: بالرجال والنساء.

٥ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٢٦).

٦ ك: أن يتجنب.

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾،[1] عن قوله: وعلى المؤمنات، فهو كقول الشاعر:

فلم تك تصلح إلا له   ولم يك يصلح إلا لها.[2]

ولم يستغن بأحد القولين عن الآخر،[3] لأنه لا يعطي معنى القولين.

أولٰئك مبرءون مما يقولون، **لهم مغفرة**، تُغفر ذنوبهم السالفة بما قيل فيهم من **الإفك**، **ورزق كريم**.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يٰأيها الذين ءامنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتىٰ، إلى أن،[4] **تستأنسوا**، من الأُنس، ومنه الإنس لأنهم يأنسون ويُؤْنَسون، **وتسلموا علىٰ أهلها**، ذكر السلام قبل الدخول احتفالا واهتماما به. وههنا فرض السلامَ من المؤمن[5] أن يسلم على المؤمن والكافر في هذه الصورة، وهو حين مفاجأة أحدِ أهل البيوت. **ذٰلكم خير لكم لعلكم تذكرون**، أنكم[6] لا تُحبون أن يَهجُم أحد على بيوتكم فلا تهجُمون على بيتِ أحدٍ.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتىٰ يؤذن لكم. وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا، ممن[7] ليس فيها أو إن كان فيها قائل. **هو أزكىٰ لكم والله بما تعملون عليم**. وهذا تصريح بتحريم ما يفعله الولاة وأمثالهم من كَبْس[8] البيوت إذا توهموا فيها منكَرا، يزعمون أن مرادهم النهي عن المنكر بذلك، ونهيُهم لأنفسهم أولى بهم. وفي قوله: **والله بما تعملون عليم**، إشارة إلى أرباب البيوت أيضا، أي إن الله مطلع عليكم إن كنتم على فاحشة فاستحيوا منه قبل الناس. والقول يختص بالداخلين إشارةً إلى أنه تعالى عليم ولكنه ستّار. فافعلوا مع الناس ما فعله معكم.

---

[1] الآية ٣ من هذه السورة.

[2] صبح الأعشى للقلقشندي، ٢/٢١١؛ ونَفْحُ الطِّيب لأحمد التلمساني، ٢/٣٦٢.

[3] ر: على الآخر.

[4] ك - إلى أن، صح هـ.

[5] ر: من المؤمنين.

[6] ر ك: أنهم.

[7] ش ك: من.

[8] ش ك: من كسر. | كبَس البئرَ والنهرَ يَكْبِسهما كَبْسا: ردَمهما (تاج العروس للزبيدي، «كبس»).

﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾

المتاعُ كل ما يُتمتع به. ولمّا كان الداخل إنما يدخل إلى بيت غير مسكون لأجل متاع له فيه، وقد يُظهر ذلك ويكون دخوله لغيره، قال الله تعالى: **والله يعلم ما تبدون وما تكتمون.**

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠﴾

ثم قال قولا عاما: **قل للمؤمنين يغضوا من أبصٰرهم،** ما أمرناهم[١] بغَضِّ البصر فيه، ومن نظر نظرة بغير الله لم ينظر الله إليه فيها، فلا تقل:[٢] الغير عدوي وأنت عدو نفسك. وقولنا: "بغير الله"، أي لا على وفق الأمر. فالناظر بأمر الله ناظر بالله، وهو الذي زكّى نفسَه، وضده هو الذي دسّاها.[٣] **ويحفظوا فروجهم ذٰلك أزكى لهم، إن الله خبير بما يصنعون.**

﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾

وقل للمؤمنٰت يغضضن من أبصٰرهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، بغير قصد منهن، **وليضربن بخمرهن علىٰ جيوبهن،** هذا أمر بالنقاب، فإن المرأة إذا تخمّرت بالخمار وضعت خرقة من تحت العينين فوق الأنف. ولولا أنّ كشف العينين ضروري لوجب سترُهما[٤] من النساء، لأنهما أفتكُ شيء بالرجال ولأن الله تعالى أمرهن بضرب الخمار. وأصل اللفظة من قولهم: خَمِر فلانٌ عنّي، بكسر الميم،

---

١ ش ك – هم.

٢ ش ك: فلا يقل.

٣ ش: دسها. | لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (سورة الشمس، ٩١/٩-١٠).

٤ ك: سترها.

[٢٩٥و] يخمر[1] بالفتح خَمرا محرك الميم، أي توارى واستتر. وخمر فلان شهادته سترها / بمعنى كتمها فلم يُبد منها شيئا. وقد علمت أن التخمير هو التغطية. يقال: خَمِّرْ إنَاكَ. وقال عليه السلام: «هلا خمّرتَه وعارضتَ عليه عُودا».[2] وقوله: **على جيوبهن**، أمرٌ للمرأة أن يكون الحجاب الذي تحتجب به مُسْبَلا على الجيب الذي لثوبها، بحيث يكون ساترا للوجه والرقبة وما عسى أن يظهر من الصدر وهو ما فوق جيب المرأة من زِيق ثوبها،[3] لأن الجيب يكون بين الثديين. وليس المراد ستر الجيب فقط، بل أمر الله بضرب الخمار من حدِّ العينين إلى فوق الجيب. وهذا معلوم من [قوله:] **ولا يبدين زينتهن**، وليس الجيب مَحلَّ الزينة، بل المراد بأن ما به يُستر محلُّ الزينة يكون مضروبا أيضا على الجيب، إذ الخمار ليس للجيب. وقوله ثانيا: **ولا يبدين زينتهن**، أي عن قصد منهن.

ويجب أن تعلم أن المحاسن كلَّها هي من جملة الزينة، وافهم ذلك من قوله: **وليضربن بخمرهن على جيوبهن**، وليس ما تحت الجيوب محلَّ زينة فإنما[4] هو محل فتنة بالمحاسن فيجب سَترُ الوجه والمحاسن وسائر مواضع الفِتَن. **إلا لبعولتهن أو ءابائهن أو ءاباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوٰنهن أو بنى إخوٰنهن أو بنى أخوٰتهن أو نسائهن**، وهو مذهب الشافعي وأضافهن إليهن؛ كما تقول المرأة عن المرأة:[5] هذه من نسائنا، والرجل عن الرجل: هذا من رجالنا. وهو إشارة إلى النساء المؤمنات دون الكافرات. ثم أتبع ذلك بقوله: **أو ما ملكت أيمٰنهن**، المراد أيمان نسائهن من الإماء دون[6] الكافرات، أو من غير أولى الإربة من سائر الرجال. **أو التّبعين**، واستثنى من ملك اليمين ومن التابعين، **غير أولى الإِرْبَةِ من الرجال**. ولما قال: **غير أولى الإِرْبَةِ من الرجال**، أي التابعين وكانت التابعات، أعني غير المسلمات ولا الجواري ليس لهن إربة الرجال لم يحتج أن يذكرهن، فهن كالجواري دون غيرهن من الكافرات. ثم إنه اكتفى أولا بقوله: **أو نسائهن**، فدخلن التابعات في ذلك. وأما قوله: **أو ما ملكت أيمٰنهن**، فالمراد به أيمان النساء المؤمنات، وهذا فائدة قوله: **أو نسائهن**.

---

[1] ش: تخمر.

[2] عن جابر بن عبد الله يقول: أخبرني أبو حميد الساعدي قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بقَدَح لبنٍ من النقيع ليس مخمَّرا، فقال: ألا خمرته ولو تعرض عليه عودا (صحيح مسلم، الأشربة ٩٣).

[3] الزيق: ما يُكَفُّ به جيب القميص. يقال: عَمِل للجيب زيقا: خاطه به لتقويته (المعجم الوسيط، «زيق»).

[4] ش: وإنما.

[5] ر - عن المرأة.

[6] ش ك - دون.

فإنه لو أسقطها لكان المفهوم جوازَ إبداء الزينة من المؤمنين لجاريتها دون جارية الأخرى. فلمّا قال: **أو نسائهن**، ثم قال: **أو ما ملكت أيمٰنهن**، عاد ذكْرُ الأيمان إلى سائر النساء ليجوز إظهارُ الزينة من المؤمنة لجارية الأخرى، والله أعلم.

وغير أولى الإربة هم المشايخ الذين لم يبْقَ لهم إربٌ في النساء على شرط[1] أن يكونوا من جملة التابعين، أعني تابعي[2] المذكورين والمذكورات في النسب، أو كالخادم والبوّاب وما شاكل ذلك إذا كان قد بلغ من الكبر إلى حدّ لم يبق له إربةٌ في النساء. وقوله: **إربة**، يدل على إرب مّا يطلبه الرجلُ من المرأة كالنكاح وما يتعلق به مما دونه كائنا ما كان. ولهذا لم يقل: إرب بل إربة واحدة. ثم قال بعده ما يشبهه في الطرف الآخر من الصغر لنعرف به مثله ممن طعن في الكبر وذلك قوله: **أو الطفل**، وبيّن الطفل بقوله: **الذين لم يظهروا علىٰ عورٰت النساء**. وقوله: **لم يَظْهَروا**، هو معلوم من قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾،[3] أي قادرين مستولين. يقال: ظهر فلان على خصمه إذا غلبه. ولم يقل: أو الطفلِ الذي لم يظهر بل، **الذين لم يظهروا**، فأشار إلى، **غير أولى الإربة**، من الرجال أو الطفل، وحدّ حدّا يُفهم به النهي. فمتى جاز أن يظهر عليها لا جائز أن / تظهر له. [٢٩٥ظ]

ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، كالقِبْقاب[4] المُقرَقَش[5] والخلخال. وإنما ذكر ذلك نهيا لهن عن التنبيه للرجال[6] على علم ما أَخْفينه، فكيف رؤيته[7] وكيف رؤية المزيَّن بهن،[8] هذا وهو في الأرجل،[9] فكيف غير ذلك، فافهم وفهِّمْهن. **وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون**، يعمّ النساء والرجال، **لعلكم تفلحون**.

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٣٢﴾

وأنكحوا، وزوِّجوا، **الأيمىٰ**، الأيّم التي مات بعلُها في أكثر الأمر. ويقال أيضا: لفظ الأيامى عن الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء، وهو المراد ههنا. ويقال للحيّة أيّم،

---

١ ش ك: على شرطه.

٢ ش ك: تابع.

٣ ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ (سورة الصف، ٦١/١٤).

٤ القبقاب: النعل المتخذة من خشب (لسان العرب، «قبقب»).

٥ المقرقش: لعل معناه القَضيم. وهو الجلد الأبيض/ الرَّقّ الأبيض. وقيل: هو الأديم (لسان العرب، «قضم»).

٦ ش ك: الرجال.

٧ ش - فكيف رؤيته.

٨ ش ك: به.

٩ ش: في الأحل.

لأنها لا تكاد توجد في جُحُرها[1] إلا وحدها. فأمر بتزويج الرجال والنساء، **منكم والصّٰلحين**، لا غير الصالحين، **من عبادكم وإمائكم**، بعض ببعض أو بالأحرار، فافهم ذلك. فقد علمت أنه يقال: رجل أيِّم سواء كان تزوج من قبل أو لم يتزوج، وامرأة أيِّم أيضا بكرا كانت أو ثيبا.[2] والعباد كلّ من يخدم من الأبيض والأسود، على أن العبد ضدُّ الحرّ، والجمع عبيد لكنه جمعٌ عزيز،[3] ويقال: أَعْبُد وعُبّاد وعُبْدان بالضم مثل تَمر وتُمران،[4] وعِبدان بالكسر مثل جِحْشان وعِبِدّان مشددةُ الدال وعِبِدّاء يُمدُّ ويُقْصر ومعبوداء وعُبُد مثل سُقُف. **إن يكونوا فقراء**، من المال، **يغنهم الله من فضله. والله وٰسع عليم**.

﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾

وقوله: **وليستعفف الذين لا يجدون**، أي لا يجدون لفقرهم، أمَرهم بالاستعفاف، **نكاحا**، أي عن النكاح. ولهذا بعده: **حتىٰ يغنيهم الله من فضله**، بمعنى إلى أن يقع الغنى، ولم يقل: بفضله، أو بقدرته، أو برحمته، أو مثل ذلك لئلا يَظن مَن لا يَفهم الكلام أن المعنى في قوله تعالى: **حتى**، لكي[5] يغنيهم الله عن النكاح بفضله. ولهذا لم يقل: لا يجدون منكوحا، أو[6] ما يَنكحون، أو مثل ذلك. ثم لو قال مثلَ ذلك تغيَّر المقصود، إذ المقصود هو الأمر بالاستعفاف لمن لا يجد ما به ينكح مع وِجْدانه ما ينكح. فكأنه قال: وليستعفف نكاحا، أي عن نكاح الذين لا يجدون قدرة بالمال عليه. والمعنى أنه تعالى لمّا أمر المؤمنين بقوله: وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ،[7] عرّفَنا أنهم إن يكونوا فقراء من المال يغنيهم الله من فضله. فهذا التعريف هو للمؤمنين الحاكمين على الزوجات لئلا يقع منهم الامتناعُ من تزويج الفقراء

[1] ش ك: في حجرها.
[2] ر: وثيبا.
[3] أي نادر الاستعمال.
[4] ش ك: وتمرات.
[5] ش ك: لكم.
[6] ر: أم.
[7] من الآية السابقة.

إذا قصد الفقراء التزويج. ثم خاطب الفقراء بعد ذلك بقوله: **وليستعفف**، أي ذلك أولى بهم. فالمراد أن من الفقراء المذكورين من لا يجد لفرط فقره سبيلا إلى الزَّواج لا أنه لا يجد في مزاجه داعيةَ ذلك، أو لا[1] يجد في نفسه طلب النكاح[2] أو ضرورة إليه. فذلك عفيف بغير قصد منه ومن غير أن يؤمَر بذلك. وكذلك إن لم يجد منكوحة فلا حيلة له ولو كان غنيا بالمال، فافهم.

فمراد الآية أن هذا فقير كما تقدم أوّلا، فأمره بالاستعفاف عن الزَّواج إلى أن يجد المال ويغنيَه الله من فضله عن فضل أستاذه وغيره. فالأول أمرٌ لنا[3] أن لا نمتنع من تزويج الفقراء، والثاني أمر للفقراء بالاستعفاف إلى حين اليسر فلا تناقضَ. وليس المقصود أن يستعفف عن الحرام، فالحرام حرام، والسلام. فقِف وافهم ولا تعدل إلى هوى بغير علم ولا هدى.[4] ولو قلنا: إن قوله: **نكاحا**، هي بمعنى منكوحة كما تقول لِما يلُتحف به: لحافا[5] ولِما يُرتدى به رداء لكان المعنى وليستعفف عن النكاح الذين لا يجدون منكوحة لفقرهم لا لعدمها. / لهذا بعده: **والذين يبتغون** [٢٩٦و]
الكتٰب، وهذا يجب أن تفهمه جيدا، وهو أنه يحتمل أن يكون المراد بالكتاب ههنا ما كتبه الله لهم في علمه الأزل مما ملكت أيمانُ المؤمنين بمعنى يبتغون ما في الكتاب المبين كما تقول: أبتغي ما قسم الله لي، لأن ذلك قد كتبه الله لهم وإن كنا لا نعلم به إلا بعد وقوعه. ويحتمل ما في هذا الكتاب، أعني القرآن وهو قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾،[6] الآية. ويحتمل ما معناه والذين يبتغون زواجا بالكتاب بمعنى زواجا بكتابة، **مما ملكت أيمٰنكم**، من النساء الفتيات المؤمنات. وهذا أولى الصور لقوله بعده: **فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا**، وتفسير الخيرِ الخيرُ لا غير، فلا تُصْغِ إلى ما قيل بغير دليل. ولهذا لم يقل: "منهم"، أو "عنهم"، أو "لهم" حتى يكون تفسيره مالا أو غيره كما قيل. والمعنى إن علمتم فيهم[7] لأنفسهم خيرا؛ وتقول[8] في ضده: هذا رجل، أو عبد ما فيه خير، وتقول في آخر: هذا رجل خَيِّرٌ، فافهم الأقرب وذَرِ الأبعد.

---

[1] ك: أولى.

[2] ر: طلبا لنكاح.

[3] ش: أمرنا.

[4] لعل المفسر يشير هنا إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ (سورة الحج، ٢٢/٨؛ وسورة لقمان، ٣١/٢٠).

[5] ر ك: به لحفا.

[6] ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ (سورة النساء، ٤/٢٥).

[7] ر: فيه.

[8] ش: ونقول.

فمفهوم هذا اللفظ ههنا هذا،[1] والله أعلم. **والذين يبتغون الكتٰب**، أي يبتغون الزواجَ بكتاب، **مما ملكت أيمٰنكم**، من الفتيات إذ لم يكن لهم ما يتزوجون به حرةً ولا صَداقَ أَمَةٍ، فهم بهذه المثابة من الفقر،[2] ولا قدرة لهم على الاستعفاف، وقد خافوا العنت. فهذه الآية فيها أمر لنا بأن نزوِّجهم مما ملكت أيمانُنا بكتاب فقط. وأما في سورة النساء فالأمر لهم بأن لا يتزوج أحدٌ بالفتيات إلا حين لا يستطيع نكاح الحرائر.[3] ففي [سورة] النور لمّا قال: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾،[4] وأراد الأيامى والصالحين من العباد والإماء ذكر بعدهم الأحرار الفقراء أيضا، وهم الذين ليس لهم جِدَة[5] لفقرهم وأمرهم بالاستعفاف. ثم تُلِيَ ذلك بما يجب علينا أن نعاملهم به ونسلكه معهم إذا لم يجدوا ولم يسْتَعْفِفُوا. ولهذا في سورة النساء ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾،[6] وهو أمر من الله للمتزوجين من الرجال بما ملكت يمين بقية المؤمنين. وههنا فالأمر ليس لهم بل لنا، وهو قوله: **فكاتبوهم**، إن لم يكن لهم ههنا شيء. وكذلك أيضا عَطَف على[7] أمره لنا بقوله: **وءاتوهم**، فهم[8] مكاتَبون منا على الزَّواج بفتياتنا وهم أحرار. ولا تَفهم أنهم مكاتبون منا على مشتري أنفسِهم منا وهم عبيدٌ لنا. وأول الآية وآخرُها في النكاح؛ فلا يحسن أن يكون وسطها خارجا منفردا بحكمٍ آخرَ، إذ ليس هذا من النظم البديع ولا من قصد فضلاءِ المتكلمين، خصوصا[9] وسياق الآية كذلك وسياقها في مثله.

فقوله: **والذين يبتغون الكتٰب**، هو في موضع نصب، لأنه معطوف على المذكورين في أول الآية. وتقدير الكلام: وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم والذين يبتغون الكتاب. ثم قال عن الجميع: **فكاتبوهم**. ولهذا لم يقل كاتبوهم، فافقه فضيلة هذه الفاء التي فصلت بين المكاتبة وبين الذين يبتغون الكتاب، ووصلت بين الذين يبتغون الكتاب[10] وبين مَن قبلهم.[11] فهذا معنى زيادة الفاء.[12]

---

[1] ر – هذا.

[2] ش: من الفقراء.

[3] يقول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ (سورة النساء، ٤/٢٥).

[4] من الآية السابقة.

[5] أي مال وسعة.

[6] ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٍ﴾ (سورة النساء، ٤/٢٥).

[7] ش ك – على.

[8] ر – فهم.

[9] ش ك: وخصوصا.

[10] ر + ووصلت بين الذين يبتغون الكتاب؛ ش + ثم قال عن الجميع.

[11] ش ك – قبلهم.

[12] ر – فقوله والذين يبتغون الكتٰب هو في موضع نصب لأنه معطوف على المذكورين في أول الآية... فهذا معنى زيادة الفاء، صح هـ.

وأما حديث النبي صلى الله عليه وسلم وكلام الفقهاء في أمر العبد المكاتَب فأمر صحيح قائمٌ بنفسه، ولا يؤخذ من هذه الآية. فقوله: **والذين يبتغون الكِتٰب مما ملكت أيمٰنكم**، ليس المقصود به العبد المكاتَب، كما قيل: إنه يشتري نفسه / من سيده [٢٩٦ظ]
وإنه يكاتبه إلى أجل ويصبر عليه. ولا يُفهم ذلك من صريح هذا النص بل بالتأويل والحديث. ونحن لا نعدل عن الصريح إلا لضرورة، وقد انتفت بحمد الله. فالنص لا يدل على ما[1] قيل بصريحه بل يناقضه، وذلك بقوله: **وءاتوهم من مال الله الذى ءاتىٰكم**، فكيف يكون لنا عليهم مالٌ ونؤتيهم مالا. ولهذا قيل[2] في تفسيره: إن سيده يُطلِق له البعضَ، وقيل: الأكثر، وقيل: الكل. وكل هذا غير مفهوم هذا النص. ولو كان مراد الآية ذلك لكان الكلام على وضع بيّن كما جاء في سورة البقرة بقوله عن المديون الفقير: وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ، ثم قال: وَأَن تَصَدَّقُواْ.[3] والكلام ههنا مفهوم على نسق واحد في فن مخصوص، وتحقيقه ظاهر من سورة النساء من قوله: وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم، إلى قوله: بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ،[4] أي ينكح بعضكم من فتيات بعض، لأنه شرط الإيمان. والمؤمنون بعضهم من بعض. فإذا فهمت النص هناك وجئت به إلى ههنا وجدت الإشارةَ ههنا إليه لا غير. وإذا كان قوله: **والذين يبتغون الكتٰب**، قد فُهم منه المكاتبة للعبد[5] بسبب مشتري نفسه فيكاتبه[6] لأجل فقره. فما المانع أن لا يُفهَم منه المكاتبةُ له بعينها بسبب تزويجه فكاتبه[7] لأجل فقره.[8] وقد تقدم، وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ، إلى قوله: إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ،[9] فمثله قوله: **فكاتبوهم**. فإذا فُهم من قوله: **فكاتبوهم**، أن تبيعه[10] نفسه بدَين في كتاب فلِم لا يُفهم من ذلك أن تزوِّجه[11] بدين في كتاب. ثم إن المكاتَب على نفسه لا فرق بينه وبين من يدين منا دَينا، ولا فرق بين أن نبيعه لنفسه أو لغيره بالدَّين. وكما أننا لنا أن نبيعه لغيره بما نختار إن شئنا فكذلك لنا أن نبيعه لنفسه بما نختار إن شئنا.

---

[1] ش ك: على من.

[2] ش: قال.

[3] ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٨٠).

[4] ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ (سورة النساء، ٤/٢٥).

[5] ر: للعبيد.

[6] ر: فنكاته؛ ك: فتكاتبه.

[7] ر: فنكاته.

[8] ش – فما المانع أن لا يفهم منه المكاتبة له بعينها بسبب تزويجه فيكاتبه لأجل فقره، صح هـ.

[9] من الآية السابقة.

[10] ش: أن يبيعه.

[11] ش: أن يزوجه.

ولا حاجة إلى ذكر المكاتب في هذه الآية، إذ حكمه كله داخل في البيع والدَّين، ولم يَظهر لنا من النص ههنا حكمةٌ زائدة على ذلك، ولا اقتضى نظم الكلام إلا ما يتعلق بالزواج والزنى في الأحرار والعبيد ذكورا[1] وإناثا في أكثر أحكام هذه السورة، وخصوصا في هذه الآية بعينها؛ فإنه ذكرهما معا أولا وآخرا.

وقوله: **وءاتوهم من مال الله الذى ءاتىٰكم**، يعطي استمرار الأمر بالإيتاء ما استمرّ الافتقارُ، ولا يعطي إطلاق بعض الدَّين وإن جاز بالتأويل. ولهذا لم يقل: "من مالكم"، لأن ثمن المكاتَب هو مال السيد. والمراد ههنا مال الله، وهو ما جُعل لله[2] كالخُمُس والزكاة، فما جُعل لله فهو مال الله الذي آتانا[3] فجعلناه بأمره له سبحانه. فافهم أنه بيّن الوجه الذي به يتم مرادنا من التكسب بالفتيات. فجعله بصورة جائزة شرعا لئلا نعدل عن الشرع إذا لم نجد فيه وجها يعطينا المراد. فقال ما معناه: زوجوا الفقراء بما ملكت الأيمان من الفتيات يحصل لكم المقصود.

ولا تكرهوا فتيٰتكم على البغاء إن أردن تحصنا، بالزواج، **لتبتغوا**، بإكراههن على البغاء، **عرض الحيوٰة الدنيا**، من الولد والمال. فإن لكم في تزويجهن[4] ولدا[5] وصَداقا، هذا إن أردن التحصن ولم يَكْرَهْنَه، فإن كَرِهْنَه[6] وأكرهتموهن عليه فلا حرج عليكم. وهذا[7] معنى قوله: **ومن يكرههن فإن الله من بعد إكرٰههن غفور رحيم**، له. وليس معنى فقه الآية ما قيل بل افهم ما أفصّله لك، فإن الله تعالى ذكر من التفصيل ما به يُفهَم حكم الجملة. وذلك أنه لا يخلو إما أن نزوِّج[8] عبدا بعبدة، أو حُرّا بحرة، أو عبدا بحرة، أو حرا بعبدة. وهذا كله بعد شرط الإيمان. فالحر بالحرة معلوم الحكم من موضعه، والعبد / بالعبدة كذلك، لكن الولد لسيد العبدة عبدٌ. وأما العبد بالحرة فهذا [٢٩٧و] إنما يزوِّجه سيده ويعطي عنه صداقا إن شاء سيده أن لا يبقي عليه دَينا.

وفي هذه المسألة أجاز أبو حنيفة رضي الله عنه للعبد أن يتزوج حرتين أو عبدتين وهو نصف المباح للحرّ. وأما الشافعي رضي الله عنه فأباح له الأربعَ.[9] وفي هذه المسألة

[1] ر ك: ذكرا.
[2] ش: الله.
[3] ر: أتانا.
[4] ش: في تزوجهن.
[5] ر ك + صالحا.
[6] ش − فإن كرهنه.
[7] ر: فهذا.
[8] ش ك: أن تزوج.
[9] انظر لمعرفة المزيد: الفتاوى الهندية للإمام مولانا الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند الأعلام، ١/ ٣٠٨-٣٠٩.

يجوز للولد أن يبيع أباه في مهر أمه الحرةِ والولدُ حر. ولم يبق من الصوَر المحصورة سوى أن نزوج[١] حرا بعبدة. فبين الله ذلك لنفهم[٢] به الحكم في سواه، وهو قوله: **والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمٰنكم**، كما تقدم. والولد عبد والبغاء ههنا يريد به طلب المرأة للرجل على غير الوجه الشرعي. وقوله: **إن أردن تحصنا**، أي بالزوج فتبقى محصَّنةً حصانةَ البعل.

وقوله: **لتبتغوا عرض الحياة الدنيا**، هذا تعليل لفعلهم، لا أنه شرط لئلا يلزم عنه أنهم إذا[٣] لم[٤] يبتغوا عرض الحياة الدنيا يجوز لهم إكراه الفتيات على البغاء. وكذلك لا تَفهَم من قوله: **إن أردن تحصنا**، أنهن إذا لم يردن تحصنا بالزوج[٥] نكرههن على البغاء، بل على ما لم يردنه وهو التحصن. ولهذا قال: **ومن يكرههن فإن الله من بعد إكرٰههن**، ولم يقل: ومن يكرههن،[٦] **فإن الله غفور رحيم**، لأنه قد كان يدل على أن الله غفور رحيم للسيد بنفس الإكراه، فيكون ذلك الإكراه سببا لمغفرة ذنوب سلفت للسيد، فافهمه جيدا.

وأما قولُ من قال: **فإن الله غفور رحيم**، "لهن" فليس في اللفظ ذلك، ولقد كان قادرا أن يقول: فإن الله لهن غفور رحيم؛ ولا من جهة المعنى أيضا يُحتاج إلى هذا التعريف، لأن النصّ قد بيّن ذلك فيما هو أعظم منه، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾،[٧] والكلام ههنا على المكرِه لها لا عليها، بقي أن تقول: فإن آثرتْ[٨] هي البغاءَ على التحصن.

قلنا: إن فعلتْ ذلك فهو الزنى وتستحق[٩] ما يستحقه الزاني. فاحذر أن تفهم من ذلك أنه لنا أن نبيحهن البغاءَ وعلينا أن لا نكرههن عليه، فإن ذلك محرَّم في أول السورة. فإن قلتَ: فما فائدة[١٠] ذكر الإكراه والإباحة محرَّمةٌ وهي دون الإكراه، فهو لازم عنها؟ قلنا: لمّا كان أحدنا في تزويج الفتيات المملوكات له[١١] بالعبيد أو الأحرار

١ ش ك: أن تزوج.
٢ ش ك: ليفهم.
٣ ر ك: إذ.
٤ ش ك + يبعثوا.
٥ ر – بالزوج، صح هـ.
٦ ش – ولم يقل ومن يكرههن.
٧ ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (سورة النحل، ١٠٦/١٦).
٨ ش ك: فإن أبرت.
٩ ك: ويستحق.
١٠ ش – فائدة.
١١ ر ك – له.

يحصل له نفعٌ وهو المهر والولد قال الله لنا: افعلوا هذا الحلال ولا تكرهوهن على الحرام لأجل عرض الحياة الدنيا، فإن العرض قد حصل حلالا؛ فهو كما تقول: خذ هذا ولا حاجة بك إلى غيره، فلك فيه غنى.

فصار معنى جملة الكلام بمقدره[1] المحذوفِ وما ينضاف إليه من البيان: وزوجوا العُزَّاب[2] من الذكور والإناث منكم أحرارا بأحرار أو بعبيد، وعبيدا بأحرار أو بعبيد، إن كانوا[3] فقراء يغنِهم الله من فضله بالمال الذي يرزقهم. وليستعفف عن الزَّواج الذين لا يجدون المال. وذلك من سائر المذكورين إذا كانوا فقراء إلى أن يغنيهم الله من فضله. والفقراء من الأحرار والعبيد الذين يبتغون زواجا بالكتابة، أي يطلبون أن يتزوجوا مما ملكت أيمانكم من الفتيات، **فكاتبوهم**، على ذلك، **إن علمتم فيهم خيرا**. وذلك لأن ليس لهم شيء إلا[4] الكتابُ الذي يكتبونه على أنفسهم، فكاتبوهم[5] وأَعطُوهم من مال الصدقة والزكاة وكلِّ ما يُطلَق عليه أنه "مال الله"، ولا تحتاجون[6] أن تُكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردْن التزوج.[7] لأن الذي تبتغونه من العَرَض الدنيوي بإكراههن على البغاء[8] / وهو حاصل لكم بهذه الصورة من التزويج إن أردنه، أو بإكراههن على التزويج[9] إن كَرِهْنَه، إذ الإكراه على التزويج[10] أولى من الإكراه على البغاء، فإن الإكراه على البغاء لا يَغفره الله لكم. ومن يكرههن على التزويج، **فإن الله من بعد إكرٰههن غفور رحيم**. [٢٩٧ظ]

فافهم هذا ولا يشتبه عليك كون اللفظ يحتمل محتمَلا آخر، فإن أحد الاحتمالين أولى وهو الأحسن عقلا، فكيف وهو عين الشرع بخلاف غيره. وتلخيصه: ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء بل حصّنوهن إن أردن تحصنا. ثم قال: **ومن يكرههن**، أي على التحصن إذا لم يُرِدْنَه، ولا يكون قوله: **ومن يكرههن**، عائدا على البغاء، فإنه قد قدم "ولا تكرهوا فتيٰتكم على البغاء"، وفرغ القول فلا مغيِّر له. فافهم المعنى من قوله: **إن أردن تحصنا**، قبل قوله: **لتبتغوا**، فإنا قد نُكرههن على التحصن لنبتغي[11] أيضا، فافقه هذا.

---

[1] ش: بمقدرة.

[2] جميع النسخ: العزبان.

[3] ر: إن يكونوا.

[4] ر – إلا.

[5] ر – على ذلك إن علمتم فيهم خيرا وذلك لأن ليس لهم شيء إلا الكتاب الذي يكتبونه على أنفسهم فكاتبوهم، صح هـ.

[6] ش ك: ولا يحتاجون.

[7] ر – التزويج.

[8] ش – إن أردْن التزوج لأن الذي تبتغونه من العرض الدنيوي بإكراههن على البغاء.

[9] ر – التزويج.

[10] ش ك – إن كرهنه إذ الإكراه على التزويج.

[11] ش: لتبتغي؛ ك: ليبتغي

فقد كررته وطولتُه[١] لِما أعلمه؛ ولو أخذت أن أرُدّ على كل قائل أو أبيّنَ لكل سائل لطال[٢] الكتاب وضاع المقصودُ. ولكن من له فهمٌ بلا هوًى ولازم الوقوفَ مع النص وجعل ما قد قلتُه دليلا له[٣] ومنبها لِيَقلّ تعبُه فَهِم من كلام الله ما يغنيه عن كلامي وإن كان التنبيه له بكلامي هذا إذا لم يسأم ويضجر. فلقد بقيتُ في الآية الواحدة شهرا أو أكثر مُفكِّرا حتى يصير الفكر بها مألوكا أي المألوف به.[٤] لو أردتُ أن ألوي عنه إلى آية أخرى لَما أَقدر[٥] بل أُغلَبُ فأفكّر في صلاتي غير عامدٍ وتارة في نومي، وأُحسنُ[٦] الظنَّ بالله وبكلامه فيفتح علي بكرمه. وبعد هذا فلم آمُرْ أحدا بتقليدي فإني غير معصوم من الخطأ. وإنما هذا ما أدّاني إليه اجتهادي، ولم يجز لي كتمانُه ولمن له نظرٌ حَسَن النظرُ فيما جئت به كلِّه من هذه الآية وأمثالها. ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾.[٧]

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيَّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٣٤﴾

ولما تقدم علمُه سبحانه بأن كثيرا من العباد لا يفقهون من كلامه المرادَ أعقبَ ما تقدم ههنا بقوله: **ولقد أنزلنا إليكم ءايٰت مبينٰت**، بفتح الياء[٨] ولم يقل: بينات، فافهم هذه الآية ههنا، **ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين**.

﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾

ولمّا ذكر الآيات والمثلَ ذكر مثلا آخر فقال: **الله نور السمٰوٰت والأرض**. لما كان النور هو الذي به يُهتدى من الظلمات الباطنة والظاهرة، والخيرِ كلُّه في الهدى، وليس لنا اطلاع على ما فوق السماوات ولا ما تحت الأرض قال سبحانه قولا دالا على ما يهدي في السماوات والأرض فسمّى نفسَه باسم صفة من صفاته تقريبا إلى أفهام عباده

[١] شر ك: وطولت.

[٢] ر: أطال.

[٣] ر ك: دليلا عليه.

[٤] ك: الفكر بها مألوكا. وفي هامش ك: أي المألوف.

[٥] ر: لم أقدر.

[٦] ر: أحسن.

[٧] سورة البقرة، ٢/٢١٣؛ والآية ٤٦ من هذه السورة.

[٨] فتح الياء الشامي وحفص والأخوان وخلف، وكسرها غيرهم (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٢٢٣).

كالعليّ والظاهرِ. ولو قال: الله ظهور[1] السماوات والأرض بمعنى مُظهِرهما لجاز. وهذا كما تقول العربُ: فلان جودٌ فلان كَرَمٌ، وكقوله عن القرآن: جَعَلْنَٰهُ نُورًا،[2] لا يريد به ماهية النور وذاته بل وصفه.[3] وكما تقول: فلان هو زادِي بمعنى مزوّدي أو أستغني به عن الزاد. وإذا قلنا: إن المراد بقوله: الله نور السمٰوٰت والأرض، هو بمعنى أنه منوّرهما، فكذلك قولنا: إنه نور الأنوار، أي منوّرها[4] وإن كان بعضها نورا لبعض، وما يُرى ظِلّا لما لا[5] يُرى. فإن ذاته العلية منزهة عما يلج في أفهام البرية. وإنما يقال من باب المثال: إنه لمّا كان الغِنى الأكبر لمن له الخلق والأمر ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ[6] كان متممَ كلِّ تامّ ومنور كل نور. وكانت هدايته السارية في عالم السُّفْل والعلوّ نازلةً منزلة الحياة المرشدة لكل موجود إلى الخير المختص به. وذلك من حين الإبداع الذي هو لا من شيء هبةً من لدنه سبحانه، وهذه الهبة تشهدها العقولُ في كل شيء بحسب خصائص الدرجات ومراتب الموجودات. فإذا ترقَّت العقول / باستقراء هذه الهبة من [٢٩٨و] السفل إلى العلو وصلت[7] إياها فرأت هذه الهبة ظاهرة فيها وعليها مبنى أمرها، إذ لو لا هذه الهداية لَمَا اشتركت بدايةُ العقول في التصور للمعقولات الأوَلِ بلا تعليم، نحوَ إحاطتها بأن الاثنين والاثنين أربعة، وأن الكل أكثر من جزئه. ثم تترقى إلى أن تستروح[8] الطمأنينة عند استيضاحها[9] نتائجَ البراهين من المقدَّمات. ثم تترقى إلى الوحدة في حقيقة معلومة حتى يصير المتعلم والمعلِّم فيها واحدا من حيث التحققُ بعلمها. ثم تترقى بعد ذلك بالشهود إلى المقام المحمود. فمما تَشهده أن أَولى ما سمِّيت به هذه الهدايةُ الساريةُ في الكل، والحياةُ المرشدة في العلو والسفل، نور السمٰوٰت والأرض.

ولمّا جاز أن يقع في بعض الأفهام اشتباه لازمٌ من ظاهر الكلام، لأنه يُعطي أن الله نور أزال الاشتباه ونبّه على أن المراد بهذا الكلام ليس إلا التقريبَ إلى الأفهام فقال: مثل نوره، أي هذا الذي أنارت به السماواتِ والأرض كمشكوٰة، كُوّة لا منفذ لها، فيها مصباح،

[1] ر: ظهر.

[2] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ (سورة الشورى، ٥٢/٤٢).

[3] ش: وصفة.

[4] ر – فكذلك قولنا إنه نور الأنوار أي منورها، صح هـ. | جميع النسخ: منورهما.

[5] ر – لا.

[6] ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (سورة طه، ٥٠/٢٠).

[7] ش + إلى.

[8] ش: أن تتروح.

[9] ش: استضاحها.

لهيب[١] الفتيلة التي يضيء. **المصباح فى زُجاجة**، مثَّل بما نَعرفه. ثم وصفه بأعلى ما نعرفه فقال:[٢] **الزجاجة كأنها كوكب دُرِّيٌّ**، بضم الدال نسبه إلى الدّرّ، ولم يقل: كأنها درة لأن الكوكب أظهر للأعين. ولمّا كان من الكواكب ما تختلف صوره[٣] في البصر من جهة الصفاء والصغر[٤] نسب الكوكب إلى الدرة كما نسب الزجاجة إلى الكوكب. وقوله: **يوقد**، أي المصباح وهو فعلٌ مضارع،[٥] وتقديره: من زيت، ذلك الزيت **من شجرة مبٰركة زيتونة**. وقوله: **لا شرقيةٍ ولا غربية**، يفهم منه أن تلك الشجرة متوسطة بين الطرفين لا تَنال الشمس منها بكونها شرقية ولا تقصُر[٦] عنها بكونها غربية، وهي[٧] غير بارزة للشمس طولَ النهار ولا مستترةٌ عنها كلَّ النهار، بل هي على حدّ من التوسط بحيث ينالها من الشمس والظل ما يُصلح ثمرها إصلاحا هو أتم وأبلغ ما يجب لها. وذلك هو الأفضل، لأن ما هو في المشرق أو المغرب يغلب عليه الحر أو البرد، فلا يكون كما يَنبت فيما بين ذلك. وقوله: **يكاد زيتها يضىء**، لصفائه ولطفه ورِقّته، أي يقارب أن يضيء. **ولو لم تَمْسَسْه نار**، فهو والزجاجة نور، أي إنهما كشيء واحد في النورية، والمصباح نور.

فقوله: **نور علىٰ نور**، تقديره نور المصباح على نور الزيت والزجاجة. فهذا كله كلام عن المثل، والمثل ههنا هو، **نور علىٰ نور**. وهذا الذي هو نور على نور هو مثل نوره سبحانه. فقوله: **يهدى الله لنوره**، بمعنى إلى نوره، **من يشاء**، أي إلى نوره الذي ضَرب له هذا المثل الذي، **هو نور علىٰ نور**. **ويضرب الله الأمثٰل للناس**، تقريبا إلى أفهامهم مع بُعْد المثل من الممثول، لأن المثل لا يُعْلَم. **والله بكل شىء عليم**.

فظاهر المثل قِنديل وباطنُه -والله أعلم- إنسانٌ؛ فالمشكاة قلبه، والزجاجة نفسه، والمصباح عقله، وشجرة الزيتونة جسدُه. ولهذا قال: **لا شرقيةٍ ولا غربية**، أي إن هذه ليست من قبيل شجر الدنيا، إذ لا بد أن تكون كل شجرة إما شرقية وإما غربية. وأما "زيتها" فهو ما اكتسبه العقل من الحكمة، فإن العقل الطبيعي كالسراج والحكمةَ تُمده كالزيت. ولما كان المثل إنما هو لنور الحق سبحانه ولا يُمَثَّل النور إلا بالنور.

---

١ ر: لهب.
٢ ش ك - فقال.
٣ ش: صورة.
٤ ك: والصفر.
٥ جميع النسخ: ماض.
٦ ش ك: ولا يقصر.
٧ ر: فهي.

والنور المعلوم لنا ينقسم إلى قسمين: نور ظاهر كنور السراج والشمس، ونور باطن
[٢٩٨ظ] كالعقل والعلم، وأفضل النورين هو نور الباطن؛ إذ به يُرى كل مرئيّ. / فإذا تمت له الشرائط المذكورة عاد أكرمَ ما خلق الله وأقربَ مصنوعٍ إلى الصانع؛ وبه تجلى الله لرسوله[١] وخاطب أنبياءه، وأظهر حكمه. فهو النور الحقيقي والمثل المعنوي الهادي[٢] إلى النور العلي الإلٰهي. ولهذا[٣] بيّن المثال وصرح بالمقال فقال:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

رجال، ثم وصفهم فقال: **لا تلهيهم تجٰرة ولا بيع عن ذكر الله وإقام**، هو مذكر إقامة، **الصلوٰة وإيتاء الزكوٰة**، **يخافون يوما تتقلب**، ولم يقل: تُقلَّب بل هو من قوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾[٤] وهذا تتقلب، **فيه القلوب والأبصٰر**. فهم يفعلون ذلك، **ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله. والله يرزق من يشاء بغير حساب**، بل تفضلا وابتداء. وهو عائد[٥] على قوله: **ويزيدهم من فضله**، وهي بعد الجزاء. وهذا من باب المحتمل لفظا. وأما حقيقة اللفظ فمعناه أن ما لا ينفد لا يُحسب بحِساب، وهو المراد ههنا.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾

ثم قال يصف ضد هؤلاء المذكورين وبيّن أن ذلك كله من باب الجزاء، فوصف أعمالهم بقوله: **والذين كفروا أعمٰلهم كسراب**، السراب ضد[٦] الشراب، أي أعمالهم التي يعتقدون أنها[٧] طاعات. وقيل: السراب ما ينسرب على الأرض من بخار لطيف عليه

---

[١] ك + تقريبا إلى أفهامهم مع بعد المثل من الممثول لأن المثل لا يعلم... فإذا تمت له الشرائط المذكورة عاد أكرم ما خلق الله وأقرب مصنوع إلى الصانع وبه تجلى الله لرسوله.
[٢] جميع النسخ: المهدي.
[٣] ر – ولهذا.
[٤] سورة الأحزاب، ٦٦/٣٣.
[٥] ش ك – عائد.
[٦] ش: بضد.
[٧] ش – أنها.

شعاع الشمس يشبه أن يكون ماء، والآل[١] مثله مرتفع بين السماء والأرض لا ينسرب على وجهها. وقوله: **بقيعة**، جمع قاعٍ[٢] مثل جار وجِيرة. ولم يقل: "بقاع" لأنها أعمال. فكل عمل منها، **يحسبه**، عاملُه في الدنيا أنه بعد الموت كما يحسب، **الظمئان**، العَطْشانُ السرابَ، **ماءً. حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفٰه حسابه**، مجازيا له. **والله سريع الحساب**، لأنه لا يَحسُب بآلة ولا في زمن.

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾

ولمّا كانت أعمال الكفار تنقسم إلى قسمين ذكر العمل الصالحَ ثم أتبعه بالعمل الطالح، فكأنه قال: إن كان عمل الكافر صالحا فلا يجده شيئا، وإن كان طالحا[٣] فهذا مَثَلُه. فلهذا[٤] قال: إما أن لا يجده شيئا، **أو كظلمٰت**، أي بعضُها فوق بعض، **فى بحر لُجّىّ**، لُجَجِيّ، أي ذي لُجَجٍ لا لُجّةٍ واحدة؛ فإن الماء المجتمع يقال له: بحرٌ. وليس كذلك ما له لجة، فكيف وكل مكان منه لجة. ولُجّ البحر مُعْظَمُه الذي إذا صار الإنسان إليه لا يرى ساحله ولا يُرى[٥] من ساحله. يقال: لجج في البحر بمعنى وغَل، ولجّ في طلب الشيء يَقْرُب من المعنى الأول أصلا، وهو من اللجاجة[٦] وشدة الطلب، ولَجْلَج في كلامه كرر وردّد، ويعود إلى الأصل لأنه لا يظهر من كلامه معنى كما لا يظهر لمن لجّج[٧] في البحر صورةٌ. **يغشىٰه**، أي يغشى راكبَه، ودل عليه بقوله: **إذا أخرج يده**، والمراد أنه غريق في بحر أعماله، **يَغْشىٰه موج من فوقه موج من فوقه سحاب**، ولكل واحد من هؤلاء ظلمة. فتلك، **ظلمٰت بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده**، من الماء حجبته[٨] الظلمات. وقال: **يدَه**، لأنها أقرب إليه فمثَّل بها. وقوله: **لم يكد يرىٰها**، لأنها [من] "كاد" بمعنى قارب، وهي تُثبت مع النفي وتنفي مع الإثبات. فلو قال: "كاد أن يراها" دل على أنه لم يَرَهَا ولكن قارب،[٩] وهذا رآها ولكن قارب أن لا يرى، كقوله: وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ، وقدّم فَذَبَحُوهَا.[١٠]

١ ش ك: والأول.
٢ القاع: أرض واسعةٌ سَهْلة مطمئنة مستوية. والجمع أقواع وقيعة، ولا نظير له إلا جار وجيرة. وفي التنزيل ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ (لسان العرب، «قوع»).
٣ ش: صالحا.
٤ ش ك - فلهذا.
٥ ك - ساحله ولا يرى، صح هـ.
٦ ر ك + أي.
٧ ك: لج.
٨ ش ك: وجبته.
٩ ش + لم يرها ولكن قارب.
١٠ ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٧١).

ولمّا[1] ضرب المثل أولا لنوره بنور القِنْديل علمنا أن المراد هو تعريف العباد بالصانع ليعلموا فيعملوا بما يعود عليهم، فكان التعريف بأظهرِ ما يرونه بأبصارهم من نورٍ شَرَط له أبلغَ الشرائط. ثم قال: نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ، ثم قال: يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ.[2] / ثم ذكر [٢٩٩و] الرجال وأعمالهم في البيوت المرفوعة في ضوء تلك القناديل. ثم ذكر ضدهم في ظلمات من أعمالهم.[3] وقال: **لم يكد يرىٰها**. ثم قال أخيرا: **ومن لم يجعل الله له نورا**، أي عقابا له بعمله، **فما له من نور**.

لمّا ذكر هذا علمنا بهذا التدريج أن الأوائل جعل لهم نورا بأعمالهم، فلهم نور الإيمان،[4] كما قال: نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ،[5] ونورهم مِن جعل الله جزاءً فهو نور على نور، أعني نور الإيمان على نور العقل، ومحله القلب، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ.[6] فعاد القلب هو المشكاةَ والزيت هو العلم الذي لا تكون الأعمال إلا بذلك العلم. فيعود المثل المضروب بالقنديل للعقل مثلا مضروبا بالعقل للعقل ليعرف به صانعَه بعد الشرائط. وهذه المعرفة بحسب العارف لا بحسب الصانع، لأن الصانع غني عن أن يُعرف والمصنوعَ فقيرٌ إلى أن يَعرف، فأوتي بمقدار ما يَحتاج إليه لتعود ثمرةُ ذلك العرفان عليه. وهو مع ذلك محبوس في ظلّ كونه الذي إنما ظهر بالوجود، فظهوره لنفسه بغيره لا بذاته، فهو مفطور لا فاطر، ومحصور لا حاصر، لأن مسكنه في ظلمة الحدث ومنشأه من محض العدم، ولا نسبة له إلى الأزل والقدم. فلهذا لا يجوز على الأول الأزلي سبحانه لفظُ البسيط ولا الانحصار[7] في مثله، لأن ذلك إنما ظهر بالوجود والله تعالى قبل الوجود وقبل البسيط، فهو الواجب بضرورة العقل لزوما. وأما العبارات فبه[8] صارت. وكذلك كل ملحوظ، لأنه تعالى تقدم الملحوظَ واللاحظَ واللحوظَ، والداخل والخارج والقَبْل. فحَدِّقْ[9] وانجمع[10] واجمعْ أنوارَك إلى لبّك. وانظر ممن تطلب حاجتك عند الاضطرار، فإنك لا تطلبها من معدوم. وهذا كله عائد[11] عليك، ومبدؤه منك والأمر فيه إليك، والله يُمدّك ويَزيدك.[12]

---

[1] ر - لما.

[2] الآية ٣٥ من هذه السورة.

[3] ك - في البيوت المرفوعة في ضوء تلك القناديل ثم ذكر ضدهم في ظلمات من أعمالهم، صح هـ.

[4] ر: الأعمال.

[5] ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ (سورة التحريم، ٦٦/٨).

[6] سورة الحج، ٢٢/٤٦.

[7] ش ك: ولا الأنهار.

[8] أي بالله تعالى.

[9] أي انظر.

[10] ش ك: فانجمع.

[11] ش - عائد.

[12] ر: ويردك.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

ولما كان القَدْر الذي فيك يكفيك بشرط العمل الذي مُكِّنْت منه وستُسأل عنه دَلّك عليه بالاعتبار، واحتج عليك بما تشاهده الأبصار، ونبهك[١] بالأمثال على العلوم والأعمال فقال: **ألم تر أن الله يسبح له من فى السمٰوٰت والأرض والطير صٰفٰت**، أي حال اصطفافهن في الجوّ، لأن هذا الحال يدل على فاعل قادر. فهو مسبَّح بفعله، وفعلُه يُحدث تسبيحا من المعتبر بعقله. **كل**، أي من المسبحين، **قد علم صلاته وتسبيحه**، علّمه الله فعَلِم. **والله عليم بما يفعلون**، من ذلك وغيره. ولفظ الفعل يعطي العموم أقوالا وأعمالا.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾

ألم تر أن الله يزجى، يسوق، **سحابا**، لأنه ينسحب، **ثم يؤلّف بينه**، بالرياح، **ثم يجعله ركاما**، بعضه فوق بعض؛ رَكَم الشيءَ إذا جعل بعضَه على بعض؛ **فترى الودق**، المطر، ومنه الوَدَقة مرضٌ في العين كالنقطة، **يخرج من خلٰله**، بين الجسمين خلال. **وينزّل من السماء من جبال فيها**، سمّي الجبل جبلا للمبالغة في انجباله، وهو كقولك: رجل صَنَعٌ، والسماء التي ينجبل فيها الماء فيجمد بالبَرْد، وتصير فيها كالجبال[٢] لعظمه هي السماء المفتوقة التي كانت رتقا،[٣] كما قلنا. وسماء الدنيا هي سقفٌ فوق هذه. وقوله: **من برد**، "من" لتبيين الجنس. **فيصيب به من يشاء**، رحمة، **ويصرفه عن من يشاء**، حكمة. **يكاد سنا**، ضوء، **برقه**، نسبه إليه لتقدمه عليه، **يذهب بالأبصٰر**.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾

---

١ ش ك: وينبهك.

٢ ش ك: الجبال.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٣٠).

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٥﴾

[٢٩٩ظ] **والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من**، استعملت "مَن" لِما لا / يعقل مجازا. وذلك لأنه ذكر معه مَن يعقل ويدأ بقوله: **كل دابة من ماء**، والإنسان من جملة ما يَدُبّ على الأرض، وهو **من ماء**. فلمّا بدأ بذلك غلّب من يعقل واستمرّ بـ**من يمشى علىٰ بطنه**. وقوله: **ومنهم من يمشى علىٰ رجلين**، يؤكد ما قلناه. **ومنهم من يمشى علىٰ أربع. يخلق الله ما يشاء**، ولا مانعَ له. **إن الله علىٰ كل شىء قدير**.

﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٦ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾

وقوله ههنا: **لقد**، بغير واو هي أدل على الحاضر، وما يريد أن يُنزله في المستقبل؛ وبالواو وهي أدل على الماضي، كقوله: وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ.[١] وتكرار الإنزال هو أن ههنا يريد مطلق الآيات في كل كتاب وإن كان المراد هؤلاء لكن يعم غيرَهم؛ وفي الأولى يريد القرآن، لهذا قال أولا: إِلَيۡكُمۡ. وذكر لفظ الماضي، أعني: وَلَقَدۡ، مع قوله: إِلَيۡكُمۡ، إعلاما أن المراد بذكر الماضين ليس إلا أنتم، لهذا بعده: وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ.[٢] ثم قال ههنا بغير واو: **لقد أنزلنا ءايٰت مبينٰت**، فذكر بلفظ الحاضر ما يعم الماضين إعلاما أن ليس المراد بذكر الماضين إلا أنتم، فافهم. **والله يهدى من يشاء إلىٰ صرٰط مستقيم**. والهداية ههنا هي هداية جزاء على الإيمان. لهذا احتج على من لم يؤمن بصورة الإخبار عنه فقال: **ويقولون ءامنا بالله وبالرسول**، الكلام مطلق يعم كل قائل يقول هذه المقالة ويخص هؤلاء، **وأطعنا ثم يتولىٰ فريق منهم من بعد ذٰلك وما أولٰئك**، الذين تولوا، **بالمؤمنين**.

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨﴾

وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، الكلام عن الجميع، ثم خص الفريق بقوله: **إذا فريق منهم معرضون**، إذا كان الحكم بالحق عليهم.

---

[١] سورة المؤمن، ٣٤/٤٠.

[٢] الآية ٣٤ من هذه السورة.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩﴾

وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه، إلى الرسول **مذعنين،** منقادين.

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠﴾

ثم أخذ يوبخهم على طريق الاستفهام كأنه يحدّث غيرَهم وهم معرضون عنهم فقال: **أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا،** شكّوا بعد معاينة اليقين، **أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله، بل أولٰئك هم الظّٰلمون.**

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١﴾

ثم عرّفنا صفة المؤمنين فقال: **إنما كان قول،** خبر كان، **المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا. وأولٰئك هم المفلحون.**

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢﴾

ومن يطع الله ورسوله، في كل حكم له وعليه، **ويخش الله ويتقه،** يخشى عذاب الله ويتقي المخالفة أمرا ونهيا. **فأولٰئك هم الفائزون.**

﴿۞ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٥٣﴾

وأقسموا بالله جهد أيمٰنهم لئن أمرتهم ليخرجن، معك إلى الجهاد. **قل** لهم: **لا تقسموا،** وأنتم الكاذبون. ثم بيّن ذلك بقوله: **طاعة معروفة،** أي إنما تطيعوني[1] في أمر مخصَّص هو لكم لا عليكم. وذلك كقوله: وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ.[2] فالطاعة لا تكون إلا مطلقة، ومن أطاع فيما يعرف فقد أطاع ما يعرف فقط. **إن الله خبير بما تعملون،** فهو يجازيكم.

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤﴾

---

١ ش ك: إنما تطيعون.

٢ الآية ٤٩ من هذه السورة.

قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فيما لكم وعليكم. **فإن تولوا**، تتولوا، **فإنما عليه ما حمّل**، من أداء الرسالة، **وعليكم ما حملتم**، من القيام بالطاعة، كقوله: مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ.[1] **وإن تطيعوه تهتدوا**، وهو سبحان الله[2] يلزم عن طاعته طاعةُ رسوله. **وما على الرسول إلا البلغ المبين**.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

وعد الله الذين ءامنوا منكم وعملوا الصٰلحٰت ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، يشير إلى بني إسرائيل. وهذا إخبار بالغيب دالٌّ على ما مضى بعد أن لم يكن وعلى ما يكون إلى يوم القيامة بشرط الإيمان والعملِ الصالح. فليَعْلم هذا كلُّ إمام وليعملْ إن شاء، وإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ.[3] **وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضىٰ لهم**، دالٌّ على أن هذا الوعد كان قبل التمكن. وكذلك قوله: **وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا**. / وقوله: **ومن كفر بعد ذٰلك فأولٰئك هم الفٰسقون**، [٣٠٠و]
أي بعد ذلك التمكين. ولا يلزم أن يكون الكفر مباحا قبل ذلك، بل معناه أنهم لا يزالون مكتسبين يجوز عليهم الكفر إن اختاروه، لأنه لمّا قدم قوله: **لا يشركون بى شيئا**، كان مُشعرا بأنهم كالمجبَرين[4] على الإيمان. ولم يقل بالفاء كما قال في المائدة،[5] بل بالواو، لأن الفاء في المائدة هي مع جملة بصورة الشرط. والواو ههنا مع جملة بصورة الإخبار. فافهم متأملا للجملة في الموضعين. ولهذا ههنا: **ومن كفر**، بلفظ الماضي، وفي المائدة: فَمَن يَكْفُرْ، بلفظ المستقبل. وأراد ههنا أن يكون القول لنا ولمن يأتي إلى يوم القيامة. لهذا لم يقل: "منكم" كما قال في المائدة. فأشار ههنا إلى صفات لأقوام، ومن اتصف بها فهو منهم.

---

١ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (سورة الجمعة، ٥/٦٢).

٢ ر: سبحانه.

٣ سورة آل عمران، ٩/٣؛ وسورة الرعد، ٣١/١٣.

٤ ش: كالمجرمين.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (سورة المائدة، ١١٥/٥).

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦﴾

ولما قدم قوله: قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ،[1] عطف عليه [قوله:] **وأقيموا الصلوٰة وءاتوا الزكوٰة**. ولما كان تفصيل هذا المجمل من الأمر بالصلاة والزكاة عائدا إلى الرسول كرّر قوله: **وأطيعوا الرسول**، تنبيها على أنه هو يفصِّل هذا المجمل من القول فيجب أن يطاع. وأما الأول فهو مطلق، فافهم. **لعلكم ترحمون**.

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧﴾

لا تحسبن الذين كفروا معجزين، الله،[2] **في الأرض**، ومعنى "معجزين الله"، أي معجزين عباد الله المؤمنين، لأن الله مع المؤمنين.[3] وقد قدم قوله: لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ،[4] فإعجازهم لمن أراد الله أن يعجزهم به إعجازٌ له. فهذه بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم أن الله سوف يأخذهم في الدنيا بأيدي المؤمنين. **ومأوٰهم**، في الآخرة، **النار ولبئس المصير**. ويحتمل ما معناه لا تحسبنهم معجزين ومآلهم إلى النار. والأول أولى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨﴾

يٰأيها الذين ءامنوا ليستئذنكم الذين ملكت أيمٰنكم، وهذا يعمُّ النساء على النساء والرجالِ والرجالَ على الرجال والنساء من ملك اليمين. **والذين لم يبلغوا الحلم منكم**، دل على أن الذين لم يبلغوا الحلم مما ملكت أيمانكم أيضا يجب أن يستأذنوا، لأنه لازم من قوله: **منكم**، فكيف لا يكون من غيرنا، **ثلٰث مرّٰت**، تقديره في ثلاثة أوقات. وأما من استلزم أن يكون الاستئذان ثلاث مرات في كل وقت فليس كذلك، لأنه بيّن بعده بقوله: **من قبل صلوٰة الفجر، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة، ومن بعد صلوٰة العشاء**، وليست المغربَ، وتقديره: إلى بعد الفجر، وحُذف للزومه. **ثلٰثُ عوْرٰتٍ**،

---

[1] الآية ٥٤ من هذه السورة.

[2] ر – الله.

[3] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (سورة الأنفال، ١٩/٨).

[4] الآية ٥٥ من هذه السورة.

لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن، دل على أن الناظر والمنظور في الجناح واحد. **طوّفون عليكم بعضكم على بعض**، خصص المؤمنين أخيرا كما خصصهم أولا بالذكر بقوله: **يأيها الذين ءامنوا**، سواء كانوا عبيدا أو أحرارا. وذلك لئلا يُظَنَّ من إطلاق القول بملك اليمين ما يناقض ما ذكره من أن المرأة المؤمنة لا يجوز لها الظهورُ لغير النساء المؤمنات إلا أن كُنَّ جواريَهن، أو التابعاتِ لهن كما بيّنّاه. ونبّه في ذكر هذه الأوقات المذكورة[1] على أنه لا يَحسُن أن تكون الخلوة بالنساء في غير هذه الأوقات المذكورة وإن جاز. **كذلك يبين الله لكم الآيت والله عليم حكيم**.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

ولمّا قيّد القول بذكر الأطفال الذي دل به على الصغار من الذكور والإناث من المؤمنين أحرارا وعبيدا قال بعده: **وإذا بلغ الأطفل منكم الحلم**، أي أحرارا وعبيدا.[2] ويقال الطفل على الرضيع وما بعده إلى أن يبلغ الحلم. **فليستئذنوا كما استئذن**، الأطفال، **الذين من قبلهم**، بيّن ما يجب على البالغين وأنهم يلزمهم ما يلزم الأطفال. ولو ذكر أحد القسمين لم يلزم عنه الآخر. وقدم ذكر "الأطفال" ليتأدب الرجال كتأدبهم في / ترك التأويل والإذلال. ثم قال: **كذلك يبين الله لكم ءايته**، في هذا القرآن لئلا تشتبه[3] عليكم. وقوله من قبل: كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ،[4] يريد مطلق الآيات في كل كتاب أنزله. ولهذا[5] ختم الثانية بما ختم به الأولى فقال: **والله عليم حكيم**، وهذا مثل قوله: وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ،[6] ثم كررها بإسقاط "إليكم" ليعُمَّ. [٣٠٠ظ]

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

والقوٰعد من النساء الّتى لا يرجون نكاحا، سماهن القواعد لفرط قعودهن في البيوت، وهي جمع قاعدة. ويشير بذلك إلى المُسِنّة الهَرِمة التي صار القعود بها أولى لضعفها.

---

[1] ر ك – المذكورة.

[2] ش ك – قال بعده وإذا بلغ الأطفل منكم الحلم أي أحرارا وعبيدا.

[3] ش: لئلا يشتبه.

[4] من الآية السابقة.

[5] ر ك: وبهذا.

[6] الآية ٣٤ و٤٦ من هذه السورة.

فلما كان قعودها أكثر من مشيها وقيامها سماها بصفتها. ولما جاز أن تكون هذه العجوز بهذه الصفة وهي مع ذلك ترجو الزَّواجَ عرّفَنا بهذا القول أنها غير مزوَّجَة، وأنها مع كونها لا تقوله، أعني الزواج، فإنها ترجوه في باطنها وإن لم تتفوَّه به.[١] **فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن،** أراد بالثياب ههنا ما يستر الزينة من المرأة ويستر العضو المزَيَّن وأعظمُه الوجه. فلمّا فرض الاستئذان بيّن أن القواعد ليس عليهن جناح إذا وضعْنَ ذلك الثوب الذي يجب على النساء أن يستترن به عند الاستئذان. ثم قال: **غير متبرجْت بزينة.** التبرج الظهور. ومنه البرج[٢] لظهوره عن البَدَنة في سُورِ المدينة. وذلك لأن رؤية الرجال لزينة النساء مُضِرّ وإن لم تكن المزينة مشتهاة. ثم قال بعد ذلك: **وأن يستعففن،**[٣] عن وضع الثياب، **خير لهن.** ولمّا كان من جملة التبرج والزينة ما قد تقوله المرأة من الكلام الذي يحرك خواطر الرجال نهى الله عن ذلك حتى مِن مثل القواعد. وذلك مفهوم من قوله ههنا: **والله سميع،** أي لأقوالهن،[٤] **عليم،** ببواطنهن ومقاصدهن بالأقوال والأفعال.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

ولما ذكر نفي الجناح عن هؤلاء أتبعه بما هو من جنسه في اللفظ وهو نفي الحَرَج عن قوم آخرين. ثم أضافهم إلى مثلهم من قوم ليس عليهم حرجٌ أيضا. وبيّن نفي الحرج عن بعض المذكورين فيماذا هو بهذه الآية وعن الباقين في الآية[٥] التي تليها. فتأنَّ وتَمَهَّلْ لتدرِكَ المعنى جيدا ولا تَكُ في مرية منه. ويجب أن تفهم أولا

---

١ ك: لم تتفوه به.

٢ جميع النسخ: البروج، والمثبت من م.

٣ ر + أي.

٤ ش ك: لأقوالهم.

٥ ك - وعن الباقين في الآية، صح هـ.

هذه الجملة التي أذكرها، ثم تأمّل بعد ذلك النص فيسهل عليك ما صعُب على غيرك فهمُه إن شاء الله تعالى. اعلم أنه من عادة النص أن يذكر الشيء مع مثله أو أمثاله في اللفظ، أو في المعنى، أو فيهما [معا]. ومن أراد تحقيق ذلك فليَسْتَقْرِ النصّ يجدْ[1] ذلك في عدة مواضع. فههنا ذكر الشيءَ مع مثله في اللفظ، أعني زوال الحرج، وإن كان ذلك من وجهين ولكن جملةُ الكلام في الاستئذان. فقدم قوله: لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ،[2] ثم قال: وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟،[3] ثم أعقبه بذكر من ليس عليه حرجٌ إذا لم يستأذن في أشياء مخصَّصة دون ذلك الأمر الأول.

ثم فصّل ما أجمله بالذكر في هذه الآية فذكر فيها ما يختص[4] بقوم، وفيما بعدها ما يختص[5] بقوم آخرين فقال: **ليس على الأعمىٰ حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج.** ولم تفهم[6] في أي شيء قد أزال الحرج عن هؤلاء من هذه الآية بل مما بعدها كما ستفهم. فهؤلاء هم المشار إليهم في الآية التي تأتي وهي قوله: إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ.[7] ثم لمّا ذكر نفي الحرج عن الثلاثة المذكورين أضاف إليهم / ذكْرَ مَن [٣٠١و] ليس عليه حرج في أمور أُخَر ذكرها في هذه الآية وهم المضافون بقوله: **ولا علىٰ أنفسكم.** وقدم الثلاثة في الذكر على أنفس المؤمنين إعلاما أنه كما ليس على هؤلاء الثلاثة حرجٌ كذلك ليس على أنفسكم،[8] **أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت ءابائكم**، وتمام الآية. ثم عرّفنا بعد ذلك بقوله في الآية الثانية: وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ،[9] أن نفي الحرج عن هؤلاء الثلاثة إنما هو إذا كانوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهبوا بغير إذن. وإذا تأملت سبب تكرار ذكر هؤلاء ههنا بعد ذكرهم في سورة الفتح[10] وجدتَ أن ذكرهم في سورة الفتح[11] أشار به تعالى إلى أنه لم يَجعل عليهم حرجا إذا قعدوا عن الجهاد بغير إذن فلم يذهبوا مع بقية المؤمنين. وههنا لم يجعل عليهم حرجا إذا ذهبوا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذن،

---

١ ك: يحد.
٢ الآية ٥٨ من هذه السورة.
٣ الآية ٥٩ من هذه السورة.
٤ ك: ما تختص.
٥ ش ك: ما تختص.
٦ ش: ولو تفهم.
٧ من الآية التالية.
٨ ش – وقدم الثلاثة في الذكر على أنفس المؤمنين إعلاما أنه كما ليس على هؤلاء الثلاثة حرج كذلك ليس على أنفسكم.
٩ من الآية التالية.
١٠ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (سورة الفتح، ١٧/٤٨).
١١ ك – أن ذكرهم في سورة الفتح، صح هـ.

فلم يقعدوا مع بقية المؤمنين وهم على أمر جامع. فليس على المذكورين حرجٌ في ترك الذهاب بغير إذن في السفر مع الرسول عليه السلام ولا في الذهاب بغير إذن في الحضر عن الرسول عليه السلام.[١] فلمّا كانوا بهذه المثابة من رفع الحرج سفرا وحَضَرا، قُعودا وذَهابا قدّمهم في الذكر على أنفس المؤمنين المراد بذكرهم نفْيَ الحرج فيما ظنوا أن عليهم في فعله حرجا. فاقرأ النصَّ وتأمل ذلك تجده بيّنا في النص حَسَنا في العقل. واعرف أن هذا المعنى قد استتر عن بصائر ما شاء الله من النُّظّار فلم يَظفَروا بفهمه من النص مفصلا. وقد أوضحته لمن هداه الله. وحسبنا الله.

وأما هذه الإباحة لأنفس المؤمنين أعني المؤمن وقومه فليس الأمر في فهمها كما قيل خصوصا. والحديث يعارض ذلك والعقل والوجودُ. أما الحديث فهو قوله عليه السلام: «لا يحل للمؤمن أن يأكل من بيت أخيه المؤمن شيئا إلا بإذنه».[٢] وأما العقل والوجود فظاهر أن الأمر ليس كذلك. وبيان هذه هو[٣] أنه لمّا كان قد يُسلم الإنسان وبقيةُ أهله وأقاربِه وأصدقائه كفارٌ من اليهود والنصارى وغيرهم، وكان قد يقع في نفس المهتدي أنه لا يجوز له الأكل من بيت أحدهم أباحه الله ذلك وبيّنه له مقسَّما وضرب له مثلا بمن لا جناح عليه، وأضاف أنفس[٤] المذكورين من المؤمنين إليه ليتحقق المؤمن المهتدي أنه لا جناح عليه إذا أكل من بيت أحد هؤلاء المذكورين مع كونهم كفارا، لأنه كان حُظِر عليهم بقوله: لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ،[٥] الآية. فلزم أن يبين جواز الأكل وإلا كنّا حُرّمناه، لأنه من جملة الأسباب المؤكِّدة للمودة. ولم أرَ في التفاسير من اهتدى إلى هذا سوى أبي مسلم، نقله عنه عبد الجبار صاحب **المحيط** في التفسير الذي جمعه وهو خمس وسبعون مجلدا، طالعته بالمدرسة الفاضلية بالقاهرة المحروسة خمسة وسبعين[٦] وستمائة.

وأما قوله: **أو بيوتِ أمهٰتكم**، ولم يذكر الأبناء، فذلك للزومه عن ذكر غيرهم. وقوله: **أو بيوت إخوٰنكم**، يريد الإخوة سواء كانوا من أب أو أم لقوله بعده: **أو بيوت أخوٰتكم**؛[٧]

---

١ ش ك + ولا في الذهاب.

٢ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر المعتبرة.

٣ ك – هو، صح هـ.

٤ ر: نفس.

٥ سورة المجادلة، ٥٨/٢٢.

٦ ش – مجلدا طالعته بالمدرسة الفاضلية بالقاهرة المحروسة خمس وسبعين.

٧ ر – يريد الإخوة سواء كانوا من أب أو أم لقوله بعده أو بيوت أخوٰتكم، صح هـ.

وقوله: إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ،[1] مجاز وهذا حقيقة. **أو بيوت أعمٰمكم أو بيوت عمٰتكم أو بيوت أخوٰلكم أو بيوت خٰلتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم**، فهذه جميعه إباحة لأكل ما يؤكل بالفم خاصة. **ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا**، أنتم والكفار من أرباب هذه البيوت ومن وُجد بها من قومهم ولهذا عيّن البيوت، **أو أشتاتا**، متفرقين.

ثم قال لَمّا أباح الأكل من بيوت المذكورين ما فَرض به السلامَ على من في البيوت وقد كان يقع في بعض[2] الظنون أيضا / أنه ربما كان محرَّما -ويحتمل أنه أراد [٣٠١ظ] به الإباحةَ لا الفرض لكونه ذكره مع مذكور أراد به الإباحة وهو الأكل- فقال: **فإذا دخلتم بيوتا**، أي من هذه البيوت المذكورة، **فسلموا علىٰ أنفسكم**، يريد به[3] أقاربكم الكفار الذين بها. ولهذا بعده: **تحيةً**، أي بتحية،[4] **من عند الله مبٰركة طيبة**، أي لا رياء فيها ولا مكْرَ، كما يفعل اليهود مع النبي عليه السلام، كما قال تعالى مُخبِرا[5] عنهم: وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ،[6] وأمثال ذلك. ولمّا كان هذا مع من لم يسلم فقد لزم مع المسلمين. ولهذا بعده: **كذٰلك يبين الله لكم الآيٰت لعلكم تعقلون**.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

ولما بين في هذه الآية ما ليس في فعلنا له حرج علينا وهو ما نأكله من هذه البيوت ذكر في الآية التي تليها[7] ما يلزمنا الحرج في فعلنا له. ولزم من ذلك أن الثلاثة المذكورين أوّلا ليس عليهم حرج. وإنما قدم ذكرهم لينسق عليهم مَن هو مثلهم في إزالة الحرج خاصة وليتمم الكلام في هذه الآية الثانية بما هو أولى بالذكر في موضعه، كما يرى من له نظر وخِبرة بترتيب الأولى من الكلام في الأولى من المواضع

---

[1] سورة الحجرات، ١٠/٤٩.
[2] ر - بعض.
[3] ر - به.
[4] ش - أي بتحية؛ ك - أي بتحية، صح هـ.
[5] ر - مخبرا.
[6] سورة المجادلة، ٨/٥٨.
[7] ش ك: التي يليها.

تقديما وتأخيرا. ولهذا جعل أول الآية كالمعذوق[١] بمعنى قد تقدم فقال: **إنما المؤمنون الذين ءامنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه علىٰ أمر جامع لم يذهبوا حتىٰ يستئذنوه،** أي إلا أولئك الثلاثة فليس عليهم حرج كما تقدم. **إن الذين يستئذنونك أولٰئك الذين يؤمنون بالله ورسوله. فإذا استئذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم.** وفي قوله: **لبعض شأنهم**، وقولِه: **لمن شئت منهم**، حكمٌ لم نطوِّل بذكرها بل نبَّهْناك على التأمل والتفكر في أمثالها. ولهذا بعده: **واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم.** وهذا يدل بالمفهوم أنهم إذا لم يذهبوا ولم يستأذنوا فهو[٢] الأجود، لأن الاستغفار لا يكون إلا عن ذنب. ويُفهَم منه أن الذين ذهبوا ولم يستأذنوا لم يحصل لهم ذلك الاستغفار.

﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

ثم أتبع هذه الآية بعد ذكر الرسول بما يتعلق بالرسول أيضا. وهذا أيضا من جملة الحكمة في ترتيب اللفظ بتقديم ذكر الثلاثة ليكون ذكرهم مع ذكر من ليس عليه حرج منسوقا، وليكون ههنا ذكر الرسول وذكرُ ما يتعلق به متتابعا منسوقا فقال: **لا تجعلوا دعاء الرسول.** وذكره مطلقا لنفهم[٣] منه أي[٤] إن دعاكم أو دعوتموه، **بينكم كدعاء بعضكم بعضا**، كمناداة[٥] بعضكم لبعض. **قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا**، مخالَفة، من لاوذ وليست من لاذ،[٦] أي دنا، بل مخالفة. ولهذا بعده: **فليحذر الذين يخالفون**، بعد هذه الوصية **عن أمره**، أمر الرسول، **أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم.** وقد بيّنّاه في قوله تعالى: وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ،[٧] ما يُفهَم به قوله ههنا: **عن أمره**، والمعنى يذهبون عن أمره إلى خلافه مع ذهاب غيرهم إلى أمره. خالفتُه عن الشيء إذا انطلق إليه دوني، وإلى الشيء إذا انطلقتُ إليه دونه.

---

١ أي كالمنسوب.
٢ ر: فهم.
٣ ر: لتفهم.
٤ ك - أي، صح هـ.
٥ ش ك: كمنادات.
٦ ر + لياذا.
٧ سورة هود، ٨٨/١١.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤﴾

ألا، منادادة للمذكورين ومن يصلح لذلك إلى يوم القيامة، **إن لله ما فى السمٰوٰت والأرض**، أي فكيف تذهبون[1] عن رسوله وعنده أعظمُ مما تذهبون من أجله. وقوله: **قد يعلم ما أنتم عليه**. لمّا كان علم الله بالأشياء في الماضي كعلمه بها في المستقبل عبّر تارة بقوله: **قد يعلم**، وتارة بقوله: قَدۡ عَلِمۡنَا،[2] وهو واحد. **ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شىء عليم**، فيجازي عليه[3] سبحانه.

---

[1] ش ك: يذهبون.

[2] انظر مثلا: سورة الحجر، ١٥/٢٤، ٢٥؛ وسورة الأحزاب، ٣٣/٥٠.

[3] ك + الله.

سورة الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾

تبارك الذى نزل، تأتي بالنسبة إلى المخلوقين، و"أنزل" بالألف تأتي بالنسبة إلى الخالق،[1] **الفرقان**، هو اسم صفة من صفات القرآن، ولهذا وُصفت به التوراة أيضا لقوله: وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ.[2] **علىٰ عبده ليكون**، / عبده، **للعٰلمين نذيرا**. [٣٠٢و]

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ②﴾

الذى له ملك السمٰوٰت والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا، بحسب العلم السابق بما ينبغي أن يكون عليه ذلك المخلوق لِما خُلق له.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ③﴾

واتخذوا من دونه ءالهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، قدم الضر موافقة لقوله بعده: **ولا يملكون موتا ولا حيوٰة ولا نشورا**، وإذا كانوا لا يملكون شيئا من ذلك لأنفسهم فكيف يملكونه[3] لعابديهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ④ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑤﴾

وقال الذين كفروا إنْ هٰذا، القرآنُ، **إلا إفك افترىٰه وأعانه عليه قوم ءاخرون**، وتمام كلامهم أيضا. **فقد جاءو**، أي الرسولُ والذين[4] أعانوه، **ظلما وزورا**. ولو كان هذا

---

[1] ك - إلى الخالق، صح هـ.

[2] ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة، ٥٣/٢).

[3] ر: يملكون.

[4] ر + آمنوا.

من كلام الله غير حكاية عنهم لم يقل بالفاء بل باللام: لقد، جاءو، فافهم مثل هذه. ولهذا[1] عطَف مخبرا عن تمام قولهم: **وقالوا أسٰطير الأولين اكتتبها فهى تملىٰ عليه بكرة وأصيلا.**

﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦﴾

قل أنزله الذى يعلم السر فى السمٰوٰت والأرض، فهو مع علمه بما تُسرّونه من هذه الأقوال [لا] يعاجلكم بالجزاء. **إنه كان غفورا رحيما،** للتائبين.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٨﴾

وقالوا مال هٰذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا، ليصدقه الناس بسبب ذلك. **أو يلقىٰ إليه كنز،** يستغني به، لأنه فقير أو يعطي منه مَن[2] شاء، إذ من يزعم أنه يعطي الباقيَ كيف لا يعطي الفاني؟ **أو تكونُ له جنة يأكل،**[3] قرأ حمزة والكسائي نأكل بالنون،[4] **منها.** وهذا كلام بعضهم لبعض. **وقال الظٰلمون،** لمن اتبع محمدا صلى الله عليه وسلم: **إن تتبعون إلا رجلا مسحورا،** المسحور يظن ما يراه حقا. ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم يدّعي ذلك نسبوه مرة إلى أنه ساحر ومرة إلى أنه مسحور.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٩﴾

انظر كيف ضربوا لك الأمثٰل، الأشباه بهؤلاء. **فضلوا فلا يستطيعون سبيلا،** إلى الهدى، أي لمّا جزموا بالظن ضلوا، فلا يستطيعون خروجا من الضلال، ولو وقفوا عند العقل بغير هوى لاستطاعوا.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورٗا ١٠﴾

---

١ ك – ولهذا، صح هـ.

٢ ك: منه ما. وفي هامش ك: من.

٣ ر + منها.

٤ ر: بالنون نأكل. | قرأ حمزة بنون الجمع ووافقهم الأعمش، والباقون بالياء (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٤١٥).

تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنٰت تجرى من تحتها الأنهٰر ويجعل لك قصورا، سمِّي القصر قصرا، لأنه يَقصُر الغيرُ عن الوصول إلى من فيه. وقال أولا: **جعل**، بلفظ الماضي، وثانيا: **ويجعل**، بلفظ المستقبل، أي إن شاء جعل في الدنيا، لكنه يجعل ذلك في الآخرة ويجعل لك فيها قصورا.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾

أي لم يَكْفروا بك لكونك تأكل الطعام بل لأنهم يكذبون بالساعة. تقول:[١] أسعرتُ النار إذا اشتعلتَها بشدة الإيقاد.[٢]

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾

ثم وصف النار أنها، **إذا رأتهم**، ولم يقل: إذا رأوها،[٣] لأنهم لا يستطيعون النظر إليها لشدة حرها. ومع هذا قال: **من مكان بعيد سمعوا لها**،[٤] حذف ما يسمعونه تعظيما له. وتقديره: سمعوا لها صوتا هائلا مُوبقا، وذلك، **تغيظا وزفيرا**، لأن التغيظ لا يُسمع. فعطف الزفير على المحذوف، وتقديره وسمعوا لها زفيرا. والتغيظ مأخوذ من قوله: تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ،[٥] أي من شدة الغيظ، فإنها تفعل فعْلَ المغتاظ الحَنِق[٦] إذا ظفر بخصمه الضعيف مع غاية التمكن من القدرة عليه.

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

وإذا ألقوا منها، إشارة إلى أن الزَّبانِيَة تلقيهم من فوقُ، فإن الأبواب إذا فُتحت ودخل بهم الزبانية يكون محلهم من جهنم[٧] في مكان مُسْتَفِلٍ فيُلقونهم فيها. ومنه وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ.[٨] وقوله: **منها**، ولم يقل: فيها يريد في المكان الضيق منها. لهذا نَصَب، **مكانا ضيقا مقرنين**، هم وقرناؤهم معا. وتشديد الراء يدل على كثرة

---

١ ك - تقول، صح هـ.

٢ ك - بشدة الإيقاد.

٣ ش: إذا رأوهم.

٤ ر ك - سمعوا لها.

٥ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (سورة الملك، ٨/٦٧).

٦ ش ك: الخنق. | الحَنَق شدة الاغتياظ (كتاب العين للخليل بن أحمد، «حنق»).

٧ ر - محلهم من جهنم، صح هـ.

٨ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ (سورة يوسف، ١٠/١٢).

القرناء، لأن الكلام عن جمع. **دعوا هنالك ثبورا**، وهو الويل يقال: ثابر على الأمر
[٣٠٢ظ] إذا أخذ في مضرةٍ من يقصد / ذلك الأمر دونه فكأن المثابِر يوقع خصمه في ويل ليختص بالأمر دون الخصم. قال الله تعالى لهم: **لا تدعوا اليوم ثبورا وٰحدا وادعوا ثبورا كثيرا.**

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾
﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾

لهم فيها ما يشاءون خٰلدين، في ذلك، **كان على ربك**، هذا الوعد، **وعدا مسئولا.**

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾

ثم عاد إلى الإخبار عن الكفار بقوله: **ويوم يحشرهم وما**، والذي، **يعبدون من دون الله**، يُحشرون إلى ربهم ليسألهم. **فيقول**، للمعبودين: **ءأنتم أضللتم عبادى هٰؤلاء**، الحاضرين، **أم هم ضلوا السبيل**، أي عن السبيل.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾

قالوا، أي الآلهة محتجّين عن أنفسهم: **سبحٰنك ما كان**، في الدنيا، فليست لفظة "كان" زائدة، **ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء**، فهذا إخبار من المعبود عنه وعن العابد أنهما ما كان ينبغي لهما[1] ذلك. وهذه اللفظة تدل على وقوع ما لا ينبغي، فافهم ذلك. فنفوا عن أنفسهم فعل[2] ما لا ينبغي واختص به غيرُهم فظهر ذلك ببقية الآية، وهو قولهم: **ولٰكن متعتهم وءاباءهم**، أي فضلّوا هم من أنفسهم، وهو جواب قوله تعالى لهم: أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟[3] ولهذا بعده: فَقَدْ كَذَّبُوكُم.[4] وهذا من أبلغ حجة يدفع الجبرية بها، لأنه تعالى متّعهم امتحانا فاستمروا، **حتىٰ نسوا الذكر وكانوا قوما بورا**، بارت السلعةُ إذا لم يشْتَرِها أحدٌ لفسادها.

---

[1] ش ك: عنهما. وفي هامش ك: لهما.
[2] ش + لهما.
[3] من الآية السابقة.
[4] من الآية التالية.

﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ١٩﴾

فلما قامت حجة الله عليهم قال تعالى: **فقد كذبوكم بما تقولون**، لأنهم قالوا: هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا.[١] ثم قال تعالى عن الآلهة: **فما تستطيعون صرفا**، عنكم بشيء من العذاب، **ولا نصرا**، لكم. **ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا**، هذا حكاية عن الخطاب لهم يوم الحشر وهو خطاب للخلق في الدنيا إلى يوم القيامة.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾

ثم قال تعالى مجاوبا لقولهم: وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ:[٢] **وما أرسلنا قبلك من المرسلين**، تقديره إلا مثلك، فحذف "مثلك" وقال: **إلا**[٣] **إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق**. وهذا دليل على عطف على[٤] البعيد، فاعرفه. ثم تمم الله خطابه لنبيه عن المرسلين وعن بقية الناس أجمعين فقال: **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة**، ولو قال: بعضهم لكان ذلك خاصا بالمرسلين، بل فَتَن الأمم بالرسل والرسلَ بالأمم وبعضَ الناس ببعض. فأما الرسل فاختبرهم بالصبر على تكذيب الأمم لهم وأذاهم، كقوله عنهم: وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا.[٥] وأما المؤمنون فاختبرهم بالصبر على امتثال الأوامر والانتهاء عن النواهي. وأما الكفار ففتنهم[٦] بالمؤمنين ليرجعوا، كقوله: وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ،[٧] وكقوله: وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ،[٨] وكقوله: لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ.[٩] فالفتنة ههنا تقتضي العموم احتمالا ويدخل في ذلك الاختصاص بالرسل مع الأمم كما قدمنا. وقوله: **أتصبرون**، ولم يقل: أيصبرون، [هو] دليل على العموم.

---

١ ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ (سورة الأعراف، ٧/٣٨).

٢ الآية ٧ من هذه السورة.

٣ ر - فحذف مثلك وقال إلا؛ ك - فحذف مثلك وقال إلا، صح هـ.

٤ ر - على، صح هـ.

٥ سورة إبراهيم، ١٤/١٢.

٦ ر: ففتنتهم.

٧ سورة العنكبوت، ٢٩/٣.

٨ ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٥٣).

٩ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ (سورة محمد، ٤٧/٤).

وكان ربك بصيرا، بما يبدو في حق المرسلين[1] من المكذبين.

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١﴾

ولهذا بعده: **وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا**، هلا، **أنزل علينا الملٰئكة أو نرىٰ ربنا**، أي نحن أكبر من هذا وأولى بما يدعيه، وما أحدٌ منا جرى له شيء من[2] ذلك. ويحتمل هلّا كان ذلك لنصدقه إن كان الله يريد ذلك منا؟ **لقد استكبروا**، وأسروا ذلك، **فى أنفسهم**، والمعنى قالوا ما قالوه في أنفسهم. وأخر، **أنفسهم**، ليعود القول والاستكبارَ معا في الأنفس. **وعتوْ عتوًّا كبيرا**.

﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢﴾

يوم يرون الملٰئكة لا بشرىٰ يومئذ للمجرمين. ومعنى "يومئذ"، أي يوم حينِ الرؤية، [٣٠٣و] وقال: "يومئذ" لئلا يبقى اللفظ محتمِلا أنهم عَتَوا يوم يرون الملائكة. / **ويقولون**، لهم الملائكة: ادخلوا، **حجرا محجورا**، أي كيف يكون للمجرمين بشرى يومئذ وهذا حالهم. وهذا كما تقول: بيتَك يا فلانُ، أي ادخل بيتك.

﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾

وقدمنا إلىٰ ما عملوا من عمل، كانوا يظنونه خيرا. **فجعلنٰه هباء منثورا**، الهباء أجزاء صغار منبثّة لا تبرح[3] في الهواء لخفتها ولا تَظهر للبصر إلا في[4] أَلْق[5] الشمس الداخل من كُوّة أو طاقة.

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾

أصحٰب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا، وهو ما يقال فيه عند القائلة.[6]

---

[1] ر ك: المسلمين.

[2] ر – من.

[3] ك: لا يبرح.

[4] ر – في.

[5] الألق: يدل على اللمعان بسرعة، من ألَق يألِقُ ألْقًا: أي لمع وأضاء (تهذيب اللغة للأزهري، «ألق»؛ وتاج العروس للزبيدي، «ألق»).

[6] القائلة: الظهيرة. وقد تكون بمعنى القَيْلولة. وهي النوم في الظهيرة. قال الفراء: قال بعض المحدِّثين: يُرْوَى أنه يُفْرَغ من حساب الناس في نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، فذلك قوله تعالى: ﴿خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ (لسان العرب، «قيل»).

وهذه الآية على سبيل التقرير لهم، أي هل الأمر كذلك أم أصحاب النار خير.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

ويوم تشقق، تتشقق، **السماء بالغمٰم**، أي بازدحام الغمام، يقال: انشق البحر بحوتٍ أي ظهر منه. وهو من قوله: هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ،[١] أي بالعذاب. **ونُزِّل الملٰئكة تنزيلا**، فهذا تنزيل رحمة. وأما رؤيا الملائكة في اليوم الأول المذكور فهو رؤيا لا بُشرى. ولهذا قال هناك: لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ،[٢] وقال ههنا: **الملك يومئذ الحق للرحمن**، أي وأما الملك الباطل فإنه يبطُل، والإشارة إلى يوم واحد. ولهذا قال في الموضعين "يومئذ" فهؤلاء تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا،[٣] وأولئك تقول لهم الملائكة: ادخلوا، حِجْرًا مَّحْجُورًا،[٤] ودل على ذلك قوله ههنا: **للرحمن**. فذكرُ الرحمة في يوم العذاب تقتضي[٥] ما فصلناه، فافهمه. ولهذا بعد أن قال: **للرحمن**، قال: **وكان**، أي ذلك اليوم بعينه، **يوما على الكٰفرين عسيرا**.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾

ويوم يعض الظالم علىٰ يديه، ولم يقل: على يده ولم يقل أيضا: يَعَضّ يديه بل يعض بفمه[٦] على قفا يده تندما. وأشار إلى أنه مِن فَرْط نَدَمه يعض تارة على اليمين وتارة على الشمال. **يقول يٰليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا**. تقول لصاحبك: خذ مع هذا المسافر، أي سِرْ معه في السبيل، ويقال: أخذ في الأكل، أخذ في الكلام. والتاء تاء الافتعال.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

يٰويلتىٰ، أصلها يا ويلتاه، **ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا**، هذه أقوالهم، فانظر من تُخالل.

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

لقد أضلنى عن الذكر، القرآن، **بعد إذ جاءنى. وكان الشيطٰن للإنسٰن خذولا**. وقد علمت

---

١ سورة البقرة، ٢/٢١٠.

٢ الآية ٢٢ من هذه السورة.

٣ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (سورة فصلت، ٤١/٣٠).

٤ الآية ٢٢ من هذه السورة.

٥ ر: يقتضي.

٦ ك - يديه بل يعض بفمه، صح هـ.

أن للإنس[1] شياطينَ من الإنس، ولزم في بعض المواضع أن يعيَّن بقوله: ٱلرَّجِيم.[2] وذلك مأخوذ من قوله: وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ؛[3] وفي غير موضعِ التعيين يريد به اسمَ الجنس، فهو كقوله: إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ،[4] ومثله[5] إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ.[6]

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

وقال الرسول يٰرب إن قومى اتخذوا هٰذا القرءان مهجورا، من الهجر، وفيه معنوية الهجر لزوما.[7] ثم عطف على قوله: وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً،[8] فنسق[9] عليه [قوله:] **وكذٰلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفىٰ بربك هاديا ونصيرا.**

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرءان جملة وٰحدة، أي في مرة كما أُنزلت الألواحُ على موسى، فعرّفهم الله بما معناه أنا أنزلناه، **كذٰلك**، متفرقا، **لنثبت به فؤادك ورتلنٰه ترتيلا**. يقال: ثغر[10] رتِلٌ[11] بفتح التاء وكسرها إذا كان متساوي النبات. والترتيل في الكلام هو التسوية، فإن المتساوي هو الذي لا يغلب[12] أحدُ طرفيه الآخرَ. وإذا كان كذلك كان أحرى بأن يُفهَم منه معناه. ويدخل في الترتيل ما يتعلق بالصوت والتلحين، والتوسط بين التأني والعجلة. وكل ما يؤدي إلى نقص في المعنى فخروجُه عن الترتيل بقدر ما دخل فيه من النقص.

---

[1] ش: أن الإنس.

[2] ذكر هذه الكلمة في مواضع كثيرة من القرآن، منها ما ورد في سورة آل عمران، ٣/٣٦؛ وسورة الحجر، ١٧/١٥؛ وسورة النحل، ١٦/٩٨؛ وسورة التكوير، ٨١/٢٥.

[3] ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ (سورة الملك، ٦٧/٥).

[4] سورة العصر، ١٠٣/٢.

[5] ر: مثله.

[6] سورة فاطر، ٣٥/٦.

[7] ر – من الهجر وفيه معنوية الهجر لزوما، صح هـ.

[8] الآية ٢٠ من هذه السورة.

[9] ر: فلسق؛ ش: ففسق.

[10] الثَّغر: اسم الأسنان كلها ما دامت في منابتها قبل أن تسقط. وقيل: هي الأسنان كلها كنّ في منابتها أو لم يكنّ. وقيل: هو مقدّم الأسنان (لسان العرب، «ثغر»).

[11] رَتَلٌ ورَتِلٌ حَسَن التنضيد مُستوي النبات. وقيل: المُفَلَّج. وقيل: بين أسنانه فُروج لا يركب بعضها بعضا. والرَّتَل بياض الأسنان وكثرة مائها، وربما قالوا: رجل رَتِلُ الأسنان (لسان العرب، «رتل»).

[12] ش: لا يقلب.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾

وهذه الآية منسوقة على ما قبلها، / لأنهم لما كانوا لم يأتوا بالأمثال والأسئلة [٣٠٣ظ]
جملة لم تأت الأجوبة في القرآن جملة. فإن حديث الأنبياء وقصة ذي القرنين وغير ذلك كلّ[1] هذه[2] أمثال ضُربت لنا وإن كانت واقعة في الوجود. وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا،[3] وكقوله:[4] إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ.[5]

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٣٤﴾

ثم قال على سبيل التوبيخ والتقرير استفهاما: **الذين يحشرون علىٰ وجوههم**، أي يُلقَون **إلىٰ جهنم أولٰئك شر مكانا وأضل سبيلا**، وتقريره أمّن هديناه ونصرناه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ۝٣٥ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ۝٣٦﴾

ولقد ءاتينا موسى الكتٰب وجعلنا معه أخاه هٰرون وزيرا، فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بـٔايٰتنا فدمرنٰهم تدميرا، التدمير الإهلاك بصورة المكر والحيلة وهو كالتنكيل.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٧ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ۝٣٩﴾

وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقنٰهم، لأنهم قالوا: وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً.[6] **وجعلنٰهم للناس ءاية وأعتدنا للظّٰلمين**، من سائر الخلق، **عذابا أليما**.

وعادا وثمود وأصحٰب الرس، يقال: رسّ البئرَ إذا طواه. ومنه وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ،[7] **وقرونا بين ذٰلك كثيرا. وكلا**، من المُهلَكين، **ضربنا له الأمثٰل**، بمن كذّب كيف فعلنا به. **وكلا تبرنا**، كسّرنا، **تتبيرا**.

---

[1] جميع النسخ: كله، والمثبت من م.

[2] ك - هذه، صح هـ.

[3] ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (سورة الزخرف، ٤٣/٥٧-٥٨).

[4] ر - كقوله.

[5] ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة آل عمران، ٥٩/٣).

[6] ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (سورة المؤمنون، ٢٤/٢٣).

[7] سورة الشعراء، ١٢٩/٢٦.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ۝٤٠ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢﴾

إنْ، بمعنى إنه، أو بمعنى إنْ هذا إلا رجل، **كاد ليضلنا عن ءالهتنا لولا أن صبرنا عليها، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا.**

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣﴾

أرءيت من اتخذ إلٰهه هوٰه، ولو قال: من اتخذ هواه إلٰهه لكان قد جعل هواه إلٰها له[1] فهو يعبد ذلك الهوى بعينه لا غيره. ولمّا قدم لفظ الإلٰه دل على أنه دائما، إنما يميل بزعمه إلى الإلٰه، وهو لا يعلم أن ذلك الإلٰه هو الهوى الذي له. وأما ما قاله الله سبحانه فهو الذي عليه أكثر الناس فهو صفة حالهم. وكذلك أخبر عنهم بقوله: وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ،[2] وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا.[3] ومثال ذلك ما لو قلت: إن فلانا اتخذ بيته مسجده لكان المفهوم أنه ملازم للبيت لا للمسجد، لكنه جعله[4] كالمسجد، ولو عكسته فقلت: فلان اتخذ مسجده بيته لكان المفهوم أنه ملازم للمسجد. ولمّا كان المشار إليه ههنا إنما اتخذ إلٰها لا هوىً لكنه اتفق أن ذلك الإلٰه هوى وهو لا يعلم فهو متّبع للهوى من غير علم، بل يظن أنه قد اتبع أو اتخذ إلٰها وجب[5] تقديم لفظة الإلٰه، ولو أخّرها لتغيّر المعنى ولم يطابق ما في الوجود. فإن عابد الصنم يظن أنه مع الحق وأنه إنما اتخذ إلٰها لا هوى، وهو قد اتخذ هوى، فقد اتخذ إلٰهه هواه بغير علم ولو علم لَمَا اتخذ. وهذا يكون أولا من العبد. فإذا دُعي إلى الحق ولم يرجع أبقاه الله على حاله عقابا له، وهو معنى قوله تعالى: أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ.[6] واعلم أن الهوى رأيٌ عن شهوة داعٍ إلى الضلال، وسمّي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية

---

١ ش: هواه إلٰهه؛ ك: هواه إلها.

٢ ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (سورة الزخرف، ٣٧/٤٣).

٣ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (سورة الكهف، ١٨/ ١٠٤).

٤ ك – جعله، صح هـ.

٥ هذا القسم جواب "لما".

٦ سورة الجاثية، ٢٣/٤٥.

وفي الآخرة إلى الهاوية. ولشدة سلطانه سماه الله إلٰها. والمعنى أنه لا يهوَى شيئا إلا اتبعه. **أفأنت تكون عليه وكيلا.**

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، ما تتلونه من كلام الله. **إن هم إلا كالأنعم بل هم أضل سبيلا**، لأن الأنعام تهتدي[1] إلى سُبلها وهؤلاء لا يهتدون إلى السبيل الذي أُمِروا / بالسلوك فيه من بارئهم. فهم فيما خُلقوا له أضلُّ من الأنعام فيما خُلقت له. [٣٠٤و]
ولهذا لم يقل: الأنعامُ أهدى.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾

ثم قال لمن يعقل: **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل**، أراد مطلق الظل، ويدخل فيه الليل، وهو ظل الأرض مدّه الله سبحانه على سائر الأرض، وهو ظل عن الشمس إذا حُجبت. **ولو شاء لجعله ساكنا**، لا يتحرك بل مقيما دائما. وهذا هو معنى قوله تعالى: قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ.[2] ويقال: سكن بالدار إذا أقام بها. وقوله: **ثم جعلنا الشمس عليه دليلا**، أي حيث كانت[3] الشمس دلت على أن الظل في ضد جهتها، فوجودها فوق الأرض دال على أن الظل[4] تحت الأرض. ويُفهم من ذلك أيضا[5] أن الظل أيضا دليل على الشمس في سيرها وفي جهتها.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

وقوله: **ثم قبضنٰه إلينا قبضا يسيرا**، أي قليلا قليلا بحيث لا يُدركه البصر إلا عند التأمل. ولمّا عبر بلفظ الظل علمنا أنه أراد مطلق الظل حالَ غيبة الشمس في الليل وحال وجودها في النهار، لأنها هي الدليل عليه دائما. وقوله: **قبضناه إلينا**، أي إلى[6] **حيث نشاء.**

---

١ ش ك: تهدي.

٢ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (سورة القصص، ٧١/٢٨).

٣ ر ك - كانت.

٤ ش - في ضد جهتها فوجودها فوق الأرض دال على أن الظل.

٥ ر - أيضا.

٦ ك - أي إلى، صح هـ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ٤٧﴾

ولمّا كان الليل هو من جملة الظل قال: **وهو الذى جعل لكم اليل لباسا**، أي كأن ظلمته تَستر كما يستر[1] اللباس بل أشد. **والنوم سباتا**، السبت القطع، لأنه يقطع الهموم القلبية والأشغال البدنية، وهذا[2] نعمة لا يعرفها إلا من فقد النوم. **وجعل النهار نشورا**، ينتشر الناس فيه، ويستدلون به على البعث والنشور بعد النوم الذي هو كالموت.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ٤٨ لِّنُحۡـِۧىَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ٤٩﴾

وهو الذى أرسل الريٰح بشرا، من النشور أيضا، فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا،[3] كما قال تعالى: وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ.[4] **بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا، لنحييَ به بلدة ميتا.**[5] تقديره من بلدة نشأت[6] ميتا.[7] **ونسقيه مما خلقنا أنعٰما وأناسيّ كثيرا**، وهي جمع إنس الذي هو جمع إنسي المنسوب إلى الإنس. وأما جمع إنسان فهو أناسين.

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ٥٠ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِى كُلِّ قَرۡيَةٍ نَّذِيرًا ٥١﴾

ولقد صرفنٰه بينهم، لا من الصرف بل من التصرف، ويريد القرآن، وجعل ذكر الماء من السماء مثلا له، **ليذكروا، فأبى أكثر الناس إلا كفورا**. ولا يعطي سياق الكلام وسباقه إلا أن الإشارة إلى القرآن،[8] لقوله:[9] وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ.[10] فقوله: **ولقد صرفنٰه**، معطوف على أول السورة،[11] ولهذا بعده:[12] **ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا.**

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ٥٢﴾

فلا تطع الكٰفرين وجٰهدهم به، افهم[13] قوله: **به جهٰدا كبيرا**، وهذه الآية تتضمن

---

١ ش: كما تستر.
٢ ر: وهذه.
٣ ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ (سورة الزخرف، ٤٣/١١).
٤ سورة ق، ٥٠/١١.
٥ ر + تقديره من بلدة نشأ ميتا.
٦ جميع النسخ: نشأ.
٧ ش + نشأ.
٨ ك – القرآن، صح هـ.
٩ ش: كقوله.
١٠ سورة الأنعام، ٦/١٠٥؛ وسورة الأعراف، ٧/٥٨.
١١ يشير المؤلف إلى الآية ١ من هذه السورة.
١٢ ك – ولهذا بعده، صح هـ.
١٣ ر: فافهم.

صُوَرا من الجهاد به[١] لمن يَعرف الجهاد به.[٢] ولهذا جاء الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. ومعنى الآية: وجاهدهم على حكم ما فيه، لأن أحكامه حق فيكون الجهاد بحق. ويُفهَم من الآية غير ذلك أيضا من جهاد النفس وذوي الهوى والجهل. فمن جاهد به كان منصورا.

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾

وهو الذى مرج البحرين، أي خلطهما عند التقائهما. والمَرْجَة القطعة من الأرض اختلط نباتها، ومرجتُ الدابة وأمرجتها: أرسلتُها في المَرْج. **هٰذا عذب فرات وهٰذا ملح أجاج**. الفرات في اللغة هو الحلو الكثير. والأجاج مُشبّهٌ في لَذْعه للفم بالنار، وهو من قولك: أَجَّتِ النار إذا التهبت، وأججتها ألهبتُها. ولفرط ملوحته سماه مِلحا. ولم يقل: مالحا وهو في نفسه مِلح ذائب. والأجاج ضد الفرات كما أن المالح ضد العذْب. **وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا**.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾

وهو الذى خلق من الماء، المَهين، **بشرا فجعله / نسبا وصهرا**، وهم[٣] الوُرَّاث لا غير. **وكان ربك قديرا**، على ما يشاء.[٤] [٣٠٤ظ]

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم، قدم النفع موافقة لقوله: هَٰذَا عَذْبٌ،[٥] **ولا يضرهم. وكان الكافر علىٰ ربه ظهيرا**، مظاهرا غيره عليه سبحانه.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

قل ما أسئلكم عليه من أجر، ثم استثنى استثناءً منقطعا بعد تمام الكلام فقال:

١ أي بالقرآن.
٢ ك – لمن يَعرف الجهاد به، صح هـ.
٣ ن ر: وهو.
٤ ش ك: على ما شاء.
٥ الآية ٥٣ من هذه السورة.

إلا من شاء أن يتخذ إلىٰ ربه سبيلا، أي فليتخذ ولا أجر لي[1] عليه. وهذا كما تقول: لا أقول لأحد: أعطني على ما تأخذه مني أجرا إلا من شاء فليتخذ ومن شاء فليترك. ولهذا لم يقل: إلا من شاء [فقط].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾

الذى خلق السمٰوٰت والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوىٰ على العرش الرحمنُ فاسئل به خبيرا، قدم "به" للوزان. والخبير هو سبحانه، لأنه هو المخبر عن نفسه، وهو الخبير به سبحانه. وهذا فائدة قوله مكررا: **خبيرا**، في آخر الآية المتقدمة، فافهمها. فالأُولى هي المحكمة والثانية هي المتشابِهة، وذكر مع الاستواء على العرش الذي يُفهَم منه الصفة العظمى في العلوّ[2] والكبرياء صفةَ الرحمة إعلاما أنه تعالى مع تلك العظمة والعلو هو ذو الرحمة والدنوّ، تعظيما له في أنفس العباد وتأنيسا لهم ليفتح بابَ الرجاء إلى المراد.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾

وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا، أي وإن لم يكن إلٰها نراه أو نعرفه. **وزادهم**، ذلك القول **نفورا**.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾

تبارك، من البركة وهو تسبيح لله بحسب ما يدخل في أفهام العباد. وكل أوصافه سبحانه إنما وصف[3] بها نفسه لكونها مفهومة لهم وإلا فهو الذي لا يوصَف بوصف ولا يُحد بحد، فهو فوق الصفات من جهة ذاته وموصوف بها من جهة مخلوقاته. ولولا وصف نفسَه سبحانه لَما جاز لواصفه أن يصفه. ولا يجوز أن يصفه[4] بغير ما وصف به نفسه،

[1] ر + إلا.
[2] ر ك: في العلوي.
[3] ك - إنما وصف، صح هـ.
[4] ك - ولا يجوز أن يصفه، صح هـ.

فإن قوله: "تبارك"، و"تَعَالى"، و"تقدس" كلمات قصد بها التنزيه الأعلى عما يستقر في أفهام العباد مما يعرفونه من مفهوم هذه الأسماء؛ إذ قول القائل "تعالى" لا يريد به[1] إلى جهة بل عن جهة يشير إليها القائل بالتعالى عنها، كقوله: فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ، ثم قال: عَمَّا يُشۡرِكُونَ.[2] وكذلك فافهم في غير هذه الكلمة من أمثالها. **الذى جعل فى السماء بروجا**، سميت الكواكب بروجا لظهورها، ومنه وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ.[3] **وجعل فيها سرٰجا**، وهو الشمس، **وقمرا**، لأنه قمر نُوره من نور الشمس فكان[4] نورا، **منيرا**.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾

وهو الذى جعل اليل والنهار خلفة، كل واحد يَخلُف الآخر، **لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا**، من الشكر والتعبد لله، فليس لأحد عذر. ونبه على أشرف ما يشتغل به المؤمن، وقدم القرآن، فافهم.[5]

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ۝٦٣﴾

وعباد الرحمن، أي هم، **الذين يمشون على الأرض هونا**، يقال: امش على هِينَتِك، أي على مَهلك،[6] وهوّنْتَ الأمر على فلان، أي سهّلت، وهي من الهَين، وتقديره هيّنت، وقُلبت واوا. والهوان بضم الهاء من الهَوان، وبفتحها مصدر هان يهون، أي سَهُل. وذلك يقتضي الوقار والسكينة. يقال: "فلان لا تتأذى به الأرض التي يمشي عليها" إذا وُصف بالخير وأنه لم يَبْدُ منه سوءٌ إلى أحد. ولهذا قال[7] بعده: **وإذا خٰطبهم الجٰهلون قالوا سلٰما**، بمعنى سلامة، أي لا ينالكم من جهتنا شر، وهو من المسالمة. قال الله تعالى: سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ،[8] أي أذية الجاهلين ويحتمل هداية الجاهلين.[9] / والمعنى أنهم لا يجهلون وإن جُهل عليهم. [٣٠٥و]

[1] ك - به، صح هـ.

[2] سورة الأعراف، ١٩٠/٧؛ وسورة المؤمنون، ٩٢/٢٣.

[3] سورة الأحزاب، ٣٣/٣٣.

[4] ش ك: وكان.

[5] انظر: تفسير الآية ٥٠ من هذه السورة والآية الأولى منها.

[6] تكلَّم علي هِينَتِه أي رِسْله... يقال: امش على هينتك أي على رسلك (لسان العرب، «هون»).

[7] ك - قال، صح هـ.

[8] ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (سورة القصص، ٥٥/٢٨).

[9] ك - أي أذية الجاهلين ويحتمل هداية الجاهلين، صح هـ.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾

والذين يبيتون، أي في بيوتهم،[١] **لربهم سجدا وقيٰما**.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾

والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما، ملازِما،[٢] وفلان مُغْرَمٌ بالنساء، أي ملازم، وهي ملازمة مهلِكة لفرطها.

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، يريد بالإنفاق الصدقة في سبيل الله، وإذا كان هذا في سبيل الله فكيف في سبيل الشهوات. والإقتار والتقتير ضد الإسراف. **وكان**، الإنفاق، **بين ذٰلك قواما**، بفتح القاف وهو العدل. ومنه المقوَّم وهو المعتدل. والسَّرَف والإقتار[٣] مجاوزة الحد في الطرفين.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾

والذين لا يدعون مع الله إلٰها ءاخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذٰلك، أي من مؤمن وكافر، **يلق أثاما**، أي جزاء. ويقال: أثِم بكسر الثاء أذنب وبفتحها جاز، تقديره يلق جزاءً،[٤] وهو أن، **يضٰعف له العذاب يوم القيٰمة ويخلد فيه مهانا**.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

إلا من تاب وءامن وعمل عملا صٰلحا، المراد مجموع الثلاثة، لأن المنافق قد يُظهر التوبة والإيمان ولا يعمل صالحا. ولهذا قال في سورة التوبة: فَإِن تَابُوا۟، ثم قال:

---

١ ك + ليلا.

٢ ش: ملازم.

٣ ش: والاقتار.

٤ ك - تقديره يلق جزاء، صح هـ.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾.[١] لكنه لمّا ذكر ههنا صفاتٍ عدّدها بقوله: **والذين**، وجاز أن بعض الناس يأتي ببعضها دون بعض جمع ههنا ما هو قُبالة تلك الصفات. فمن أتى بالبعض[٢] قابله بالبعض،[٣] ومن أتى بالكل قابله بالكل. ولهذا قال: **إلا من**، ثم قال: **فأولئك**، عن جمع. وليس أن كل فريق موصوف بصفة واحدة؛ بل الصفة الأولى مثلا قد يتصف بها قومٌ فيدركهم الموت قبل الاتصاف بما ذكره بعدها، وكذلك قد يتصف قوم بالأولى والثانية وإن كان الجميع لفريق واحد؛[٤] وهذا كما وَصف بواو العطف في أول سورة البقرة بقوله: والّذِينَ، مكرّرا لها،[٥] فافهمه هناك ثم هنا. والمراد بهذه الأوصاف مع التعريف التعليم. وقوله: **يبدل الله سيئاتهم حسنٰت**، الإبدال يكون للأبدال[٦] وهم الذين بدلوا مكان السيئة الحسنة، فبدلوا من أخلاقهم ونياتهم وعقائدهم وأفعالهم ما استحقوا به أن يبدل الله سيئاتهم حسنات، فصار[٧] كل رجل من الخلف بدلا من السلف.[٨] **وكان الله غفورا رحيما**. وهذا يدل على أن الشرك والقتل والزنى والتبذير والتقتير[٩] في منزلة واحدة من جهة أن[١٠] صاحبها يُخلَّد بها مُهانا في جهنم، وأن هذا جميعه يُغفر لمن تاب وآمن وعمل عملا[١١] صالحا. ولم يكتف له بالمغفرة بل كما جعل العذاب يضاعَف جعل الثواب يضاعف، لأنه معذوق بالتبديل. فلزم في الحسنات ما ألزم في السيئات، فافهم.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ٧١﴾

ثم أكد ذلك بقوله: **ومن تاب**، أي في الدنيا، بمعنى رجع عن سيئاته، **وعمل صٰلحا فإنه يتوب**، يرجع يوم القيامة، **إلى الله**، أي إلى كرمه وعفوه **متابا**، مَرجعا صالحا كريما.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾

والذين لا يشهدون الزور، أي بالزور، وفيه إشارة إلى ترك مشاهدتهم لذلك من أنفسهم وغيرهم. **وإذا مروا باللغو مروا كراما**، أي مكرمين أنفسَهم عنه.

---

١ سورة التوبة، ١١/٩.
٢ ش + قبله.
٣ ك - بالبعض، صح هـ.
٤ ش: الجميع فيدركه الفريق واحد.
٥ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٣-٤).
٦ ش ك: الإبدال.
٧ ش ك: فكان. وفي هامش ك: فصار.
٨ ش ك: بدل السلف.
٩ ك - والتقتير، صح هـ.
١٠ ر + أن.
١١ ك - عملا، صح هـ.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣﴾

والذين إذا ذكروا بئايٰت ربهم لم يخروا عليها، على الأرض، وهو معطوف على قوله: يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ،[1] وهو عطف على البعيد. والأرض مضمرة ههنا، ودل عليها بشدة دلالة قوله: **لم يخروا**، إذ لا يكون ذلك إلا على الأرض، **صما**، أي كالصم
[٣٠٥ظ] الذين[2] لا يسمعون الآياتِ المقولةَ، **وعميانا**، لا يرون / الآياتِ المدرَكة بالأبصار، ولا يفقهونها، لأن قوله: **لم يخروا عليها**، لا يريد [به] إلا على الأرض، وهو من بابِ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ.[3] فافهم قصته لأنهم إذا سمعوا الآيات وعادوا إلى الكفر فقد خرّوا على الأرض لأصنامهم صُما عن سماع الآيات، عميانا عن رؤية المعجزات. ويُحمل على هذا سجودُ المنافقين ومن لم يتدبر فإنه يَخِرّ ولكن كالأصم [و]الأعمى، فيكون المعنى بل يخرون سميعين بصيرِين. وتكرار قوله: **والذين**، هو جميعه وصفٌ لقوم وفريقٍ واحد. وهو ما قدمناه ههنا، وقلنا: إنه كما جاء في البقرة.[4]

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾

والذين يقولون ربنا هب لنا من أزوٰجنا وذريٰتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين، من الذرية، **إماما**، بمعنى أئمة، وغيّر للوِزان. وقد بينا مثله في قوله: وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ.[5]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾

أولٰئك يجزون الغرفة.[6] والغرفة بيوت فوقانية فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ.[7] ومعنى [قوله:] **بما صبروا**، أي على أوامرنا في الدنيا. **ويُلَقَّون فيها**، بمعنى أن ذلك يتلقاهم، لأنهم يمرون في طريقهم فيلْقونه، بل هو من قوله: وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ،[8] **تحية وسلٰما**، وسلامة، وغيّر للوِزان. **خٰلدين فيها. حسنت مستقرا ومقاما**.

---

[1] الآية ٦٣ من هذه السورة.

[2] ش ك: الذي.

[3] ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ (سورة الأعراف، ١٧٦/٧).

[4] انظر تفسير الآية ٧٠ من هذه السورة.

[5] سورة البقرة، ٤١/٢.

[6] ش ك + بما صبروا.

[7] سورة الحاقة، ٢٢/٦٩-٢٣.

[8] سورة الأنبياء، ١٠٣/٢١.

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾

ولما فرغ من وصف المؤمنين ووصفهم بالخلود في النعيم عاد إلى ذكر الكافرين ووصفهم بالخلود في الجحيم جزاءً على تكذيبهم، وهو معنى[1] قوله: **لزاما**. فقال: **قل ما يعبؤا بكم ربى**، يقال: فلان لا يعبأ بفلان، إذا كان عدمه ووجودُه عنده[2] سواء. وقوله[3] **لولا دعاؤكم**، أي لولا دعاؤكم إليه بمعنى أنه يدعوكم بألسنة الرسل، لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى،[4] لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ.[5] **فقد كذبتم**، الداعي، **فسوف يكون**، أي ما ذكرنا من الخلود والهوان، **لزاما**، لا انفكاك لكم منه، جزاء[6] على تكذيبكم للداعي إليه صلى الله تعالى عليه وسلم.

---

١ ك - معنى، صح هـ.

٢ ك - عنده، صح هـ.

٣ ش - يقال فلان لا يعبأ بفلان إذا كان عدمه ووجوده عنده سواء وقوله، صح هـ.

٤ ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/١٠).

٥ ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (سورة النساء، ٤/١٦٥).

٦ ر - جزاء.

سورة الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾

طسٓمٓ، تلك ءايٰت الكتٰب المبين، كقوله:[1] ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ.[2]

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾

ثم قال: **لعلك بٰخع نفسك**، بٰخِعٌ في الكهف،[3] وتقديره متأسفا، **ألا يكونوا مؤمنين**.

﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾

ثم قال: **إن نشأ ننزل عليهم من السماء ءاية**، يريد آية كما أُنزل المعجزات في الأولين مما يضطرهم إلى الإيمان إجبارا. ولو أجبرهم على الهدى لبطلت[4] فائدة التكليف الشرعي. **فظلت أعنٰقهم لها خٰضعين**، بمعنى خاضعةً، وغيِّر للوِزان. وجعل الكلام إخبارا عن ذوي الأعناق، والأعناق جمع عُنُق. وقوله: **فظلت**، بلفظ الماضي إشارةٌ إلى سرعة كونِ ما يكون حتى كأنه كان، أي عند رؤيا الآية ظلت الأعناق خاضعة لو شئنا، لٰكِنَّا لم نشأ ذلك إجبارا لهم،[5] فهم غير خاضعين لسوء كسبهم.

﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ۝٥﴾

وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث، أي بعد التوراة والإنجيل، وكذلك التوراة بعد أن لا توراة. وقد تكلمنا في قوله: **محدث**، في سورة اقترب[6] وفي آخر سورة الدخان.[7] ويشير إلى من وُجد فيهم الرسول أو الرسالة من كل قوم. وذكر الرحمن إعلاما أن ذلك رحمة بل هو أتم الرحمة وأكملها، **إلا كانوا عنه معرضين**.

---

[1] ر + في.

[2] ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢).

[3] ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (سورة الكهف، ١٨/٦).

[4] ر: لذهبت.

[5] ك – لهم، صح هـ.

[6] ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٢).

[7] ر – وفي آخر سورة الدخان، صح هـ.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾

فقد كذبوا، الذكرَ بإعراضهم الذي يشهد بما أجَنَّتْه بواطنُهم من الاستهزاء بذكرنا المخبِر بإهلاكهم. **فسيأتيهم أنبؤا ما كانوا به يستهزءون**، وهذا تواعدٌ كما تقول: يأتيك الخبر.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾

وهذا يعطي أنهم كذبوا بالبعث فضربَ لهم المثل بالأرض، ومن كذب بالبعث / [فقد] أعرض عن الرسل، لأن جميع ما وعد به الرسل من الجزاء في الآخرة ينبني[1] [٣٠٦و]
على البعث، فافهم ذلك. والكريم المكرَّم، وهي استعارة في الكلام تدل على عظم العطية من الواهب سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾

إن فى ذلك لآية، دالة على البعث وعلى الصانع سبحانه. **وما كان أكثرهم مؤمنين**، وهم يرون ذلك في كل حين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾

وإن ربك لهو العزيز، الذي لو شاء لأهلكهم بإعراضهم، لكنه، **الرحيم**، يُمهلهم ويرسل إليهم الرسلَ بالذكر رحمةً لهم.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾

ولمّا قدم قوله: فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ،[2] أخذ يقصّ لهم من الأنباء ما جرى لمن قبلهم ممن كان في الاستهزاء مثلهم. فقدم على ذلك ما يُري من قدرة الله الدالة لهم على قدرته على الانتقام ممن أعرض. وذلك بقوله: أَوَلَمْ يَرَوْا۟،[3] ثم تلاه بما يُسمَع، أي أفلم يروا هذا أفلم يسمعوا هذا. فعطف المسموع لهم على المرئيّ لكل أحد في كل وقت فقال: **وإذ نادىٰ ربك موسىٰ أن ائت القوم الظٰلمين، قوم فرعون ألا يتقون**، تواعدًا[4] لهم إن لم يتقوا.

١ ش ك: يبتنى.
٢ الآية ٦ من هذه السورة.
٣ الآية ٧ من هذه السورة.
٤ ش م: تواعد.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤﴾

قال رب إنى أخاف أن يكذبون، ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى، ولم يقل: فيضيق، لأنه عطف على [قوله:] **أخاف**، أي وأخاف [أن] يضيق صدري، وأخاف أن[1] لا ينطلق لساني. ولو قال: فيضيق كان الضِيق من أجْل نفسه لكونه قد كُذِّب. وإنما أراد أنه يضيق صدري من أجل أنهم يكذبون بآيات الله ورسالاته سبحانه. **فأرسل إلى هٰرون**، أي ليصدّقني، ولم يقل: فأرسل هارون الذي لو قاله لدل على أنه قال ما معناه: أرسلْه دوني. وهذا المعنى أعني "أرسله دوني" جاء في التوراة.[2] وذلك أن النقلة لها لم يحرّروا الألفاظ كما حرّر نقلة القرآن، والله أصدق القائلين. وقوله: **ولهم عليّ ذنب**، أي قتلُه القبطيَّ، **فأخاف أن يقتلون**.

﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ١٥﴾

قال كلا، هي "لا" ولكنها مؤكِّدة، ولم يُمكن أن تؤكّد بلام التأكيد فقلبت كافا. ثم أمره سبحانه بما يدل على إرساله[3] إلى هارون، فقال بالفاء: **فاذهبا بئايْتنا**، فمن يذهب بالآيات يُخيف ولا يخاف. ثم أكد الطمأنينة بقوله: **إنا معكم مستمعون**، ولم يقل: معكما، لأنه مع كل مخلوق، فأشار إلى موسى وهارون ومن أُرسل إليهم. ومعنى "مستمعون" أي لما تقولون ويقولون، وأشار بالمعية إلى القرب بحيث يستمع القول.

﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧﴾

فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العٰلمين، ولم يقل: رسولا، لأنه كان يدل على رسالتين. وإنما قال: **رسول**، ليكون اللفظ دالا على أن كل واحد منهما له أن يقول: أنا رسول، وأما قوله: **إنا رسول**،[4] فيلزم عنه رسالة واحدة. فلمّا بيّنه ههنا وقال في الموضع الآخر: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ،[5] كان دالا على رسولين، ولكن برسالة واحدة. فلو أدّاها أحدُهما صحّ القول والآخر يصدقه[6] فكانا رسولَ ربِّ العالمين ورسولَيْ رب العالمين.

---

[1] ر: أنه.

[2] لم أعثر عليه بهذا اللفظ في التوراة. انظر لذلك مثلا: العَدَد ١٨/١، والخُرُوج ٤/٢٨-٣١، ٦/١٣.

[3] ش + الرسالة؛ ك: الرسالة. وفي هامش ك: إرساله.

[4] ك - وأما قوله إنا رسول، صح هـ.

[5] ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡ﴾ (سورة طه، ٢٠/٤٧).

[6] ش: يصدق.

ومعظمُ الرسالة **أن أرسل معنا بني إسرٰءيل**، أي فلما ذهبا وقال له[1] موسى ذلك.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨﴾

قال ألم نربك فينا وليدا، أي في سنّتنا من حيث الولادة، **ولبثت فينا**، أي بيْن أظهرنا وفيما بيْننا، **من عمرك سنين**، حتى كَبُرْتَ.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝١٩﴾

وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت، أي مع ما فعلناه معك من التربية والصفح، **من الكٰفرين**، بنا، لأن فرعون لم ينسب إليه من الكفر بالله شيئا،[2] بل من الكفر به. ويحتمل أنه أراد كونه من بني إسرائيل فهم كفار بما يعتقده فرعون.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝٢٠﴾

فجاوبه موسى عن الجميع وبدأ بقوله: **قال فعلتها**، فعلٌ للطبع وفاعل للتكليف.[3]

[٣٠٦ظ] وقوله: **إذا**، أي حينا، **وأنا من الضالين**. الضلال / ههنا وفي قوله: وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ،[4] لا يريد به الكفر، بل لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان،[5] فهداه إلى ذلك فكان ضالا عن ذلك لا في ضده مِن كفر أو شرك.

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٢١﴾

ففررت، هربت مسرعا، **منكم لما خفتكم**، إلى ربي. **فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين**.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٢٢﴾

ثم قال موسى ما يُفهم منه جحدُ النعمة لكن بصورة السؤال من منكِر بسؤاله ما أثبته خصمُه: **وتلك نعمة**، أي ليس تلك نعمة، **تمنها**، أي تمن بها، **علىّ أن عبدت بنى إسرٰءيل**،

١ ش: وقال لهم.

٢ ك: شتنا. وفي هامش ك: شيئا.

٣ ر: للتكلف.

٤ سورة الضحى، ٧/٩٣.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة الشورى، ٥٢/٤٢).

ظلما ولم تُعبِّدني. فذكر سبب الظلم ليدل السبب على المسبِّب وأراد المسبَّب. فيكون المعنى[١] -والله أعلم- أنك جعلتَهم عبيدا لك ظلما منك لهم، ولذلك فسر بعضُهم، **عبدت**، ظلمتَ، لأن فرعون إنما كان يذبّح أبناءهم[٢] خوفا لئلا يَكثُروا فيخرجوا عن عبوديته. ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾،[٣] لأنهم إذا كثروا لا يمكنه أن يستعبدهم، وذلك غاية الظلم. فصار المعنى وتلك التربية إنما تَمُنّ بها عليّ بسبب أنك ظلمت بني إسرائيل ولم تظلمني معهم، أي فهل يكون لعادل أن يَمُنَّ بترك الظلم؟ فيكون هذا من أبلغ الجواب وأوجزه، فافهمه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾

فلمّا أعجزه في الجواب سكت[٤] عنه وسأل عن غير ذلك، كالمعترِف بالحال إذا غيَّر ما بدأ به من تمام الإنكار في المقال. **قال فرعون وما رب العٰلمين**.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قال رب السمٰوٰت والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، أي إن[٥] كنتم موقنين بأنكم لم تخلقوهما فقد تيقنتم أن لهما صانعا هو الذي أدعوكم إليه.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾

قال لمن حوله ألا تستمعون، أي ما يذكره هذا من الباطل والبهتان؟ فجاوب موسى للجميع: **قال ربكم ورب ءابائكم الأولين**.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾

فلما رآهم فرعون يستمعون ما يقوله موسى، **قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون**، أي لكونه لم يتبع طاعتي وادعى هذا الأمر الذي لا يدعيه إلا مجنون، وهو أن صانع الموجودات لا يرسل إنسانا. فإن فرعون كان يعرف الصانع ولكنه يجحد

---

١ ك - المعنى، صح هـ.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ (سورة البقرة، ٢/٤٩). وانظر أيضا: سورة إبراهيم، ١٤/٦.

٣ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٢٧).

٤ ك: سئلت. وفي هامش ك: سكت.

٥ ر ك - إن.

أن يرسل بشرا رسولا، وأراد فرعون أن يصدّ قومه عن الإصغاء إلى موسى بقوله: **لمجنون**، فإن المجنون ما يتّبعه عاقل. وقيل: الشبهة التي نسبه بها إلى الجنون هي الجواب بعد ما سأله بلفظة "ما"، أي إنما أسأله عن شيء يُرى مثلي فيخبرني عما لا يرى. ويحتمل أنه[1] إنما سأله بلفظة "ما" إشارة إلى أن هذا الذي تدعي أنك رسوله لا يُعرف فكيف تكون رسولَ من لا تعرفه؟[2] والأول أشبه بكلام فرعون، لأنه كقول من قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾[3] أي دعواه دلت على ذلك.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قال رب المشرق، شَرقَت الشمس إذا طلعت، وأشرقت أضاءت، **والمغربِ وما بينهما إن كنتم تعقلون**. فدلهم بهذه الآية أن ربه وإن لم يُر بذاته كما تُرى الأجسام بالأعين رسوما، فإنه يُرى من مصنوعاته بضرورة العقل لزوما لمن رأى المشرقَ والمغرب وما بينهما إن كان ذا عقل. فإن من تعقل إذا رأى ببصره السماوات وعِظَمها رأى ببصيرته أن خالقها أعظم منها. فاستدل بالصنعة على الصانع تعقلا لا معاينة، بل من جهة المعاينة لِما يُرى بالعيون، إذ هذه صفة العلي العظيم سبحانه.

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

قال أولو جئتك بشيء مبين، عن صدقي.

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

ونزع يده، من جيبه بعد ما أدخلها، **فإذا هي بيضاء للنظرين**.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

---

[1] ك - أنه، صح هـ.

[2] ر ك: لا نعرفه.

[3] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/٢٥).

ثم قصد فرعون ما يُحرّك به قلوب قومه ليعاندوا موسى فقال: **يريد أن يخرجكم من أرضكم / بسحره فماذا تأمرون**، فيه لأفعله به من الإهلاك أو غيره؟ انظر إلى مثل [٣٠٧و] فرعون مع تكبره وعلوّه لم يَرَ أن يؤذي موسى بغير وجه، ومع هذا يشاور قومَه[١] لئلا يكون عندهم ظالما.

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ٣٧﴾

وانظر إلى قومه في مثل ذلك بقولهم: **قالوا أرجه**، أخّره، **وأخاه وابعث فى المدائن حٰشرين، يأتوك بكل سحّار عليم**.

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨﴾

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤٠﴾

وقيل للناس، في سائر المدائن، بعضٌ يقول لبعض: **هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة**؟ الاتباع ههنا لا يريد به الاتباع في دين بل كما يتبع المرء ما هو من باب العجيب ليخبره،[٢] ولهذا لم يقل: نَتْبَع بتخفيف التاء. ولا يُوهِمْك قولهم: "لعلنا" فهو كما تقول: لعلنا نرى هذا الأمر الذي لا نقدر على رؤيته من فرط الزِّحام إلا باتباع السحرة في توجههم فنكون كالأتباع لهم، أي فنقدر ونتمكن حينئذ باتباعنا لهم والذهابِ في أعقابهم أن نَحضر بينهم في الجمع العظيم وننظر، **إن كانوا هم الغٰلبين**.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤١ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٢﴾

فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغٰلبين، قال نعم وإنكم إذا، أصلها "إذ أن"، فاستُثقلت، ومعناها "حين" ضُمّ إليها "أن"، أي حين أن كان كيت وكيت أو يكونُ. وقوله: **لَمن المقربين**، أي بعد الأجر ترغيبا لهم. فانظر إلى هذا الإلٰه الفقير كيف احتاج إلى الخلق الحقير، فاعتضد بهذا الجمع على دفع حجةٍ واحد.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٤٣﴾

---

١ ك - ليعاندوا موسى فقال... لم ير أن يؤذي موسى بغير وجه ومع هذا يشاور قومه، صح هـ.

٢ ش ك: ليخيره.

﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾

فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون، يقال: افعل بسعادة السلطان. **إنا لنحن الغلبون. فألقى موسىٰ عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون**، يَقْلِبون، أي يقلبونه[1] بالسحر عن صورته إلى صورة غيره. وعبر عن الكذب بالإفك، لأنه مقلوب الصدق، وكذلك ههنا.[2] لأن ما يظهره الساحر من قلب العصا حيةً هو كذب، فهو أولى بلفظة الإفك.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قالوا لا ضير، أي لا ضرر في ذلك علينا في الآخرة، **إنا إلى ربنا منقلبون**.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطٰينا، بسبب، **أن كنا أول المؤمنين**، لمن يأتي من ذريتنا إلى يوم القيامة، وأول من آمن بموسى ممن بُعث إليهم.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

إن هٰؤلاء لشرذمة، الشرذمة من الشيء بقية يسيرة، لأن فرعون كان يقتّل أبناءهم.[3] والموت يعمل في الآباء فلم يبق إلا بقيةٌ، **قليلون**، بالنسبة إلى كثرة عدوهم.

وإنهم، لنا مع قلتهم **لغائظون. وإنا لجميع حٰذرون**.

---

[1] ك - أي يقلبونه، صح هـ.

[2] ش: هنا ههنا؛ ك: هنا. وفي هامش ك: ههنا.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ (سورة الأعراف، ١٤١/٧).

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾

فأخرجنٰهم، عقابا، **من جنّٰت وعيون، وكنوز ومقام كريم**، أي ذلك المقام. **كذٰلك**، يعني فيه جنات وعيون أيضا فتكون الجنات والعيون في داخل البلد وخارجه. وهذا الإخراج كان بإلهامهم أن يتبعوا بني إسرائيل لتكون مَنِيّتهم جملةً بالغَرَق. وقوله: **وأورثنٰها بنى إسرٰءيل**، لا يريد أنه أورثهم تلك بعينها بل أورثهم جناتٍ وعيونا ومقاما كريما. وفي التوراة مكتوب أنه لا يجوز لأحد من بني / إسرائيل أن يرجع في ذلك [٣٠٧ظ]
الطريق أبدا.[١] وفيها أن الله تعالى وعد إبراهيم أن الله[٢] يعطي نسله من نهر مصر إلى نهر الفرات.[٣] فيحتمل أن يكون تأويل قوله في التوراة لا يجوز لأحد من بني إسرائيل أن يرجع إلى مصر مخصَّصا بمن خرج من بعض بني إبراهيم وهم بنو إسرائيل.[٤] وأما تخصيص بني إسرائيل بالأرض المقدسة لا ينفي أنهم ملكوا غيرها، ويكون الإخبار الثاني صحيحا.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾

وقوله:[٥] **فأتبعوهم مشرقين**، أي وقت إشراق الشمس. ولو شدد الراءَ لدل على أنهم كانوا غربي بني إسرائيل فشرّقوا طلبا لبني إسرائيل، بل المراد مع إشراق الشمس، لأن بني إسرائيل خرجوا ليلا، وآلَ فرعون خرجوا عند شروق الشمس. ويقال: أَشرق الرجلُ إذا دخل في شروق الشمس، فليس المراد الجهة بل الوقتَ، وتشريق اللحم تقديده،[٦] ومنه أيام التشريق ثلاثة أيام بعد يوم النحر، لأن لحوم الأضاحي تُشرَّق وتُشرَّر في الشمس. وقال ابن الأعرابي:[٧] سميت بذلك، لأن الهَدي لا يُنحر حتى تُشرِق الشمسُ.[٨]

---

١ لم أعثر عليه فيما بين يدي من التوراة بهذا اللفظ.

٢ ك - الله، صح هـ.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا: لِنَسْلِك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات» (التَّكْوِين ١٥/١٨).

٤ ر - من بعض بني إبراهيم وهم بنو إسرائيل، صح هـ؛ ش ك - من بعض بني إبراهيم وهم بنو إسرائيل.

٥ ر - وقوله.

٦ قدد الشيء مبالغة في قده واللحم قطعه طولا وملحه وجففه في الهواء والشمس (المعجم الوسيط «قدد»).

٧ لعله أبو سعيد ابن الأعرابي أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم، مؤرخ من علماء الحديث. من أهل البصرة. تصوف وصحب الجنيد، وانتقل إلى الحجاز فكان شيخ الحرم المكي. له طبقات النساك، وتاريخ البصرة، والاختصاص في ذكر الفقر والغنى، والإخلاص، ومعاني علم الباطن، والعمر والشيب، ومعاني الزهد، والمواعظ والفوائد. توفي بمكة سنة ٣٤٠هـ/٩٥٢م (الأعلام للزركلي، ١/٢٠٨).

٨ انظر لمعرفة المزيد: حاشية الروض المربع لعبد الرحمن بن محمد العاصمي، ٢/٥١٩.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾

فلمّا ترٰءا الجمعان، رأى كلٌّ منهما الآخر. **قال أصحٰب موسىٰ إنا لمدركون. قال كلا إن معي ربي سيهدين**، هذا هو الإيمان الصِّرف من موسى عليه السلام، لأنه لم يكن عالما بشَقِّ البحر، وقد صار العدو من ههنا والبحر من ههنا. وبمثل هذا الإيمان يُشَقّ البحرُ ويتم الأمر.

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾

فأوحينا إلىٰ موسىٰ أن اضرب بعصاك البحر، فانفلق فكان كل فرق، تذكير فرقة، **كالطود العظيم**. ولم يقل: كل فِلْق، لأن الفلق هو بين الفِرقتين، والفرق ههنا هو الماء الذي انفرق بعدد أسباط بني إسرائيل.

﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤﴾

وأزلفنا، وقرّبنا إلى، **ثَمّ**، أي إلى الموضع الذي انفرق فلم يَغْرَقْ آل فرعون إلى أن دخل الجميعُ فصار أولُهم في مسافة بالقرب من آخر بني إسرائيل وآخرُهم داخلَ البحر الذي انفرق. فهذا معنى [قوله:] **وأزلفنا ثَمّ الآخرين**، وهو من قوله: وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ،[1] أي قرِّبت. ويقال عن الصبي مثلا إذا كان يقرأ في كتاب وعَبَر منه أسطُرا بغير قراءة، أو قَلَب ورقتين مثلا جملةً عن تعمدٍ منه يقال: زَلِفَ، أي قرب من أخير المقروء،[2] ولكنه قربٌ بغير قراءة. وهو[3] يشبه مَن طُويت له الأرضُ بغير سير. وقوله: **وأزلفنا ثَمّ**، أي وقرّبنا إلى، **ثَمّ الآخرين**. ولم يقل: إلى بني إسرائيل لئلا يُفهم أنهم لحقوا بني إسرائيل، بل المعنى قرّبناهم إلى مكان بني إسرائيل في البحر، ولم نغرِقهم.

﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦٨﴾

وأنجينا موسىٰ ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين، فكان البحر جامعا بين المُزلَفين والناجين في زمن واحد، ولكن[4] هؤلاء هاربون وهؤلاء طالبون. فكان آخر بني إسرائيل

---

[1] سورة التكوير، ١٣/٨١.
[2] ر ش: المقرو. وفي هامش ك: المقرو.
[3] ر: فهو.
[4] ر: لكن.

في أول البر بعد قطعهم البحرَ وآلُ فرعون في أعقابهم لم يخرجوا إلى البر، وآخر آل فرعون قد دخل في البحر.[١] فلمّا أنجاه[٢] الله[٣] ومن معه أغرق فرعون ومن معه.[٤] فكان المغرَقون ينظرون إلى موسى وقومه، وكذلك موسى وقومه ينظرون إليهم، لكن هؤلاء في البحر يرون الناجين وهؤلاء في البر يرون المغرقين. فكان للناجين فرح بالنجاة وفرح بهلاك[٥] الأعداء؛ وكان للمغرقين قرحٌ بالهلاك وقرْح بنجاة الأعداء، وهذا مما بيَّنته التوراة.[٦]

ولزم [هذا التفصيل] من هذا النص، والله أعلم، ولهذا بعده: **إن فى ذٰلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين**، أي أكثر الناس في الأزمنة ممن يَسمع هذه القصة[٧] فلم يَتَّعظ بها. **وإن ربك لهو العزيز الرحيم**.

ولما ذكر قصة تشبه القضية الأولى[٨] وجب أن يعرِّفنا بعدها أن الله عزيز رحيم كما عرف في الأولى، فكان الثاني كالأول. ولا يقال: جاء تأكيدا بل المراد أنه عزيز ذو انتقام[٩] ممن عصى، رحيم بمن آمن / وأطاع. فلم تتغير عزته ولم تتغير رحمته. [٣٠٨و]

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٧٠﴾

واتل عليهم نبأ إبرٰهيم، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون، وقوله في موضع آخر: مَاذَا تَعۡبُدُونَ،[١٠] يدل على سؤال لهم بحضور الآلهة. وههنا[١١] بإسقاط "ذا" يدل على حكاية عن السؤال المشار إليه بلفظة "ذا"، فليست "ذا" زائدة كما قيل. ولهذا يظهر من قوله: "ما" بإسقاط "ذا" سؤالُ تنبيه واستهزاء بهم. وفي إثبات "ذا" يظهر الاستهزاءُ بآلهتهم مع التقريع[١٢] والتوبيخ لهم، فافهمه بما جاوره[١٣] في كل موضع.

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١﴾

١ ش ك: قد دخلوا البحر.

٢ يعني موسى عليه السلام.

٣ ر + موسى.

٤ ش - أغرق فرعون ومن معه؛ ك - أغرق فرعون ومن معه، صح هـ.

٥ ش ك: بإهلاك. وفي هامش ك: بهلاك.

٦ ك - التوراة، صح هـ.

٧ ر + فيعتبر بها.

٨ لعل المؤلف يشير إلى الآية ٨ و٩ من هذه السورة.

٩ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٤).

١٠ ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٨٥).

١١ ك: وهنا.

١٢ التقريع: التأنيب والتعنيف. وقيل: هو الإيجاع باللوم (لسان العرب، «قرع»).

١٣ ر: بما حاوره.

﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤﴾

قال هل يسمعونكم إذ تدعون، أو ينفعونكم أو يضرون، قالوا، لا، بل وجدنا ءاباءنا كذٰلك يفعلون.

﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦﴾

﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧﴾

فإنهم عدو لى، العدو تجب مقاطعته ولا تجوز مواصلته، فكيف عبادته. فلهذا عبر بلفظة العدو وأفرد، لأن الجميع منهم بمنزلة واحدة مع الجواز لغةً. فدلت العبارة بلفظ العداوة على صورة من[1] الاستعارة إشارةً إلى البعد. ومثله عدواة الكفار لله تعالى، لا لأن الله يعادي أحدا أو يعاديه أحدٌ بالحقيقة جل ذكرُه، بل كعداوة الجمادات من الأصنام لإبراهيم وعداوته لها. **إلا رب العٰلمين.**

﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾

الذى خلقنى، بلفظ الماضي لأنه قد كان. ثم قال: **فهو يهدين**، بلفظ المستقبل، أي بضروب الهدايات في الدين والدنيا كلَّ آن. فهو أمر يتكرر كل حين بعد الخِلقة الأولى. **والذى هو**، أي لا غيره، **يطعمنى ويسقينِ. وإذا مرضت**، نسب ذلك إلى نفسه، **فهو يشفينِ. والذى يميتنى ثم يحيين**، أسقط "هو" ههنا[2] لئلا يتخصص به سبحانه كما تخصص بما قبله فيكون مناقضا لقوله تعالى: مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا،[3] فافهم ذلك. وقوله: **والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين**، الطمع إنما يكون ممن طلب ما لا يستحقه.

﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣﴾

ولما رأى إبراهيم عليه السلام تقصيره عما يجب عليه من الشكر على النِّعَم وقف في موقف الخاطئ الذي يسأل طامعا في الكرم لا مطالبا بما يوجبه الاستحقاقُ.

---

[1] ر – من، صح هـ.
[2] ش ك: هنا.
[3] سورة المائدة، ٥/٣٢.

وكذلك[١] أتبعه بسؤال آخر فقال: **رب هب لى حكما**، أي بالحق وهو مطلق، أي أحكم به على نفسي فيما يُرضيك عني وعن عبادك[٢] بما أمرتهم به ونهيتَهم عنه. **وألحقنى بالصٰلحين**.

﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾

واجعل لى لسان صدق فى الآخرين، أي من ذريتي، فهو طلب أن يكون له في الآخرين لسانُ صدق من ذريته، أي لسانٌ يتكلم بالصدق، وهو هذا النبي العربي صلوات الله عليه وسلامه، لأنه لسان صدق في الآخِرين من الأمم لإبراهيم عليه السلام. وليس بعد هذه الأمةِ أمةٌ فهُم الآخِرون [أيضا]. وقد علّمهم إبراهيم عليه السلام كيف يعتقدون وكيف يَدْعون: **إلٰهي أنت الغني عن الإحسان، الوفيّ بما وعدتَ به الإنسان. وأنا المعترف بأوزاره، والعارفُ بمقداره. ندمتُ فأقلْتَني، وجَهِلتُ فعلّمتَني، ومرضت فعافيتَني، وسألتُ[٣] فآتيتَني. فأنا أسألك أن أسألك، وأتوسل إليك بمن أمَلَك [و]أمّ لك، فآتِني مُنائي**،[٤] وتقبل دعائي.

﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦﴾

﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾

ولا تخزنى يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، سالم مِن كسب يؤاخَذ عليه؛ ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾[٥] ومن ههنا تتولد السيئات، فإما أن[٦] تُذهبها الحسنات أو تَجُبُّها[٧] التوبة. ومن راقب الله بقلبه في الخطرات حرسه في جوارحه من الهَفَوات.[٨]

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠﴾

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ٩١﴾

وبرزت الجحيم للغاوين، بَرَز إلى خصمه إذا نهض مبادرا إليه منفصلا / عن القوم، [٣٠٨ظ]

---

١ ر: ولذلك.

٢ ر: عني وعلى عبادك.

٣ ر: فسألت.

٤ المُنَى بضم الميم جمع المُنية وهو ما يَتمنّى الرجل (لسان العرب، «مني»).

٥ ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٢٥).

٦ ك: السيئات فإنها.

٧ جبّ يَجُبّ جَبًّا: استأصل (لسان العرب، «جبب»).

٨ ك - الهفوات، صح هـ.

وبرّزت العُدد إذا أُخرجت من مخازنها منفصلة.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون، لأنفسهم.

﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

فكبكبوا، كُبّب مضاعف كُبّ، وكبكب مضاعف كُبّب، ولِعظم الكبّ فيه صار مشتقا من الكُبّة، لأنه ينكبّ من جميع جهاته، **فيها هم والغاوون**، بهم، **وجنود إبليس أجمعون**.

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

قالوا وهم فيها يختصمون: **تالله إنْ**، بمعنى إنه أو إنا، **كنا لفى ضلٰل مبين. إذ نسويكم برب العٰلمين. وما أضلنا إلا المجرمون. فما لنا من شٰفعين**، شافعٍ، وغيّر للوِزان بدليل قوله بعده: **ولا صديقٍ حميم**، سمّي حميما من الحُموّة. ولا أقربَ من صديق يَلصق جسمُه بجسم صديقه كالزوجة والولد. وإذا بعُد هؤلاء فغيرُهم أبعدُ. ومثله لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ.[1]

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

فلو أن لنا كرة، إلى الدنيا،[2] **فنكون من المؤمنين**.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

إن فى ذٰلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين، بإبراهيم وما دعا إليه. **وإن ربك لهو العزيز**، أي لم يغيّر عزتَه سبحانه كونُهم لم يؤمنوا [به] وتكبروا [عنه]، بل هو على ما كان عليه من العزة. ومع هذا هو، **الرحيم**، بأمثالهم، إذ لم يُهلكهم بل يُمهلهم ليتوبوا.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

---

[1] سورة الممتحنة، ٣/٦٠.

[2] ش - إلى الدنيا.

﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٠٧﴾

إنى لكم رسول أمين، لا أخون فيما أُرسلتُ به إليكم فأنقصه أو أبدّله.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٠٨ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩﴾

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١١٠﴾

كرر إعلاما أنه لم يقل ذلك مرة بل مرارا.

﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾

﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢﴾

أي ما يفيد[١] علمي وأي شيء يلزمني أن أعلم ما عملوه[٢] قبل الإيمان، أي لا يلزم ذلك، إنما، **أنا نذير**، ولهم من يحاسبهم بما يكتسبونه[٣] بعد الإيمان.

﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣﴾

إن حسابهم إلا علىٰ ربى لو تشعرون، أي لو تعلمون. وأراد أدنى علمٍ، أي لو علمتم لرأيتم ما أقوله حقا.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ١١٦ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧﴾

﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾

فافتح بينى وبينهم فتحا، وهو كفتح باب النجاة وباب العذاب، وسمّي الحاكم فتّاحا، لأنه يفتح المستغلَق من الحكم أو الأمر ويقضي به، فهو وإن دل على الحكم لا يخرج عن معنوية الفتح. **ونجنى ومن معى من المؤمنين**.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩﴾

فأنجينٰه ومن معه فى الفلك المشحون. الفلك السفن يقع على الواحد والجمع،

---

[١] ش ك: ما يقيد.
[٢] ك: ما علموه. وفي هامش ك: عملوه.
[٣] ش: مما يكتسبونه.

وهو مشتق من الفَلْكَة، ومنه الفَلَك الدائر.[1] والمشحون من[2] شَحَن السفينةَ: ملأها رِكابا ومتاعا، أو غير ذلك حتى استدّت.[3]

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

وإن ربك لهو العزيز الرحيم، أي جرى هذا من هؤلاء وأجرى عليهم هذا بذنوبهم.[4] ولم يغير من عزته شيئا كونُهم لم يطيعوه، ولا من رحمته كونه أهلكهم. فافهم هذا في جميع المواضع مطلقا وإن ذكرنا غيره مخصَّصا. والمراد بقوله: **وما كان أكثرهم مؤمنين**، ليس[5] أكثرَ المذكورين المهلَكين أو غيرَهم،[6] وإنما هو كقوله: وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ.[7]

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾
فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾
أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

أتبنون بكل ريع، وهو المكان المرتفع على حوالَيه. ومنه الرَّيْع[8] في الطعام. وأما الرائع فهو مما يزرَع. وكأنه يشير إلى بناء الحصون فإنها إنما تبنى على زائد مرتفع من الأرض، وكذلك القصور. ومعنى "بكل ريع" للمبالغة لا للحصر. **ءاية**، أي علامة تبقى من بعدكم للأمم، كقوله: وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً.[9] / وقوله: **تعبثون**، يُفهَم منه استفهامٌ مقرِّع موبِّخ. ويُفهَم منه الإخبار عن حالهم،[10] لأن من بنى ما لا حاجة له به فهو عابث، لأنه أذهب ماله وعمرَه في الفاني. **وتتخذون**، في الأبنية وغيرها **مصانع**، جمع مصنع، للماء يُصْنَع لخَزْن الماء الكثير، **لعلكم تخلدون**، أي تظنون ذلك. [٣٠٩و]

---

[1] الفَلَك: مَدارُ النجوم والجمع أَفْلاك والفَلَكُ واحد أَفْلاك النجوم. الفَلْكَة: قطعة من الأرض تستدير وترتفع عما حولها (لسان العرب، «فلك»؛ والمعجم الوسيط، «فلك»).

[2] ش – من.

[3] أي استقامت وانتظمت.

[4] ر: هذا من ذنوبهم.

[5] ك – ليس، صح هـ.

[6] ر ك: أو قومهم. وفي هامش ك: أو غيرهم.

[7] سورة يوسف، ١٠٣/١٢.

[8] الرَّيْع: النَّماء والزيادة، راعَ الطعامُ وغيره يَرِيع رَيْعا (لسان العرب، «ريع»).

[9] ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (سورة العنكبوت، ٣٥/٢٩).

[10] ش ك: عن أحوالهم. وفي هامش ك: حالهم.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾

وإذا بطشتم بطشتم جبارين، منصوب على الحال. والبطش المبادرة إلى فعل الشيء من غير تلبُّث. والمراد بقوله: **جبارين**، أي على عباد الله. **فاتقوا الله وأطيعون. واتقوا الذى أمدكم**، من الإمداد،[1] وهو إتْباع الشيء بالشيء، **بما تعلمون**، وذكر مما أمدّهم:[2] **أمدكم بأنعم وبنين، وجنّت وعيون**.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الوٰعظين. إن هٰذا إلا خلق الأولين، أي تقديرهم، أي قدّره الأولون عن علم فهو من كلام الناس. وأما الاختلاق فهو الكَذِب. **وما نحن بمعذبين**.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

فكذبوه فأهلكنٰهم إن فى ذٰلك لآية، تدل المكذبين على أننا نُهلكهم إن شئنا كما أهلكنا مَن كذّب مِن قبلهم. **وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم**، إذ[3] لولا الرحمة لأهلك أمثالهم.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾

أتتركون فى ما هٰهنا ءامنين، فى جنّت وعيون، وزروع ونخل طلعها هضيم، يقال للطلع: هضيم لدخول بعضه في بعض ما لم يخرج من كُفُرَّاه. والكَفر بفتح الكاف التغطية،

---

[1] ش – من الإمداد؛ ك – من الإمداد، صح هـ.
[2] ر: مما أمدكم.
[3] ر ك: أي.

كفرتُ الشيء أكفِره بكسر الفاء كَفْرا، أي سترتُه. ومنه قيل للقبر: كَفْر وللقرية كذلك. وكل ما كفرته فقد سترتَه. والكُفُرَّى والكافور وعاء طلعِ النخل. وسمِّي الطلع طلعا، لأنه أول طلوع الرُّطَب، ثم تقلبه[1] يد القدرة بعد أن كان هضيما إلى أن يصير رُطَبا جَنِيًا وقد كان صغيرا مهزولا متداخلا. وانهضم الطعامُ إذا تصاغرت[2] أجزاؤه ودخل بعضها في بعض فصار كَيْلوسا[3] فدفعته المعدة إلى جهاته إذ[4] لم يبق لها به شغل.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

وتنحتون من الجبال بيوتا، ولم يقل: في الجبال لئلا يدل على المغائر، بل من الجبال حجارةً للبيوت. وأراد أعظم[5] الحجارة[6] كأنها الجبل، وقد نُحت. وقوله: **فُرهين**، الفَرِه والفاره كالحَذِق و[7]الحاذق وهو النافذ في صِناعته. والفَرَه النفوذ[8] في الأمر.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾

ولا تطيعوا أمر المسرفين، الإسراف يقال في المآكل والمشارب[9] والمعاصي وغيرِ ذلك.

﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

لأن المفسد في شيء قد يُصلح في غيره، وقد يُصلح[10] ما أفسده. والمراد ولا يتوبون.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

قالوا إنما أنت من المسحرين، وهو الذي سُحِر مرة بعد أخرى فذهب عقلُه.

﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾

---

١ ش ك: يقلبه.
٢ ر: إذا تصغرت.
٣ الكَيْموس في عبارة الأطباء هو الطعام إذا انهضم في المعدة قبل أن ينصرف عنها ويصير دما، ويسمونه أيضا الكَيْلُوس (لسان العرب، «كمس»).
٤ ش: إذا.
٥ ر: عظم.
٦ ر: الحجر.
٧ ش + الحجر.
٨ ك: النقود؛ ن: النفود.
٩ ش ك: في المأكل والمشرب. وفي هامش ك: والمشارب.
١٠ ش ك - وقد يصلح.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦﴾

قال هٰذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، أي لها شربُ يوم معلوم، ولكم شربُ يوم معلوم.[1] **ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم**.

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٥٩ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٤﴾

﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾

أتأتون الذكران من العٰلمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزوٰجكم، هذا دليل لقوله: وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ،[2] كما بيّنّاه في موضعه. **بل أنتم قوم عادون**، / من العُدوان. [٣٠٩ظ]

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ١٦٧﴾

قالوا لئن لم تنته يٰلوط لتكونن من المخرجين، ومنه قوله: أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ،[3] أي عن وعظ العالمين. ومرادهم بالعالمين إطلاق القول. والمقصود أنه[4] لا ينهاهم بل يترك نهيَهم، وهو كما تقول: أوصيتك ألا تكلم أحدا من الناس وأنت تريد البعض؛ ومعنى الكلام ههنا: لئن لم تَنْتَهِ عن نهينا.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ١٦٩ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ١٧١﴾

قال إنى لعملكم من القالين، المبغضين. **رب نجنى وأهلى مما يعملون. فنجينٰه وأهله أجمعين. إلا عجوزا**، أُهلكت،[5] **فى الغٰبرين**.

---

[1] ش – ولكم شرب يوم معلوم.

[2] ﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٨٧).

[3] ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (سورة الحجر، ١٥/٧٠).

[4] ك: أنه. وفي هامش ك: أنهم.

[5] ش: هلكت.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٣ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٧٥﴾

اعلم أنه إنما[1] حكى الله تعالى دعوة الأنبياء بصيغة واحدة ولفظ واحد إشعارا بأن الحق الذي تأتي به الرسلُ ويَدْعون إليه واحدٌ، وإن اختلفت الأشخاص وتباعدت الأزمان، واختلفت الأمم وافترقت اللغات. فكأنهم مع طول المدة في زمن واحد، وكل واحد منهم يَعْضُد ما جاء به الآخر ويقوِّيه ويؤيده ويُوضحه، والآخر المتقدِّم يَعِد بمجيء المتأخِر ويأمر باتباعه. حتى كأنهم كانوا متعاصرين متصاحبين على قلب واحد، بل كان الواحد منهم هو الآخرَ بعينه إلا في شكله الظاهر. ثم عرَّفَنا سبحانه أن سنته في الوحي إليهم والإنذار بهم والإهلاك لمكذبيهم واحدةٌ أيضا، وأنه مع ذلك كلِّه هو العزيز الرحيم، كما بيّنّاه عند أول قصة عادٍ.[2] فليس ذلك بتكرار عند من يَفقه أحسنَ المعاني في أفضل المباني. فافهم ذلك في جميع مواضع التكرار تجدْه واجبا عند الاعتبار.

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٧٨ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٠﴾

كذب أصحٰب لـَٔيْكَة، شجرة الأيك،[3] **المرسلين. إذ قال لهم شعيب**، ولم يقل: أخوهم، وقال في هودٍ وغيرِها: وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا.[4] فدل على أنه كان من أهل مدين[5] كما في التوراة،[6] وأُرسل إليهم،[7] وأرسل أيضا إلى أصحاب الأيكة ولم يكن منهم. فقال: **ألا تتقون. إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا علىٰ رب العٰلمين.**

---

[1] ش: أنه لما.

[2] انظر الآية ١٢٣ وما بعدها من هذه السورة.

[3] الأَيْكُ: الشجر المُلتفُّ الكثير. وقيل: الغَيضة تُنْبِت السدر والأَراكَ ونَحْوَهما من ناعِمِ الشَّجَر، قاله الليث؛ أَو الجماعَةُ من كل الشجر حتى من النخل؛ وخص بعضهُم به مَنْبتَ الأَثْلِ ومُجتمَعه. وقالَ أَبو حَنِيفَةَ: الأَيْكُ: الجَماعة الكثيرة من الأَراكِ تَجْتَمع في مكان واحد (تاج العروس للزبيدي، «أيك»).

[4] سورة هود، ٨٤/١١. وانظر أيضا: سورة الأعراف، ٨٥/٧؛ وسورة العنكبوت، ٣٦/٢٩.

[5] مدين: مدينة قوم شعيب عليه السلام. وهي تُجَاهَ تبوك بين المدينة والشام. بها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام لماشية شعيب (آثار البلاد لزكريا القزويني، «مدين»).

[6] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة، الخُروج ١٦/٢-٢١.

[7] ك - وأرسل إليهم، صح هـ.

﴿۞أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١﴾

أوفوا الكيل، وذلك زيادة على العدل ليكون وافيا. **ولا تكونوا من المخسِرين**.

﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢﴾

وزنوا بالقسطاس، تقدم،[١] **المستقيم**.

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣﴾

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٨٤﴾

واتقوا الذي خلقكم والجبلة، وخلق الجبلة **الأولين**، ومنه قوله تعالى: وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلًّا [كَثِيرًا]،[٢] وهو مذكّر جبلة، ومعناه الخلقة والنشأة التي أنشأها الله أولا. ويعود معناه في الأصل إلى الجبل.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥﴾

﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦﴾

وما، أي وقالوا: **ما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكٰذبين**.

﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩﴾

فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة، وهي مشتقة مما يظلِّل من الظِّلّ. ولهذا قيل: الظُّلَّةُ أول سحابة تُظِلُّ. وهو مأخوذ من قوله تعالى: لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ.[٣] فهؤلاء عذّبهم الله بظل أحرقهم به وهم غير أهل مدين. **إنه كان عذاب يوم عظيم**.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٩١﴾

---

١ لعل المؤلف يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ (سورة الإسراء، ٣٥/١٧).

٢ سورة يس، ٦٢/٣٦.

٣ ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ (سورة الزمر، ١٦/٣٩).

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢﴾

وإنه، معطوف على أول السورة، وذلك قوله: تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ،[1] **لتنزيل رب العٰلمين**.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥﴾

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٩٦﴾

وإنه، أي ذكر هذا القرآن وخبره والبِشارةُ به، **لفى زبر الأولين**، جمع زبور، أصله
[٣١٠و] من الزُّبْرة وهي القطعة، لكنه / ههنا من الزَّبْر، يقال: زبره إذا نهاه وزجره فقطعه عن مُنكَر. فكل نبي جاء بقطعة من موعظة أو أمر ونهي،[2] وَعَد بكتاب ونبي يظهر في آخر الزمان، ويصف صفاتِ محمد صلى الله تعالى عليه وسلم خصوصا يَشْعِيَا عليه السلام.

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾

أولم يكن لهم ءاية أن يعلمه علمٰٓؤا بنى إسرٰٓءيل، ويريد من أسلم، لأنه يُقِرّ[3] وغيره إما يجهل أو يجحد. ولفظة "العالِم" تدخل في عموم لفظة النبي، لأن كل نبي عالمٌ ولا ينعكس. فتكون العلماء والأنبياء من بني إسرائيل يعلمون بصحة هذا القرآن. ويحتمل أيضا أنهم يعلمون، أعني العلماء الذين أسلموا من بني إسرائيل، يعلمون تفسيره من التوراة وغيرها من كلام الأنبياء، لأنهم اطّلعوا على ذلك بخلاف غيرهم. وذلك أصل عظيم.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ١٩٩﴾

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ٢٠٠﴾

كذٰلك سلكنٰه، تقدم،[4] **فى قلوب المجرمين**.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ٢٠١ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٢٠٢﴾

﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ٢٠٣﴾

فيقولوا، يومئذ: **هل نحن منظرون**.

---

[1] الآية ٢ من هذه السورة.

[2] ش: أو نهي.

[3] ر: لأنه يقرر.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآية ١٢ من سورة الحجر. وانظر أيضا إلى تفسير الآية ٥٣ من سورة طه.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾

ثم تواعد هؤلاء بقوله: **أفبعذابنا يستعجلون**؟ أي سائر المكذِّبين إلى يوم القيامة. ثم قال لكل سامع: **أفرأيت إن متعنٰهم سنين**، أي كثيرةً مما[1] شاءوا بسائر ما يحبونه. **ثم جاءهم ما كانوا يوعدون**، من العذاب. ولمّا قدم قوله: **أفرأيت**، كان المراد التنبيهَ بلفظ الاستفهام وليس هو متعديا. ولهذا أوضحه مستفهِما ههنا بقوله: **ما أغنىٰ عنهم ما كانوا يُمتّعون**. ولمّا احتمل أن يكون نفيا أيضا كان المراد الأول والثانيَ فلم يحتج أن يكرره.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾

﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

ذكرىٰ، أي بذكرى، فذكرهم[2] بها قبل الإهلاك لِتَحِقّ الحجة. **وما كنا ظٰلمين**.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾

وما تنزلت به الشيٰطين، بالقرآن.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾

إنهم عن السمع لمعزولون، أي لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ،[3] وقوله:[4] "إلى" يعطي[5] الإصغاء والفهم. والمعنى أن الملائكة هم رسل الله إلى الأنبياء. فالشياطين لا يقدرون أن يَسْمعوا كلام الملائكة. ولا سبيلَ إلى مخاطبة الخالق للمخلوق إلا بواسطة الملك، فلا جائزٌ أن الشياطين تنزلت بالقرآن، فعلله بقوله: **إنهم عن السمع لمعزولون**. وقد[6] علمت قولهم: وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ،[7] ومثله: لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ.[8]

---

[1] ر ك: مهما. وفي هامش ك: لما.

[2] ر ك: تذكرهم.

[3] ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٨).

[4] ش: وقيل؛ ك: وقيله. وفي هامش ك: وقوله.

[5] ش: ليعطي.

[6] ر ك: ولقد. وفي هامش ك: وقد.

[7] ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (سورة الجن، ٧٢/١٠).

[8] سورة سبأ، ٣٤/١٤.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾
وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾

خفض الجناح استعارة، لأن الطير إنما يعلو بجناحيه.[1]

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

فإن عصوك، المراد ما سوى المؤمنين وإن احتمل الإطلاق، **فقل إنى برىء مما تعملون**. **وتوكل على العزيز الرحيم**، سمى نفسه بهذا ههنا لأنه كرر هذه التسمية في هذه السورة عند إهلاك المكذبين والعُصاة. فكأنه قال: فإن عصوك فتبرأْ منهم، وتوكلْ على الذي أهلك العُصاة من الأمم السالفة ورحم من آمن منهم. **الذى يرىٰك حين تقوم**، في الليل، قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا،[2] ويحتمل الإطلاق في كل قيام لله سبحانه. ولهذا بعده: **وتقلّبك فى السّٰجدين**، أي ويرى تقلُّبك في زمرة الساجدين. وهذا التقلبُ يعرفه أصحابه إذا غلب الوَجْدُ بالله أو التضرع إليه عند الاضطرار. **إنه هو السميع العليم**.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾
يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾

يلقون السمع، إلى الملأ الأعلى وهم الملائكة ليسمعوا منهم. وهذا قبل إرسال
[٣١٠ظ] محمد صلى الله / عليه وسلم لقوله تعالى عنهم: وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ، ثم قال: فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا،[3] وقوله في الموضع الآخر: إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ.[4] ليس المراد من خطفِ يُسمَع، بل المعنى أن من خطف أتبعه شهابٌ فقط. فهو مستثنى من العذاب الواصب ومما وُصف به غيره مع أن الكل الآن لا يسمعون. وقوله: **وأكثرهم كٰذبون**، إخبارٌ عما مضى من حالهم، لأنهم كانوا يسمعون الكلمة فيزيد أحدهم عليها كلمات، كما يفعل الآنَ شياطين الإنس، وكما يعمل الشعراء في بعض منظومهم. ولمّا كان منهم مسلم وكافر دل على أن غير المسلم هو الكاذب. فأكثرهم كاذبون[5] في ذلك الزمن،

---

[1] ر ك: بجناحه.

[2] سورة المزمل، ٢/٧٣.

[3] سورة الجن، ٩/٧٢.

[4] ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (سورة الصافات، ٩/٣٧-١٠).

[5] ر: الكاذبون.

وأما الآنَ فلا أحدَ منهم[١] يسمع حتى يقال بأنه كاذب بل كان[٢] يكذب.[٣] ولمّا ذكر الشياطين وهم منقسمون إلى قسمين: شياطين الإنس وشياطين الجن،[٤] فقوله: **وأكثرهم**، يدل على أن بعضهم غير كاذب، والبعض الغير الكاذبِ[٥] هو مستثنى مع الشعراء، فافهم ذلك. والمعنى، **وأكثرهم كٰذبون**، هم، **والشعراء**. فهذا العطف لبيان المجهول بالمعلوم. ثم وصف الفريقين بقوله: **يتبعهم الغاوون**، الجهال، وهو من الغي. والمراد أن هذا القرآن ليس بكذب كما يأتي الشيطان ولا بشعر؛ فإن الشعراء إنما يتبعهم الجُهّال، وهذا فقد اتبعه ساداتٌ من العرب واليهود وغيرهم من أعقل الناس. فهو احتجاج عليهم بالعقول.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

ثم قال: **ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون**، بصورة المثل المضروب لِجَوَلان أفكارهم عند تحصيل زخرف الأقوال، بدليل قوله: **وأنهم يقولون ما لا يفعلون. إلا الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا**، أي إنهم غير أَذِلّاءَ بل أعِزّاءُ على الكفار[٦] ينتصرون ويجاهدون. ثم عرّفَنا بعد ذلك أن الباقين ظلموا أنفسهم فقال: **وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون**. وإذا رأيت في الكلام نقصا يحتاج إلى زيادة تُوضحه أو تزيل ما يَرِد عليه مثلَ الكلام في الشياطين وإلقاء السمع فطالعْ مثل ذلك في مواضعه متأملا ينحلّ لك[٧] الإشكالُ إن شاء الله.

---

[١] ك - منهم، صح هـ.

[٢] ر ك - كاذب بل كان.

[٣] ك: كاذب.

[٤] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (سورة الأنعام، ٦/١١٢).

[٥] ر: كاذب.

[٦] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ (سورة الفتح، ٤٨/٢٩).

[٧] ر - لك.

سورة النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾

طسٓ، ذكرت في سورة الحجر.[١] وجاء الكلام بعد الأحرف في السورتين بمعنى واحد وإن تقدم القرآن ههنا، فعلمنا أن "طسٓ" وأن "الٓر" بمنزلة واحدة من أنها علامات. فقال عنها: **تلك ءايٰت القرءان وكتٰب مبين. هدى وبشرىٰ للمؤمنين.**

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣﴾

الذين يقيمون الصلوٰة ويؤتون الزكوٰة وهم بالآخرة هم يوقنون، تكرار "هم" يعطي التخصيص، أي لا غيرُهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤﴾

ثم قال بعده يصف ضدَّ المذكورين بلفظ "هم" أيضا: **إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيّنّا لهم أعمٰلهم فهم يعمهون**، وهذا التزيين[٢] عقاب لهم، كقوله: سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡ.[٣] وينبغي أن تعلم أن الإيمان بالآخرة هو من ضروريات العقول، لأنه لو لم تكن للإنسان عاقبةٌ باقية ينتهي إليها غير هذه الحياة المملوءة تَعَبا ونَصَبا،[٤] وهَمّا ومرضا، وحُزنا وخوفا وأمثال ذلك لكان أخسّ الحيوانات أحسنَ حالا منه، ولكان يقتضي أن تكون هذه الحِكَم الإلٰهية والبِدَعُ الربانية التي أظهرها الله في الإنسان عبثا. فإن إحكام بِنْيَة الإنسان / مع كثرة [٣١١و] بدائعها ثم نقضِها وهدمها بغير معنًى باقٍ سوى ما يشاركه فيها البهائمُ، مع ما يَشُوبه من التعب الذي قد أُعفي منه الحيوانات سفهٌ[٥] وجهل كالتي نقضت غزلها بعد قوة،[٦] وتعالى الله عن ذلك. ومن لم يفقه هذا القدرَ كان ممن قيل في حقه: **زيّنّا لهم أعمٰلهم.**

---

[١] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ (سورة الحجر، ١٥/١).

[٢] ش ك: وهذا التزين.

[٣] ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡ﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٣٩).

[٤] ش ك: نصبا وتعبا.

[٥] هذا القسم من العبارة خبر "فإن إحكام...".

[٦] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ (سورة النحل، ١٦/٩٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥﴾

أولٰئك الذين لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة هم الأخسرون، والمعنى هم لا غيرهم. كأنه قال: ما يَخْسَر في الآخرة حقَّ الخسران إلا هؤلاء، ولهذا قال بوزن أفعل التعظيم.[١] ومثاله: "هذه العصابة هم للدين وهم للدنيا"، أي لا غيرهم، بخلاف ما لو قلت: "هذه العِصابة للدين والدنيا"، فإن هذا يحتمل أنك أنت[٢] اتخذْتَهم كذلك. والأول يدل على أنهم هم في أنفسهم [كذلك] لا غيرُهم.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٧﴾

وإنك لتلقى القرءان من لدن حكيم عليم، أي إن الرب الذي أوحى إليك من لدنه عالم بالوقت الذي قال موسى لأهله. فلهذا بدأ[٣] ههنا من[٤] قصة موسى بقوله: **إذ قال موسىٰ لأهله إنى ءانست نارا سـٔاتيكم منها بخبر أو ءاتيكم بشهاب قبس**، وهو ما يُقتبس في طرف عود أو قَصَبة. والشهاب لهبة لذلك القبس، **لعلكم تصطلون**.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾

فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحٰن الله رب العٰلمين. اعلم أنه لا جائز أن يكون الله تعالى في النار لأنه لا تحويه الأمكنة، ولأنه يُعذر عُبّاد النار لدعواهم أنهم إنما عبدوا ما فيها. ولا يقال: خصِّصت تلك النار، لأن اعتبار الحلول يعطي في كل شيء فلا تخلو منه ذرةٌ كما لا تخلو من التسبيح بحمده. ولهذا بعده: **وسبحٰن الله**، أي عن أن يَحُلّ في النار وحولها. ولمّا قال: **رب العٰلمين**، عطف عليه بالهاء في قوله: **إنه أنا الله**، أي رب العالمين أنا. والذي أراه -والله أعلم- أن قوله تعالى: **فلما جاءها نودى**، أي إن موسى نودي: **يٰموسىٰ إنه أنا الله**. والكلام وإن كان كالمعترِض بيْن ما قلناه لكنه مقدم ليعود منسوقا[٥] عليه ما بعده من كل[٦] آية بعد آية. فيجب أن تفهم أولا،

---

١ يعني أفعل التفضيل.
٢ ش ك - أنت.
٣ ش: بدا.
٤ ك - من، صح هـ.
٥ ك: منسوبا. وفي هامش ك: منسوقا.
٦ ر: بعده في كل.

أنْ بُورِكَ، ليس من النداء بل من جملة الحكاية. ومعناه: فلمّا جاءها نودي بسبب أنه بورك، فهو مقدر محذوف قبل قوله: **أن**، كما تجد في قوله تعالى: يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ،[١] أي حَذَرًا أن تضلوا. وفي كل مكان يقتضي أن يكون المحذوف المضمَرُ موافقا للمثبوت المظهَر، فهذه عبارة القرآن في كثير من المواضع، وقد علمت قولَ عيسى عليه السلام: وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ.[٢] فتلك الساعة الشريفة كانت أولَ الجعل لموسى، لأنه لم يكن من قبل نبيا. وأمّا أول النداء فقد قدم عليه كلاما، وهو قوله: **من فى النار ومن حولها**، أي هل ترى أحدا، لأن موسى إنما جاء ابتغاءَ قبس من إنس في قرب من النار يصطلون بها أو حولها يأنسون بضوئها. فلمّا لم يجد أحدا نودي. وقوله: **سبحٰن الله**، معطوف، أي وقيل له: سبحان الله عن أن يَحُلّ في النار أو حولها. وتقدير الكلام: وقيل له: يا موسى، **إنه أنا الله**. فاكتفى بقوله أولا: **نودى**، عن أن يكررها أو ما ينوب عنها مثل قولنا: وقيل له. ولهذا قدمها أولا. وكذلك عطف عليه [قوله:] **وأن ألق عصاك**، فافهم الجملة متأنيا. وتقدير الكلام بمقدره المحذوف: فلما أتاها نودي بسبب أنه بورك فنُبِّئ مَن في النار ومَن حولها: هل ترى أحدا. وقيل له:[٣] **وسبحٰن الله رب العٰلمين**، عن أن يحل في النار، أو حولها. **يٰموسىٰ إنه**، أي إن رب العالمين، **أنا الله العزيز الحكيم**.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾

وألق عصاك. / **فلما رءاها تهتز كأنها جان ولّى مدبرا**، ففي الإلقاء رآها عصًا تهتز، [٣١١ظ]
ثم حية،[٤] ولدى فرعون ثعبانا،[٥] ولدى الشجرة تَلقفُ.[٦] وقوله: **ولم يعقب**، أي لم يلبث على عَقِبه. ثم حذف ما معناه: فناديناه، **يٰموسىٰ لا تخف إنى لا يخاف لدىّ المرسلون، إلا من ظلم**، الكلام مطلق يتناول كل ظالم، **ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم**، وهذه بشارة لموسى بالمغفرة، لأنه قال بعد قتلِه القبطيَّ: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي.[٧]

---

[١] سورة النساء، ١٧٦/٤.

[٢] سورة مريم، ٣١/١٩.

[٣] ر – له.

[٤] ﴿قَالَ أَلْقِهَا ﴿١٩﴾ يَٰمُوسَىٰ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ (سورة طه، ١٩/٢٠-٢٠).

[٥] ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (سورة الأعراف، ١٠٧/٧؛ وسورة الشعراء، ٣٢/٢٦).

[٦] ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (سورة الأعراف، ١١٧/٧).

[٧] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥ﴾ (سورة القصص، ١٦/٢٨).

وفيه إشارة[1] إلى أن من أذنب يخاف مِن كل شيء حتى يتحقق[2] المغفرة. وأمّا قولنا في مثل هذا الموضع: إن موسى تحقق المغفرةُ من الله له حين قال: رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ،[3] فذلك غير مناقض، لأن موسى عليه السلام تحقق هناك بتوبته لحسن ظنه بربه وإيمانه به وأنه يقبل التوبة. وأما ههنا فحصلت له الطمأنينة بعد العلم. وفرقٌ بين العلم الذي من جهة نفسه وبين الطمأنينة التي هي من جهة ربه.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾

وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع ءايٰت إلىٰ فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فٰسقين. كما تقول: جاء فلان في عشرة أنفس، فيكون واحدا منهم، فالآيتان المذكورتان في جملة تسع، وهذه القصة في هذه السورة[4] في غاية الاختصار.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾

فلما جاءتهم ءايٰتنا مبصرة، تجعلهم بُصَراء يُبصرون الحقَّ، كقوله: وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً،[5] **قالوا هٰذا سحر مبين.**

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

وجحدوا بها، ولم يقل: وجحدوها، لأنها كان ينبغي أن تكون سببا للإيمان، فاتخذوها سببا للكفر فبها جحدوا. وهذا من طريق الاحتمال لفظا. والمعنى هو كقولك: كفروا بالله، وكذلك جحدوا بالآيات. **واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوّا.** لو قال: وجحدوا بها ظلما وعلوّا واستيقنتها أنفسهم لكان المفهوم من ذلك أن الجحود لم يكن بعد يقين. ولمّا قال كذلك لزم أنهم جحدوا بعد ما استيقنوا، فكان الجحود منهم ظلما، لأنفسهم، وعُلوا، تكبرا بغير الحق. الجحود بعد اليقين أشد جريمة. ومن ههنا يُعلَم أن العلم قد يكون من أكبر الحُجُب إذا لم يتبعه العمل، وهذا كقوله تعالى:

---

[1] ك - إشارة، صح هـ.
[2] ش: تحقق.
[3] ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ (سورة القصص، ٢٨/١٧).
[4] ر: في هذه الصورة.
[5] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ (سورة الإسراء، ١٧/١٢).

لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ.[١] فالعلم يطرد الجهل، ولا يجلب السعادة إلا العمل، فاحذر من علمك إن لم تعمل به. **فانظر كيف كان عٰقبة المفسدين.**

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥﴾

ولقد ءاتينا داوۥد وسليمٰن علما، لما قدم أنه آتى فرعون وقومه علما ولم يعملوا ذَكَر من آتاه علما فعمل. **وقالا الحمد لله الذى فضلنا علىٰ كثير من عباده المؤمنين.**

﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾

وورث سليمٰن داوۥد، وراثة مطلقة: علما ونبوة وملكا، لقوله: **وقال يٰأيها الناس علمنا منطق الطير**، أي فهمَ منطقِه، وليس المراد لغة الطير. **وأوتينا من كل شىء**، سببا، كما قال عن الإسكندر.[٢] **إن هٰذا لهو الفضل المبين.**

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧﴾

وحشر لسليمٰن جنوده من الجن والإنس والطير، ولم يقل: حُشر له الجن والإنس بل جنوده من هؤلاء. ولهذا قال: **فهم يوزعون**، أي يُفْصَلون من هؤلاء.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾

حتىٰ إذا أتوا علىٰ واد النمل قالت نملة يٰأيها النمل ادخلوا مسٰكنكم، لا يحطمنكم سليمٰن وجنوده وهم لا يشعرون. أشار إلى أن سليمان وجنوده مع كثرتهم لا يُمكن أن يبدوَ منهم ظلم ولا في حق نملة وهم يشعرون. وهو من الشعور الذي هو أدنى العلم. والحطم التكسير. وقوله: لا، بمعنى لئلا يحطمنكم، وهو مثل قوله: لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ،[٣] فافهمها في موضعها المتشابه من هذه الآية المحكمة ينحلّ الإشكالُ

[١] ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، ١٤٦/٢).

[٢] انظر: سورة الكهف، ٨٣/١٨-٩٨.

[٣] ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ (سورة الأنفال، ٢٥/٨).

ويذهب القيل والقال. ولو قال هناك: "لَتصيبنكم" أكَّد أنها تُصيب ولا بد، كقوله: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛[1] وههنا يدل على أنها قد تصيب وقد يعفو الله سبحانه. فأراد
تخويفهم / بذلك وتحذيرهم منه، كما تقول: اتق السبُعَ لا يأكلنّك، واتقوا صاعقة لا [٣١٢و]
تحرقنكم، أي "لئلا" كما قلنا، فافهم ذلك.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾

فتبسم ضاحكا من قولها، أي تبسُّمَ الفَرْحان بالنعمة من الله. لهذا بعده: **وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلىٰ وٰلدىّ**، وأصل "أوزع" من وزع وأوزع، أي اجعلني أَقْسِم الشكر بإزاء النعم. ولمّا قدم أن جنوده كانوا يوزَعون له كرر اللفظة بعينها إعلاما أن سليمان كان أيضا يوزع الشكر على قدر النعم وأنه يعترف بها كلِّها ويسأل الله أن يُوزِعه الشكر على النعمة المكتسَبة والموروثة. **وأن أعمل صٰلحا ترضٰه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصٰلحين**. فانظر إلى هذا الملِك العظيم ذي المُلْك الجسيم كيف لم يَخْفَ عن سمعه كلام نملة من نمل واد وهو في هذا الحشر العظيم والجمع الهائل من الجنود المختلفة على اختلاف الجن والإنس والطير. وهذا مما علّم الله سبحانه به الملوك علوما جَمّة تَصلُح بها أنفسهم وقومهم وبلادُهم.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١﴾

ثم مع ذلك الالتفات إلى أصغر دبيب الأرض في واد منها لم يشتغل عن النظر ولكنْ نظرَ تفقدٍ إلى الطير الذي هو في ضد الجهة الأولى، ويلزم من ذلك تفقد ما بين ذلك. وأما ما قيل: إنه طلب الهدهد لأنه كان يدلّه على الماء فهذا مما لا يدل عليه النص، لأنه لم يقل: وتفقد الهدهد بل تفقد الطير بأسره. وهذا يدل على غاية الاحتراز وإلزامِ أضعف الجند من الطير بما يجب عليه من[2] الخدمة. ولهذا قال: **وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد**، أي أترى أخطأه بصري، **أم كان من الغائبين**، أي لعذر

---

[1] ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ (سورة النساء، ٨٧/٤).

[2] ك - من، صح هـ.

أو ضرورة أو ما من أجله قد يغيب مثله. **لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه**، إذ ما ثَم غير هذين الأمرين[١] على ذنبه، **أو ليأتيني بسلطٰن مبين**،[٢] من الحجة على غَيبته.[٣]

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

فمكث غير بعيد، من الزمن ثم حضر. **فقال أحطت بما لم تحط به**، علما. انظر إلى رب الحق كيف لا يخشى أن يخاطب الملِك بمثل هذا الخطاب. وقوله: **وجئتك من سبإ**، أمةٍ، لقوله تعالى: لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ،[٤] **بنبإ يقين. إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء**، يؤتونه الملوكَ. **ولها عرش عظيم**، بالنسبة إلى ملوك الدنيا.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾

وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطٰن أعمٰلهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون، ألا يسجدوا، أي فزين فصد. فجعلهم أنهم لا يسجدون،[٥] وهذا إذا كانت "ألّا" بمعنى "أن لا" وهو على الأصل. قال الشاعر:

فما ألُوم البِيضَ ألّا تسخرا   لمّا رأين الشَّمَطَ القَفَنْدَرَا.[٦]

أي فأريد أنهن لا يسخرن، لأن اللوم يعطي من اللائم إرادة عكسِ ما وقع عليه اللومُ. وكذلك معنى قوله ههنا: **ألا**، أن لا، **يسجدوا لله الذى يخرج الخبء**، ما يُخبأ كائنا[٧] ما كان، **فى السمٰوٰت والأرض**، كالمطر والنبات وكل غائب. ولهذا بعده: **ويعلم ما تخفون وما تعلنون**.

---

١ ر: القسمين.

٢ ر − مبين.

٣ ر + مبين.

٤ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ (سورة سبأ، ١٥/٣٤).

٥ ر: لا يسجدوا.

٦ البيت لأبي النجم. انظر: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ٦٣١/١. | الشَّمَطُ في الشعر: اختلافه بلونين من سواد وبياض. والقَفَنْدَر: الصغير الرأس، وقيل الأبيض. والقَفَنْدَرُ أيضا: الضخم الرِّجْل. وقيل: القصير الحادر. وقيل: القفندر الضخم من الإبل. وقيل: الضخم الرأس (لسان العرب، «شمط»، «قفندر»).

٧ ر: كان.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ٢٦﴾

﴿۞قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٧﴾

قال سننظر أصدقت أم كنت من الكٰذبين، بما قد نطقت واعتذرت.

﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾

اذهب بكتٰبى هٰذا فألقه إليهم، ولم يقل: عليهم لئلا يكون كطائر حمل كتابا اتفاقا. **ثم تول عنهم**، دل على أنه أقبل عليهم ووقف عندهم حتى رأوه. ثم ألقى الكتاب إليهم فأخذته المَلِكَة دون غيرها. فبعد ذلك تولى عنهم ولم يَفِرَّ منهم، / بل تولى [٣١٢ظ] بحيث ينظر ويسمع. ولهذا قال: **فانظر ماذا يرجعون**، من القول كقوله: يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ،[١] وكقوله: فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ،[٢] أي ردك، أي ما الذي يردون جواب كتابي.

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢﴾

فلمّا فعل ذلك، **قالت يٰأيها الملؤا إنى ألقى إلى كتٰب كريم**، صُور كَرَم الكتاب من وجوه كثيرة: من ورقه، وخطه، ولفظه،[٣] وختمه، وغير ذلك. والإكرام ههنا استعارة. وكرم الكتاب ختمه، لأنه يَكْرُم عن أن يفتحه من اتفق بل صاحبُه. ثم عرّفَنا الله سبحانه ما يَحسُن بالملِك من مشاورة الملأ إذا دَهَم أمرٌ،[٤] وأنه لا يجوز أن يُخْفِي عنهم ذلك، وعرّفَهم[٥] كيف يجب عليهم أيضا أن يخاطبوه كما سيأتي. وكان الكتاب بجملته **إنه من سليمٰن**، أي هذا الكتاب، **وإنه**، أي المكتوب، **بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين**، لله تعالى. وتقديره قالوا لها: وما الذي رأيتِ[٦] أتذهبين إليه، **قالت يٰأيها الملؤا أفتونى فى أمرى، ما كنت قاطعة أمرا حتىٰ تشهدون**، أي تشهدوني فيه.[٧] وحُذفت الياء بحتى.

---

١ ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾ (سورة سبأ، ٣١/٣٤).

٢ ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ (سورة التوبة، ٨٣/٩).

٣ ك - ولفظه، صح هـ.

٤ ك - أمر، صح هـ.

٥ ش: ذلك وعن فهم؛ ك: ذلك وعرفنا. وفي هامش ك: وعرفهم.

٦ ش ك: الذي رأيتي.

٧ ك - فيه، صح هـ.

﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣﴾

قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين، لنمتثله. وهذا كلام يدل منهم على ميل إلى عصيان وإشعارٍ بِعِزّ وسلطان، وكذلك يجب أن يكون الجندُ.

﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥﴾

وأما الملِك فيجب أن ينظر في الطرف الآخر[1] وهو الاحتراز[2] على الجند وما يتعلق بهم كما، **قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذٰلك يفعلون**، بنا هؤلاء، فهو من قولها. وليس ذلك إخبارا من قول الله سبحانه. ولهذا بعده من كلامها أيضا: **وإنى مرسلة إليهم بهدية**، ولم يقل: هدية بل المراد أقواما بهدية يَجُسّونهم.[3] فلهذا قالت: **فنٰظرة**، من الانتظار، **بم يرجع**، من الرجوع وهو لازم، **المرسلون**.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧﴾

فلما جاء، المرسلون **سليمٰن قال**، لهم: **أتمدونن بمال**، إشارة إلى عطاء يمتدُّ في كل مدة مقدارٌ، **فما ءاتٰنِۦ الله خير مما ءاتٰكم**، ولم يقل: أكثر، لأنه لم يفاخرهم بالمال، بل بالعلم والإيمان والقدرة مضافا إلى المال. وقوله: **بل أنتم بهديتكم تفرحون**، لا أنا، وهو كما تقول ما معناه: مثلك أنت من يفرح بالدنيا لا أنا. **ارجع**، كلام للرسول، وهي بكسر الألف لا بضمها. ويحتمل أن يكون القول للهدهد واختصر لفظ الكتاب، لكنه بعيد، وليس عليه دليل سوى الأمر للفُراد. وقد قدم قوله: **أتمدونن**، والأول أولى. وقوله: **ارجع إليهم**، هي من رجع يرجع المتعدي، فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ،[4] ومنه فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ،[5]

[1] ك - الآخر، صح هـ.
[2] أي الصيانة.
[3] ر: يحسنونهم؛ ك: يحبسونهم.
[4] ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ﴾ (سورة التوبة، ٨٣/٩).
[5] ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ (سورة الملك، ٣/٦٧).

أي رُدّه. ومنه ما تقدم وهو قوله: مَاذَا يَرْجِعُونَ.[1] **فلنأتينهم بجنود لا قِبلَ**، طاقة، **لهم بها ولنخرجنهم منها**، من قريتهم، **أذلة وهم صٰغرون**، في موضع الحال، وغيّر للوِزان.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣٨﴾

وتقدير الكلام فلمّا ذهب المرسلون مسرعين إليها، لأنها كانت ناظرة بم يرجعون أخبروها فخرجت لتأتي بمن معها، فقبلَ وصولها وبعد خروجها: **قال يٰأيها الملؤا أيكم يأتيني بعرشها**، ولم يقل: وبها وبقومها؛ ولهذا بعده: **قبل أن يأتوني مسلمين**؛ ولهذا لم يقل: قبل أن يأتوا، لأنه كان يعطي قبل أن يَخرجوا ليأتوني، بل المعنى قبل أن يصلوا إليّ أي هي وقومها.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ۝٣٩﴾

قال عفريت من الجن، العفريت من كل شيء المبالِغ: **أنا ءاتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوىّ أمين**.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾

قال الذى عنده علم من الكتٰب، الكتابةِ، ويجوز أن يكون هذا القائل من الإنس:
[٣١٣و] **أنا ءاتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك**. يريد الله أن يعرّفنا في ضمن هذه القصة / ما[2] أعطاه لنبيه سليمان من المُلْك، وأن هذه القدرة البالغة كانت لواحد من أعوانه، ويعرّفنا أن في عباد الله من يقدر بإذن الله ورسوله على مثل ذلك. وإلى مثل هذا يشير الناس بعلم السيميا،[3] وأصل هذه الكلمة عبرانية، وهي "شيم يه"، وتفسيره "اسم الله"، أي الأعظم. وإذا كانت الأسماء كلها، أعني الحسنى يشار بها إلى ذات واحدة،

---

١ الآية ٢٨ من هذه السورة.

٢ ر ك + لا.

٣ علم السِّيمِيَا: وهو قد يطلق على غير الحقيقي من السحر و هو الأشبه، وحاصله إحداث مثالات خيالية لا وجود لها في الحس. وقد يطلق على إيجاد تلك المثالات بصورها في الحس وتكون صورا في جوهر الهواء، وسبب سرعة زوالها سرعة تغير جوهر الهواء. و لفظة سيميا عبراني معرب أصله سيم يه. ومعناه إسم الله (كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، «المقدمة/علم السيميا»).

فليس لهذه الذات اسم مطابق لها، ولا أسماءٌ بعضها أعظم من بعض كما بيّنّا في موضعه، لأن الذات العلية لا تقتضي الزيادة ولا النقصان. وجميع ما نُسب إليها هو لأجلنا من باب العرفان. فعادت الأعظمية بالحقيقة ليست إلا لما يتعلق بذواتنا من العلم بالله، وأعني بالعلم به ما يعود بعلمه نفعٌ علينا مما نعتقده له فيه سبحانه. وأما ما يتعلق به لذاته فذلك أمرٌ لا تعلق لنا به. وهو تعالى بمعزل عنا ولم يُبْدِ لنا أو أخفى عنا إلا ما لنا به نفع. وهو غني بذاته عن كل ما نَصِل إليه أو نظنه. لٰكنا إذا علمنا ما يعود علينا بعلمه نفعٌ عظيم في ذواتنا لا[1] في نفسه، وهذا العلم إنما يحصل لنا إما من كتابه[2] المنزل إلينا أو من لدنه سبحانه. فيكون ذلك العلم من الكتاب المبين الأزلي المشارِ إليه بقوله: وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ.[3] فيحتمل أن يكون الذي أشار إليه ههنا[4] بقوله: **قال الذين عنده علم من الكتاب**، هو هذا، ولا بأس أن يكون مثل هذا خادما لنبي الله ويكونَ نبيُّ الله أيضا قادرا على ما يقدر عليه ذلك الرجل. ولِعلمه بإمكان وقوع ذلك قال للملأ: أَيُّكُمْ [يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا].[5] ولو فرضنا أن سليمان لم يكن قادرا على مثل ذلك فلا نقْص ولا عيب يَلحقه، لأن بعض رعية الملك قد يقدر على ما لم يقدر عليه الملك في بعض الأعمال وكذلك في العلوم ويكون عبدا للملك، إذ لا يراد[6] من الملك إلا ما به يكون ملكا، لا أنه يقدر أن يعمل سائر أعمال رعيته أو يعلم علومهم.

فلمّا رءاه مستقرا عنده، ولم يقل: "رآه" فقط أو "رآه آتيا"، بل مستقرا عنده[7] مع فرط السرعة، **قال هٰذا من فضل ربى ليبلونى**. فانظر إلى هذا النبي الكريم كيف نظر إلى ما يتعلق بنفسه من فضل ربه وهو الابتلاء؛ ولم يَرَ لنفسه مزية مع فرط القدرة بل نظر إلى الأصل الذي قدمناه، وهو من العلم اللدني الذي من اطلع عليه علم أن الإبداء بأسره للابتلاء، وهذا مما يراه العقل صريحا في كتاب الأزل والكتاب المنزّل. فاعترف به سليمان اعتراف مَن لا تغيب عنه رؤية الابتلاء في شيء، إذ ما به وقع الاعتراف هو أبلغ شيء، فلم يَشغله عن رؤية الواجب بصيرةُ ما رآه مستقرا عنده بَصَرًا بل ذكر السبب فقال: **ليبلونى ءأشكر أم أكفر**. ثم أوضح العلم وبين أصل الحكمة التي يجب

---

[1] ش ك - لا.

[2] ش: من كتابة.

[3] ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة الأنعام، ٥٩/٦).

[4] ر - ههنا.

[5] الآية ٣٨ من هذه السورة.

[6] ش: إذ لا يزاد.

[7] ر - عنده؛ ك - عنده، صح هـ.

أن تَقف عندها العقول بقوله: **ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم**، أي غني عن الشكر، كريم عن الكفر. فعاد الأمر إلى ما بيّناه آنفا من أن الإبداء بأسره ابتلاءٌ، وأن معارف الإنسان ووجوده وشهوده كلَّ ذلك عائد عليه ومنسوب إليه، ولا صلة له بغيره ولا نهاية لسيره، والعائد عليه منه والله بمعزل عنه، كما قيل:

ومحتجبٌ بالنور والنورُ كاشف على قَدْره الرائي فأنواره حُجُب،
فسيرٌ بلا حدٍّ وعبدٌ محقَّق فقير على الإطلاق معراجُه الحبُّ،
[٣١٣ظ] / وفي الغيب ما لا يُدرك القلبُ كنهَه ولو لم يكن غيبا لأدركه القلبُ،
ولكنّ هذا القدر في العلم واجبٌ ومِن بعدِه لطف يَجُود به الرب.[١]

[امتحان العبد بالضراء والسراء]

ويجب أن تعلم أن الممتحَن له اعتباران يجب عليه أبدا أن يعتبر نفسه بهما وأن يستفرغ جهده من أجلهما. أحدُهما أن لا يغيّر الله عنده شيء، والثاني أن لا يغيّره عند الله شيء. فالأول يغني فيه العلمُ فقط، والثاني لا يغني فيه إلا العمل مع العلم. مثال الأول مفتون بمكروه ليصبر عليه، والثاني مفتون بمحبوب ليصبر عنه. وتلخيصه أن لا يغير الله عندك فتنتُه لك بالضراء ولا يغيرك عند الله فتنته[٢] لك بالسراء. دليل الأول قصة يونس عليه السلام: فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ،[٣] ودليل الثاني قصة سليمان عليه السلام، **قال هٰذا من فضل ربي ليبلوني ءأشكر أم أكفر**. فالأول لم يَر ما أدِّب به من جهة ربه، بل مِن ظُلْمه لنفسه وسوء كسبه. والثاني لم ير ما أتْحِفَ به جزاءً من أجل كسبه بلا ابتلاء من فضل ربه. فلمّا قام الأول بالعلم دون العمل ابتُلِي بالضراء فصبر. ولمّا قام الثاني بالعلم والعمل ابتلي بالسراء فشكر. فالأول ما غيَّر الله عنده ما جرى من الضراء عليه، إذ شهده من باب العلم ابتلاءً عدلا. والثاني ما غيره عند الله ما سُرِّيَ من السراء إليه، إذ شاهده من باب العمل ابتلاء فضلا. فافقه الحالتين في كل آن، واعترِفْ واتصف ولا تتغير.

ويجب أن تعلم أن جميع ما فعله سليمان عليه السلام إنما كان لأجل أن تؤمن الملكة وقومها بالله سبحانه، لأنه كان نبيَّ الوقت يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى.

---

١ لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر.
٢ ش: فتنة.
٣ سورة الأنبياء، ٢١/٨٧.

ولمّا علمت المَلِكَة[١] من كلام الرسل الذين رجعوا بهديتها أن سليمان يقدر على فعل ما توعّدها به من الذل والإخراج والصَّغار، واضطرّها علمها بذلك إلى الانقياد لسليمان، وخرجت من عرشها متوجّهة إليه بمن معها. كان خَطْف العرش بعد خروجها منه، فهي تركته على حاله.

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ٤١﴾

ثم بعد خروجها منه خُطف وهي لا تعلم بما جرى، وقبل وصولها إلى بين يدي سليمان عليه السلام، **قال نكروا لها عرشها**، أي غيّروه بحيث تُنكره فلا تَعرفه. والنكرة ضد المعرفة. وفائدة قوله: **نكروا لها عرشها**، هو قوله: **ننظر أتهتدى**، اختيارا بالعقل من غير رؤية المعجزة، **أم تكون من الذين لا يهتدون**، فافهم. وذلك لأنها لو رأت العرش غير منكَّر لآمنت قهرا. وإنما كان سليمان عليه السلام يريد منها أن تهتدي بالعقل لا بالمعجزة. ولهذا جاء هذا الكلام من قصتها في القرآن لينبه على أن الهداية بغير المعجزات الخارقة للعادات أفضل. وكذلك أسلمت الملكة كما ستسمع[٢] في آخر القصة. وأمّا العرش فلا يقال: قُلع من موضعه أو كان خيالا، بل أعدمه الله من موضعه وأوجده عند نبيه بـ"كُنْ". فذلك أقرب من لمح البصر.[٣]

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ٤٢ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٤٣﴾

فلما جاءت قيل أهٰكذا عرشك. وقوله: **أهكذا**، ولم يقل: "أهذا" يدل على أنهم نكّروه لها على صورة هي أعظم مما كان عليها قبل. ثم قالوا لها قولا يوهِم أن العرش لسليمان، لا أنه لها بل يُباهُونَها به، أي أَمَا هذا عظيم، أهكذا هو عرشكِ؟ **قالت كأنه هو**، ولم تقل: هذا هو لكونه نكِّر فلم تَتحقَّقْه.[٤] وعطف على قولها: **قالت كأنه هو**، ما تقديره: وقالت، فاكتفى بالواو فقال: **وأوتينا العلمَ من قبلها وكنا مسلمين**، ٣١ظ
يحتمل، **وأوتينا / العلم**، بما أُوتِيتُ من المُلك من[٥] قبل أن نرى هذا العرش العظيم [٣١٤و]

---

١ ش: الملائكة.
٢ ش: كما ستستمع.
٣ ر – وأما العرش فلا يقال قلع من موضعه... وأوجده عند نبيه بكن فذلك أقرب من لمح البصر، صح هـ.
٤ ر + له.
٥ ك – من، صح هـ.

الذي هو من جملة ما مَلَكْتُه. **وكنا مسلمين**، أي منقادين لمن هو أفضل منا. ولهذا قالت: **من قبلها**، أي قبل الرؤية لِما أَرَيْتَنا من علامات القدرة. ويحتمل أن قولها: **وكنا مسلمين**، أي إن الشيء الذي تدعونا إليه من الحق نحن على الحق عن علم ولا حاجة لنا إلى علمك ولا إلى دعائك. ويكون هذا القول منها على صورة التكبر، وهذا أولى، فافهمه. ولهذا بعده: **وصدّها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كٰفرين**. فبعد ذلك قعد سليمان في الصرح. وسمي صرحا لظهوره وعلوّه. والتصريح الإظهار، وصَرْحَة الدار وساحتها بمعنى واحد. ومنه يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا.[1] وهو كالسطح المكشوف يصرّح بما فيه.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤﴾

ثم أمر بإدخالها إليه، **قيل لها ادخلى الصرح**، **فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقَيها**، لتخوض فيما اشتبه عليها، إذ حسبته ماء وليس بماء. ولم يكن سليمان كلّمها قبل ذلك بل كان يأمر من يكلّمها. فلمّا أقدمت على خوض ما حسبته ماء، **قال**، سليمان: **إنه صرح ممرد**، مُملّس مَلسًا بعد مَلْس، **من قوارير**، مستقرةٍ يظنه الرائي له ماءً. فضرب لها سليمان بذلك مثلا معناه أنه كما حسبتِ غير الماء وغلطتِ بالبصر فكذلك أنت غالطة بالبصيرة، إذ حسبتِ الشمس إلٰها يُعبد من دون الله. فلمّا علمتْ صحة هذا المثل بالفعل الذي فعله سليمان عليه السلام، **قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمٰن لله رب العٰلمين**، ومن قبل لم تقل: مع سليمان. فافهم هذه القصة العجيبة، والمعاني اللطيفة الغريبة، وحرر العبارة، وافقه الإشارة. فهذه أقوال بأفعال ومن حرر وكرر على مَهَل أدرك المقصود بلا زلل.

[حكمة التكرار في قِصص الأنبياء]

واعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يكرر قصة موسى عليه السلام في عدة أماكن إلا لأنه سبحانه إذا أراد أن يذكر قصة نبي مثل سليمان مثلا وفي قصة موسى ما يُشبه قصةَ ذلك النبي الآخر الذي يريد ذكرَه أو القضيةَ المقصودَ بيانُها فإنه يذكر من قصة موسى

[1] ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٣٦).

ما يشبه تلك القصة الأخرى لتكون كل واحدة من القصتين شارحة للأخرى ومبيّنة ومعِينة على فهم المقصود منها. ولو جمع كل ما جرى لموسى في قصة واحدة وتلاها في موضع واحد لم يحصل هذا المقصود الذي ذكرناه إلا إن كررها جميعَها. ولو فعل لَمَا حسن أن يذكر عند ذكر[1] أمر خاص من غير قصة موسى جميعَ قصة موسى، إذ ذلك مُنافٍ للعقول، أعني عقولَ المتكلمين الفصحاء. وإذا فهمت بقولي مثلَه عرفت به من كلام الله تعالى ما لم أفصِّله وبان لك صحةُ ما فصّلته، وعلمتَ أن المحذوف في قصة موسى يشبه المحذوف من قصة سبأ والملكة. وكذلك في كثير من القصة لفظا ومعنى وتعجبا وإعجازا ودعاء إلى الله وغير ذلك. ولا تطمع أن يَعلَق في قلبك ما قلتُه من غير تأمل شاف، بل إذا أمعنت في النظر إمعانَ من يريد أن يفهم من نفسه فهمتَ من كلام الله إن شاء الله تعالى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

ثم أتبع القصة بما يماثلها في معناها فقال: **ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صٰلحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان**، مؤمن وكافر، **يختصمون**.

قال يٰقوم لم تستعجلون بالسيئة، أي بجزائها من العذاب الذي إنما تستحقونه بما هو من عند أنفسكم، **قبل الحسنة** التي هي تفضّل منا. لهذا بعده: **لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون**.

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طٰئركم عند الله، أي طائركم الذي تتشاءمون[2] به وتظنونه[3] ليس أنا ذلك، وإنما هو عند الله يأتيكم / به إن شاء فهو القادر على ذلك، فافهم هذا. والتطير هو التشاؤم، وهو نسبة الشؤم إلى الشيء على ما يأتيه به الطير من ناحية اليد اليسرى وهو البارح، ومن ناحية اليد اليمنى وهو السارح. وأصل "اطَّيَّرْنَا" تَطيّرنَا، [٣١٤ظ]

[1] ش ك - ذكر، صح هـ.
[2] ر: تسأمون.
[3] ر ك: وتظنون. | ر + أنا.

فأدغمت التاء في الطاء وشددت [وزيدت الهمزة المكسورة في أوله]. وقوله: **طائركم**، ولم يقل: "تطيُّركم عند الله" إشارةً لما قلناه في الطائر، أي ما جعلتموه كالطائر فتشاءمتم[1] به ليس هو ذلك. وإنما طائركم الشؤم لكم جزاءَ ما تستحقونه هو عند الله. والتطير ضد التفاؤل. ومنه قوله عليه السلام: «أُحب الفألَ وأكره الطِّيَرة».[2] وهذا كقوله في سورة الأعراف: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾، ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾.[3] والفأل ما يراه الإنسان في طريقه مثلا فيصرفه إلى خير. والطيرة بالعكس، وهو ما يراه فيصرفه إلى شر، وهذا هو المكروه. وقوله: **بل أنتم قوم تفتنون**، أي تُختبَرون وتُمتحَنون من الله بالسراء والضراء.

﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ۝٤٨﴾

رهطُ الرجل قومه وعشيرته[4] وقبيلته. ويقال: الرهط ما دون العشرة. وأضاف التسعة إلى الرهط، أي القبيلةِ كأنه قال: تسعة قوم أو قبيلة. وقوله: **ولا يصلحون**، هؤلاء تسعتهم[5] لجواز أنهم يفسدون وقد يُصلحون أيضا. والمعنى أن قوما يفسدون ولا يُصلحون هؤلاء تسعتهم. وهو كما تقول: هذا واحد الشُّطّار،[6] أي هو فريدهم في فنّهم. وكذلك إن كان فيهم ثلاثة أو أكثرُ فالفساد منسوب إلى الرهط، لكن التسعة أشدهم فسادا. وقيل: الرهط مشتق من الرِّهاط، وهي جلود تُشقَّق سُيُورا،[7] فكأنه يريد تَساويَهم في الفساد، كأنهم من جلد واحد شُقّ سيورا. وواحد الرهاط رهط على وزن كِعاب وكَعب، لكنّ مفهوم الرهط جمعٌ لا واحدَ له.[8]

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٤٩﴾

قالوا تقاسموا، تحالفوا، **بالله**، وهو[9] أمر، **لنبيتنه وأهله**، أي نقتله ليلا،[10] وقد تقدم

---

[1] ر: فنشاءمتم.

[2] عن أبي هريرة قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الحسن ويكره الطيرة" (مسند أحمد بن حنبل، ٢/٣٣٢). وانظر أيضا: النهاية لابن الأثير، «فأل».

[3] سورة الأعراف، ١٣١/٧.

[4] ش ك - وعشيرته.

[5] ش ك - هؤلاء تسعتهم.

[6] الشاطر: من أعيا أهلَه ومؤدِّبَه خبثا ومكْرا، جمعُه الشُّطّارُ (تاج العروس للزبيدي، «شطر»).

[7] السَّير ما قُدّ من الأديمِ طولا، والجمع السُّيور (لسان العرب، «سير»).

[8] ش ك - له.

[9] ش: وهي.

[10] رك - ليلا.

شرح ذلك[١] عند قوله: بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ.[٢] **ثم لنقولن لوليه**، أي المطالِب بدمه: **ما شهدنا مهلك أهله**، بفتح لام "مهلك"[٣] وهو موضع هلاكهم. والواو في "وأهله" واو المعية، أي نقتله وأهله معا في الليل، ونحلف للولي:[٤] أنّا ما رأينا منزلَ أهله، ومن لم ير المنزل كيف يرى النازل به؟ وتقديره: ونُقسِم أيضا وهو معنى [قوله:] **وإنا لصٰدقون**.

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞﴾

ومكروا مكرا ومكرنا مكرا، المكر الخَتْل[٥] بالحيلة، **وهم لا يشعرون**.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۞﴾

فانظر كيف كان عٰقبة مكرهم، ثم قال ما يدل على أن التسعة كبار القوم وأن القوم هم الرهط، وكان هؤلاء أشدهم فسادا، فالرهط عبارة عن قوم التسعة لقوله: **أنا دمرنٰهم وقومهم أجمعين**، فأضاف القوم إلى التسعة كما أضاف التسعة إلى الرهط.[٦] ويحتمل أن يكون الرهط صفة للتسعة لا أنه يكون اسما للقوم، فتكون التسعة من القوم بمنزلة الرهط الواحد من الرهاط كما قدمنا لغة. ولا يتغير المعنى في أن التسعة أشد القوم فسادا. ولهذا أهلك الله الجميع.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞﴾

فتلك بيوتهم خاوية، بالنصب على الحال، والمعنى فارغةً منهم، **بما ظلموا. إن فى ذٰلك لآية لقوم يعلمون**.

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۞﴾

وأنجينا الذين ءامنوا وكانوا، مع إيمانهم،[٧] **يتقون**، المخالفة لرسلهم أمرا ونهيا.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۞﴾

---

١ ر - ذلك.

٢ ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ (سورة النساء، ٨١/٤).

٣ قرأ شعبة بفتح الميم واللام، وحفص بفتح الميم وكسر اللام، والباقون بضم الميم وفتح اللام (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٢٣٦).

٤ ك - للولي، صح هـ.

٥ الخَتْل: الخِداع (لسان العرب، «ختل»).

٦ انظر: الآية ٤٨ من هذه السورة.

٧ ش - مع إيمانهم، صح هـ.

ولوطا، منصوب على الإرسال المتقدم بقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ﴾،[1] وأرسلنا، **لوطا إذ قال لقومه أتأتون الفحشة وأنتم تبصرون**، بعضكم بعضا، لأنهم بلغوا من أمرهم إلى أن بقي المنكر بينهم معروفا مألوفا.

﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾

أئنكم، وهي استفهام المثبت، **لتأتون الرجال شهوة من دون النساء**، أي كلّ ما سوى النساء كبيرا أو صغيرا. وبيّنه بقوله: ﴿ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.[2] **بل أنتم قوم تجهلون**، أي لو علمتم ما يجب عليكم من العقاب لذلك تركتموه.

﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾

فما كان جواب قومه إلا أن قالوا. وفتح / "جواب" لأنها خبر "كان"، والجملة اسمها، وهو: **أخرجوا ءال لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون**، أي ويدّعون أنكم لا تتطهرون فيلزم أن تكونوا عندهم أنجاسا. ولو قال: إنهم يدعون أنكم أنجاس لم يُفهَم المعنى الأولُ. فذكر الأول ليُفهَم به الثاني لزوما.[3] [٣١٥و]

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٥٧﴾

الغابر الباقي، والغابر الماضي، وهو من الأضداد. فيحتمل[4] ههنا على الصورتين بعد فهم المراد به من المعنى كما ههنا. فإن جعلناها من الماضين يكون بمعنى من هلك ومضى، وإن جعلناها من الباقين يكون بمعنى الباقين في المدينة لا الناجين مع لوط.

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٥٨﴾

وأمطرنا عليهم مطرا، أي حجارة كالمطر. لهذا بعده: **فساء مطر المنذرين**.

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ٥٩﴾

ثم قال تعالى لنبيه عليه السلام: **قل الحمد لله**، على إهلاك المكذبين، **وسلم على عباده الذين اصطفى**. ثم أمره الله أن يخاطب الحاضرين والسامعين من بعد،

---

١ الآية ٤٥ من هذه السورة.

٢ ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/١٦٥).

٣ ر ك - لزوما.

٤ ش: فيحمل.

وذلك بعد ضرب الأمثال بمن ذكرهم فقال سائلا[1] سؤال توبيخ: **ءآلله خير أمّا يشركون**.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

أمّن خلق السمٰوٰت والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، الحدائق البساتين، واحدتهن حديقة، وهي بستان أحاط به بناء أحدق به كالحدقة[2] التي دارت الأجفان[3] حولها. وقوله: **ذات بهجة**، ولم يقل: ذَوَاتَ بَهَجَاتٍ، لأنه متى كانت بهجات[4] متعددات وجب أن يكون فيها أقوى وأضعف. وقوله: **ذات بهجة**، يريد الأقوى منها ولم يُمكن أن يكون[5] أضعف، وهي[6] غايةٌ فهي بهجةٌ لا بهجاتٌ. **ما كان لكم**، قدرة على، **أن تنبتوا شجرها**، فكيف ثمرها، **أءلٰه مع الله**، يُساعده على ذلك أو يَخلق كخلقه. **بل هم قوم يعدلون**، بمن يخلق مَن لا يخلق، ويحتمل يعدلون عن الحق إلى غيره. ولمّا كان اللفظ محتمِلا للمعنيين لم يقيده بأحدهما وإن كان المراد هو الأول.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

أمّن جعل الأرض قرارا وجعل خلٰلها أنهٰرا وجعل لها روٰسى وجعل بين البحرين حاجزا أءلٰه مع الله بل أكثرهم لا يعلمون، أن الله هو الفاعل لذلك لا غيره.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

---

[1] جميع النسخ: مسائلا، والمثبت من م.

[2] الحَدَقةُ السواد المستدير وسط العين. وقيل: هي في الظاهر سواد العين وفي الباطن خَرَزَتها. قال الجوهري: حدَقة العين سوادها الأعظم (لسان العرب، «حدق»).

[3] الجَفْن غِطاءُ العين من أعلى وأسفل والجمع أجفان (لسان العرب، «جفن»).

[4] ر - لأنه متى كانت بهجات، صح هـ.

[5] ر: أن تكون.

[6] ر: فهي.

أمّن يبدؤا الخلق ثم يعيده، كما بدأه أول مرة. وبرهن على الإعادة بالنبات فقال: **ومن يرزقكم من السماء والأرض أءلٰه مع الله قل هاتوا برهٰنكم إن كنتم صٰدقين.**

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾

ثم علمه البرهان بقوله: **قل لا يعلم من فى السمٰوٰت والأرض الغيب إلا الله.** لما قدم، أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ،[1] ولا بد أن يتقدم العلم على الخلق، أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ،[2] فانتفاء القدرة منهم على الخلق يدل على انتفاء العلم، وإثبات القدرة له يدل على إثبات العلم. وأما النبي صلى الله عليه وسلم فالله هو المعلم له ما يشاء. فلا أحدَ يَعلم بشيء من الغيب من نفسه. وقد بيّنا ذلك عند قوله: فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا.[3] وقوله: **وما يشعرون أيان**، أيَّ آنٍ، **يبعثون**، فلا يعلمون قبل الموت متى يموتون؟ ولا بعد الموت متى يُبعَثون؟

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

ولما ذكر البعث أولا بقوله: أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ،[4] ثم قال: وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ،[5] أيَّ آنٍ يُبعَثون أتبعه بما معناه بل يشعرون بالبعث في الآخرة بل هم في شك من الآخرة حال كونهم في الدنيا فقال: **بل ادّٰرك علمهم**، بالبعث، **فى الآخرة**، يوم يبعثون. فلمّا صاروا إلى الآخرة أدرك علمهم ما كانوا يجهلونه في الدنيا مما قلناه، [٣١٥ظ] / وخوَّفْناهم به من أمر البعث. ولمّا قال: **علمهم**، قال: **بل هم**، الآن، **فى شك منها**، من الآخرة. **بل هم منها عمون**، أي عُميان من جهة تحقق الآخرة، لأن الشاك يفعل بالحزم، إذ عنده أنه ربما وقع أحدُ الأمرين وربما وقع الآخر. وأما الأعمى عن الشيء فإنه لا يقدِّم له حزما ولا يَبْذُل من أجله عزما.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾﴾

وقال الذين كفروا أءذا كنا ترٰبا وءاباؤنا أءنا لمخرجون، من التراب أحياء.

---

[1] من الآية السابقة.

[2] ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (سورة الملك، ١٤/٦٧).

[3] ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ (سورة الجن، ٢٦/٧٢).

[4] الآية ٦٤ من هذه السورة.

[5] من الآية السابقة.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾

ويقولون متىٰ هٰذا الوعد إن كنتم صٰدقين، أي يقولون: هم وآباؤهم ذلك للرسل في كل زمن يأتي فيه رسول، لهذا قال: **إن كنتم**. ولأن من كذب رسولا واحدا جاء بما جاءت به الرسل فقد كذب الرسل [كلهم] فيما كذّب به الواحدَ منهم.

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

قل عسىٰ أن يكون ردف، تبع. والفرقُ بينهما أن الشيء إذا كان رِدْفَ الشيء كان أقربَ ما يكون منه، والتابع بينه وبين المتبوع مسافة. فقال ما معناه: عسى أن يكون قد حلّ، وأن الوقت الذي يقع عليكم [فـ]ـفيه ما وقع على مَن قبلكم من المكذبين، فتكون معصيتكم رادفةً لمصيبتهم. وقال: **ردف**، بلفظ الماضي تقريبا لوقوع ما يقع، حتى كأنه قد كان كقوله: أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ.[1] ولمّا كان المشار إليه ههنا ليس هو عذابَ الاستئصال بل ما سيجري عليهم بأيدي المؤمنين لم يقل: ما تستعجلون بل بعضَ الذي تستعجلون لكم، أي تستعجلون به[2] من العذاب لأنفسكم استهزاءً منكم، وهو قولهم: مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ.[3] وقد تقدم "لكم" للوِزان. فقال: عسى أن يكون [**ردف**] قد قرب، **لكم بعض الذى تستعجلون**. وهذا نظير قوله: وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا.[4]

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

ثم قال: **وإن ربك لذو فضل على الناس**، أي لولا ذلك لأهلكهم بعدله، **ولٰكن أكثرهم لا يشكرون**.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

---

١ ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (سورة النحل، ١٦/١).

٢ ر: أي تستعجلونه.

٣ الآية ٧١ من هذه السورة. وانظر أيضا: سورة يونس، ١٠/٤٨؛ وسورة الأنبياء، ٢١/٣٨.

٤ سورة الإسراء، ١٧/٥١.

ضرب لنا مثلا بما نفهمه، والمراد العلم الأزلي ولا يريد ههنا القرآنَ ولا التوراة كما قيل.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦﴾

ولمّا ذكر الكتاب المبين من جهته لذاته سبحانه ذكر الكتاب المبين أيضا من جهته لعباده، وهو القرآن فقال قولا فيه دليله والبرهان على صدقه عند جاحده، وهو قوله:[1] **إن هٰذا القرءان يقص علىٰ بنى إسرٰءيل أكثر الذى هم فيه يختلفون.** أي فهلا دلّهم ذلك على صدقه ووجوب اتباعه. واعلم أنه لمّا كان اختلاف بني إسرائيل في أشياءَ كثيرةٍ كما اختلفوا في عيسى وفي البعث والنسخ وغير ذلك، وكان ما اختلفوا فيه ينقسم إلى قسمين، أحدهما ما نُسخ بالقرآن فلا فائدة في بيانه بعد نسخه، والآخر ما يلزم من القرآن وهو الأكثر جاء القرآن مبينا للأكثر، وهو الذي في بيانه فائدة، ولا يكون هذا نقصا يعاب به القرآن من جهة اليهود لكونه لم يبيّن جميع ما اختلفوا فيه، إذ العالم الخبير إنما يبين ما في بيانه الفائدةُ، فافهم هذا جيدا.

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٨﴾

وقوله: **وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين،** أي به من كل كافر ومشرك. ولهذا قال[2] عن بني إسرائيل وعمن تقدم من المشركين: **إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم.**

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٨٠﴾

إنك لا تسمع الموتىٰ، المراد أنك كما لا تُسمع الموتى[3] كذلك لا تُسمع الصُّمَّ. فقال: **ولا تسمع الصم الدعاء،** إلى سبيل الله، **إذا ولوا مدبرين،** ولو أقبلوا لأسمعهم، فافهم ذلك.

---

[1] ر - وهو قوله.

[2] ك - قال، صح هـ.

[3] ش - المراد أنك كما لا تسمع الموتى.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ٨١﴾

وما أنت بهٰدى العمى عن ضلٰلتهم، معناه أنّ عماهم إنما كان عن ضلالتهم، أي لم يكن من جهتنا بل من كسبهم، ولهذا لم يقل: من ضلالتهم. وبينه بقوله بعده: **إن تسمع إلا من يؤمن بـٔايٰتنا**، أي يؤمن اختيارا وكسبا لا جبرا وكرها، إذ المجبَر على الهدى لا يحتاج إلى نبيّ. فعرّفَنا لمن يسمع ولم يقل: / من آمن بل من يؤمن، **فهم مسلمون**، [٣١٦و]
بعد إسماعك لهم. ولهذا لم يقل: وهم مسلمون، فيكون المعنى الثاني وهو قوله: **وما أنت بهٰد العمى**،[١] أي الذين إنما عموا، **عن ضلٰلتهم**، مثل المعنى الأول الذي قبله وهو قوله: وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ،[٢] لتعود الحجة عليهم، إذ الأمر إليهم.

﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ٨٢﴾

وإذا وقع القول عليهم، كما يقال عن المتحاكمَين: وقعت الحكومة على فلان أو اليمينُ،[٣] أي حقت ووجبت، **أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم**. قيل في قوله:[٤] "تكلمهم" معنيان. أحدهما من الكَلْم وهو الجرح، والآخر من الكلام. فأما ما يتعلق بالكلم فإنه أراد بالدابة اسم الجنس، كما يقال: ظهر على الزرع دُودة. فيعاقبهم الله بأن يسلّط عليهم حيوانا يَجْرَحُهم. وذلك لهوانهم عند الله تعالى فيعذبهم به مع وجود الحياة فيهم، إذ لو أكلتهم الدابة لَما كان في ذلك من العذاب كما في الجِراح. ولو قال: أخرجنا من الأرض لهم دابة، للزم أن يكون إخراجُها من نفس الأرض. فلمّا قال: **أخرجنا لهم دابة من الأرض**، دل على أنها دابة من دوابّ الأرض. فالمراد الكَلْم، إذ الكلام يقتضي التعجب، والكلم يقتضي الخوف والعذاب. ولا يكون ذلك إلا بعد وقوع القول عليهم. وقوله: **أخرجنا لهم**، أي أخرجنا آية لهم. فهذه الصورة الأولى.

وأما الصورة الثانية فقيل فيها: إن الدابة يريد بها إنسانا يكلّم الناس بالحجة والبرهان وبما شاء الله سبحانه. وروى محمد بن كعب القُرَظِي[٥] عن علي رضي الله عنه

---

١ ش + عن ضلالتهم.

٢ من الآية السابقة.

٣ ش ك: على فلان أي واليمين.

٤ ش ك: في معنى.

٥ أبو حمزة محمد بن كعب بن سليم بن أسد، وقيل أبو عبد الله، مدني تابعي ثقة، رجل صالح عالم بالقرآن. توفي سنة ١٠٨هـ/٧٢٦م (تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ١٤٢/٥٥).

أنه سُئل عن الدابة فقال: أما واللهِ ما لها ذنَب وإن لها لحيةً.[1] وهذا تصريح أنها من بني آدم. وتكون الإشارة بتسميته دابة إلى أنه مهمل في الناس غير مشهور[2] بينهم، وأنه يظهر عنه ما يستعظم ويُتعجَّبُ منه كما يتعجب من الدابة إذا تكلمت. والدابة كل ما يدبّ، ومنه الإنسان كما بيّنّا من قبل.[3] وجاء في الحديث: «إنها تكتب على الكافر أنه كافر وعلى المؤمن أنه مؤمن»،[4] وهذا يعضِدُ قول علي رضي الله عنه، وتكون الكتابة بالمعنى. وذلك أن الذي يكلم الناس بالحجة والبرهان [فلا يكون] ما بعده إلا الحشر، كما جاء عقيبَ هذه الآية. فيكون خروجه رحمة على المؤمن، وكأنه قد كتب على جبينه ما لا يُمحى من أنه مؤمن؛ وكذلك الكافر من بعد خروجه هو كافر أبدا، إذ لم يبق بعده مَن يبين للناس، إذ ما بعده إلا الحشر. والله أعلم بمراده.

واعلم أن أولى ما فُهم من نص الكتاب في حديث الدابة هو من قوله تعالى: وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ، أي المعجزات، كناقة صالح، إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ، أي فاستحقوا منها[5] الاستئصال، وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ، أي آية مبصرة،[6] فَظَلَمُواْ، أنفسهم، بِهَا، إذ كذبوا فخالفوا وعقروها فاستحقوا الاستئصال، ثم قال: وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا، ثم تمم الكلام بعده إلى قوله: وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ،[7] أي تخويفنا لهم، إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا. فافهم هذا وخذه في ذهنك. ثم اسمع ما أقول، وهو أن الدابة على ما يتبادر إلى الفهم أنها دابةٌ مّا تكلِّم الناس. وقد تحققنا أنها لا تخرج إلا بعد أن يقع القول أي يحقَّ بعذاب المكذبين. وإذا حق فلا فائدة لهم في خروجها، إذ لا ينفع الإيمان وقد حق القول ووقع عليهم. وأما سائر المؤمنين فلا تعلق لهم بالدابة إلا إن قيل: هي علامة تدل على صدق الوعد. وهذا القدر ليس فيه طائل، والمؤمنون عندهم من اليقين
[٣١٦ظ] ما لا يحتاجون معه إلى ذلك خصوصا عند قيام الساعة، مضافا إلى / أن المؤمنين الأحياءَ في ذلك اليوم نَزْرٌ يسيرٌ بالنسبة إلى أهل الوجود في كل عصر وكذلك الكفار.

---

١ تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، ٢٩٢٤/٩. وانظر أيضا: معالم التنزيل للبغوي، ١٧٩/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٠٣/١٥.

٢ ر: غير مشهورة.

٣ انظر: سورة هود، ٥٦/١١؛ وسورة النحل، ٤٩/١٦، ٦١؛ وسورة النور، ٤٥/٢٤.

٤ لم أجده فيما بين يدي من المصادر.

٥ ر: منا.

٦ ك - أي آية مبصرة، صح هـ.

٧ ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ۞ وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا﴾ (سورة الإسراء، ٥٩/١٧-٦٠).

فيكون الكلام حينئذ مقصورا على أهل ذلك الزمن لا غير. والمراد من القرآن هو[1] إطلاق الدعوة وعموم النفع بالأمر والنهي والموعظة وغير ذلك. ومتى أمكن أن نُمَشِّي اللفظ على صورة تعم دخل في تلك الصورة ما يُخصّ، ولا ينعكس.

والذي يظهر بعد هذه المقدّمة أنه تعالى لمّا ذكر في هذه السورة ثلاثَ قِصص، وفي كل واحدة من المعجزة ما فيها، وهي قصة سليمان وخطفُ[2] العرش، ثم أتبعها بقصة صالح ولوط على سبيل الاختصار، إذ لم يذكر الناقة ولا كثيرا مما يتعلق بها بين القصتين، بل جاء بهما على سبيل التخويف والتذكير بهما لِما يريد أن يقوله بعد ذلك، وهو قوله: ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ، ثم قال: أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ، أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ، أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ، أَمَّن يَهْدِيكُمْ، أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ.[3] ثم ذكر بني إسرائيل ليدخلوا في جملة المخاطبين. ثم بعد ذلك كله قال لنبيه عليه السلام: فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ، إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ، وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ،[4] أي إجبارا لهم إشارةً إلى سائر المكذبين من المذكورين. فلمّا وصل إلى هذه الآية قال ما معناه: فتوكل أنت ودع هؤلاء فإنهم لا يؤمنون إلا بعد أن يحق القول عليهم. ثم نأخذهم بالاستئصال، وليس أخذُنا لهم معذوقا بك بل إذا حق القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض، أي نحن قادرون على أن نُنطق ما شئنا وتقومَ به حجتنا، ويستحقون[5] بذلك الاستئصال. وهذا من بابِ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ،[6] أي فهذا سهل علينا. فهذه الصورة هي في محتمَل اللفظ ويجدها المتفطن عند التأني والتأمل. ويحتمل أيضا أن يكون المعنى بعدما فُهم ما قدمناه على مراد بيان الآية ما معناه: إذا كان المكلِّم لهم أنت والكلام من عندنا وهو يقص على بني إسرائيل وهدى ورحمةً ولا يؤمنون، فتوكل أنت.

وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم، أي لا إنسانا، فإنهم في عديد شرّ الدواب الصُّم البُكْم. ويكون هذا الكلام على سبيل الغضب عليهم والسب لهم، لا أنه يريد به حقيقة الدابة. فافقه هذا جيدا جيدا، فهو أولى ما فُهم. والله أعلم.

---

[1] ر - هو، صح هـ.

[2] خَطِفَ الشيطانُ السمعَ واختَطَفه استَرقَه. الخَطّاف الذي في الحديث هو الشيطان يَخطَف السمعَ يَستَرقه (لسان العرب، «خطف»).

[3] الآيات ٥٩-٦٤ من هذه السورة.

[4] الآيات ٧٩-٨١.

[5] ش: ويستخفون.

[6] ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ (سورة الشورى، ٤٢/٢٤).

وإذا كان خروج الدابة قبل أن يحق القولُ لا يمكن وبعده لا ينفع فلم يبق هذا الكلام ههنا إلا بمعنى التهديد، أي لا يستحقون أن يكلمهم مثلك بل تكلمهم دابةٌ مثلهم ولا بكلامنا بل بكلام الدواب. وهذا من أبلغ التوبيخ والتعنيف النافع من قائله لكل ذي عقل من لدن الرسالة إلى يوم القيام. ولهذا تمام الآية: **أن الناس كانوا بـٔايٰتنا لا يوقنون**، أي إنما يكون اليقين بالعقل والعلم والتحقيق لا بالمعجزة والقهر والتخويف. فافهم كيف[1] ذكر اليقين ههنا دون غيره.

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ ٨٣﴾

ثم تمم الكلام عن المكذبين بقوله: **ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن**، [من] لتبيين الجنس لا للتبعيض، بل الفوج، **يكذب بـٔايٰتنا فهم يوزعون**، عمن لا يكذب. ولا يناقض قوله: وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا،[2] إذ الكلام هناك مطلق، وهنا مخصَّص بالمكذبين، والخاص يدخل في العامّ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨٤﴾

حتىٰ إذا جاءو قال أكذبتم بـٔايٰتي ولم تحيطوا بها علما أم ماذا، أي[3] أيّ شيء،[4] **كنتم تعملون**؟ فإن قالوا: كذّبنا ما لم نحط بعلمه / وجبت لهم النار؛ وإن قالوا: عَلِمنا وكذّبنا [٣١٧و] فالأمر أعظم والحجة أبلغ فسكتوا.[5]

﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ٨٥﴾

ولمّا كان "القول" من قبل وهو الإخبار عن[6] الدابة بقوله: تُكَلِّمُهُمۡ،[7] قد يقع فيه اشتباه كرره ههنا بعد ذلك إعلاما أن القول إذا وقع عليهم هذا هو حالهم لا ما يقع في الأفهام.

فقال بعد ما قدم: وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ:[8] **ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون**، وجعل المكلم لهم في يوم وقوع القول عليهم هو سبحانه ليزول الاشتباه

---

[1] ر – كيف؛ ك – كيف، صح هـ.
[2] سورة الكهف، ١٨/٤٧.
[3] ر – أي.
[4] ش ك – أي أي شيء، صح هـ
[5] ر: فسكنوا.
[6] ر – عن؛ ك – عن، صح هـ.
[7] الآية ٨٢ من هذه السورة.
[8] الآية ٨٢ من هذه السورة.

بما لا يمكن دفعه ويتحقق المتأمل أن كلام الدابة لهم من باب التهجين[١] والتقريع[٢] لا غير، إذ قَبْلَ أن يقع القول لا تخرج الدابة، وإذا وقع لا يكلمهم إلا الله، **فهم لا ينطقون**.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

ولهذا لمّا كان المراد الإيمان ولكن لا بالمعجزة والتخويف بل بالعقل والتحقيق قال بعده محتجا عليهم: **ألم يروا أنا جعلنا اليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذٰلك لآيٰت**، أي لا آية واحدةً، **لقوم يؤمنون**، أي فأي حاجة لهم إلى طلب المعجزة وقد رأوا مثل هذه الآيات. فهذا أحسن ما فهمته من النص. والمحتمَل الثاني أقوى. وكلاهما صالحان في فهم ما يتعلق بالدابة. فقِفْ مع جملة الكلام المذكور في الآيات وخذ الشرح في ذهنك واقرأ الآيات متدبرا تَفهمْ من الآيات أكثر مما فهمتَه من الشرح بعد فهم الشرح.

وقد علمت أنه تعالى لم يذكر عن الدابة حالةً ولا فائدة، ولا جاء في القرآن ما يناسب ذلك ولا ما يبينه كما يبين[٣] الآيات المحكمات ما اشتبه من المتشابهات. وأما ما شرحناه فجميع القرآن يشهد به. وأما ما نُقل فإن صح فلا يخلو إما أن يكون هو وغيره إما وحيا أو اجتهادا، فلا جائز أن يكون وحيا، والنص يعارضه أو لا يفهم المنقول منه بل يُفهم غيره. وكذلك لا جائزٌ أن يكون وحيا ثم يقع الاجتهاد من المجتهدين بعد ذلك. فإن المجتهدين والمتكلمين في هذه الآية جماعةٌ والاختلاف بينهم كثيرٌ. وأما باب الاجتهاد فيشترك فيه سائر العباد ولا نقص ولا عارَ، لأن المنقول عن الثقات أنه عليه الصلاة والسلام أمر بما رآه ثم عاد عنه. وفي قضية الإسراء[٤] وقوله تعالى: لَوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ،[٥] كفاية للعاقل. وهذا معنى [قوله:] إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ، أي أتكلم معكم بما قد يقع فيه الاختلاف، ثم قال: يُوحَىٰٓ إِلَيَّ،[٦] أي[٧] ما لا سبيل إلى أن يتصور فيه

---

١ التهجين: التقبيح (لسان العرب، «هجن»).

٢ التقريع: التأنيب والتعنيف. وقيل: هو الإيجاع باللوم (لسان العرب، «قرع»).

٣ ر: كما تبين.

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٧٣-٧٥).

٥ ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة الأنفال، ٨/٦٨).

٦ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ (سورة الكهف، ١٨/١١٠؛ وسورة فصلت، ٤١/٦).

٧ ش + أن.

وقوع الاختلاف. فلو كان كلامه كله كذلك لم تقع العظمة في العقول لمن هذه صفتُه إذا أتى بكلام مثلِ كلامه لا اختلاف فيه. فلمّا كان كلامه ككلام الناس تميز كلام الله وتميز من جاء به بالصدق. وأما ما أُوتِيَه من الحكمة ونقل عنه صلى الله عليه وسلم فقد قيده بقوله: «فما أتاكم عني فاعرِضوه على كتاب الله».[1] وقد بيّنا عند قوله تعالى: سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ[2] ما يكفي في هذا الباب لأولي الألباب.

﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧﴾

ولما كان ما أشار إليه ههنا بكلام الدابة لا يكون إلا بعد وقوع القول عليهم أعقبه بقوله: **ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السمٰوٰت ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل**، مَن فزع ومن لم يفزع **أتوه دٰخرين**. والفزع ههنا من الإسراع والمبادرة، لقوله: وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ.[3] وإليهم الإشارة بقوله ههنا: **إلا من شاء الله**، فافهم ذلك لئلا تتناقض الآياتُ. والداخر الصاغر.

فإن قلت: كيف يأتي المؤمن داخرا وهو آمنٌ؟ قلنا: المؤمن داخر من الله والكافر داخر / من أعماله، والمؤمن لا يزال خائفا من الله آمنا من فزعٍ يومئذ. [٣١٧ظ]

﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ٨٨﴾

وترى الجبال، أي في ذلك اليوم، **تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب، صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون**، أي فيحاسبهم ويجازيهم. وذكر الفعل منهم عقيبَ ذكر صنعه بالجبال إشارة [إلى] أن من لا يُعجزه تسييرُ الجبال كيف يَعجز عن مجازاتكم بالأفعال.

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾

[1] أحكام القرآن للجصاص، ٢/٢٥٣، ٤/٢٠١.
[2] سورة الأعلى، ٨٧/٦.
[3] الآية ٨٩ من هذه السورة.

ثم قال: **من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ**، بكسر الميم[١] **ءامنون. ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون**، ثم حذف ههنا "قل"،[٢] لأنه معطوف على قوله: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ، تقديره وقل: ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ.[٣]

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

فعطف عليه ناسقا[٤] [قوله:] **إنما أمرت أن أعبد رب هٰذه البلدة الذى حرمها**، جعل لها حرمة على حرمة، فلهذا شدد الراء. ويحتمل أنه من قوله: جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ[٥] لتحريم القتال فيه. **وله كل شىء**، أي ليس البلدة فقط. **وأمرت أن أكون من المسلمين، وأن أتلوا القرءان**، على الناس. **فمن اهتدىٰ فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين.**

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

وقل الحمد لله، أي على الهدى. **سيريكم ءايٰته**، التي تستعجلون بها[٦] في الدنيا. **فتعرفونها وما ربك بغفل عما تعملون.**

---

١ قرأ الكوفيون ونافع بفتح الميم، والباقون بكسرها (كتاب التيسير لأبي عمرو عثمان الداني، ص ١٧٠).

٢ أي قل من جاء...

٣ الآية ٥٩ من هذه السورة.

٤ ش: تأسفا.

٥ ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ (سورة المائدة، ٩٧/٥).

٦ ر: التي تستعجلونها.

سورة القصص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣﴾

طسٓمٓ، افتتح السورةَ بالحروف، والمراد أن هذه الحروف هي آيات الكتاب. وهو اسم الجنس لكل مُنزَل وكل كتابة، لكنه يخصِّص القرآن، أي منها بني[1] وأنتم تقدرون عليها، فلولا كونه معجزا لأمكنكم المعارضةُ. فلهذا قال مفسرا لقوله: **طسٓمٓ**، أي هذه وأخواتها: **تلك ءايٰت الكتٰب المبين**.

ولمّا قدم في آخر السورة وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ،[2] قال بعده ههنا: **نتلوا عليك من نبإ موسىٰ وفرعون بالحق لقوم يؤمنون**.

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤﴾

إن فرعون علا فى الأرض، من ههنا دليل ما قلناه في قوله: أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ.[3] **وجعل أهلها شيعا**، كقوله: هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦ.[4] **يستضعف طائفة منهم**، وهم بنو إسرائيل. **يذبح أبناءهم ويستحيِۦ نساءهم إنه كان من المفسدين**.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦﴾

ونريد أن نمن، أي هو كان يفعل ذلك ونحن، **نريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض**، التي وقع فيها ذلك. **ونجعلَهم أئمة**، لمن يتبعهم في الإيمان من ذرياتهم.

---

[1] ش: منها ينبئ.

[2] ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ (سورة النمل، ٢٧/٩١-٩٢).

[3] ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ (سورة المائدة، ٥/٣٣).

[4] الآية ١٥ من هذه السورة.

ونجعلهم الوٰرثين، يرثون الكتاب، لقوله: وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ.[1] لأنه تقدم، **ونجعلهم أئمة**. والمنة العظمى هي وِراثة الكتاب، وقد قدم: **نَمُنَّ**. ويحتمل أن الوعد بالإرث عائد إلى قوله: وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا.[2] والأولى أن الوارثة تعود[3] على القسمين المذكورين. ولهذا جعل ذكرها وسطا، إذ قدم قوله: **ونجعلهم أئمة**، وأخر بعد ذكرها قولَه: **ونمكّن لهم فى الأرض**، أي المقدسة. **ونُرِىَ فرعون وهٰمٰن وجنودهما منهم**، مقدم على قوله: **ما كانوا يحذرون**.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧﴾

ثم ذكر قصة مَن به يكون الامتنان على بني إسرائيل فقال: **وأوحينا إلىٰ أم موسىٰ أن أرضعيه**. في التوراة أن أمه أخفته ثلاثة أشهر ثم خافت.[4] **فإذا خفت عليه**، أن يؤخذ فيُذبح كما يُذبح غيرُه، **فألقيه فى اليم**، انظر إلى هذا الإيمان. **ولا تخافى**، أن يُذْهَبَ به، **ولا تحزنى**، لغيبته عنكِ. **إنا رادّوه إليكِ وجاعلوه من المرسلين**، ففعلت ذلك.[5]

﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨﴾

فالتقطه ءال فرعون ليكون لهم عدوّا وحزنا، لام "ليكون" هي لام العاقبة والصيرورة، لأن آل فرعون إنما التقطوه لينفعهم أو ليكون ولدا. فأخبر الله سبحانه بما سيكون في عاقبة الأمر. ومثل هذه اللام قول الشاعر:

/لِـــدُوا لـلـمـوت وابـنُـــوا لـلـخـراب.[6] [٣١٨و]

ومثلها [قوله:] وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ.[7] ثم عرّفنا الله سبحانه لِم جعل موسى لهم عدوّا وحَزَنا في عاقبة الأمر فقال: **إن فرعون وهٰمٰن وجنودهما كانوا خٰطئين**، ولم يقل:

---

١ سورة المؤمن، ٥٣/٤٠.

٢ سورة الأعراف، ١٣٧/٧.

٣ ر: يعود.

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «فحَبِلت المرأة وولدت ابنا. ولما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر» (الخُروج ٢/٢).

٥ ك – ففعلت ذلك، صح هـ.

٦ تمام البيت:

لــه مــلــكٌ يــنــادي كــلَّ يــوم
لــدوا لــلــمــوت وابــنــوا لــلــخــراب.

انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٢٦٠/١٦؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ١٤١/٢.

٧ ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ (سورة الأعراف، ١٧٩/٧).

مخطئين، لأن الخاطئ تعمّد الخطيئة والمخطئ أراد الصواب فأخطأه. وقد بيّنّا ذلك في موضعه لغةً.[١]

﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾

وقالت امرأت فرعون، إذ صار إليها موسى لأنها كانت مؤمنة، فحرّك الله قلبَها بمقتضى الإيمان من أن هذا الطفل لا يستحق القتلَ فقالت: **قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسىٰ أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون**، أنه سيكون لهم عدوّا وحَزَنا.

﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾

وأصبح فؤاد أم موسىٰ فُرغا، من الحزن والخوف عليه. والفارغ ضد المشغول، وذلك لفرط إيمانها بما أوحى الله إليها في المنام. وقوله: **إن كادت لتبدى به**، أي بما أوحينا إليها في أمر موسى وهو إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ.[٢] وجعل الضمير في "به" على غير مذكور لقوة دلالة القلب على ما ربط الله عليه فيه بقوله: **لولا أن ربطنا علىٰ قلبها**، أي بالكتمان لئلا يخرج منه الوحي بإذاعة القضية. فلم تستطع على[٣] إظهار ما في قلبها حتى إذا رأته زاد إيمانها بما أوحى الله إليها.[٤] وهو معنى [قوله:] **لتكون من المؤمنين**، بصدق الوعد في الآخرة كما رأته في الدنيا، وبأنه يكون رسولا كما وعد الله.

﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١١﴾

وقالت لأخته قصيه فبصرت به، بصُر بصارة لا يتعدى بمعنى علم، ولم يقل: فبَصُرَتْه، لأنه لا يحسن أن يقال: فعلمته بل علمت به، **عن جنب**، أي عن بُعد. وكذلك لفظ التوراة أن أخته وقفت على بُعد لتنظر ما يجري له.[٥] **وهم**، آل فرعون، **لا يشعرون**، بأنها أخته.

---

١ انظر: سورة البقرة، ٢٨٦/٣؛ وسورة يوسف، ٩١/١٢؛ وسورة الإسراء، ٣١/١٧.

٢ الآية ٧ من هذه السورة.

٣ ر – على.

٤ ش ك – بما أوحى الله إليها.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يُفعل به» (الخُرُوج ٤/٢).

﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾

وحرمنا عليه المراضع من قبل، أي قبل الإلقاء في اليمّ. **فقالت**، أخته: **هل أدلكم علىٰ أهل بيت يكفلونه لكم وهم له نٰصحون**، من أجلكم أو لخيرية[1] فيهم ومثلِ ذلك.

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

فرددنٰه إلىٰ أمه، هم حملوه إلى أمه ولم يستدعوا بها إليه بل كما وعد الله بقوله: إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ،[2] فتحققت بصدق الوعد بردّه وصدقِ الوعد برسالته، فآمنت به من قبل أن يُبعث،[3] وقوله: **كي تقر عينها**، أي برؤيته، لأنه كان عليه السلام قرة عين.[4] وأما قلبها فكان قارًا فارغا من الخوف والحزن،[5] **ولا تحزن**، أي في مستقبل الزمان. ولهذا لم يقل: وليزول حزنها، بل لو لم يُنجز الله وعْدَها لوقع الحزن. ولهذا بعده: **ولتعلم أن وعد الله حق**، أي مطلق ما يَعِدُ به للناس. **ولٰكن أكثرهم لا يعلمون**، وتقديره فربّته وكَبِرَ.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَاسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَاسْتَغَٰثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

ودخل المدينة علىٰ حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان، ولم يقل: يختصمان بل كل واحد منهما يريد قتْلَ صاحبه وإن كان[6] أحدهما بَغْيا والأخر دفعا. **هٰذا من شيعته**، وهو الباغي، **وهٰذا من عدوه، فاستغٰثه الذى من شيعته**، لينصره، **على الذى من عدوه**، والمعنى أنه كان مغلوبا معه فقال: أَغِثْني يا موسى وإلا قَتَلني. **فوكزه موسىٰ**،

[1] ر: أو بخيرية.

[2] الآية ٧ من هذه السورة.

[3] ش – برده وصدق الوعد برسالته فآمنت به من قبل أن يبعث. | أي قبل أن يبعث موسى رسولا إلى قومه.

[4] انظر الآية ٩ من هذه السورة.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ١٠ من هذه السورة.

[6] ك – كان، صح هـ.

الوكز كالنكز[١] وهو نَخْز[٢] بحديدة،[٣] وقيل: الوكز دفع بجملة اليد. ولم يقصد موسى قتْله بل ردْعَه. **فقضىٰ عليه**. ولهذا، **قال هٰذا من عمل الشيطٰن**، ولم يقل: هذا عمل الشيطان،[٤] لأن المراد مظاهرته للمجرم، إذ المظاهرة من موسى للمجرم هي التي أوقعت القتل وهي من عمل الشيطان بلا شك وإن كانت عملَ الإنسان. وقوله: **إنه عدو مضل مبين**، تنبيه على وجوب الاحتراز. ولو لم يكن الاحتراز[٥] نافعا لَمَا أفاد قوله تعالى: فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا.[٦] وهذا الكلام يدل على أن الإنسان يفعل أفعالا تكون من عمل الشيطان لا[٧] من عمل الله سبحانه. وكذلك يفعل أفعالا تكون من عمل الله[٨] كقوله: وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ.[٩] وقد يفعل أفعالا بشرية وحيوانية على اختلاف أنواع الحيوان، وهذه فضيلة الإنسان ولا يخرج بذلك عن القضاء والقدر.[١٠] / لأن الله قضى[١١] بذلك، أعني قضى أن يكون الإنسان يفعل [٣١٨ظ] باختياره هذه الأفعال، ولا يخرج ذلك عن إرادة البارئ سبحانه؛ لأن البارئ سبحانه[١٢] أراد أن العبد يريد ما شاء من شيء وضدِّه، والله يُمده إن شاء بما يشاء ويثيبه على إرادة الخير، ويُمده إن شاء بما شاء من[١٣] ضده ويعاقبه على إرادته الشرَ. فالإمداد من الله والإرادة من العبد. وإذا كان الله قد أراد أن يكون الأمر كذلك، أعني أن يكون الإمداد تبعا لإرادات العباد بحسب ما يشاء سبحانه من إرادتهم فلم يخرجوا عن إرادته، وكسبُهم لهم أو عليهم، والأمر في الإرادة إليهم. وبذلك الإمداد نسبت الأفعال إلى العباد لتقدم الإرادة منهم على الإمداد الصادر من جهة الله تعالى عنهم. فافهم ذلك وطالعْ أمثالَه فيما اشتبه عليك منه تجده واضحا في مواضعه من هذا الكتاب. والله الهادي إلى الصواب.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾

ويحقِّق عندك وقوعَ الخطأ قوله: فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ،[١٤] وهو حجة على من نزّه الأنبياء عليهم السلام عن الخطأ من قبل أن يوحى إليهم، وقصة آدم حجة على من يُنزِّه الأنبياء

---

١ النكز الدفع والضرب (لسان العرب، «نكز»).
٢ نَخَز: أوجع (لسان العرب، «نخز»).
٣ ر: بخديدة.
٤ ش – ولم يقل هذا عمل الشيطان.
٥ ش ك – ولو لم يكن الاحتراز.
٦ ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (سورة فاطر، ٦/٣٥).
٧ ش – من عمل الشيطان لا.
٨ ش – وكذلك يفعل أفعالا تكون من عمل الله.
٩ ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ (سورة الأنفال، ١٧/٨).
١٠ ر ك: والقدرة.
١١ ر: أقضى.
١٢ ك – لأن البارئ سبحانه، صح هـ.
١٣ ش ك – ويثيبه على إرادة الخير ويمده إن شاء بما شاء من.
١٤ سورة الشعراء، ٢٠/٢٦.

عن الخطأ بعد الوحي إليهم. والمراد أن العبد مكتسِب ولا يمنع عنه كونُه نبيا أن يَخرج عما خُلق الإنسان عليه من كونه مكتسبا. وقد بيّنّا ذلك عند قوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.[1]

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

قال رب بما، أي بسبب ما، **أنعمت عليّ**؛ والذنب الذي تاب منه موسى لم يكن القتلَ، لأنه لم يكن من كسبه، وإنما كان مظاهرة المجرم. ولهذا[2] قال: **فلن أكون ظهيرا للمجرمين**. ولو قال "لن" لكان المفهوم أن النعمة تُجبره على أنه لا يكون ظهيرا، وليس المراد ذلك بل المراد ما هو كالشكر على النعمة أو النذر الذي هو كسب الإنسان. فافهمه جيدا، فهذا فضيلة الفاء.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه، أي يريد منه أن يَصرُخ على عدو له. **قال له موسىٰ إنك لغوىّ مبين**. هذا القول قاله موسى عليه السلام للمستصرِخ الذي استنصره بالأمس وكان عِبْرِيّا، وكان خصمه بالأمس قبطيا من آل فرعون، وهو الذي وكزه موسى، فكان موسى ظهيرا للعبري على القبطي. وعرّفَنا الله تعالى أن العبري كان مجرما بقول موسى: **فلن أكون ظهيرا للمجرمين**. فلمّا كان في اليوم الثاني استصرخه هذا المجرم المذكور **قال له موسىٰ إنك لغوىّ مبين**. وصار هذا[3] الغوِيّ المبين عدوًّا لخصمه بالأمس وعدوا لخصمه اليوم. فسماه موسى أولا مجرما وثانيا غوِيّا. وهذا الكلام بعينه معناه في التوراة أن موسى صادف في اليوم الأول رجلين أحدهما عبري والآخر مصري، فقتل المصريَّ ودفنه في الرمل. وفي اليوم الثاني رأى رجلين عِبْرِيَّيْن فقال للظالم: لِم تَضرب صاحبَك؟[4]

---

[1] سورة الأنعام، ٨٨/٦.

[2] ر: لهذا.

[3] ر ك - هذا.

[4] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «وحدث في تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج إلى إخوته لينظر في أثقالهم، فرأى رجلا مصريا يضرب رجلا عبرانيا من إخوته، فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أنْ ليس أحدٌ، فقتل المصري وطمره في الرمل. ثم خرج في اليوم الثاني وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان، فقال للمذنب: لماذا تضرب صاحبك؟» (الخُرُوج ١١/٢-١٣).

﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾

ولمّا كان موسى لمّا تاب بقوله: فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ،[1] لا يلزم أنه لا يكون ظهيرا عليهم أخبر الله عنه بقوله: **فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما**. والمعنى أن المجرم الغَوِيّ هو عدو المقتول بالأمس وعدو المظلوم اليوم. وكان المستصرِخ بالأمس ظالما مجرما لقول موسى: فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ. وكذلك في اليوم الثاني لقول موسى له: إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ،[2] فخصمُ الغَوِيّ اليوم غير غوي. وكذلك خصمه بالامس غير مجرم، إذ لو لم يكن كذلك لَمَا قال موسى حين قتله: هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ،[3] / بل كان رَأَى قتْلَه قربةً إلى الله. فهو وإن كان من عدو موسى أعني المقتول بالأمس لكنه غير مجرم إلى صاحبه العبري [الذي] بدأه. وموسى ظاهَرَ العبري ليردع المصريَّ مع علمه بأن العبري هو المجرم، لكنه حمله على ذلك كونُه من شيعته وذلك من عدوه. ولهذا لم يقل: عدوه، لأن موسى لم يفعل ما فعله بالأمس من الوكز ولا ما أراد أن يفعله اليوم من البطش لأجل نفسه، إذ ليس هو عدوا لأحد من الرجلين وإن كان أحدهما بالأمس من عدوه. فافهم ذلك جيدا لتعلم أن المجرم الغوي هو الذي، **قال يٰموسىٰ أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين**. [٣١٩و]

﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾

وجاء رجل من أقصى المدينة، أي بعد ذلك، **يسعى قال يٰموسىٰ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك**، أي يأمر بعضهم بعضا، **فاخرج إنى لك من النٰصحين**. قوله: "يسعى" عرّفَنا أنه كان ممن[4] يركب فلِنصحه وإيمانه جاء يسعى. وقد بيّنّا في سورة يسٓ الفرق بين هذه ومثلِها هناك.[5]

﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾

فخرج منها خائفا يترقب، لمّا أصبح فيها أصبح خائفا يترقب هل يذكره أحد

---

١ الآية ١٧ من هذه السورة.
٢ من الآية السابقة.
٣ الآية ١٥ من هذه السورة.
٤ ر: ممن كان.
٥ انظر: سورة يسٓ، ٣٦/٢٠.

لاحتمال أن قد رآه أحدٌ، أو أن[1] يكون من المستصرِخ يظهر عنه ذلك. وأما بعد ذلك فخرج يترقب مَن ربما يلحقه من المؤتمرين به[2] ليقتلوه. لهذا،[3] **قال رب نجني من القوم الظلمين**. وهذا الكلام فيه إعلام لنا بأن الإنسان إذا بدا[4] منه ما لا يجوز يجب عليه أولا أن يتوب ويعاهد الله أن لا يرجع. ثم يجب عليه الاحتراز من شر الناس ولا يُبطل عملَه الذي هو كسبه ههنا وهو الخوف والترقبُ والهرب، ولو كان قد تاب وتحقق أن الله قد غفر له، فافهم ذلك. ومع هذا فلا[5] يجوز له أن يُبطل الدعاءَ ليكون قلبه وأقواله مع الله وأعماله على ما أمر الله من الاحتراز والتحفظ. وإنما علم موسى بالمغفرة لِتحققه صدق التوبة منه وصحة يقينه بأن الله يعفو عمن تاب، فافهم هذا جيدا.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

ولما توجه تلقاء مدين قال عسىٰ ربي أن يهديني سواء السبيل، لم يكن خبيرا بالطريق ولم يكن له رفيق.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة، الأمة كل جماعة يُقصَد بها مسلكٌ واحد، من أمَّمْت الشيءَ[6] إذا قصدتُه. ويقال[7] عن الدواب والطير وغيره، ولهذا قال: **من الناس يسقون**. **ووجد من دونهم امرأتين**، أي في مكان منفرد عن الناس. **تذودان**، غنمهما لئلا تختلط[8] بغنم الناس. **قال ما خطبكما قالتا لا**، نقدر أن، **نسقي حتىٰ يصدر الرعاء**، من الوِرْد، **وأبونا شيخ كبير**.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

فسقىٰ لهما ثم تولىٰ إلى الظل، يدل على كثرة الماشية وشدة الحر. **فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير**. وهذه صفة المؤمن أنه لا يعامل إلا الله وإن كانت المعاملة لعباده.

---

[1] ر: وأن.
[2] ش: من المقرين به؛ ك: من المتمرين به.
[3] ر + قال.
[4] ر ك: إذا بدأ.
[5] ر + يكون.
[6] ك – الشيء، صح هـ.
[7] ش ك: يقال.
[8] ش ك: لئلا يخلط.

انظر كيف بدأ بما قَدَرَ عليه من كسبه قبل طلب رزقه من ربه. وانظر كيف لم يطلب منهما أجرا بل رأى أن له مولى رزقُه عليه لا من جهة عمله ولا بعلمه، بل على العبد أن يخدم المولى لكونه عبده، لا لكونه مطعِما له. وكانت ابنتا[1] شعيب لمّا وردتا عليه في غير الوقت المعتاد سألهما فأخبرتاه بذلك فسيّر إحداهما لِتُحضره.

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾

فجاءته إحدٰهما تمشي علىٰ استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا. فلما جاءه وقص عليه القصص، الذي جرى له من قتل القبطي وغيره،[2] **قال لا تخف نجوت من القوم الظٰلمين.**

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾

قالت إحدٰهما، وهي التي جاءت إليه: **يٰأبت استأجره**، المعنى أنها طلبت من أبيها أنه يزوجها به وعلمت أنه ليس له شيء، فقالت: استأجره، **إن خير من استأجرت القويّ الأمين**، علمت قوته من كونه سَقَى لهما، وعلمت أمانته من كونه لم يتكلم سوى قوله: **ما خطبكما**، وسقى وتولى إلى الظل.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾

فلمّا طلبت من أبيها تزويجها به بأن يستأجره بها وإن لم تصرّح بذلك، / **قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هٰتين علىٰ أن تأجرني**، نفسَك، [أي] أن[3] تكون أجيرا لي،[4] **ثمٰني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصٰلحين.** علّمنا الله بهذه الآية أشياء. منها أن نزوّج الفقير الصالح الغريب فنرغبَ فيه لصلاحه وإن كان مُعْدِما. ومنها أن لا نشقّ عليه إذا زوجناه بل نسامحه [٣١٩ظ]

---

[1] ر ك: بنتا.

[2] ش – الذي جرى له من قتل القبطي وغيره.

[3] ر ك: أي.

[4] ك: أجيرا إلى.

بما يساوي رُبُعَ الأجرة. ومنها الإعلام أن الأنبياء عليهم السلام لم يكن[1] لهم دنيٌّ،[2] وأن أحدهم وهو كليم الله[3] آجر نفسه ثماني حجج. ومنها أن نصبر على الزواج[4] بعد أن نَصْلُح له مع وفور القوة ولو هذا المقدار من المدة. ومن فكّر لحظ أشياء.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ۝٢٨﴾

قال ذٰلك بيني وبينك، ولم يحتج أحد منهما إلى شهود ومكاتيب بل قال موسى: **أيما الأجلين قضيت فلا عدوٰن عليّ والله علىٰ ما نقول وكيل.**

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٢٩﴾

فلما قضىٰ، يقال: قضى دَينه إذا أوفى ما عليه، **موسى الأجل**، يشير إلى الأول، **وسار بأهله ءانس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى ءانست نارا لعلى ءاتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون.**

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٠ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ۝٣١﴾

فلما أتىٰها نودى من شٰطئ الواد الأيمن فى البقعة المبٰركة، لمّا حلّ في البقعة المباركة بورك، وقيل: لمّا حل فيها صارت مباركة. **ونودى من الشجرة**، وأخّر في الذكر للاهتمام بما قبله. وكان النداء من الشجرة، **أن يٰموسىٰ إنى أنا الله رب العٰلمين. وأن ألق عصاك فلما رءاها تهتز كأنها جانّ ولّىٰ مدبرا ولم يعقب يٰموسىٰ أقبل ولا تخف إنك من الآمنين.**

---

[1] ش: لم تكن.

[2] أي شيء وفعل خسيس كالخدمة لغيره، بمعنى أنهم ليسوا بمتكبرين.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ (سورة النساء، ١٦٤/٤).

[4] ر: عن الزواج.

﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٣٢﴾

اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب، وهو الخوف، مشتق من الرهبة. وذلك أنه أمره أولا أن[1] يضع يده اليمنى تحت إبطه الأيسر، وأدخلها في زيقه،[2] ثم أخرجها بيضاء. فكان قوله: أَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ،[3] أولا، **واضمم إليك جناحك**، ثانيا، فهو غير مختلف. ومعنى [قوله:] **اضمم**، أي بعد إظهار الآية، أي تعود إذا أخرجتها ثانيا كما كانت مثلَ بقية بدنك. وهذا نطقت به التوراة كما قلناه ههنا.[4] ولهذا قال ههنا: **من الرهب**، أي الخوف الذي يحتمل أن يكون من موسى أولا كما خاف من الثُّعْبان، ويحتمل أن يكون ممن يرى. ولهذا جاء مطلقا، وأفاد معنى آخر وهو السرعة كما يفعل الخائف. فافهم ما قلته فهو أبلغ في الإعجاز. ولهذا ذُكر في الضم دون الإدخال. ولا شك أن من أدخل يده في جيبه وأخرجها بيضاء يُرهب رائيَه.[5] فقال تعالى: اضممها من أجل الرهب الذي يَحصل من ذلك. وكذلك قال عن السَّحَرَة: وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ.[6] فالفاعل بغير الحق استرهب والفاعل بالحق أرهب. ولو لم يُعِدها كما كانت لَمَا صح أن تكون بيضاء من غير سوء، إذ لو بقيت على حالها لاحتمل أن تُنسب إلى مرض. فقد فهمت لم خالف بين اللفظين، فقال في أحدهما: أَدۡخِلۡ، وفي الثاني: **اضمم**. وقد كان الأول كافيا لكنه بيّن ذلك بقوله: **فذٰنك**. يقال: ذا وهذا وهذان وذان وذانّك، **برهٰنان من ربك**،[7] أي في اليد فقط برهانٌ بتغييرها عند الإدخال وبرهانٌ بإعادتها عند الضم. فاليد كانت برهانين على صدق المعجزة التي هي العصا. ولهذا سماها ههنا بلفظ البرهان وإن كانت آية ومعجزة أيضا. ولكن لما كانت العصا دليلا على النبوة كانت اليد برهانا على الدليل بل هي برهان، **من ربك إلى فرعون وملإيه إنهم كانوا قوما فٰسقين.**

---

١ ر + لا.

٢ ش: من زيقه. | الزِّيق: زِيقُ الجَيب المكفوف، والزيقُ ما كُفَّ من جانب الجيب، وزِيقُ القَميص ما أحاط بالعُنُق (لسان العرب، «زيق»).

٣ ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ﴾ (سورة النمل، ١٢/٢٧).

٤ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «ثم قال له: رُدَّ يدك إلى عَبّك. فرد يده إلى عبه ثم أخرجها من عبه، وإذا هي قد عادت مثل جسده» (الخُرُوج ٧/٤). | العَبّ: الكُمّ.

٥ ر: رائية.

٦ ﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ (سورة الأعراف، ١١٦/٧).

٧ ش ك - من ربك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وأخى هٰرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى، مسكَّنةُ القاف[1] جوابُ
[٣٢٠و] الدعاء. وردءا، أصلها رَدْيًا[2] تقول: رديت على الخمسين، أي زدت عليها. / فالمعنى أرسِلْه معي زيادةً، **إنى أخاف أن يكذبون**. وقيل: رِدْءًا عونا، وهو يرجع في المعنى إلى الأول، لأن المُعين هو زائد على المُعَان، وكون الرِّدْء مُعِينا أولى لقوله بعده: **قال سنشد عضدك بأخيك**. في التوراة مكتوب أن الله تعالى قال لموسى: قد جعلتك إلٰهًا لفرعون وهارون نبيَّك.[3] وفيها عند مقابلة السحرة يقول: وابتلعتْ عصا هارون عِصِيَّهم.[4] فنسب العصا إلى هارون، وموسى كان الآمرَ. وقوله: **ونجعل لكما سلطٰنا فلا يصلون إليكما**، أي بسوء. وذلك من أجل السلطان الذي جعلناه. ثم قال [في] تمام الآية جملة: **بـٔايٰتنا**، أي لا بغيرها بل بهما،[5] **أنتما ومن اتبعكما الغٰلبون**. وتقديره أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا، وأخِّر للوزان. والحكمة في ذلك ليُعلَم أن الغلبة لم تكن بالسيف بل بالآيات لمن يغالب، ودليله فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ.[6] ولهذا لم يقل: ونجعل لكما بآياتنا سلطانا.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾

فلما جاءهم موسىٰ بـٔايٰتنا بينٰت قالوا ما هٰذا، الذي جئتنا به، **إلا سحرٌ مفترًى. وما**، وقالوا: **ما سمعنا بهٰذا فى**، زمن، **ءابائنا الأولين**، أنه جرى كذلك. ويحتمل ما أخبرتْنا علومُهم وكتبهم بصحته، أعني كما أخبرت التوراةُ بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم. فإن موسى لم تبشِّر به الكتبُ كما بشَّرت بمحمد عليهما السلام.

---

[1] قرأ عاصم وحمزة برفع القاف، والباقون بإسكانها وأجمعوا على إسكان يائه في الحالين (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٢٤١).

[2] ر ك: ردئا.

[3] «فقال الرب لموسى: انظر أنا جعلتك إلها لفرعون، وهارون أخوك يكون نبيك» (الخُرُوج ١/٧).

[4] «طرح كل واحد عصاه فصارت العصيّ ثعابين. ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم» (الخُرُوج ١٢/٧).

[5] ك: لا بغيرهما بل بغيرهما. | بل بهما: أي بالبرهانين.

[6] ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/ ١١٩).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾

وقال موسىٰ ربى أعلم بمن جاء بالهدىٰ من عنده، الهاء عائدة على الرب سبحانه. **ومن**، وبمن، **تكون له عُقبة الدار**، في الدنيا والآخرة. **إنه لا يفلح الظّلمون**، إذ لا أظلم ممن كَذَب على الله[١] أو كذّب رسلَه.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾

وقال فرعون يٰأيها الملأ ما علمت لكم من إلٰه غيرى فأوقد لى يٰهٰمٰن على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع، فأَصِلُ من طريق الاطلاع، **إلىٰ إلٰه موسىٰ، وإنى لأظنه من الكٰذبين**.

﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾

وجعلنٰهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيٰمة لا ينصرون، أي عاقبناهم في الدنيا بهذا. وبيانه أنه لمّا كان الإمام يتبعه المأموم فكل تابع لهم بعدهم في صفتهم إلى يوم القيامة هو مدعوٌّ منهم إلى النار. وهذا الدعاء بالحال والفعل الذي هو ثمرة القول. وهذه صفتهم في الدنيا، لقوله: **وأتبعنٰهم فى هٰذه الدنيا لعنة ويوم القيٰمة هم من المقبوحين**.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣﴾

ولقد ءاتينا موسى الكتٰب من بعد ما أهلكنا القرون الأولىٰ بصٰئر للناس، إنما قال، **للناس**: فإن فيه أحكاما لم تُنسخ بالقرآن، ومما فيه العشرُ كلماتٍ، وهي هذه:

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٣٢).

الأُولى:[1] أنا الله ربك الذي أخرجتك من أرض مصر من العبودية. ثم بدأ فقال: لا يكن لك آلهة أخرى معي، ولا تصنع لك صنما من دوني، وكلّ صورة مما في السماوات العُلى والأرض السفلى، ومما بالماء من تحت الأرض لا تَسجد لهم ولا تعبدْهم، إذ أنا الله ربك الغيور.

الثانية: لا تَحمِل اسم الله إلى اللغو والزور، إذ لا يُبرّئ الله من يحمِل اسمه إلى الزور.

الثالثة: اذكر يوم السبت وقدِّسْه.

الرابعة: عظِّمْ أباك وأمك لكي يطول عمرك.

الخامسة: لا تقتل.

السادسة: لا تزنِ.

السابعة: لا تسرق.

الثامنة: لا تشهد على صاحبك بشهادة الزور.

التاسعة: لا تتَمَنَّ بيتَ صاحبك.

العاشرة: لا تشته زوجة صاحبك وثوره وحماره وكلَّ الذي لصاحبك. فهذا مما في التوراة.[2] فلهذا كانت بصائرَ للناس، **وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون**، به، لأنه ذكرٌ لموسى وقومه ومن تَبعهم.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾

وما كنت بجانب الغربي، أراد الله تعالى الاحتجاج على اليهود والكفار بما يعلمونه، لأنهم يعلمون أن بيْن موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام قرونا كثيرة، ولِمَا لم يكن محمد صلى الله / عليه وسلم بجانب موسى إذ أوحى الله إليه ولا بجانب الطور الذي [٣٢٠ظ]

---

١ ش: فالأولى.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «أكرم أباك وأمك كما أوصاك الرب إلٰهك، لكي تطول أيامك، ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الرب إلٰهك. لا تقتل، ولا تزن، ولا تسرق، ولا تشهد على قريبك شهادةَ زورٍ، ولا تشته امرأة قريبك، ولا تشته بيت قريبك ولا حقلَه ولا عبده ولا أَمته ولا ثَوره ولا حماره ولا كل ما لقريبك. هذه الكلمات كلم بها الرب كلَّ جماعتكم في الجبل من وسط النار والسحاب والضباب، وصوت عظيم ولم يزد. وكتبها على لوحين من حجر وأعطاني إياها» (التَّثْنِيَة ٥/١٦-٢٢، والخُرُوج ٢٠/١٢-١٧).

نودي موسى عليه السلام إذ أوحى الله إليه،[١] ثم إن محمدا صلى الله عليه وسلم يتلو قصةَ موسى وأخباره وأحوالَه وما يتعلق به مما جاء في التوراة وغير ذلك عن صحة، فذلك برهان ظاهر على صدقه عند أهل التوراة. وتصديق أهل الكتاب له آية دالة للمشركين وأمثالِهم على صدقه، وهو معنى قوله تعالى: أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ.[٢] ثم إن الله سبحانه عرّفَنا بهذه العبارة وهي قوله: **بجانب الغربي**، كيف كانت هيئة موسى، أعني توجهه، ومن أين سمع النداء، ومن أيّ جهة وغير ذلك كما عرّفَنا في سورة الكهف صورةَ الكهف ومكانه ومكانَ أهله منه كما بيناه.[٣] فطالعه هناك لتَفهم ما قلناه ههنا.

وذلك أن الله تعالى لم يقل: بجانب المَغْرب. فإن الإنسان المغرّب يكون وجهه إلى جهة المَغْرب يقينا. فقوله: **الغربيّ**، يدل على أن وجهه إلى جهة المشرق. ولو قال غير هذه العبارة لم نعلم أن الجهة كانت غربية من الجبل المذكور. وقد قال في هذه السورة: فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ [ٱلۡأَيۡمَنِ]،[٤] وقد علمت أن الوادي[٥] لا يكون له في نفسه يمين ولا شمال بل ذلك بالنسبة إلى الشخص. فإن كان وجهه إلى المشرق فيمينه يمين الوادي، فيكون ما على يمينه[٦] من الجهات جهةَ القبلة بلا شك وبالعكس. فعلِمنا بهذا الكلام أن موسى كان مجيئُه إلى الجبل من الجهة التي تلي[٧] المغربَ، وكان وجهه إلى المشرق، وأنه لم يبلغ في الجبل إلى أقصاه ولا تعدى نصفَه، بل كان في أوائله ليكون الإنسان القائم هناك غربيا. فهناك واديان أحدهما عن يمين موسى باعتبار أن وجهه إلى جهة المشرق، وفي الوادي الآخر كان موسى وأهلُه فمال على يمينه، إذ على يمينه طورٌ وعلى شماله طور لوادٍ آخر. ففي جانب الطور الأيمن لموسى سمع النداءَ فبقي الوادي الذي فيه أهلُه على شماله. فكان الخطاب في جانب[٨] الطور الأيمن من الوادي[٩] الأيمن. فصعد موسى على شاطئه، ولم يخرج منه لقوله: إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ.[١٠] وهنالك شجرة في بقعة من الأرض لا أنها في جبل، أو في سفح الوادي القائم،

---

١ ش – إذ أوحى الله إليه

٢ سورة الشعراء، ٢٦/١٩٧.

٣ انظر: سورة الكهف، ١٨/٩-١٢، ١٧-١٨.

٤ الآية ٣٠ من هذه السورة.

٥ ر – وقد علمت أن الوادي.

٦ ك: ما على بعينه.

٧ ك: التي يلي.

٨ ر ك: في الجانب.

٩ ش: من الواد.

١٠ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (سورة طه، ٢٠/١٢).

فسمع النداء من الشجرة مِن عُلَى يمينه. فيكون ذلك حينئذ من جهة القبلة، أعني الجنوب، فافهم ذلك. وإن في ذلك لبلاغةً وإيجازا، إذ بكلمة واحدة تميزت عِدّةُ معانٍ بحيث لو سار الإنسان إلى ذلك المكان لَعرفه بالقرآن. والكلمة قوله: **بجانب الغربيّ**، وأوضحه بقوله بعده: **إذ قضينا إلى موسى الأمر**، أي إن هذا وحي من لدنا، إذ لم تكن هناك. **وما كنت من الشهدين**، ليس من المشاهدة، لأنه نفى أن يكون هناك فانتفى أن يكون من الشاهدين، ولكنه أراد: وما كنت من الذين يشهدون لموسى بذلك، أي من بني إسرائيل فتُخبرَ عنه بما تَعلمه كما يخبَر عن المعلوم وإن لم يُشاهَد، وكما يعلم من اتّبعه وشهد له، فما كنت مشاهِدا ولا شاهدا، وها أنت تخبر بالحق. ومن قال: إن الغربي لا يريد به موسى، فالجواب أنه لو كان إنسان هناك لكان غربيا، ولم يكن هناك إلا موسى.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

ثم قال: **ولٰكنا أنشأنا قرونا**، بينك وبين موسى، **فتطاول عليهم العمر**، فَنَسُوا ما ذُكِّروا به على يد موسى،[1] فأرسلناك. وحذف هذا المقدّر لأنه دل عليه بقوله: **ولٰكنا كنا مرسلين**، بعد ما نسق على الأول. **وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلوا عليهم**، على الناس **ءايٰتنا**، المتضمنة قصتَهم. **ولٰكنا كنا مرسلين**، فأوحينا إليك كما أوحينا إلى الرسل.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

ثم نسق على قوله: وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ، الإنسان، ٱلْغَرْبِيِّ،[2] [قوله:] **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا**، أي بجانب من جوانبه بحيث تسمع النداء وإن لم تكن بجانب الغربي
[٣٢١و] / المنادَى. **ولٰكن**، أوحينا ذلك إليك، **رحمة من ربك**، للناس، **لتنذر قوما ما أتٰهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون**.

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ (سورة المائدة، ٥/١٣-١٤).

[2] الآية ٤٤ من هذه السورة.

﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾

ولولا، ليست هذه بمعنى هلا بل لولا، **أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم**، فيحتجّوا[1] علينا، **فيقولوا**، إذا حلّت بهم: **ربنا لولا**، هلا،[2] **أرسلت إلينا رسولا فنتبع ءايٰتك ونكون من المؤمنين**، بما[3] أرسلت إلينا[4] لعلمنا أنهم لا يؤمنون بمن يأتيهم من عندنا.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ٤٨﴾

فلما جاءهم الحق من عندنا، على لسانك، **قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسىٰ**، من قلب العصا[5] وشقّ البحر[6] وغيره،[7] وهذا قول العرب. ثم خاطبهم بلفظ دال على هؤلاء وعلى أمثالهم ممن تقدم من آل فرعون، وذلك لما كانت صفتهم وصفة من تقدمهم في الكفر واحدةً، فقال: **أولم يكفروا**، الأوائل، **بما أوتى موسىٰ من قبل قالوا سحران تظٰهرا وقالوا إنا بكل**، من الرسل،[8] **كٰفرون**. ومن عادة النص مخاطبةُ الحاضر بصفة الغائب إذا كانت صفة للحاضر أيضا. والدليل على أن الكلام للعرب قولُه بعد آيات: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾،[9] وتمامه، ولهذا قبل ذلك:[10] ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾.[11] والغرض من مخاطبة الحاضرين بصفة من تقدم من الغائبين لينتبهوا فيتحققوا أن العقاب يكون واحدا كما كان الوصف واحدا. ولهذا قدم في أول السورة نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يصدقون بالجزاء.

﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٩﴾

ولمّا كان القول من هؤلاء كذلك أيضا قال: **قل فأتوا بكتٰب من عند الله هو أهدىٰ منهما**، من التوراة والفرقان، **أتبعه إن كنتم صٰدقين**.

---

[1] ش ك: فتحجوا.

[2] ش ك - هلا، صح هـ.

[3] ر: لما.

[4] جميع النسخ: بما أرسلنا إليهم.

[5] انظر لذلك: سورة الأعراف، ١٠٧/٧، وسورة الشعراء، ٣٢/٢٦، وسورة النمل، ١٠/٢٧.

[6] انظر لذلك: سورة البقرة، ٥٠/٢، وسورة طه، ٧٧/٢٠، وسورة الشعراء، ٦٣/٢٦.

[7] انظر مثلا: سورة البقرة، ٦٠/٢، وسورة الأعراف، ١١٧/٧، ١٦٠، وسورة الشعراء، ٤٥/٢٦.

[8] ش - من الرسل، صح هـ.

[9] الآية ٥٢ من هذه السورة.

[10] ك - إذ على يمينه طور وعلى شماله طور لوادٍ آخر... ولهذا قبل ذلك، صح هـ.

[11] ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ (سورة السجدة، ٣/٣٢).

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

فإن لم يستجيبوا لك، وليس المراد فإن لم يجيبوك، فإن الاستجابة لِما يدعوهم إليه من الإيمان، والإجابة لكلامه لهم، **فاعلم أنما يتبعون أهواءهم**. إذا لم يأتوا بكتاب لزمهم أن يستجيبوا، فإن لم يستجيبوا فهم مع الأهواء لا العقولِ بلا شك. **ومن أضل ممن اتبع هوىٰه بغير هدى من الله. إن الله لا يهدى القوم الظّٰلمين**.

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

ولقد وصلنا لهم القول، ولم يُرِدِ الوصل الذي هو ضد القطع بل من الإيصال، فهو إيصال بوجه ثم إيصال بوجه[1] آخر ليصل إلى أفهامهم بالتكرار، **لعلهم يتذكرون**، به وهو من الذكر، أي يتخذونه ذكرا. ولهذا لم يقل: وصلنا إليهم بل، **لهم**.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ثم بين أن الكلام عن العرب بقوله: **الذين ءاتينٰهم الكتٰب من قبله هم به يؤمنون**، يشير إلى التوراة قبل القرآن. والمراد من أسلم، أو يسلم من أهل الكتاب.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾

وبين ذلك بقوله: **وإذا يتلىٰ عليهم قالوا ءامنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله**، أي قبل إنزاله، **مسلمين**. وبيان ذلك أن الذي آمن بالتوراة ورأى ما وعد الله فيها من ذكر صفات هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم وذكر ما يضعه الله في فيه من الوصايا[2] أعني القرآن آمن بالنبي والكتاب من قبل نزول الكتاب وقبل ظهور النبي. وكذلك من أسلم الآن من علماء اليهود فإنه كان من قبل أن يصل إليه القرآن قد آمن به من التوراة، لأن كل يهودي يلزمه أن يكون مؤمنا بكل ما في التوراة، فكلهم مؤمنون بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما جحدوا أن يكون هو هذا. فمن آمن فقد اتصل إيمانه

---

[1] ش - ثم إيصال بوجه.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا. أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه» (التثنية ١٨/١٧-١٩).

ومن جحد فقد انفصل هو عن جملة الإيمان من حين الجحود. ولهذا قال الله تعالى عن القسم الأول: وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ.[١] وذلك نصيب الإيمان بموسى ونصيب الإيمان بمحمد عليهما الصلاة والسلام كما بيناه في موضعه. وقال عن القسم الثاني: وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ،[٢] الآية.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٥٤﴾

ولهذا بين ما قلناه وأوضحه ههنا بقوله: **أولٰئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا**، هذا الصبر يريد به صبْرَهم على ما كلفوه من شريعة موسى وعلى ما كُلِّفوه من شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، فهذا خاصة.[٣] ويحتمل الإطلاق / فيدخل في[٤] ذلك [٣٢١ظ] أنهم صبروا على جهل مَن كفر مِن الطائفتين، فإن من أسلم من أهل الكتاب لكونه عرف الحق عاد الجاهل -وهو من لم يسلم- عدوّا له. ومن أسلم من المشركين عاد الجاهل منهم[٥] عدوّا له وعدوا لمن أسلم من أهل الكتاب، فصار هذا المسلم من أهل الكتاب له من الطائفتين أعداء فيؤتى أجرَه مرتين بصبره على الطائفتين. ولذلك يدخل في ذلك أن الذين أسلموا من أهل الكتاب صبروا على ما[٦] أَلفوه وصبروا على ما كُلِّفوه، ويحتمل زيادةً ولهذا جاء اللفظ مطلقا. ثم زاد الوصف لهم بقوله: **ويدرءون بالحسنة**، أي بعملهم لها، **السيئةَ**، التي تقع منهم إشارة إلى أنهم يحاسِبون أنفسهم ويتفقدون أعمالهم لإيمانهم، بقوله تعالى: إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ.[٧] **ومما رزقنٰهم ينفقون.**

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ٥٥﴾

وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، فالإعراض منهم هو عن نفس اللغو. ووعظوا أصحابه، **وقالوا لنا أعمٰلنا ولكم أعمٰلكم سلٰم عليكم**، أي سلامة منا. **لا نبتغى**،

---

١ سورة الحديد، ٢٨/٥٧.

٢ ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (سورة آل عمران، ٨٥/٣).

٣ ر: خاصه. وفي هامش ك: خاصه.

٤ ر - في.

٥ ك - منهم، صح هـ.

٦ ر ك: عن ما.

٧ سورة هود، ١١٤/١١.

هداية، **الجٰهلين**. ومن نظر بعين العقل وشرطِ العلم رأى كثيرا من علماء عصرهم[١] أولى بأن يخاطَبوا بهذا الخطاب، ولا سبيل إلى هداهم في اعتقاد الحق إلا أن يشاء الله، فهم معاقَبون على سوء اعتقادهم بأن أبقاهم الله عليه.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

ولقد نبّه الله العلماء بالحق في كل عصر، إذ ضرب لهم المثل برسوله في عصره إعلاما أنه إذا لم يقدر محمدٌ صلى الله عليه وسلم على ذلك فكيف يقدر[٢] غيرُه، فقال: **إنك لا تهدى من أحببت**، أي إجبارا، لأن هؤلاء عُوقِبوا بما هم عليه لكونهم فُتح لهم باب الهدى فأعمَتْهم[٣] العوائدُ[٤] والهوى. وانظر كونه لم يقل: أحببتَه، بل المعنى من أحببتَ أن تهديه. وهذا لا يُفهَم منه، **إنك لا تهدى**، مطلقا، لقوله: وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ،[٥] بل المفهوم أنك لا تهدي من أحببت أن تهديه من جميع الناس، إذ منهم من طبع الله على قلبه بكسبه، فينتفي منك عمومُ الهدى ولا ينتفي الخصوص. ولو قال: من أحببته[٦] لانتفى الخصوص المحبوب، فافقه. وعلِمْنا أن القادر على إجبار العباد هو الله وحده. وأما أنت فلا قدرة لك على ذلك. وهو معنى [قوله:] **ولٰكن الله يهدى**، أي لا غيره،[٧] **من يشاء**، إجبارا إن شاء. **وهو أعلم بالمهتدين**، طوعا.

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٖ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

وقالوا إن نتبع الهدىٰ معك نتخطف من أرضنا، أي لقلّتنا وضعفنا. **أولم نمكن لهم حرما ءامنا يجبىٰ إليه ثمرٰت كل شيء رزقا من لدنا**، أي فهلا دلهم هذا التمكينُ قبل الإسلام على قدرة قادر يمكِّن لهم الأمنَ بعد الإيمان. **ولٰكن أكثرهم لا يعلمون**.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

---

١ ر ك: عصره هم.
٢ ك - يقدر، صح هـ.
٣ ش ك: فأعمهم.
٤ من جموع العادة: العوائد، وهو نظير حوائج في جمع حاجة. وقال جماعة: العادة تكرير الشيء دائما أو غالبا على نهج واحد بلا علاقة عقلية. وقيل: ما يستقر في النفوس من الأمور المتكررة المعقولة عند الطباع السليمة (تاج العروس للزبيدي، «عود»).
٥ سورة الشورى، ٥٢/٤٢.
٦ ش: أحببت.
٧ ر: ولكن الله أي لا غيره يهدي.

وكم أهلكنا من، أهل، **قرية بطرت معيشتها**، نُصب لفقدان[١] "في"، أي بطرت لكثرة النعم في مدة حياتها. **فتلك مسٰكنهم**، أي خاوية منهم، **لم تُسكن من بعدهم إلا قليلا**، من المساكن أو قليلا من الزمن. **وكنا نحن الوٰرثين**.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾

وما كان ربك مهلك القرىٰ حتىٰ يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم ءايٰتنا وما كنا مهلكى القرىٰ، أي بعد بعثة الرسول، **إلا وأهلها ظٰلمون**، لأنفسهم بتكذيبه ومخالفته.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠﴾

ولما قَالُوا: إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ،[٢] وكان في ذلك ما يدل على قلة المؤمنين وفقرهم، إذ ليس لهم ما يمنعهم من أن يتخطفوا لا من المال ولا من الرجال نسق على ذلك [قوله:] **وما**، بمعنى ومهما، **أوتيتم من شىء فمتٰع الحيوٰة الدنيا وزينتها**. **وما**، والذي، **عند الله خير وأبقىٰ أفلا تعقلون**.

﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١﴾

أفمن وعدنٰه وعدا حسنا فهو، أي فالوعد، **لٰقيه**، كقوله: قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ / مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡ،[٣] **كمن متعنٰه متٰع الحيوٰة الدنيا ثم هو يوم القيٰمة من المحضرين**، [٣٢٢و] يُعلم من قوله: لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ، وهي واو المعية، وهم قرناؤهم الذين ظلموهم،[٤] ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا.[٥]

﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢﴾

ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون، أنهم لكم آلهة ينفعونكم.

---

[١] ر + الخافض.
[٢] الآية ٥٧ من هذه السورة.
[٣] سورة الجمعة، ٨/٦٢.
[٤] ك: ظلموا هم.
[٥] سورة مريم، ٦٨/١٩.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣﴾

قال الذين حق عليهم القول، أزلا وهم الشياطين الذين ضلوا وأضلوا. ولهذا لم يقل: قالوا بل المعنى قال الشركاء: **ربّنا هٰؤلاء الذين أغوينا أغوينٰهم كما غوينا**، أي لو كانوا مجبرين[1] منا على الغي لكنا نحن أيضا مجبَرين من غيرنا. ولٰكنّا دعوناهم إلى ما نحن فيه فأجابونا. **تبرأنا إليك**، منهم وهو معنى [قوله:] إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ،[2] **ما كانوا إيانا يعبدون**.

﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ٦٤﴾

وقيل، للعابدين: **ادعوا شركاءكم**، لينصروكم، **فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب**. وتم الكلام عنهم وحَذَف ما يلزم عن رؤية العذاب، فهو كقوله: وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفًا،[3] فاكتفى ههنا بذكر الرؤية فكأنه قال عنها: ورأوا العذاب واجبا عليهم أو لزاما لهم، لأنهم محجوبون. ثم قال بعده: **لو أنهم كانوا يهتدون**، أي لو كانوا في الدنيا يهتدون لِمَا جاءت به الرسل لما رأوا العذاب في الآخرة واجبا عليهم. وهذا الشرح دليله ما سيأتي بعد الآية.

﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾

ولمّا كانت الإجابة منهم للشياطين[4] سببا لدخولهم إلى النار والإجابةُ منهم للمرسلين سببا لدخولهم الجنةَ وقد وبّخهم أولا على إجابة الشياطين ووبّخهم[5] ثانيا بقوله: **ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين**.

﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦﴾

فعميت عليهم الأنباء يومئذ، وهو كقوله: وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ.[6] وههنا، **فهم لا يتساءلون**، عن الجواب لله لاعترافهم بالخطأ.

---

[1] ش: مجرمين.
[2] سورة البقرة، ٢/١٦٦.
[3] سورة الكهف، ١٨/٥٣.
[4] ش: الشياطين.
[5] ش: وبخهم.
[6] سورة النمل، ٢٧/٨٥.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ٦٧﴾

فأما من تاب وءامن وعمل صٰلحا، في الدنيا، **فعسىٰ أن يكون من المفلحين**، في ذلك اليوم.

﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٨ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٦٩﴾

ولما قدم قوله: وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ،[١] وبعده: وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ،[٢] أي لعجزهم عن نصرة الداعين وعن نصرتهم لأنفسهم -وهذه قصة من ليس له قدرة واختيار- عرّفنا الله بخطابه لرسوله أن آلهة المشركين لا تخلق ولا تَختار فقال: **وربك يخلق ما يشاء ويختار**، أي ليس كأربابهم. وقوله عن الشركاء بعده: **ما كان لهم الخيرة**، هو احتجاج صحيح يصدقه المشركون والمؤمنون ولا يصح الاحتجاج بما يصدقه الخصم. ولهذا بعده: **سبحٰن الله وتعٰلىٰ عما يشركون**، ولم يقل: عما يعبدون. وكذلك بعده: **وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون**، أي وأربابهم لا تعلم بل هو وحده.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٧٠﴾

وهو الله، وليس سواه مَن اسمُه الله، **لا إلٰه إلا هو**، فكيف يشركون الإله بغير إله. **له الحمد**، لا للشركاء[٣] بل له وحده، **فى الأولىٰ والآخرة**، بمعنى أن أهل النار يحمدونه، لأنه تفضل عليهم بالقدرة على النجاة فظلموا أنفسهم بترك سلوك[٤] سبيلها، فظلمُهم لأنفسهم لا يمنع حمده، فافقه. **وله الحكم**، فيهما[٥] لا لغيره. **وإليه ترجعون**، فيجازيكم لا إلى ما تعبدون من دونه. فالكلام كله ههنا هو عن آلهتهم التي لا تخلق ولا تَختار. ولو كان المراد نفي الاختيار عن العباد[٦] لَمَا كانت العبارة بالتخصيص عن قوم معيَّنين بل بلفظ يعم الكافر والمؤمن، ولا كان تقدم عليه ما ينقض[٧] ذلك كلَّه كما إذا تأملته وتأخر عنه ما هو كذلك أيضا، ولكان قوله بعده: **سبحٰن الله وتعٰلىٰ عما يشركون**،

---

١ الآية ٦٢ من هذه السورة.

٢ الآية ٦٤ من هذه السورة.

٣ ش ك: لا لشركائه.

٤ ك - سلوك، صح هـ.

٥ ش - فيهما.

٦ لعل المؤلف يشير إلى الآية ٦٨ من هذه السورة.

٧ ر: ما ينقص.

مناقضا لقوله قبله: **ما كان لهم الخيرة**، لأن الاحتجاج كانَ يكون لهم عليه، إذ كيف [٣٢٢ظ] يَسلبهم الاختيارَ ويُنكر / عليهم[1] الشركَ، فيكون كمن قال: اشركوا ولا تشركوا وأن معتقدَ هذا في عاقلٍ مخلوق يكون بهذا الاعتقاد مختلًا بلا شك، فكيف في خالق العقل عز وجل.

وإن قيل: إن الكلام جملةً بمعنى "ويختار ما كان لهم الخيرةُ فيه"، وتكون "ما" بمعنى الذي لا نافية، وتكون "لهم" إشارة إلى العابدين لا إلى الآلهة؟ فما ينقض [هذا] ما قدمناه، لأن إثبات الاختيار لله لا ينفي أن يكون للعباد اختيار، ويكون هذا من بابِ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ.[2] ولكن ما قلناه [هذا] أولى باللفظ، ولهذا أثبت لفظة "كان"، لأنه قد كان يكفي أن يقول: "ويختار ما لهم فيه الخيرة"، وفيما أوضحته لك كفاية.

[علم الله القديم وإرادته]

واعلم أنه غلط مَن نفى أن يكون الله خلق الوجود بالاختيار واحتج بأن قال: المختار هو الذي يفعل أمرا إن شاء ويتركه إن شاء، وسبقُ العلم بالفعل أو الترك يحيل وقوعَ ما لم يَسبِق به العلم. فالجواب أن سبْقَ العلم بأنه تعالى يفعل كذا ليس بموجب على الله أن يفعل كذا، بل العلم سبق بأنه سيفعل مختارا لا أنه سيفعل مجبَرا.[3] فإن كان الله قادرا مطلقا فله أن يفعل وله أن لا يفعل، ولا معنى للمختار إلا هذا. وإن كان سبحانه "عليه أن يفعل ولا بد" فليس بقادر على الإطلاق، إذ لا يقدر على المنع بل على الفعل لا غيرَ؛ فيكون الفعل من لوازم ذاته لا بد منه فيكون فقيرا إلى فعله، والله غني بذاته لا بفعله. فافقه الغلط من معتقِده.

ومما أوقعه في هذا الغلط أنه يقيس البارئ سبحانه على مصنوعاته، إذ المخلوق [لا] يتقدم علمه على اختياره بل ويحدث له اختيار. والحقُّ تعالى ليس في صفاته الذاتية مقدمٌ ولا مؤخَّر، فالعلم والاختيار قديمان. فكما أن ظهور المعلوم غير العلم فكذلك ظهور المختار غير الاختيار. والإحداث ليس بذاته سبحانه بل بقوله: "كُنۡ".[4]

---

[1] ر: عليه.

[2] سورة البقرة، ٢/١٨٥.

[3] ر ك: مخبرا.

[4] نسبت هذه اللفظة إلى الله تعالى في آيات كثيرة، منها ما ورد في سورة البقرة، ٢/١١٧؛ وسورة آل عمران، ٣/٤٧، ٥٩؛ وسورة الأنعام، ٦/٧٣.

ولا يكون الحدث صفة للقديم سبحانه وإن كان العلم به قديما. فالحدث لا شك عن أمره لا عن ذاته، وعن اختياره لا عن اضطراره، وبعد الغنى بذاته لا لفقره إلى فعله. فالحدث كما قلنا عن أمره، والأمر قديم بمعنى القدرة على الأمر، ولكن ظهور الأمر محدث. وكذلك الكلام وكذلك الاختيار والخلق. ولهذا قال: "يخلق ويشاء" بلفظ الاستقبال. والمشيئة[1] هي الاختيار وإن تميز أحدهما عن الآخر. ولو كان الموجود عن ذاته فيضا لا عن أمره اختيارا لم يكن متغايرا ولا مغايرا للذات،[2] إذ لا يفيض عن الشيء غيرُه، ولا بد من المميِّز والمميَّز غيرٌ. فبطل القول بالفيض ولزم أن الله يقلّب الأعيان ويجمع بين الأضداد ويقول للنار: كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا.[3] وقول القائل معتذرا عن الله تعالى: إن الخطاب على قدر العقول، فذلك غلط منه وقدح. أما الغلط فإن الله تعالى إنما خاطب لأولي الألباب فلا يريد بالخطاب ضده. وأما القدح فلأن الله تعالى أقدرُ تفهيما وأقوم قيلا وتعليما من عباده لعباده، فكيف يدعي غيرُه التعليم والبيانَ، و ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ،[4] وما أحد يقول:[5] "محدثا" وهو يريد قديما. وإذا كان العبد مختارا وبذلك يكون كاملا فكيف يَعجز الربُّ عما يقدر عليه العبد، وكيف يعطي رب لعبده ما ليس في قدرته لنفسه؟ وهذا طعن في العقل وجهل بالقدرة.

وأما ما يَرِد على هذا الكلام فجوابه أن المعلوم ظهر إلى الوجود بالاختيار، والمخلوق بالاختيار تقدم به العلمُ قبل ظهوره إلى الوجود. ويُفقَه بالمثال[6] بأن يقال: كما أن علمه تعالى يتبع / المعلوم من أعمال العباد ولا يغيرها، فهم غير مجبَرين بالعلم [٣٢٣و]
منه والاختيارُ منهم باق على حاله، فكذلك العلم منه بما سيُظهره يتبع المعلوم الذي سيظهره باختياره ولا يغيّره، والاختيار منه باقٍ على حاله. فافقه ما أحسن هذا، وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ.[7] ولو كان غير مختار لكان مضطَرّا فقيرا عاجزا عن أن لا يخلق. وإذا صح الاختيار منه سبحانه بالوهب الأول الذي هو الإيجاد لكل موجود صح غناه. فلولا أمره لم يكن وجود، ولولا غِناه لم يُسَمّ[8] ذلك وهبا بل اضطرارا، تعالى [الله] عن ذلك. ولهذا ذكر الخلق والمشيئة والاختيار.

---

[1] ر ك: المشيئة.
[2] ر ك: الذات.
[3] ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (سورة الأنبياء، ٦٩/٢١).
[4] سورة الرحمٰن، ٥٥/١-٢.
[5] ش: وما يقول أحد.
[6] ر ك: بالماثل.
[7] ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (سورة النحل، ٦٠/١٦).
[8] ر: لم نسم.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾

فلمّا أثبت لنفسه ذلك نسق عليه [قوله:] **قل أرءيتم إن جعل الله عليكم اليل سرمدا إلىٰ يوم القيٰمة من إلٰه غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون.** لمّا كان الإبصار في النهار قال في الليل ما يقوم مقامه في النهار، فإن الإنسان قد يُدرك بالأذُن أشدَّ من إدراك العين.[1] لأنه يسمع في الظلمة فيعرف فيها بسمعه من لم يَرَه بعينه، ويسمع من وراء حجاب فيعرف من سمع كلامَه إذا كان معروفا عنده. وليس كذلك العين فأقام السمعَ في الليل مقام البصر في النهار. ثم قال:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

الواو في "ولعلكم" بمعنى ما قبلها، فحُذفت لام كي واكتفى بالواو دلالة عليها. ولو قال: وتشكرون للزم أنهم يشكرون لا محالة. ولو قال: ولتشكروا[2] لتغير الوِزان ولزم الشكر أيضا. ولو قال: لعلكم بغير واو لكان جملةُ العمل لعلكم، والمراد أشياءُ تقدمت ولعلكم أيضا؛ وليست "لعل" بمعنى الوجوب كما قيل بل لفظة تتقدم على الممكن.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون، كرّر هذه الآية، لأن الأولى[3] مناداة عائدها على الآلهة، وهذه على من أشرك بهم، فافهم ذلك مما قبلها وبعدها.[4]

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا، للأمم: هؤلاء الشهداء منكم برهاننا عليكم،

---

١ ك - العين، صح هـ.
٢ ش: ولتسكنوا.
٣ أي الآية ٦٢ من هذه السورة.
٤ ر: مما قبلهما وبعدهما.

هاتوا برهٰنكم. فعلموا أن الحق لله، قد وجب عليهم، **وضل عنهم ما كانوا يفترون**.

﴿۞إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾

ثم نسق على قوله: وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا [وَزِينَتُهَا]،[1] [قوله:] **إن قٰرون كان من قوم موسىٰ فبغىٰ عليهم وءاتينٰه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء**، لتثقل، **بالعصبة أولى القوة**، والعصبة الجماعة. **إذ قال له قومه لا تفرح**، الفرح في الحال والفارح في الاستقبال. **إن الله لا يحب الفرحين**، بالفاني، والتخصيص ههنا لا يحب الفرحين بالبغي.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

فلمّا قدم قوله: فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ،[2] قالوا: لا تفرح بالبغي. ويزيدك بيانا قولُه بالواو: **وابتغ فيما ءاتىٰك الله الدار الآخرة**، أي لا تجعل ذلك سببا للبغي بل لجزاء الآخرة. وقوله: **فيما**، كقوله: وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا،[3] كما بيناه. **ولا تنس نصيبك من الدنيا**، نصيبه من الدنيا هو ما به تحصل[4] الآخرة، إذ ذلك له وإلا فهو عليه. فتقدير الكلام، **وابتغ**، بالتصرف، **فيما ءاتىٰك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا**، إذ تجعله سببا للبغي، لأن بنصيبك منها يُمكنك أن تَكسب الجزاء في الآخرة، فعاد الابتغاء للآخرة فيما آتاه الله نصيبا له من الدنيا. فافقه ذلك ولا تظنَّ أن قوله: **ولا تنس نصيبك من الدنيا**، يشير به إلى ما لا بد منه من مأكول أو مشروب[5] وغيره، فهذا ما لا ينساه / أحد حتى يُذكّر به وكلُّه مِن عمل الآخرة. ولهذا يؤجر المؤمن على اللقمة يرفعها إلى فيه.[6] وأما ما زاد على ذلك [٣٢٣ظ]

---

[1] الآية ٦٠ من هذه السورة.

[2] من الآية السابقة.

[3] ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ (سورة النساء، ٤/٥).

[4] ر ك: ما به يحصل.

[5] ر: ومشروب.

[6] عن عمر بن سعد رضي الله عنه عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عجبت من قضاء الله عز وجل للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر. المؤمن يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته» [أي إلى فم امرأته] (المصنف لعبد الرزاق الصنعاني، ١١/١٩٧؛ والبحر الزخار للبزار، ٤/٢٨؛ ومسند أحمد بن حنبل، ١/١٧٣).

فإن كان مباحا فلا يدخل في باب الأمر، أعني لا يؤمر بأنه لا ينساه، وإن كان محظورا[1] فمنهي عنه. فالمراد جملة ما آتاه الله من الدنيا لأنه هو نصيبه منها، فقيل له: لا تنس فيفنَي بل ابتغ فيه الآخرة. وإذا كان يؤجر على ما ينفقه على نفسه بالمعروف ويؤجر على ما يُنفقه على غيره بالمعروف فقد عاد الكل لله. ولمّا كان الإحسان من الله إليه كثيرا والإحسانُ منه إلى الناس قليلا قيل له: **وأحسن كما أحسن الله إليك**، ولا يريد بقوله: **كما**، مقدارا بل المماثلةَ في الإحسان لئلا يقابلَ الإحسانَ من الله إليه بالإساءة منه إلى الناس وهو البغي المذكور أولا. ولهذا بعده: **ولا تبغ الفساد فى الأرض**، أي بنصيبك من الدنيا، فإنما أوتيتَه لتبتغي به الآخرة لا الفسادَ. **إن الله لا يحب المفسدين**.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾

قال إنما أوتيته على علم عندى، ليس المراد ما قيل: إنه كان يعرف علم الصنعة، إذ لو علم ولم يعمل لما أفاده علمها شيئا. ولو كان كذلك لم يقل: على علم بل بعمل، إذ العمل يلزم عنه تقدُّم العلم به، والعلم لا يلزم عنه العمل. ولكن المراد أنه ظن أن العلم إذا لم يُعمَلْ به يكون كافيا. وهيهات فهذا كان أصلَ ضلاله. فأشار إلى أن سبب ما أوتيه من الله وجود العلم دون العمل به. وكان الواجب أن يرى ذلك ابتلاء كما قال سليمان: هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِي.[2] فجعله من ربه فضلا ولنفسه ابتلاء. وقارون جعل ما أُوتِيَه استحقاقا واعتقد نفسه أهلا لذلك، فقال الله ما معناه: أَوَ يُنجيه علمُه من عذابنا. **أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون**، فضلا عن الآحاد، **من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا**، للمال والجماعات، **ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون**، كقوله: فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ،[3] كما بيناه.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩﴾

---

١ ش: محضورا.

٢ ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ (سورة النمل، ٢٧/٤٠).

٣ سورة الرحمن، ٣٩/٥٥.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠﴾

وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن ءامن وعمل صٰلحا ولا يلقىٰها إلا الصٰبرون، أي الجنة، وحذف ذكرها لدلالة الكلام عليه، وهو[1] من تمام كلام العلماء. والواو في "ولا يلقىٰها" واو الحال، كأنهم قالوا: ثواب الله خير من غنى الدنيا والحالة هذه، أعني الصبر على المكروه كالفقر وعن المحبوب كالمال. ولهذا لم يقل: وما، بل: ولا.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝٨١﴾

فخسفنا به وبداره الأرض، جملةً، أي إنه كان في داره فخسف الله به وبها معا. ولا تظن أنه خُسف به في موضع آخر، وبداره أيضا من بين الدُّور[2] في زمن واحد. ولا يُحتَجّ بقوله قبلُ: **فخرج علىٰ قومه فى زينته**، أي خرج من الدار. فإن التمني كان بالأمس عند الخروج من الدار، والخسف كان اليوم وهو بها. ولهذا تمم[3] الكلام عنه بقوله: **فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين**، لنفسه.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٢﴾

قال بعده: **وأصبح الذين تمنوا مكانه**، من النعمة، **بالأمس**. فافهم قوله: **بالأمس، يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر**، من قوله: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾،[4] أي كذب قارون في دعواه أن الذي أُوتِيَه هو جزاء على علمه بل هو من فضل الله ابتلاءً له به. **لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكٰفرون**، أي لولا منّ الله علينا بالمنع، إذ لو أعطانا مثله / ففعلنا مثله لخُسف بنا معه. ويحتمل لولا أن [٣٢٤و]
منّ الله علينا بالذين أوتوا العلم. وقوله: "وَيْكَ" بمعنى ويلك، وحذفت اللام. والعجب ما نُقل عن سيبويه أنه قرأ "وي كأن الله".[5] ولم يأت في القرآن مثلُ ذلك.

---

[1] ر: هو.

[2] الدُّور جمع دار وهي المنازل المسكونة (لسان العرب، «دور»).

[3] ش ك: تم.

[4] ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ (سورة الفجر، ١٦/٨٩).

[5] إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس، ٢٤٤/٣؛ وإعراب القرآن لمحي الدين الدرويش، ٦٥٨/٥-٦٥٩.

وأما قارون فلم يكن ذا رحمٍ لموسى بل كان من قومه، وقصته مشروحة في التوراة. ومما فيها ما مقلوبه إذ تواعده موسى وتواعد قومَه، فقال: إنْ كموتِ كل الناس يموتون هؤلاء، لا الله أرسلني. ثم إن الأرض ابتلعتهم وهم يستغيثون موسى موسى إلى أن انطبقت عليهم.[1]

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

ولما فرغ من هذه القصة وكانت منسوقةً على ما قدمه من قوله: وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا،[2] قال بعده: **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض**، ولهذا عليه الصلاة والسلام مدح الخمولَ فلا يريدون[3] العلوَّ في الأرض لا لصلاح ولا لفساد بل إن مكّنهم الله في الأرض رأوا ذلك ابتلاءً، فـأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ.[4] ولهذا ذكر العلوَّ وحده ثم قال: **ولا فسادا**، أي وإن لم يكونوا عالين، وأفرد كلَّ واحد منهما فلزم من المجموع ما لزم من كل واحد. ولا يقال: قد يراد العلوُّ من أجل الصلاح من أنه العبادة الكبرى؛ فمريد الصلاح لا يريد العلوَّ بل العلو يريده، إذ العلو محل الفتنة؛ وهو به مكلف كأبي بكر وعمر. واعلم أن العلو بالقال والحال[5] أعظم من العلو بالمال والآل. ولهذا صاحب المال والآل مستعمَلٌ لهما. فمن طلبهما للعلو[6] أُفضي بهما إلى الدنوّ، ومن أوتيهما ولم يتق الله لم تكن له عاقبةُ خير، **والعُقبة للمتقين**.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «إنْ مات هؤلاء كموت كل إنسان، وأصابتهم مصيبة كل إنسان فليس الرب قد أرسلني. ولكن إن ابتدع الرب بدعة وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وكل ما لهم، فهبطوا أحياء إلى الهاوية تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب. فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التي تحتهم، وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لِقُورَحَ مع كل الأموال، فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياءً إلى الهاوية، وانطبقت عليهم الأرض، فبادوا من بين الجماعة» (العَدَد ١٦/٢٩-٣٣).

[2] الآية ٦٠ من هذه السورة.

[3] ر: ولا يريدون.

[4] ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ (سورة الحج، ٢٢/٤١).

[5] ر: والجال.

[6] جميع النسخ: للعلوي، والمثبت من م.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾

إن الذى فرض عليك القرءان، العملَ بالقرآن، ومن جملة ذلك تبليغ القرآن، **لرادّك إلىٰ معاد**، الموضع الذي يُعاد المرءُ إليه في الآخرة فيَجزيك على صبرك ويجزيهم[1] على كفرهم. ولهذا جاء قبل هذا الكلام: مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ،[2] وبعده: **قل ربى أعلم من جاء بالهدىٰ ومن هو فى ضلٰل مبين**.

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

وما كنت ترجوا أن يلقىٰ إليك الكتٰب، لأنه ما كان يدري ما الكتاب، فكيف يرجو ما لا يدريه، **إلا**، لكن ألقيناه إليك، **رحمةً من ربك فلا تكونن ظهيرا للكٰفرين**، أمر للعام بخطاب الخاص.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾

ولا يصدنك، الكفار، **عن ءايٰت الله**، عن تبليغها والعمل بها بدليل آخر الآية، **بعد إذ أنزلت إليك**، لأنهم كانوا إذا سمعوا منه ما يسوء في آلهتهم قالوا: يا محمد اكتم هذا، فأمره الله بقوله: **ولا يصدنك**، عنها.[3] **وادع إلىٰ ربك ولا تكونن من المشركين**.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

---

١ ش ك: ويجزهم.
٢ من الآية السابقة.
٣ ر - عنها.

سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ١﴾

الٓمٓ.[1] تقدم قبلَها مثلُها، وجاءت هناك مبتدأً خبره تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ.[2] جعلت هذه الحروف بعينها في بعض السور كما جُعلت في هذه وفي سورة الروم منقطعةً عن السورة، لكنها علامة للتتابع. وذلك لبُعد المدة[3] واختلافِ الوقائع[4] الموجِبة لنزول غيرها قبلها، فهي علائم منبِّهة على أن هذه تتمة تلك. وإنما جاءت هذه مكرَّرة منقطعةً عما بعدها لا كما في البقرة متصلة لئلا نظن أن "الم" عبارة عما في السورة فقط. فلمّا جاءت هذه ومثلها في الروم ولم يأت بعدهما ما يدل على أنهما آيات هذه السورة أو سورة الروم علمنا أن المقصود بذكر الحروف غير مختص بالسورة التالية لها بل بنفس الحروف التي هي كل كتاب. فهي مع كونها مشيرةً إلى بقية الحروف / هي أيضا [٣٢٤ظ]
علامات لتتابع السور. والله أعلم.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾

أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا ءامنا وهم لا يفتنون، تقديره أحسبوا حين هم لا يُفتنون أن يُتركوا أنهم يقولون:[5] آمنا ولا نفتنهم. فهذه فائدة "هم". وأخر الكلام لأجل الوِزان واستغنى عن تكرار لفظ الفتنة. وهذا من بابِ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ،[6] أي بلا امتحان، الآية. فيكون المعنى ههنا أحسب الناس حيث لم يُفتنوا أن يُتركوا دائما بغير امتحان يميِّز بين الكاذب المنافق والمؤمن الصادق خصوصا، وهم يقولون بأفواههم: "آمنا" وهم يظنون ذلك بأنفسهم. فافهم ذلك ولا تظن أن المراد أحسب الناس أن قولهم: "آمنا" يمنعهم من الفتنة، ليس كذلك، إذ لو أراد ذلك لأغنى أن يقول:

---

١ ش + لما.

٢ انظر مثلا: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ (سورة القصص، ٢/٢٨).

٣ ر – لبعد المدة.

٤ ر + وبعد المدة.

٥ ش: يقولوا.

٦ ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ (سورة التوبة، ١٦/٩).

أحسب الناس[1] أن يؤمنوا فلا يُفتنون، بل المراد أن المؤمن والمنافق كلاهما يُفتنان. ولهذا بعده: **ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكٰذبين.** والإشارة ههنا بالفتنة إلى أن الله يمتحنهم بالجهاد ويختبرهم بقتال الكفار، يدلك ما سيأتي في بقية الآيات على أن الكلام يحتمل الإطلاق، لكن هذا خاصة، إذ سياقُ الكلام دال عليه.

﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٤﴾

أم حسب الذين يعملون السيئات، يريد المنافقين، **أن يسبقونا**، أي يفوتونا فلا نقدر على مجازاتهم، لأن المطلوب بالذنب يهرب من الطالب له بالعقاب، فإن سبقه نجا من العقاب. **ساء ما يحكمون**، به لأنفسهم.

﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٥﴾

ثم قال: **من كان يرجوا لقاء الله**، تقديره فليُصلح العمل وليُبادر الجهادَ قبل الأجل. **فإن أجل الله لآت**، وهو ما يؤخّر كما بيّنّاه في الأنعام.[2] **وهو السميع**، لِما يقولون، **العليم**، بما يفعلون.

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾

ثم فسّر[3] بقوله: **ومن جُهد فإنما يجُهد لنفسه**، والجهاد ههنا مطلق بالسيف والصبر، ومعناه بذل المجهود، ومن جملته القتال. فلو مات بالأجل لم يكن له من الأجر كما يكون له بالموت في الجهاد. ولهذا[4] بعده: **إن الله لغنى عن العٰلمين.**

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٧﴾

وبين الجهاد، لأنه من أكبر الطاعات، إذ فيه بذل المال والروحِ وإن كانت كلُّ طاعة جهادا. ولهذا بعده: **والذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت لنكفرن عنهم**، في الدنيا،

---

[1] ك – أحسب الناس، صح هـ.

[2] يشير المؤلف إلى تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٢).

[3] ش: فتر.

[4] ك: لهذا.

سيئاتهم، وذلك بالفِتَن والمصائب كالجهاد والمرض وغيره، كقوله: وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ،[١] الآية. **ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون**، في دار الجزاء.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾

ولما ذكر جهاد المؤمن للكافر ذكر نوعا من جهاد الكافر للمؤمن ليكون مطيعا إن جاهد الكافر أو جاهده كافرٌ فقال: **ووصينا الإنسٰن بوٰلديه حسنا وإن جٰهداك لتشرك بى ما**، بمعنى شيئا، **ليس لك به علم**، يشهد لك العلم بأنه إلٰه، وليس شيء من الأشياء يشهد له العلمُ بأنه إلٰه[٢] **إلا الله** وحده. وإنما[٣] يشهد العلم وأولو الألباب[٤] أن لا إلٰه إلا الله.[٥] وإيضاح ذلك أنه إذا لم تُشرك بي ما ليس لك به علم هل هو إلٰه فكيف تشرك بي ما لك به علم أنه ليس بإله.[٦] **فلا تطعهما**، فلمّا ذكر الجهاد ومدح الإيمان قال ما معناه: إنه لو كان أقربَ الناس إليك وأوجبهم حقا عليك ثم مع ذلك جاهداك على أن تُشرك بي فلا تطع ولو كان الوالدان، فكما أنّ من طاعته سبحانه طاعتَهما فكذلك من طاعته أن لا طاعة لهما في معصية،[٧] وإن كان الإحسان إليهما واجبا باقيا على حاله والحالةُ هذه. ثم قال: **إلىّ مرجعكم**، أي إذا كانت طاعتك لهما من أجلي فلا تَعصِني من أجلهما، فإن المرجع إليّ لا إليهما. **فأنبئكم بما كنتم تعملون**.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾

والذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت لندخلنهم فى، زمرة، **الصٰلحين**.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾

ثم أخذ يفصِّل عمن / أجمل بقوله: أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا،[٨] فقال: [٣٢٥و]

---

١ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (سورة البقرة، ١٥٥/٢).

٢ ر ك – وليس شيء من الأشياء يشهد له العلم بأنه إله.

٣ ش ك: وإذا.

٤ ر: العلم؛ ش + العلم. وفي هامش ك: العلم.

٥ + وإذا شهد العلم وأولو العلم أن لا إله إلا الله.

٦ ر – وإيضاح ذلك أنه إذا لم تشرك بي ما ليس لك به علم هل هو إله فكيف تشرك بي ما لك به علم أنه ليس بإله، صح هـ.

٧ ش ك: في معصيته.

٨ الآية ٢ من هذه السورة.

ومن الناس من يقول ءامنا بالله، أي مع محمد وأصحابه، يقول ذلك بفيه دون قلبه، كمن يقول: قاتلنا العدوّ ولم يكن هو بنفسه قاتل بل نسب نفسه إلى المقاتِلة. **فإذا أوذى فى الله**، دليل على أن المراد بالأذى هو الفتنة التي تأتي عليه من جهة الناس، فجَزِع من أذى الناس له ولم يصبر عليه، فأطاعهم كما يطاع الله خوفا من عذابه. وقوله: **جعل فتنة الناس**،[1] أي الفتنةَ التي لا بد أن يختبر الله بها سائر الناس. وقد يكون تارة بأيدي الناس فتُنسب إليهم كما ههنا فتكون من الناس بوجه، وهي بعينها من الله بوجه آخر، وهي واحدة والمفتون بها واحد، فافهم. فهذا المفتون جعل تلك الفتنة، **كعذاب الله**، أي بمنزلة العذاب من الله. فإن كانت بأيدي الناس فهو لا يراها إلا منهم فيطيعهم كما تقدم، وإن كانت بغير واسطة جعلها كالعذاب، كأنه يقول: لو كان هذا الدين حقا لما عذّبتُ على اتّباعه. وهذا من بابِ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ،[2] فهو مفهوم من هذا الكلام من باب الالتزام. وأما المفهوم بالمطابقة فهو الأول. وقد رأينا من الوقائع الوجودية ما دل على التأويلين، إذ مِن الناس مَن يُشكل عليه ما وقع به فيرى أنه لمّا آمن بالله عذّبه الله بالفتنة وكان في ظنه أنه لا يعذبه، وما علم أن ذلك الذي أصابه ليس بعذاب، وإنما هو فتنة لا بد أن يمتحن الله بها سائر الناس، ليميز الخبيث من الطيب[3] تارة بواسطة وتارة بغير واسطة كما تقدم. فالمنافق يَظهر كفرُه فيُكشف بالفتنة سرُّه، والمؤمن يَظهر صبرُه فيَعظُم أجره، فافهم ذلك. واعلم أن قوله: **فإذا أوذى فى الله**، هو كقوله: وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي،[4] غير أن المراد هناك الصابر على الأذية في سبيل الله، وهنا أراد الذي لم يصبر عليها. فهناك قال: في سبيل الله، وهنا: **فى الله**، لأن هناك مخصَّص وهنا مطلق يعُمُّ الجهاد وغيره، لكن هناك أوذي ولم يترك السبيلَ وهنا أوذي فترك الله.[5] فافهم لِم حذف السبيل هنا. فهذا جَعل الفتنة التي هي الأذى في الدنيا مثل العذاب الذي يخافه المؤمن في الآخرى. فكما أوجب خوفُ المؤمن له الميلَ عن الكفر إلى الإيمان خشيةَ عذاب الآخرة، كذلك أوجب خوفُ المنافق له الميل عن الإيمان إلى الكفر

---

[1] ك + كعذاب.

[2] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ (سورة الحج، ٢٢/١١).

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ﴾ (سورة الأنفال، ٨/٣٧).

[4] ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٩٥).

[5] ش: فترك إليه؛ ك - الله، صح هـ.

خشية الأذى في الدنيا. وقوله: **فتنة الناس**، ولم يقل: أذى الناس، لأنه مبني على قوله أولا: أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ،[١] فهذا قال ففُتن[٢] فافتتن،[٣] فكفر، فأخبر الله عن حال هذا وأمثاله في الجهاد إذا انكسروا. ثم قال حاكيا مقالتهم إذا انتصروا: **ولئن جاء نصر من ربك ليقولنّ إنا كنا معكم**، فهم كانوا معهم بالأجساد لا بالقلوب، فقال الله تعالى: **أوليس الله بأعلم بما فى صدور العٰلمين.**

﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾

وليعلمن الله الذين ءامنوا، بالابتلاء والفتنة. **وليعلمن**، بلام التأكيد، **المنٰفقين**، وإن كان عالما لم يزل. وقد بيّنّا ذلك في مواضع. ولمّا كانت الفتنة من الله قد تكون بأيدي الناس جاء اللفظ على من لم يُسمَّ فاعلُه بقوله: يُفۡتَنُونَ.[٤] ولهذا لم يقل: جعل فتنة الناس كفتنة الله،[٥] بل، **كعذاب الله**، فهي فتنة من الناس وهي بعينها فتنة من الله، كقوله في فتنة الناس: إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ.[٦]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾

وقال الذين كفروا للذين ءامنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطٰيكم وما هم بحٰملين من خطٰيهم من شىء إنهم لكٰذبون. وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم، واعلم[٧] / أن [٣٢٥ظ] المضِلين قالوا للضالين: اتبعوا ما نحن عليه، ومهما كان يلزمكم عند الله من خطيئة في اتباع سبيلنا فنحن نحملها دونكم. وليس المراد أن كل خطيئة تبدو منكم[٨] من سائر الخطايا نحن نحملها، إذ ذلك ينافي العقل. فأخبر الله بقوله عن المضلين: **إنهم لكٰذبون.** وذلك أن المضلين لو ظنوا أن على التابعين لهم خطيئةً في اتباعهم لما ضَمنوا لهم ذلك. ثم قال تعالى: إنهم لا بد أن يحملوا أثقالهم بما ضلوا وأثقالا مع أثقالهم بما أضلوا،

---

١ الآية ٢ من هذه السورة.

٢ ك – ففتن، صح هـ.

٣ ر: فافتتن.

٤ الآية ٢ من هذه السورة.

٥ ش – كفتنة الله.

٦ ﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ (سورة النساء، ١٠١/٤).

٧ ر: والمعنى.

٨ ك – منكم، صح هـ.

كقوله: وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ، ولهذا قال ههنا أولا: لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً.[1] **وليسئلن يوم القيٰمة عما كانوا يفترون.**

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

ولقد أرسلنا نوحا إلىٰ قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، السَّنَة والعام يعبَّر[2] بكل كلمة منهما عن دورة واحدة للفلك تشتمل على فصول أربعة. غير أن السنة عبارة عما يتعلق بحركة القمر، لأن السنة أشهر، وعدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا.[3] والشهر يزيد وينقص بحسب الرؤية لاشتهار القمر في أوله، فالسَّنة تزيد وتنقص. وأما العام فهو لا يزيد ولا ينقص بل هو من حركة الشمس لا القمر، ولا يقال: إن العام أشهر إلا من طريق العادة في التسمية حسابا لا عن أصل، بل كما يقال: إن أشهُر الروم أشهَر وإنما تأتي بخلاف الأهلة التي من أجلها سمِّي الشهر شهرا. وإذ قد علمت تعلق السنة بالهلال وتعلق العام بالشمس فاعلم أن بين حركة القمر في السنة وبين حركة الشمس في العام أحد عشر يوما وربعَ يوم. منها خمسة أيام يسمونها أصحاب التقاويم المُسْتَرَقَة[4] ويثبتونها في آخر التقويم. فقوله تعالى: **ألف سنة**، أي هلاليةٍ، **إلا خمسين عاما**، أي شمسية. فإذا نقصتَ الألفَ سنةً خمسين سنةً ونقصتها أيضا خمسَمائةٍ واثنين وستين يوما وربع لكل سنة[5] من الخمسين أحدَ عشرَ يوما وربع لتصير الخمسون أعواما كانت الأيام المذكورة[6] سنةً وسبعة أشهرٍ ويوما[7] ونصف يوم على[8] حساب أشهر الرؤية كاملا وناقصا. وإذا[9] نقص هذا المقدار من تسعَمائةٍ وخمسين سنةً يبقى عمر نوح عليه السلام تسعَمائةٍ وثمانيةٍ وأربعين سنة هلالية وأربعةَ أشهرٍ وسبعةً وعشرين يوما ونصف. وهذا إيجاز عجيب مفهوم من النص. ولم يبيَّن مثله في التوراة مفصلا

---

[1] ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سورة النحل، ٢٥/١٦).

[2] ر - يعبر.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (سورة التوبة، ٣٦/٩).

[4] المسترَق: الناقِص (تاج العروس للزبيدي، «سرق»).

[5] ر: خمسمائة واثنين وستين وله وستين يوما ربع يوم لكل سنة.

[6] ش ك + ثمانية أشهر وأربعة عشر يوما.

[7] ش ك: ويوم.

[8] ر - المذكورة سنة وسبعة أشهر ويوما ونصف يوم على، صح هـ.

[9] ر: فإذا.

بل عُبّر عن ذلك مجملا. وهو أن نوحا ابن خمسَمائةِ سنةٍ،[١] ووُلد له سام وحام ويافث ونوح ابن ستمائة سنة.[٢] والطوفان كان ماءً على الأرض، وحيي نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة. وكان كل أيام نوح تسعمائة وخمسين سنة ومات.[٣] هذا صورة النص الذي بأيدي اليهود إلى يومنا هذا، وهو شاهد لما في القرآن، وجاء القرآن مصدقا له[٤] ومبينا لمن يتأمل العبارة ما لم تبينه التوراة، لأنه معجز. وإنما يكذبه مَن لم يحط به علما من الناس. **فأخذهم الطوفان وهم ظٰلمون.**

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

إنما تعبدون من دون الله أوثٰنا، وهي الأصنام من الحجارة وغيرها. والواثن[٥] الذي هو ثابت كالحجر لا يتغير. وقيل: الصنم ما له صورة، والوثن ما ليس له صورة تحكي صورةَ الإنسان. **وتخلقون إفكا**، تقديره: من القول. ويحتمل أنه أراد نفس عملهم للأوثان، لقوله: أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ،[٦] بدليلِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ.[٧] إذا كان الخلق ههنا بمعنى التصوير فيعود معنى الكلام وتخلقون آلهتكم بأيديكم زُورا وكَذِبا منكم في دعواكم أنها آلهة. ثم قال مستدلا / عليهم ببرهان ثابت عندهم ليصح الاحتجاج [٣٢٦و] به: **إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له.** ولمّا كان سبحانه هو الرزاق فالشكر له. فلا يقال: اشكرِ الله بل اشكر لله واشكر عبدا[٨] لله، لقوله: وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ.[٩] **إليه ترجعون.**

---

١ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على الأرض» (التكوين ٦/٧).

٢ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «وكان نوح ابن خمسمائة سنة، وولد نوح: ساما، وحاما، ويافث» (التكوين ٣٢/٥).

٣ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة. فكانت كل أيام نوح تسعمائة وخمسين سنة، ومات» (التكوين ٢٨/٩-٢٩).

٤ انظر مثلا في هذا الموضوع: سورة آل عمران، ٣/٣، ٥٠؛ وسورة المائدة، ٤٨/٥؛ وسورة فاطر، ٣١/٣٥؛ وسورة الأحقاف، ٣٠/٤٦.

٥ ش + هو.

٦ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (سورة الصافات، ٩٥/٣٧).

٧ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (سورة النحل، ٢٠/١٦).

٨ ر: عند.

٩ سورة البقرة، ١٥٢/٢.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٨﴾

وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ.[1] **وما على الرسول إلا البلٰغ المبين.**

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩﴾

ثم قال عن الأمم المكذبين وأراد الحاضرين، لأنهم مثلهم في التكذيب بالبعث: **أولم يروا**، ثم قال بلفظ الاستقبال: **كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده**، يشير إلى إحياء الأرض وخلقِ النبات كقوله: كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ.[2] **إن ذٰلك على الله يسير**، من اليسر.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾

ثم خاطب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة**، كما أنشأ النبات مرة بعد مرة وكما أنشأ الأُولى من البشر.[3] **إن الله على كل شيء قدير.**

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝٢١﴾

يعذب من يشاء، بذنبه، **ويرحم من يشاء**، وإن كان ممن يستحق العذاب. وهذا أبلغ ما فُتح من باب الرَّجاء. **وإليه تقلبون**، تُرَدُّون. وعبر بهذه العبارة إشارة إلى السرعة كما يُقلَب الإناء.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٢٢﴾

وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء، إن شاء أن لا ينبت ولا يُمطر. ويحتمل الإطلاق بمعنى إذا أراد أمرا في الأرض أو في السماء مما يوقعه بكم وأردتم دفعه عنكم لا تُعجزونه. ويحتمل [قوله:] **وما أنتم بمعجزين فى الأرض**، مَن فيها مِن عباده ولا في السماء من فيها من جنده. **وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير.**

---

١ ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ (سورة إبراهيم، ٤٥/١٤).

٢ ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (سورة الأعراف، ٥٧/٧).

٣ أي كما خلق حواء من آدم. انظر: سورة النساء، ١/٤.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

والذين كفروا بـآيٰت الله ولقائه أولٰئك يئسوا من رحمتى وأولٰئك لهم عذاب أليم، جاء هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بين كلام إبراهيم لقومه وجوابِهم له لنعلم أن إبراهيم أيضا كلمهم بمثل ذلك، وليكون لمحمد صلى الله عليه وسلم في إبراهيم عليه السلام[1] أسوةٌ بما كذبه قومُه وبِشارةٌ بالنصر، كما أخبر الله تعالى بقوله: **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجٰه الله من النار إن فى ذٰلك لآيٰت لقوم يؤمنون.**

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ثم عطف بالواو على قول إبراهيم بعد قولهم له: **وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثٰنا مودة**، محبةَ، **بينكم فى الحيوٰة الدنيا**. وتقدير الكلام اتخذتم أولياءكم أوثانا. ولهذا بعده فيما سيأتي: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ.[2] وقوله ههنا: **مودة**، ولا تكون المودة بينهم إلا إذا كان الأوثان يحبونهم والأوثان لا تحب. وإن قيل: الإشارة إلى أن المودة بينهم وبين الداعين لهم إلى الاوثان؛ فأولئك في حقيقة الأمر هم الأوثان، إذ لو لم يكونوا داعين لم يكن شركٌ. **ثم يوم القيٰمة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأوٰكم النار وما لكم من نٰصرين.**

﴿۞ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

فـٰامن له لوط وقال إنى مهاجر إلىٰ ربى. "من" ههنا يُعلم أن هَجْر الوطن إلى مكان يُعبد الله فيه هجرة. **إنه هو العزيز الحكيم.**

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

---

١ ك - في إبراهيم عليه السلام، صح هـ.

٢ الآية ٤١ من هذه السورة.

ووهبنا له إسحٰق ويعقوب، عيّن يعقوب[1] إعلاما لنا أن إبراهيم عليه السلام عاش بعد مجيء إسحاق إلى أن وُلد له يعقوبُ. وكذلك قوله: فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ.[2] فلا فائدة في البشارة للزوجة ولا في الهبة للزوج بولد الولد وهما قد ماتا. وإنما قد يقال: إنه بشِّر بولد الولد ليتم سروره بأنه يعيش ويولِد، فيتحقق ما قلناه من أن الذبيح إسماعيل دون إسحاقِ، وهذا محقَّق. ولكن تبقى البشارةُ للزوجة مقصورة على الإخبار بحياة الولد دون حياتها فتكون البشرى مقبولة بالإيمان لا مرئية / بالعيان.[3] [٣٢٦ظ]
وأما إذا نطقت التواريخُ بذلك كما في التوراة ووافقه لفظُ القرآن فهو أبلغ. ومما في التوراة أن إبراهيم أرسل رسوله يخطب لولده إسحاق زوجةً وأن الرسول أحضر الزوجة.[4] وهذا يدل على صحة ما قلناه. ويصدِّق ذلك ما سيأتي في موضعه من ذكر عمر إبراهيم عند مجيء إسحاق،[5] وذكرِ مدة عمره على ما جاءت به التوراة،[6] فافهمه.
وقوله: **وجعلنا فى ذريته النبوة والكتٰب**، الهاء في الذرية عائدة على إبراهيم، وكذلك هاء "وءاتينٰه". وأما قوله: وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ،[7] فقد بيّنّاه في موضعه. وقوله: **ءاتينٰه أجره فى الدنيا**، لأن أجرَ مَن وحّد الله النجاةُ من النار. فضرب الله المثل لعباده بأبيهم إبراهيم ليتحققوا صدق الوعد بما جرى لأبيهم في الدنيا. **وإنه فى الآخرة لمن الصٰلحين**.

﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾

ولوطا إذ قال لقومه إنكم، إيجابٌ، ومن قرأها بالمد على صورة الاستفهام[8] فهو استفهام إيجاب وتقريرٍ. كما لو رأيت من لم تكن لِتظن به السَّرِقَةَ ثم رأيتها في يده

---

[1] ش – عين يعقوب.
[2] سورة هود، ٧١/١١.
[3] ر – مقبولة بالايمان لا مرئية بالعيان، صح هـ.
[4] انظر لمعرفة المزيد: التّكوين ٢٤/٤-٧، ٣٧-٤٠.
[5] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه» (التّكوين ٢١/٥).
[6] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «وهذه أيام سني حياة إبراهيم التي عاشها: مائة وخمس وسبعون سنة» (التّكوين ٢٥/٧).
[7] ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ (سورة الصافات، ١١٣/٣٧).
[8] قرأ المدنيان والمكي والشامي وحفص ويعقوب بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني والباقون بالاستفهام فيهما (كتاب التيسير لأبي عمرو عثمان الداني، ص ١٧٣؛ والبدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٢٤٥).

فقلت له: أنت تسرق؟ أي كيف يجوز وقوع هذا من مثلك، فهو سؤال متعجِّب منكِر مثبِتٍ لما جرى من غير جواب من المسئول. **لتأتون الفٰحشة**، التي، **ما سبقكم بها من أحد من العٰلمين. أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل**، أي سبيل النسل، لقوله: وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم.[1] **وتأتون في ناديكم المنكر**، النادي المجلس، ولم يقل: إلى ناديكم، فالمراد اشتهار فعل القبيح المذكور عنهم بينهم، فيأتون بالمنكر ولا يُنْكَر. **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله**، والمعنى أنه أنذرهم بالعذاب إن لم ينتهوا، فقالوا ائتنا به، **إن كنت من الصٰدقين**.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٣٠﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ۝٣١﴾

ولما جاءت، وبعدها: وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ.[2] فإثبات "أن" يراد به التقريب، أي حين جاءت. ومثله فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ،[3] **رسلنا إبرٰهيم بالبشرىٰ قالوا إنا مهلكوا أهل هٰذه القرية إن أهلها كانوا ظٰلمين**.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٣٢﴾

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ۖ وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٣٣﴾

ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم، أي حين جاءوا حصل السوء من قومه له بسببهم. **وضاق بهم ذرعا**، والواو في [قوله:] **وقالوا**، عطفٌ على الحكاية، وتقديره ولما أن جاءته الرسل، **وقالوا**، له ما قالوه[4] إلى قولهم: **يفسقون**. **سيء بهم وضاق بهم ذرعا**. وإنما قدم ذلك إعلاما بوقوع السوء من حين المجيء. ثم استمرّ إلى أن صدَّق الوعدَ بالنجاة له والهلاك لهم بقولهم: **لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغٰبرين**.

---

[1] سورة الشعراء، ١٦٦/٢٦.

[2] الآية ٣٣ من هذه السورة.

[3] ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ (سورة يوسف، ٩٦/١٢).

[4] ش: ما قالوا.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ٣٤﴾
﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٣٥﴾

ولقد تركنا منها ءاية بينة لقوم يعقلون، الآيات.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٣٦﴾

وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال، هذه في جميع القرآن "قال" من قصة شعيب إلا ههنا بالفاء **فقال**. والمعنى في ذلك أن تقديره: قال كما قال من تَقدمه، وقالوا له كما قال مَن تقدمهم فقال، فدل بالفاء على جميع المحذوف اختصارا لئلا يتكرر في موضعٍ ممكن حذفُه. ولهذا بعده اختصر الكلامَ جملة فذكر الأمم فقط، كما سترى في قوله: وَعَادًا وَثَمُودَا۟، وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ، ثم أتبع الجميع بقوله: فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ.[1] فافهم معنى هذه الفاء في قوله: **فقال يٰقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين.**

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ٣٧﴾

فكذبوه فأخذتهم الرجفة، مفهوم من قوله: يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ.[2] والمراد ههنا رجفة الخوف بهم. **فأصبحوا فى دارهم جٰثمين**، وكان يعود في الأصل إلى الجثمان وهو الجسد بغير روح.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ٣٨﴾

وعادا وثمود وقد تبين لكم من مسٰكنهم، آثارٌ تدل مَن يرى على أنه كان ههنا قوم أشد منكم قوةً وأكثر جمعا. **وزين لهم الشيطٰن أعمٰلهم فصدهم عن السبيل وكانوا**
[٣٢٧و] **مستبصرين**، أي لهم بصائر، فما أغنت عنهم، / إذ كذبوا الرسل.

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ٣٩﴾

---

[1] الآيات ٣٨-٤٠ من هذه السورة.

[2] ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ (سورة المزمل، ١٤/٧٣).

وقٰرون وفرعون وهٰمٰن ولقد جاءهم موسىٰ بالبينٰت فاستكبروا في الأرض، على الرسل، فأدركهم العقاب. **وما كانوا سٰبقين**، لنا، إذ الهارب يسابق الطالبَ، فإن سبق نجا وإن لحقه الطالب هلك، فكيف إذا سبقه؛ وتقديره: بل نحن كُنّا سابقين. وهو معنى قوله في أول السورة: أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ[1] كما بيناه.

﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٤٠﴾

فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم، [اللام] لام الجحود. **ولٰكن كانوا أنفسهم يظلمون**. لو كان الله أجبرهم على أن يكونوا ظالمين لكان الظالم مَن فعل الظلم فيهم؛ إذ لم يَبرز عنهم الظلم من جهتهم بل مِن جهة مَن أجبرهم عليه أولا ولم يجعل لهم منه مخرجا، وعاقبهم على ما لم يكن إليهم أولا ولا أخيرا.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٤١ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤٢﴾

ولهذا نسب الاتخاذ إليهم لتقوم[2] الحجة عليهم فقال: **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون**. مثّل المتخذين بالعنكبوت والأولياء بالبيت، فهو[3] ضعيف اتخذ ضعيفا يستعين به. وتقديره مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء لو كانوا يعلمون كيت وكيت. وأخّره للوِزان وليَعطف على نفي العلم عنهم إثباتَ العلم له فقال: **إن الله يعلم**، تقديره: وأولو العلم، كما سيأتي نصا وبيانا، **ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم**. و"ما" ههنا نافية، دليله: بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ.[4]

---

[1] الآية ٤ من هذه السورة.

[2] ش ك: ليقوم.

[3] أي الذي اتخذ من دون الله وليا.

[4] ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗا﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٧٣-٧٤).

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ثم قال ما دل على أن العلماء يعلمون: **وتلك الأمثل نضربها للناس وما يعقلها إلا العٰلمون**، أي نضربها لسائر الخلق. ولكن العلماء هم الذين يعقلونها بالتدبر فينتفعون بها دون غيرهم؛ لأن العالم بكسب البضاعة من التجار هو[1] الذي يشتري فينتفع دون غيره من الجُهّال وإن كانت المناداة على الكل. فلا تَفهم من قوله: **وما يعقلها**، أنه أراد وما يَفهم صورة هذا المثل ههنا[2] إلا العالمُ. فنقول: كل أحد يعقل هذا، فليس المراد إلا ما يوجب التدبر والعمل. هذا لا يكون إلا بعد أن يعقل المقصود بالمثل، فلهذا ذكر العقل دون غيره. ولو لم يذكر العلماء لما انحلّ الإشكال. وهذا كما قال بعده: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ.[3] لا شك أن لهم عقولا لكنهم لمّا لم ينتفعوا بها فيما من أجله خُلقت لهم العقول عادوا كأنهم بغير عقول، لكنهم لا يعقلون بها. فتقدير الكلام لو كانوا يعلمون بما آتيناهم من العلم أو يعقلون[4] بما آتيناهم من العقل، إذ بهذا تقوم الحجة عليهم. وأما من لم يُؤْتَ علما ولا عقلا فعذره ظاهر. فهؤلاء لمّا لم ينتفعوا بما عقلوه من الأمثال فكأنهم ما عقلوا. وهذا يبين لك فضيلة العالم ويحقِّق لك من هو العالم. ولهذا قال: إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟.[5]

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

ولهذا لمّا ذكر تعقّل العلماء قال بعده بغير واو ليكون الكلام معلّقا به وإن احتمل تعلُّقُه بما قبله، لكنه لمّا ذكر للأولياء مثلا في غاية الضعف ذكر لنفسه مثلا يدل على غاية القوة في أفهام العباد فقال: **خلق الله السمٰوٰت والأرض بالحق إن فى ذٰلك لآية للمؤمنين**.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

ولمّا تقدم قوله: وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ،[6] وضرب المثلَ لقوته سبحانه نسق على ما لا يعقله إلا العالمون [قوله:] **اتل ما أوحى إليك من الكتٰب**. فإن العالمين هم الذين يعقلونه

---

[1] ش: وهو.

[2] ك – ههنا، صح هـ.

[3] الآية ٦٣ من هذه السورة.

[4] ك: ويعقلون.

[5] سورة فاطر، ٢٨/٣٥.

[6] الآية ٤٣ من هذه السورة.

دون الجاهلين. ولهذا سيأتي بعده: وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ، إشارة إلى الجاهلين. ثم بعده: فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ، إشارة إلى العلماء منهم. ثم قال: وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ.[١] ثم قال عن المشركين: أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ.[٢] فافهم / المجمل [٣٢٧ظ] ولا تقتصر على فهم المفصَّل.

وأقم الصلوٰة إن الصلوٰة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وذلك لأن المصلي يتلو القرآن، وفيه الذكر والنهي عن الفحشاء والمنكر. فالصلاة سبب التلاوة، وفي التلاوة النهيُ لمن قَبِل. وليس المراد أن المصلي يعود مجبَرا بل منهيّا. ثم قال مؤكِّدا للقول الأول [و] مؤيِّدا له: **ولذكر الله أكبر**، فكأنه قال: ولَكلام الله، وهو الذكر ههنا،[٣] أكبر في العظة[٤] وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولم يقل: أكبر من مواعظ الناس ليكون قوله: **أكبر**، مطلقا، أي أكبر مما يُعتقد أنه ينهى عن الفحشاء والمنكر كان ما كان. فالصلاة هي القرآن وهي الذكر. فلا تَفهم غير هذا وافهمه لئلا تفهَم[٥] غيرَه مما قيل بغير دليل؛ لأن منهم من ظن أن الذكر يريد به قول "لا إلٰه إلا الله"، أو مثل ذلك فأَشكل، وليس كذلك بل هو كقوله: وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ.[٦] لا تفهم أنه أكبر من الجنات بل ذلك تقرير لِما تقدم[٧] ووصف له، فافهمه. وكذلك هنا وإن لم تفهم كذلك وإلا لزم تركُ الصلاة لمن يلزم الذكر. ولهذا قدم: **وأقم الصلوٰة**. وذكر أخيرا ما يقتضي الجزاء ولا يكون إلا في الآخرة فقال: **والله يعلم ما تصنعون**. فالواقف بين يدي الله يتلو كلامه بما فيه من الزواجر عن المنكَرات. فكيف يُمكنه أن يفعل ضدَّ ما يقول، أو يأتي بما يكرهه مولاه، إذ الآتي إلى بين يدي المَلِك لا يَحسن أن يأتيه بما يكرهه له من عصيان أمره، فإذا ألزم[٨] نفسه المجيء فقد أوجب عليه الطاعة.

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾

ولا تجٰدلوا أهل الكتٰب إلا بالتى هى أحسن، لأن الهوى في الجدل يمنع الرشدَ

---

١ الآيات ٤٦-٤٨ من هذه السورة.
٢ الآية ٥١ من هذه السورة.
٣ ر: وههنا.
٤ ش: في العظمة.
٥ ش ك: لئلا يفهم.
٦ سورة التوبة، ٧٢/٩.
٧ ش: بما تقدم.
٨ ش: لزم.

لتشبه النفوس ومماراتها[1] لأخواتها، **إلا الذين ظلموا منهم وقولوا ءامنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلٰهنا وإلٰهكم وٰحد ونحن له مسلمون**، فإن أهل الكتاب لا يقدرون [على] أن يقولوا مثل ذلك.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

ولما قال: بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ،[2] قال: **وكذٰلك أنزلنا إليك الكتٰب**، أي بأحسن الألفاظ وأحسن المعاني. **فالذين ءاتينٰهم**، فهَمَ، **الكتٰب**، التوراة، **يؤمنون به ومن هٰؤلاء**، الأعراب،[3] **من يؤمن به وما يجحد بـٔايٰتنا إلا الكٰفرون**، من الذين أوتو الكتاب ومن غيرهم.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

وما كنت تتلوا من قبله من، لتبيين الجنس، **كتٰب ولا تخطه بيمينك**، لو لم يقل: **بيمينك**، لاحتمل أنه كان يُحسن بخط ولكنه لم يفعل، فلمّا قال: **بيمينك**، علم أن يمينه لم تكن تخط، **إذًا لارتاب المبطلون**، في موضع الرِّيبة. وأما الآن فارتيابهم كفرٌ منهم وعناد. **بل هو ءايٰت بينٰت فى صدور الذين أوتوا العلم**، دون غيرهم، فإنها مشكِلات في صدورهم وإن كانوا مؤمنين. **وما يجحد بـٔايٰتنا إلا الظٰلمون**.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

---

[1] ش ك: مما رأتها.

[2] من الآية السابقة.

[3] ر – الأعراب، صح هـ.

قل كفىٰ بالله بينى وبينكم شهيدا، أخّر "شهيدا" ههنا، وفي جميع القرآن قدّمها. وإنما أخَّرها ههنا ليَعطف عليها، أي شهيدا،[١] **يعلم ما فى السمٰوٰت والأرض والذين ءامنوا بالبٰطل وكفروا بالله أولٰئك هم الخٰسرون**.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل،[٢] لهم أخرناهم إليه وهو الموت بعد لُبثٍ معلوم عندنا في الدنيا لِتحقَّق[٣] عليهم الحجة في الأخرى. ولهذا قال: **مُسمًّى لجاءهم العذاب، وليأتينهم**، العذاب عطفا على الأقرب، **بغتة وهم لا يشعرون**. وكرر العذاب ليعطف عليه. ولو قال: لجاءهم وليأتينهم لجاز أن يكون الإتيان عائدا على الأجل.

﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

ثم بين أن العذاب الذي يستعجلون به ليس بشيء. وإنما الذي يتواعدهم به هو عذابُ جهنم فقال: **يستعجلونك بالعذاب**، قبل الأجل. **وإن جهنم لمحيطة بالكٰفرين**. ونَصَب لفقدان "في" / فقال: **يومَ يغشٰهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول** [٣٢٨و]
ذوقوا ما كنتم تعملون.

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾

ثم قال: **يٰعبادى الذين ءامنوا إن أرضى وٰسعة**، لمن أراد أن يهاجر من مكان لا يتمكن فيه من العبادة. **فإيّٰى فاعبدونِ**. فهذا أمر للمؤمن إذا ضاقت به أرض فلم يستطع فيها العبادة بأي صورة كان[٤] الضيق فليهاجرْ إلى موضع آخر. ولمثل هذا ينبغي أن يكون السفر لا لغيره إلا إن كان مما يلزم عنه ويتعلق به لتكون الحركة به[٥] عبادةً.

---

[١] ك - لو لم يقل بيمينك لاحتمل أنه كان يحسن يخط ولكنه لم يفعل فلما قال بيمينك علم أن يمينه لم تكن تخط... أخر شهيدا ههنا وفي جميع القرآن قدمها وإنما أخرها ههنا ليَعطف عليها أي شهيدا، صح هـ.

[٢] ر + أجل.

[٣] ر: لتحق. | أي لِتَتَحقَّقَ.

[٤] ش ك: كانت. وفي هامش ش ك: كان.

[٥] ش - به.

ولمّا عرّفنا في تلك الآية أن من خرج مهاجرا فمات وقع أجره على الله نبّه ههنا على مثل ذلك فقال: **كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون.**

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ ۝٥٨ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦٠﴾

ولما ذكر المهاجرة لأجل[1] العبادة ذكر الموت الذي هو واقع لا محالة بكل نفس إشارةً إلى أن المرء إن لم يمت في طريق العبادة فهو ميت في غير[2] طريقها ولا بد من الجزاء فيجب أن يَعمل عليه. ولمّا كان الإنسان قد يَخاف الموت وقد يخاف الفقر ذكر الموت أولا، ثم ذكر التوكل بعده، ثم أتبعه بذكر الرزق لئلا تضعف قلوبُ المهاجرين من أجل ذلك فقال: **وكأين من دابة لا تحمل رزقها**، أي لا تستطيع ولو استطاعت فهي لا تحتمل.[3] **الله يرزقها وإياكم**، يرزقه الله كذلك. **وهو السميع**، لدعاء خلقه، **العليم**، بضروراتهم، والقادر على ما شاء.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١﴾

ولئن سألتهم من خلق السمٰوٰت والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون، إذ يشركون به[4] من لا يخلق.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٦٢﴾

الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له. فما بالكم تُشركون به من لا يبسط ولا يقدر، وهو ضد البسط، كقوله: فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ،[5] ولهذا قال ههنا: **له**، أي لمن يشاء. وقوله في موضع آخر: وَيَقْدِرُ،[6] أي ويقدره على آخر ليكون المعنى ههنا يَبسط

[1] ر: من أجل. في هامش ك: من
[2] ك - غير، صح هـ.
[3] ش ك: لا يحتمل. وفي هامش ك: لا تحمل.
[4] ك - به، صح هـ.

[5] ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ (سورة الفجر، ٨٩/١٦).
[6] انظر مثلا: سورة الرعد، ١٣/٢٦؛ وسورة الإسراء، ١٧/٣٠؛ وسورة الروم، ٣٠/٣٧؛ وسورة سبأ، ٣٤/ ٣٦، ٣٩.

لإنسان رزقَه ويقدر لذلك الإنسان، وفي الموضع الآخر: يَقْدِرُ، فهو مطلق لمن يبسط له ولمن شاء. وفائدة هذا التكرار بالتغيير اللفظي أن يكون البيان في أحد الموضعين يعود على المرزوق، وهو هذا الموضع، وفي الآخر يعود على الرزق ليظهر تفنُّن القدرة له سبحانه. **إن الله بكل شيء عليم.**

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد،[1] في جميع القرآن بإسقاط "من"،[2] وهنا بإثباتها. والعرب تَستعمل "من" لابتداء الغاية وهي تعطي ههنا سرعة الإحياء من حين الإنزال ليكون الاحتجاج بما هو أبلغ في[3] القدرة. ولهذا قدّم قوله مرة هنا[4] بعد مرة: **ولئن سألتهم.** ثم قال: **من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون،** أنه حين الإنزال حصلت الحياة، ثم ظهرت[5] بعد.

﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

ذكر في هذه الآية ما يجده المعتبرُ حالا، فإن الماضي والمتخيَّل والحُلْم بمنزلة واحدة. وقوله: **لهي الحيوان،** أي ليس فيها موت، وهذا الاسم موضوع للمبالغة مثل رحمن.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

ولما قدم أنهم يعرفون الله[6] قال بالفاء لا بالواو: **فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين. فلما نجٰهم إلى البر إذا هم يشركون، ليكفروا بما ءاتينٰهم وليتمتعوا فسوف يعلمون.**

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

---

[1] ك - بعد، صح هـ.
[2] انظر مثلا: سورة البقرة، ٢/١٦٤؛ وسورة النحل، ١٦/٦٥؛ وسورة الروم، ٣٠/١٩، ٢٤، ٥٠.
[3] ك - في، صح هـ.
[4] ر ك - هنا.
[5] ش: ثم ظهر.
[6] انظر: الآيتين ٦١ و٦٣ من هذه السورة.

أولم يروا أنا جعلنا حرما ءامِنًا ويتخطف الناس من حولهم، هم إذ ليسوا في الحرم. أفبالبُطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

ثم ختم السورة بذكر الجهاد كما افتتحها[1] به، لأنه أولا قال: وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦ.[2] فقال أخيرا: **والذين جهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**، ولم يقل: سبيلنا؛ وهذا يُعلم منه أن المراد مطلق الجهاد المذكور في أول السورة، وليُعلَم أن لكل سبيلٍ جهادا. فجهاد سبيل الزهد في الدنيا رفضُ الشهوات، وجهادُ سبيل / رفض الشهوات العلمُ، [٣٢٨ظ] وجهاد سبيل[3] العلم الحفظ، وجهاد سبيل الحفظ التكرار، والصبر يتخلل الجميع. فلكلّ مطلوب سبيلٌ ولكل سبيل جهاد. **وإن الله لمع المحسنين.**

وفي هذه الآية ما إذا تدبره ذو اللب وجد به غاية المطالب وقُصارى الأغراض والمآرب من كل فنّ في كل زمن باطنا وظاهرا، دنيا وأخرى مع الحق والخلق. فلا يُشكل عليه مشكل ولا يرغب في شيء ولا يرهب من شيء، فيجاهد جهادا يليق بمطلوبه أولا[4] ويهديه إلى سبيل[5] الحق فيما جاهد من أجله. وإذا[6] غلب سلطان العقل على الهوى استولى على النفس، فهان تركُ الشهوة وصار الترك غذاءً كما كان الأخذ غذاء. وهذا باب عظيم النفع. ومن هانت نفسه عليه فهو عند الله أهون.[7] وصيانةُ الوديعة إجلالٌ للمستودِع. وفي قوله: **وإن الله لمع المحسنين**، تنبيه وترغيب في الإحسان، لأن من كان الله معه فممن يخاف وما الذي يفوته؟[8] فاجعل هذه الآية نصْبَ عينك، والله خليفتي عليك.[9]

---

١ ك: كما بدأها. وفي هامش ك: كما افتتحها.

٢ الآية ٦ من هذه السورة.

٣ ك - سبيل، صح هـ.

٤ ر: مطلوبه إلا.

٥ ش: إلى سبيله.

٦ ر: وإذ.

٧ لعل المؤلف يقصد: فحسابه عند الله يوم القيامة أهون.

٨ ش: يفوت.

٩ لعله يقصد الجملة السائرة بين الناس: أَستَوْدِعُكَ الله.

سورة الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾

الٓمٓ. غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. هذه الآيات[١] أخبر الله سبحانه بها لنبيه صلى الله عليه وسلم ما كان. وهو أن الروم كانت غالبة -وما هو كائن حين الإخبار هو[٢] أن الروم مغلوبة- وما سيكون من أمر الروم ومن أمر عدوهم الذي قيل: إنهم فارس. وذلك الإخبار عن الروم بأنها أخيرا ستَغلب عدوَّها هو في مكان مخصوص. وكذلك ما يكون من المسلمين أنهم ينتصرون في يوم مخصوص من زمن معين للروم والمؤمنين. فقوله: **غلبت الروم**، بضم الغين دل على أن الروم كانوا من قبلُ غالبين، فغُلبوا في أدنى الأرض إلى السماء وهي بيت المقدس. ولا يلزم أن يذكر متى غَلبوا عدوهم أولا، أعني قبل ذلك كله، لأن الإخبار عن الماضي قد يَعلمه من لا يخبر بالغيب. وأما الإخبار بالغيب فهو إما عمّا كائن في الوقت في أرض أخرى أو عما سيكون.

فقوله: **من بعد غلبهم سيغلبون**،[٣] بتحريك اللام معناه مِن بعد أن قد صاروا مغلوبين. ولفظة "غلبهم" مثل طلبهم. واعلم أن هذه الكلمة تقال بمفردها، أعني من غير قرينة معها فتكون بمعنى المفعول. وإن[٤] أردتها بمعنى الفاعل زدت عليها قرينة أخرى دالة معها على ذلك، تقول: جاء القوم من بعد طلبهم، أي من بعد ما طلبهم طالبٌ فهم مطلوبون؛ وتقول: جاء القوم من بعد طلبهم ضيافة فزدت ضيافة لتنبّه على أن القوم[٥] طالبون. وكذلك قوله: **من بعد غلبهم**، يريد من بعد أن صاروا مغلوبين. ولو أراد بلفظ "غلبهم" أنهم هم الغالبون لقال: **من بعد غلبهم**، لعدوهم. فتأمل ذلك، وافهمه جيدا.

فإن قلت: لقد كان يغني قوله لو قال: سيُغلبون ويَغلبون، بضم الياء وفتحها. فاعلم أنه لو قال ذلك من غير أن يقول: وهم، لتغير المعنى، إذ كان يدل على رومٍ مّا من جملة الروم

---

١ جميع النسخ: الآية.

٢ ش ك: وهو.

٣ ر - سيغلبون.

٤ ر ش: فإن.

٥ ك - فهم مطلوبون وتقول جاء القوم من بعد طلبهم ضيافة فزدت ضيافة لتنبه على أن القوم، صح هـ.

ولم يرد ذلك بل أرادهم بأعيانهم، أعني الذين غُلبوا بضم الغين سيَغلبون بفتح الياء. ولم يقل: من بعد غلبتهم لئلا تشتبه بالغلبة التي هي كثرة الأصوات. **فخبَّرَنا** بهذا الكلام أن فارس غلبت الروم، فكأنه قال: اليوم قد غُلبت الروم بضم الغين. ولمّا كان الروم أهل كتاب وكانت البلاد لهم كالقدس وما جاوره، وكان المؤمنون في قلة والمشركون يومئذ في كثرة، والرومُ أهلَ كتاب، فإذا غلبهم أهلُ فارس فرح المشركون من العرب بطريق الأولى من كونهم لا يصدِّقون بالأنبياء. ولمّا لم يكن الإخبار بفرح المشركين مُهِمًّا لم يُذكر نصا بل فُهم بالأولى من طريق اللزوم عن قوله: **ويومئذ يفرح المؤمنون**، كما سنبين، إذ يلزم عنه أن في ذلك اليوم الأول يفرح المشركون وإن كان هذا من بابِ الجائز، لكنه مما يُفهَم أيضا / من الآية. وقوله:[1] [٣٢٩و]
وهم، إشارة إلى المغلوبين المُعيَّنين لا إلى الجنس كما قدمنا، فهذا فائدة "هم"، وإلا كان الأولى إسقاطها. وقوله: **من بعد غلبهم**، بيَّن بهذه العبارة -أعني بالبَعديّة- مراده بقوله: مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ،[2] لأنه لا تعلُّقَ لهذا الكلام بهذا المكان إذا كان الإخبار عن الله تعالى فقط، إذ هو معلوم لنا، ولأن الأمر كله له سبحانه في كل آن. ولكن الغرض أن يبين ما إذا لم يُفهم بهذه العبارة وقع الإشكال والاختلاف في تأويل الآية مع كثرة الروايات في اختلاف القُرّاء. وذلك أنه بيَّن أن الروم كانت غالبة فأخبر الله أنها الآن قد غُلبت، أعني حين الإخبار، وأن الروم بعد ذلك ستغلب عدوَّها. وبين ذلك بقوله: لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ[3] أي لدينه ولأهله وهم أهل الشرائع. فقوله: مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ، أي من قبل أن تُغلب الروم ومن بعد أن تَغلب عدوها. فافهم بيان ذلك أنه حيث تكون الروم مغلوبة فالأمر للمشركين، أعني فارس. وأما "قبل وبعد" فهو للروم وهم أهل كتاب، ولم يكن "قبل" قد جاء النبي محمدٌ صلى الله تعالى عليه وسلم بالدين الذي يجب اتباعُه دون الروم. وأما "بعد" فإنه في ذلك اليوم يَنْصُر المؤمنين.[4] فَمِن بعدُ يشير به إلى غلب المؤمنين للمشركين أعني فارس، وجعل غلب الروم لفارس علامة. وأما "قبل"، فكان الغلب للروم ولم يكن دين إلا لهم، فعبر بقوله: لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ، فافهم جيدا. ولم يعيِّن بالذكر إلا الروم دون عدوها لأنهم أولو الغلب والنصر[5]

---

[1] ش: قوله.
[2] ش + لا. | من الآية التالية.
[3] من الآية التالية.
[4] ر: ينصر المؤمنون.
[5] ر: النصرة.

وأهل كتاب لِيَحسن ذكرُ من ينصره الله من المؤمنين مع هؤلاء المنصورين أخيرا في يوم واحد، ولأن تعيين الغالب أخيرا أحسن من تعيين المغلوب.

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٖ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

وقوله: **في بضع سنين**، "بضع" تذكير بضعة كقِطْع وقِطعة معنًى وتصريفا، كأنه تبضيع[1] العشرة، أي تقطيعها، فهي قطعة من العقد الأول من عقود الأعداد. والبضاعة والبضع مشتقّان من هذا الأصل. واعلم أنه لو عين المدة بغير لفظ البضع، أعني لو أوضحها لَفسد المقصود، لأن الغرض أن لا يَعلم كل أحد ما سيكون من أمر الغالب والمغلوب من المحاربين بتواريخه المؤقتة ليتمّ وقوعُ الواقعة وليكون سبحانه هو العالمَ المعلِّمَ لمن شاء ما شاء. **لله الأمر من قبل ومن بعد**. **ويومئذ**، أي ويوم إذ، أي يوم حين، أضاف اليوم إلى الحين الذي يقع به ما ذكر الله، **يفرح المؤمنون بنصر الله**، لهم على المشركين كما فرح الروم بنصرهم على فارس. **ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم**، بعباده لِيَعلم الغالب والمغلوب أن الجميع رحمةٌ. فأما الغالب فظاهر، وأما المغلوب فكقوله: وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.[2]

﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾

وعد الله، نصب على المصدر. **لا يخلف الله وعده ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون**، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ،[3] ثم ذكر[4] الأكثر.

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

يعلمون ظٰهرا من الحيوٰة الدنيا وهم عن الآخرة هم غٰفلون. "هم" للتخصيص، أي هم دون غيرهم. والدليل على صحة القراءة التي فسرنا بها أول السورة أن قوله: وَيَوْمَئِذٖ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِ،[5] يلزم عنه أن في ذلك اليوم بعينه فرح الروم بنصر الله لهم على فارس أيضا، وجاءت به الأخبار أيضا فلزم أن تكون القراءة "سيَغلبون" بفتح الياء،

---

[1] ش ك: بتضييع.
[2] سورة السجدة، ٢١/٣٢.
[3] سورة آل عمران، ٩/٣؛ وسورة الرعد، ٣١/١٣.
[4] ر + عن.
[5] الآيتان ٤-٥ من هذه السورة.

ولزم من كون هذه الياء مفتوحةً أن تكون الروم قبل ذلك مغلوبةً لفارس وإلا لا يصح الإخبار بقوله: **سيغلبون**، وهي غالبةٌ بل بعد أن كانت الروم مغلوبةً لفارس ليصح قوله: وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ،[1] وينبني عليه[2] بقية الكلام، فتأمل ذلك جيدا[3] بغير عجلة.

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾

أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السمٰوٰت والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى، وهذا تكذيب لمن / يَدَّعي القدم للعالم، وهو أمر يُمكن علمُه بالتفكر. وقوله: [٣٢٩ظ] **وأجل**، أي لمّا جاء الأجل الذي تقدَّم في علمه الأزلي أنه يخلقهما فيه خلقهما بالحق. **وإن كثيرا من الناس بلقاىٔ ربهم لكٰفرون**.

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾

ولمّا أحالهم بالتفكر على البصائر أحالهم بالاعتبار على الأبصار كأنه يقول: إن لم تكن لكم بصائر فاعتبروا بالأبصار فقال: **أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عٰقبة الذين من قبلهم**، أي فيجدوا أنهم، **كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها**، أولئك، **أكثر مما عمروها**، هؤلاء بشهادة الآثار لهم. **وجاءتهم رسلهم بالبينٰت**، فكذبوا فأخذهم الله. **فما كان الله ليظلمهم ولٰكن كانوا أنفسهم يظلمون**.

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾

ثم كان عٰقبة الذين أسٰٓـٔوا السوأىٰ، فالعاقبة منصوبة على خبر "كان"، وتقديره بسبب أو جزاء على، **أن كذبوا بـٔايٰت الله وكانوا بها يستهزئون**.

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١﴾

ثم نسق على قوله: مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ،[4] [قوله:]

---

[1] الآية ٣ من هذه السورة.
[2] ش ك + الكلام أي.
[3] ش ك - جيدا.
[4] الآية ٨ من هذه السورة.

الله يبدؤا الخلق ثم يعيده، ثانية بعينه كما خلقه أولا. **ثم إليه ترجعون**، ليجازيكم.[١]

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾

فأما الذين ءامنوا وعملوا الصّٰلحٰت فهم فى روضة يحبرون، يُؤلَّفون ويُجمعون بالسرور المؤلّف.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

ولمّا كان الغني المطلق هو الذي يفعل لا لمقتضٍ من نفسه ولا لموجب من غيره،[٢] وليس من له الإطلاق أي[٣] إطلاق الغنى والقدرة إلا الله، وقد تقدم قوله: ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ،[٤] استحق الحمدَ على مخلوقاته، فعلّمهم كيف يَحمدونه فقال بالفاء بمعنى وإذ قد علمتم ذلك أيها المؤمنون فقولوا، فأضمر القول قبل التسبيح ودل عليه بالفاء في قوله: **فسبحٰن الله حين تمسون وحين تصبحون**، لأن هذه صورة من صور البعث يَبعث النهار بعد ما أعدمه بالليل، ويبعث الليل بعد ما أعدمه بالنهار.

ولمّا كان هذا الأمر يقتضي لِما فيه من التعجب أن يسبَّح صانعُه وهو نعمة ورحمة كقوله: وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ،[٥] الآية، لزم أن يُحمد سبحانه على هذه النعمة التي هي منه رحمة فأتبعه معلّما لنا بقوله: **وله الحمد فى السمٰوٰت والأرض**، أي لا تحسبوا أنه مسبَّح محمود من جهتكم فقط، وأن نعمته ورحمته عليكم حَسْبُ بل الأمر كذلك: وله الحمد المطلق على مخلوقاته في السماوات والأرض. والكلام منسوق على قوله: **وحين تصبحون**، **وعشيا وحين تظهرون**، والحمد معترِض بينهما، وأخّر ذلك للوِزان، فافهم.

---

١ ش: فيجازيكم.

٢ ش: ولا لموجب لغيره.

٣ ر - الإطلاق أي.

٤ الآية ١١ من هذه السورة.

٥ ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة القصص، ٢٨/٧٣).

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

يخرج الحىّ، كالبُلْبُل **من الميت**، كالبَيْضة، **ويخرج الميت من الحىّ**، كالبيضة من الدجاجة. ولم يُعيِّن البيضة أو النطفة[1] أو غير ذلك ليكون اللفظ مطلقا واقعا على جميع الأمثال. **ويحيِ الأرض بعد موتها**، وهذا بعث آخر، ولهذا بعده: **وكذٰلك تخرجون**.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

ثم عطف على ذلك قولَه: **ومن ءايٰته أن خلقكم من تراب**، يريد آدم. **ثم إذا أنتم بشر تنتشرون**.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

ومن ءايٰته أن خلق لكم من أنفسكم، أي من أنفس بعضكم، **أزوٰجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**. **إن فى ذٰلك لآيٰت لقوم يتفكرون**، إذ المتفكر يجد أنه لولا تلك المودة من نوع الحيوان والرحمةُ من أخص النوع وهو الإنسان لَمَا قام المَثَل، ولهذا في ذلك آيات.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

ومن ءايٰته خلق السمٰوٰت والأرض، أي وما في السماء من الكواكب واختلاف حركاتها وتأثيراتها، وما في الأرض من الحيوان والنبات والمَعْدِن. وفي تفصيل ذلك وخواصه وصُوَره وقُوَاه وغير ذلك مما لا يعلمه ولا يُحصيه إلا الله تعالى، ثم من أنواع
[٣٣٠و] / العجائب والعلوم. **واختلٰف ألسنتكم**، باللغات وأنواع العبارات. واختلافٌ آخر في قوله: **وألوٰنكم**. ويجب أن تَفهم بالشيء مثله أعني الاختلاف، فإن في اختلاف الأشكال، أعني شكل الوجه والهيئة والسَّحْنَة[2] التي طُبع عليها هذا الإنسانُ المخصَّص

[1] ر: والنطفة.

[2] ش: والسخنة. | السحنة: لِينُ البَشَرة والنَّعْمة، وقيل: الهيئة واللون والحال (لسان العرب، «سحن»).

فإنك تجد الآخر وإن كان له كما[1] للأول[2] من الجبين والحاجب والعين وغير ذلك لكنه غيره. فتَجد هذا الجمعَ العظيم الذي لا يُحصى كثرةً ولا يعدّده[3] إلا الله ما فيهم [من] صورة على صورة أخرى بعينها بل بينهما فرقٌ يُدركه الخاص والعام. وإذا نظرت رأيت في غير الصُّوَر الإنسانية مثل ذلك وإن غمض. فافهم ما أشارت الآية إليه لتكون إذا نظرت في كتاب الله القَوْلي نظرت به مثلَه في كتابه العقلي. **إن فى ذٰلك لآيٰت للعٰلمين.**

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ومن ءايٰته منامكم باليل والنهار وابتغاؤكم من فضله. إن فى ذٰلك لآيٰت لقوم يسمعون، السماع ههنا يريد به الفهم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

ومن ءايٰته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيۦ به الأرض بعد موتها، وهذا بعث ظاهر. **إن فى ذٰلك لآيٰت لقوم يعقلون**، إذ هذا يحتاج إلى عاقل وأي عاقل[4] ليعقل بهذه الآيات عن الله ما يُلزمه به العقلُ من توحيده.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ومن ءايٰته أن تقوم السماء والأرض بأمره، أي تثبت إلى يوم القيامة. ومنه ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾[5] أي ثبتوا. **ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون**، أي من الأرض، وأخِر للوزان.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾

١ ك - كما، صح هـ.

٢ ش: كما الأول.

٣ ر: ولا يعده.

٤ ك - وأي عاقل، صح هـ.

٥ ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٠).

وله من فى السموٰت والأرض كل له قٰنتون، من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون، شاءوا أم أبَوْا، لأنهم قُيّدوا بمآرب[1] وأغراض وضروريات. كلٌّ منهم يَظن أنه إنما[2] يجتهد ويفعل ما يفعله من أجل نفسه وأَرَبِه. وإنما قيّد بتلك الإرادة ليتم مراد الله به، كما يستلذ الزوجان من الحيوان ويجتهدان على النكاح، والمقصود بهما إقامة المثل وما يترتب على ذلك من مصالح لا تُعَدّ ومنافعَ لا تُحَدّ. وكل أفعال العباد كذلك. وإنما أُمِروا ونُهُوا لما يعود عليهم، إذ[3] ما أشرنا إليه لا يبطل كسبَهم. وأما ما أريد بهم فلا طاعتهم تَزيده ولا عصيانهم يَنقصه، فهم قانتون بلا شك.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

وهو الذى يبدؤا الخلق ثم يعيده. والوجه في إعادة هذه الكلمات ليعطف عليها[4] قوله: **وهو أهون عليه**، أي أهون عليه في أفهامكم، لأنكم أقررتم بالإبداع الأول. وإعادة الشيء ثانيا أهون على المخلوقين من إبداعهم له أولا. وإذا كان ذلك كذلك عندكم فلِم لا يكون عند الله،[5] **وله المثل الأعلىٰ**، أي له يجب أن يكون أعلى ما في أذهانكم من القدرة. وكل شيء تقدرون عليه يقدر على أعلى من مثله. وكذلك إذا مرّ بكم وصفان أعلاهما يجب أن يكون لله. ولمّا كان المثل الأعلى ليس المراد به أن يكون مخصوصا بشيء واحد قال: **فى السموٰت والأرض وهو العزيز الحكيم**، الحاكم بما شاء.

ولمّا كانت الآيات كثيرة وقد ذكر منها ههنا ما تتابع بقوله: وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ،[6] ثم كرر ذلك مرارا جعل أواخر الآيات المتلوة مقيدة[7] بأوائلها. فافقه كونه أولًا ذَكَر التفكر، لأنه لا يكون الاعتبار فيما يُسمَع ويرى لأحد العالِمين إلا به، فإن النفس عبارة عن التفكر والتصور فمتى عدمتْه فقد عُدِمت ذاتها. ثم لمّا كان التفكر أمرا يعم العالمين أتبعه بذكر الآيات للعالِمين. ولمّا كان النوم واليقظة من لوازم[8] العالِمين أتبع العالِمين به.

---

[1] ك: بمأرب.
[2] ش ك – إنما.
[3] ش ك: إذا.
[4] ش: عليه.
[5] ر: لا يكون ذلك لله.
[6] الآية ٢٠ من هذه السورة.
[7] ر: مقيدا.
[8] ك: من لازم. وفي هامش ك: لوازم. | الآيتان ٢٣-٢٤ من هذه السورة.

وقال: لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ، يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ،[١] ولما كان الفهم لا يكون إلا بما يُسمع أو يرى ذكر بعد قوله: يَسۡمَعُونَ، [قوله:] يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ.[٢] ثم ذكر ما بعد البرق من نزول الماء وإخراج النبات الذي هو أدل على البعث. ثم ختم هذا التتابع الذي هو [قوله:] وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ، بالعقل فقال: لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ.[٣] ثم أتبع ذكر العقل الذي قد استثمر نتائج الفكر عند اعتبار ما تقدم من الماضي بما سيكون إدراكه في المستقبل الآتي. وذلك بالعقل الذي يستدل على ما سيكون بما كان فقال: وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ.[٤] ثم أوضح ببقية الكلام إلى قوله: **العزيز الحكيم**. فانظر / هذه الجملة ولزوم ارتباط بعض الكلام ببعض كيف [٣٣٠ظ]
جعله كلَّه قاعدةً لدفع الشرك.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٨﴾

ثم نسق عليه [قوله:] **ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمٰنكم من شركاء**، يشاركونكم، **فى ما رزقنٰكم**، من الرزق، **فأنتم**، وهم، **فيه سواء**؟ فالجواب لا. ثم عطف على "هل"،[٥] أي هل، **تخافونهم كخيفتكم أنفسكم**، ويريد بقوله: **أنفسكم**، ههنا قومكم المماثِلين في النعمة والنسب، لأن أحدنا لا يخاف من عبده أن يشاركه في ماله كما يخاف من شريكه في نفس المُلك. فالكلام كلُّه مبني على صورة استفهاميةٍ منسوقٌ على "هل"، فيلزم ما معناه: فالمثل الأعلى يجب أن يكون لله لا لكم. فكيف لا يشارككم عبيدكم فيما هو لكم وتجعلون لله شركاء يشاركونه فيما هو له؟ ثم قال: **كذٰلك نفصل الآيٰت لقوم يعقلون**، ما نفصله. تقديره فلم يعقلوا.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩﴾

بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم، يوجب عليهم الاتباعَ، بل ميلا إلى مجرد الهوى.[٦]

---

١ ر: الفهم؛ ش – ولما كان الفهم لا يكون إلا بما يُسمع أو يرى ذكر بعد قوله يسمعون يريكم البرق.
٢ ك – ولما كان الفهم لا يكون إلا بما يُسمع أو يرى ذكر بعد قوله يسمعون يريكم البرق.
٣ الآية ٢٤ من هذه السورة.
٤ الآية ٢٥ من هذه السورة.
٥ في هامش ك: لا عطف على هل.
٦ ش ك: الهواء.

فعاقبهم الله بأن أبقاهم على ما هم عليه، كقوله: وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ.[1] ولهذا بعده: **فمن يهدى من أضل الله وما لهم من نصرين.**

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله، كما نصب صِبْغَةَ ٱللَّهِ،[2] **التى فطر الناس عليها.** هذه الفطرة فيها ما حكمه حُكْمُ البِرّ؛ به يُعرَف كلُّ معروف، وإليه الإشارة بقول الفضلاء "الأوّليات"، وهي[3] ما لا[4] تحتاج العقول عليه إلى دليل[5] مثل أن الكل أكثر من جزئه بل هو الدليل على ما غَمَض عن العقل، وبه يُتوصل إليه. فهذه الفطرة فطر الله الناسَ كلَّهم عليها. فهم مفطورون أولا على الانقياد والتسليم إلى من لا بد للعقل من الاعتراف به وهو الفاطر، وإلى ما فطرهم عليه من الاعتراف بما هو محقق عندهم بالأوليات المسلَّمة بعقولهم فيما ظهر والمبرهَنة لهم عما بطن.

وههنا تنبيه: اعلم أنه لمّا كان الولد الصغير لا يَعرف عند الولادة شيئا كان على[6] الفطرة. وإذ وصل الكبير إلى حدٍ أن يعرف أنه لا يعرف[7] فقد عاد إلى الفطرة وهو في الجنة. ولمّا أكل من شجر المعرفة خرج منها.[8] وهذا هو الإسلام من الكبير لتسليم المسلم ما لا يعلمه من ذات البارئ إليه سبحانه وتعالى وهو الإيمان بالغيب. وكذلك يسلك في كل ما لا يجوز فيه الكلام، ولا يجوز الكلام[9] إلا بما جاءت به الرسل، ولهذا كانوا مسلمين، لأنهم لم يأتوا من تلقاء أنفسهم بشيء إلا بما عرّفَهم الله فقط من غير غيريّةٍ بوجه، فهم رسل فقط. وأولاهم بالاتباع آخرهم. فصحّ أنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ،[10] وأنَّ الأولى به هذا النبي عليه الصلاة والسلام. ولهذا قال: هو أولى بإبراهيم،[11]

[1] ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (سورة الأنعام، ١١٠/٦).

[2] ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ (سورة البقرة، ١٣٨/٢).

[3] ش: هي.

[4] ك - لا، صح هـ.

[5] ك + عليه، صح هـ.

[6] ك - على، صح هـ.

[7] ر - أنه لا يعرف.

[8] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: التكوين ١٥/٢-١٨، ١/٣-٤، ٢٢-٢٣.

[9] ك - ولا يجوز الكلام، صح هـ.

[10] سورة آل عمران، ١٩/٣.

[11] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (سورة آل عمران، ٦٨/٣).

ولم يقل: إبراهيم أولى به. **لا تبديل لخلق الله**، هذا أمر بصورة الإخبار، أي لا يجوز أن يغيّره أحد، لهذا بعده: **ذٰلك الدين القيم ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون.**

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

ثم تمّم الوصف على صورة الأمر بما معناه: إذا كنتم على الفطرة[1] ولم تميلوا إلى محدَثاتهم وأهوائهم كونوا، **منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلوٰة ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون**، يظنون أنه هو الحق فيدعون غير الله.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه، وتركوا شركاءهم لأن الفطرة تضطرهم إلى ذلك. **ثم إذا أذٰقهم منه رحمة**، أي[2] إذا نفَّس عنهم بأدنى شيء كما يذاق الطعام، ولفظة "منه" مقدَّمةٌ إعلاما أن الرحمة من لدنه كرما لا من قِبَلهم استحقاقا، ولو أخَّرها لكانت من عنده جزاء، فافقه مثله. **إذا فريق منهم بربهم يشركون، ليكفروا بما ءاتينٰهم**، من النِّعَم؛ وإنما كان يجب أن يشكروا، فجعلناها سببا للشكر فجعلوها سببا للكفر. **فتمتعوا فسوف تعلمون**. احتج عليهم بما معناه: ما بالهم إذا كانوا في ضُرّ دعوا ربهم، فإذا أذاقهم الرحمة أشركوا، أهُمْ أشركوا كما هم دَعوا.

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾

أم أنزلنا عليهم سلطنا، يجبرهم على الشرك. **فهو يتكلم بما كانوا به يشركون**، كما أنزلنا / هذا القرآن يتكلم بالتوحيد. وهذا من أبلغ الحِجاج المُسكِت في دفع [٣٣١و]
الجبر، أي لم ننزل[3] ذلك بل هم أشركوا. ولهذا بعده: **وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها**

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ٣٠ من هذه السورة.

[2] ش - أي.

[3] ش ك: لم تنزل.

وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون، ييأسون، فكيف يقنطون ويذهبون عن النظر في أفعالنا معتبرين.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣٧ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٣٨﴾

أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، من قوله:[1] فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ.[2] والمعنى أنه[3] كان يجب عليهم إذا أصابتهم السيئة بما قدمت أيديهم أن يتوبوا لا أن يقنطوا. فبين[4] أن الله يعاقبهم بحرمان الرزق. ولهذا[5] ذكره بعد القنوط. وقال بعد ذلك: **إن فى ذٰلك لآيٰت لقوم يؤمنون**، لأن المؤمن بذلك يعلم أن التوبة وعمل الخير يُزيل القنوط، وأن الصدقة تزيد في رزقه. فلهذا أمره بعده بقوله: **فآت ذا القربىٰ حقه والمسكين وابن السبيل**، **ذٰلك**، الإيتاء، **خير**، من الجمع، **للذين يريدون وجه الله وأولٰئك هم المفلحون**.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ۝٣٩﴾

وقوله: **وما ءاتيتم**، يدل على كل شيء يُقصَد بإيتائه الربا في أموال الناس كان ما كان من قُماش ومال وغيره، وبأي صورة كان الإيتاء إذا كان المقصود ليربوا في أموال الناس، فافقه.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٠﴾

ثم قال: **الله**، هو، **الذى خلقكم ثم رزقكم**، فلا تبتغوا الرزق عند الناس ليربو مالكم في مالهم، بل كما قال في موضع آخر: فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ،[6] أي في أوامره

١ ش: من قولهم.
٢ سورة الفجر، ١٦/٨٩.
٣ ر: أنهم.
٤ ش ك + الله.
٥ ر: لهذا.
٦ سورة العنكبوت، ١٧/٢٩.

إذا اتبعتموها لا فيما نهاكم عنه. ثم تمم الكلام بعد قوله: **ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذٰلكم من شيء**، "من" لتبيين الجنس. **سبحٰنه وتعٰلىٰ عما يشركون**. وذكر الربا مع الشرك إعلاما بعظم الإثم فيه وأن المرابي قرين المشرك في النار، لأنه يبتغي الرزق من عباد الله بما نهاه الله عنه، فقد أشرك الله بهم.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

ثم قال: **ظهر الفساد فى البر والبحر بما**، بسبب ما، **كسبت أيدى الناس**، إعلاما أن ظهور الفساد بين العباد لا يكون إلا بأعمالهم[1] فهو جزاؤهم، وهو بعينه رادع لهم، **ليذيقهم**، الله به، **بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون**، عن أعمالهم بالتوبة في الدنيا فتصلح لهم الدنيا والأخرى. وهذا كقوله: وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ،[2] الآية.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عٰقبة الذين من قبل، وهم الذين، **كان أكثرهم مشركين**.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾

فأقم وجهك للدين القيم، إذا رأيتَ آثارهم الدالة على ما صاروا إليه في عاقبة الأمر، **من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يَصَّدّعون**، يتفرقون. والصَّدع الشّق، أي فرقةٌ إلى الجنة وفرقة إلى النار، وكل فرقة تفترق فِرَقا بحسب عملها.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

ولمّا كان أصل التفريق إلى فرقتين قال بعده: **من كفر فعليه كفره ومن عمل صٰلحا فلأنفسهم يمهدون**، **ليجزى الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت من فضله**، بعد العدل

[1] ك: من أعمالهم. وفي هامش ك: بأعمالهم.

[2] ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة السجدة، ٢١/٣٢).

بما هو فضل منه، لكنه مرتب على العمل. فتكون المواهب في طيّ المكاسبِ والمكاسبُ[1] سبب لها وإن كانت المواهب مواهبَ لا أجرا، ولكن الكريم جعلها في حكم الأجر، فصح أن يقول:[2] **ليجزى**، وصح أيضا[3] أن يقول: **من فضله**، فافهم. **إنه لا يحب الكٰفرين**.

واعلم أن مثال المكلف في الدنيا كعبد في سِرْداب مُظلِمٍ لم يَر غيرَه قط، وقد أمره سيده أن يحرث ويزرعَ فهو لا يرى ما يُثمر[4] ولا ما ينبت[5] إلا بالإيمان. فإذا فُتح الباب وطلعت الشمس على ذلك السرداب بان عمله، وهذا العبد إذا امتثل الأمر داخلَ السرداب أمكنه أن يمتثله خارجَ السِّرداب، فعمل هناك أعمالا لا تحصرها العبارات ولا تسعها الإشارات ولا يُنال مدحُها ولا نهاية لرِبْحها.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

ولمّا كانت الأعمال كالزرع الذي يُثمر ويُنبت أضعافه قال بعد هذه الآية: **ومن
[٣٣١ظ] ءايٰته أن يرسل الرياح مبشرٰت**، لأنها بلسان / الحال نطقت بالبشرى، إذ دلت على نزول[6] الغيث. والمعنى أننا كما أرسلنا الرياح بالرحمة الظاهرة كذلك أرسلنا الرسل بالرحمة الباطنة. ولهذا لمّا[7] تمّمَ[8] ضرب المثل قال بعده: **ولقد أرسلنا من قبلك رسلا**، فافهم هذا. ونسق[9] عليه ذلك بعد تمام المثل وهو قوله: **وليذيقكم من رحمته**، "من" لتبيين الجنس، **ولتجرى الفلك**، بالرياح، **بأمره ولتبتغوا من فضله**، بما سببه[10] الرياح بَرّا وبحرا. **ولعلكم تشكرون**، فهذا هو المثل. وأما الممثول فهو قوله: **ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينٰت فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين**.

---

[1] ر: فالمكاسب.
[2] ك + لا.
[3] ر – أيضا.
[4] ر + بل.
[5] ك: وما لا ينبت.
[6] ر: على زاوال.
[7] ر ك – لما.
[8] ش: تم.
[9] ر: وأنسق.
[10] ش: بما يسببه.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٨ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ٤٩﴾

ولمّا ذكر الإرسال أولا وجعله آية دالة عليه بقوله: وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ،[1] فأشار بالهاء إلى فاعل يحتمل عند المشركين أن يكون غير الله لكونه ذكره مضمرا كرر ذلك لينفي ما قد يقع في ظنونهم وذكر نفسه مظهرا فقال: **الله**، أي هو لا غيره، **الذى يرسل الريٰح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا**، قطعا شيئا قُدّام شيء وشيئا فوق شيء. **فترى الودق**، تقدم[2] ويريد به المطر، **يخرج من خلٰله**، خلال السحاب. **فإذا أصاب به**، أي حين الإصابة وهو أول الإنزال، وبه يحصل الاستبشار ويزول الإبلاس، أعني يحصل ذلك حين الإصابة قبل تمام الإنزال، لهذا قال: **فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون**، أي من قبل أن يُنزَّل عليهم، فجعل هذه الجملة في الآية الآتية للوِزان ولغيره كما نبين. وهو أنه لو نسق الجملة على [قوله:] **يستبشرون**، كما أثبتنا ههنا ذهب الوِزان، ولو ذكرها قبل [قوله:] **يستبشرون**، لذهب ما أراد الاهتمام بذكره وهو سرعة الاستبشار حين الإصابة بالوَدْق. فقال في الآية الثانية: **وإن كانوا**، ونسق عليه من قبله [قوله:] **لمبلسين**، لكنه أخّره لوِزان هذه الآية. فاعترض بين أول الآية وآخرها قولُه: **من قبل أن ينزل عليهم**، وهي الجملة التي قدمنا أنها منسوقة على [قوله:] **يستبشرون**، وبقي قوله: **من قبله لمبلسين**، منسوقا على قوله أولا: **وإن كانوا**، كما قدمنا. فمعنى الجملة بمقدرها المحذوف وترتيبها المقصودِ من غير تقديم وتأخير أوجبه وِزانٌ أو غيره ما نقول وهو: **فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون**، من قبل أن ينزل عليهم كلُّه بل بعضه، وهو أول ما أصاب منه، وإن كانوا من قبله، أي قبل الإصابة بشيء منه، **لمبلسين**، وهذا ظاهر في الوجود لسائر العقول. وهو أنه من أول ما يصيبهم رشقُ القطر[3] يحصل الاستبشار ومن قبله كان الإبلاس. ولهذا عبر بإذا من حيث الحقِّ وبإذا من حيث الخلق. والعرب تَستعمل "إذا" للمفاجأة، تقول: خرجت فإذا زيدٌ بالباب. وتقول: "إذا" بغير فاء ولا واو، ونظيره قوله تعالى:

---

[1] الآية ٤٦ من هذه السورة.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِى سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ (سورة النور، ٤٣/٢٤).

[3] ش ك: القدر. وفي هامش ك: القطر.

ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ،[1] أي حين الكشف وقع الشرك، فجاء اللفظ ههنا على صورة من التقابل ليدل على الأحسن لفظا مضافا إلى الأحسن معنًى. فأما أحسن اللفظ في التقابل فهو قوله في الآية الأولى: **إذا**، **وإذا**؛ وفي الثانية: **من قبل**، **ومن قبله**. وأما في المعنى فهو ما دل عليه بالمفهوم من **إذا**، وذلك أنه حين ما كانت الإصابة منا كان الاستبشار منهم. فكان ذهاب الإبلاس وحصولُ الاستبشار منهم مع الإصابة منا في حينٍ واحد. وهذا هو المدلول عليه بإذا كما قدمنا. وهذا يعطي عظمَ القدرة على ما ظهر وعلى ما بطن. أما ما ظهر فهو أمرُه تعالى للسحاب. وأما ما بطن فهو تقليب القلوب من الضد إلى الضد بما هو في السرعة كرَشْفة المطر، فافهم هذا مِثلا لتفهم به أمثاله.

[٣٣٢و] وإنما أشكلت / هذه الآية بسبب عدم الوقوف عند حقيقة العبارة فلم تُفهم حقيقة مدلولها. وذلك أن قوله: **فإذا أصاب به**، غيرُ قوله لو قال: فإذا أنزله على من يشاء.[2] فغيّر العبارة وعبر بالإصابة في الأولى وبالإنزال[3] في الثانية. فمن جعل الإصابة والإنزال واحدا أشكل عليه تكرار لفظ القَبْلِيَّتَيْن.[4] ومن فهم ما قدمناه من أن الإصابة في حين هو آخر الإبلاس وأول الاستبشار علم الفرق بين الماضي وهو الإبلاس والمستقبلِ[5] وهو الاستبشار وإن كان الحين واحدا وهو حين الإصابة. فإن قوله: **فإذا أصاب**، يدل على أن الإصابة وَقعت ولا بد. فقوله: **من قبل أن ينزل**، يريد به كمال الإنزال وتمامه لا أولَه فقط. فالإنزال في مدة لها عرضٌ وفي أولها كان الاستبشار. وأما قوله: **من قبله**، فهو الزمن الماضي وفيه كان الإبلاس. فافهم أن الحين وهو حين الإصابة له قَبْلُ فيه كان الإبلاس وبَعْدُ هو الذي فيه كمالُ الإنزال. وهذا المسمى بعدُ ليس فيه إبلاس ولا استبشار بل الاستبشار كان في أوله لا غير. فسمَّى أوله إصابة وباقيَه إنزالا، فتأنَّ فقد كررنا ذلك ليتضح.

فإن قيل: إن "مِن" تُستعمل لابتداء الغاية، فما الغاية وما ابتداؤها والمدلول[6] عليه بلفظة "مِن" في قوله: **من قبل أن ينزل**، وفي قوله: **من قبله**؟ فالجواب أن الابتداء في قوله: **من قبل أن ينزل**، هو من حين الإصابة والغايةُ كمال الإنزال وتمامه،

---

[1] سورة النحل، ١٦/٥٤.
[2] ر + من.
[3] ك – وبالإنزال، صح هـ.
[4] ك: القبيلتين.
[5] ش: وهو المستقبل.
[6] ر: المدلول. وفي هامش ك: وما المدلول.

والابتداءَ في قوله: **من قبله**، هو قبل الإصابة بِطَرْفةٍ مثلا.[١] والغاية أول المدة التي كانت[٢] في جملتها الإبلاسُ. فأول مدة الإبلاس غاية وآخرها ابتداء هو موضع "مِن"، وجملتها هو[٣] المشار إليه بلفظة "قبل"، فتأنَّ وافقه.[٤] فهذه صورة يصح أن يُفهَم من هذا الكلام أن قوله: **من قبل أن ينزل عليهم**، إشارة إلى الودق، وقولَه: **من قبله**، إشارةٌ إلى الاستبشار. فتقدير الكلام: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم الودق كلُّه من قبل الاستبشار.

فإن قيل: إذا كان الإبلاس قبل الودق فما فائدة التكرار بقوله: **قبل**، الاستبشار وهو معلوم بقوله أولا: **فإذا أصاب به**، ثم قال: **إذا هم يستبشرون**؟ فالجواب أنه[٥] لو قال: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم لمبلسين، لجاز أن يكون الإبلاس الذي من قبل الإنزال[٦] مصحوبا لهم إلى تمام الإنزال وكمالِ مدته، ثم يزول. فأكد في الآية الثانية ما قرَّر في الأولى إيضاحا ونفيا لهذا الجائز وإعلاما أن الاستبشار لم يقع بالإنزال كله بل ببعضه وهو الإصابة بأوله، وأن زوال الإبلاس لم يكن بالإنزال كله بل بما هو قبل الاستبشار لا غير. فلمّا كان الاستبشار من قبل إنزال الودق عبر عن الودق بقوله: **من قبل أن ينزل**، ولما كان الإبلاس من قبل الاستبشار عبر عن الاستبشار بقوله: **من قبله**،[٧] فلزم أن يقول ما معناه: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من الودق جملتُه من قبل الاستبشار لمبلسين.

وأقول: إن أولى ما فُهم من لفظ الآية هو أن قوله: **من قبل أن ينزل**،[٨] يعود على الودق، و**من قبله**، يعود على السحاب المذكور في الآية المتقدمة. وإيضاحه أنه تعالى لمّا بسط السحاب ذهب الإبلاس لتعلق الرجاء ولم يحصل الاستبشار إلا حين الإصابة بالودق، ومن[٩] أول مدة الإبلاس إلى حين الإصابة بالودق هو قبل الاستبشار. فلو قال: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم لمبلسين لكان الإبلاس بعد بسط السحاب،

---

١ ر - والغايةُ كمال الإنزال وتمامه والابتداء في قوله من قبله هو قبل الإصابة بطرفة مثلا، صح هـ.

٢ ر: كان.

٣ ك - هو، صح هـ.

٤ ش ك: وتفقه.

٥ ر: أن.

٦ ش: الإبلاس.

٧ ش - من قبل أن ينزل ولما كان الإبلاس من قبل الاستبشار عبر عن الاستبشار بقوله من قبله؛ ك - من قبل أن ينزل ولما كان الإبلاس من قبل الاستبشار عبر عن الاستبشار بقوله من قبله، صح هـ.

٨ ك - عليهم من الودق جملته من قبل الاستبشار لمبلسين وأقول إن أولى ما فهم من لفظ الآية هو أن قوله من قبل أن ينزل، صح هـ.

٩ ر: من.

وليس كذلك. ولو قال: وإن كانوا من قبل[1] أن ينزل عليهم[2] لمبلسين لتَبادر إلى الفهم أن القبلية أراد بها الودقَ دون السحاب. ولمّا كانت لفظة "قبل"[3] تدل على القريب والبعيد المتقدم على الإنزال بيّن أن المراد / هو الزمن البعيد، وهو الذي قبل السحاب [٣٣٢ظ] لا قبل الودق الذي هو بعد السحاب مقارن للاستبشار. فلزم أن يذكر القَبْلِيّتين منسوبة إلى مذكورين متقدمَين وهما السحاب الذي به يزول الإبلاس والودق الذي به يكون الاستبشارُ. وذلك ليحكي صورة الودق[4] في الوجود.[5] ولا معنى لِلَفْظ الآية أشد مطابقة من هذا، لكنه في غاية[6] الإيجاز مع الإفصاح بالمراد. فانظر ما أحسن هذا. ومما قرئ في بعض الشواذ اجتهادا كما يعتقد بعضهم في القراء أنه قال: **وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله**، بكسر القاف وفتح الباء، أي لمبلسين من قِبَل الله. وأخّر "لمبلسين" للوِزان، وهذا أَولى عقلا وأسهل متناوَلا وأليق بالمكتوب اجتهادا وأجدرُ بمطابقة الواقع وجودا، لولا أنّ التلاوة تخالفه وصحةَ النقل تُحرّمه.

﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

فانظر إلىٰ ءاثر رحمة الله، أي ظاهرا في الوجود وباطنا في القلوب. **كيف يحي الأرض بعد موتها**. ولا شك أن هذا المثل المضروب هو للقرآن الآن ولِما أنزله الله على أنبيائه لعباده، ولهذا قدم قبله [قوله:] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا.[7] ثم ضرب المثل، ثم قال بعد تمام المثل وذكرِ الموت للأرض وإحياءِ الموتى بالبعث: فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ،[8] بالفاء، والفاء في قوله: فَإِنَّكَ، منسوقة على الفاء في قوله: **فانظر**. وقوله: **إن ذٰلك**، أي ذلك الفاعل لهذا كله وهو الله تعالى، **لمحيي الموتىٰ وهو علىٰ كل شيء قدير**.

---

[1] ر ك: من قبله.

[2] ر ك - أن ينزل عليهم.

[3] ك - قبل، صح هـ.

[4] ش ك: الواقع.

[5] ر - وأقول أن أولى ما فهم من لفظ الآية هو أن قوله من قبل أن ينزل يعود على الودق، من قبله يعود على السحاب المذكور في الآية المتقدمة وإيضاحه... فلزم أن يذكر القبليتين منسوبة إلى مذكورين متقدمين وهما السحاب الذي به يزول الإبلاس والودق الذي به يكون الاستبشار وذلك ليحكي صورة الودق في الوجود، صح هـ.

[6] ر - في.

[7] الآية ٤٧ من هذه السورة.

[8] الآية ٥٢ من هذه السورة.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ۝٥١﴾

ولما أَطْلَع الزرع الذي جعله لنا علامة ودليلا على البعث قال: **ولئن أرسلنا ريحا**، أي بعد ذلك الإحياء وإنبات الزرع بالودق. **فرأوه**، أي رأوا الزرع، **مصفرا لظلوا من بعده**؛ قيل: بعد ذلك الذي رأوه من الآيات المذكورة، وقيل: بعد إصفرار الزرع، فتكون الهاء في "بعده" عائدة على الزرع كهاء "رأوه"، وهذا ممنوع، لأن قوله: **من بعده**، لا فائدة فيها. والأولى أنها عائدة الى الاستبشار المتقدم، فالإبلاس كان قبله والكفرُ كان من بعده، لأن الكلام عن قوم بأعيانهم، **يكفرون**.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٢﴾

ثم خاطب رسوله صلى الله عليه وسلم تسلية له وإعلاما أن المعاقَبين بالضلال قد عادوا بمنزلة الأموات والصُمّ والعُمْي: فإنا عاقبناهم على تكذيبهم بأن أجبرناهم عليه، وأنت فلا تَقدر أن تُجبرهم بعد ذلك على الإيمان كما لا تقدر أن تُسمع الموتى: **فإنك لا تسمع الموتىٰ ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين**.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٥٣﴾

وما أنت بهٰد العمى، أي إذا كان عماهم عقابا،[1] **عن ضلٰلتهم**.[2] ولهذا لم يقل: "من"، بل: **عن**. **إن تسمع إلا من يؤمن بـٔايٰتنا**، أي من لم يكن معاقَبا بالضلال فهو يُمكنه الإيمان. **فهم مسلمون**.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ۝٥٤﴾

ثم عطف اللفظ على مثله بقوله: ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ،[3] فقال:[4] **الله الذى خلقكم من ضعف**، أي عند الولادة، **ثم جعل من بعد ضعف قوة**، متصلةً متزائدةً إلى حد وهو آخر الشباب، **ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة**، ولم يقل: وشيبا[5] ليعرّفَنا أنه إذا حصلت

---

١ ش - أي إذا كان عماهم عقابا.

٢ ش + أي إذا كان عماهم عقابا.

٣ الآية ٤٨ من هذه السورة.

٤ ك - يرسل الريح فقال، صح هـ.

٥ ر،ش: شيبا.

ولو شيبة واحدة في شَعرة[1] فقد بدأ الضعف المؤدي إلى الهرم، أي الذي فعل هذا، **يخلق ما يشاء وهو العليم القدير**.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا، في القبور والدنيا، **غير ساعة**، من ساعات الدنيا. ولا يقال: لو كان ذلك يتضمن اللبث فوق الأرض أيضا لبطل الاحتجاج عليهم، بقوله: أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم.[2] فالمراد أن الماضي كلّه هو بمنزلةِ ساعة، وهذا مما تجده الآن، ودليله قوله في سورة يونس: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ،[3] ومثله قوله في سورة الأحقاف: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ.[4] فافهم قوله: "كَأَنْ" / و"كأنهم"، وابنِ على هذا جميعَ ما هو من بابه. وقوله: [٣٣٣و]
كذٰلك كانوا يؤفكون، أي يكذّبون في الدنيا من أوليائهم بمعنى كان يقال لهم: **الإفك**، كقوله تعالى: وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ.[5] فإذا قامت الساعة علموا أنهم كانوا يؤفكون من أوليائهم. فهم لمّا غلب على ظنهم أنهم ما لبثوا غير ساعة أقسموا بالله معتقدين ذلك جازمين به فقال الله تعالى ما معناه: إنهم كَذَبوا في قولهم: **ما لبثوا غير ساعة**، كما كذب بهم أولياؤهم في قولهم: لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ وأمثالِه.[6]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

وقال الذين أوتوا العلم والإيمٰن، لا يكونان إلا معا، فافهم، إذ من آمن فقد علم ومَن علم آمن بلا شك، فإن لم يصدقه عمله كان مؤمنا فاسقا. **لقد لبثتم فى كتٰب الله إلىٰ يوم البعث**، أي فيما كتب الله لكم أن تَلبثوا فيه، فهو وإن كان لبثا في الدنيا والقبر لكنه في كتاب الله الأزلِ. **فهٰذا يوم البعث**، الذي كنتم تؤفَكون فيه[7] وتكذِّبون به

---

[1] ر: في شعره.

[2] ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (سورة فاطر، ٣٧/٣٥).

[3] سورة يونس، ٤٥/١٠.

[4] سورة الأحقاف، ٣٥/٤٦.

[5] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ (سورة سبأ، ٣/٣٤).

[6] انظر أيضا: سورة الكهف، ٣٦/١٨؛ وسورة فصلت، ٥٠/٤١؛ وسورة الشورى، ١٨/٤٢؛ وسورة الجاثية، ٣٢/٤٥.

[7] ر – فيه.

فليس كما زعمتم. **ولٰكنكم كنتم لا تعلمون**، أي غير علماء، إذ من علم آمن بلا شك. وهذا العلم يريد به الضروري وهو ما يحصل به الإيمانُ لا غير. فلمّا كان هذا العلم إليهم كان عائد جهلهم به عليهم. وقد بيّنّا مثل ذلك في آخر [سورة] المؤمنون.[1]

واعلم أنه قد بان لكل عاقل أن كثير الدنيا وقليلها بمنزلة واحدة بعد انقضائه، إذ بعد الانقضاء كأنه إنما كان ساعةً، وهذا مما نجده الآن في الدنيا. إذا نظرنا إلى ما مضيِ من العمر فكأنه ساعة واحدة لا غيرُ، بل هو والمنام والخيال بمنزلة واحدة. ومن أعجب ما يتأمله المفكرُ أن الزمان هو ثلاثة أقسام: فالماضي معدوم، والمستقبل معدوم ما لم يوجد، والحاضر لا يدرَك، إذ أول المستقبل هو آخر الماضي، فالحاضر كالخط الفاصل بين الشمس والظل، وههنا حيرة العقول. ولهذا لا يَعرِف الإنسانُ نفسَه لأنه سيّار. فلو وقف لعرف، لكنه لا سبيل إلى وقوفه وهو سيار؛ فليس له سوى أن[2] يتصور الماضي ويتمثل المستقبل. ولهذا يخاطب نفسَه.

﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ۝٥٧﴾

ولمّا كان القسم منهم أنهم ما لبثوا غير ساعة مما يقيم عذرَهم وعرّفَنا الله أنهم في ذلك اليوم محجوجون من العلماء بما يبطل العذرَ قال الله تعالى بالفاء: **فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون**، من العتاب، لأن "يستعتبون ويُعْتَبون" كما تقول: يُمْلَكون[3] ويُستملكون، والسين[4] في استُفعل للطلب.

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ۝٥٨﴾

ولقد ضربنا للناس فى هٰذا القرءان من كل مثل، يحتاجون في التفهيم الضروري إلى ضربه.[5] **ولئن جئتهم بئاية**، منه، **ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون**.

﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٩﴾

---

[1] جميع النسخ: المؤمنين.
[2] ر ك - أن.
[3] ش: تملكون.
[4] جميع النسخ: والتاء.
[5] ش ك - إلى ضربه.

كذٰلك يطبع الله علىٰ قلوب الذين لا يعلمون، عقابا لهم على كفرهم وتكذيبهم، كما طَبع على قلوب المتكبرين من المذكورين وأمثالهم.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

فاصبر إن وعد الله حق، لك بالنصر والتمكين وغير ذلك مما وَعد به المؤمنين ومما هو وعيدُ الكفار أيضا. **ولا يستخفنك الذين لا يوقنون**، بصحة وعدِنا.

سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣﴾

الٓمٓ. تلك ءايٰت الكتٰب الحكيم، المحكم، كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ،[1] **هدى ورحمة للمحسنين.**

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦﴾

الذين يقيمون الصلوٰة ويؤتون الزكوٰة وهم بالآخرة هم، أي لم يكونوا مُجبَرين منا على ذلك، بل، **هم يوقنون. أولٰئك علىٰ هدى من ربهم وأولٰئك هم المفلحون.**

لمّا قدّم في البقرة أكثر هذه الكلمات وذكر فيها "ذٰلِكَ" وهنا "تلك"، وفهّمنا أن الإخبار هناك عن "الكتاب" وهنا عن "آياته"، وذكر هناك "المُتَّقِين"، وههنا ذكر "المحسنين"، وزاد ههنا قوله: "ورحمة" وزاد هناك قوله: "يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ"[2] علمنا من هذه الجملة أن هؤلاء هم أولئك. ولكن ذكر "هم" ههنا لمعنيين. أحدهما لزيادة الوصف لهم بالإحسان الذي صدر عنهم، ولا يكون ذلك إلا بعد التقوى لقوله: ثُمَّ ٱتَّقَواْ / وَّأَحۡسَنُواْ،[3] كما بيّناه في موضعه. والآخر أن الوصف ههنا للكتاب الذي يؤمن [٣٣٣ظ] به القومُ الموصوفون بكيت وكيت، والوصف هناك للقوم الموصوفين بكيت وكيت الذين يؤمنون بذلك الكتاب. ولهذا وصفهم هناك بقوله: وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ، فالوصف لهم، وجاء ذكر "الكتاب" لازما عن ذكرهم، والوصف هنا للكتاب. لهذا قال: **الحكيم**، وجاء ذكرهم لازما عن ذكر الكتاب. ولهذا قال ههنا:

---

[1] ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (سورة هود، ١/١١).

[2] ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ. وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ (سورة البقرة، ١/٢-٤).

[3] ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْ﴾ (سورة المائدة، ٥/٩٣).

هُدًى وَرَحْمَةً،[1] لأن الوصف للكتاب، وجعل في مقابلته لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ، ووصفه بالإضلال والعذاب فقال:[2] **ومن الناس من يشترى**، أي بهذا الكتاب الذي هو هدى ورحمة، **لهو الحديث**؛ كلُّ ما يُلهي فيُضل حرامٌ كان ما كان. **ليضل**، اللام[3] بفتح الياء لام العاقبة وبضمها[4] لام كي، **عن سبيل الله بغير علم**، بل بالهوى، كقوله: بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ.[5] فإن الذي ضلالتُه عن علم تكون له حجةً على اعتقاده، وأما هذا فلا حجة له. **ويتخذها**، فتحُ الذال يكون للعطف على لام كي في "ليضل"، وضمُّها يعود للانفصال، **هزوا أولئك لهم عذاب مهين**.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾

وإذا تتلىٰ عليه ءايٰتنا ولى مستكبرا، أي ولّى عنها مستكبرا على التالي وعلى الله عز وجل، **كأن لم يسمعها**، أي حاله بعد سماعها[6] كحاله قبله. **كأن فى أذنيه وقرا**، ثِقَل الصَمَم. **فبشره بعذاب أليم**.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾

ثم ذكر الأوائل المذكورين في أول السورة فقال: **إن الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت لهم جنّٰت النعيم خٰلدين فيها وعد الله**، نصب كما في الروم،[7] **حقا وهو العزيز الحكيم**.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠﴾

خلق السمٰوٰت بغير عمد، كما، **ترونها وألقى فى الأرض روٰسى**، خشية، **أن تميد بكم**. ولمّا كان الخطاب للكفار هنا وقد قدّم ذكرَ المؤمنين بقوله: لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ،[8]

---

١ الآية ٣ من هذه السروة.

٢ ر – فقال.

٣ ش – اللام.

٤ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، والباقون بضمها (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٢٥٠).

٥ سورة الروم، ٢٩/٣٠.

٦ ك: سمعها. وفي هامش ك: سماعها.

٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الروم، ٦/٣٠).

٨ الآية ٨ من هذه السورة.

قال: بِكم،[١] إشارة إلى أن الرواسي إنما جعلها لكيلا تميد الأرض بالمؤمنين، فهي من أجل المؤمنين لا من أجل الكفار. **وبث فيها من كل دابة، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم**، كرّمه الله بما خصه من كونه خَلَقه على أحسن الخلق بحسب ما أريد به، كقوله: ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ،[٢] كما نبين.

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

هٰذا خلق الله، يريد به كل مخلوق في السماوات والأرض. **فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظٰلمون فى ضلٰل مبين**.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

ولما قال: هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ،[٣] وأشار إلى الظاهر تعظيما لقدرته ذكر بعده الأمر الباطن وأنه سبحانه هو الذي يؤتيه لنعلم أن له إطلاقَ القدرة الذي يلزم عنه تفنُّنُ المقدور عليه وبالعكس[٤] فقال: **ولقد ءاتينا لقمٰن الحكمة**، الحكيم هو المحكِم للشيء، لكنه لما لم يصحَّ حصول الفعل المحكم إلا بالعلم صارت الحكمة متناولة للعلم والعمل معا. فالحكمة منتهى العلم والعمل مبتدأ الحكمة، لا يتم أحدهما إلا بالآخر. وتقدير الكلام ههنا: وأمرناه، **أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه**، كقوله: لَهَا مَا كَسَبَتْ.[٥] **ومن كفر فإن الله غنى حميد**.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾

ووصينا الإنسٰن، معطوف على كلام الله للقمان، فهو من الحكمة المعبَّر عنها بقوله: وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ، وقلنا له: أَنِ ٱشْكُرْ [لِلَّهِ]،[٦] وقلنا له:[٧] **ولقد وصينا**، فاقتصر على الواو

---

[١] جميع النسخ: بهم.
[٢] سورة السجدة، ٧/٣٢.
[٣] من الآية السابقة.
[٤] ر: بالعكس.
[٥] سورة البقرة، ١٣٤/٢، ٢٨٦.
[٦] الآية ١٢ من هذه السورة.
[٧] ش - وقلنا له.

وجعلها عبارة عن "ولقد". وذلك بعطف الثاني على الأول. **بوٰلديه حملته أمه.** ذكر بعض ما لأجله وصى الإنسانَ وذكر الأم لفرط الشَّفَقَة منها ولشدة التعب به من حين الحمل؛ **وهنا علىٰ وهن**، الوهن الضعف، والمراد أنها تتنقل دائما من حينِ[1] الحمل مِن وَهْنٍ إلى وهن، وتزيد، **وهنا علىٰ وهن**، لأن الحمل يُوهن قواها، وجوهرُ أغذيتها يصل إلى جنينها، ثم تقاسي عند وضعه، ثم يعود أفضل دمها لَبَنًا له. وكل ذلك مما يوجب لها وهنا على وهن. **وفصاله**، أي وحدّه دون حمله، **فى عامين**، وقال في الاحتمال: إنه يكون دون العامين ولا يناقض قولَه: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾.[2] لأن أقل[3] الحمل ستة
[٣٣٤و] أشهر. / **أن اشكر لى ولوٰلديك**، قرنهما به في الشكر تعظيما، والمراد أن لا تنظر[4] إلى ما يتعلق بهما في الدين، **إلىّ المصير**، فأجازي كلًّا بعمله.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

وبيّنه بقوله بعده: **وإن جٰهداك**، من الجهاد، **علىٰ أن تشرك بى ما ليس لك به علم**، تقدم الكلام في ذلك،[5] **فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا**، أي بمعروف والحالة هذه منهم. **واتبع سبيل من أناب إلىّ، ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون**، أي لم أكن غائبا عن عملكم. فلهذا يكون الجزاء على علمٍ بما قل وجلّ من العمل.

﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾

ولهذا بعده: **يٰبنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السمٰوٰت أو فى الأرض يأت بها الله**، المثقال من الثِّقل. والمراد به ما يوزن به فهو قُبالة ما يوزن. فأشار إلى أن الحسنة والسيئة من أعمال العباد وإن كان وزنَ حبّة من خردل

---

[1] ك - حين، صح هـ.

[2] ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ (سورة الأحقاف، ٤٦/١٥).

[3] ك - أقل، صح هـ.

[4] ك - لا تنظر، صح هـ.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٨).

فإن الله يأت بها ولو كانت في صخرة، أو في السماوات، أو في الأرض. والمراد التمثيل لعظم القدرة مضافا إلى أن الممثول أعظم من المثل ههنا. **إن الله لطيف خبير،** باستخراج تلك الذرة ومستقرّها.

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾

أي وإذ قد علمت ذلك، **يٰبنى أقم الصلوٰة وأمر،** نفسَك أولا، **بالمعروف وانه عن المنكر،** لمن يجب عليك له ذلك، كالولد والزوجة ويَنضاف إلى ذلك بحسب التمكين. **واصبر علىٰ ما أصابك.** "ما" بمعنى مهما، وأضاف الصبر بالعطف على الأمر إعلاما بأذى الناس لمن يأمرهم وينهاهم، فهو مع الإطلاق مخصَّص بما قلناه. **إن ذٰلك من عزم الأمور،** تقدم.[١]

﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾

ولا تصعر،[٢] أي لا[٣] تميّل،[٤] **خدك للناس،**[٥] أي في السؤال، لأن مِن عادة السائل أن يميّل أحدَ الخدين إلى أسفل، إذ يميل رأسه إلى ناحية كتفه تواضعا وانخفاضا عند السؤال. فنهى الله المؤمن أن يُظهر الذل إلا لله. ولهذا قال: **للناس،** ولم يقل:[٦] عن الناس. ثم ذكر مع الشيء ضده، أي إن كنت فقيرا فلا تَذِلّ وإن كنت غنيا، **ولا تمش فى الأرض مرحا.** ثم قدم قبل ذلك ما يجلب الرزق وهو قوله: أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ، وَٱصۡبِرۡ.[٧] ثم قال: **ولا تصعر... ولا تمش فى الأرض مرحا، إن الله لا يحب كل مختال،** مُعْجَب،[٨] **فخور.**

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾

واقصد فى مشيك، من القصد وهو العدل، ومنه القصد في النفقة، وهو بين الإسراف

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ (سورة آل عمران، ١٨٦/٣).

٢ ر ش + خدك للناس.

٣ ر - لا.

٤ ش - أي لا تميل.

٥ ر - خدك للناس؛ ش + أي لا تميل.

٦ ر ك: ولهذا لم يقل.

٧ من الآية السابقة.

٨ ش - معجب.

والتقتير، وكذلك يجب أن يكون في المشي. **واغضض من صوتك**، "من" لتبيين الجنس، والمراد الأدب والسكينة. **إن أنكر الأصوٰت لصوت الحمير**.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾

ولمّا فرغ النهي قال ما نَسَقَه على قوله: وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ.[1] فإن الله هو الذي يسخرهم لك إن شاء. **ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السمٰوٰت**، كالشمس والقمر والنجوم مسخراتٍ بأمره،[2] **وما فى الأرض**، من الحيوان والنبات والمَعْدِنِ وغير ذلك. **وأسبغ عليكم نعمه ظٰهرة وباطنة**، كالعقل والإيمان، أي فلا تسألوا غيرَه ولا تَذِلُّوا إلّا له، أي هذه النِّعَم مشهودة بالبصر والبصيرة، إذ لا بد للنعمة من مُنعِم. **ومن الناس من يجٰدل فى الله**، أي في إثباته وتوحيده، **بغير علم**، من العلوم اللدنية أو المكتسبة، **ولا هدى**، يَهدي به أو يُهدى به، **ولا كتٰب منير**، أي من الكتب المنزلة، لأنها نور تنير للسالك[3] فيهدي بها ويهدَى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه ءاباءنا، ثم قال مُوبِّخا منكِرا على الأبناء[4] بما ذكره عن الآباء: **أولو كان الشيطٰن يدعوهم**، يدعو الآباء، **إلى عذاب السعير**، أي أيفعلون ذلك؟

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾

ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقىٰ، التي هي وثيقة لا يُخشى انفصامُها، والوثيق امتناع سببِ الانتقاض.[5] **وإلى الله عٰقبة الأمور**.

---

[1] الآية ١٨ من هذه السورة.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ (سورة الأعراف، ٥٤/٧؛ وسورة النحل، ١٢/١٦).

[3] ر ك: للسائل.

[4] ش ك: على الأنبياء. وفي هامش ك: الأبناء.

[5] ر: الانتفاض.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾

ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا، كما تقول: سوف أعرِّفك ماذا عملتَ، أي جزاءه. **إن الله عليم بذات**، بصاحبة، / **الصدور**، النفس، ومحل وسوستها الصدر، لأنه مكان القلب. [٣٣٤ظ]

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

نمتعهم قليلا ثم نضطرهم، بالضرورة كَرها، **إلىٰ عذاب غليظ**.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ولئن سألتهم من خلق السمٰوٰت والأرض ليقولن الله قل الحمد لله، أي يجب أن يكون الحمد للفاعل، فلم تحمدون غير الفاعل، والله أولى وأحق بالحمد. **بل أكثرهم لا يعلمون**، بل تقول ألسنتهم ما جرت به ولا تعتقده[1] معارفهم.

﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

لله ما فى السمٰوٰت والأرض. إن الله هو الغنىّ الحميد، أي غني عن حمدهم، حميد[2] في ذاته.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمٰت الله، والمعنى أن الشجرة يعمل منها أقلام، ولهذا لم يقل: من شجرةٍ قلمٌ، وذكر السبعة مبالغةً للتكثير لا للتحديد. **إن الله عزيز حكيم**.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

---

[1] ش ك: ولا يعتقده.

[2] ر - حميد.

ولما ذكر ما يوجب تعظيمه في الأنفس بقدرته على الأقوال أعقبه بما يوجب تعظيمَه بقدرته[1] على الأفعال فقال: **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس وٰحدة إن الله سميع بصير**، أي سميع لِما تُسرّونه، بصير بما تَفعلونه فيجازيكم به. فذكر السمع والبصر منه بعد ذكر البعث متواعدا لهم بالجزاء بعد البعث بما سمعه مما أسروه وأبصره مما أظهروه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

ثم أكّد التعريف لعظمة القدرة فقال: **ألم تر أن الله يولج اليل فى النهار ويولج النهار فى اليل**، بما يزيد من أحدهما[2] في الآخر. **وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلىٰ أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير**.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

ذٰلك: دليل واضح وبرهان قاطع يَشهد، **بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه البٰطل وأن الله هو العلى الكبير**.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾

ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله، أي بما فيها من النِّعَم التي أنعم بها عليكم، **ليريكم من ءايٰته**، في البحر كما أراكم في البر. **إن فى ذٰلك**، برا وبحرا، **لآيٰت لكل صبّار**، مطلقا ومخصَّصُه الصبار على ركوب البحر،[3] **شكور**، صبرٌ على الهول وشكر على النجاة منه.[4] لأن غير الشاكر لله على[5] نِعَمِه أعمى عن رؤيتها ولو رأى لَشكر.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

---

[1] ك - على الأقوال أعقبه بما يوجب تعظيمه بقدرته، صح هـ.
[2] ك - من أحدهما، صح هـ.
[3] ك - مطلقا ومخصَّصه الصبار على ركوب البحر، صح هـ.
[4] ر - منه.
[5] ر - على، صح هـ.

والدليل على أن الصبار أراد به ما قلناه قولُه: **وإذا غشيهم موج كالظلل**، من السحاب لشدة ارتفاعها، **دعوُا الله**، لا غيره، **مخلصين له الدين**، تقديره لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ.[1] **فلما نجٰهم إلى البر فمنهم مقتصد**، أي مؤمن قائم بالعدل على قصد السبيل، وهي الاستقامة، وقُبالةُ الاقتصاد الجور، فعبر عنه بتمام الآية، وتقديره ومنهم جاحد لِما أقرّ به حين رأى آياتنا، أي رأى علاماتِ القدرة عند ركوب البحر. **وما يجحد بـٔايٰتنا إلا كل ختار**، غدّار، **كفور**.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣﴾

كل ما غرك حتى تعصي الله وتترك ما أمرك به شيطانا كان أم نفسَك أم غيرَ ذلك فهو غرور. ولهذا جمع بقوله: **الحيوٰة الدنيا**، لأنها إنما[2] خُلقت لننظر[3] بها الآخرة كالحروف التي ليس المقصود بها أن تُرى بل أن تُقرأ.[4]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾

فلمّا ذكر الحياة الدنيا وأتبعها بذكر الغرور عرّفَنا أنه تعالى أَخبرُ بمصالحنا وأعلم بالأصلح لنا حالا ومآلا، فقال: **إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأىّ أرض تموت**. لمّا تفرد سبحانه بالعلم والقدرة وصف الإنسان بالجهل والعجز، فذكر لنفسه العلم بالساعة، ثم ذكر بعدها ما دل على القدرة بإنزال الغيث. والمراد مع الإنزال / ما يترتب على الإنزال من [٣٣٥و]
سائر ما يتعلق به من إحياء الأرض وما فيها من الحيوان وغير ذلك. ثم جمع بين القدرة والعلم بقوله: **ويعلم ما فى الأرحام**. فأشار بتخصيص العلم بما هناك إلى عمل ما هناك،

[1] ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (سورة يونس، ١٠/٢٢).

[2] ك - إنما، صح هـ.

[3] ش: لتنظر.

[4] ش ك: أن تقري.

إذ قد تقدم[1] هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ.[2] وهذا العلم منه بهذا الأول من حال الإنسان أولا يُعطي العلمَ منه بما يئول إليه حالُ الإنسان آخرا ويلزم العلم بما بينهما، فيكون عالما بعلوم الإنسان وخطراته وأعماله ومتعلَّقاته بكل وجه. فأشار بهذه الكلمة إلى العلم بالكل والقدرة عليه. ثم أعقبه بذكر غاية العجز من الإنسان عما يتعلق بالرب سبحانه، وذلك بأن سلب عنه العلم بما يتعلق به من نفسه لنفسه في كسبه، فكيف يعلم كسب غيره، فكيف[3] غير ذلك، فكيف علمَ الساعة، فكيف ربَّ ذلك كله. ثم أخبر عن الإنسان بعد نفي[4] العلم[5] وإثبات العجز بقوله: **وما تدرى نفس بأىّ أرض تموت**، فنفى العلم[6] بقوله: **وما تدرى**،[7] وأثبت العجز الأكبر العام بذكر الموت. وذكر النفس ليعُمَّ الذكر والأنثى، صغيرا وكبيرا، حرا وعبدا، عالما وجاهلا، نبيّا ووليّا. ثم تفرد بالعلم الذي يتقدم على العمل ولا يتم عملٌ إلا بعلم. والقدرة على العلم علم وقدرة، فقال: **إن الله عليم خبير**. ولمّا كان قد يُفهَم من هذا الكلام أن لا استطاعة[8] للإنسان ذكر الكسب ليُعلَم أن له كسبا وقدرة على الكسب.[9] والكسب يكون في العلم والعمل، فله علم يكتسبه بما آتاه الله، وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا،[10] فبذلك القليل صح الاكتساب، وعلى الاكتساب ترتب الثواب. وقد أخبر الله أن هذه الخمسة المذكورة لا يعلمها إلا هو سبحانه. وقد قَصَر الإنسانَ على علم وعمل هو كسب لا غير. فليشتغل بكسبه وليجتهد في رضا ربه وليحذر التعرض إلى ما لا علم له به. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

١ ك - فأشار بتخصيص العلم بما هناك إلى عمل ما هناك إذ قد تقدم، صح هـ.

٢ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٦).

٣ ك - كسب غيره فكيف، صح هـ.

٤ ر + بنفي.

٥ ش + ينفي العلم.

٦ ش - وإثبات العجز بقوله وما تدري نفس بأي أرض تموت فنفى العلم.

٧ ك - نفس بأي أرض تموت فنفى العلم بوقوله وما تدري.

٨ ش: أن لاستطاعة.

٩ ر ك: على كسب.

١٠ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٨٥).

سورة السجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣﴾

أم يقولون افترىٰه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتىٰهم من نذير من قبلك. وقد قال: وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ،[1] أي وإن من أمة مهلَكة بتكذيبها النذيرَ، فلا يكون معارضا. فقد بيّن الله بالقرآن ما يُشكل من القرآن، **لعلهم يهتدون.**

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾

ولمّا كان الإنذار ههنا للمشركين قال بعده: **الله**، تقديره هو، **الذى خلق السمٰوٰت والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوىٰ على العرش**، أي لا ما يشركون به، ويكون ما بعده ملحقا به على صورة الإخبار لا الخبر، أعني خبر المبتدأ. والأولى أن تكون الجملة إلى قوله: **على العرش**، مبتدأ، خبره، **ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع**، ثم قال منذرا محذّرا:[2] **أفلا تتذكرون.**

[معنى الاستواء على العرش]

وأما قوله: **ثم استوىٰ على العرش**، فاعلم أنه تعالى ضرب الأمثال لنفسه ولغيره. ولا تكون[3] الأمثال إلا بما هو معلوم مستقَرّ في الأذهان والأفهام. والعرش يعبر به عن تعظيم أمرِ المَلِك في أنفس الناس، كقوله: وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ، فوصفها بما هو مُنبِئٌ عن عظم القدرة وإن كانت قادرة على غير ذلك، كقوله: وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ.[4] ويقال عن السلطان:

---

[1] سورة فاطر، ٢٤/٣٥.

[2] ش ك – محذرا.

[3] ر ك: ولتكون.

[4] ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ (سورة النمل، ٢٣/٢٧). | ش ك + ولها الآية.

استوى له الأمر وقعد على سرير المملكة بالبلدة الفلانية، وإن لم يدخلها؛[1] وهذا كقول اليهود: يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ[2] إشارةً إلى البخل والعجز. وظاهرٌ أنهم لم يقولوا بأنّ على يد الله غُلّا على طريق من الحقيقة. ولهذا جهّال المسلمين يُلزمونهم بذلك ظاهرا فينكرون ذلك، إذ ليس في صريح التوراة ولا في صريح أقوالهم مثل ذلك. ولم يُسمع أن طائفة منهم ادَّعَت ذلك، / ولكنه قولٌ يلزم عن قولٍ آخرَ هم قائلوه دائما. وقد بيّنّاه في [٣٣٥ظ] موضعه. والعرش والكرسي لا يكونان إلا عند عظم المُلك. فلمّا كان ملك السماوات والأرض في غاية العظمة عبر للعباد بما في العرف[3] المفهوم المعتاد. وهو كما يقال عن المقهور الخائف: ضاقت به الأرض حتى لم يبق له مكان. وكيف يُتصور الجسم بغير مكان؟ فكما يُنفَى المكانُ عن المقهور مع وجوبه له ليُعلم من صفاته صفةٌ مّا كذلك يُثبت المكانُ للقاهر تعالى مجازا مع عدمه له ليعلم من صفاته صفة ما.[4] وإذا عبّرتَ عن الأمور والأحداث النفسانية بالألفاظ الدالة على الجسمانية بضرب[5] من الاستعارة لتُفهم الغير ما أردتَه كيف يجوز لعاقل أن يَسلك في فهم ما أردته مسلكَ غافلٍ جاهل بما أردته فيحمل[6] فهمه على ظاهره المناقض لمقصودك به. فعَوّدْ نفسَك الثباتَ عند اضطراب الألفاظ في الأفهام المختلفة. فقد يقع كثيرٌ من الغلط لسوء[7] الاعتبارات لا لسوء العبارات. ولا تعوّدْ ذهنك الارتسامَ بما يدل عليه ظاهر الكلام دون ما أريد به من ضروب الأفهام. فإن ذا[8] الفطنة السليمة لا يَلِجُ في ذهنه الباطلُ حقا وإن لم يظهر له في الوقت تعليل أو يدلَّ[9] عليه دليل يوجب إثبات الحق وإبطالَ ضده. فقد علمت من هذه الجملة ما أراده سبحانه بقوله: **ثم استوىٰ على العرش**، فهذا مفهوم[10] من[11] ظاهر الكلام، والمراد به[12] ما يستقر من التعظيم بالامتثال في الأفهام، والسلام.

وأما باطن هذا الكلام ولُبُّه فهو أن تعلم أن لفظ الاستواء مَثّلَ أراد به وبالعرش بقاء الأمر الإلٰهي بعد الخلق على ما كان عليه قبل الخلق. وقد أعلمتُك من قبلُ

١ ك - لم يدخلها، صح هـ.
٢ سورة المائدة، ٥/٦٤.
٣ ر + من.
٤ ش - كذلك يثبت المكان للقاهر تعالى مجازا مع عدمه له ليعلم من صفاته صفة ما.
٥ ش ك: يضرب.
٦ ر ش: فيحمد. وفي هامش ك : فيحمد.
٧ ك - الغلط لسوء، صح هـ.
٨ ر - ذا.
٩ ر ك: أو يدله.
١٠ ك - من هذه الجملة ما أراده سبحانه بقوله ثم استوى على العرش فهذا مفهوم، صح هـ.
١١ ش - من.
١٢ ر - به، صح هـ.

أن المحدَث ظهر عن أمره لا عنه، وأمره قديم، وظهور أمره محدَث. ولا يلزم من حدث الظهور حدثُ الأمر لئلا يعود الأمر قديما محدَثا، والأمر صفة للقديم فيعود الحدثُ صفةً للقديم،[١] وهذا خلف. فظهور الأمر لم يكن إلا للإظهار،[٢] فإذ لا إظهار لا ظهورَ، كما إذ[٣] لا ظهور لا إظهار. فكان الأمر من قبل مستويا كما لم يزل فظهر للإظهار[٤] ثم عاد من بعدُ كما كان من قبلُ. وكذلك ينشئ الله النشأة الآخرة.[٥]

وها أنا أعيد لك معنى[٦] هذا الكلام ليستقر المراد به في الأفهام فأقول ما تشهد به العقول: إن القديم الغني المطلق إذا أبدأ ما لم يكن فخلق لا يلزم أنه استوى على مخلوق فيكون الاستواء موقوفا على الخلق. فإن قيل: بل الاستواء لم يزل؟ قلنا: لا جائز أن يكون الاستواء إلا على عرش، ولا جائزٌ أن يكون مع الله غيرُه. فلزم أن يكون المراد بهذه العبارة الإعلام بما قدمناه من بقاء الأمر بعد الخلق كما كان عليه قبله ضربا بالمثل[٧] من أجل التفهيم يَستقرّ به في الأذهان أبلغُ التعظيم، يفقهه المتأملُ بالمثل العلي[٨] ويَلحظه المحقِّقُ على الوجه الجلي. وبرهان ذلك أنه لا يصح أن يكون المبدِع مبدعا بالفعل إلا بعد أن لم يكن مبدعا بالفعل. فإذ لم يكن مبدِعا قط منذ أزل لا أولَ له كان مستويا. ولفظ الاستواء أبلغ علامة للتعريف بأزلي غني بذاته قادرٍ على الإطلاق، وله الإطلاق عن التقيد بالإطلاق أو بقيد مّا. فلمّا أبدع كان ما لم يَكُنْ. فلمّا تم ما لم يكن «وجفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»[٩] بقي من لم يزل كما كان عليه في الأزل، فعبَّر عما لم يكن بالإبداع وعما لم يزل بالاستواء. وأعني "بما لم يكن"، أي ما لم يكن منه بالفعل، وأعني "بما لم يزل"، أي ما لم يزل عليه قبل الإبداع

---

١ ش: للقدم.

٢ ش ك: لإظهار. وفي هامش ك: للإظهار.

٣ ك - إذ، صح هـ.

٤ ش: الإظهار.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٢٠).

٦ ش: لك يعني.

٧ ر: لمثل.

٨ ر: الأعلى.

٩ عن ابن عباس قال: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: «يا غلام ألا أعلّمك شيئا ينفعك الله به؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «احفظ الله يحفظك، احفظِ الله تجده أمامك. تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فسل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، فقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة. فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا على ذلك، ولو جهد الخلائق أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك» (المعجم الكبير للطبراني، ٢٢٣/١١؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٣٥٤/١٢).

وهو أن لا إبداعَ. فالاستواء المشار إليه بقوله: **ثم استوى**، لا جائز أن يكون على ما لم يكن بل على ما لم يزل، فهو في ضرب المثل على الحال الأول، وليس إلّا. فافقه ما أثبتُه ولا تشتغل بمعارضة بعض / ما ذكرته عن تحقق ما أردتُه، فلكل معارضةٍ جوابٌ. [٣٣٦و]
وإنما البيان على العالِم[١] المسئول في زمنه، والله الهادي بَمنّه.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾

ولمّا ذكر الستة أيامٍ أولا ذكر اليوم الذي هو من جنسها ولا آخر له، فقال: **يدبر الأمر**، أي بواسطة المدبِّرات أمرا وغيرِها. والمعنى يدبر الأمر أي كله، فلا يكون ذلك إلا أمرَ الدنيا كلَّه[٢] من أولها إلى آخرها. ولهذا قال: **من السماء إلى الأرض**، أي مهما دامتا، لأنه لازمٌ دوامهما[٣] ما لزم التدبير من هذه إلى هذه. وبيان ذلك في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾،[٤] أي الشيءُ، ويريد سائر الأشياء، وذكرَها بالإفراد لأن هذا الاسم يدل على الجمع والفُراد. وقوله: **ثم يعرج إليه**، أي ذلك الأمر المدبَّر وهو على ما قررناه إشارة إلى زوال السماوات والأرض وعدمِ الدنيا وموجوداتها. ويعرج، أي يرجع ويرتفع ولكن عَرَجٌ إلى فوقٍ ورجعٌ إلى أسفلَ وغيرِه، وهذا كما يقال: ارتفع الأمر إلى الأمير. فهو سبحانه يدبر الأمر طولَ عمر الدنيا إلى يوم القيامة. ثم يذهب الأمر المدبَّر بأسره[٥] ويرجع إليه **في يوم كان مقداره**، لو تعدونه، **ألف سنة**، هذا للتخفيف لا للتحديد، **مما تعدون**. وهذا تعظيم للأمر المشار إليه في أنفس الناس بمثال يفهمون[٦] به قدرَ إمكانهم من حيث التصورُ. فإن زمانا[٧] يومُه هذا المقدارُ فكيف شهره وكيف عامه، والمراد ما لا آخر له. والكلام مبني على أول السورة وهو قوله: لِتُنذِرَ.[٨] وهذا كما تُعبّر ببعض[٩] العبارات المعلومة لتُفهم غيرَك بمثلٍ معلومٍ عنده فتقول لمن لم[١٠] يرَ البحر: لو رأيته لرأيت[١١] كلَّ موجةٍ ألف قنطار بل

---

[١] ك – العالم، صح هـ.
[٢] ك – إلا أمر الدنيا كله، صح هـ.
[٣] ر: دمواها.
[٤] سورة هود، ١١/١٢٣.
[٥] ر: بأمره.
[٦] ر: يفهمونه.
[٧] ك: فإن زمان. وفي هامش ك: زمانا.
[٨] الآية ٣ من هذه السورة.
[٩] ك: بعض. وفي هامش ك: ببعض.
[١٠] ك – لم، صح هـ.
[١١] ك – لرأيت، صح هـ.

خمسين ألف قنطار. فتقول ذلك تعظيما لما أردت تعظيمه في الأذهان، لا لأن البحر يوزن بالقَبّان.[١] وإذا كانت الإشارة إلى الدوام فلا فرق بين أن يعبر[٢] بالألف أو بخمسين ألف،[٣] لكن المبالغة بالأكثر أكثر في الأذهان. ولهذا لم يأت القرآن بعبارة واحدة بل عبر عن اليوم الواحد بالعبارتين مع عظم التفاوت لئلا يَظن الظانُّ أنه أراد الحصر والتحديد الحقيقي. ولهذا قال: **مقداره**، ولم يقل: "هو". فضرب مثلا لتعظيم الزمان الذي لا نهاية له في الأذهان، كما ضرب مثلا بالعرش لتعظيم المكان في الأذهان. وقد جل عنه مكوِّنُ الأكوان.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾

ذٰلك عٰلم الغيب والشهٰدة العزيز الرحيم، الذى أحسن كل شىء خلقه، بفتح القاف وتسكين اللام[٤] بمعنى من كل شيء خلقه،[٥] أي أحسن خلْقَ الشيء فكان على أتم ما أريد به. ولا يقال: ليس في الإمكان، أعني إمكان الحق، أحسنُ من هذا الخلق، لأنه تعالى لا يُحدُّ إمكانُه ولا تتناهى قدرتُه بل يقال: ليس في إمكان العقول أن تتصور[٦] أحسنَ مما خَلق، فهي محصورة في حد إمكانها فلا تتصور[٧] ما فوقه، كما لا تتصور[٨] ما فوقها وهي هي. ولا يلزم أن يكون القادر المطلق محصورا في حدِّ ما خلق ولا يخلق[٩] ما فوقه وهو هو. فأحْسَنِيّة المرئي هي بحسب الإدراك الذي ينحصر ويتناهى. وأحسَنية المخلوق بحسب الخالق الذي لا ينحصر ولا يتناهى، فكما لا تتناهى قدرته على الخلق لا تتناهى قدرته على الأحسنية. ولهذا ذكر الترقي في الخلق، ويلزم عنه الترقي في الأحسنية. وتكون كل رتبةٍ ورتبةٍ مخلوقةً على الأحسن فيما أريد بها. فقال: **وبدأ خلق الإنسٰن من طين**. الإنسان آخر الموجودات، وفيه مجموعها، ففيه مِن أسفل كل شيء

١ ر: والقبان. | القَبَّان [هو] الذي يُوزَنُ به (تاج العروس للزبيدي، «قفن»).

٢ ر: أن يعين؛ ك - أن يعبر، صح هـ.

٣ ر ك: أو بالخمسين ألف. وفي هامش ك: بخمسين ألف.

٤ ر - وتسكين اللام، صح هـ. | قرأ نافع والكوفيون بفتح اللام، والباقون بإسكانها (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٢٥٢).

٥ جميع النسخ: خلقته.

٦ ر: أن نتصور.

٧ ش ك: فلا يتصور.

٨ ك - كما لا تتصور.

٩ ر ك: فلا يخلق. وفي هامش ك: ولا.

وهو الأرض إلى أعلى كل شيء وهو النفخ من روحه. فمن عرف نفسه فقد عرف
[٣٣٦ظ] العالَم بما فيها منه. ومن عرف العالم / فقد عرف أنه محدَث، وأنه لا بد له من محدِث لا يشبهه بوجه. وذلك هو غاية معرفة الله من جهة العبد. فأما المعرفة من جهة الرب فلا تتناهى. ومن حيث جُمع فيه قوى الموجودات صار وعاء معاني العالَم ومجمعَ حقائقه. فيمكن أن يكوّن في كل آنٍ[١] شيئا من مفردات العالم، ويَظهر في كل شعار على اختلاف أنواعه. وإنما يكوّن إنسانا إذا[٢] وضع كلَّ واحد من هذه الأشعرة موضعها فهو وسط بين أخسّ وأخصّ. فلو انفرد بالأخس لم يكن خليفةَ[٣] الله ولم يَصلَح لأن يلقاه. ولو انفرد بالأخص لم يكن عامرا للأرض. ووجود العقل فيه أولا كوجود النار في الحجر، ثم تبقى جملة الإنسان عبارةً عن العقل. فلو فرضنا إنسانا بلا عقل فهو لا إنسانٌ. وكذلك حكم كلِّ صفة فيه، كما يقال: فلان لا عين له، أو لا قلب له، أو لا[٤] لسان له إذا عُدمت المقاصدُ من هذه الجوارح وإن كانت الجوارح[٥] موجودة. فالإنسان لمّا[٦] كان إنما خلق ليَعبد الله فإذا لم يعبد فلا إنسانَ. فافقه هذا كلَّ الفقه. والحظ الترقي بقوله: **من طين**.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾

وقالوا أءذا ضللنا، أي بقينا زمانا طويلا، **فى الأرض أءنا لفى**، أي لنعود في، **خلق جديد، بل هم بلقاء ربهم كفرون**.

﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾

قل يتوفىٰكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلىٰ ربكم ترجعون، أي فيجازيكم. ولهذا بعده: **ولو ترىٰ إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا**، ما وعدتَنا به حقا،

---

١ ش + الكل آن.
٢ ر ك: إذ.
٣ ر ك: خلقة.
٤ ش ك – لا.
٥ ر: الجارحة.
٦ ك – لما، صح هـ.

وسمعنا، أي وقَبِلنا الآن ما أمرتَنا به من الإيمان بالرسل. **فارجعنا**، شرط، **نعمل**، جوابه، **صٰلحا إنا موقنون**.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٣ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾

فقال الله تعالى: **ولو شئنا**، إجبارَهم على الهدى، **لآتينا كل نفس هدٰها**، بحيث لا تقدر أن تضل. ولهذا لم يقل: لهديناها، فإنه تعالى هَدَى، كقوله: وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ،[1] الآية. فقال ههنا: **لآتينا كل نفس**، أي مما خلقنا بأسرهم، أي ولو فعلنا ذلك لذهبت فائدة التكليف والابتلاء، فذهبت فائدة الوجود، إذ لا فائدة له إلا الابتلاء، كقوله: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ.[2] ولهذا بعده ههنا خطاب للكفار الذين قالوا: فَارْجِعْنَا،[3] خاطبهم يومئذ بما أوجب منه على نفسه من الجزاء فقال: **ولٰكن حق القول مني**، وهو قوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ.[4] ولمّا كان قد تقدم الإنذار منه[5] سبحانه في الدنيا بقوله على ألسنة الرسل: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ،[6] الآية، ومثله مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ،[7] لم يكن تعذيبه لهم ظلما. لهذا قال: **حَقَّ**، أي وجب عليكم الجزاء الذي تقدم به، **القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين**، بل كانوا يعبدون الجن. فجعل العابد والمعبود والتابع والمتبوع في النار جزاءً[8] لا ابتداءً، ولهذا بعده: **فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هٰذا إنا نسينٰكم**، في النار، أي فعلنا فِعْلَ الناسي الآن جزاء على نسيانكم ما أنذرناكم به فرأيتموه الآن. **وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون**.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۝١٥﴾

---

[1] ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة فصلت، ١٧/٤١).

[2] ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (سورة الملك، ٢/٦٧).

[3] من الآية السابقة.

[4] سورة ص، ٨٥/٣٨.

[5] ك: من الإنذار.

[6] ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (سورة الزلزال، ٩٩/٧-٨).

[7] سورة النساء، ١٢٣/٤.

[8] ش - جزاء.

فلمّا فرغ من صفات المجرمين ذكر صفات المؤمنين فقال: **إنما يؤمن بآيٰتنا الذين إذا ذكروا بها**، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾.[1] ويحتمل أنه يشير إلى أول الإيمان ممن يُسلم إذا سمع كلام الله، أي إذا جاءتهم ذكراهم من آياتنا بألسنة الرسل والمؤمنين، خروا سجدا لله دون غيره لقوله: **وسبحوا بحمد ربهم**، على الإسلام كقوله:
[٣٣٧و] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾.[2] ولهذا بعده: **وهم لا يستكبرون**، عن عبادته. فوصفهم / إذا ذكِروا بصفات الملائكة وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾[3] الآية.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

ثم زاد وصفهم بقوله: **تتجافى جنوبهم عن المضاجع**. ولم يقل: تَجْفُوا، لأنه أراد التفاعل لا الفعل الواحد، فهم يميلون تَجافيا عن المضاجع إلى المساجد. **يدعون ربهم خوفا**، من ذنوبهم، **وطمعا**، في رحمته. **ومما رزقنٰهم ينفقون**، صدّقت أفعالهم أقوالَهم كما قلنا في الزكاة من أن[4] الأقوال شهدت لهم بالإيمان والأفعالَ زكّت الشهودَ.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

فلا تعلم نفس، يا مَن صدّق المرسلين هلّا يُزعجك من نومك ما لا تعلمه نفسٌ فلا يعلم إبراهيمُ الخليل[5] ولا موسى الكليم[6] ولا أحد من العالمين، **ما أخفى لهم من قرة أعين**، لأنهم أزعجوها بالبكاء ومنعوها القرار بالنوم فأقرّها برؤيته[7] التي لا تعلمها نفسٌ في الدنيا

يَحِقّ لمن أُزعِجت عينُه ... بطول البكاء وطولِ السهر.[8]
تَقَرُّ برؤياك يوم اللقاء ... وإن القرار بذلك النظر.[9]

جزاء بما كانوا يعملون.

---

١ سورة الأنفال، ٨/٢.
٢ ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ (سورة الأعراف، ٧/٤٣).
٣ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/٢٠٦).
٤ ك - أن، صح هـ.
٥ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٦٠).
٦ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٤٣).
٧ أي برؤية الله تعالى.
٨ جميع النسخ + مصرع أول.
٩ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ١٨﴾

ثم قال تعالى منبها على فائدة النظر والاستدلال بالعقول: **أفمن كان مؤمنا كمن كان فسقا لا يستوون**، في الجزاء.

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٩﴾

أما الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت فلهم جنّٰت المأوىٰ نزلا، من النزول الذي هو الإقامة، **بما كانوا يعملون**.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾

وأما الذين فسقوا فمأوٰهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، بالمقامع كما بيّنّاه في سورة الحج.[١] **وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون**. وهذا ليس ذوقَ الغمّ، وكذلك قوله: لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ،[٢] بل من بابِ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ.[٣] لأنه ليس من مس اليد.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٢١﴾

ولمّا كان من أكبر النعم على العباد هو أن يُنبَّهوا بالأقوال والأفعال على ما يُنجيهم في المآل قال بعد هذه الأمثال بالأقوال: **ولنذيقنهم من العذاب الأدنىٰ**، الأقرب، وهو ما يجدونه في الدنيا ببعض ما كسبت أيديهم. ولهذا ذكر الذوق أي كما يذاق الطعام، ردعا وتنبيها، **دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون**، بالتوبة عن الذنوب، ومنها الكفر والشرك. وينبغي أن تعلم أن العذاب في الدنيا لا يكون إلا للكافر ولا يكون إلا ليرجع، فإن لم يرجع فلا يُعتدُّ له في الآخرة بما عذِّب به في الدنيا. وأما الغير[٤] فإنه قد يكون له به عذاب، كقوله: إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا.[٥] وقد يكون[٦] أجره[٧] في الدنيا على خير يعمله،

١ ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۞ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ (سورة الحج، ٢٢/٢١-٢٢).

٢ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ (سورة الدخان، ٤٤/٥٦).

٣ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٧).

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى المنافق.

٥ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (سورة التوبة، ٩/٥٥).

٦ ر ك: وقد تكون.

٧ ش - وقد يكون أجره، صح هـ.

ولا أجر له في الآخرة. وأما المؤمن فلا يعذَّب في الدنيا بل تُمحَّص ذنوبه بالابتلاء ولا يثاب في الدنيا، أعني ثوابا يَنقص ثوابَه في الأخرى،[1] بل يوهَب فيها كلُّ ما يأتيه من الخير ويوفَّى أجره كاملا يوم القيامة. فمتى أتاك آية أَشكلتْ عليك عُدْ بها إلى هذا الأصل الأصيل. وأما العقاب في الدنيا فهو غير العذاب، ولا يكون إلا بالإضلال كقوله: أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ،[2] وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ،[3] فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ،[4] ولا يكون إلا للكفار قبل النار.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ومن أظلم، أي ومن ذا[5] الذي يكون أظلمَ لنفسه، **ممن ذكر بـٔايٰت ربه ثم أعرض عنها**، الآية هي العلامة. ولمّا جعل العذاب الأدنى علامة دالة على قدرته على العذاب الأكبر وتذكرةً لهم لعلهم يرجعون ولم يرجعوا كانوا قد أعرضوا عما ذكِّروا به من آيات ربهم التي هي ههنا العذاب الأدنى. فلهذا نسق هذه الآيةَ على ما قبلها وإن كانت "الآيات" تُطلق على ذلك وغيره. ولهذا[6] بعده: **إنا من المجرمين منتقمون**.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾

ثم خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم مُسَلِّيا له بقوله: **ولقد ءاتينا موسى الكتٰب فلا تكن فى مرية**، شك،[7] **من لقائه**، هذا يتحقق من الآيتين اللتين في أول السورة.[8]
[٣٣٧ظ] / فالمعنى -والله أعلم- أنه لمّا ذكر اسم الجنس بقوله: **الكتٰب**، قال: **فلا تكن فى مرية**، من لقاء الكتاب، أي القرآن، فهو كقوله: فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ،[9] فالهاء عائدة على الكتاب. ولهذا[10] بعده: **وجعلنٰه**، أي الكتاب، لأن مبنى السورة وأولَها:

---

[1] ش: في الآخرة.

[2] ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ (سورة محمد، ١/٤٧). وانظر أيضا: الآية ٨ منها.

[3] ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ (سورة الجاثية، ٢٣/٤٥).

[4] ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ (سورة التوبة، ٧٧/٩).

[5] ر ك - ذا.

[6] ش ك: لهذه.

[7] ش ك + ريب.

[8] الآيتان ١ و٢ من هذه السورة.

[9] ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ (سورة هود، ١٧/١١).

[10] ش ك: فلهذا.

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ،[١] فهذا أولى. ويحتمل ما معناه: **من لقائه**، من قومه، أي موسى، أي[٢] لا تكن في شك من أنك تلقى من قومك لقاءَه من قومه. وقد قال تعالى: **وَكُذِّبَ مُوسَىٰ**.[٣] وقال في هذه السورة: أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ،[٤] فتكون الهاء في [قوله:] **لقائه**، عائدة على موسى، وفي قوله: **وجعلناه**، عائدة[٥] على الكتاب الذي أوتي[٦] موسى، **هدى لبنى إسرٰءيل**.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بـٔايٰتنا يوقنون، أي في ذلك الزمن، والآيات فيه التوراة والشرط باق. فمن صبر الآن وأيقن بالقرآن كان من كان فهو إمام يُهدَى به إلى الإيمان.

ولمّا كفروا بعد ذلك واختلفوا قال تعالى: **إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيٰمة فيما كانوا فيه يختلفون**.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

أولم يهد لهم، ولم يقل: أولم يهدهم، لأن المعنى أولم يكن ما أهلكنا من الأمم السالفة هاديا لهم. وقوله: **كم أهلكنا من**، هي هنا[٧] لابتداء الغاية التي ابتدءوها[٨] هم، وغايتها أول[٩] القرون المهلكة. لهذا قال: **من قبلهم من القرون**، و"من" الثانية لتبيين الجنس. **يمشون**، هؤلاء الآن، **فى مسٰكنهم**. **إن فى ذٰلك لآيٰت أفلا يسمعون**، الأخبارَ إذا لم يعتبروا بالأبصار؛ أي وإذا لم يكن في الماضي لهم دلالة هادية فليكن ذلك لهم فيما يشهدونه الآن من أفعالنا الدالة على القدرة والإحياء والبعث. لهذا بعده:

---

١ الآية ٢ من هذه السورة.

٢ ر – أي.

٣ ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ (سورة الحج، ٤٤/٢٢).

٤ الآية ٣ من هذه السورة.

٥ ر – عائدة.

٦ ك – الذي أوتي، صح هـ.

٧ ر ك: ههنا.

٨ ش ر: ابتداؤها.

٩ ك – أول، صح هـ.

أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز، [تقدم شرحه] في [سورة] الكهف.[1] **فنخرج به زرعا تأكل منه أنعمهم وأنفسهم أفلا يبصرون**.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾

ويقولون متىٰ هٰذا الفتح، أي بالعذاب والاستئصال، **إن كنتم صٰدقين**. هذا الكلام منهم للرسول صلى الله عليه وسلم.

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قل يوم، ظرف زمان، **الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمٰنهم ولا هم ينظرون**، من الإنظار.[2]

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

فأعرض عنهم وانتظر، ما وعدناك به من النصر، وتواعدناهم به من العذاب، لأنهما يأتيان جميعا. **إنهم منتظرون**، كقوله: فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ.[3] لأن كل واحد ينتظر لنفسه الانتصار ولخصمه الانكسار.

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (سورة الكهف، ٨/١٨).

[2] الإنظار: التأخير والإمهال (لسان العرب، «نظر»).

[3] سورة التوبة، ٥٢/٩.

سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ①﴾

يأيها النبي اتق الله ولا تطع الكفرين والمنفقين، هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وهو لكافّة الأمة، فهو خطاب العام بلسان الخاص. **إن الله كان عليما**، بما في نفوسهم، **حكيما**، في أوامره لك.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ②﴾

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ③﴾

وتوكل على الله، أي إذا اتبعت ولم تطعهم، فإنه يكفيك أمرهم. **وكفى بالله وكيلا**.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ④﴾

وقوله ههنا: **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه**، أي قلب يراعي الحقَّ وقلب يخشى الخلقَ. ولمّا تقدم قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾[1] حذف ما معناه وأَطِعْه. ثم تقدير الكلام: ولا تتق ولا تطع الكافرين.[2] فذكر التقوى آمرا مع ذكر الله وذكر الطاعة ناهيا مع ذكر الكافرين. وكل واحد من الأمر والنهي يَحسن أن يكون أمرا مع الله ونهيا مع الكافرين. فجاء اللفظ بهذه الصورة إيجازا واختصارا مع ظهوره وبيانه. ومن[3] عادة النص أن يأتي بكلام ويُتْبعه بمثله فيكون الأول كالمثل للثاني كما هنا. ولمّا كان أصل الكلام ههنا في قضية وقعت -وهي زوجة زيد المشهورُ أمرها- وذكر الله تعالى / لفظَ [٣٢٨و] الجعلِ أتبعه بمثله من اللفظ، وبيّن ما أراد به من المعنى، وجعل الأول مثلا له وهو ما معناه:[4] أن الله لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه، فكذلك ما جعل أزواجَكم أمهاتِكم

[1] الآية ١ من هذه السورة.

[2] أي ولا تتق الكافرين ولا تطعهم.

[3] ر: من.

[4] جميع النسخ + كما.

ولا أدعياءكم أبناءكم بل ذلك كله غير[1] حق، **والله يقول الحق**. وإنما قدم المثل قبل الممثول لزيادة معنى آخر وهو أنه تعالى لو أفرده ولم يذكر قضية[2] زيد لكان الكلام نافعا حسنا. فلهذا جاء مقدّما، وإن كان معناه يَحسُن أن يكون مؤخّرا على ذكر قضية زيد، فقال:[3] **وما جعل أزوٰجكم الّٰٓئى تظّٰهرون منهن أمهٰتكم**، وهو أن يقول: أنتِ عليّ كظهر أمي، أو أن[4] يتخذها ظِهريا بالفعل عن إضمار بالقلب، ففعل المضمر وإلا فلا. وذلك لقوله تعالى: ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟[5] أو قوله: وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا.[6] فبين لفظ "القول" الذي لا بد منه. وهذا الكلام يشير به إلى زيد وزوجته قبل أن يفارقها مفارقةَ الطلاق. وكان زيد قد[7] هُدي إلى الإسلام وقد أعتقه النبي صلى الله عليه وسلم. وكان النبي صلى الله عليه وسلم تبنّاه، أعني اتخذه ابنا له وهو الدَّعِيّ، لأن الدعيّ ما تَبَنَّيْتَه. وكانت[8] العرب إذا تبنى أحدهم بِدَعيّ حرّم على نفسه ما حرم[9] من ولد الصُّلب عليه من ذلك الدعيّ. فلمّا تزوج النبيُّ صلى الله عليه وسلم زوجةَ دعيّه زيدٍ أنكروا[10] ذلك. فقال الله تعالى: **وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذٰلكم قولكم بأفوٰهكم**، لا قول الله. ولا شك أن الكلام ينقسم إلى قسمين:[11] ما كان فيقال، وهو كلام الصادقين، وما يقال فيكون، وهو كلام النبيين[12] والصديقين. وما عدا ذلك فغير كلام وإن كان كلاما، لأنه لا يصدر عن قلب، فهو كنهيق الحمار، لأنه بمجرد الفم فقط، وهذا هو أيضا من اللغو. فاعرف اللغو في اليمين به[13] أيضا. ولهذا جاء بعده: **ولكن ما تعمدت قلوبكم**. وأما هذا فقولٌ بالأفواه فقط. وذلك القول من قائله ليس بحق. **والله يقول الحق وهو يهدى السبيل**، أي المستقيم.

﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾

[1] ك - غير، صح هـ.
[2] ش: قصته؛ ك: قصة.
[3] ر - فقال، صح هـ.
[4] ش: وأن.
[5] ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ (سورة المجادلة، ٣/٥٨).
[6] نفس السورة، الآية ٢.
[7] ر - قد.
[8] ش: وكان.
[9] ر: ما يحرم.
[10] ك: نكروا. وفي هامش ك: أنكروا.
[11] ك - إلى قسمين، صح هـ.
[12] ر - النبيين، صح هـ؛ ش ك: الأنبياء.
[13] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ (سورة البقرة، ٢٢٥/٢؛ وسورة المائدة، ٨٩/٥).

ثم قال عن الأدعياء: **ادعوهم لآبائهم**، أي انسُبوهم في ندائكم إلى آبائهم الذين هم من أصلابهم. **هو أقسط**، أعدل، **عند الله**. **فإن لم تعلموا ءاباءهم فإخوٰنكم فى الدين ومواليكم**، أي إخوانكم إذا كانوا عُتَقَاءَ، ومواليكم إذا كانوا عبيدا. **وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به**، فيما إذا حلفتم بالظِّهار، كما قلنا في الطلاق وفي بقية الأيمان. **ولٰكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما**، لما لم تتعمده القلوب.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ٦﴾

ثم قال: **النبى أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم**، يريد بالأنفس الأقارب. وقيل: هذا كما يقال: فلان أحب إلي من نفسي، فيكون المعنى ههنا أن النبي صلى الله عليه وسلم يملك من المؤمنين ما لا يملك المؤمن من نفسه، فيكون أولى به منه لنفسه. وإذا كان كذلك فيكون أولى بماله وولده وغير ذلك. **وأزوٰجه أمهٰتهم**، فيجب عليهم لهن ما يجب على المؤمن من توقير الأم واحترامها. وذلك أن زوجة الأب يقال لها: أم. ولمّا كان النبي صلى الله عيه وسلم أبًا للمؤمنين من حيث الإيمانُ وجب أن تكون أزواجه أمهاتِهم[1] ووجب على المؤمنين احترامهن. فكلامهم في امرأة زيد بعد ما كانت[2] زوجة للنبي صلى الله عليه وسلم وقوعٌ[3] في محظور وعقوقٌ.

ثم أتبع الكلامَ بمثله في الأولوية فقال: **وأولوا الأرحام بعضهم أولىٰ ببعض فى كتٰب الله**، أي كما في علمه الأزل وكما كتب لكم مما في هذا القرآن. ويحتمل أن [يكون] تقدير الكلام وأولو الأرحام جاء في كتاب الله أن بعضهم أولى بوراثة بعض، فيكون قوله: **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض**، مبتدأ، خبره، **فى كتٰب الله**، أي في هذا القرآن. وقد علمت أن هذا المكتوب / في القرآن هو المكتوب في العلم الأزلي فلا يختلف. [٣٣٨ظ]
وقد جاء في القرآن: وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ،[4] الآية كما بيّنّاه. فبهذه الآية لا يصح أن يرث الكافر المسلمَ ولا المسلم الكافر لقوله: وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ،[5]

---

١ ك – وجب أن تكون أزواجه أمهاتهم، صح هـ.
٢ ر ك: ما عادت.
٣ ر: وقرع.
٤ ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ (سورة النساء، ٣٣/٤).
٥ سورة التوبة، ٧١/٩.

فلا يكون الكافر وليَّ المؤمنين، وكذلك المؤمن. فأولو الأرحام أولى بوراثة[1] **بعضهم لبعض، من المؤمنين والمهٰجرين**، أي الذين هم أعلى رتبة من المؤمنين. ومن هذه الآية أخذ أبو حنيفة رضي الله عنه أن يعطَى البنتَ إذا لم يكن للميت غيرها جميع التَّرِكة لا نصفُها. ومن ههنا أعطينا نحن الأمَّ أو الأخت أو الزوج أو الزوجة، أعني من انفرد من ذكر أو أنثى يأخذ الجميع ولا يكون لبيت المال شيء، وقد بيّنّا صحةَ ذلك في الفرائض بأدلته. وهذا الكلام قاله ههنا مَبْنيًا[2] على ما تقدم من قضية زيد وزوجته التي طلقها، ثم تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم. فجاء الكلام[3] ههنا في الميراث على صورة المثل؛ معناه أنه كما أن أولي الأرحام بعضهم أولى بوراثة بعض، أي أولى من المؤمنين وأولى من المهاجرين فالنبي أولى بأخذ زوجةِ زيد بعد أن طلقها زيدٌ، وصارت حِلًّا لبقية المؤمنين والمهاجرين إذا صلحت له، لأنه عليه السلام أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فهو أولى بهذه المرأة من أهلها وقومها[4] ومن بقية المؤمنين. وقد علمتم أن أولي الأرحام أولى من المؤمنين بالوِراثة، فكيف من هو أَولى مِن أُولي الأرحام وهو النبي عليه السلام. فجاء اللفظ مطلقا في حكم الميراث. ويُفهَم منه الحكمُ المخصَّص بقضية زيد، لأنها كانت سببا. ولهذا بعض الناس تعلق بأسباب النزول وجعل ما يَفهمه من القرآن مقصورا على ذلك فقط. وليس كذلك خصوصا مع كثرة الاختلاف في النقل. ولا شك أن تخصيص السبب لا يمنع عموم الحكم. فإنْ فهمنا من النص[5] ما يوافق النقل فلا بأس بالنقل، وإلا فالانتقال عن النقل إلى النص أولى بأولي[6] العقل.

ولمّا ذكر أولي الأرحام ولم نعلم الأولوية المشارَ إليها فيماذا عرّفَنا أن ذلك في الميراث بقوله مستثنيا: **إلا أن تفعلوا إلىٰ أوليائكم معروفا**، لا جائز أن يكون المعنى[7] إلى أوليائكم الكفار لمنع موالاة غير المؤمنين. ولا يجوز المعروف مع المشركين إلا مع الوالدَين بشرط أن لا يودَّهم[8] ولا يتخذهم أولياء لقوله: **وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا**، ثم قال: **وَٱتَّبِعْ**.[9]

---

١ ش ك – بوراثة.

٢ ش: مبينا.

٣ ك – قاله ههنا مبنيا على ما تقدم من قضية زيد وزوجته التي طلقها ثم تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم. فجاء الكلام، صح هـ.

٤ ش ك + بها.

٥ ك – من النص، صح هـ.

٦ ر – بأولي، صح هـ.

٧ ر – المعنى؛ ك – المعنى، صح هـ.

٨ ك: أن لا يؤدهم.

٩ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ (سورة لقمان، ٣١/١٥).

ولمّا ذكر المعروف ههنا بعد ذكره للأولياء قال عن الجملة: **كان ذٰلك فى الكتٰب،** القرآن، **مسطورا،** أي على هذا الشرط يجوز فعلُ المعروف مع الأولياء من مالِ أولي الأرحام إذا كان مما سطرناه في الكتاب لا مما تقضي به الأهواء. وقد بيّنّا في سورة النساء ما يجب من قسمة الميراث[1] وعرفت ما قاله الله: إنهم أَولى من المؤمنين والمهاجرين بالوراثة كلها، وإليهم أشار بقوله ههنا: **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله.** تقديره وأولو الأرحام المذكورون[2] في كتاب الله بعضهم أولى بوراثة بعض ممن عداهم من المؤمنين. فالذي بيّنه في قسمة المواريث هو كتاب الله الذي كتبه وفرضه علينا. وهو أيضا علم الله الأزل لا يختلف. وأما المعروف المذكور ههنا فهو قوله: وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا،[3] أي ارزقوا بالمعروف وقولوا بالمعروف[4] / لتكون الأقوال والأفعال بالمعروف. فإليه أشار بما [٣٣٩و] ههنا وهو المسطور في الكتاب واللوح، لكنه لا يأمرنا إلا بما نعلم. فاعلم فهذا مفهوم اللفظ عند من يعقل الكلام ولا يحمله على التأويلات البعيدة. ثم قال منبّها على طاعة الرسول في كل زمن، والتخصيص لازم للرسول عليه السلام من هذا الإخبار[5]

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾

وإذ أخذنا من النبيين ميثٰقهم، وعيّن منهم من أخذ منه الميثاق كما أخذه من النبي صلى الله عليه وسلم، فقال أولا: **ومنك،** والمراد أخذنا منهم الميثاقَ أن يأخذوه[6] على الأمم وهو ما ذكرنا في آل عمران بقوله: وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ،[7] الآية. ثم قال: **ومن نوح وإبرٰهيم وموسىٰ وعيسى ابن مريم،** إشارةً إلى أن هؤلاء أولى بالأمم. وقوله: **وأخذنا منهم ميثٰقا غليظا،** أي من الأمم الذين من أجلهم أرسلنا النبيين المذكورين أخذنا منهم بألسنة الرسل.

١ انظر: تفسير سورة النساء، ٤/١١-١٢، ١٧٦.

٢ ش: المذكورين.

٣ سورة النساء، ٤/٨.

٤ ش ك - وقولوا بالمعروف.

٥ ك - الإخبار، صح هـ.

٦ ر ك: أن يأخذه.

٧ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٨١).

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

فلهذا كرر لفظ الميثاق بدليل قوله بعده: **ليسئل الصٰدقين عن صدقهم**، يحتمل أن يسأل الأنبياء عن صدق الأمم في الوفاء بالميثاق، كقوله: يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ،[1] وكقوله: مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ.[2] فيكون معنى الكلام أنه تبارك وتعالى قد أثبت صدق الأنبياء فيما عاهدهم عليه وأخذ ميثاقهم ببلاغه. ثم يسألهم عن أممهم هل صدقوا في ميثاقهم الذي أخذه منهم الأنبياءُ. ولهذا بعده: **وأعد للكٰفرين عذابا أليما**، وليس في الأنبياء كفارٌ. وليس الميثاق إلا اتباعَ الرسل كما في سورة البقرة.[3] ولا شك أن من لم يتبع رسول وقته فلم يَصدق في ميثاقه، فيكون بترك اتباعِ رسول وقته ناقضا للميثاق كاذبا كافرا يستحق العذاب. ويحتمل أن كل[4] أحد مسئول حتى الأنبياء، والأول أولى، فافهمه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾

ولمّا ذكر الميثاق الذي أخذه الله من الأمم بألسنة الرسل وذكر الصدق والعهد الذي أولى بأن يظهر في القتال، كقوله: مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ،[5] قال بعده: **يٰأيها الذين ءامنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها**، وهذا دليل لما قلناه في آل عمران[6] وغيرها[7] من أنهم لم يروا الملائكة بل أخبرهم الرسول بذلك. **وكان الله بما تعملون بصيرا**.

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾

إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت، مالت، **الأبصٰر**، وإذا تخيلت أن مِن فوقك شيئا ومن أسفل منك شيئا وأردت أن تراهما ولم ترفع رأسك ولم تخفضه

---

١ سورة الإسراء، ٧١/١٧.

٢ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة القصص، ٦٥/٢٨).

٣ ش: في آل فرعون؛ ر: في آل عمران. | لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ (سورة البقرة، ٦٣/٢).

٤ ر: أن كان.

٥ الآية ٢٣ من هذه السورة.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: سورة آل عمران، ١٢٤/٣-١٢٦.

٧ انظر مثلا: سورة الأنفال، ٩/٨-١٢؛ وسورة التوبة، ٢٦/٩.

فلا بد من زيغ البصر تارة إلى فوق وتارة إلى أسفلَ. وقوله: **وبلغت القلوب الحناجر**، وهو[1] على طريق التمثيل، أي لشدة الخوف كأن القلوب قد ارتفعت إلى الحلوق. والمراد أنه بلغ ما في القلوب إلى الحناجر تمثيلا بخروج الروح[2] عند الموت وهي ربّات القلوب، كقوله: بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ.[3] **وتظنون بالله الظنونا**، ظن السوء.

﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ١١﴾

﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢﴾

وإذ يقول المنُفقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا، هذا القول كان جزما من المنافقين والذين في قلوبهم مرض. وكان مِثلُه في صدور بعض المؤمنين ظنا لا جزما بل من وسوسة الشيطان ابتلاءً من الله باطنا بالوسوسة وظاهرا بالزلزال الشديد.

﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ١٣﴾

وإذ قالت طائفة منهم يٰأهل يثرب لا مقام لكم، مع الرسول في هذا اليوم، **فارجعوا**، إلى يَثْرِبَ. **ويستئذن فريق**، من القائلين، لهذا قال: **منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة**، فنرجع[4] لسترها، أي نخشى السرقَ. **وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا**.

﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ١٤﴾

ولو دخلت عليهم من أقطارها، الأقطار الجوانب والنواحي، **ثم سئلوا**، هذا[5] دليل على ما شرحناه / في قوله: وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ،[6] أي طُلبت، وهؤلاء سُئلوا، **الفتنة**، طُلب منهم المجيءُ إلى الفتنة، **لآتوها**. ولم يقل: لأتوا بها، والمراد أنهم كانوا في بيوتهم وقد دُخلت عليهم من جميع أقطارها لا من جهة واحدة. وطُلب منهم المجيءُ إلى الفتنة[7] [٣٣٩ظ]

---

١ ر: هو.

٢ ك - بخروج الروح، صح هـ.

٣ ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ (سورة القيامة، ٧٥/٢٦-٢٧).

٤ جميع النسخ: أفنرجع.

٥ ر: هذه.

٦ سورة التكوير، ٨١/٨.

٧ ك - لآتوها ولم يقل لأتو بها والمراد أنهم كانوا في بيوتهم وقد دخلت عليهم من جميع أقطارها لا من جهة واحدة وطلب منهم المجيء إلى الفتنة، صح هـ.

لأتوا حال كون بيوتهم قد دُخلت وحالَ كونهم فيها فلا يشتغلون عن الفتنة بالبيوت والحالةُ هذه. **وما تلبثوا بها**، بالبيوت، **إلا يسيرا**.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾

ولقد كانوا، قبل مجيئهم معك إلى الغزاة، **عٰهدوا الله من قبل لا يولون الأدبٰر وكان عهد الله مسئولا**.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾

قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل، أي فيعصمكم من الموت أو من القتل. **وإذًا لا تمتعون إلا قليلا**، أي ولا بد من موت أو قتل، فَلَأن يكون[1] ذلك في سبيل الله أولى من أن يكون في غير سبيله.

﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءًا، جزاءً على ما قدمتموه، **أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا**.

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾

ثم قال متواعدا لهم بهذا الإخبار عن حالهم كما تقول: إني لأعلم ما أنت عليه من السوء، أي لا يخفى ذلك عني فتظنَّ لخفائه أن يفوتَك الجزاءُ فقال: **قد يعلم الله المعوقين منكم**. وقوله: **قد**، هي كقوله: قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ.[2] وقد تقدم علمُ البارئ تعالى من قبل ومن بعدُ وهو واحد. فلمّا كان سبحانه مع آدم كما هو الآن وعلمُه لا يلج في الأذهان بل هو واحد في سائر الأحيان فلا فرقَ بين أن يعبر عنه بما يكون أو بما كان. والمعوقون هم الذين ما كفى أنهم لم يخرجوا حتى أنهم عوّقوا غيرهم. وكذلك قوله: **والقائلين لإخوٰنهم هَلُمّ**، لفظة تقال للواحد والاثنين والجمع تريد بها الضم، **إلينا**.

[1] ش: فلا يكون.

[2] ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ (سورة النور، ٢٤/٦٤).

ولا يأتون البأس، الحرب، **إلا قليلا**، من الإتيان، وهو كقوله: فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا،[١] أي من الإيمان. ولم يُرد[٢] إلا قليلا منهم فيكون القليل يؤمن، وكذلك لا يكون القليل منهم يأتي البأس، بل لا يأتون.[٣]

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾

بل يأتون، **أشحة**، نصب على الحال، أي بخلاء، **عليكم**، بالأموال والأنفس. **فإذا جاء الخوف**، مع إتيانهم، **رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم**، في مَحاجرهم[٤] وهي حالة تعرض للمغشي عليه، **كالذي يُغْشى عليه من الموت**. وقوله: **إليك**، يصف صفتَهم، إذ أتوا في قليل من الإتيان وجاء[٥] البأس. **فإذا ذهب الخوف سلقوكم**، حاوروكم. يقال: خطيب مِصْقَع[٦] ومِسْلَق،[٧] أي بليغ في الخطابة. ولهذا قال: **بألسنة حِداد**، من الحدة تشبيها بالسيوف. ثم قال: **أشحةً**، أي بالمال، **على الخير**. يحتمل أن المراد أنهم بخلاء على فعل الخير مطلقا كان ما كان. ويحتمل أن المراد أنهم بخلاء مع كونهم أُولي خيرٍ من مال وأصناف الرزق، وأعني لا أنهم ليس لهم خير فيُعذَرون. ولفظة "الخير" ههنا كقوله: إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ،[٨] أي رزقا. فوصفهم أنهم يَبخلون بالأرواح بقوله: **أشحة عليكم**، ولم يعين الأرواح ليكون وصفُهم بالشح[٩] مطلقا. لكنه ذكره مع موطن الخوف إعلاما أن شحهم بالأرواح، ووصَفَهم ثانيا بالشح مع ذهاب[١٠] الخوف ليبين أنهم أشحة بالأموال وليبين أنهم أشحة بالأرواح إذا جاء الخوف وبالأموال إذا ذهب الخوف. فهم بضد المؤمنين في وصف الله لهم، إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

---

١ سورة النساء، ٤/٤٦، ١٥٥.

٢ ك - يرد، صح هـ.

٣ ر: لا يأتونه.

٤ مَحْجِر جمعه المحاجر: العين ما دار بها وبدا من البُرْقُع من جميع العين، وقيل: هو ما دار بالعين من العظم الذي في أسفل الجفن (لسان العرب، «حجر»).

٥ ش ك: وجاه.

٦ خطيب مِصْقَعٌ: بليغٌ (كتاب العين للخليل بن أحمد، «صقع»؛ ولسان العرب، «صقع»).

٧ الخطيب المِسْلَق يقال مِسلق مِسْلاق إذا كان نهاية في الخَطابة. ويقال: خطيب مِسلق. والخطيب المِسلاق البليغ وهو من شدة صوته وكلامه (لسان العرب، «سلق»).

٨ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٨٠).

٩ ر ك - بالشح.

١٠ ر: بعد ذهاب.

﴿أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾.[1] ولهذا وصف المذكورين ههنا بقوله: **أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعملهم**، ومن جملة الأعمال كونُهم خرجوا في بعض الأزمنة مع المؤمنين، لكن مع النفاق فحبط العملُ. **وكان ذٰلك على الله يسيرا**، سهلا.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾

ولمّا ذكر صفاتِهم إذا خرجوا مع الرسول وقالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾،[2] وغير ذلك ذكر
[٣٤٠و] صفتهم / إذا لم يأتوا البأس وقد صحبوا الرسولَ، وعيّن ما جرى في واقعة الأحزاب فقال: **يحسبون الأحزاب لم يذهبوا**، أي إن هؤلاء الذين لم يأتوا إلى موضع البأس ولم يُساووا أنفسَهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وإن كانوا معه بل قالوا لإخوانهم: **هلم إلينا**، يحسبون أن الأحزاب لم يذهبوا ولم ينكسروا. **وإن يأت الأحزاب يودوا**، هؤلاء، **لو أنهم بادون فى الأعراب**، أي يتمنَّوا لو أنهم مع الأعراب في البادية حتى كانوا رأوا الأحزاب لجنبهم.[3] ثم عرّفَنا الله من بقية أوصاف هؤلاء عند رؤية الأحزاب فقال: **يسئلون عن أنبائكم**، أي أخباركم ليحقق الله لنا بهذا الوصف وهو السؤال منهم أنهم كانوا مع المؤمنين ولم يكونوا فيهم عند البأس، فافهم. ولهذا بعده: **ولو كانوا فيكم**، أي في صفّ[4] المقاتِلة [مع] المؤمنين، **ما قتلوا إلا قليلا**، من القتال، أي مقاتلةَ مَن يدفع عن نفسه لا من ينصر لربه.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾

ثم وبّخهم بمخاطبة تَصلح أن تكون مدحا للمؤمنين وذمّا وتقريعا[5] للكافرين فقال: **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة**. تقديره ولكن ليس ذلك لكم بل، **لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا**.

---

[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ (سورة التوبة، ١١١/٩).

[2] سورة الأحزاب، ١٣/٣٣.

[3] ك: بجنبهم. وفي هامش ك: لجنبهم.

[4] ر: في وصف.

[5] التقريع: التأنيب والتعنيف، وقيل: هو الإيجاع باللوم (لسان العرب، «قرع»).

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾

ثم وصف المؤمنين بقوله: **ولما رءا المؤمنون الأحزاب قالوا هٰذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمٰنا وتسليما**، وهذا كان قبل الوقعة لمّا تراءى الجمعان.[1] ولذلك ما بدا[2] من المنافقين كان قبل الوقعة.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

ثم وصف الوقعة بقوله: **من المؤمنين رجال صدقوا ما عٰهدوا الله عليه**. قوله: **من المؤمنين**، ولم يقل: المؤمنون، يدل على أن بعض المؤمنين قاتل والباقون كفاهم الله بمن قاتل وبالريح[3] والملائكة. **فمنهم**، أيضا أي[4] ممن صدق، **من قضىٰ نحبه**، "قضى" مات، والنحب السير السريع، أي من مات وهو في شدة سعيه وسيره متقدما إلى لقاء العدوّ. فيكون "نحبه" منصوبا لفقدان الخافض. ويحتمل أن يكون "نحبه" مفعول قوله: **قضىٰ**، لأن المخلوق سائر إلى الله وأنفاسه خُطُواته. فإذا مات قضى سيرَه. ولهذا بعده: **ومنهم من ينتظر**، واقعةً أخرى ليموت فيها. **وما بدّلوا تبديلا**، أي ولا تبديلا مّا؛ يشير إلى من قُتل وإلى من بقي لم يبدِّل أحدٌ ما عاهد الله عليه.

﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

ثم قال ما معناه منسوق بقوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾:[5] **ليجزى الله الصٰدقين بصدقهم ويعذب المنٰفقين إن شاء**، هذا دليل ظاهر على صحة ما قلناه في عدة مواضع. وهو أن الله تعالى قد يشاء أن يتوب على من لا يستحق وقد لا يعذب من يستحق العذاب، وذلك رحمة منه لأنه من باب الفضل وله ذلك، ولا يقال: فله أن يعذب من يستحق النعيم أو أن لا يثيبه، إذ ذلك ليس من باب الفضل ولا من باب العدل.

١ انظر لمعرفة المزيد: سورة آل عمران، ٣/١٦٦-١٦٧؛ وسورة الأنفال، ٨/٤١.
٢ ك: ما بدأ.
٣ ك: بالريح. | يشير المؤلف رحمه الله إلى الآية ٩ من هذه السورة..
٤ ش ك - أي.
٥ الآية ٩ من هذه السورة.

فوصفُنا له بالقدرة على ذلك من الجائز. وأما بالفعل له فلا جائز، لأن هذا الوصف منا هو قدح لا مدح.[1] ولهذا ههنا: **أو يتوب عليهم**، أي إن تابوا. وهذا مما يُطمع العصاةَ في رحمته فلا يقنطون، لأنهم إذا يئسوا عدلوا عن التوبة إلى طاقتهم في الفساد، فأَهلكوا وهلكوا. وإذا لم ييأسوا طَمِعوا وأحسنوا الظنّ. فقد يقودهم ذلك إلى التوبة فيغفر لهم، ولهذا بعده: **إن الله كان غفورا رحيما**.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ٢٦﴾

وأنزل الذين ظُهروهم، شدّوا ظهور الأحزاب ونصروهم على المؤمنين، **من أهل الكتٰب من صياصيهم**، حصونهم. **وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا**.

﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢٧﴾

وأورثكم أرضهم، أي التي كانوا فيها، **وديٰرهم وأموٰلهم وأرضا لم تطئوها**، بعد أرضهم التي كانوا فيها، فهي من أراضي / الكفار الأحزابِ التي لم يكونوا بها ولا حلّها المؤمنون وكبقية أراضي أهل الكتاب التي لم يطأْها المؤمنون. **وكان الله على كل شيء قديرا**. [٣٤٠ظ]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨﴾

ولمّا فرغ الكلام عن المؤمنين والكفار في وقعة مخصوصة عاد إلى تتمة الكلام الأول الذي بدأ به في أول السورة وهو قوله: وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡ.[2] ثم أعقبه بقوله: وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ.[3] فلمّا قدم ذكر[4] الأزواج لِيَعِظَ المؤمنين

---

[1] ر: لا منع.
[2] الآية ٤ من هذه السورة.
[3] الآية ٦ من هذه السورة.
[4] ر – ذكر.

ويأمرهم بالأدب معهنّ عاد ههنا إلى ذكر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليعظهن وليُشعرنا بذلك أنهنّ أيضا تكلّمْن في قضية امرأة زيد لِما تزوجها النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وأنهن كَرِهْنَ ذلك فقال: **يٰأيها النبى قل لأزوٰجك إن كنتن تردن الحيوٰة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن**، المتاع غير الصَّداق، وهو قبل التسريح وبعد الطلاق، **وأسرحكن سراحا جميلا.**

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنٰت منكن أجرا عظيما. "منكنّ" ههنا لتبيين الجنس، ولا يلزم أن يكون في نساء النبي غيرُ محسِنة.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

يٰنساء النبى من يأت منكن بفٰحشة مبينة، بينها الشهداءُ، **يضٰعف لها العذاب ضعفين**، أي مِثْلَيِ العذاب، ولا تفهم مثليه معه فيكون ثلاثةً، فإن الجَلْد مثلا مائة،[1] فمِثلاه مائتان.[2] فافهم هذا لتفهم[3] به مثله في لفظة الضِعف في مواضعها.[4] **وكان ذٰلك على الله يسيرا.**

﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

ومن يقنت منكن لله ورسوله، افهم القنوت من[5] ههنا في بقية المواضع. **وتعمل صٰلحا نؤتها أجرها**، لم يقل ههنا: ضعفين لئلا يتكرر بل بيّن الضعفين بقوله: **مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما.** من شِيَم الكريم أن يتولى المكارم بنفسه وغيرها بغيره مِن خدَمه. فلهذا قال: **نؤتها**، في الأجر، وقال: **يُضٰعَف**،[6] في العذاب. والمرتان

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (سورة النور، ٢/٢٤).

٢ ش: مائة.

٣ ش ك: هذا التفهيم.

٤ انظر: سورة البقرة، ٢٦٥/٢؛ وسورة الأعراف، ٣٨/٧؛ وسورة الإسراء، ٧٥/١٧.

٥ ر – من.

٦ من الآية السابقة.

أكثر من الضعفين، لأن الحسنة بعشر أمثالها.[1]

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾

ولمّا كان عذاب الإماء إذا أتين بفاحشة نصفَ ما على المحصنات الحرائر جعل نسبة نساء النبي صلى الله عليه وسلم إلى سائر المؤمنات كنسبة المؤمنات إلى الإماء تعظيما لقدرهن وإبلاغا في تخويفهن، ولهذا قال: **يٰنساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول**، وهو القول اللين الذي فيه من الخضوع ما يُطمع الرجلَ في المرأة، **فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا**، أي لا ينكره المؤمن على المؤمنة إذا قالته.

﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾

وقرن، من القرار، **فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجٰهلية الأولىٰ**، أي كظهور الجاهلية قبل الإسلام. **وأقمن الصلوٰة وءاتين الزكوٰة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله**، ذلك منكن لكي، **ليذهب عنكم الرجس**، وهو للنفس كالنجَس للبدن. **أهل البيت**، فتح اللامَ على النداء، أي يا أهل البيت الطاهر[2] النبوي، **ويطهركم تطهيرا**، أي كثيرا مرضيا تاما.

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾

واذكرن ما يتلىٰ فى بيوتكن من ءايٰت الله والحكمة. في هذا الكلام دليل على أن الحكمة التي أُوتِيَها النبيُّ صلى الله عليه وسلم الحديثُ، لأنه يتلى واللفظ مطلق

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ (سورة الأنعام، ١٦٠/٦). عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله، يقول الله: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته من أجلي» (سنن ابن ماجه، الصيام ٤١؛ وصحيح ابن خزيمة، ١٩٧/٣).

[2] ش: الظاهر.

فالإشارة ههنا إلى الحديث وإن كان الحديث من الحكمة، لكنه مدلول عليه من باب التضمن. وأما المراد فهو نفس الكتاب، كقوله: وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ،[1] فهو صفة للكتاب كما تقول: فلان هو[2] العالم[3] والعارف تريد واحدا. **إن الله كان لطيفا خبيرا.**

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

ثم[4] خاطب النساء جميعا مع الرجال، **إن المسلمين والمسلمٰت والمؤمنين والمؤمنٰت والقٰنتين والقٰنتٰت والصٰدقين والصٰدقٰت والصٰبرين والصٰبرٰت والخٰشعين والخٰشعٰت والمتصدقين والمتصدقٰت والصٰئمين والصٰئمٰت والحٰفظين فروجهم / والحٰفظٰت** [٣٤١و]
والذٰكرين الله كثيرا والذٰكرٰت أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة، أي الاختيار **من أمرهم**، أي الذي يقضونه[5] لأنفسهم. وهذا برهان ما قلناه في قوله تعالى: مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ، فإن الكلام ههنا يدل على أن للعبد اختيارا. فلهذا نهاهم الله عنه إذا كان فيه مخالفةُ الله ورسوله. وأما في تلك الآية فاللفظ عائد إلى الآلهة ولا إشكال فيه. ولو أعدنا الكلامَ إلى المشركين لاحتمل أن يقال إن ما[6] معناه: وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ، أي لا ما يشاءون ويختارون. ولهذا بعده: مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ،[7] أي ليس الاختيار لهم فيما يشاء الله أن يخلقه ويختاره. وإنما الاختيار لهم فيما مكّنهم من الاختيار فيه

---

١ ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة، ٥٣/٢).
٢ ك – هو، صح هـ.
٣ ر: عالم.
٤ ش ك – ثم.
٥ ش ك: ينقضونه.
٦ ش: أن يقال ان إنما.
٧ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ (سورة القصص، ٦٨/٢٨).

وخيّرهم من كسبهم كإيمانهم وكفرهم، لقوله: فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ،[1] وأمثال ذلك. فهذا مفهوم من النص ولا يناقضه عقلٌ ولا قرآن، وهو أحد الاحتمالين، أعني إذا لم يَعُد الضمير إلى الآلهة بقوله: مَا كَانَ لَهُمُ، لكان[2] إعادته إليهم، أعني إلى الآلهة، أولى لِما جاء من ذكرهم قبل وبعد كما بيّنّاه في موضعه. ولو لم يكن لهم اختيار، أعني بني آدم، لكان الشرك من اختيار الله لهم وكذلك سائر المعاصي. ولهذا نسب المعصية إليهم ههنا بقوله: **ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضللا مبينا**. والمراد بذكر القضاء ههنا ما قضاه الله من تزويج النبي صلى الله عليه وسلم بامرأة زيد.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

فلهذا بعده: **وإذ تقول للذى أنعم الله عليه**، بالإسلام، **وأنعمت عليه**، بالعتق: **أمسك عليك زوجك واتق الله**، فيه، **وتخفى فى نفسك ما الله مبديه**. أوحى الله إليه أن هذه زوجتك، فلا بد أن يُبدي الله ما أوحى إلى رسوله فأخفاه النبي إلى أن يكون الله هو المبدئَ له شفقةً من النبي صلى الله عليه وسلم على قلوب المؤمنين لئلا يقع فيها شيءٌ من سوء الظن فيقعَ الإثم العظيمُ. فخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك وجعله قرآنا. ولم يُبدِه الله قولا على لسان رسوله إلى[3] أن أبداه سبحانه فعلًا. ثم نسب الفعل إلى نفسه سبحانه بقوله: **زوجناكها**، وليس الكلام ههنا وهو قوله: **وتخفى فى نفسك ما الله مبديه**، بصورة الذم والتقريع، بل بصورة المدح والتعريف بما كان من الله إلى رسوله من الوحي ومن رسوله إلى الناس من الكتمان ليكون التقدّم بالوحي طمأنينةً لقلب الرسول، والكتمانُ من الرسول نفعا للمؤمنين كما قدمنا. وأما قوله بعد: **وتخشى الناس**، أي تخشى[4] قدْحَ الناس فيك، إذ بدا منك ضدُّ ما هم عليه وهو استحلال ما حرّموه من أزواج أدعيائهم على أنفسهم، ولا يكون هذا مناقضا لقوله: وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ.[5]

---

1 ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (سورة الكهف، ١٨/٢٩).

2 جميع النسخ: لكن.

3 ك - إلى، صح هـ.

4 ك: تخش.

5 الآية ٣٩ من هذه السورة.

لأن تلك الخشية على النفوس من المخالفة وهذه على الإعراض؛ وهي من طبع البشر كقول موسى عليه السلام: إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ.[١] وليس من باب قوله بعده: فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ،[٢] لأن ذلك بذنب فله أن يخاف على نفسه من ذنبه. فقوله: وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ، أي في البلاغ وفيما أُمروا به من الأقوال والأفعال، سواءٌ قُتلوا أو كذِّبوا فهم لا يخشون، أي لا تَغلب عليهم خشيةٌ إلا خشية المخالفة لما أُمِروا به. وهذا لا يلزم أنهم لا يخشون على بيوتهم من السَّرَق مثلا، أو كما قال هارون: إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ.[٣] فخشية هارون ليست مناقضةً لقوله: وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ.[٤] لأن تقديره ولا يخشون أحدا كخشية الله إلا الله. وقد بين الله ذلك في الإخبار عمن ذمّهم بقوله: فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ، فلا بد من خشية الناس، ولهذا بعده: أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗ.[٥] فهذه الآية محكمة. وبها عرّفنا المتشابهة ههنا. فإذا كانت خشية الله أشدَّ فهم بلا شك لا يُبالون بالقتل في سبيله وإن كانوا يخشون القتل، فافهمه جيدا.

وقوله: **والله أحق أن تخشاه**، ليس المعنى وتخشى الناس دون الله بل هذه واو الحال، أي[٦] وحالك أنك تعتقد أن الله / أحق بالخشية. ولهذا ذكر الأحق، أي إن خشيتَ [٣٤١ظ] منهم القَدْحَ في فعل ما أوحيناه إليك مما يخالفهم فأنت تعلم أن الله أحق أن تخشاه فيما يخالف أمرَه. ففي هذا الخطاب له من الله معنيان. أحدهما إقامة عذره عند الناس بإيجاب الله عليه ما أوجبه من الأحق ليُعلَم أنْ ليس ما جرى مِن هَوَى نفسه بل من وحي ربه. والثاني أنّ ما أخفاه محمد صلى الله عليه وسلم في نفسه أظهره الله بلسان محمد إعلاما أنه صلى الله عليه وسلم لم يكتم أمتَه شيئا ولو كان على نفسه، فافقه.

ثم بيّن الله حكمة هذه الواقعة وكونها من الرسول دون غيره، وذلك بقوله:[٧] **فلما قضىٰ زيد منها وطرا زوجنٰكها لكيلا**، أي لئلا[٨] يُحرِّم المؤمنون ما كانت العرب تُحرّمه

---

١ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ (سورة الشعراء، ١٢/٢٦).

٢ ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ (سورة الشعراء، ١٤/٢٦).

٣ ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ (سورة طه، ٩٤/٢٠).

٤ ش – أي في البلاغ وفيما أمروا به من الأقوال والأفعال سواء قتلوا أو كذبوا فهم لا يخشون أي لا تقلب عليهم خشية إلا خشية المخالفة لما أمروا به... فخشية هارون ليست مناقضة لقوله ولا يخشون أحدا إلا الله.

٥ ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ (سورة النساء، ٧٧/٤).

٦ ر – أي.

٧ ك – وذلك بقوله، صح هـ.

٨ ر: لكيلا.

وقد أحلّه الله، فأمر الرسول بفعل مثله لئلا، **يكون على المؤمنين حرج فى**، نكاحهم، **أزوٰج أدعيائهم إذا قضوا**، الأدعياء، **منهن وطرا. وكان أمر الله مفعولا**، أي إن الله أمر بذلك.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾

ولهذا بعده: **ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له. سنة الله**، أي كسنة **الله، فى الذين خلوا من قبل**، من الأنبياء، أي ليس عليهم حرج فيما فرض الله لهم من التحريم والتحليل. **وكان أمر الله**، لرسوله، **قدرا مقدورا**، أي لا بد من كونه. ولمّا قدم قوله: وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ،[1] وأزال عنه الحرج فيما فرض كما أزاله عمن قبله من الرسل فيما فرض مدح الجميع ليزيل ما قد يقع من الاشتباه عن الكلام الأول بالكلام الآخر.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾

فقال: **الذين يبلغون رسٰلٰت الله ويخشونه**، ومن أفصح البلاغ الفعل، **ولا يخشون أحدا إلا الله وكفىٰ بالله حسيبا**، كافيا.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، لأنهم كانوا يقولون: إن محمدا أبو زيد وكيف يأخذ امرأة ابنه، **ولٰكن رسول الله وخاتم النبيين. وكان الله بكل شىء عليما.**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

فلمّا نهاهم عن الغِيبة بما قدمه في قضية زيد نساءً ورجالا أمرهم عِوضَ ذلك بالذكر فقال: **يٰأيها الذين ءامنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا**، لم يأمر من الذكر إلا بالكثير. **وسبحوه بكرة وأصيلا.**

[1] من الآية السابقة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾

هو الذى يصلى عليكم، بيّنا لفظة الصلاة فيما يأتي،[١] **وملٰئكته ليخرجكم من الظلمٰت إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما**.

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

تحيتهم يوم يلقونه سلٰم، وهو من السلامة. **وأعد لهم أجرا**، انظر إلى قوله: **أجرا**، ولم يقل: فضلا، لأن الكريم يجزي الكثيرَ على القليل، ويقول: هذا بهذه. وقوله: **كريما**، هذه فعيل بمعنى فاعل وهي من الإكرام. ويحتمل ما معناه **أجرا**، من كريم فيعود إلى ما قدمنا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

يٰأيها النبى إنا أرسلنٰك شٰهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه، عائد على الدعاء، لأن الإنسان يخبر عن الْمَلِكِ بتلك الأخبار ولا يدعو إليه أحدا إلا بإذنه. فإن قيل: ما معنى "بإذنه"، وقد تقدم "أرسلنٰك"، فإن الإرسال لا يكون بغير إذن المرسِل، ويلزم في المعطوف كذلك؟ فالجواب أن[٢] المراد تثبيت قلب الرسول عليه السلام، أي نحن أرسلناك وبإذننا دعوتَ الخلق. ولهذا بعده: **وتوكل على الله**، وهذا كقوله:[٣] فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ.[٤] وأخّر للوزان قوله: **وسرٰجا منيرا**.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾

وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا، فالبِشارة الأُولى بالجزاء الحسن، والثانية بفضل كبير بعد الجزاء بما يستحقونه.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

ولا تطع الكٰفرين والمنٰفقين ودع أذٰهم. الذي في أول السورة عن الماضي،

---

[١] انظر: تفسير الآية ٥٦ من هذه السورة.
[٢] ر – أن.
[٣] ر ك – وهذا كقوله.
[٤] سورة النمل، ٧٩/٢٧.

وههنا أي فيما يقولونه فيك وعنك مستمرا فيما سيأتي، **وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا.**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٤٩﴾﴾

ثم[1] لمّا قدّم الكلام في أزواج الأدعياء وإباحتهن ومدح الأنبياء بامتثال الأوامر
[٣٤٢و] وأخبر / المؤمنين[2] بالصلاة منه ومن ملائكته سبحانه عليهم وأمَرَ بالصلاة على الرسول منهم لعظمِ نفعه لهم ذكَرَ كلاما هو فرض على المؤمنين. وفيه إشعار بل تصريح بأن زيدا لم يَمَسَّ زوجتَه لمّا كانت[3] في عقد نكاحه. وهذا فائدة كون هذه الآية جاءت في وسط الكلام المختص بالنبي صلى الله عليه وسلم. فتأمل ما قبلها وهو: وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ[4] بعد ذكر الأذى وما بعدها وهو: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ،[5] والدليل على ذلك قوله: فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا،[6] ولم يقل: وَطَرَه أو غيرَ ذلك بل وطرا مّا[7] من جملة أوطار. فلهذا قال ههنا: ما يَظن الظان أنه ليس منسوقا على الكلام وهو قوله: **يٰأيها الذين ءامنوا إذا نكحتم المؤمنٰت ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن**، وهو الوطء، **فما لكم عليهن من عدة تعتدونها**. وهذا دليل على[8] أن العدة للرجل قبل وفاته وبعدها، وهو معنى قوله:[9] وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ.[10] وأما الحول فهو للمرأة على الرجل. ولهذا قال: وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم،[11] فعائدُ نون "يتربصن" على الرجال، وعائد ميم "لأزواجهم" على النساء. فلا تكون[12] إحدى الآيتين ناسخة للأخرى بل كما ذكرناه في البقرة.[13] **فمتعوهن**، ليس بنصف الصَّداق، لأن ذلك حق واجب بل هو من قوله: وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ.[14] **وسرحوهن سراحا جميلا**، بعد المتاع ليكون التسريح بإحسان قولا وفعلا، فكيف الإمساك.

---

١ ك – ثم، صح هـ.

٢ ر: المؤمنون.

٣ ش – لما كانت؛ ك – لما كانت، صح هـ.

٤ من الآية السابقة.

٥ من الآية التالية.

٦ الآية ٣٧ من هذه السورة.

٧ ر: وطرا أما.

٨ ش ك – على.

٩ ر – قوله؛ ك – قوله، صح هـ.

١٠ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٣٤).

١١ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٤٠).

١٢ ر ك: فلا يكون.

١٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٠٦).

١٤ ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٤١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٥٠﴾

يٰأيها النبى إنا أحللنا لك أزوٰجك الّٰتى ءاتيت أجورهن، جاء لفظ الحل بعد إسقاط العدة مُشعرا بالإباحة له عليه السلام في وطء امرأة زيد بغير عدة وإن كان المراد التشريع مطلقا. **وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك**، فالإشارة إلى ما كان في ملكه. ولهذا أضافهم بالعطف على من آتاهن الأجور، أي من قبل. ولهذا أيضا كرر له ذكر ملك اليمين فيما سيأتي. فهذا كان له قبل نزول الآية. وأما بعد فهو قوله: **وبنات عمك وبنات عمّٰتك وبنات خالك وبنات خٰلٰتك الّٰتى هاجرن معك**، دون من لم تهاجر منهن، **وامرأةً**، واحدة لا غير، **مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى**، هبة كالخادمة. فأباحه بعد المذكورات امرأةً واحدة. فافهمه لتزول المناقضةُ. **إن أراد النبى أن يستنكحها**، أي إن شئت فقد جعلنا الأزواج وما أحللنا، **خالصة لك من دون المؤمنين**. ولولا هذا التخصيص لجاز لسائر المؤمنين أن يتخذوا مثل هذه[1] زوجةً بعد الأربع كما جاز له عليه السلام اتخاذُها بعد الأقسام الستة. وقوله: **يستنكحها**، أي[2] يطلب نكاحها بإذنها ومن وليها كبقية المسلمين، والصداق شرط كما بيناه في البقرة.[3] فتأمل المقصود لتفهمه جيدا. وفي ذلك نكتة لطيفة من جهة مَن هي مثل هذه المرأة ومن[4] جهة الرسول عليه السلام يفقه ذلك المتأملُ له في باب الرياضة والترك.

ولما تخصص بهذه الإباحة قال عن المؤمنين: **قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزوٰجهم**، وهو أن[5] لا يجوز لهم الجمعُ بين أكثرَ من أربع أزواج. ثم قال: **وما ملكت أيمٰنهم**، أي ما أبحناهم وطأه بملك اليمين كما في سورة المؤمنون.[6] والواو بمعنى مع

---

[1] ر: هذا.

[2] ش ك: أن.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآيتين في سورة البقرة، ٢/٢٣٦-٢٣٧.

[4] ر: من.

[5] ر - أن؛ ك - أن، صح هـ.

[6] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/٥-٦).

لئلا تُظَنَّ أن فيما ملكت الأيمان أيضا[1] فرضا. وقوله: **عليهم**، ولم يقل: لهم إشارةً إلى التحريم الذي هو عليهم بعد الأربع حرامٌ، فهو حلال للنبي عليه السلام إلى حدٍّ[2] آخر، لهذا قال: **عليهم**. وقال: **أحللنا لك**، بلفظ الحِلّ لأنه مما حرم عليهم. ثم قال ما معناه: وإنما أبحنا لك ذلك وأنزلناه قرآنا، **لكيلا يكون عليك حرج**، إذا فرضت

[٣٤٢ظ] شيئا وأتيت بغيره. **وكان الله غفورا رحيما** / لمن ظن أن عليك حرجا من قبل أن ينزل عليك هذا الحكمُ.

﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾

ولمّا أزال الحرج عنه في العدة أزاله في العِشْرة بقوله: **ترجي**، تؤخِّر، **من تشاء منهن**، عن أن تئويها إليك.[3] **وتئوي إليك من تشاء**، أي إلى مأواك. **ومن ابتغيت ممن عزلت**، منهن، **فلا جناح عليك**، في ابتغائها بعد عزلها ولا جناح عليك منهن أعني[4] من الباقين، لأن الله أوحى إليه أولا أن يخيّرهن بقوله: فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ.[5] فلمّا قَدِمْن على ما فرض الله أزال الحرج من جهتهن.[6] **ذلك**، الحكم الذي حكمناه لك عليهن في العزل والابتغاء **أدنى**، أقرب إلى، **أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما ءاتيتهن كلهن**، لأن إيمانهن يقضي عليهن بالرضا بما أنزل الله عليه من هذه الأحكام فتزول اللائمة عنه من جهتهن. **والله يعلم ما في قلوبكم**، الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وزوجاته وغلّب الذكوريةَ، والمراد يعلم ما في قلوبكن من الغيرة ومما توسوس به الشياطين. **وكان الله عليما حليما**، ما لم تُبدِه الألسن. انظر كيف ذكر الحلم[7] ههنا بعد العلم.

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾

---

١ ر - أيضا.
٢ ر: إلى أحد.
٣ ك - إليك، صح هـ.
٤ ر - أعني؛ ك - أعني، صح هـ.
٥ الآية ٢٨ من هذه السورة.
٦ ر: عن جهتين.
٧ ر ك: الحكم.

لا يحل لك النساء من بعد، أي بعد هذه الأقسام السبعة. فقد علمت أن الله حرم على رسوله سوى هؤلاء الأزواج وأباحه ما شاء من ملك اليمين ولم يُبِح المؤمنين مع ملك اليمين أن يجمعوا أكثر من أربع أزواج وأباحهم الاستبدالَ أبدا بقوله: وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٍ.[1] وقال عنه: **ولا أن تبدل بهن من أزوٰج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك**. وتكرار قوله: **إلا ما ملكت يمينك**، أي في المستقبل، ولو لم يَقُلْها لَمَا جاز له أن يستحل وطء من لم تكن من الفيء خاصة، وتكون أيضا مما أفاء[2] لا مما يفيء. فافهم فائدة التكرار. **وكان الله علىٰ كل شيء رقيبا**.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾

يٰأيها الذين ءامنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلىٰ طعام غير نٰظرين، منتظرين، **إنىٰه**، بلوغه واستواءَه. ولو لم يقل: **ولٰكن إذا دعيتم فادخلوا**، لكان الدخول لغير الطعام محرَّما عليهم ولا شك أن الأمر بذلك[3] من جهتهم إلا إن دُعوا لغير طعام. فأما إن دُعوا لطعام فقد قال: **فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستئنسين لحديث إن ذٰلكم كان يؤذى النبى فيستحيِۦ منكم والله لا يستحيِۦ من الحق وإذا سألتموهن متٰعا**، أي حاجةً، فيها متاع لكم مثل عارية الآنية وغيرها، **فاسئلوهن من وراء حجاب**، وهذا الأمر بالحجاب للمؤمنين دون المؤمنات، ومعناه ما يَحْجُب بينكم وبينهن. **ذٰلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزوٰجه من بعده أبدا إن ذٰلكم كان عند الله عظيما**، في الإثم.

﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ٥٤﴾

وزاد التحذيرَ بقوله مطلقا: **إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما**.

١ ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ﴾ (سورة النساء، ٤/٢٠).

٢ ك: مما يفيء

٣ ر - بذلك؛ ش: كذلك؛ ك - بذلك، صح هـ.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

ولمّا أمر الرجال بالاحتراز سِرًا وجهرا قال عن النساء: **لا جناح عليهن**، إشارةً إلى أن الجناح الذي يقع على الرجال بطريقهن يجب أيضا عليهن[1] التحفظُ منه، لكن لا، **في ءابائهن ولا أبنائهن ولا إخوٰنهن ولا أبناء إخوٰنهن ولا أبناء أخوٰتهن ولا نسائهن**، وهو كما بيّنّاه في سورة النور.[2] **ولا ما ملكت أيمٰنهن**، أيمان نسائهن من النساء، لهذا ذكر ملك اليمين بعد ذكر النساء المؤمنات لتعود الإشارةُ اليهن.[3] ولهذا جعل الخطاب لهن بعد أن كان إخبارا عنهن، فقال: **واتقين الله، إن الله كان علىٰ كل شيء شهيدا.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

ولمّا عظّم الله رسولَه بهذه الأوصاف المتقدمة والأوامر المذكورة في حقه وحق نسائه وأراد من المؤمنين الصلاة عليه قدّم فعْلَه سبحانه على فعلهم ليكون المؤمنون تبعا للملائكةِ والملائكةُ تبعا لله تعالى. / فقال: **إن الله وملٰئكته يصلون على النبى**، [٣٤٣و] وهذا مطلق في كل زمن لنبي وقته وبقي الأمر كذلك إلى يوم القيامة. **يٰأيها الذين ءامنوا صلوا عليه وسلموا تسليما.** واعلم أن الصلاةَ أصلها في اللغة انحناءٌ وانعطاف، وهي من الصَّلَوَيْن، وهما عرقان في الظهر إلى الفخذين. يقال: صلى عليه، أي انحنى عليه رحمةً. فالصلاة أصلها في المحسوسات، ثم عبر بهذا اللفظ مبالغة بصورة الاستعارة لله تعالى، كقوله: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ،[4] لتفهم المعنى المقصود باللفظ المألوف. وأهل اللغة لم يفرّقوا بين الصلاة والدعاء فقالوا: هي بمعنى الدعاء. والفرق بين ذلك هو أن الصلاة لا تقال إلا في حق المدعوِ له لا في حق العدوّ، فنقول: صلينا على الميت ودعونا على العدوّ. ففرقٌ بين حال وحال وإن كانت الصلاة بمعنى الدعاء، ولكنها تميزت عنه لأن الدعاء أعم. فذكر الله الأخص منه للأخص من خلقه. وأزال الاشتباه من قبلُ بكونه جعل مثل ذلك لسائر المؤمنين بقوله: هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ.[5]

---

١ ش – عليهن؛ ك – عليهن، صح هـ.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: سورة النور، ٦١/٢٤.

٣ ك: اليمين. وفي هامش ك: إليهن.

٤ ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ (سورة المائدة، ٦٤/٥).

٥ الآية ٤٣ من هذه السورة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾

ولمّا أمر بالصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم نهى عن أذىً يَرِد منهم إليه وإن كان عائد ذلك عليهم لا عليه. وقدّم ذكرَه سبحانه على ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيما وتحذيرا فقال: **إن الذين يؤذون الله ورسوله**، وهذا يدل على أن الأذى بالقول. **لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا**.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

الفاء في "فقد" ليعود المعطوف على المعطوف عليه تحت اللعنة إن لم يَنْتَه، وهذا من طريق الإشعار لا الإيجاب، فافهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾

يٰأيها النبى قل لأزوٰجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلٰبيبهن، الجلابيب الملاحف.[1] وقوله: **يدنين**، أي يجعلنها دانية من الأرض لتستر ما عسى أن يظهر، ويكون ذلك كالعلامة لهن. ومن قال: بل أراد أنهن يدنين الجلابيبَ على الوجوه، فذلك لازم من آية الخمار كما بيّنّا في سورة النور.[2] وقوله: **عليهن**، أشملُ من قوله: وجوههن. وقوله: **من**، لتبيين الجنس. **ذٰلك أدنىٰ أن يعرفن فلا يؤذين**، يُعرفن من غير المؤمنات. **وكان الله غفورا رحيما**، لِما مضى من الأذية التي وقعت بهن كما وقع من الكلام في امرأة زيد حين تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم.

﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾

ولهذا حذر في المستقبل بقوله: **لئن لم ينته المنٰفقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم**، اللام الأولى في قوله: **لئن**، مُوطئة للقسم،

---

[1] المِلْحفة: اللِّباس الذي فوق سائر اللباس من دِثار البرد ونحوه وكل شيء تغطّيت به. وجمعُ الملحفة الملاحف (لسان العرب، «لحف»).

[2] انظر: تفسير الآية ٣١ من سورة النور.

والثانية هي التي يُتلقى بها القَسم. والإغراء الإلصاق، أي نعرّفك بهم ونسلطك عليهم. **ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا**، من المجاورة، ثم يذهبون منها ويكونون، **ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا**.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾

سنة الله فى الذين خلوا من قبل، من أعادي[1] اللهِ ورسله. **ولن تجد لسنة الله تبديلا**.

﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣﴾

يسئلك الناس عن الساعة، متى تقوم؟ **قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا**، تقديره قريبة، وعدل به للوزان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٦٥﴾

ثم تمَم ذكْرَ حال المنافقين والكفار بما أخبر[2] عنهم دنيا وآخرةً فقال: **إن الله لعن الكٰفرين وأعد لهم سعيرا خٰلدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا**.

﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦﴾

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ٦٨﴾

وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا، عن السبيل، **ربنا ءاتهم ضعفين**، يريد ما استحقوه ومثله،[3] **من العذاب**، بما ضلوا وأضلوا. **والعنهم لعنا كبيرا**، كثيرا.[4]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾

ولمّا ذكر هذا التخويف لمن لم يُطِعِ الرسول ذكر المراد به وإن كان مطلقا لكنه
خصصه / بقوله بعده: **يٰأيها الذين ءامنوا لا تكونوا كالذين ءاذوا موسىٰ**، وقصة موسى [٣٤٣ظ]

[1] ش: من عاد؛ ك: من أعاد. وفي هامش ك: من أعادي.
[2] ك – أخبر.
[3] ر – يريد ما استحقوه ومثله، صح هـ.
[4] ر – كثيرا؛ ك – كثيرا، صح هـ.

مشروحة في التوارة، وذلك أنه أخذ امرأة حبشية،[1] ولا بنا حاجة إلى تلاوة القصة، إذ المقصود منها، **فبرأه الله مما قالوا**، فيه. **وكان عند الله وجيها**.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾

يٰأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا. انظر إلى هذا الشرط الذي شرطه الله لمن اتقى وقال قولا سديدا ضَمِن له أن يُصلح له عمله. وهذا وعدٌ عظيم لمن يعقله ويحق ذلك، لأن القول السديد يدخل فيه تجنُّبُ الكَذِب في كل الأمور. ومن فكّر في ذلك رآه جِماعَ الخيرات. وقال بعضهم: رأيت مَلَكا وقد أُمر أن يريني النور، فلم يشترط علي شيئا سوى أن قال: لا تكذبْ! فرأيتُ في هذه الكلمة خير الدنيا والآخرة. وهذا معنى [قوله:] **يصلح لكم أعمٰلكم ويغفر لكم ذنوبكم**، ففيه جماع الخيرين. **ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما**.

﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾

إنا عرضنا الأمانة. قوله: **عرضنا**، هو من أقوى الدلائل في دفع الجبر. فالأمانة إنما[2] تظهر فيما تُسَلَّم[3] إلى الإنسان وجُعل في تصريفه وتحت قدرته واختياره؛ فظهر منه حينئذ إما أمانة أو خيانة. ووديعة الله التي سلّمها إلى كل إنسانٍ نفسُه، وجعل له الاختيار والقدرة على إصلاحها وإفسادها. لهذا تقول لصاحبك: أنت أمين الله على نفسك. ولهذا قال تعالى: قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا،[4] وجعل الشريعة مبيّنة للسبيلين. ولهذا يقال للإنسان: ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ،[5] وتمام الآيتين. ومن حيث إنه قد تسلّم

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكُوشِيَّة التي اتخذها، لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية» (العَدَد ١/١٢). | كوشية: حبشية. كانت امرأة موسى كوشية (قاموس الكتاب المقدس لنخبة من الأساتذة، «كوشية»).

[2] ش ك: مما.

[3] ر: فيما سلم.

[4] ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا...﴾ (سورة الشمس، ٩١/٧-١٠).

[5] ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/١٤-١٥).

ما به تظهر الأمانة فقد حَمَلها في كل حين، وذلك يَعُمُّ الفمَ والفرج والفكر والنظر[1] وغيرَ ذلك من كل ما فيه تَظهر خيانةٌ أو أمانة. فاعلم واعمل فقد حملتها. وكان بعد أن عُرضت، **على السمٰوٰت والأرض والجبال فأبَيْنَ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسٰن إنه كان ظلوما**، لنفسه، **جهولا**، بقَدْرها.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٣﴾

وفصّل من حمل إلى من خان وإلى من لم يَخُن،[2] ومن خان إلى من تاب وإلى من لم[3] يَتُب وقال بلام العاقبة: **ليعذب**، أو بلام كي، أي ليعذب بعدل ويتوب بفضلٍ، وهذا من أبلغ الحجج في دفع الجبر. والأمانة معروفة لا تحتاج إلى بيان، فهي في كل صورة وبكل وجه. لكن أصولها محصورة، وهي أن الإنسان إما يخون نفسَه، أو غيره، أو الله تعالى. فعليه بحفظها في هذه المواطن الثلاثة.[4] والجميع إنما هو خيانة للنفس لأنه، مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا.[5]

[معنى الأمانة وقَدْرها]

وأما قوله تعالى: [إِنَّا] عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ،[6] مع كونها لا تَعقل، فالمقصود تعظيم قدر الأمانة لا إظهار عجز السماوات، وأن السماوات والأرض والجبال كأنها نطقت بالحال فأعربت عن ضعفها واعترفت بعجزها عن حمل الأمانة. والمراد من تعظيم قدرِ الأمانة تعظيمُ قدر حاملها، لأن من حمل ما لا تحمله السماوات والأرض والجبال انظر أيَّ شيء يكون أجره وبأي شيء أكثرَ من هذا يَعظم قدرُه. وإذا كان قادرا على حملها وعلى تركها فانظر ما أظلمَ هذا لنفسه إذا تركها، وانظر ما أجهلَ هذا بما قد أُهِّل له وبقدر ما قد[7] حمِّل وبقدر نفسه وبربه. فهل أظلم وأجهل من هذا.

والمراد بضرب هذا المثل للأمانة إنما هو تقريب إلى الأفهام بأعلى شيء وأقواه وأعظمِه مما يُعقل ويُرى وهو السماوات والأرض والجبال. وأما الأمر بالحقيقة

---

[1] ر: والنظر والفكر.
[2] ش + من لم يخن؛ ك: من يخن. وفي هامش ك: من لم يخن.
[3] ك - لم، صح هـ.
[4] جميع النسخ: الثلاث.
[5] سورة فصلت، ٤١/٤٦.
[6] من الآية السابقة.
[7] ر - قد.

أعني قدْرَ مَن حمل الأمانة فإنه فوق طور العقول، ولكن ضَرَب المَثَل لها بما هو نهاية حدها أولا وهو السماوات فما دونها. ومن عامله[١] الله بها أدنى معاملة خرج من رقِّ إبليس. فأما إذا استمر فهنالك خلعُ المواهب. وإذا صح الوفاء وحصل الصفاء كُشفت بأدنى سعي للصادقين مقاماتٌ شهدوا بها من العوالم / ما أحاطه وأكنفه[٢] هذا العالَم [٣٤٤و]
وعجائبُه. وذلك كله موقوف مع الأمانة. ولو وُجد قلبٌ يَصلُح لها لكُشف له أسرارُ السماوات والأرض وخاطبه[٣] كل موجود بكل لسان. وهذا أدنى رتبة لأنه كله تحت الحس، ولكن يعود كلُّ ما تحت الحس طريقا له إلى ما فوق العقل. فأصبح كل[٤] قاطع موصِّلا وكلُّ مانع محصِّلا. ووقف بالأمر فرجع مقابلا قابلا ما يُفاض عليه، وخلع ملابسَ اختياراته فاتصل به إليه. وفي هذه الآية كفايةٌ في دفع الجبر، لأن الأمانة إنما تظهر بالحقيقة فيما كلِّفه المؤمنُ من امتثال الأمر والانتهاء عن النهي. ولهذا بعده بلام كَيْ منسوقٍ على [قوله:] عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ:[٥] **ليعذب الله المنٰفقين والمنٰفقٰت**، بعدلٍ. والنفاق مع الله أن يعتقد القلب صحيحا وتَفعل الجوارح خلافَه. والنفاق مع الناس أن يقول اللسان: حَسَنا ويُسرّ القلبُ خلافه. ولمّا كان المنافق قد شارك بين الصدق والكذب قال بعده: **والمشركين والمشركٰت**، أي لا عن ظلم. وإنما ذكر المنافقين دون الكفار لأن من لا يحمل الأمانة فهو أولى بأن يكون هو المنافق. ومثال ذلك أن الإنسان إذا حدّث صاحبَه فأخفى عنه من حديثه شيئا فلا يخلو إما أن الذي أخفاه خيرٌ فقد خان صاحبَه أو شر فقد خان نفسَه. ولا معنى للمنافق إلا أن يُظهر شيئا ويُبطن غيرَه. وهذا لا شك خان الأمانةَ، وقِسْ غير ذلك على ذلك.[٦] ولهذا قرن المنافقين مع المشركين، فواو "[و]المشركين" واو المعية. **ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنٰت**، بفضل، بدليلِ، **وكان الله غفورا رحيما**.

[كرامة خليفة الله في الأرض وقدره]

وقد لخّصت لك كلاما نافعا ربما أشكل بعضُه فكِلْه إلى عالمه ولا تنس وصيتي لئلا تحتجب عن مرادي من المعنى بما تَعارض به بعضُ الألفاظ. فأقول: القادر -سبحانه- على أن يكوِّن ما شاء قادرٌ على أن يكوّن في نظر مَن شاء ما شاء،

[١] جميع النسخ: عامل، والمثبت من م.
[٢] جميع النسخ: ما أحطه وأكنفه.
[٣] ش: خاطبه.
[٤] ر + عاقل.
[٥] من الآية السابقة.
[٦] ك - على ذلك، صح هـ.

فهو يخاطب الكل بالكل ويتجلى[1] للكل بالكل وهو المتعالي عن الكل. فالألفاظ والمعاني دونه والمُلك والملكوت لا يشهدونه. وأقرب الكل إليه وأدلهم عليه ليس غيرَ خليفته الذي صفتُه كصفته. فليَقتصر العقل على معرفته[2] وليستفتح من الحق أبوابَ موهبته بعد الوقوف من مجاهدته بأقصى ما في قوته. فمما يراه ويشهده ويتحققه ويجده أن آثارَ الصانع ظهرت في صنعته وكمُلت بالنسبة إلى سائر مبدَعاته في خليفته. فكما أنه القادر بما مَكّن في الأرض على أن يؤدي ما عليه من الغرض فكذلك هو المُمَكِّن من أن يكون اسما أو فعلا أو حرفا أو جسما أو روحا أو غير ذلك[3] مما فوقه وتحته صورة أو معنًى. ومع ذلك كله فحقيقة ذاته[4] منفصلة عن سائر صفاته، فهو كما قرنا في بارئه ذاتا وصفة. فكررِ الصورة على ذهنك فمهما كررتَها ازددتَ معرفة فاعرفه مخلوقا. فهذه الأوصاف صفته. والاتصاف بأعلاها عبادته. ولمّا كان واهبُ العبادة غنيا مطلقا والموهوبُ فقيرا محقَّقا كانت عبادة الخليفة بكل صفة من صفاته عائدةً على ذاته. فعاد بهذا الاعتبار هو العابد لا المعبود.[5] ومن ههنا يصل إلى المقصود، إذ هو خليفة[6] ربه على نفسه قبل أن يَخْلُفه على جِنّه وإنْسِه، فافقه هذه اللطيفة، فإنها الفائدة الشريفة.

ثم يحتمل أن يقال على وجه التعريف بالأمثال: إن سائر الخليقة صفات للخليفة فكأنهم قشوره وملابسُ ذاته في حركاته وسكناته، وهو محكم[7] في صفاته في سائر حالاته. فإن حكم عليه صفةً أذهب منه بحسبها معرفة. فإن أحاطت به خطيئته عادت / ذاتُه صفتَه فبرزت له معبودا في بعض الأعصار وكان بعبادته لها من أهل النار؛ كما [٣٤٤ظ] برزت في بعض بني إسرائيل بَقَرا، وفي النصارى بَشَرا، وفي أصحاب الأيكة شَجَرا، وفي المجوس نارا، وفي المشركين جِنّا وحجرا وشمسا وقمرا. كلٌّ ظهرت له ذاته في مثل ما غلبت عليه صفاته. فمن ذلك ما ظهر واشتهر، ومنه ما خفي واستتر. فجاء التنزيل العلي بالنصح الجلي يصف الإيمانَ بالغيب المشارِ به إلى قطب المعنى، وهو ما لا تحتوي عليه علومُ نفوسٍ ولا عبارةُ ألسن. وذلك قوله تعالى: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ، ثم تمم الآية بما به يكون ما يكون فقال: جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ.[8]

---

١ ش ك: ويتحلى.
٢ أي معرفة الخليفة، وهو آدم وبنوه.
٣ ر: أو غيره؛ ك – أو غير ذلك، صح هـ.
٤ أي حقيقة ذات الإنسان أو الخليفة.
٥ جميع النسخ: والمعبود.
٦ ر – خليفة.
٧ ر: محكوم.
٨ سورة السجدة، ١٧/٣٢.

فجملة النعيم المشارِ إليه بقوله تعالى: وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ،[١] ثمرةُ فعل من أفعال الإنسان وغرسُ خَطْرة من خطراته، ارتبطها بعزمة من عزماته. دُلَّ عليها فبادر إليها. وإنه لأعلى رتبةً مما عسى أن يقال، وأجلُّ نَصْبةً. ولو ضُربت له سائرُ الأمثال ولو نطق القرآن بأخص أسماء الإنسان فمدحه بأفضل المدائح ومنحه بأكمل المنائح، وذلك بقوله تعالى: إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً.[٢] فلقد أَوْدع في هذه التسمية نكتةً شريفة مَن هُدي إليها[٣] أو دُلّ عليها فاز بمعرفة السبيل وسلم من التشبيه والتعطيل. وهي أن الإنسان هو الحاكم على صفاته والبادئ بأفعاله، والله يمده بأقواله وأعماله في سائر أحواله، وعليها يجازيه ويكرمه، أو يغفر له ويرحمه، أو يعاقبه ويَحرمه. ولمّا لم يكن البادئ الأول والحاكم الذي عليه المُعَوَّل إلا الله، وقد وهب بعضَ مخلوقاته أنه يبدأ بأفعاله ويَحكم على صفاته لِيصح أن يأمره وينهاه كان فيما مُكّن منه وبدأ به بلا شك خليفةَ الله. فسبحان من منحه بهذه التسمية من قبل نشأته ومدحه بها بين ملائكته لِسبق العلم بما يصل إليه في غايته. فهو إنسان في بدايته خليفةٌ في نهايته، إذ ليس الحاكم البادئ بعد الله بأمر الله إلا خليفةُ الله. فحقيق بمن مُدح بهذه المدحة السنيّة ومُنح بهذه المِنحة العلية أن يقوم بقلبه معتقدا ويقول بلسانه مجتهدا.

إلٰهي أنا عبد الرحمة منك، وأنت رب الفضل علي. خلقتَني[٤] غنيا عني وعرّفتني[٥] بك لي.[٦] فكل ما أطلعتَني عليه أو واريتَه[٧] عني فمن أجلي. وأنت بمعزلٍ عما تشاهده ذاتي أو يتعقله عقلي. جعلتَني من أجلي[٨] خليفةً لك علي، وصيرتَ[٩] ذاتي بيني وبينك لتُظهر لي بها قرْبَك إلي. فخاطبتَني بي إذ حجبتني عني. فأنت القائل بي لي،[١٠] وأنا السامع بك مني. أحسنت إلي بما هو منك ابتداءً، وضاعفتَ[١١] لي[١٢] بما هو مني جزاءً. وجمعتَ لي[١٣] بما هو منك ومني ابتلاءً. مكّنت لي[١٤] في الأرض، ومكنتني من أداء الفرض.

---

١ سورة العنكبوت، ٦٤/٢٩.

٢ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (سورة البقرة، ٣٠/٢).

٣ ر - إليها؛ ك - إليها، صح هـ.

٤ ك: على خلفتني. وفي هامش ك: خلقتني.

٥ ش ك: وعرفنا. وفي هامش ش ك: وعرفتني.

٦ ر: بك بي.

٧ ش ك: أو رأيته. وفي هامش ك: أو واريته.

٨ ك: من أجل. وفي هامش ك: من أجلي.

٩ ش: وسيرت.

١٠ ر: بي بي.

١١ ر: ضاعفت.

١٢ ر: بي.

١٣ ش ك - لي. في نسخة ر: بي، وهو خطأ، ولعل الصواب: لي.

١٤ ر - لي بما هو مني جزاء وجمعت لي بما هو منك ومني ابتلاء مكنت لي، صح هـ.

فأنت المنّان، ولك كمال الإحسان. أوقفتني من الكمال في حده، إذ خلقتني[1] مترقيا بالشيء وضدِه. فجعلتني قادرا على الحسنات لأكسبها، وعلى السيئات لأجتنبها. فإن كسبتُ[2] فبفضلك سلكتُ، وإن لم أجتنب فبخطيئتي هلكتُ. ولم أستغنِ عن فضلك في الاكتساب، كما لم أستبدَّ بما يُخرجني عن قدرتك عليَّ في ترك الاجتناب، لكنك فوّضتَ الأمرين ابتلاءً إلي لتُسبغ إحسانَك بهما عليّ. فيا أحسنُ مما في ظني أعِدني إليك وأعذني مني. وألهمني رشدي فيما ترضى به لي عني. وتقبل دعائي في دعاء المؤمنين. وصلِّ[3] على محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

[1] ر ك: إذ خلفتني.

[2] ش: فإن اكتسبت.

[3] ش ك: وصلي.

سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ١﴾

لمّا ختم بالرحمة افتتح بالحمد / فقال: **الحمد لله الذى له ما فى السمٰوٰت وما فى** [٣٤٥و]
الأرض وله الحمد فى الآخرة، مطلقا من أهل الجنة ومن أهل النار، لأنه تفضّل على الفريقين فأبى أحدهما،[١] فلا يمنع حقّه فضلُه ولا يسقط فضلَه عدلُه، فافقه. **وهو الحكيم الخبير**.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ٢﴾

يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها، يلج كالمطر ويخرج كالنبات. **وما ينزل من السماء**، من الأمر منه والملائكة، والكتاب والقضاءِ. **وما يعرج فيها**، كالدعاء وأرواح المؤمنين، والملائكة وأعمال العباد، والأمر المدبَّر من السماء إلى الأرض. **وهو الرحيم الغفور**.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٣﴾

وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلىٰ وربى لتأتينكم عٰلم، بكسر الميم للصفة، **الغيب، لا يعزب عنه**، ينفرد، ومنه الأعزب. **مثقال ذرة فى السمٰوٰت ولا فى الأرض ولا أصغرُ من ذٰلك ولا أكبر إلا فى كتٰب مبين**، مَثلٌ، أي هو مثبوت في علمه كما يكون المثبوت في الكتاب المبين.

---

[١] ر – فأبى أحدهما، صح هـ.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٞ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٞ ۝٥﴾

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾

ويرى، من رؤية القلب، **الذين أوتوا العلم**، كعلماء بني إسرائيل، والمرئيُّ هو، **الذى أنزل إليك من ربك هو**، لا غيره، **الحق ويهدى إلىٰ صرٰط العزيز الحميد**.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٖ جَدِيدٍ ۝٧﴾

وقال الذين كفروا هل ندلكم، قال بعضهم لبعض، **علىٰ رجل ينبئكم**، فيقول: **إذا مزقتم**، في التراب، **كلَّ ممزق إنكم لفى خلق جديد**.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨﴾

ثم قالوا قول المستفهم المنكِر: **أفترىٰ على الله كذبا أم به جنة. بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلٰل البعيد**، عن النعيم والهُدى.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبْدٖ مُّنِيبٖ ۝٩﴾

أفلم يروا إلىٰ ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، أي الذي هو قادر على إيجادهما قادر على خسف الأرض وإسقاطِ الكِسَف. وتقديره: أولم يعلموا أنا إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء؟ ويحتمل أن يكون المراد بقوله: **إلىٰ ما بين أيديهم**، أي من عذاب الدنيا، **وما خلفهم**، هو عذاب الأخرى. وقوله ههنا: **من السماء والأرض**، تقديره أولم يروا إلى ما بين أيديهم من عذاب الدنيا وأن القدرة لنا عليهم من السماء والأرض. وأخّر ذكرَ الأرض ليَعطف عليها الخسفَ، فجعل قوله: **وما خلفهم**، تابعا لقوله: **ما بين أيديهم**، ليدلهم[1] بقدرته أن يعذبهم في الدنيا

[1] ر ش: وليدلهم. وفي هامش ك: وليدلهم.

على قدرته أن يعذبهم[١] في الأخرى. وقد بيّنا مثل ذلك في سورة يسٓ.[٢] **إن فى ذٰلك لآية لكل عبد منيب.**

﴿۞وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾

ولمّا ذكر القدرة على مجازاتهم[٣] في الدنيا بالسوء الذي يستحقونه وجعل ذلك إخبارا منه بالقول ذكر بعده دلائلَ قدرته على مجازاة المؤمنين في الدنيا بالخير، وجعل ذلك إخبارا منه بالفعل. ونبّه على أن ذلك ليس من باب الجزاء بل[٤] من باب الابتداء بقوله: **منا**. فقال: **ولقد ءاتينا داوود منا فضلا**، أي غير ما يستحقه في الآخرة بل هو فضلٌ منا في الدنيا.[٥] وتقديره وقلنا: **يٰجبال أوبى**، رَجِّعي بالتسبيح، **معه والطيرَ**. قيل: **والطير**، واوه واو المعية. [يقال:] جاء زيد والصبحَ، فالطير تُسبح[٦] معه، والجبال مع الطير الذي هو ساكن فيها. فذكر الجبال مع الطير. والأَولى أن المعنى آتيناه فضلا والطيرَ، فنصبه[٧] بالعطف على "فضلا"، لأنه مفعول "ءاتينا". وإنما خصّص بالذكر لقوله: عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ، ثم قال: وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ.[٨] وإنما عين الله هذا لداود وإن كان لابنه لنعلم أنهما كانا في معرفة منطق الطير بمنزلة واحدة. ولهذا ههنا ذكر الطير مع داود[٩] ولم يذكره مع سليمان. ولهذا / قال سليمان: عُلِّمْنَا، ولم يقل: علّمتُ. ومن علِم [٣٤٥ظ] منطق الطير فهو يسبّح معه، لقوله: وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ.[١٠] فقد لزم من هذا ما تقدم أولا وزيادةٌ. **وألَنّا له الحديد**، أي فأطاعه كما شاء.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

وأوحينا إليه: **أن اعمل سٰبغٰت**، سابلات[١١] كاملات، **وقدر**، ما تَعمله **فى السرد**، في النظم، أي نظم الحِلَق ليُشبه بعضه بعضا. **واعملوا صٰلحا**، يا آلَ داود. **إنى بما تعملون بصير.**

١ ك – في الدنيا على قدرته أن يعذبهم، صح هـ.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (سورة يسٓ، ٣٦/٤٥).

٣ ر ش: عن مجازاتهم.

٤ ر – بل؛ ك – بل، صح هـ.

٥ ك – في الدنيا، صح هـ.

٦ ك – تسبح، صح هـ.

٧ ش ك: نصبه.

٨ سورة النمل، ٢٧/١٦.

٩ ك – مع داود، صح هـ.

١٠ سورة الإسراء، ١٧/٤٤.

١١ ش: سايلات؛ ك: سائلات.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٞ وَرَوَاحُهَا شَهْرٞۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢﴾

ولسليمٰن، وسخرنا لسليمان، **الريح غدوها**، من غدا يغدو، إلى المكان المقصود، **شهر**، من سير الناس، **ورواحها**، رجوعها إلى موضعها في آخر النهار كذلك، **شهر**. ولمّا ذكر الغدوّ والرواح استغنى عن ذكر اليوم. **وأسلنا له عين القطر. ومن**، وسخرنا من، **الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه. ومن يزغ**، يَمِلْ، **منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير**، "من" لتبيين الجنس. وذكر في كتب أنبياء بني إسرائيل ما هذا نصُّه: وكان لسليمان سبعون ألفا يحملون بالأقوات، وثمانون ألفا يقطعون في الجبال،[1] يريد من بني آدم.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾

يعملون له ما يشاء من محٰريب وتمٰثيل، صُوَرًا،[2] أي صورةَ ما شاء من كل حيوان، **وجفان كالجواب**، جمع جابية كخوابي من خابية، وأصلها من جاب، أي قطع. فهي، **كالجواب**، ومنه الجُبّ المقطوع في الحَجَر، **وقدورٍ راسيٰت**، قيل: لا تتحرك من موضعها لثقلها. وقيل: **راسيٰت**، أي غارقة في البناء لطولها. **اعملوا ءالَ داوود شكرا**. وإنما قال: **اعملوا**، أي[3] اعملوا عملا صالحا يكون ذلك العمل شكرا على عمل الله معكم، فهو شكر بالفعل لا بالقول فقط. **وقليل من عبادي الشكور**.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ١٤﴾

ثم نبه الله تعالى على الموعظة الكبرى بسليمان لكونه مكّنه مما مكنه منه وكان مصيره إلى الموت، فقال: **فلما قضينا عليه الموت ما دلهم علىٰ موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته**، عصاه، لأنه كان أقيم عليها متوَكِّئا يظنه من يراه حيّا قائما حتى أكلتِ الدودةُ عصاه فثقل عليها فانكسرت فخرّ على الأرض. **فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا**

---

[1] انظر: الملوك الأوّل ٥/١٥.
[2] جميع النسخ: صور.
[3] ك - أي، صح هـ.

يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين. والمراد إعلام الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب، لأنه إذا تبينت الجن بهذه الصورة أنهم لا يعلمون تبينت الإنس بها أيضا أن الجن لا يعلمون.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

ولمّا ذكر النِّعَمَ على سليمان أضاف إلى ذكر موته ذكرَ موت الأمّة التي كان قد دعاها إلى الله، لأن قصة سبأ[١] كانت في حياة سليمان من جملة ما آتاه[٢] من عظمة الملك فجعلها الله أيضا موعظة بعد ذكره فقال: **لقد كان لسبإ فى مسكنهم ءاية**، دالة على عظم ما آتاهم الله في الدنيا ليشكروا. **جنتان عن يمين وشمال**، يمين الوادي. **كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور**، أي أوحينا[٣] إليهم ذلك بلسان سليمان.

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

فأعرضوا، عن أمرنا. **فأرسلنا عليهم سيل العرم**، قيل: مشتق من الصبي العارم، أي بيّن العُرام بضم العين، ومعناه الشَّرِس.[٤] ويحتمل أن يكون العرم المجتمع بعضُه على بعض كالعُرْمَة،[٥] فهو بمعنى سيل الماء[٦] العرِم، وهو لازم مثل هَرِم يَهْرَم فهو هَرِم. ومما نُقل أنهم كان لهم سِكْرٌ[٧] عظيم في أعلى الوادي قد حجز الماءَ عن أن يمرّ إلا في مسالكَ معلومةٍ بمقدار معلوم. وبقي الماء[٨] معرَّما وراء السِّكر. فأرسل الله جُرَذا[٩] فنقب في أسفل السكر. ثم لِعظم الماء وراءه لم يستطع أحد تلافيَه، فخرق خرقا هائلا أرسل الله عليهم منه سيلَ ذلك الماء العرم، والله أعلم. **وبدّلنٰهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل**،

١ ك - سبأ، صح هـ.
٢ ر: ما أوتيه.
٣ ك: أي وأوحينا. وفي هامش ك : أوحينا.
٤ الشَّرِسُ: السّيءُ الخُلُق، عَسِرُ الخُلُق، شديدُ الخلاف (لسان العرب، «شرس»).
٥ العُرْمة: الكومة من القمح المدوَّس الذي لم يُذْرَ (المعجم الوسيط، «عرم»).
٦ ر ش - الماء.
٧ السِّكْر: العرِم، وكل ما سُدّ به النهرُ والبَثْق ومُنفجَرُ الماء (تاج العروس للزبيدي «سكر»).
٨ ر: المار.
٩ الجُرَذ: الذكر من الفأر. وقيل: الذكر الكبير من الفأر. وقيل: هو أعظم من اليربوع أكدَر في ذنبه سواد. وقيل: هو ضربٌ من الفأر (لسان العرب، «جرذ»).

بضم الألف والكاف وهو مما يؤكل، **خَمْطٍ وأَثْل**، الخمط كل شجر ذي شوك في قول أبي عبيدة.[1] وقال الزجاج: نبتٌ قد أخذ طَعْما من المرارة حتى لا يُمكن أكلُه للناس.[2] والأثل، قيل: هو الطَّرْفَاء.[3] ولمّا كانت الجنة[4] ما يَجِنّ ويستر[5] وجاء ذلك
[٣٤٦و] السيل / وأهلك العروشَ نبت ما عادتُه أن يَنْبُتَ على مجاري المياه من شجر يُظل كالطَّرْفاء ومثلها. ثم عرّفَنا أن ذلك كانَ قليلا بقوله: **وشيء من سدر قليل**. فيحتمل عودة القليل على الخمط والأثل، وكان السدر أقل لقوله: **وشيء مِن سِدْر**. ويحتمل وشيء قليل من سدر، وأخِّر للوزان، والأول أولى. فلو كان ما بدّلهم الله به كثيرا ربما كان فيه نزهة للنظر. فأبى الله حتى ذلك.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

ذلك جزينٰهم، جزاء الدنيا قبل جزاء الآخرة. لأن الكافر والمؤمن يجزى في الدنيا أيضا، لكنه كما أن جزاء المؤمن في الدنيا لا ينقص جزاءَه في الآخرة كذلك جزاء الكافر في الدنيا لا ينقص عذابه في الآخرة، **بما كفروا**. وإنما جزاهم[6] ذلك في الدنيا ليتوبوا. **وهل نُجْزِى**، كذلك في الدنيا، **إلا الكفور**. والمجازاة مشتقة من الجزء، لأن ثواب العمل يكون على كل جزء منه.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾

وجعلنا، أي[7] بعد إرسال السيل، وهذه نعمة أخرى ذكرها الله، كقوله: ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ.[8] فقال بعد الجزاء: **وجعلنا بينهم وبين القرىٰ التى بٰركنا فيها**، قُرَى بيتِ المقدس، **قرًى ظٰهرة**، لتواصُل بعضها ببعض تَظهر كلُّ واحدة من القرية التي تلاها. وهذا يدل على الأمن وأنواع الراحات. **وقدرنا فيها السير**، أي جعلنا السير بين القريتين

---

[1] مجاز القرآن لأبي عبيدة، ١٤٧/٢. وانظر أيضا: تفسير القرآن الكريم للخطيب الشربيني، ٢٦/٦.

[2] معاني القرآن للزجاج، ٢٤٩/٤؛ وزاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٤٤٦/٦.

[3] الطرفاء: جنس من النبات منه أشجار وجنبات من الفصيلة الطرفاوية ومنه الأثل (المعجم الوسيط، «طرف»).

[4] ش: الجن.

[5] ش: ويسر.

[6] ش: جزاؤهم؛ ك: جزاءهم.

[7] ش - أي.

[8] ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ (سورة الإسراء، ٦/١٧).

من هذه القُرَى إلى أن يحل فيها مقدرا. وذلك كالمرحلة التي مقدارها كمقدار المرحلة الآخرى، وهي صغيرة بحيث إن الإنسان إذا نزل إنما ينزل في قرية لا في بَرّ. وإذا سار إنما يسير في أرض قرية فيكون آمِنا. ودل على ما قلناه بقوله: **سيروا فيها ليالى وأياما ءامنين**، ليعرّفَنا الأمن في الليل وأنه كان جعل لهم قُرًى كثيرة بحيث لا يصلون من سبأ إلى قرى بيت[1] المقدس إلا في ليال[2] وأيام. وهذا يدل على كثرة القرى خصوصا. وقد قدّر السيرَ إلى حين الحلول في القرية الواحدة منهن بأمان. وهذا[3] يدل على أنه لم يكن بين القريتين منهما أكثرُ من مرحلةٍ لاحتمال أن القرية تظهر من الأخرى وبينهما أيام.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾

فقالوا ربنا بٰعد بين أسفارنا، المراد -والله أعلم- أنه لمّا قال: كُلُواْ... وَٱشۡكُرُواْ، لم يقنعوا بما آتاهم الله في البلدة الطيبة وطلبوا التَّزَيُّدَ بالتجارات إلى البلاد البعيدة حبا للدنيا لقلة ميلهم إلى الآخرة وعدمِ القناعة وإعراضِهم عن طلب المغفرة. ولهذا قال: وَرَبٌّ غَفُورٌ.[4] وقد علمت أن الطريق إذا كان بعيدا لزم أن يكون بين السفرتين [أيضا] بعيدا وهي سفرةُ الظهور وسفرة العودة. وهذا قالوه بحالهم، كما تقول حاكيا عن عملِ شخصٍ قد لجّ فيما نهيته عنه فتقول: قال ما يصبر، فهذا الإخبار منك عن قولِ حاله ودعواه لا عن قول لسانه. ولهذا آخر الآية، **لكل صبار شكور**، إشارةً إلى[5] أنه تعالى أمرهم بالصبر والشكر. فأبوا فعاقبهم بما طلبوه.

وظلموا أنفسهم، بكفرهم، وهذا بعد ما أسال عليهم أي على مكانهم السيلَ، أي فعلْنا ذلك فلم يرجعوا عن كفرهم. ثم فعلنا ذلك فلم يرجعوا. **فجعلنٰهم أحاديث**، لا يُرى لهم أثرٌ ولا باقية. فلم يَبْقَ منهم بين الناس إلا الأحاديث. **ومزّقنٰهم كُلَّ مُمَزَّق**، أي مع كل شيء ممَزَّق أو ككل[6] شيء، ويحتمل ما معناه كلَّ تمزيق. **إن فى ذٰلك لآيٰت لكل صبار شكور**، أي لَعلاماتٍ تَدل الصابرين على طاعة الله وعن معاصيه والشاكرين على نِعَمه سبحانه

---

[1] ر: البيت.

[2] ش: في ليالي.

[3] ر: وهو.

[4] الآية ١٥ من هذه السورة.

[5] ك - إلى، صح هـ.

[6] ش: أو لكل.

أنهم إن لم يصبروا ويشكروا دائما عُوقبوا كما عُوقِب أهلُ سبأ. أعني عجّل لهم في الدنيا العقاب وأجّل لهم في الآخرة العذاب.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾

ولقد صدق عليهم إبليس ظنه، أي في ظنه، وهو قوله: لَأُضِلَّنَّهُمْ،[1] ومثل ذلك.

[٣٤٦ظ] فلمّا[2] قال عن إبليس: إنه، **صدق**، عرّفنا / أنه لم يكن أهلا للصدق وإنما هو ظنٌّ ظنه فأضلهم،[3] **فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين**، "من" للتبعيض، لأن المؤمن يتبعه.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٢١﴾

وما كان له عليهم، أي على المؤمنين وغيرهم من سائر المتبعين، **من سلطن إلا**، أبحناه أن يدعوَهم، **لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ**، يحفظ أعمال المؤمنين والكفار ويُحصيها ويجازي بها. وجملة المعنى أن الله تعالى عَلِم ما سيكون منهم باختيارهم وكسبهم وقصدٍ منهم فخلق لهم مَن يدعوهم لا غير. وذلك ليظهر لهم ما علمه سبحانه منهم فتكون لله الحجةُ عليهم عندهم وباعترافهم لئلا يكون سبحانه ظالما لهم فيما يظنونه أو يعتقدونه فيه، وإن لم يكن ظالما في نفس الأمر. تعالى عن ذلك. فأطاعوا الداعي ولم يكن له تسلطٌ عليهم قبل ذلك. فافهم ولا تظن أنه أجبرهم على طاعة الشيطان، تعالى الله عن ذلك. وقوله: **لنعلم**، بيّنّاه في عدة مواضع.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢﴾

ولمّا كانت قصة سبأ ههنا لم تُتْلَ إلا إنذارا لمن كفر قال بعد فراغ القصة التي أخبر بها[4] عمن كان يشرك بسجوده للشمس من دون الله: **قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السمٰوٰت ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك**، أي من مشاركة مع الله، **وما له منهم من ظهير**.

---

١ ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ (سورة النساء، ١١٩/٤).

٢ ش: ولما.

٣ ش ك: فأضلنهم. وفي هامش ك: فأضلهم.

٤ ر: أخبرها.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾

ولا تنفع الشفْعة عنده إلا لمن أذن له، فالإذن من الله للشافعين إن أذن لهم أن يشفعوا في شخص معين نفعت شفاعتُهم وإلا فلا. ومنه مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ.[١] ومن قرأ بضم ألف "أذن"[٢] فيحتمل أن يعود المعنى إلى ما قلناه؛ ويحتمل أن يكون من باب وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ،[٣] أي من ارتضى الله أن يشفع فيه. ويكون المعنى لا تَنفع الشفاعة إلا لمن أذن له أن يشفع فيه، فيكون[٤] معنى "له" أي لأجله. والإذن على كِلَا التقديرين لا يكون إلا للشافعين. **حتىٰ إذا فُزِّع**، كُشف، **عن قلوبهم**، يقال: أفزعتُه ذعَرته، وفزعته[٥] نفّست عنه، مثل أفديت وفدّيت وأمرضت ومرّضت. والضمير في "قلوبهم"، عائد على الكفار. وهذا كقوله: فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ.[٦] فلمّا قدّم ههنا قوله: مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ،[٧] ذكر الحِجاج بينهم يوم القيامة فقال: **قالوا**، المؤمنون للكفار: **ماذا**، كلمة واحدة، ولهذا جاء جوابه في قوله: **قالوا الحق**، بالنصب. ولو كان على كلمتين لجاز الرفع على ما سبق في النحل في قوله: مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ،[٨] برفع الراء، فافهمه جيدا. ومعنى قول المؤمنين للكفار: **ماذا قال ربكم**، أي فيما تواعدكم به، لأنهم كانوا يكذِّبون الوعيد، **قالوا الحق وهو العلىّ الكبير**.

﴿۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥﴾

قل من يرزقكم من السمٰوٰت والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلىٰ هدى أو فى ضلٰل مبين، وهذا غاية الإنصاف في الحِجاج. ولمّا جاز أن يقول الكفار: أنتم في ضلال عن دين آبائكم قال بعده: **قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون**.

---

[١] سورة البقرة، ٢/٢٥٥.

[٢] قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف بضم الهمزة، وافقهم الأعمش واليزيدي والحسن، والباقون بفتحها (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٤٦٠).

[٣] سورة الأنبياء، ٢١/٢٨.

[٤] ك – المعنى لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له أن يشفع فيه فيكون، صح هـ.

[٥] ك: وفرغته.

[٦] ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ (سورة ق، ٥٠/٢٢).

[٧] الآية ٢١ من هذه السورة.

[٨] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ (سورة النحل، ١٦/٢٤).

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

قل أرونى الذين ألحقتم به، أي بالله، **شركاء**، تقديره أهم أرباب العزة والحكم؟ **كلا بل هو الله العزيز الحكيم**، لا غيره.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

وما أرسلنٰك إلا كافة، أي تكفُّ[1] الكلَّ بمعنى من الكفاية، لا من الكف الذي يعود إلى الانكفاف، **للناس بشيرا، ونذيرا، ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون**.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

ويقولون متىٰ هٰذا الوعد إن كنتم صٰدقين، قل لكم ميعاد يوم لا، يُمكنكم، **تستئخرون عنه ساعة ولا تستقدمون**، بمعنى لا تتقدمون عنه ولا تتأخرون.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

وقال الذين كفروا لن نؤمن بهٰذا القرءان ولا بالذى، تقدم **بين يديه**، من الكفار قائل بالحال وإن لم يُبدِ المقالَ. **ولو ترىٰ إذ الظٰلمون موقوفون عند ربهم يرجع**، [٣٤٧و] أي يرد، **بعضهم إلىٰ بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين / استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين**.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

---

١ ك: أي تكيف.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣﴾

وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر اليل والنهار، أي بل مكرُكم بنا طولَ الليل والنهار فعل بنا هذا. وأضاف المكر إلى الليل والنهار كما تقول: قيام الليل وصيام النهار. **إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا. وأسروا الندامة لما رأوا العذاب**، لأن في إظهارها شماتةً. **وجعلنا الأغلٰل فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون.**

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤﴾

﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾

وقالوا نحن أكثر أموٰلا وأولٰدا، أي فهلا أُرسِلنا نحن، **وما نحن بمعذبين**، أي لا آخرة ولا جزاء.

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾

فقال الله تعالى: **قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**، فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ،[1] أي فليس الرزق الذي آتاكم ربي دليلا على استحقاقكم وإكرامكم ولا منعُه لغيركم دليلا على إهانة الله له،[2] لكن الجميع ابتلاءٌ. **ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون.**

﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾

وبيّنه بقوله: **وما أموٰلكم ولا أولٰدكم بالتى تقربكم عندنا زلفىٰ**، قربى، وهو مصدر. والزلف واحدها زلفة بالهاء وليس ما هو بالياء من ذلك المعنى، **إلا من ءامن وعمل صٰلحا**، بالأموال وغيرها. **فأولٰئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفٰت ءامنون.**

---

[1] ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ (سورة الفجر، ٨٩/١٦).

[2] ر – له.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ٣٨﴾

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾

قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له، لمن يشاء بعينه.[١] وقد بيّنّاه في موضع آخر. **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرٰزقين.** إنما كرر هذه لأن الأولى جواب لقولهم: نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا.[٢] فكان جوابهم: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ،[٣] ولم يقل: "له" ليُفهَم من ذلك -مع ما نبيّنه- و"يقدر عليه"، فهو بسطُ فتنة وعذابٍ، كقوله: إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا.[٤] لهذا أتبعه بقوله: وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ،[٥] وتمامه. وكذلك التقدير أيضا تقدير نقمة لأنه عليه لا له، كقوله: فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ،[٦] وأما الثانية فهو بسطُ رحمة ونعمة. ولهذا زاده قوله: "له"،[٧] فالأولى بسطُ نقمة والثاني بسط نعمة. ولهذا جاء بعد الثاني: **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه.** والكلام في التقدير كالكلام في البسط. ولهذا أسقط "له" في الأولى وأثبتها[٨] في الثانية ليكون التقدير في الأُولى كالبسط الأول، وفي الثاني كالثاني، فالأول "عليه" والباقي "له". وفيه أيضا أن الأول مطلق يَعُمُّ كلَّ ذي رزق، كقوله: وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا.[٩] ويُفهَم منه أنه يبسط لواحد[١٠] ويقدر على آخر، والثاني مخصَّص.[١١] ولهذا قال: "له"، فيكون البسط وضده لواحد بعينه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٤٠﴾

ويوم يحشرهم جميعا، أي هم وما يعبدون، **ثم يقول للملٰئكة أهٰؤلاء،** الكَفَرة، **إياكم كانوا يعبدون.** "إياك" لفظة تدل على حقيقة المخاطب. ولهذا قيلت للتحذير. شعر:

فإياك والأمرَ الذي إن توسّعتْ ... موارده ضاقت عليك المصادرُ.[١٢]

---

[١] ر - بعينه.

[٢] الآية ٣٥ من هذه السورة.

[٣] الآية ٣٦ من هذه السورة.

[٤] ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (سورة التوبة، ٨٥/٩).

[٥] الآية ٣٧ من هذه السورة.

[٦] ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ (سورة الفجر، ١٦/٨٩).

[٧] ر - له.

[٨] ر ك: أثبتها.

[٩] سورة هود، ٦/١١

[١٠] ر: الواحد.

[١١] ر + ولهذا قال من عباده.

[١٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٤١٨/٢١.

ومعنى "أهؤلاء" الإيجابُ بلفظ الاستفهام ليقع القولُ عليهم بجواب الملائكة لله إذ سألهم.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١﴾

قالوا سبحٰنك أنت ولينا من دونهم. المعنى أن العابد إذا اتخذ المعبود وليّا لزم عنه أن المعبود يتخذ العابد وليّا، وقد جاء النص بمثل ذلك. فأما الأول / فكقوله: ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ.[1] وأما الثاني فكقوله: أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ.[2] فقول الملائكة:[3] **أنت ولينا من دونهم**، يلزم عنه لم يتخذهم أولياء. ولازم هذا اللازم لم يتخذونا أولياء. وفسروا ذلك بقوله:[4] **بل كانوا يعبدون الجن**. فبالقول الأول نفوا عن أنفسهم الموالاة[5] للعابدين، إذ أثبتوا الموالاة[6] لله، وفي الثاني نفوا عن العابدين عبادتَهم للملائكة، إذ أثبتوا عبادتهم للجن، فافهم. ثم ذكروا صورة العبادة بقولهم: **أكثرهم بهم**، بالجن،[7] **مؤمنون**، أي وكان الواجب أن يكون الإيمان بالله لا بغيره، إذ الطاعة تترتب على الإيمان. والإشارة إلى طاعتهم للشيطان وقَبيلِه. ولكل إنسان شيطان، وهو من الجن، فهو مستجن فيه والناس المطيعون لهم هم عابدون الجنَّ. فافهم هذا جيدا في مواضعه، أعني عبادة الجن. وهذا من باب ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ.[8] ويجب أن تعلم أن الإنسان يتقرب إلى الله بالنوافل، كما قال: «حتى أكون سمْعَه الذي يَسمع به وبصرَه الذي يُبصر به».[9] والمراد ليس الاتحاد بالهوية، وإنما هو مثلٌ لغاية القرب لفرط اتصاف الإنسان بصفة الرضا. وكذلك إذا اتصف الإنسان بصفات الشيطان فيكون الشيطان هو القائلَ الفاعلَ. فافقه هذا جيدا جيدا.[10] [٣٤٧ظ]

---

[1] ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٥٧).

[2] سورة يونس، ١٠/٦٢.

[3] ر: فقوله للملائكة.

[4] ر: بقولهم.

[5] ش ك: الموالات.

[6] ش ك: الموالات.

[7] ر - بالجن، صح هـ.

[8] سورة التوبة، ٩/٣١.

[9] يشير المؤلف إلى قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها. وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه. وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته» (مسند أحمد بن حنبل، ٦/٢٥٦؛ وصحيح البخاري، الرقاق ٣٨).

[10] ك - جيدا جيدا، صح هـ.

واعرف الجن والشياطين من قِبَل الإنسان. فهذا هو المراد بخطاب الإنسان وإن كان الجنُّ غيرَ ذلك. وأما قوله: **أكثرهم**، لأن بعضهم يعبد الشمس والأصنام لكن الأكثر يعبدون الجن.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ثم خاطب الله الكفار بقوله: **فاليوم لا يملك بعضكم لبعض**، العابد والمعبود من الجن والإنس، **نفعا ولا ضرا**. وإذ قد فهمت المقصود بلفظ الجن والشياطين وهو ما يتعلق بالإنسان، وعلمت أن الإنسان تارة يكون شيطانا وتارة ملكا وتارة بعض الحيوانات فاعرف كُلًّا بصفته. واعلم أن لكلّ رتبة خلقا ولكل خلق صفةً وخُلُقا. فمتى اتصفت النفسُ بصفة حيوان أو شيطان كان ما كان صارت النفس من أهل تلك الرتبة، ولها مددٌ من رتبتها وتُحشَر يوم القيامة مع أصحاب تلك الرتبة على صورهم، لأنها كانت في الدنيا على صُوَرهم المعنوية ممدودة من أخلاقهم[1] وصفاتهم في أقوالهم وأفعالهم. وهذا معنى الحديث «وتحشرهم النار مع القردة والخنازير».[2] ولا يمنع هذا أن الله تعالى خلق أجساما لطيفة هم الجن وأرواحا[3] شريرة هم جن وشياطين، بل ذلك كما خلق الأجسام والأرواح الكثيفة واللطيفة من الحيوانات، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ.[4] والإنسان مع ذلك كله فيه ما في كل شيء، وله باختياره وكسبه إن شاء تَشَبُّهٌ بكل مخلوق حتى يبقى في الحقيقة كأنه هو. وذلك كالأسد في الغضب والخنزير في الشهوة. وإنما خُلق الكل لأجل الإنسان. فهو تارة جزءٌ وتارة كل، وتارةً فوق كل مخلوق وهو الإنسان الكامل، أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ،[5] وضدهم من بني آدم شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ.[6] والترغيب كله إنما جاء من أجل الرتبة العلية، لأنها فوق ما يقال وما يخطر في البال.

---

[1] ر ك: من أخلافهم.

[2] عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ستكون هجرة بعد هجرة، فخيارُ أهل الأرض أَلْزَمُهم مُهاجرَ إبراهيم. ويبقى في الأرض شرارُ أهلها تَلْفِظُهم أرضُوهم تَقْذَرُهم نفسُ الله وَتَحْشُرهم النار مع القردة والخنازير (المصنف لعبد الرزاق الصنعاني، ١١/٣٧٧؛ وسنن أبي داود، الجهاد ٣).

[3] ر: الخنازير أو أرواحا.

[4] ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل، ١٦/٨).

[5] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ (سورة البينة، ٩٨/٧).

[6] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ (سورة البينة، ٩٨/٦).

والترهيب كله من أجل فواتها فكيف والأمر بعكسها. **ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون.**

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

وإذا تتلىٰ عليهم، في الدنيا، **ءايٰتنا بينٰت قالوا ما هٰذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد ءاباؤكم، وقالوا ما هٰذا،** القرآن،[1] **إلا إفك مفترًى،** وهذا الكلام عن عُبّاد الأصنام بدليل قوله: **يعبد ءاباؤكم.** ثم قال الله عنهم وعن أهل الكتاب وكُلِّ كافر: **وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هٰذا إلا سحر مبين.**

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾

[٣٤٨و] ثم قال عن العرب / -وهم المذكورون بقوله: وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا-:[2] **وما ءاتينٰهم من كتب يدرسونها،** أي قبل هذا الكتاب. ولمّا لم يكن الكتاب إلا مع نذير قال مبينا: **وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير،** تقديره إلا قالوا عنه كما قالوا هؤلاء عنك، وعن الكتب كما قالوا عن كتابك.[3] واعلم أن من جملة النعم كونُ الإنسان يحتاج إلى الدرس، لأنه لو حفظ المقصود أولا من مرة واحدة لم يتكرر على ذهنه وسمعِ غيره، فجعل الله احتياج الإنسان إلى الدرس رحمةً ليتدبر ما يقول ويتدبره من يسمع، فافهم.[4]

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا، هؤلاء، **معشار ما ءاتينٰهم،** أي ما آتينا أولئك من القوة والبأس والأموال. وقوله ثانيا: **فكذبوا،** أي هؤلاء كما كذب أولئك، **رسلى فكيف كان نكير،** أي كيف كان حال مَن أنكرني من الذين من قبلهم، تقديره[5] وكذلك تكون

---

١ ر - القرآن، صح هـ.

٢ من الآية السابقة. | ك - ثم قال عن العرب وهم المذكورون بقوله وإذا تتلى عليهم ءايٰتنا، صح هـ.

٣ ر - تقديره إلا قالوا عنه كما قالوا هؤلاء عنك وعن الكتب كما قالوا عن كتابك، صح هـ.

٤ ر: فافهمه.

٥ ر ك: وتقديره.

عاقبة هؤلاء وسائر المكذبين. واعلم أن العُشْر واحد من العَشَرَة،[1] والعشير عُشْر ذلك[2] والمعشار [كذلك] عُشر[3] العشرة.[4]

﴿۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ۝٤٦﴾

قل إنما أعظكم بوٰحدة، هي، **أن تقوموا لله مثنىٰ وفرٰدىٰ ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة**، "ما" نافية. ويحتمل أن تكون: أيّ شيء به؟ والأول أولى. وقوله: **تقوموا**، كما تقول لصاحبك: قم في هذا الأمر، أي بكل جدّك، أي كُنْ أنت القائم بتحقيق هذا؛ أي إن فعلتم ذلك وجدتم بالعقول والتفكر أن ليس به جِنة. **إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد**.

﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ۝٤٧﴾

قل ما، بمعنى[5] مهما، **سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو علىٰ كل شيء شهيد**.

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ۝٤٨﴾

قل إن ربى يقذف بالحق، على الباطل فيدمغه،[6] والجملة في موضع المبتدأ وخبره، **علام الغيوب**، وأخِر للوزان.

﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾

قل جاء الحق، القرآن، **وما**، نافية، **يبدئ البٰطل**، خطابا بعد ما جاء الحق،[7] **وما يعيد**، جوابا، وكَنَى عن أهل الباطل بالباطل.

﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ۝٥٠﴾

---

١ ر: من عشرة.

٢ أي عشر العَشرة.

٣ ر ك: غير.

٤ انظر: لسان العرب، «عشر».

٥ ر: يعني.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ١٨/٢١).

٧ ر - خطابا بعد ما جاء الحق، صح هـ.

قل إن ضللت فإنما أضل علىٰ نفسي، أي عائد ضلالي على نفسي. **وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربي**. انظر كيف علّمه الله الحق، إذ نسب الضلال إلى نفسه فلم[١] يقل: فبقضاء ربي وقدَرِه. وإنما يقضي الله بالضلال عقابا بعد العمل وإن كان القضاء به علما في سابق الأزل. فكلٌّ بالقضاء والقدر، وليس العبد على ذلك بمجبَر، فافقه جيدا واحذر. **إنه سميع قريب**، فقد سبق قضاؤه وقدره علمًا وتأخر فعلا، فعلمه قبل، وفعل العبد قبل فعله بالعبد. والعلم منه يتبع المعلوم من أفعالنا ولا يغيرها. فلمّا كان في علمه الأزل الذي لم يزل أنه يخلق عبدا مكتسِبا وأنه سيكتسب باختياره غير مجبَر سوءً[٢] قضى أيضا في الأزل. وأنزل في كتابه القديم المنزل[٣] مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ،[٤] من غير إجبار في الآخر ولا في الأول بل ربما أجبره عقابا وقضى له بالنار ثوابا. والعلم والقضاء والقدر لم يُجبِر العبدَ على العمل وإن كان ذلك كلُّه في الأزل لم يزل، فافقه واعمل.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٥١﴾

ولو ترىٰ إذ فزعوا، فزع إلى الوادي[٥] إذا أسرع، وتقديره: لرأيت عجبا أو عظيما، **فلا فوت**، أي لا ملجأ لأحد فيفوتنا. **وأخذوا من مكان قريب**، على الله يريد سرعة نفاذ الأمر تمثيلا بالقرب.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٥٢ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٥٣﴾

وقالوا ءامنا به، بالقرآن.[٦] **وأنىٰ لهم التناوش**، التناول، **من مكان بعيد**، عن التناول، أي بعيد عن المكان الذي تُقبل فيه الأعمال وهو الدنيا. ولهذا بعده: **وقد كفروا به من قبل ويقذفون**، القذف قول الباطل، والمقذوف ههنا القرآن، كقولهم: إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ.[٧] وقوله: **بالغيب**، أي بما غاب عنهم تحقيقه فهم يقذفون الدين والمؤمنين والرسولَ والقرآن. ولهذا قال مطلقا: **من مكان بعيد**، عن العقول الصحيحة. فقد بانت فائدة التكرار. ويحتمل أنه أراد بالمكان القلوب، وهي بعيدة عن الحق والصواب، / ومنها كان القذف. [٣٤٨ظ]

---

[١] ش: ولم.

[٢] ر: سواء.

[٣] ر ك - المنزل.

[٤] سورة النساء، ١٢٣/٤.

[٥] ر ش: إلى الوالي.

[٦] ر: القرآن.

[٧] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ (سورة الفرقان، ٤/٢٥).

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

ثم أخبر عنهم بعد ذلك بقوله: **وحيل بينهم وبين ما يشتهون**، من تناول الإيمان، وهو مطلق أيضا. **كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب**، شكيك بمعنى عجب[١] عجيب. ثم ختم السورة بما أقام به الحجة عليهم، إذ فعلُه كان تابعا لعقائدهم كفعله بمن قبلهم لمّا كانوا مثلهم

[١] ر - عجب. صح هـ

سورة فاطر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝١﴾

الحمد لله فاطر السمٰوٰت والأرض. روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ما كنت أدري ما معنى "فاطر" حتى احتكم إليّ أعرابيان في بئر. فقال أحدهما: أنا فطرتُها، أي ابتدأتُ بشقّها.[1] **جاعل الملٰئكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلٰث وربٰع يزيد في الخلق ما يشاء،** أي في خلق البشر. وهذا يدل على أن الملائكة في صور البشر وقد زادهم أجنحة، لأنهم رسل. **إن الله على كل شيء قدير.**

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾

ثم أتبع ذلك بما يدل على القدرة ويلزم عنها فقال: **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم.**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣﴾

يٰأيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خٰلق غير الله، ولا يعارض بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾،[2] فقد بيّناه،[3] ولأن أولئك لا يرزقون، وهذا، **يرزقكم من السماء والأرض،** بالمطر والنبات وهو عام أيضا. **لا إلٰه إلا هو فأنّى تؤفكون،** كما تقول: أين يذهب بك، وهو الذاهب.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٤﴾

وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور، فيجازي عليها سبحانه.

---

[1] جامع البيان للطبري، ١٧٥/٩؛ وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، ٣١٧٨/١٠.

[2] سورة المؤمنون، ١٤/٢٣.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآية ١٤ من سورة المؤمنون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥﴾

يٰأيها الناس إن وعد الله حق، ومن جملته[1] أن الأمور تُرجَع إليه. **فلا تغرنكم الحيوٰة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور**. يقال:[2] غرّه بهذا الشيء، أي فيه. فالمعنى لا يغرنكم[3] في طاعة الله كلُ غارّ[4] فتتركوها.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾

ثم ذكر أصل الغرور فقال: **إن الشيطٰن لكم عدو فاتخذوه عدوا**. إذا عرفت من الكتاب والعقل صفات الشيطان لتجتنبها أغناك ذلك عن عرفان ذاته وعن البحث عنها وعن ذوات الجن وما يكون منها. واعلم أن الشيطان مشتق من شاط يشوط شَوطا في الأرض وهو سرعة السير بها. وهذا صورة ما جاء في لسان العبري. والشيطان في الإنسان عبارة عن الخاطر الذي لا يستقر به الفؤادُ بل يشوط دائما ويَهيم في كل واد. والخاطر خاطران: علويٌّ باقٍ وهو الملكوتي، وينقسم إلى[5] أقسام هي بمنزلة الملائكة، وسفليٌّ فانٍ وهو الذي أُهبط من الجنة إلى أرض الحسّ، أعني مثلا. والجنة معناها مأخوذ من الاستتار للطفها ورَوْحَتِها، لأنها باقية. ومعنى الأرض الجسمانية[6] وما يتعلق بها من سائر الأغراض الفانية. فما كان من الخواطر روحانيا فهو ملكوتي وما كان جسمانيا فهو شيطاني. والقلب ممتحَن من الله في سائر الأحيان بالملك والشيطان ليترقّى[7] أبدا باتباع الملكوتي ونبذِ الشيطاني. وأصل كل خيرٍ وشر ونفع وضُرٍّ منوطٌ بالفكر في كل آن نوما ويقظة[8] من كل إنسان وبه يدعو الشيطانُ. **إنما يدعوا حزبه ليكونوا**، هم وإياه **من أصحٰب السعير**، وهي لام العاقبة.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧﴾

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾

١ ك: ومن جملة.
٢ ر - يقال؛ ك - يقال، صح هـ.
٣ ش: فلا يغرنكم.
٤ ش: غر.
٥ ر - إلى.
٦ ش ك: الجسمانيات.
٧ ر ك: ليرقى.
٨ ر ك: ويقضة.

أفمن زين له سوء عمله فرءاه حسنا، عقابا له، هذا وما بعده من باب العقاب له في الدنيا، لأنه مبني على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، [وقوله]: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.[1] ومحكم هذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[2] الآيتان أيضا. فبذلك يَذهب الإشكالُ من قوله: **فإن الله يضل من / يشاء**، أي بذنبه يَطبع به على قلبه. **ويهدى من يشاء**، برحمته لمن[3] يستحق الضلال إن شاء سبحانه إطماعا بهذا الوعد لكل مذنب في رحمته. **فلا تذهب نفسك عليهم حسرٰت**، أي من فرط الحسرات. وأزال الإشكال وبيّن صحة ما بيناه بما[4] قال: **إن الله عليم بما يصنعون**، فيجزيهم وصفهم. [٣٤٩و]

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾

ثم بيّن دليلا يدلهم[5] على قدرته سبحانه على البعث الذي يكون به الجزاءُ لمن ضل أو اهتدى فقال: **والله الذى أرسل الريٰح فتثير سحابا فسقنٰه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذٰلك النشور.**

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾

من كان يريد العزة، في الدنيا أو في الآخرة، وتقديره فليلتمسها عند الله وليس إلا بامتثال الأمر. **فلله العزة جميعا. إليه يصعد الكلم الطيب**، والكَلِم جمع كلمة كشَجَر جمع شَجَرَة. **والكلم الطيب**، كالدعاء، **والعمل الصٰلح يرفعه**، أي يرفع الكَلِمَ، فإن العمل إذا لم يكن صالحا لم يكن[6] الدعاء مقبولا، ولهذا لم يكن[7] إعرابُ العمل نصبا فإن الفاعل ليس اسم الله تعالى. وقوله: **يرفعه**، حال من الضمير في "إليه"، لا خبر مبتدأ، فافهم. فواو "والعمل" واو حال. **والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولٰئك هو يبور**، أي لا تظهر له فائدةٌ بل كما تَبور الأرض التي لم تُزرع.

---

١ من الآية السابقة.

٢ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (سورة محمد، ٤٧/١-٢).

٣ ك: ممن.

٤ ر - بيناه بما.

٥ ر - هم؛ ك - هم، صح هـ.

٦ ر - صالحا لم يكن، صح هـ.

٧ ش ك + الدعاء.

ومعنى "هو"، أي لا يَحتاج إلى عملهم السيء ليبور به المكرُ، كما احتاج الكلمُ الطيب إلى العمل الصالح ليرفعه. بل مكرهم هو في نفسه لا تَظهر له فائدةٌ ولا يكون له أثرٌ في الممكور به، بل هو يبور من جهة الممكور ويُجزَى به الماكر مكرا من الله.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

ثم نسق على قوله: وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ،[1] [قوله:] **والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزوٰجا**، فلما ذكر صُوَرا من القدرة أضاف إليها العلم فقال: **وما تحمل من أنثىٰ ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتٰب إن ذٰلك على الله يسير**. المعمر من وصل في العمر إلى الأجل المسمى إذ لا يُمكن أن يُزاد المرءُ عليه. وقوله: **ولا ينقص من عمره**، أي بذنبه بمعنى لا يُنقص عن الأجل المسمى له فتكون الزيادة له[2] بمعنى التأخير. ودليله قول نوح عليه السلام لقومه: وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى،[3] وتمام الآية، فافهمه.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

ثم ضرب مثلا آخر دالا على القدرة، فهو بدلالته على القدرة معطوف على ما قبله، وبما تضمنه من المَثَل منبئ[4] عن الكافر والمؤمن. وتقديره ما معناه كما أن الله خلق من النُّطَف سائر البشر وما يستوي المؤمن بالكافر وإن كان الكل من ماء، والكل ينتفع به. فكذلك ما ضربناه مثلا وهو قوله: **وما يستوى البحران هٰذا عذب فرات سائغ شرابه وهٰذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها**، وهذا وإن كان مثلا كما قد بيّنّاه فهو من دلائل القدرة، إذ لو رفع البرزخ من بين البحرين

---

١ الآية ٩ من هذه السورة.

٢ ر – له.

٣ ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة نوح، ٤/٧١).

٤ ش ك: مبني.

لبغى أحدهما على الآخر، فهلك الناس. فهو سبحانه جعل أن لا يستوي البحران رحمةً على نوع الإنسان وسائر الحيوان. وهذا الكلام أيضا[1] توطئة لِما بعده كما نبين عند قوله: وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ.[2] فافهم جملة المعنى متتابعا عند التلاوة ولا تغفُلْ بما نذكره[3] في التفصيل من تفهيم ما يتعلق بجزئيات الكلام عن فهم نتيجة جملته،[4] فهي الغاية المقصودة بالكلام. ولمّا ضرب البحر مثلا تمم الكلام الدال على القدرة بما يتعلق بالبحر فقال: **وترى الفلك فيه مواخر**، ذكرْنا تقديمَ "فيه" وتأخيرها،[5] **لتبتغوا**، بما فيه، **من فضله ولعلكم تشكرون**.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾

يولج اليل فى النهار ويولج النهار فى اليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى، وهو القيامة. **ذٰلكم الله ربكم له / الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون** [٣٤٩ظ] **من قطمير**، قِشْر النّواة.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيٰمة يكفرون بشرككم، تقديره:[6] إياهم، بمعنى يتبرءون منكم، وهو معنى قوله تعالى: إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟،[7] ومثله تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ.[8] وقوله: **ولو سمعوا**، يحتمل الآن أيضا لأن منهم من جاز أن يَسمع وإن لم يستجب، بمعنى لا يقدر أن يُنقذكم مما من أجله دعوتموه. **ولا ينبئك مثل خبير**، يشير إلى نفسه تعالى.

---

١ ر – أيضا؛ ك – أيضا، صح هـ.

٢ الآية ١٩ من هذه السورة. وانظر أيضا: سورة المؤمن، ٥٨/٤٠.

٣ ش ك: بما تذكره.

٤ ش ك: جملة.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ (سورة النحل، ١٤/١٦).

٦ ر: وقديره.

٧ سورة البقرة، ١٦٦/٢.

٨ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ (سورة القصص، ٦٣/٢٨).

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

ولا تزر وازرة، أي نفس حاملة من عملها لا تحمل عن غيرها، **وزر أخرى**، ولا يعارض بقوله:[1] وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ،[2] لأن ذلك لا ينقص عن المحمول من أوزاره شيئا بل يزيد الحاملَ لكونه أضل. ثم ضرب ههنا مثلا بالحامل من الأنفس ليبين [به] المقصود فقال: **وإن تدع مثقلة إلىٰ حملها لا يحمل منه شيء**، المراد نفس مثقلة بالذنوب. فعاد المعنى أنه لا يحمل أحدٌ عن أحد شيئا لا كُلًّا ولا جزءً، **ولو كان**، الداعي، **ذا قربىٰ. إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلوٰة ومن تزكىٰ فإنما يتزكىٰ لنفسه**، زكا الزرعُ إذا نما وعلا وارتفع. **وإلى الله المصير**.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾

وما يستوى الأعمىٰ والبصير، ولا الظلمٰت ولا النور، يريد مَثَلا للجاهل والعالم والكفرِ والإيمان. **ولا الظل**، يريد أدنى ما يكون من الظلمة، **ولا الحرور**، قوة الحر، لأنه محل النور، كما أن الظل محل الظلمة بالنسبة إليه.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾

وما يستوى الأحياء ولا الأموٰت، وهذا جميعه منسوق بقوله: وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ، وإنما أفرد ذلك وقدمه ليفيد به مثلا آخر بقوله: وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ.[3] ثم قال ههنا: **إن الله يسمع من يشاء**، إجبارا.[4] **وما أنت بمُسْمِعٍ من فى القبور**، أي كما لا تُسمع من مات كذلك لا تُسمع من مات قلبُه، إذ لا يقدر على ذلك إلا الله.

---

[1] ش: لقوله.

[2] ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (سورة النحل، ٢٥/١٦).

[3] الآية ١٢ من هذه السورة.

[4] ر ك: إخبارا.

﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣﴾

إن أنت إلا نذير، وهذا لا يدل على أن الموتى لا يسمعون[١] فيعارض بقوله عليه السلام: «ما أنت بأسمع منهم».[٢] وإنما هذا أراد به مثلا ضربه للكفار. فالمعنى لا تُسمع مَن في القبور إسماعا يعود عليهم نفعُه. ولهذا لم يقل: لا يسمعون بل لا تُسمع. ولمّا قدم [قوله:] إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ،[٣] أي فينتفعوا، وأعقبه بقوله: وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ،[٤] إشارةً إلى الكفار الذين هم كالأموات في قبور الأجسام أخبر عمن هو نذير له ولا ينتفع به. فكرر لفظ[٥] الإنذار ليخصِّص المذكورين من الكفار فقال: **إن أنت إلا نذير**.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥﴾

ثم كرر مطلقا مشيرا إلى سائر[٦] الناس بقوله: **إنا أرسلنٰك بالحق بشيرا ونذيرا**، والحق القرآن. ثم قال: **وإن من أمة**، أي من الأمم المهلَكة بتكذيبها النذيرَ، **إلا خلا فيها نذير**. ولهذا بعده: **وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينٰت وبالزبر وبالكتٰب المنير**، إنما ذكر الباء مع كل كلمة لئلا يلزم أن كل واحد من الرسل جاء بالجملة.

﴿ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾

---

١ ش: لا يستمعون.

٢ لم أعثر عليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر، فنحوه ما قال عمر: يا رسول الله! كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها؟ قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردّوا عليّ شيئا» (صحيح البخاري، المغازي ٨؛ وصحيح مسلم، الجنة ٧٦، ٧٧).

٣ الآية ١٨ من هذه السورة.

٤ من الآية السابقة.

٥ ر ك - لفظ.

٦ ك - سائر، صح هـ.

ثم ضرب مثلا للبعث الذي به يكون جزاءُ مَن كذّب ولم يؤاخَذ في الدنيا وجعل ذلك بطريق المفهوم اللازم من الكلام. والمراد به في الحقيقة إنما [هو] مثل الرسل وما جاءوا به من السماء. ولهذا [جاء] قبله ذكرُ الرسل وبعده بآيات: **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ**،[1] فاقرأ الجملة وافهم المجمل من المفصل فقال: **ألم تر أن الله أنزل من**
[٣٥٠و] **السماء ماء فأخرجنا به ثمرٰت مختلفا ألوٰنها**. ولمّا ذكر الثمرات وقصد اختلاف / الألوان من البينات ذكر المَعْدِن وخصّ الجبال بالذكر لعظمها فقال: **ومن الجبال**، أي نفسِها، **جدد**، قِطع، وهي جمع جُدَّة،[2] **بيض وحمر مختلف ألوٰنها**، في البياض وفي الحمرة، أي شيء أشدُّ بياضا أو حمرة من شيء. ورفع "جدد" لنعلم أنه ليس مما أخرجه بالماء. ولو أراد ذلك لكان منصوبا عطفا على [قوله:] **فأخرجنا**. فالكلام الأول جاء منفصلا والمعنى متصلا. وقوله: **وغرابيبُ سودٌ**، أي من الجبال وهي جمع غربيب. تقول: هذا أسود غِربيب، أي شديد السواد مثل أسودُ حالكٌ. وقولهم: جَعل السواد بدلا من غرابيب لأن تواكيد الألوان لا تقدَّمُ. فيحتمل أنه جعل ذكر السواد[3] بعد الغرابيب إيضاحا لِلَفْظة الغرابيب التي أراد بها الجبال السود. وغُرَّبٌ اسم جبل دون الشام في بلد بني كلب،[4] عنده عين ماءٍ تسمى غُرْبَةً. فذكر النبات ثم المَعْدِن بعده، ثم الحيوان. فقدم الإنسان بقوله:[5] **ومن الناس والدواب والأنعٰم مختلف ألوٰنه كذٰلك**. فقد علمت أن الجدد هي القِطع الملوّنة من الجبال نفسِها. ولمّا كان في كل لون ألوان قال: بِيضٌ مختلف ألوانها وحُمْرٌ، تقديره مختلف ألوانها. ثم ذكر السواد لأنه لون واحد لا اختلاف فيه. والبياض والسواد بينهما سائر الألوان. والحمرة طريق إلى السواد. ولفظة "الدواب" تَعُمُّ الطائر لأنه يدُبّ. وقال بعد ذكر الناس والدوابّ والأنعام واختلاف الألوان: **كذٰلك**، أي كما فصلناه في النبات والمَعْدِن في كل لون ألوان. ثم قال: **إنما**، وهي لفظة موضوعة لحصر الأول في الثاني، والمعنى أن غير العلماء لا يخشى الله. فلو قدّمتَ الفاعل على العباد وأخرت ذكْرَ اسم الله موضع العلماء فقلت: إنما يخشى العلماء من عباد الله كان المعنى أن العلماء لا يخشون أحدا إلا الله. فهو ههنا على الأول،

---

١ الآية ٢٩ من هذه السورة.

٢ الجِدّة الطريقة في السماء والجبل. وقيل: الجدة الطريقة والجمع جُدَدٌ (لسان العرب، «جدد»).

٣ ش: السود.

٤ بنو كلب: بطن من قضاعة. بنو قُضاعة قبيلة من حِمْير من القحطانية. غلب عليهم اسم أبيهم فقيل لهم قضاعة (نهاية الأرب للقلقشندي، ص ٤٠٠، ٤٠٨).

٥ ش – بقوله.

والثاني جاء للأنبياء مع الأول، فقال عنهم: وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ.[١] فافهم قوله: **إنما يخشى الله من عباده العلمٰؤا**. فقد علمت أن كل علم يزيد ولا يزيد به الخشية [فهو] ليس بعلم. فالعلماء المذكورون ههنا هم العلماء بالله. **إن الله عزيز غفور**. واعلم أنه لم يُرِدْ باختلاف الألوان اختلافها فيما ذكره فقط بل فيما ذكره من البياض والحمرة والسواد وغير ذلك كالصُّفرة والزُّرقة كما تجد في النبات. وقدم ذكر الدواب على الأنعام، لأن الدواب جنس يَظهر فيه الاختلاف أكثرَ مما يَظهر في النوع الواحد منه. ثم خصص نوعا واحدا منه بالذكر لعظم نفعه واشتهاره عند المخاطبين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾

ولمّا ذكر العلماء ذكر مَعْدِن العلم بل مَعْدِنِ كل علم وأتبعه بالعمل فقال: **إن الذين يتلون كتٰب الله**، أي بالتدبر والفهم لقوله: حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ.[٢] **وأقاموا الصلوٰة وأنفقوا مما رزقنٰهم سرا وعلانية يرجون تجٰرة لن تبور**. اعلم أن السكينة تتنزل بحسب الألسنة، فانظر بأي لسان تتلو. واللام في قوله: **ليوفيهم**، لام كي، **أجورهم ويزيدهم من فضله**، افهم أن هذا منسوق به ما يأتي، وهو قوله: ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ.[٣] ولهذا كرّر قوله ههنا: **إنه غفور شكور**، لأنه ههنا من إخبار الله عن نفسه، فكرره قبل قول المؤمنين: ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ.[٤] فهو هنالك من إخبارهم عن الله بصدق وعده، فافهمه كما سنبين.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١﴾

ولمّا ذكر الكتاب الذي قد يريد به اسم الجنس، أعني ما يتناول الكتب المنزّلة خصص ما يجب أن يُتلى منها من حين التنزيل إلى يوم القيامة بقوله: **من الكتٰب**. وكان يغني قوله: **والذى أوحينا إليك**، هو الحق فقال ما تقديره: الذي أوحينا إلى كل رسول

١ ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٣٩).

٢ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٢١).

٣ الآية ٣٢ من هذه السورة.

٤ الآية ٣٥ من هذه السورة.

حكمة كيت وكيت. **والذى أوحينا إليك من الكتٰب هو الحق**، الذي يجب أن يتلى. أوحيناه، **مصدقا لما بين يديه. إن الله بعباده لخبير بصير.**

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

[٣٥٠ظ] **ثم أورثنا الكتٰب**، اسم الجنس / يعُمُّ القرآنَ ويختص التوراة وإن كان الحُكم واحدا لكل قوم في زمنهم، أي أورثناه **الذين اصطفينا من عبادنا**، اصطفيناهم لميراث الكتاب على أهل زمانهم دون بقية الأمم في عصرهم وما بعده إلى أن يأتي الكتاب الثاني. **فمنهم ظالم لنفسه**، وهو في النار. **ومنهم مقتصد**، وهو في الجنة. **ومنهم سابق بالخيرٰت**، وهو في عليين. فأورث الله الكتاب لهؤلاء الفِرَق الثلاثة في كل زمن نبي حجة على الظالم وهدى للمقتصِد ونعمةً على السابق. وجميع العالم يوم القيامة هم هؤلاء على ما فصّلهم في سورة الواقعة بقوله: وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً،[1] الآيات. وقوله: **بإذن الله**، يشير إلى كل واحد من الظالم والمقتصد والسابق، أي ليس أحد من هؤلاء استبدّ بالقدرة، واقتصاده، أو سبقه إلا بإذن إعلاما أن الله تعالى ليس بمقهور بأفعال عباده بل هو الذي جعلهم مختارين وهو يَمُدّهم. فالعقاب على سوء الاختيار، والثواب على حسن الاختيار. ثم أخر لأجل الوِزان قوله: **ذٰلك هو الفضل الكبير**، وليعطف عليه ذكر الجنات وهو كما قدمناه[2] منسوقا بقوله: وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ.[3] **ذٰلك هو الفضل الكبير.**

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

جنّٰت، بالكسر على إضمار "في" بدليل قولهم عند الاعتراف بصدق الوعد: ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ،[4] أي في دار الإقامة، ولا يكون الفضل والزيادة منه إلا في[5] جنات، **عدن**. وإنما أخر ذكر الجنات ليكون المقتصد والسابق ممن كان تابعا للأنبياء

١ ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۞ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۞ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۞ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۞ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۞ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۞ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ (سورة الواقعة، ٥٦/٧-١٥).

٢ ر: كما قدمنا.

٣ الآية ٣٠ من هذه السورة.

٤ الآية ٣٥ من هذه السورة.

٥ ر - **بالكسر على إضمار في... أي في دار الإقامة ولا** يكون الفضل والزيادة منه إلا في، صح هـ.

في كل زمن من قبل محمد صلى الله عليه وسلم **في الجنات**، والظالمُ لنفسه بتكذيب رسوله **في النار**. ومن قرأ "جنات" بالرفع فهو على البدل من الفضل فهو تفسير للفضل كأنه قال: هو جنات عدن. ومن قرأ بالنصب[1] جعل الجنات زيادة على الفضل، أي ويزيد جنات عدن. وما قلناه أحق لما قدمناه. فاقرأ الآيات الأُوَل من قوله: إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ،[2] وهو ههنا القرآن. ولهذا قال: يَتۡلُونَ. فالمؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم هم الذين يزيدهم الله من فضله، لا أهل الكتاب الآنَ بل قبل الإرسال بالقرآن. فهذا الخطاب وإن كان يتضمن الإخبار عن الماضين فهو من حين الإنزال للأمة المحمدية المخاطَبة به من سائر العالمين. **يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب**، وهذا وعد للإناث وإن عمَّ الذكورَ كما بيّنّا من قبل، **ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير.**

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾

وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن، الذي في أهل النار لأنهم يرونهم. **إن ربنا لغفور شكور**، كرّر هذا اللفظ[3] بعينه بعد ما قدمه، لأنه هناك إخبار عن الله وهنا اعتراف منهم بالوعد. ولهذا لمّا قال: يَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦ،[4] قالوا: **الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب**، تعب، **ولا يمسنا فيها لغوب**، إعياء[5] وهو ما دون التعب، أي لا قليلٌ منه[6] ولا كثير.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦﴾

والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضىٰ عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذٰلك نجزى كل، بالضم تبعا لما قبله وقبله.[7] وقوله: **كل كفور**، يَعُمُّ الأوائلَ والأواخر في زمن كل نبي.

١ لم أعثر على هذه القراءات فيما بين يدي من كتب القراءات المعتمدة.
٢ الآية ٢٩ من هذه السورة.
٣ ش + بقوله.
٤ الآية ٣٠ من هذه السورة.
٥ ر: عباء.
٦ ش: منهم؛ ك: إعباء.
٧ لعل المؤلف يشير إلى لفظ "يُخَفَّف" وما قبله "يقضى" في نفس الآية. | "نجزي كل": قرأ أبو عمرو بالياء التحتية المضمومة، وفتح الزاي وألف بعدها، ورفع لام كل، والباقون بالنون المفتوحة، وكسر الزاي وياء ساكنة مدية بعدها، ونصب لام "كل" (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٢٦٣).

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعملْ صٰلحا غير الذى كنا نعملُ، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم يُحسنون صنعا. فجوابهم: **أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير**، وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ.[1] **فذوقوا فما للظّٰلمين من نصير**.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾

ثم خاطب الحاضرين بقوله: **إن الله عٰلم غيب السمٰوٰت والأرض**، أي فهو يخبر عما يكون من أمر المؤمنين والكفار بعد القيامة بحق بدليلٍ، **إنه عليم بذات الصدور**.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

[٣٥٦و] **هو الذى جعلكم خلٰئف فى الأرض**، وفي الأنعام: / خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ،[2] الإضافة هناك كقوله: مَلِك البلدة، وهنا مَلِكٌ في البلدة. والمعنى ههنا أن في الأرض خلائف غيرَهم. فالكلام ههنا عن قوم من جملة الخلائف،[3] وفي الأنعام فالخطاب لسائر الناس في كل زمن. ولهذا أتبعه ههنا بذكر الكفار دون المؤمنين، وهناك ذكر الابتلاء الذي يعُمُّ الكافر والمؤمن وختم بذكر ما يستحقه كلٌّ منهما. وهنا قال: **فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكٰفرين كفرهم عند ربهم**، في الدنيا،[4] **إلا مقتا ولا يزيد الكٰفرين كفرهم**، في الأخرى، **إلا خسارا**. ودليل ما قلناه:[5] في الدنيا والأخرى قولُه تعالى: لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ[6] كما بيّنّاه من أن المعنى لَمَقْتُ ٱللَّهِ، إذ تدعون في الدنيا أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ لأنفسكم في النار. ودليل الأخرى قوله تعالى: وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ.[7]

---

١ الآية ٢٤ من هذه السورة.

٢ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (سورة الأنعام، ١٦٥/٦).

٣ ك – غيرهم فالكلام ههنا عن قوم من جملة الخلائف، صح هـ.

٤ ر – في الدنيا، صح هـ.

٥ ش ك: ما قلنا.

٦ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (سورة المؤمن، ١٠/٤٠).

٧ سورة النمل، ٥/٢٧.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

ولمّا قال: مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ،[1] أتبعه بقوله: **إن الله يُمسك السمٰوٰت والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا**، أي وإلا لَمَا أمسكهما بدليلِ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ [وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا]،[2] الآية.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

وأقسموا بالله جهد أيمٰنهم، أي الأعراب، **لئن جاءهم نذير ليكونن أهدىٰ من إحدى الأمم**، المبعوثِ فيها نذيرٌ. **فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا استكبارا فى الأرض ومكر السيئ**، أضاف المكر إلى السيء لفرط اتصاف المكر به، وهذا كقوله: خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ؛[3] وأضاف[4] الخشية إلى الإنفاق لكونها صادرةً عنه. ومثله في الإضافة: بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ،[5] وليس لهما مكر بل فيهما. ومثله أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ،[6] وكان يقتضي شركائي لكنهم لمّا كانوا هم جعلوهم سماهم كذلك. ومثله وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ،[7] أي على حبهم له. ثم قال عن المكر السيئ: **ولا يحيق المكر السيئ**، أي لا يحيط جزاؤه، **إلا بأهله**. **فهل ينظرون**، ينتظرون، **إلا سنة الأولين**، أي سنتنا في العذاب،

١ من الآية السابقة.

٢ سورة مريم، ١٩/٩٠.

٣ ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ (سورة الإسراء، ١٧/١٠٠).

٤ ر: الإنفاق أضاف.

٥ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ (سورة سبأ، ٣٤/٣٣).

٦ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٢٢).

٧ ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (سورة الإنسان، ٧٦/٨).

فهي تابعة لسنتهم في التكذيب. **فلن تجد لسنة الله تبديلا**، فيما مضى إذا استقريت. **ولن تجد لسنة الله تحويلا**، إلى يوم القيامة.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾

أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عُقبة الذين من قبلهم وكانوا، أولئك، **أشد منهم**، من هؤلاء، **قوة**، فأهلكهم الله بذنوبهم ولم يُعجزوا الله عن مجازاتهم. **وما كان الله ليعجزه من شىء فى السمٰوٰت ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا.**

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

ولو يؤاخذ الله الناس، مؤمنهم وكافرهم، **بما كسبوا ما ترك علىٰ ظهرها**، الأرض، لأنه قدم ذكرها[1] ولشدة دلالة الدابة عليها، بقوله: **من دابة**. قال تعالى: هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا.[2] فلو آخذهم[3] أذهب ما خلقه من أجلهم وما هيّأه لمصالحهم، فيئول إلى هلاكهم بعد مفارقة المحبوبات وعدم الضروري من المسخرات، ومن ههنا وجب الاعتبار على من فقدَ دابة. ولمّا كان مراد الآية الإنسانَ لأنه من[4] جملة الدواب ذكر العام ليدخل فيه الخاص وإن جاز التأويل على ما قدمناه. **ولٰكن يؤخرهم إلىٰ أجل مسمى فإذا جاء أجلهم**، توفاهم، ثم يبعثهم ويجازيهم بعملهم. **فإن الله كان بعباده**، عند العمل منهم في الدنيا، **بصيرا.**

---

[1] أي ذكر الأرض، انظر: الآية السابقة.
[2] سورة البقرة، ٢/٢٩.
[3] جميع النسخ: فلو واخذهم.
[4] ر – من.

سورة يٰس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤﴾

يٰس. والقرءان الحكيم، المحكَم، لأنه كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ،[1] فاقسم به. **إنك لمن المرسلين، علىٰ صرٰط مستقيم.**

﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧﴾

ثم قال ما تقديره هذا القول: **تنزيل العزيز الرحيم، لتنذر قوما ما**، قيل: هي بمعنى الذي، أي لتخوفهم الذي خوّف آباؤهم منه، لأن الأرض لا تخلو من حجة، بدليلِ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن / قَبۡلُ.[2] فتكون الإشارة ههنا إلى أهل الكتاب الذي أُنذر آباؤهم، [٣٥١ظ] لأن من لا يُنذَر لا يعاقَب ولا يحق عليه القول،[3] وليس هذا مرادَ الآية بل المراد مشركو العرب. فإن هذه الآية تُطلق على بعضهم كما نبين. وذلك أن هذه السورة كان نزولها بعد نزول سُوَرٍ قبلها وبعد[4] إنذار منه عليه السلام لهم. فلمّا لم يؤمنوا حقَّ القولُ، ولهذا قال: **علىٰ أكثرهم**. ولا يعارِض قولَه: وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ،[5] لقوله: **ما أنذر ءاباؤهم**، لأن المعنى وإنْ مِنْ أُمَّةٍ مُهلَكة. وأما قوله تعالى: لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا[6] فليس ذلك من قول مشركي العرب بل هو حكاية عمن وُعد. والدليل على أن "ما" نافية قولُه: لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ.[7] ومثله وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ.[8] وليس المراد بقوله: "قَبۡلِك" إلى المذكورين المخصَّصين في زمن محمد فقط بل إلى جملة العرب من قبل محمد صلى الله عليه وسلم. والمراد لم يأتِهم نذيرٌ بكتاب كما أتى موسى بني إسرائيل.

---

١ ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (سورة هود، ١/١١).

٢ ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ (سورة المؤمنون، ٨٣/٢٣).

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ (سورة السجدة، ١٣/٣٢).

٤ ر: أو بعد.

٥ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ (سورة فاطر، ٢٤/٣٥).

٦ ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ (سورة المؤمنون، ٨٣/٢٣).

٧ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ (سورة السجدة، ٣/٣٢). وانظر أيضا: سورة القصص، ٤٦/٢٨.

٨ سورة سبأ، ٤٤/٣٤.

ولا شك أن العرب لم يكن لهم كتاب؛ وإليهم الإشارة بقوله: **ما أنذر ءاباؤهم فهم غٰفلون**.

واعلم أن من العرب من كان في تكليف العقول لا تكليف الرسول، وهم الآباء الذين لم يأتهم نذيرٌ قبل محمد صلى الله عليه وسلم. ولا يقال: إنهم ليسوا في النار مع كونهم مشركين، وذلك لأنهم لو وقفوا مع عقولهم دون أهوائهم لعرفوا التوحيد، لأنه فطرة الله التي فطر الناس عليها.[1] ولقد كانوا يعرفون الله كما أخبر عنهم بقوله تعالى: وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ.[2] ولا يلزمهم إقامة فرائض لأنهم لم يأتهم كتاب. وأمّا تعليل كون الآباء لم يأتِهم كتاب فيحتمل أن يقال: لمّا علم الله منهم أنهم لا يؤمنون لم يكن في إرسال الرسول إليهم فائدة، فأبقاهم الله إلى أن وُجدت الأبناء، فلمّا كان منهم من يتبع ومنهم من لا يتبع وجب الإرسال. ولقد[3] بيّن الله ذلك بقوله: إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ.[4] وبقي من لم يتبع ملحَقا بالآباء جزاء كما ألحق نفسه بهم اعتقادا؛ فاستحق الاستئصال، إذ كفر بالرسول[5] عنادا، أو أن يطبع على قلبه بكسبه وهو معنى قوله:[6] **لقد حق**، وجب، **القول علىٰ أكثرهم فهم**، بعد اليوم، **لا يؤمنون**.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾

فلمّا[7] حق القول ذكر نوعا من العقاب هو في الدنيا لا أعظم منه فقال عن أكثرهم: **إنا جعلنا فى أعنٰقهم أغلٰلا**، الغُلّ حلقةٌ من حديد. وقد كانت العرب تعملها من قِدٍّ[8] لعدم الحديد وصانعِه عن احتياجهم إليها فكان يَقْمَل، ومنه قيل للمرأة: غُلٌّ قَمِلٌ.[9]

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الروم، ٣٠/٣٠).

[2] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (سورة العنكبوت، ٦١/٢٩). وانظر أيضا: سورة لقمان، ٢٥/٣١؛ وسورة الزمر، ٣٨/٣٩؛ وسورة الزخرف، ٩/٤٣.

[3] ر: ولهذا.

[4] الآية ١١ من هذه السورة.

[5] ر - بالرسول.

[6] ر - ولا يقال إنهم ليسوا في النار مع كونهم مشركين وذلك لأنهم لو وقفوا مع عقولهم دون أهوائهم لعرفوا التوحيد... وبقي من لم يتبع ملحقا بالآباء جزاء كما ألحق نفسه بهم اعتقادا فاستحق الاستئصال إذ كفر بالرسول عنادا أو أن يطبع على قلبه بكسبه وهو معنى قوله، صح هـ.

[7] ر: ولما.

[8] القد: الشيء المقدود والسير يقد من الجلد (المعجم والوسيط، «قدد»).

[9] قولهم: غُلٌّ قَمِلٌ أصله أنهم كانوا يغلّون الأسير بالقِدِ وعليه الشَّعر فيَقْمَل القد في عنقه. وفي حديث عمر في صفةِ النساء: منهن غُلّ قَمِلٌ أي ذو قَمْل كانوا يغلّون الأسِيرَ بالقد وعليه الشعر فيقمل ولا يستطيع دفعه عنه بحيلة (لسان العرب، «قمل»).

قال الله تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾،[١] أي في الأغلال التي في أعناقهم يُسحبون بها. **فهي إلى الأذقان**، الذِّقن مجمع اللحيين. وإذا كان في العنق حَلَقةٌ عرضُها في طول العنق بل تُغطّيه إلى الذقن فإن صاحبها لا يقدر أن يلتفت إلى أسفل لأنه يَمنعه علوها من قُدّام، ولا إلى فوق لأنه يمنعه علوها من خلف. فأشار بذلك إلى امتناعهم من الالتفات إلى ما يَرِدُ عليهم من السماء وهو كلام الله وإلى امتناعهم من السجود لله. **فهم مقمحون**، قَمَح البعيرُ إذا رفع رأسَه عن الوِرْد.[٢] ولمّا كان هؤلاء لا يستطيعون لِما في رقابهم من الأغلال التي هي إلى الأذقان أن يسجدوا شبّههم بالأنعام. وشبه القرآن الذي يُعرض عليهم بالماء من لازم قوله: **فهم مقمحون**. ولم يقل: قامحون ليعرّفَنا أنهم جُعلوا كذلك عقابا بهذه الحالة. والقُمحة بضم القاف ملء الفم.

﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ٩﴾

[٣٥٢و] **وجعلنا من بين أيديهم / سدا ومن خلفهم سدا فأغشينٰهم فهم لا يبصرون**، ما بين أيديهم ولا ما خلفهم. فلا يعتبرون بما جرى على الأمم السالفة، ولا يزدجرون بما تواعدهم الله به في المدة الآتية. فهم لا يتقدمون ولا يتأخرون، ولا يُبصرون الأغلال[٣] في أعناقهم وهم مقمحون.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠﴾

وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، والمد لألف "ءأنذرتهم"[٤] إنما هو من أجل أن الألف الزائدة تقدمت على الأصلية، تقول: سواء على زيد أضربتَه أم لم تضربه، ولو أسقطت الألف لجاز، فليس المراد ههنا الاستفهام.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١﴾

إنما تنذر، أي فيفيد إنذارُك، **من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم**.

---

١ ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ۝ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٧١-٧٢).

٢ الورد: الماء الذي ترد عليه (لسان العرب، «ورد»).

٣ ش: والأغلال.

٤ قرأ الجمهور "آنذرتهم" بالمد، وقرأ ابن محيصن والزهري "أنذرتهم" بهمزة واحدة (المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي، ٤٤٨/٤).

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾

إنا نحن نحيِ الموتى، أي كما لا تقدر على أن تحييَ الموتى كذلك لا تقدر على هداهم، لأنهم معاقَبون منا. **ونكتب ما قدموا وءاثرهم**، وهو ما أثّروه من البناء وغيره. **وكل**، بالفتح، أي لا تظنوا أن ما نكتبه مما قدموه في الدنيا وما أثّروه لم نكن عالمين به بل، **كل شيء**، قد، **أحصينٰه**، أي من قبل الإيجاد، **في إمام مبين**، هو العلم الأزلي.[١] ولمّا كان علمه سبحانه متقدما تقدما لا أول له كان أولى ما عرّف إلينا به هذه اللفظةُ، ومنه تقدُّم الإمام على المأموم.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾

واضرب لهم مثلا أصحٰب، منصوب بالضرب، **القرية**، ليس المقصود أن تحقق[٢] أنها أنطاكية[٣] أو غيرها. فإن الله قد جعلها مَثَلا فلتفهم[٤] الممثول بأي قرية كانت. وإذا كانت الدنيا قد سماها الله دارا فلا غَرْوَ أن تسمَّى قرية. ولا يكون المرسلون بها موسى وعيسى ومحمدا صلى الله عليه.[٥] وإنما خصص هؤلاء لأن كتبهم الباقية المشهورة هي[٦] الحُجَج السماوية على أهل الأرض، وهم أصحاب الأمم أولي الدين دون غيرهم. ولا تظنَّ أن المثل لم يكن بل كانت قرية مّا. وجاء إليها رسولان فكذبوهما فجاء الثالث. وإنما ضرب الله مثلا بهذه القرية للدنيا، فافهم قولَه: **واضرب لهم**، فالمثل لكل قرية، **إذ جاءها المرسلون**.

﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾

إذ أرسلنا إليهم اثنين، والرسول لا يكون إلا واحدا، والمعنى رسولا بعد رسول. **فكذبوهما فعززنا**، فقوَّينا وشدّدنا أمرنا، **بثالث**. يقال: المطر يعزّز الأرض، أي يشددها

---

[١] جميع النسخ: الأزل، والمثبت من م.

[٢] ر: أن نحقق.

[٣] أنطاكية: مدينة عظيمة من أعيان المدن على طرف بحر الروم بالشام. موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء؛ وفي داخلها مزارع وبساتين. ومسجد حَبيب في وسط سوق أنطاكية، فيه قبره يزوره الناس، وبها قبر يحيى بن زكرياء عليه السلام (آثار البلاد لزكريا القزويني، «أنطاكية»).

[٤] ش: فلنفهم.

[٥] ش + محمدا.

[٦] جميع النسخ: وهي.

ويصلّبها. **فقالوا إنا إليكم مرسلون**، يحتمل أنهم اجتمعوا في القرية. ويحتمل أن كل واحد أتى في زمن بمفرده ولم ير الآخرَ، فوصف الله مقالة كل واحد ومقالتهم لكل واحد.

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥﴾

﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾

قالوا ربنا يعلم، أنا صادقون قسما، **إنا إليكم لمرسلون**.

﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾

قالوا إنا تطيرنا بكم، التطير هو التَّفأّل[1] بفأْل الشؤم. **لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم**، ما كلُّ رجم يَقتل ولا بد، بل هو على سبيل الطرد، كما بيّنّا في سورة مريم.[2]

﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾

قالوا طٰئركم، لمّا قالوا: تَطَيَّرۡنَا[3] ذكر الطائر استعارة ونسبه إليهم، لأنهم هم الذين جعلوه لأنفسهم فألا[4] وقد تقدم فيه كلام.[5] **معكم**، المعنى أن الذي جعلتموه كالطائر لكونه علامة الشؤم هو معكم. ولهذا قال: **طٰئركم**، أي إنه لا يفارقكم بل هو مقيم معكم. ويريد به ما هم عليه من شؤم الكفر وشؤم الإسراف في المعاصي. ولهذا بعده: **أئن ذُكِّرْتم**، تطيرتم، واكتفى بذكر ما قيل،[6] ولهذا بعده: **بل أنتم قوم مسرفون**.

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾

وجاء من أقصا المدينة رجل يسعىٰ، وفي القصص قال: وَجَآءَ رَجُلٞ.[7] فقدّم الرجل.

١ ك: هو التفأل.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ (سورة مريم، ١٩/٤٦).

٣ من الآية السابقة.

٤ ك: قالا.

٥ لعل المؤلف يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (سورة النمل، ٢٧/٤٧).

٦ ش - ما قيل؛ ك - ما قيل، صح هـ.

٧ ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ (سورة القصص، ٢٨/٢٠).

والمعنى ههنا أنه أراد أن يُعلم المخاطب أن رجلا جاء من مكان بعيد إلى مجمع الناس حيث لم يحضر موضع الدعوة ولا مَشهدَ المعجزة. فنصحهم ما لم ينصحوا لأنفسهم مثلَه، ولم يكن ممن يَعرف الرسل وتَعرفه الرسل لئلا يَظُنّ الظان أن ذلك حيلة وأمرٌ قد تقرر بينهم وبينه من قبل. فقدم ههنا ما تبكيتُ القوم به أعظم والتعجيبُ منه أكثر.
[٣٥٢ظ] وأمّا في القصص جاء من يَعرف موسى / ويعرفه موسى عليه السلام قصدا إليه من مكان بعيد فنصحه. والعرب تقدِّم المذكور للاهتمام به، فقدم في كل موضع بحسب قصده فيه. **قال يٰقوم اتبعوا المرسلين**.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾

وما، وأيّ شيء، **لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون. ءأتخذ من دونه ءالهة**، استفهام بالإنكار، أي كيف أفعل وهذا وصفُهم. **إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون**، من عذابه. **إنى إذًا**، إن فعلتُ، **لفى ضلٰل مبين. إنى ءامنت بربكم فاسمعونِ**، أي فاسمعوا مني بمعنى فاقْبلوا، وهذا من كلام الرجل لقومه. وليس هذا القول منه[١] للرسل، وهو كما تقول لصاحبك: اسمع مني ما أشرت به عليك، أي اقبل.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾

ثم قال تعالى ما أنبأ به عن أنهم قتلوه أو توفاه الله: **قيل ادخل الجنة. قال يٰليت قومى يعلمون بما**، أي بسبب أيّ شيء،[٢] **غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين**، لعلهم يؤمنون بالرسل.

﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾

ثم أخبر تعالى فقال: **وما أنزلنا علىٰ قومه**، قوم المؤمن، **من بعده**، أي بعد فقْده،

---

١ ش ك – منه.

٢ ك – أي بسبب أي شيء، صح هـ.

من جند من السماء وما كنا منزلين. المعنى لم نكن مُنزِلين جندا على الأمم السالفة، أي ملائكةً حتى أنهم يؤمنون.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ۝٢٩﴾

إن كانت إلا صيحة وُحدة فإذا هم خُمدون، إشارة إلى سرعة الأمر وسهولته.

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٠﴾

ثم قال قولا يدل على أن العباد قد أحلّوا أنفسَهم في محل من يُتحسر عليه: **يٰحسرةً**، اللفظ لفظ النداء والمراد غيره، ومثلُه: كُن فَيَكُونُ،[1] لفظ الأمر ومعناه الخبر، ومثله فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا.[2] والمعنى أنه لمّا أحلوا أنفسهم في محل من يُتحسر عليهم خاطبهم بما يَعلمونه ويتخاطبون بمثله ليعلموا محلهم منه لا محله منهم. وحذفت الهاء، لأن أصلها "ياحسرتاه"، **على العباد**، لكونهم، **ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون.**

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٣١ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٣٢﴾

ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون، سُموا قرونا لاقترانهم، **أنهم**، أن القرون، **إليهم**، إلى الرسل، أي أهلكناهم بسبب أنهم إلى رسلنا، **لا يرجعون**. والإشارة إلى المخاطبين، أي ألم يَر هؤلاء أن القرون لمّا لم يرجعوا إلى الرسل أهلكناهم. فافهم هذه جيدا، فإنها من المشكلات، وهي من باب وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ، وتمام الآيات، هناك شاهدٌ إلى قوله: أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا.[3] ولمّا قدم ههنا ذكرَ الرسل ثم ذكر القرون قال ههنا: **إليهم**. ولهذا لم يقل: إلينا. وقولُه بالكسر والتخفيف: **وإن كل لما**،

---

[1] وردت هذه العبارة في آيات كثيرة، منها ما ذُكر في سورة البقرة، ١١٧/٢؛ وسورة آل عمران، ٤٧/٣، ٥٩؛ وسورة النحل، ٤٠/١٦؛ وسورة مريم، ٣٥/١٩.

[2] ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ (سورة مريم، ٧٥/١٩).

[3] ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ۝ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ (سورة الفرقان، ٣٧/٢٥-٤٠).

أي[1] وإنه كلٌّ للذي، **جميع لدينا محضرون**، أي لا يَحضرون قوما بعد قوم بل يَحضر جميع. ورفع الكلمتين على ما لم يُسَمَّ فاعله.[2]

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣﴾

ثم قال ما يدل على البعث الذي به يكون الجزاء، فهو شاهد لصدق الإخبار بالإحضار: **وءاية لهم**، دالة على البعث،[3] **الأرض الميتة**، من ههنا إلى قوله: هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ[4] آيات دالات على البعث. لهذا بدأ بقوله: **أحيينٰها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون**.

﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ٣٤ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٣٥﴾

وجعلنا فيها جنّٰت من نخيل وأعنٰب وفجرنا فيها من العيون، ليأكلوا من ثمره، ثمرِ النخيل والأعناب، **وما عملته أيديهم**، "ما" نافية، والضمير في "علمته أيديهم"، عائد على الثمر، والدليل عليه قوله: مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَا،[5] وكيف ثمرَها، وكقوله: أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ.[6] ولو كان قد أراد بلفظة "ما" أنها ههنا بمعنى مما، أي ومِنَ الذي لقال: عملت بغير هاء. والدليل الأكبر على ما قلناه ما سيأتي مثله في آخر السورة، بقوله: مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ،[7] أي لا ما عملتْه أيديهم. ولهذا قال: **أفلا يشكرون**، ليؤكد ما قلناه، لأن ما لم تَتْعَبْ في عمله الأيدي هو أولى بأن يُشكر عليه باذلُه، وأن يَمُنُّ به المنعمُ سبحانه.

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾

ثم أكد ذلك بقوله بعده ما يُعلم به الشكرُ ويزيل الشبهة ويَنسب خلْقَ الجميع إلى الله سبحانه / فقال: **سبحٰن الذى خلق الأزوٰج كلها**، سميت أزواجا لأن الله سبحانه [٣٥٣و]

[1] ر – أي، صح هـ.

[2] ﴿وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾: الواو عاطفة؛ "إن" نافية؛ "كل" مبتدأ؛ "لما" أداة حصر بمعنى "إلا"؛ "جميع" خبر "كل"؛ "لدينا" ظرف مكان متعلق بـ"محضرون"؛ "محضرون" خبر ثان، والجملة معطوفة على جملة "أَهۡلَكۡنَا" (المُجْتَبى من مشكل إعراب القرآن الكريم للخرّاط، ١٠١٧/٣).

[3] ش ك – دالة على البعث، صح هـ.

[4] الآية ٥٢ من هذه السورة.

[5] ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ (سورة النمل، ٦٠/٢٧).

[6] سورة الواقعة، ٦٣/٥٦-٦٤.

[7] الآية ٧١ من هذه السورة.

لم يخلق شيئا واحدا بل اثنين فصاعدا. فلا تجد ثمرة ولا ورقة ولا بِزْرَة ولا شيئا واحدا لا مثلَ له. وهذا صريح يشهد بضد ما قاله الفلاسفة من أن الواحد لم يخلق إلا واحدا بل، **خلق الأزوٰج كلها**. واعلم أنه قد يقال "الأزواج" ولا يراد[1] بها الذكر والأنثى بل الزوج والفرد، وقد يراد بها الأشكال، وكما تقول: هذا أخو هذا، أي مثله. وكذلك إذا قلت هذا وهذا زوج، أي كشكله، فالكل أزواج. **مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون**، وهذا من باب أعطيتك المال من العين والغَلَّة والنِّعَم. وقوله: **ومما لا يعلمون**، كقوله: وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ.[2]

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾

وءاية لهم اليل نسلخ منه النهار، يقال: انسلخ الليل من النهار المُقبِل، إذا أتى[3] آخرَ الليل ودخل أولُ النهار وبالضد. ومثله تقول: اليومَ سُلِخُ الشهر، وسلختُ الشهر بمدينة كذا. ولهذا قال بعده: **فإذا هم مظلمون**، أي في ظلمة ولم يحتج أن يقول ضدَّه، أعني النهار نسلخ منه الليلَ. وإنما ذكر "الليل" ولم يذكر "النهار" عوضه، لأنه تعالى أراد أن يعرّفَنا في بقية الكلام ما هو عجيب من مخلوقاته وهو الكواكب. وأرانا ذلك بوجود الظلمة فرأينا سِباحة الكواكب،[4] وذلك لا نراه إلا في الليل. فقدم ذكره واقتصر عليه ولزم في النهار ما يماثل الليلَ من سلخه. والكلام التام يُفهَم بعضُه ببعض ويلزم عنه ويشهد له.

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾

ورفع "والشمس" على الخبر، وتقديره وآية لهم الشمسُ. وكذلك قوله: **والقمرَ**، بعد قوله: **والشمس تجرى لمستقر لها**، أي إلى مستقر جعله الله لها. والمراد الزمان لا المكان، فمستقرها هو إذا كُوِّرت،[5] وإلا فهي لا تزال تجري. واعلم أنه إذا طلعت الهَقْعَةُ،[6] فالسادس[7] من طلوعها أطولُ الأيام في السنة. وتلك الليلة[8] أقصر الليالي.

[1] جميع النسخ: ولا يريد.
[2] سورة النحل، ٨/١٦.
[3] ش ك – أتى.
[4] ر ك: الكوكب.
[5] ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ (سورة التكوير، ١/٨١).
[6] الهقعة: ثلاثُ كواكبَ نيّرةٍ قريب بعضها من بعض فوق منكبي الجَوْزاء كأنها الأثافيّ. وهي من منازل القمر، إذا طلعت مع الفجر اشتد حر الصيف (تاج العروس للزبيدي، «هقع»).
[7] ر: فألينادس.
[8] ر ك: الليل.

والنهار[1] خَمْسَ عَشْرَةَ ساعةً والليل تسع ساعات. ثم يأخذ في النقصان،[2] فإذا طلعت الصَّرْفَةُ[3] استويا إلى أن تطلع الشَّوْلَةُ،[4] ففي السابع من طلوعها[5] يكون ذلك اليوم أقصر الأيام. ثم يزيد إلى رابع من طلوع الفَرْغ[6] المقدم، فيستويان. ثم يأخذ في الزيادة كذلك إلى أن تطلع الهَقْعَة وتطلع كلَّ ثلاثةَ عشرَ يوما منزلةٌ. أوّلُ ذلك في ثامن عشر نيسان يطلع الشَّرَطان.[7] ثم يستمر الأمر كذلك على توالي المنازل وتوالي الشهور. **ذٰلك تقدير العزيز العليم**.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ٣٩﴾

وعطف على قوله: وَءَايَةٌ لَّهُمُ،[8] [قوله:] **والقمر قدرنٰه**، يجري لمستقرٍ له في، **منازل حتىٰ عاد**، كما بدأ وهو، **كالعرجون**، وهو ما بين الشَّماريخ[9] إلى المنابت في النخل من العِذْق،[10] **القديم**، الذي تَقادم عهدُه، فهو عتيق قد قُطع من زمان فاعوجّ وبقي كالهلال في رأي العين من أول ليلة. وهٰذه العَوْدة في المنازل التي مر بها تارة بَدْرا وتارة دون ذلك. ومنازله كواكب وهي تجري أيضا لمستقر لها، والحركات مختلفة بمقادير.

---

[1] ر: فالنهار.

[2] ر: إلى النقصان.

[3] ر + ففي السابع من طلوعها، صح هـ. | الصَّرْفَة: مَنزل من منازل القمر، نجمٌ واحد نَيّرٌ تلقاء الزُّبْرة خَلْف خراتَي الأسد. يقال: إنه قلب الأسد إذا طلع أَمام الفجر فذلك الخريف، وإذا غابَ مع طلوع الفجر فذلك أول الربيع. والعرب تقول: الصرفة ناب الدهر، لأنها تفْتَرُّ عن البرد أو عن الحر في الحالتين (لسان العرب، «صرف»).

[4] الشَّوْلَة منْزلة وهي كوكبان نَيِّران متقابلان يَنزلهما القمر يقال لهما: حُمَةُ العقرب (لسان العرب، «شول»).

[5] ر: ففي الخامس منها. وفي هامش ك: ففي الخامس منها.

[6] ش: الفرع. | الفَرْغ نجم من منازل القمر وهما فرغان منزلان في بُرج الدلو، فرغ الدلو المقدَّم وفرغ الدلو المؤخَّر. وكل واحد منهما كوكبان نيران بين كل كوكبين قدر خمس أذرع في رأي العين (لسان العرب، «فرغ»).

[7] جميع النسخ: الشرطين. | الشَّرَطَان: منزل من منازل القمر الثمانية والعشرين، عده القدماء أول المنازل القمرية، حيث كان أقربها إلى نقطة الاعتدال. والشرطان منزل شمامي يقع في برج الحَمَل إلى الشمال من خط الاستواء السماوي، ويتكون من نجمين هما (بيتا الحلمل) أو (الشرطان) أحد الشرطين و(غما الحمل) ثاني الشرطان. وفي الشرطان يقول ابن قتيبة: فأول ما يَعدّون منها (أي المنازل) الشرطان وهما أول الشامية. والشرطان كوكبان. يقال: إنهما قرنا الحمل ويسميان النطح والناطح (قاموس دار العلم الفلكي لعبد الأمين مؤمن «الشرطان»).

[8] الآية ٣٧ من هذه السورة.

[9] الشِّمراخ والشُّمروخ [الجمع شماريخ]: العِثْكال الذي عليه البُسْرُ، وأصله في العِذق وقد يكون في العنب. قيل: الشِّمراخ عِسْقَبَة من عِذق عنقود (لسان العرب، «شمرخ»).

[10] العذق القِنو من النخل والعنقود من العنب (لسان العرب، «عذق»).

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾

لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، لكن القمر دائما يُدركها في سيره ويفوتها. ثم يدركها أبدا وهي لا ينبغي لها أن تُدركه مع أن ضوءه مكتسَبٌ منها. وذلك لِحِكَم، منها لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ،[1] وغير ذلك. وقوله: **ولا اليل سابق النهار**، ولم يقل: يسبق لئلا يبقى تقدير الكلام ولا الليلُ ينبغي له أن يسبق النهار. فكان يلزم عن ذلك أن النهار يسبق الليل كما فهمناه من القمر بعد الشمس. فغيّر العبارة ليُفهَم بها غير المعنى الأول، وذلك هو ما[2] معناه: لا الليل سابق النهار ولا النهار سابق الليل. وأما الزيادة والنقصان فأمرٌ آخر / غير السبق. وكلٌّ منهما يزيد على الآخر في زمن. وقوله: **وكل فى** [٣٥٣ظ]
فلك يسبحون، يشير إلى الأطلس صاحبِ الدورة اليومية الذي يُحرِّك الجميعَ حركة واحدة قهريةً في اليوم والليلة. وقوله: **فى فلك**، لا يدل على أن سائر الكواكب في هذا الفلك الأدنى إلينا فلك القمر، بل لمّا كان كل كوكب من السيارة في فلك، والمنازلُ في فلك، وسائرُ الأفلاك بكواكبها في فلك فكلٌّ في فلك وهو الأعلى. وظهر معنى قوله: **يَسْبَحون**، من جهة لفظ الجمع، لهذا لم يقل: يسبح. وظهر معنى قوله: **فى فلك**، وإن كان لفظة "ذلك"[3] في عدة أفلاك. والسِّباحة لفظة جاءت بصورة التمثيل. وهذا الفلك الأطلس الأعلى[4] هو السماء ذات الرجع.[5] والجميع فيه يَسبحون.[6] وهو توسعٌ في الكلام كما تقول: تحركت الشجرة وإنما حرِّكت.

واعلم أن الكلام بأوله، وأوله: وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ.[7] ثم قال بواو الحال: وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي،[8] وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ،[9] وإن كان كلٌّ آيةً أيضا. ثم عيّن المسبوق بعبارة يلزم[10] أن لا يكون أبدا إلا مسبوقا، وهي عدم الإدراك. ولزم من هذا التعيين أنْ لا يزالُ القمر سابقا لكونها

[1] ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ (سورة الإسراء، ١٧/١٢).

[2] ر ك - هو ما.

[3] ر: لفظة كان؛ ك - لفظة ذلك، صح هـ.

[4] ك: الأعالي.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ (سورة الطارق، ٨٦/١١).

[6] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٣٣). وانظر أيضا الآية ٤٠ من هذه السورة.

[7] الآية ٣٧ من هذه السورة.

[8] الآية ٣٨ من هذه السورة.

[9] من الآية السابقة.

[10] ر: تلزم.

لا تدركه في السير. ثم عاد إلى ذكر الليل والنهار الذي بدأ بذكرهما وجعلهما آية. ثم نبّه على ما يزيد التعجبَ ويؤكد في العقول الاعترافَ بعظم القدرة والحكمة بقوله: **وكل في فلك**. وذلك أنه لمّا كان سلطان الليل وهو القمر لا يزال سابقا سلطانَ[1] النهار وهو الشمس، وكان الذي يَظهر للعقل أن يكون الليلُ سابقا للنهار، كما كان[2] سلطانُه سابقا لسلطانه نبّه الله سبحانه على حكمة أفعاله بما هو عجيب في العقل لمضادّته. والعقل أبدا يَتُوق إلى معرفة ما يُتعجب منه. وإذا كان المسبوق لا يلحق السابقَ وما أضيف إلى السابق لا يكون سابقا لما أضيف إلى المسبوق، والسابق والمسبوق في فلك واحد كان هذا من العُجاب الذي يقضي العقلُ بالتفكر فيه فيفضي به التفكرُ إلى التعلم فيصل إلى حقيقة الاعتراف بوجود الصانع الحكيم العليم سبحانه. وذلك هو المراد من قوله: وَءَايَةٌ لَّهُمُ.[3] والذي يريد العلم بهذه الأمور وتفاصيلِها فعليه بعلم الهيئة بما لا يفضي به إلى خلاف الكتاب العزيز بل يقضي بتصديقه ويهدي إلى طريقه.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾

ولمّا فرغ من ذكر هذه العلامة الدالة عطف عليها بمثلها من الآيات فقال: **وءاية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون**، سفينة نوح حمل الآباء الأقدمين وكان الآباء المحمولون ذريةً لمن تَقدمهم من القرون من آدم. فقال للحاضرين: **وءاية لهم أنا حملنا**، ذرية القرون المهلَكة بتكذيبها. وهذا منسوق بقوله: أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ.[4]

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

وقوله: **وخلقنا لهم**، للذرية، والمخاطبون منهم وكذلك مَن بعدهم، **من مثله**، من مثل الفلك، **ما يركبون**، وهو ما يُركب من أنعام وخَيْل وغيره. ولهذا قال ههنا: **وخلقنا**، لأن الجمع أُهلكوا بالطوفان. ثم خلق الله بعده من كل زوجين اثنين كما خَلق من ذرية القرون المكذِّبة.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله: **وإن نشأ نغرقهم**، أي بطوفانٍ آخرَ جميعا هم ودوابُّهم كما أغرقنا الآباء المكذبين، **فلا صريخ لهم**، يُصرخ به ليُغيثهم، لأن الجميع إذا أُغرقوا لم يَبْقَ صريخٌ.

[1] ر: لسلطان.

[2] ر ك - كان. وفي هامش ك: كان.

[3] الآية ٣٣ و٣٧ من هذه السورة.

[4] الآية ٣١ من هذه السورة.

ولا هم ينقذون، من الإغراق بوجه، أي لا من الصريخ ولا مِنّا، وهذا فائدة قوله: **ولا هم**. والفلك تذكَّر وتؤنَّث وتقال على الفرد مثل سفينة نوح، وعلى الجمع مثل قوله: وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ.[1] والنظم على ما تقدم هو أنه لمّا ذكر سبحانه سِباحة الكواكب في السماء ذكر سباحة الفُلك في الماء. ثم نبّه على / شكره الواجب عليهم له سبحانه [٣٥٤و]
بذكر السبب المانع من إغراقهم مع استحقاقهم فقال: **إلا رحمة منا ومتْعا**، للظالمين منهم، **إلى حين**، نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ.[2]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾

وإذا قيل لهم، أي مع رؤية هذه الآيات، **اتقوا ما بين أيديكم**، من عذاب الدنيا، **وما خلفكم**، من عذاب الآخرة. فعيّن لهم الذي يخافونه في الدنيا وهو ما بين أيديهم ليستدلّوا به على قدرته على تعذيبهم في الأخرى. وهذا كله من محتمَل اللفظ. والأَولى أنه لمّا ذكر الإغراق حكى ما تقوله الأنبياء وتُبّاعُهم وهم العلماء للمكذبين، أي اتقوا أن يجري عليكم كما قد جرى على مَن كذّب الآن، أو كما قد جرى على من كذب من قبل. وإذا رأى المكذبون في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ما جرى على أمثالهم من فتح بلادهم وإذلالهم بأيدي المؤمنين فهو ما بين أيديهم. وإذا سمعوا ما جرى للأمم السالفة كطوفان نوح فهو ما خلفهم. فعاد المعنى وإذا قال لهم قائل: اتقوا أن يجري عليكم ما قد جرى على من كذّب هذا[3] الرسول بين أيديكم وما جرى على من كذب رسوله فيما سلف خلفكم، **لعلكم ترحمون**، تقديره أعرضوا. وحذفه لِما دل عليه من قوله: **وما تأتيهم من ءاية من ءايت ربهم إلا كانوا عنها معرضين**، أي إنا نُريهم هذه الآياتِ المقدَّم ذكرُها وغيرَها ولا يؤمنون.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

---

١ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (سورة النحل، ١٦/١٤).

٢ ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (سورة لقمان، ٣١/٢٤).

٣ ر: بهذا.

وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله، أي تصدّقوا، **قال الذين كفروا للذين ءامنوا**، وهم القائلون أنفقوا: **أنطعم من لو يشاء الله أطعمه**، قالوا ذلك مستهزئين بالمؤمنين. ولهذا بعده من تمام قولهم للمؤمنين: **إن أنتم إلا في ضلل مبين**.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾

ويقولون، أيضا للمؤمنين: **متىٰ هٰذا الوعد**، أي بعذاب الدنيا وهو ما بين الأيدي، **إن كنتم صٰدقين**. لأنهم قالوا لهم:[1] ﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾.[2]

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩﴾

فقال الله تعالى: **ما ينظرون**، [ما] ينتظرون، **إلا صيحة وٰحدة تأخذهم وهم يخصمون**. من قرأها بضم الياء وكسر الصاد[3] أراد أنهم يخصِمون بعضهم بعضا، أو من يخاصمه[4] بمعنى يغلبونه في الخصومة غلبةً بعد غلبة. يقال: خاصمه فخصمه إذا غلبه في الخصومة.[5] ومن قرأها كذلك لكن فتح الصاد أراد المعنى: لكنهم هم المفعولون. ويقال أيضا خصّمه إذا جعله خصما. ومن قرأ بفتح الياء وكسر الصاد أراد يختصمون، ونقل فتحة الياء إلى الخاء. والأقرب في المعنى أنهم يكونون في غفلاتهم وخِصامهم في دنياهم فتأتيهم بغتة.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾

فلا يستطيعون توصية، وهذه هي النفخة الأولى كما قيل. **ولا إلى أهلهم يرجعون**، لا يدل على أهل لهم خلفهم بل يدل على أنهم لم يبق لهم أهلٌ يرجعون هؤلاء إليهم. وذلك أن الكلام عن الجميع وما بعد ذلك إلا القيامة.

---

[1] ر – لهم.

[2] الآية ٤٥ من هذه السورة.

[3] قرأ أبو جعفر بإسكان الخاء وتشديد الصاد. وقرأ أبو عمرو باختلاس فتحة الخاء وتشديد الصاد. وورش وابن كثير وهشام بفتح الخاء وتشديد الصاد. وابن ذكوان وعاصم والكسائي ويعقوب وخلف في اختياره بكسر الخاء وتشديد الصاد وحمزة بإسكان الخاء وتخفيف الصاد. ولقالون وجهان: الأول كأبي جعفر. والثاني كأبي عمرو، والياء مفتوحة للجميع (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٢٦٦).

[4] ش: أو من يخاصمهم.

[5] ك – غلبة بعد غلبة يقال خاصمه فخصمه إذا غلبه في الخصومة، صح هـ.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

ونفخ فى الصور، وهي النفخة الثانية، **فإذا هم من الأجداث**، القبور، **إلى ربهم ينسلون**، النَّسلان ضرب من السير. ونسلتَ الخيطَ من الإبرة إذا أخرجته بسرعة. والمعنى أنه بنفخة واحدة التأمت الأجزاءُ ووُجِد المعدوم وقاموا مسرعين [فهذا] دليل على سرعة الأمر وعظم القدرة.

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قالوا يٰويلنا من بعثنا من مرقدنا. ثم تذكروا ما قيل لهم في الدنيا على ألسنة الرسل فقالوا معترفين: **هٰذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون**، ويحتمل أن يكون هذا من كلام الله، والأول أولى.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

وبين بقوله: **إن كانت إلا صيحة وٰحدة**، إن الصيحة الأولى هي النفخة الأولى في الصور، لأنه ذكر ههنا نفخة واحدة وسماها صيحة، وذكر من قبلها: صَيْحَةً.[1] ونبه على قوله أولا: وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ،[2] [و]بقوله ههنا: **فإذا هم جميع لدينا محضرون**.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا / مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [٣٥٤ظ]

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾

إن أصحٰب الجنة اليوم فى شغل فٰكهون، من فَكِهَ يَفْكَهُ فهو فاكه على وزن فقُه بضم القاف وليس من فقِه يفقَه فهو فقيه،[3] ومعناه[4] المتلذذ المتحكم في النعمة، لقوله تعالى: وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ،[5] أي ناعمين متلذذين. **هم وأزوٰجهم فى ظلٰل على الأرائك**، جمع أريكة وقد تقدم،[6] **متكئون**.

---

١ الآية ٢٩ من هذه السورة.

٢ الآية ٣٢ من هذه السورة.

٣ فكه الرجل: تنعّم وسُرّ وتلذّذ بالنعمة (معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عمر «فكه»).

٤ أي معنى "فاكه".

٥ ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ (سورة الدخان، ٤٤/٢٥-٢٧).

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ (سورة الكهف، ١٨/٣١).

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾

لهم فيها فٰكهة ولهم ما يدعون، أي ما يتمنون وهو من الدعوى، أي مهما ادعوا وطلبوا فهو لهم؛ ولهم، **سلٰم قولا**، أي تحية، **من رب رحيم**.

﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾

وامتٰزوا اليوم، أي انفصلوا متميزين، **أيها المجرمون**.

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾

يقول الله لهم: **ألم أعهد إليكم**، وقوله: **يٰبنى ءادم**، يُذكِّرهم ما جرى على أبيهم من الشيطان بطاعته له في واحدة، فكيف حال من بعبده، **أن لا تعبدوا الشيطٰن إنه لكم عدو مبين**، **وأن اعبدونى هٰذا صرٰط مستقيم**. والعبادة ههنا الطاعة، لأن الطاعة ثمرة العبادة. وإن عارضتَ بطاعة أولي الأمر فتلك طاعة الله إذا أُمِروا،[1] وذلك كطاعة الملائكة في السجود لآدم. ومن أطاع هواه فهو له كالإلٰه. واتباعُ الشهوات هو من جنس عبادة الشيطان. فذلك يمده فينا ويقوّيه علينا فيُضلنا عن الواجب بالميل إلى ضده.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ۝٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣﴾

ولقد أضل منكم جبلا كثيرا، تقدم. **أفلم تكونوا تعقلون**، أي أفلم يكن لكم من العقل ما ينهاكم عن نبذ عهدنا، وهذا أمر يجب أن يجعله الإنسان نَصْبَ عينيه لينظر أبدا إليه. ولا شك أن الملحوظ من إحكام صورة الإنسان ظاهرا وتفصيلِه[2] بالعقل والقدرة باطنا أنه إنما كذلك لأمر إلٰهي غير عبثي. والمكاشفون أَخبروا أنه مركز تَحِلّ فيه ملائكة وشياطين ويصرِّفونه دائما إلى أغراضهم المتعلقة بأغراضه من حيث لا يعلم. وذلك بنفس دعائهم له والأمر إليه في الإجابة. وأغراض الملائكة طاعة الرحمن وأغراض الشياطين أنواع العصيان. فالإنسان في سائر الأحيان مرآة مقابِلة لملَك أو شيطان،

[1] ر ك: إذ أمر.

[2] ر: وتفضيله.

وقد بيّنهما القرآن. فانظر إلى نفسك وسائر الناس على عدد الأنفاس واعتبر الحال في سائر الأقوال والأفعال لتربط من الخواطر ما يجب وتجيبَه. فما كان شيطانيا فارْفِضْه ونبه عليه، وما كان مَلَكيا فالزمْه وأمرْ بالمبادرة إليه مهما أشكل، فزِنْه[1] بالكتاب المنزل وتأنَّ في أمره ولا تعجل تعقِلْ منه ما تجهل. وإذا صحت رؤياك فاستحي[2] ممن يراك واقْفُ رضا مَن سَوّاك في نفسك[3] وفي سِواكَ؛ فقد نصب لك بهواك أشراكَ[4] الإشراك ليبلوك فيما آتاك ويجازيك على علم عندك بضلالك أو هداك. فمن أجاب شيطانه إذا دعاه فقد اتخذ إلٰهه هواه فبحق يقول له الله: **هٰذه جهنم التى كنتم توعدون**.

﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾

اليوم نختم علىٰ أفوٰههم. قال هٰهنا: **وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم**. وقال في [سورة] فُصّلت: وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا،[5] إشارة إلى أن الكل يشهد، **بما كانوا يكسبون**. عرّفَنا الله بقوله هذا أنه يختم على الناطق ويُنطق الصامت، لأن الذي أنطق اللسان هو القادر على أن يُنطق البَنان وغيرها من أعضاء الإنسان. فتقول اليد: أنا سَرَقتُ، وتشهد الجوارح بكسبها. وما ذلك إلا أن هذه الجوارح خُلقت لتعِين على امتثال الأمر والانتهاء عن النهي، فهي قادرة على الفعل وعلى الترك. ولا يصح أن تكون قادرة على القبائح إلا أن تكون قادرة[6] على فعلها فخُلقت قادرة على المليح لتفعله وعلى القبيح لتتركه. وقد بين الله السبيلين بقوله: إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا.[7] ولهذا قدّم قبله إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا.[8]

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

---

١ ر: زنه.

٢ ش ك: فاستحيى.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۞ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ (سورة الانفطار، ٨٢/٦-٧). وانظر أيضا: سورة الشمس، ٩١/٧.

٤ شَرَكُ الصائد حبالته يَرتبك فيها الصيد، جمعه: أشراك (لسان العرب، «شرك»).

٥ ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ (سورة فصلت، ٤١/٢١).

٦ ر - على القبائح إلا أن تكون قادرة.

٧ ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (سورة الإنسان، ٧٦/٣).

٨ سورة الإنسان، ٧٦/٢.

[٣٥٥و] ولمّا كان الابتلاءُ / لا يصح إلا بعد القدرة على الشيء وضده، وكان جماعُ الخير في الصراط المستقيم وجِماعُ الشر في سلوك غيره ضرب المثل للبصيرة بالبصر فقال: **ولو نشاء لطمسنا علىٰ أعينهم**، في الدنيا عن رؤية الشر. **فاستبقوا الصرٰط**، أي إلى سلوك الصراط المستقيم وهي الأفعال الجميلة فقط. فلا يرون المعاصي فلا يفعلونها، لأن الأفعال يتقدمها الإبصار، فإذا لم يُبصر استحال أن يفعل. والمراد بالبصر البصيرة، إذ لو عُدمت البصيرة لَمَا أفاد البصر. والمعنى أنه سبحانه أخبر عن قدرته أنه لو شاء لأجبرهم على أن لا يكون منهم عصيان، **فاستبقوا**، إلى، **الصرٰط**، حينئذ. ثم قال: **فأنىٰ يبصرون**، أي فكيف يُبصرون، إشارة إلى أن الذي جعل لهم الأبصار قادرٌ على طمسها مطلقا. ويلزم من كونه قادرا على طمسها[١] عن أن ترى الخير والشر معا أن يكون قادرا على طمسها عن أن ترى الشر فقط. فجعل قوله: **فأنّىٰ يبصرون**، كالبرهان على ما قاله قبله.

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ٦٧﴾

ثم قال: **ولو نشاء لمسخنٰهم علىٰ مكانتهم**، تقديره من الشر، ولهذا عبر بلفظ المسخ. **فما استطٰعوا**، حينئذ، **مضيا ولا يرجعون**، أي ولا رجوعا، وغيّر لأجل الوِزان. والمعنى أنهم كانوا يستمرّون على حالتهم حين المعصية فلا يستطيعون تقدما إلى معصية أخرى ولا رجوعا إلى التوبة والإيمان. وهذا إفصاح معرب عن غاية القدرة وعن أنهم مكلفون.

وتلخيصه أنه تعالى لو شاء لأجبرهم على أن لا يفعلوا شرا، ولو شاء لأجبرهم على أن لا يفعلوا إلا شرا. فهذا معنى الآيتين، فافهمه من اللفظ جيدا. والمعنى في قوله: **مكانتهم**، ليس المراد به المكان بل المكانة مِن كان يكون مثل المجاعة مِن جاع يجوع. وانظر كونه تعالى سمّى منْعَه لهم عن أن يروا الشر طمسا، وعن أن يروا الخير مسخا، فافهمه جيدا، لأن مَن لا يرى الشر ليتقيَه حكمُه حكم الأعمى، ومنْ لا يرى الخير ليفعله حكمه حكم الممسوخ كالقِرْد الذي يحاكي فعل الإنسان وليس بإنسان. فأشار سبحانه إلى أنه[٢] خلقهم على غاية من الكمال. وذلك هو القدرة على الترقي بالشيء وضده، وأنه لو شاء لمسخهم فيبقى حكمُهم كحكم الفرس والحمار الذي له مكانة معروفة، فلا سبيل له إلى أن يتقدم عنها ولا أن يتأخر. وليس المقصود بالإنسان ذلك،

---

١ ش ك – مطلقا ويلزم من كونه قادرا على طمسها.

٢ ر ك: على أنه.

إذ لو لم يكن قادرا على التقدم والتأخر لَما خُوطب، بقوله تعالى: لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ،[١] ولكان ممسوخا على مكانته كبقية الحيوان الذي لا يستطيع أن يزيد في أعماله ولا ينقص منها، ولهذا لم يكن مكلفا. وإذا تحققتَ هذه الجملة فهمتَ أن المجبِرة حكمُهم كحكم من أحلّ نفسه في محل من مُسخ فانحطّ عن رتبة الإنسان إلى مكانة أحد الحيوان؛ وأن هذا المسخ إنما وقع فيه من جهة نفسه لا من جهة ربه إلا أن كان عقابا فهو ممسوخ بلا شك، وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ،[٢] الآية. وفي هذا الموضع كلام إذا لم يُمِدَّ اللهُ السامع بوعي لا يُفهمه الناطق البليغ منه شيئا. بل مَن نوّر الله قلبه رأى بعين الاعتبار وواجب الافتكار حقيقةَ الأمر بما قاله الله تعالى مما فعله في الوجود، ورأى حقيقة ما فعله في الوجود بما قاله في كتابه. ولا شاهدَ أصدقَ من الكتاب ولا مشاهدة أوضحَ من العِيان. فتبصر وتدبّر وكرّر وتفكر، «فكل لما خُلق له ميسرٌ».[٣]

﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ٦٨﴾

فلما عرّفَنا سبحانه أنه لو شاء طمس ومسخ، لكنه لم يفعل بل مكّن وكلّف، فزجر وعنّف ضَرَب لنا مثلا بما فعله لنَفهَم بما فَعله ما ذَكر أنه لو شاء لفعله فقال: **ومن نعمره ننكسه فى الخلق**، أي نجعله منكوسا في خلقه. وفسّر ذلك بقوله: وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ، وبين أرذل العمر بقوله: لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔا.[٤] فعرّفَنا / سبحانه بما قاله [٣٥٥ظ]
وفعله أنه كما جعل ذلك المعمر ضعيفا بعد القوة، جاهلا بعد العلم فكذلك هو قادر على أن يَسلب الإنسانَ معرفتَه ويغشّيَ بصيرته في الدنيا، فلا يرى قبيحا ولا مليحا. وإذا صح في العقل أن القادر سبحانه قادر على أن يسلب الإنسان حالتين فقد صح أنه قادر على أن يَسلبه أحدَهما. فلو سلبه الشرَّ لكان ملكا ولو سلبه الخيرَ لكان شيطانا. وهو[٥] على كِلَي التقديرَين لم يكن كاملا، إذ كماله بالترقي. فلو سلبه الشر لكان مترقيا بالخير فقط دون اجتناب الشر. وإنما أراد الله أن يمكّنه من الطرفين معا دون أحدهما فيكون إنسانا جامعا. وجاءت الألفاظ بأمثال ظاهرة، والكلام بألفاظ تدل على البصر

---

١ سورة المدثر، ٧٤/٣٧.
٢ سورة المائدة، ٥/٦٠.
٣ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «"كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له"، يقال: ميسر مُهَيَّأٌ» (صحيح البخاري، التوحيد ٥٤).
٤ سورة النحل، ١٦/٧٠.
٥ ر ك - هو.

وإن كان المراد بها البصيرة. وإنما جاءت كذلك ليفهَم الخاص خاصا والعامُّ عاما ولتكون[1] إذا فهمتَ في ظاهرها فهمت تامة المعنى وفي باطنها كذلك.

ثم إن الله سبحانه لمّا ذكر ما ذكره من البصر والاستطاعة وجعل ذلك برهانا بالعيان دالًّا على قدرته قال: **أفلا يعقلون**، من أفعالنا في الدنيا وما شهدوه بالعيان ما يوجب لهم الإيمانَ بالقرآن.

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾

ولمّا ذكر العقلَ أمرهم بالاستدلال به والتعقلِ لهذه المعجزة الكبرى وهي القرآن فأتبع الكلام بقوله: **وما علمنٰه الشعر**، إشارة إلى أنه سبحانه هو المعلم للشعر وغيره، وأنه لم يجعل في قدرة النبي صلى الله عليه وسلم ولا في فطرته شعرا، وأن ذلك ليس بنقص.[2] فبين ذلك بقوله: **وما ينبغي له**، وذلك ليتحقق الناس أن ما جاء به ليس من مَعْدِن الشعر، **إن هو إلا ذكر وقرءان مبين**، **لينذر من كان حيا**، من سائر الناس، **ويحق القول على الكٰفرين**، منهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢﴾

أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعٰما فهم لها مٰلكون، وقوله: **أيدينا**، إشارة إلى أنّا لم نَكِلْ ذلك الخلق إلى غيرنا بل نحن تولَّينا عمله كما يتولى أحدهم عمله بيده، فهو خطاب للناس بما يفهمونه من عاداتهم وأحوالهم. وكذلك فافهم في أسماء الصفات. فلا جائز أن يقال: هي عين الذات أو غير الذات، لأنه تعالى فوق العقول المدرِكات. وهو القديم الذي[3] لا تتسلط عليه المحدَثات، فهو فوق الأسماء والمسميات. وإنما هذه الآيات والأسماء المعلومات إشارات معروفات تدل بحَسْب سامعها إلى تلك الذات، فلا تَحْجُبْكَ الألفاظ المشتبهة عن فهم المعاني الواضحة، بل انظر الصانع بالصنعة ولا تحتجب بها عنه. فإن المراد بقوله: **وذللنٰها لهم**، الاستدلال بها عليه، ولهذا نسب ذلك إليه. وقوله: **فمنها ركوبهم**، بفتح الراء هو المركوب. **ومنها يأكلون**.

---

[1] ش ك: ولتكن.
[2] ك: بنص.
[3] ر ك - الذي.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٧٣﴾

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ٧٤﴾

ثم قال ما معناه أنه بعد رؤيتهم هذه النِّعَم بالأنعام وغيرها من ضروب الأنعام يُشركون، فقال بواو الحال: **واتخذوا من دون الله ءالهة لعلهم ينصرون**، بهم في الدنيا.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ٧٥﴾

ثم أخبر عنهم بقوله: **لا يستطيعون نصرهم**، في الدنيا، **وهم لهم**، في الأخرى **جند محضرون**، أي محضرون معهم في جهنم، لقوله: فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ،[1] وكقوله: فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ.[2] ولهذا سماهم جندا فافهم. فقد اختُلِف في تفسيره.

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ٧٦﴾

فلا يحزنك قولهم، أي دعواهم واعتقادهم. تقول: هذا قول الرافضة، تريد دعواهم واعتقادَهم. ولهذا بعده: **إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون**، أي وعلينا الجزاء.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ٧٧﴾

أولم ير الإنسٰن أنا خلقنٰه من نطفة فإذا هو خصيم، مخاصم، **مبين**.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ٧٨﴾

وضرب لنا مثلا، أي من المخلوقين، لأنهم لا يقدرون على الخلق. **ونسى خلقه / قال من يحي العظٰم وهى رميم**، من الرِّمَّة بالكسر وهي العظام البالية، والجمع رِمَم [٣٥٦و] ورِمَام. تقول: رمّ العظمُ يَرِمّ رِمَّة، أي بَلِيَ وهو[3] رَميم. والرِّم بالكسر الثرى أيضا.[4] ورُمّة الشيء بالضم جملته.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾

---

١ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ (سورة مريم، ٦٨/١٩).

٢ ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ (سورة الشعراء، ٩٤/٢٦-٩٥).

٣ ر ك: فهو.

٤ ر - أيضا.

قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق،[1] يريد خِلقةَ المخلوق أنه العالِم بهذه الصنعة، **عليم**.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾

الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا. وفي النار عجائب، ليس هذا موضع التطويل بذكرها. وكونها تكون من الشجر الأخضر أعجب، لأنه لمّا كان الشجر من الماءِ والماءُ ضد النار كان جعلُ الشيءِ من ضده من أعجب العجائب. ولمّا كان يبعد على الأذهان لو قال الذي جعل لكم من الماء نارا خاطبهم بالقريب المألوف ودل به على البعيد المعروف. **فإذا أنتم منه توقدون**.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾

أوليس الذى خلق السمٰوت والأرض، وهم أكبر مِن خلقِ الناس،[2] **بقْدر علىٰ أن يخلق مثلهم**، ولم يقل: مثلهما، لأن المراد الناس الذين أنكروا البعث، فلا يكون جواب هذا السؤال إلا **بلىٰ وهو الخلٰق العليم**.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾

ثم إنه قال أبلغ ما يحصل به القدرة في أفهامنا فقال: **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون**، ولا تُصغِ إلى ما قيل من خطاب المعدوم، فهو معدوم عندنا موجود في علمه سبحانه حيث لا قبل ولا بعدُ. وقد بيّنّا في مسألة العلم أنه لا يقال: هذا في العلم قديم بل العلم به قديم. ولا معنى للعلم إلا الإحاطة بالمعلوم علمًا لا وجودا. ثم نبّهنا على أنه لا يقال له سبحانه: عالمٌ إلا من جهتنا، أي من جهة المعلوم، وهو العلي العظيم. فلا تَقِفْ مع احتمالاتِ شكوكِ العبارات إذا فهمتَ بها الإشاراتِ، بل تَجرّدْ عن الأمثلة والألفاظ التي هي[3] مَعابرُ تَعْبُر بها إلى مقاصدك. فإن تقف معها عاد ما مِن شأنه أن يهدي مضِلا لك. وإذا أضل ما من شأنه أن يهدي فمن يهدي.

---

١ ر + عليم.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٥٧).

٣ ش - هي.

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٣﴾

فسبحٰن الذى بيده ملكوت كل شىء، والملكوت هو المُلك، وفيه تفخيم وتعظيم. وقيل: الملكوت يُشاهَد بالبصائر مما يُدرَك بالأبصار ومما يُتعقل، والمُلْك بالأبصار فقط، ومن بيده ملكوت الكل[1] **وإليه ترجعون**، أي فيجزي العباد بأعمالهم في المعاد. ويجب أن يستعدّوا للقائه غايةَ الاستعداد.

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/٨٨).

سورة الصافات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣﴾

والصّٰفّٰت صفّا، جمع صافّة، وهي الجماعة من الملائكة. وفيه إشارة إلى النفوس البشرية وصفوفهم في الصلاة. وفيه إشارة إلى الطير لقوله: أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ.[1] والمراد الملائكة.

فالزّٰجرٰت زجرا. زجرته: إذا منعته في قول أو فعل عما لا يجب. والإشارة أيضا إلى الملائكة، لأنهم يأتون بالكتب المنزلة وفيها الزواجر عن الله لعباده. وفيه الإشارة إلى الأنفس الطاهرة الزكية الزاجرة لغيرها كأنفس الأنبياء والأولياء، أو يزجرون خواطر السوء والشياطين عند إلقاء الوساوس في صدورهم حين الصلوات وغيرها. ولهذا بعده: **فالتّٰليٰت**، إشارة إلى سائر الجماعات: الصافّات الزاجرات التاليات. واللفظ يتناول العموم من جميع الزاجرات. ومن زجر نفسه عن الوقوف في مواطن التُّهَمِ هو أهلٌ أن يُذكر في [هذا] القسم. وانظر إلى قوله: **فالتّٰليٰت ذكرا**، ولم يقل: تِلْوًا كما قال: **صفا**، **وزجرا**، وذلك لأن اللفظ الذي هو تلا يتلو يحتمل أن يكون المراد به التلاوة، ويحتمل أن يراد به معنى التبعية كقوله: وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا.[2] فلمّا جاز الاشتباه أزاله بقوله: **ذكرا**، ليُعلَم أنهم الملائكة يتلون الوحي عند الإنزال ويتلون التسبيح لا يَفْتُرون.[3] / وقيل: إن التسبيح من الملائكة يجري مجرى التنفس من بني آدم. وفيه [٣٥٦ظ] إشارة إلى الجماعات من المؤمنين، لقوله: إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ.[4] ويجب أن تَفهَم من الألفاظ المطلقة مطلقا. فإن، **الصّٰفّٰت**، **والزّٰجرٰت**، **والتّٰليٰت**، يحتمل أن تكون ضروبا من الملائكة، في كل مقام ملائكةٌ لهم حالٌ معلوم. فأقسم الله بمن[5] حاله ذلك من جميع ملائكته وجميع مخلوقاته.

---

١ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ (سورة الملك، ١٩/٦٧).

٢ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ (سورة الشمس، ٩١/١-٢).

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٢٠).

٤ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ (سورة فاطر، ٣٥/٢٩).

٥ ر: لمن.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾

ثم قال: **إن إلٰهكم لوٰحد. رب السمٰوٰت والأرض وما بينهما ورب المشٰرق.** ذكر "المشارق"، لأن منها يكون النور، ولولا النور لما ظهرت السماوات والأرض وما بينهما. ولهذا قال في سورة الشعراء بعد ذكر السماوات: رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ.[1]

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾

ولمّا ذكر المشارقَ التي تدل على مشرق كلّ كوكب من الكواكب السيارة كما بيّنّاه ذكر بقية الكواكب بقوله: **إنا زينا السماء الدنيا**، معرّفا لنا أنه رب الكل سبحانه. والسماء الدنيا هي القريبة إلى الأرض من السبع الطباق.[2] وقال: **بزينةٍ الْكواكب**، ولم يقل: بالكوكب، لأنها ليست في السماء الأولى بل زينتها في الأولى من جهتنا. فانظر إلى تحرير العبارة وما يلزم عنها من معرفة أن السماوات شفّافة وأن نور الكواكب وصُوَرَها يخترق للكل حتى يظهر لأعين البشر. فيعلمون باختلاف حركاتٍ مؤتلِفة وائتلافِ حركاتٍ مختلفة ينظرها أولو النظر ويفهمون بها أمورا أُخَرَ بعد الاهتداء بها في ظلمات البر والبحر.[3] ومن ههنا نفهم[4] أن قوله تعالى: وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ،[5] أن الرجم ليس بنفس الكواكب، لأنه كان يكون الرجم بالزينة فتزول الزينة. وإنما هي راجمة بأثر منها كما يوقَد من السراج سراجٌ آخر ولا ينقص. فهذه يخلق الله منها الشهاب، ولهذا قال: فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ.[6]

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾

ومعنى قوله: **وحفظا**، أي وحفظناها حفظا، **من كل شيطٰن مارد.**

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾

ثم ذكر صورة الحفظ المشار إليه فقال: **لا يسمعون إلى الملإ الأعلىٰ**، بيانه:

---

[1] ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الشعراء، ٢٨/٢٦).

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ (سورة الملك، ٣/٦٧). وانظر أيضا: سورة نوح، ١٥/٧١.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٩٧/٦). وانظر أيضا: سورة النمل، ٦٣/٢٧.

[4] ر ك: نعلم؛ ش + نفهم. وفي هامش ك: نفهم.

[5] سورة الملك، ٥/٦٧.

[6] الآية ١٠ من هذه السورة.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.[١] وقوله: **إلى الملإ**، كما تقول: اسمع إليّ. والفرق بين قولك: سمعت الحديث، وإلى الحديث أن الأول يفيد الإدراك، والثاني يفيد الإصغاء. وإلى ههنا هي[٢] كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.[٣] وقوله: **ويقذفون من كل جانب**، أي من جوانب السماء والأرض وهو مطلق.

﴿دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

دحورا، دفْعا، دَحَر يَدْحَر دَحْرا ودُحُورا. **ولهم عذاب واصب**، في الآخرة، وقد تقدم في النحل.[٤] ويحتمل أن يكون من معنى الوَصَب وهو التعب. **إلا من خطف الخطفة**، تمثيلا لفرط السرعة بالخطفة. ويشبه أن تكون الإشارة بالأوائل المذكورين ههنا إلى شياطين الإنس كالكَهَنَة وأمثالِهم، وهؤلاء أمثل بالجن لقوله بعده: **فأتبعه شهاب ثاقب**، الشهاب تقدم،[٥] والثاقب كأنه يَثقُب البصر بضوئه. والاستثناء ههنا منقطع وليس مَن استثناه يسمع من السماء إلى الملأ، وإنما يَخطَف خطفة دون السماء، والخطفة بالسمع، وهذا فيما كان وليس هو الآن. ولهذا قال: **خَطِف**، ولم يقل: يَخطف خَطْفَة بل، **الخَطْفَةَ**، كما ستفهمه في موضعه.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ۝١١﴾

فاستفتهم، يشير إلى الناس، **أهم أشد خلقا**، أي أقوى خِلقة، **أم من خلقنا**، من الجن والملأ الأعلى الذي لا تَصل الجن إلى أن تَسمع إليهم. ثم قال ما يعرّفُهم به ضعفَهم: **إنا خلقناهم من طين لازب**، بمعنى لاصق. تقول: لَزِب الشيء يَلزُبُ لزوبا بضم الزاء في المستقبل وفتحها في الماضي. واللازب الثابت للُزُوقه، تقول: صار الشيء ضربةَ لازبٍ وهو أفصح من لازم، ويريد بالضربة ما تضربه[٦] ضربة واحدة بالطين المحكم عَجْنُه فيَلصق / في ضربة واحدة لصوقا تاما. فشبّه به[٧] الغريم والثقيل [٣٥٧و]
من الناس إذا لزمك فلم يتحول عنك.

---

١ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/٢١٠-٢١٢).

٢ ر - هي، صح هـ.

٣ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (سورة الفرقان، ٢٥/٤٥).

٤ ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ (سورة النحل، ١٦/٥٢).

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ (سورة الحجر، ١٥/١٨).

٦ ش: ما يضربه.

٧ ر - به، صح هـ.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢﴾

بل عجبت، منهم كيف يظنون أنهم يُعجزون الله مع ضعفهم، **ويسخرون**، بك وبما[1] جئت به، كقوله: إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا.[2]

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣﴾

﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤﴾

وإذا رأوا ءاية يستسخرون، أي يريد بعضهم من بعض أن يَسخر فهم يَسخرون ويستسخرون. ويحتمل أنها لازم، وغُيِّر لئلا يتكرر؛ ويكون الأول عائدا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والثاني إلى القرآن، ولهذا عين الآيةَ في الثاني.

﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝١٧﴾

وقالوا إن هٰذا إلا سحر مبين، أءذا متنا وكنا ترابا وعظما أءنا لمبعوثون، هذا القول بصورة الاستهزاء، **أوءاباؤنا الأولون؟**

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩﴾

قل نعم وأنتم دٰخرون، تقدم.[3] **فإنما هي زجرة وٰحدة**، من الملائكة بأمرنا. ويحتمل أن تكون الإشارة بقوله في أول السورة: فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا،[4] إلى معنى هذه الزجرة. **فإذا هم ينظرون**، ما وُعدوا به.

﴿وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾

وقالوا يٰويلنا هٰذا يوم الدين. فيقول الله تعالى: **هٰذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون**. الفصل من قوله: إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ.[5]

---

١ ر ك - بل ربما.

٢ ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (وسورة الفرقان، ٤١/٢٥).

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ (سورة النحل، ٤٨/١٦).

٤ الآية ٢ من هذه السورة.

٥ سورة الحج، ١٧/٢٢.

﴿ ۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾

احشروا الذين ظلموا وأزوٰجهم وما كانوا يعبدون من دون الله، لأن منهم مَن كان يعبد مع الله إلٰها آخر. **فاهدوهم إلىٰ صرٰط الجحيم**.

﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥﴾

وقفوهم، أي احبسوهم على الصراط، **إنهم مسئولون**، مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ؟[١] ويحتمل أن يكون السؤال، **ما لكم لا تناصرون**.

﴿بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ٢٦ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧﴾

ثم أخبر عنهم بقوله: **بل هم اليوم مستسلمون، وأقبل بعضهم علىٰ بعض يتساءلون**.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ٢٨﴾

قالوا، لأوليائهم: **إنكم كنتم تأتوننا**، في الدنيا، **عن اليمين**. هذا معروف عند النصارى، يقول راهبهم: احذروا الشيطان أن يأتيكم من ناحية اليمين، أي من طريق الأمر بالمعروف والخير، يعني ليوقعكم في الفتنة. والمراد ههنا، أي إنكم كنتم شياطيننا. وذلك معلوم من قوله: ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ.[٢] يريد بالأيمانِ صُوَرَ الخير والشمائلِ صُوَرَ الشر. وقوله: مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ، كالأمل، وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ، كالأسف على الفائت والفاني. فافهم الإتيانَ كيف ذكره في الموضعين. وافهم قوله في الموضعين[٣] **عن اليمين**.

﴿قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٢٩﴾

ويزيدك ما سيأتي بعده: **قالوا**، أولياؤهم: ليس كما ادعيتم، **بل**، أنتم، **لم تكونوا مؤمنين**.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ٣٠﴾

---

١ ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ (سورة القصص، ٢٨/ ٦٥-٦٦).

٢ سورة الأعراف، ٧/ ١٧.

٣ ر ك: في الوصفين.

وما كان لنا عليكم من سلطن، كقوله في سورة إبراهيم وحذف ههنا ما بينه هناك للزومه وهو قوله: إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم.[1] واكتفى بقوله ههنا: **بل كنتم قوما طٰغين**.

﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١﴾

فحق علينا قول ربنا: لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ،[2] **إنا لذائقون**، العذاب الأليم.

﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢﴾

فأغوينٰكم، كما غَوَيْنا، **إنا كنا غٰوين**، أي فلو كان الموجِب لجهلكم وغيّكم غيَّنا للزم أن يكون الموجب لغينا غيٌّ آخر تقدم، وليس كذلك بل كنا غاوين.

﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٣﴾

فأخبر الله تعالى بقوله: **فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون**.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٤ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦﴾

﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٧﴾

بل جاء بالحق وصدق المرسلين، لأنهم أخبروا بمجيئه فيما أنزل [الله] عليهم ولا يظهر من أخبارهم إلا دعوى. فلمّا جاء [محمد] صلى الله عليه وعليهم أجمعين صدّق الدعوى مجيئُه.

﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ٣٨﴾

ثم تمّم الكلام لهم بقوله: **إنكم لذائقوا العذاب الأليم**.

﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ٤١ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ٤٢ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٤٣ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٤﴾

---

١ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ﴾ (سورة إبراهيم، ٢٢/١٤).

٢ ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ (سورة السجدة، ١٣/٣٢).

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾

يطاف عليهم بكأس من معين، مَعَن الماءُ إذا جرى على الأرض، ومعينٌ جريّ. **بيضاء لذة للشاربين**.

لا فيها غول، ما يَغُول العقلَ ويُشوّشه[1] كما يفعل الخمرُ، ومنه الغوْلُ. **ولا هم عنها ينزفون**، نزفتَ ماء البئر / إذا نزحته. والمعنى أنه لا تتغير عقولهم عن شربها. وقد بيّنّاه [٣٥٧ظ] في سورة الواقعة.[2]

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨﴾

وعندهم قُصرت الطرف عين، نُجْلُ[3] الأعين وهي الواسعة؛ ومنه قيل لبقر الوحش: عينٌ. والقاصرات قَصَرْن الطرف على الأزواج لا غير.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾

كأنهن بيض مكنون، أشار إلى دُرٍّ مكنون. ولمّا كانت الدرة تكون صغيرة وكبيرة أبقى لقبَ الدر وهو المكنون. وقال: **بيضٌ**، إشارة إلى در كالبيض في المقدار.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢﴾

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾

أءذا متنا وكنا ترابا وعظما أءنا لمدينون، لمجازون. والدين هو الجزاء، لأن من لم يعتقد الجزاء لا يعمل عملا لا للدنيا ولا للآخرة. ولمّا كثر استعمال لفظة الدين استُعملت بمعنى ما يكون عليه الجزاءُ وهو العمل. فجاء القرآن بمثل ذلك في قوله: إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ.[4]

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥﴾

---

١ شوّش: خلّط (لسان العرب، «شوش»).

٢ ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ (سورة الواقعة، ١٩/٥٦).

٣ النَّجَل بالتحريك سعة شَقِّ العين مع حُسن، نَجِل نَجَلا وهو أَنْجل والجمع نُجْل وعين نَجْلاء (لسان العرب، «نجل»).

٤ سورة آل عمران، ١٩/٣.

قال، الله، هل أنتم مطلعون، على أصحاب النار؟ **فاطلع**، القائل فرأى قرينَه، **فرءاه في سواء الجحيم**.

﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦﴾

﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧﴾

ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين، معك في جهنم.

﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٠﴾

أفما نحن بميتين، إلا موتتنا الأولىٰ وما نحن بمعذبين. وهذا يدل على شدة الفرح والتعجب لعظم ما هو فيه من الفوز حين رأى ما هو فيه قرينه من العذاب، فقال: **إن هٰذا لهو الفوز العظيم**.

﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ٦١﴾

وقوله: **لمثل هٰذا فليعمل العٰملون**، يحتمل أن يكون هذا من كلام القائل، ويحتمل أن يكون من كلام الله.

﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ٦٤﴾

ثم قال الله تعالى: **أذٰلك خير نزلا أم شجرة الزقوم. إنا جعلنٰها فتنة للظٰلمين**. ضرب مثلا بالشجرة وسمّاها بهذا الاسم وعرّف صورةَ طلعها تمثيلا، ولهذا قال: كَأَنَّهُۥ[1] وهذه الشجرة هي التي أكل[2] منها آدمُ وهي شجرة المعرفة[3] المخالفة لِما عرَّفه الله. فأهل النار كانوا في الدنيا مع معارفهم فأُعيدوا في الآخرة إلى معارفهم وصارت لهم غذاء، لأن الله تعالى جعل هذه الشجرة في الدنيا يمتحن بها آدم ومَن بعده إلى يوم القيامة. وإنما عيّن الظالمين بالذكر لأن مَن ذاق هذه الشجرة افتتن، ومن افتتن -ولو بذوقها-

١ الآية ٦٥ من هذه السورة.

٢ ر - أكل.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «وأوصى الرب الإلٰه آدم قائلا: «من جميع شجر الجنة تأكل أكلا، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت» (التكوين ٢/١٦-١٧). وانظر أيضا: التكوين ٢/٩.

فقد ظلم نفسه. ألا ترى أن آدم لمّا ذاق الشجرةَ قال: رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا،[١] فهي فتنة للظالمين. وقد قال الله عن الإنسان مطلقا: إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا،[٢] أي في قوته الظلم لنفسه. فمن لم يفتتن بما جعله الله فتنة للظالمين فليس بظالم ولا مفتون وإن كانت الشجرة قد جُعلت فتنةً، والفتنة لا تكون في الآخرة إلا بعد أن تكون في الدنيا، لأن الأمر هناك مبني على ما هنا. فهذه الشجرة هي لكل إنسان ولا أجد الناجي منها إلا آدمَ ومن تبعه في التوبة. وأما أن يكون أحد من بني آدم ولم يأكل من هذه الشجرة فهو من باب المستحيل، لأن الولد تابع للأب. وإذا تأملتَ بقية هذه الآيات تحققت أن المراد شجرة المعرفة كما بيّنّاها في سورة البقرة.[٣] لأنها أصلُ كلِّ بلاء، وهي أصل الجحيم. ولهذا ذكر الله لفظة الأصل بقوله: **إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم**، فهي أصل كل بلاء وعذاب من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة لكل ضال وكافر ومخالِفٍ فهي تخرج في أصل الجحيم بلا شك.

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥﴾

ولمّا كان ما يتولد عنها[٤] من الأفكار الرديئة والمقاصد المهلكة والنيات الموبِقة كالرءوس للأعمال الشيطانية -لأن الفكرة رأس العمل- شبهها الله بالنخلة فقال:[٥] **طلعها كأنه رءوس الشيٰطين**. وصورة الشيطان يمثَّل بها وإن لم تُر قط، يقال: كأنه شيطان وكرأس شيطان.

﴿فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ٦٦﴾

ولمّا كان المثل المضروب يجب أن يكون تاما في ظاهره قال تعالى: **فإنهم لآكلون منها فمالـئون منها البطون، ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم**. الشوب الخلط والمزج، يقال: هذا شيء يشوبه شيء، أي يمازجه. ولمّا كان مزاجَ مشروب أهل الجنة مسكٌ وكافور كان مزاجُ شراب[٦] أهل النار من حميم.

---

١ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (سورة الأعراف، ٢٣/٧).

٢ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (سورة الأحزاب، ٧٢/٣٣).

٣ ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (سورة البقرة، ٣٥/٢).

٤ ك: منها. وفي هامش ك: عنها.

٥ ك - فقال، صح هـ.

٦ ر - شراب، صح هـ.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾

وقوله: **ثم إن لهم عليها**، أي زيادة، والشوب هو الخلط. وإنما هو خلط في المشروب.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾

أي بعد شربِ الحميم، يعني[1] أنهم يرجعون آكلين من الشجرة، وهو معنى [قوله:] يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ.[2] وهذا لا يدل على خروجهم منها بل كما تقول: يتردد بين أكل وشرب[3] من ذلك الطعام، وذلك الشراب أبدا.

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾﴾

ثم بيّن ما ضرب به المثل الظاهر بقوله على صورة الجزاء لما بدا[4] منهم: **إنهم ألفوا ءاباءهم ضالّين**.

﴿فَهُمْ عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

فهم على ءاثرهم يهرعون، يُستحَثُّون ويُزعجون بالإسراع. فبيّن الله تعالى أن المذكورين لو لم يميلوا عن الأمر الإلٰهي في الدنيا إلى ما قضت به معارفُهم لَمَا استحقوا في الأخرى ذلك. وهذا ظاهر لا يَشك فيه عالم. ولهذا قال تعالى: بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ.[5] فلمّا مالوا في الدنيا عن الأمر أبقاهم الله في الدنيا مع ما[6] مالوا إليه وأعادهم في الأخرى إلى ما مالوا إليه فعادوا في سجن العدم، لأن معارفهم محصورة معلومة، ونِعَمَ الله التي أعدها لهم في الآخرة جزاءً على امتثال الأمر لا تحصى ولا تُحصر. ولهذا قال تعالى: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم،[7] ولم يجعل وصفهم في الدنيا إلا قولَه: يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ،[8] والغيب ما غاب عن علم العالمين.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾

ولمّا كانت شجرة المعرفة أصلا للضلال من آدم ومن بعده قال تعالى: **ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين**.

---

١ ر: بمعنى.

٢ سورة الرحمن، ٤٤/٥٥.

٣ ك: ومشروب. وفي هامش ك: وشرب.

٤ ك: لما بدأ.

٥ سورة العنكبوت، ٤٩/٢٩.

٦ ك – ما.

٧ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة السجدة، ١٧/٣٢).

٨ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (سورة البقرة، ٣/٢).

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢﴾

ولقد أرسلنا فيهم منذرين، يُنذرونهم الميلَ عن الأمر إلى معارفهم، إذ لا ضلال إلا من هذا الميل.

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ۝٧٣ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٧٤﴾

فانظر كيف كان عُقبة المنذرين. ثم قال: **إلا عباد الله المخلصين**، ولم يصِفْهم بغير الإخلاص، فإن المخلِص من العبيد لا تكون له معرفةٌ تُخالف معرفةَ مولاه. ومن فَهم هذا فُهم ومن عمل به نجا وسَلِم.

﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ۝٧٥﴾

ولمّا ذكر الإخلاص نبّه على عظم نفعِه في الدعاء فقال: **ولقد نادٰنا نوح فلنعم المجيبون**.

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٦﴾

﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ۝٧٧﴾

وجعلنا ذريته هم، دون قوم نوح، **الباقين**. ولو لم يقل: **هم**، لكان الجميع في موضع الابتداء ويحتاج إلى خبر.

﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ
۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨١ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٨٢ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذۡ جَآءَ
رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ۝٨٥﴾

﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦﴾

أئفكا، أكذبا تتخذون. وأخّر "تريدون"، لأجل الوِزان. والمعنى أكذبا تريدون تتخذون، **ءالهة دون الله تريدون**.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾

فما ظنكم، أيَّ شيء تظنون، **برب العٰلمين**، هل تظنون أنه لا يصلح للعبادة، أو لايعاقبكم على الكفر، أو آلهتكم خير.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ٨٩ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ٩٠ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ٩٣﴾

فنظر نظرة فى النجوم، فقال إنى سقيم. قوله: **فى النجوم**، هو رؤيته الكوكب والشمس والقمر. ثم قال لنفسه معترفا: **إنى سقيم**، أي إن كنتُ أعبد هؤلاء وهو قوله: لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ.[1] ولهذا قال: **فى النجوم**، ولم يقل: إليها. وقوله: **نظرة**، إعلام[2] بأنه لم يتردد مرات بنظرة[3] في ذلك بل نظرة واحدةً، بها حصل الاعتراف بالصانع وجحدِ ما سواه. ثم عاد محتجا على قومه بعد تحقق[4] صحة يقينه. وقيل: بل فَعَل فِعْل داود عليه السلام. وقصته مشهورة في كلام أنبياء بني إسرائيل. تلخيصه أن الملك مَرِض مرضا شفاؤه في استماع الأنغام. وكان داود يضرب بالعود ويقرأ عليه الزبورَ فأحضروه إلى الملك. فلمّا ضاق عليه وقته وتعطلت عبادته بما شغلوه به دخل على الملك في بعض الأيام وأمسك بعضادتَي[5] البابِ[6] كالمتشبث بهما، ثم غيّب عينيه وشخّص ببصره إلى السماء. ثم وقع كأنه يُشعر الملكَ أنه ممن يُصرَع، فصاح الملك وقال: أَنَاقِصُ مجانينُ أَنَا أخرجوه أخرجوه، فأخرجوه. فذهب إلى عبادة ربه ونجا منهم. ولمّا قال إبراهيم لقومه ما خاف منه القتلَ فعل مثل ما فعل داود. ولهذا قال: **نظرة**، ودليله قوله:[7] **فتولوا عنه مدبرين**. ولهذا بعده: **فراغ إلى ءالهتهم**، وقيل: إنه راغ بطعام بحيث لو صادفه أحدٌ لقال: جئتُ لأقرّب قربانا. **فقال ألا تأكلون**، استهزاء. والكلام الأول أولى بالنص. ولم يُسمَع عن إبراهيم شيء من ذلك. ولا يلزم أنه أحضر طعاما بل كما يقال للطفل: ألا تأكل وإن لم يكن هنالك ما يؤكل. **ما لكم لا تنطقون؟ فراغ عليهم**، أي أسرع في خُفية ومكر، **ضربا باليمين**، بيده اليمنى. وإنما قال: **ألا تأكلون، ما لكم لا تنطقون**،[8] تهجينا[9] لعُبّادها إذا سمعوا عنه ما قاله وحجةً عليهم.

---

[1] ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٧٧).

[2] في هامش ك: إعلاما.

[3] ك: بنظره.

[4] جميع النسخ: تحققه.

[5] جميع النسخ: بعضدتي. في هامش ك: بعضادتي.

[6] عِضادتا الباب: ناحيتاه وما كان نحو ذلك فهو العضادة، وعِضادَتا الباب الخشبتان المنصوبتان عن يمين الداخل منه وشماله (لسان العرب، «عضد»).

[7] ك – قوله، صح هـ.

[8] ش – تكون صغيرة وكبيرة أبقى لقب الدر وهو المكنون وقال بيض إشارة إلى در كالبيض في المقدار فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون... ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم أي أسرع في خفية ومكر ضربا باليمين بيده اليمنى وإنما قال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون.

[9] التهجين: التقبيح (لسان العرب، «هجن»).

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ٩٤﴾

فأقبلوا إليه يزِفّون، لفظ يقال على النَّعام إذا أسرع في مشيته.[١] زف الظليمُ يَزِفّ زفيفا، والزفيف كالذفيف.[٢] وأما زِفاف العروس فهو مِن زفّ يَزفّ بضم الزاء. وعبّر بهذه اللفظة إشارةً إلى أنه أقبل إليه مَن يَثقل عليه المشيُ مسرعا فكيف من يخفّ.

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ٩٦﴾

قال أتعبدون ما تنحتون، والله خلقكم وما تعملون، من الأصنام التي تنحتونها.

[الرد على المجبرة]

ويا للعجبِ من قلوب المجبرة كيف لا تَفقه كلام الله في هذه الآية، بل قد جعلوها حجةً لهم خصوصا أهلَ العلم[٣] منهم. ولو كانت الإشارة بقوله تعالى: **وما تعملون**، بمعنى وأعمالَكم، وكان المفهوم مِن خلق الأعمال إجبارا لكان الاحتجاج من قوم إبراهيم على إبراهيم، لأن إبراهيم[٤] قد قال لهم: إن الله خالق أعمالكم، فيلزم أنهم مجبَرون على عبادة الأصنام، ولَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ.[٥] ولا شك أن الخلق لا يتعلق إلا بالعمل المنسوب إلى العباد. والله تعالى قد أضاف الأعمال إليهم. وإنما قال: **والله خلقكم**، وخلق هذه الأجسامَ التي تعملونها وتنحتونها وتتخذونها آلهةً. فإن الإله لا يكون مخلوقا لله معمولا للبشر. ولهذا لم يقل: والله خلقكم وأعمالَكم. فالفرق ظاهر بين قوله: **تعملون**، وبين قوله: وأعمالكم. فمن ادعى أنّ خلق الله للأعمال إجبار على الأعمال فقد أبطل أعماله وخالف الله بقوله: وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ.[٦] إذ لا إبطال لِما يخلقه الله فيعود الأمر بذلك لغوا، تعالى الله عن ذلك. وأما من لم يلتزم الجبر باعتقاده خَلقَ الله للأعمال فهو المراد كما بيّنّا ذلك في موضعه. والغرض أن يُفهَم من الكلام ما يقيم الحجة على عُبّاد الأصنام.

﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ٩٨﴾

---

١ قال الزجاج يَزِفُّون يُسرعون، وأصله من زَفيف النَّعامة وهو ابتداء عَدْوِها (لسان العرب، «زفف»).

٢ الذفيف: السريع الخفيف (لسان العرب، «ذفف»).

٣ أخصّ خصوصا أهل العلم.

٤ ر - لأن إبراهيم.

٥ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ (سورة الروم، ٣٠/٣٠).

٦ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ (سورة محمد، ٤٧/٣٣).

قالوا ابنوا له بنيٰنا، واملئوه نارا، **فألقوه فى الجحيم. فأرادوا به كيدا فجعلنٰهم الأسفلين**، من نار جهنم.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾

وقال، بعد النجاة وعلوِ القدر في الأعين: **إنى ذاهب**، من أرضكم **إلى**، عبادة، **ربى سيهدين**، هو مطلق الهدى إلى رضاه. وأما مخصَّصه،[١] أي إلى مكان أُهاجر إليه فأتَمكّن فيه من عبادة[٢] ربي سبحانه. وفي التوراة أنه كان ميلاد أبي إبراهيم، يأتون الكلدانيين[٣] وخرجوا لِيَصِلوا إلى كنعان،[٤] فجاءوا إلى حرّان.[٥] وخرج إبراهيم من حران وعمره خمسة وسبعون سنة وأن الجوع اشتد فانحدر إبراهيم إلى مصر. وقال لزوجته: أنتِ حسنة الوجه، فإذا رآكِ المصريون قتلوني بسبب أنني بعلكِ، فقولي: إنكِ أختي. فلمّا دخلوا مصر ذُكرت المرأة عند فرعون وأُخذت إلى بيته. فضرب الله فرعون بالأوجاع فاستدعى إبراهيمَ وقال: لِم لا قلت لي:[٦] إنها زوجتك خذ زوجتك وكلَّ ما أعطيتك، ووصَّى عليه فرعون فأُخرِج مكرَما بجميع ما معه. ومثلَ ذلك لمّا رجع إبراهيم إلى مَلك فلسطين قال عن زوجته: هي أختي. فلمّا أخذها الملك ولم يدنُ منها رأى في نومه أن الله يقول له: رُدَّ زوجة الرجل إليه[٧] ليستغفر لك، فإنه نبي وإلا تموت أنت وكل من لك. فدعاه أبو مالك وهو المَلِك وقال له: أيَّ شيء عملتَ معي أتريد أن تَبيد ملكي وتَهلك قومي، فاستغفر لهم إبراهيمُ فشفاهم الله، لأنه كان الله قد جعلهم كلَّهم لا يأتيهم نسلٌ. وكذلك جرى لإسحاق في أرض فلَسطين قال عن ربقة زوجته: إنها أختي فرأى الملك في نومه كأن إسحاق يلاعب ربقة فدعاه. وقال: ماذا فعلتَ معنا لو [كان] واحد أخذ زوجتك هلكنا كلُّنا بسببه.[٨]

---

١ ر: تخصيصه.

٢ ر: من عبادته.

٣ الكلدانيون: شعب سامي مترحل قديم استقر في الجزء الجنوبي من بلاد بابل حوالي ١٢٠٠ - ٨٠٠ ق. م. (المورد لأمير البعلبكي، «الكلدانيون»). | ش: الكسدانين.

٤ كنعان: قيل ينسب إليه الكنعانيون الذين منازلهم بأرض الشام يتكلمون بلغة تضارع العربية (معجم البلدان لياقوت الحموي، «كنعان»؛ ودائرة المعارف للأعلمي الحائري، «كنعان»).

٥ حرّان: بلدة في الجزء الجنوبي الشرقي من تركيا (المورد لمنير البعلبكي، «حران»).

٦ ر: لم لا قلت بي.

٧ ر - إليه؛ ك - إليه، صح هـ.

٨ لعل المؤلف رحمه الله اختصره مما ورد في التوراة، التكوين ١١/٢٧-٣٢، ١٢/١-٢٠، ١٣/١-٤، ٢٦/٧-١١.

واعلم أن هذه القِصص جاءت في التوراة متتابعة بعد قصة آدم. ثم ذكر قصة بعد قصة إلى أن ذكر دينةَ ابنةَ يعقوب، / وأن ابن الملك اغتصبها نفسَها. فلمّا حضر أبوها [٣٥٨و] قال ابن الملك لإخوتها: زَوِّجوني[1] بها. فقالوا: بشرط أن يختتن منكم كلُّ ذكر. ففعلوا فقام أولادُ يعقوب فقتلوا كلَّ ذكر في تلك المملكة[2] وهم بالجراح عن الختان.[3] ثم تلا قصة يوسف ومن قبله يهودا مع زوجة ابنه، ثم قصة لوط مع ابنته. كل هذا بعد قصة آدم.

فافهم التحذير، وانظر كم قد ضرب له مثلا وكم قد أوضح وكونَ مثل ملوك الكفرة لم يستجيزوا هذا الفعلَ، ومن فعل منهم قُتل هو وكل ذكر له. وَافْقَهْ من كل قصة ما فيها من الحِكَم فلم أطوِّل بتفصيل ذلك. والجميع تحذير من هذه الشهوة. وما ذلك إلا أن بهذه الشهوة قام الوجود، فمن قدر على تركها فقد قدر على ترك الوجود. ولمّا كان هذا الجسم إذا قام بالأمر مزرعةَ الأنوار وإذا خالفه أقطاعَ إبليس، وكان الأنبياء أعلم بذلك من غيرهم لم يكن ميلهم إلى لذّات الجسم من أجل الجسم،[4] بل من أجل ما لأجْله كان الجسم. ولهذا لم يقصد إبراهيم التمتعَ بالزوجة بل قصد ما من أجله خلق الله الزوجة.

فقص علينا من أمر إبراهيم توحيده ثم هجرته، ثم مقصودَه من الزوجة مع ذكر الهجرة تعليما لنا أن المهاجر ليس مَن هجر الأوطان فقط، بل من هجر الشهواتِ أيضا حتى في المباح. ولهذا قال: **رب هب لى من الصٰلحين**، ولدا. هذا السؤال لم يكن في إسحاق بل في إسماعيل، لأنه كان الأولَ باعتراف الخصوم. وأما إسحاق فالبِشارة كانت به من غير سؤال. وفي التوراة مكتوب أن إبراهيم لمّا بشِّر بإسحاقَ قال: يا رب ليت إسماعيل يحيى بين يديك. فافقه هذين الدليلين: أحدهما من القرآن وهو أن إسحاق بشِّر به إبراهيمُ من غير أن يسأل وفي إسماعيل سأل، والثاني من التوراة يصدِّق ما قلناه من أنه بشِّر بإسحاق من غير سؤال. وكانت البشارة به بعد سنين وبعد ما كبر إسماعيل، وكان إبراهيم على قوته عند ما وُلد إسماعيل، وبعد ولادته أيضا كان على قوته، لقوله: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ، ثم قال: وَإِسْمَٰعِيلُ.[5] وأما إسحاق فإنه جاء في كبر إبراهيم

١ جميع النسخ: تزوجوني.

٢ ش ك: المهلكة.

٣ لعل المؤلف رحمه الله اختصره مما ورد في التوراة، التكوين ٣٤/١-٣١.

٤ ك - من أجل الجسم، صح هـ.

٥ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٢٧).

بدليل ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾[1] أي إنه يَعجز عن إتيان النساء. وكانت سارة هي التي أذنت له في وطء هاجر أمّ إسماعيل ولم يقصد إبراهيم بذلك التمتع بل الولدَ، لأن زوجته لم تكُن تحبل. ولهذا أُذنت له بأخذ الجارية. فلزم من هذا أنه إنما سأل الله الولد الأول وهو إسماعيل، **فبشرنٰه بغلٰم حليم**. وأما إسحاق وإن كان بشّر به إبراهيم فبشّرت به سارة، لأن البشرى كانت لها أبلغ. فلا تنس **فبشرنٰه**، بالفاء بعدها بالواو.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾

فلما بلغ معه السعى، عرّفَنا الله عمر إسماعيل في ذلك الوقت بأنه بلغ إلى حد يُمكنه أن يسعى مع أبيه، ولم يقل: المشي أو العدْو. وقوله: **معه**، أي[2] مع الأب لا وحده، وهذا يدل على الصبي بحيث لم ينفرد[3] في السعي بنفسه. **قال يٰبنى إنى أرىٰ فى المنام أنى أذبحك**، ولم يقل: رأيت، وهذا عُدل به للتقابل ليكون، **إنى أرىٰ**، **فانظر ماذا ترىٰ**. وقيل: إنما ضرب له مثلا برؤيا المنام لأنه يفقه ذلك، والأنبياء منامهم كاليقظة لصدقهم. وقوله: **أذبحك**، ولم يقل: ذبحتك، إذ لو قال لكان فهو رأى كأنه يذبح ولم ير أنه ذبح، وبقي مع الأمر ولم يزد يقظة قولا على ما رأى نوما فعلا. ولم يستطع بعد فعلِ ما رأى أن يفعل ما لم يره، فكان الأمر: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾.[4] وقوله: **فانظر ماذا ترىٰ**، من الرأي. لهذا بعده:[5] **قال يٰأبت افعل ما تؤمر**، ولم يقل: ما أُمِرتَ بل كان ما كان في المستقبل من ذلك وغيره. **ستجدنى إن شاء الله من الصٰبرين**، ولم يقل: إنني من الصابرين، لأنه لا يعلم بما يحدث في قلبه. ولهذا أضاف المشيئة
[٣٥٨ظ] إلى ربه / راضيا بما[6] يرضى له به.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾

فلما أسلما، لأمر الله، **وتله للجبين**، تله أي شده، والتلاتل الشدائد كالزلازل. ومنه التلي وهو ما يوضع على أطراف السهام يُلَفّ عليها لفّا. وإنما فعل إبراهيم ذلك للجبين،

---

١ ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ (سورة هود، ٧٢/١١).

٢ ر – معه أي.

٣ ر: لم يتفرد.

٤ الآيتان ١٠٤ و١٠٥ من هذه السورة.

٥ ر – بعده؛ ك – بعده، صح هـ.

٦ ر ك + به.

أي للجبين الذي هو ضد الشجاعة، لأنه يَجبُن عند الذبح. وأما من قال: تله بمعنى جعله تَلّا على الأرض، أي صرعه على جبينه، كما يقال: رماه لرأسه، أي على رأسه فجائز ذلك.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾

ونٰدينٰه أن يٰإبرٰهيم قد صدقت الرءيا، لأنه لم يَر أكثر من ذلك. وقوله ههنا: **إنا كذٰلك نجزى المحسنين**، ثم كررها فيما سيأتي.[١] فذلك الجزاء راجع إلى السلام كما نبين، وأما ههنا فمعناه لمّا أحسن إبراهيم بذبح ابنه اتباعا لِما أريناه أحسنّا إليه بابنه وفديناه، وكذلك جزيناه؛ فكان الجزاء المعجَّل له في الدنيا على ولده ولدَه: لمّا وهبه إبراهيم لله وهبه الله لإبراهيم جزاءً على هبته له. ولهذا كرر لفظ الجزاء للمحسنين ليكون الجزاء دنيا وآخرة. فجزاؤه[٢] قبل الموت بحياة الولد وبعد الموت بحياة الذكر والسلام عليه أبد الآبدين.[٣] ولهذا مدحه بقوله: **إن هٰذا لهو البلٰؤا المبين**، الاختبار البين من الله لإبراهيم عليه السلام[٤] ومن ربه تعالى لإسماعيل. وإذا فكّرت في هذه الواقعة العظيمة كأنك تشاهدها رأيت عجبا من أب كبير معه ابن له صغير وهو وحيده وحبيبه، وهو يُمضي ما أُمر به من ذبحه بيده. فأراد الله من غيرته على قلب إبراهيم لئلا يسكن فيه حبُّ غيره أن يختبره بأحب ما إليه وأنه يفعل ذلك مباشرا له بيديه. ومع هذا فإنه تعالى أراد أن يُري إبراهيم ما سيكون من ولده إسماعيل في مستقبل الزمان بهذه العلامة التي ظهرت عنه من القبول. وفي ذلك حِكَمٌ أُخَرُ يفقهها[٥] أولو العقول.

﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾﴾

وفدينٰه بذبح عظيم. وفي هذا تعليم من الله لعباده إذا وقع أحدهم في شدة هو أو ولده أو غلامه أن يَفدي تلك النفس. والله سبحانه يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ.[٦]

١ انظر: الآية ١١٠ من هذه السورة.

٢ ر: فجزاه.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/٨٤)؛ ويشير إيضا إلى الصلاة والسلام بعد التحيات في الصلوات الخمس.

٤ جميع النسخ + ومن إبراهيم عليه السلام.

٥ ك: يفهمها. وفي هامش ك: يفقهها.

٦ ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (سورة التوبة، ٩/١٠٤).

ولقد نُقل عن بعض التجار أنه مرض له مملوكٌ حتى جزم الأطباءُ بموته، فشكى التاجر ما يجده من فقده[1] لبعض العلماء فأمره أن يُعتق من مماليكه ما يساوي قيمة المريض. ففعل فشُفِيَ وسَلِم ذلك المريض وعاد إلى صحته. وهذا من الفقه الحسن. وفي التوراة أن إبراهيم رأى كَبشا من كِباش الجبل كالأيّل[2] بعد ما اشتبكت قرناه في الشجرة.[3] هذا نص التوراة. وإنما رآه بعد اشتباك قرنيه لئلا يتعب إبراهيمُ في مسكه إن قدر عليه.

﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨﴾

وتركنا عليه فى الآخرين، من الأمم، وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩﴾

سلٰم علىٰ إبرٰهيم، ورفع "سلام" على الحكاية، أي ما هذا صورته من القول وهو سلام. ولمّا قدم قوله: إنّا،[4] حذفها ههنا، ولأن كذلك تكررت في قصة إبراهيم خاصة.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠﴾

فقال: **كذٰلك نجزى المحسنين**.

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١﴾

ثم تمم القصة بقوله: **إنه من عبادنا المؤمنين**.

﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢﴾

ولمّا فرغ من هذه القصة قال بالواو العاطفة: **وبشرنٰه بإسحٰق نبيا من الصٰلحين**. فلمّا ذكر أحد الولدين باسمه وهو إسحاق لزم أن يكون الآخر هو الذبيحَ وهو إسماعيل. وفي التوراة أن المَلْحَمَة[5] وقعت في تلك الأرض وأُخذ لوط في جملة الأخيذة؛ وأن إبراهيم لمّا سمع ذلك جرّد من أصحابه ثلاثمِائةٍ وثمانيةَ عشرَ رجلا وفرّقهم فِرَقا في الليل

---

[1] ر – من فقده، صح هـ.

[2] الأيِّل: الذكر من الأوْعال (لسان العرب، «أول»).

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه مُمْسَكا في الغابة بقرنيه، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه» (التّكوين ٢٢/١٣).

[4] الآية ٨٠ من هذه السورة.

[5] الملحمة: الوقْعة العظيمة القتل. وقيل: موضع القتال (لسان العرب، «لحم»).

وردّ الأخيذة ورد لوطا وخرج ملِكُ سدوم وغمرّو وغيرِهما يَلقونه. وكان جُلُّ الأخيذة لملك سدوم، فقال لإبراهيم أعطني الأنفس / وخذ لك الرزق.[١] قال: معاذ الله أن آخذ [٣٥٩و] شراك نعلٍ سوى ما أكل الصبيان.[٢] فخاطب الله إبراهيم في المنام لا تَخَفْ أُجرتُك عندي. فقال: يا رب وما أصنع بأجرتي وليس لي وارث من صلبي. فأراه الله كواكب السماء وقال: نسلك يكون هكذا كثرة. فآمن بما قاله الله. فحَسَبه الله له صلاحا وأثابه ووعده أن يعطي نسله من نهر مصر[٣] إلى نهر الفرات.[٤] ولمّا أشارت سارة بأخذ هاجر وحملت هاجرُ بإسماعيل بارك الله فيه لإبراهيم، وقال له: يلد ملوكا ويكون من ظهره أممٌ. وبعد أربع عشرَة سنةً بشرته الملائكة بإسحاق عند عبورهم عليه لأجل إهلاك قوم لوط.[٥] فهذا نص التوراة إلى يومنا هذا.

ومن قال: إنما كانت البِشارة الثانية بنبوة إسحاق فقد ترك العقل وراء ظهره ونبذ النص وما جاء به. فأما العقل فإنه يجب أن يُسمِّي أولا مسمًّى ثم يخبر عنه ولم يسمِّ إسحاقَ إلا أخيرا. وأيضا كيف يذكر أحد الولدين في موضعين ببشارتين والآخرَ لا يذكره. وأما النص فقد رتب في الذكر ما رتّبه في الوجود. وأيضا إن النص إنما بشَّر بإسحاق لا بنبوته، وإنما وصفه بعد البشارة به بالنبوة. ونص التوراة وسائر بني إسرائيل يعترفون بأن إسماعيل كان مولودا من قبل إسحاق، وقوله في التوراة: خذ ابنك وحيدك.[٦] فلو كان له ابنان لَمَا قال: وحيدك.[٧] وقد قال في التوراة: إنه لما بشر الله إبراهيم بإسحاق قال إبراهيم: يا رب ليت إسماعيلَ يحيى بين يديك. فأجابه الله ولإسماعيل سمعتُك ها أنا باركتُه.[٨]

﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣﴾

وقال ههنا: **وبْركنا عليه وعلىٰ إسحٰق**. والضمير في قوله: **عليه**، عائد على الذبيح المقدم ذكرُه. ويحقق ما قلناه قولُه بعده: **ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين**،

١ ش: رزق.
٢ لعل المؤلف رحمه الله اختصره مما ورد في التوراة: التّكْوين ١٤/١-٢٤.
٣ أي النيل.
٤ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا: لنسلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات» (التّكْوين ١٥/١٨).
٥ لعل المؤلف اختصره مما ورد في التوراة، التّكْوين ١٦/١-٤، ١٥-١٦، ١٧/١-٢٢.
٦ «فقال: خذ ابنك وحيدك، الذي تحبه، إسحاق، واذهب إلى أرض المُرِيّا، وأَصْعده هناك مُحْرَقَةً على أحد الجبال الذي أقول لك» (التّكْوين ٢٢/٢).
٧ ك - ولو كان له ابنان لما قال وحيدك، صح هـ.
٨ انظر: التّكْوين ١٧/١٨-٢٢.

فقد صح بطريق المفهوم والصريح واللزوم أن قوله: **ومن ذريتهما**، بالتثنية لا يريد إلا ذريةَ ولديِ إبراهيم. ولو أراد ذرية إبراهيم لأغنى قولُه: "ومن ذريته" ولكان كافيا سواء عاد اللفظ على إبراهيم أو على إسحاق، لأن إسحاق هو ذرية لإبراهيم ولا جائز أن يعود على إسحاق، لأنه قال بعده: **وعلىٰ إسحٰق**. فإن قلت: هو على إبراهيم، قلنا: يلزم أن يكون له ذرية غير إسحاق حتى يصح قوله: **ومن ذريتهما**، ولا يكون ذلك إلا[1] عن ذرية إسماعيل لا عن إسماعيل نفسه فقط، لأن إسماعيل لم يكن ظالما لنفسه ولا إسحاق بل، **من ذريتهما**. فافهم هذه الجملة جيدا. وانظر إلى هذا الكلام الدال البين الواضح لقوم يفقهون، وافقه.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾

ولهذا لمّا فرغ من ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق قال بعده: **ولقد مننّا علىٰ موسىٰ وهٰرون، ونجينٰهما وقومهما من الكرب العظيم. ونصرنٰهم**، أي القوم. **فكانوا هم الغٰلبين. وءاتينٰهما الكتٰب المستبين، وهدينٰهما الصرٰط المستقيم، وتركنا عليهما فى الآخرين.**

﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

انظر كيف أتبع ذكره النعمة على الأخوين إسماعيل وإسحاق بنعمة على أخوين أيضا بنبيّين[2] وهما موسى وهارون، وهو كما ذكرت لك أنه يُتبع الكلامَ بمثله ليفهم كلُّ واحد منهما بالآخر، فافهم.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

أتدعون بعلا، البعل بلسان العبري الصاحب وهو بفتح الباء والعين، وهو أيضا عندهم صنم، لأنهم لقبوه بالصاحب. وقوله: **وتذرون أحسن الخٰلقين**، ظن بعض الجُهّال

---

[1] ر: إلى.

[2] ر: نبيين.

أنه لو قال: أتَدْعُون بعلا وتَدَعُون أحسنَ الخالقين كان أولى، وحمله على ذلك حبُّ التجانس في اللفظ فظنه الفصاحةَ. وإنما الفصاحة تمام المعنى، ولو قال ذلك لوقع الخلل. تقول: دعْ فلانا، أي اتركه في دَعَة[١] من غيرِ أذًى. فكان يكون المعنى أتَدْعُون بعلا[٢] وتتركون أحسن الخالقين في دعة، أي بل اتركوه في أذى، فافهم. **الله ربكم ورب ءابائكم الأولين.**

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ۝١٢٩﴾

فكذبوه فإنهم لمحضرون، في جهنم،[٣] **إلا / عباد الله المخلصين،** منهم. **وتركنا** [٣٥٩ظ]
عليه، ولم يقل: عليهم أو على آله بل، **عليه،** كما قال عن إبراهيم:[٤] **في الآخِرين.**

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾

سلٰم علىٰ إل ياسين، المعنى إلياس، وإنما هو مثل ميكال وميكائيل. وإنما هو مُنَوّن، وغيّر لأجل الوزان. وقرأ ابن عامر بوصل الهمزة، جعل الاسمَ ياسين والألفَ واللام للتعريف. وقرأ غيره[٥] بإظهار الهمزة لتكون أصلية في الاسم. وفي كتب أنبياء بني إسرائيل اسم[٦] الخَضِر إلياء واسم غلامه اليسع. ويحتمل أن يكون إلياسُ اسمَ أحدهما وأن يكون غيرهما.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣١ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝١٣٦ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾

وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وباليل، أي ليلا ونهارا. **أفلا تعقلون.**

---

١ الدعة: السكون، الراحة (لسان العرب، «ودع»؛ وتاج العروس للزبيدي، «ودع»).

٢ ك - بعلا، صح هـ.

٣ ش - في جهنم، صح هـ.

٤ انظر: الآية ١٠٨ من هذه السورة.

٥ قرأ نافع والشامي ويعقوب بفتح الهمزة ومدها، وبعدها لام مكسورة مفصولة من ياسين، وعلى هذا تكون "آل" كلمة و"ياسين" كلمة، فيجوز قطع آل عن ياسين، والوقف على آل عند الاضطرار أو الاختيار بالباء الموحدة، والباقون بكسر الهمزة وبعدها لام ساكنة فتكون كلها كلمة واحدة، فلا يجوز فصل بعضها من بعض، فيجب الوقف على آخرها (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٢٧٠).

٦ ر - اسم، صح هـ.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١﴾

وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق، هرب، **إلى الفلك المشحون**، **فساهم**، من المساهمة وهي القرعة؛ وسهمُ الشخص نصيبه. **فكان من المدحضين**، الدحْض الزلْق، لأنه يسقط عنه المارّ فيه، داحَضه ساقطه.[1]

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢﴾

فالتقمه الحوت وهو مليم، ملام، وغيّر للوِزان. وقيل: هو الذي أجرم جرما يستحق عليه اللوم. فأوجب لغيره أن يلومه فهو مليم له،[2] وذلك هو اللائم، وهذا لا يخالف الأولَ في المعنى. وقد يكون الملوم غير مليم، فافهم. وإنما قال: **التقمه**، إشارةً إلى عظم الحوت وأنه أخذه لقمة واحدة، ويكون مليم أصله من ألام يليم مثل أقال يقيل متعدٍّ.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤ * فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥﴾

فلولا أنه كان، في بطنه، **من المسبحين**، **للبث فى بطنه إلىٰ يوم يبعثون**. **فنبذنٰه**، أي ألقيناه من بطن الحوت عريانا **بالعراء**، بالمد وهو الفضاء لا سَتر به، **وهو سقيم**، لما جرى عليه من الهول. ويريد به ههنا سُقْمَ الجسم. ويحتمل أنه سقيم عند نفسه، أي معترف بما بدا[3] منه، وهذا أولى، لأنه كقول إبراهيم: إِنِّي سَقِيمٌ،[4] وقد بيناه.

﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦﴾

وأنبتنا عليه شجرة من يقطين، يفعيل من قَطَن بالمكان إذا أقام[5] به.

وقضية الشجرة ويونس والمدينة مشهورة في كتب أنبياء بني إسرائيل. وكان اسم المدينة

---

١ ش: داحضة وساقطة.

٢ ر – له.

٣ ك: بما بدأ.

٤ الآية ٨٩ من هذه السورة.

٥ ش: إذا قام.

نِينَوَى.[١] واختصار القصة أن يونس عليه السلام لمّا أوحى الله إليه أن ينادي في مدينة نِينَوَى بعد أربعين يوما تنقلب هذه المدينةُ قال: إلٰهي أنت غفور وإني أخاف أن أنادي بذلك فيتوبوا إليك فتغفر لهم فأُدْعَى كذّابا. ثم هرب في سفينة ليبعث الله غيره. وهؤلاء الأنبياء كانوا يهربون من الخلق إلى الحق. فإذا كلِّفوا العودةَ إلى الخلق بدا[٢] منهم حالُ المستقيل[٣] مما كلِّفه، طمعا في رحمة ربه لا جهلا به. وكان لهم من الأُنس بالله والثقة برحمته وحلمه وما عوّدهم من ذلك ما به أقدموا على مثل ذلك وكانوا سُذَّجا. وقد اختارهم الله لطهارة قلوبهم. فلمّا نزل في السفينة أمر الله الريح فهاجت بالسفينة[٤] حتى أيقن أهلها أن لا نجاة لهم. ويونس يقول لهم: احملوني وألقوني في البحر يسكن عنكم، فبسببي جرى عليكم هذا. وكانوا لا يُقدمون على فعل ذلك. فأمرهم أن يقترعوا إلى أن وقع السهم عليه. فلمّا رموه التقمه الحوت فسكن البحر وهم يلومونه على ما قد فعل حتى استحق به ذلك. وإنه نادى في ظلمة بطن الحوت في ظلمة البحر في ظلمة[٥] الليل. وقيل: سمعت الملائكة صوته فقالوا: إلٰهَنا نسمع صوتا معلوما من مكان مجهول. فلمّا أمر الله الحوت ألقاه في بَرٍّ ليس به ظل فأنبت الله شجرة مِن يقطين في ليلة واحدة أظَلَّته من حر الشمس ففرح بها. فأمر الله دودة فعقرت أصلها فيبست في ليلة واحدة، فحزن يونس لذلك. فضربها الله مثلا له وقال: يا عبْدِ حزِنتَ وشفِقت على شجرة كانت في ليلة وبادت في ليلة فهلا أُشْفِقُ على مائة ألف من عبادي. فمضى يونس وأنذرهم. / فلبسوا المسوح وجلسوا على الرماد. فكشف الله عنهم ومتّعهم إلى حين.[٦] [٣٦٠و]

---

[١] نينوى: عاصم أشور القديمة. تقوم أطلالها على الضفة الشرقية من نهر دجلة، تجاه مدينة الموصل بشمال العراق. في قديم الزمان بعث الله تعالى إليهم يونس عليه السلام، فدعاهم إلى الله تعالى فكذبوه، فخوفهم بعذاب الله في وقت معين وفارقهم. فلما دنا ذلك الوقت وشاهدوا آثار عذاب الله خرجوا بالنساء والذراري إلى تل هناك في شرقي دجلة، وكشفوا رءوسهم وتابوا وآمنوا، فكشف الله عنهم العذاب. والتل باق إلى الآن ويسمى تل التوبة، وعليه مشهد مقصود ينذر له ويقصده الناس كل ليلة جمعة (آثار البلاد لزكريا القزويني، «نينوى»؛ والمورد لمنير البعلبكي، «نينوى»).

[٢] ك: بدأ.

[٣] ر: المستقبل.

[٤] ك - أمر الله الريح فهاجت بالسفينة، صح هـ.

[٥] ك - بطن الحوت في ظلمة البحر في ظلمة، صح هـ.

[٦] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «فقام يونان وذهب إلى نينوى بحسب قول الرب. أما نينوى فكانت مدينة عظيمة لله مسيرة ثلاثة أيام. فابتدأ يونان يدخل المدينة مسيرة يوم واحد، ونادى وقال: بعد أربعين يوما تنقلب نينوى. فآمن أهل نينوى بالله ونادوا بصوم ولبسوا مسوحا من كبيرهم إلى صغيرهم. وبلغ الأمر مَلِك نينوى فقام عن كرسيه وخلع رداءه عنه، وتغطى بمِسْح وجلس على الرماد. ونودي وقيل في نينوى عن أمر الملك وعظمائه قائلا: «لا تذق الناس ولا البهائم ولا البقر ولا الغنم شيئا، لا تَرْعَ ولا تَشرب ماء. وليتغط بمسوح الناس والبهائم، ويصرخوا إلى الله بشدة، ويرجعوا: كل واحد عن طريقه الرديئة وعن الظلم الذي في أيديهم، لعل الله يعود ويندم ويرجع عن حَمْو غضبه فلا نَهلك. فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم، فلم يصنعه» (يونان ٣/٣-١٠).

فهذا مختصر ما في كتب بني إسرائيل إلى الآن.

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

وقوله: **وأرسلنه إلى مائة ألف أو يزيدون**، أي إنهم في رأي العين يكونون لا أقل من ذلك، فالناظر إليهم يقول: هؤلاء مائة ألف أو يزيدون. وأما ينقصون في نظر الناظر فلا. ولم يكن في تعريف العدة بالتحقيق فائدة، لأن ذلك لا يقوم عليه برهان فلم يذكره الله سبحانه، بل ذكر ما فيه فائدة. وأما أهل المدينة فكانوا فيما قيل في كتب أنبياء بني إسرائيل ستَّمائةِ ألفٍ بالنساء والأطفال. ولا يناقض كلامُ القرآن لما جاء عندهم، لأن الرسل إنما يجب تصديقها على البالغين العاقلين[1] إذا لم يكن ما عند بني إسرائيل مبدَّلا. والله أعلم.

﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾

فلمّا فرغ من ذكر الأنبياء عليهم السلام قال لنبيه عليه السلام: **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون**، لأنهم كانوا يَسْتَحْيُون البنين ويقتلون البنات ويَدُسّونهن في التراب أحياءً[2] يزعمون أن ذلك قربة إلى الله سبحانه.

﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

ثم أضاف إلى ذلك أمرا آخر هو من أقاويلهم ودعواهم فقال: **أم خلقنا الملٰئكة إنثا وهم شهدون**، وهذا كقوله: أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ.[3]

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

ثم قال نوعا آخر من أقاويلهم: **ألا**، تقديره يا قوم، **إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله. وإنهم**، أي جميعا، **لكٰذبون**.

---

[1] ش – العاقلين؛ ك – العاقلين، صح هـ.

[2] ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (سورة النحل، ١٦/٥٨-٥٩).

[3] ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ (سورة الزخرف، ١٩/٤٣).

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ١٥٣﴾

ثم قال على طريق الإنكار والتهجين[١] بصورة الاستفهام منسوقا بما تقدم من قوله: أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا:[٢] **أصطفى البنات على البنين**.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٥٥ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ١٥٦﴾

ما لكم، أيّ شيء لكم، **كيف تحكمون**، بهذا الحكم[٣] لله ولا ترضونه لأنفسكم. **أفلا تذكرون**، أنكم تفترون. وإنما أخّر هذه الآية وجعلها بعد ذكر الولد لمشابهة أقوال النصارى في مريم لأقوال المشركين في الملائكة.[٤] **أم لكم سلطن مبين**، برهان يتسلط به المُحق على المبطل. وأبلغُ ما يكون ذلك كتابٌ من الله؛ والكلام للنصارى والمشركين ولمن يدعي هذه الدعاوي.

﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٥٧﴾

وقوله: **فأتوا بكتبكم إن كنتم صدقين**، في دعاويكم، المراد به أن يعم كلَّ محجوج من أهل الكتاب والأعراب. فتقدير الخطاب للأعراب: فأتوا بكتابكم إن كان لكم كتاب قائم بحجتكم أن الملائكة إناث. ويكون تقديره للنصارى على ظاهره وهو أن ليس في الإنجيل أن عيسى ولد الله بل ابن البشر.

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ١٥٨﴾

ثم وصف من أقوالهم ما هو بادٍ بأفعالهم فقال: **وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا**، أي من جهة العبادة لهم، كقوله: بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ.[٥] ولهذا قال: **بين**، ولم يقل: وجعلوا الجنة أنسابا بل[٦] بمعنى أنهم نسبوا الجنة إلى ما يُنسب إليه الإلٰهُ من العبادة. وهذا الكلام جاء عن الكفار عامّا، أي منهم من يدعي كذا في الملائكة، ومنهم من يقول: وَلَد الله، ومنهم من يعبد الجن. **ولقد علمت الجنة**، يريد من آمن من الجن،

---

١ التهجين: التقبيح (لسان العرب، «هجن»).

٢ الآية ١٥٠ من هذه السورة.

٣ ر - الحكم.

٤ انظر مثلا: سورة الإسراء، ٤٠/١٧؛ والآية ١٥٠ من هذه السورة؛ وسورة الزخرف، ١٩/٤٣.

٥ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (سورة سبأ، ٤٠/٣٤-٤١).

٦ ش - بل.

ولهذا قال: **علمت**، وقال بعده: **إنهم**، ولم يقل: إنها. والمعنى ولقد علمت الجِنة المؤمنة أن العابد من الإنس والمعبودَ من الجن، **لمحضرون**، **في** جهنم.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

ثم قال: **سبحٰن الله عما يصفون**، ثم استثنى من الإحضار بقوله: **إلا عباد الله المخلصين**، من الجن والإنس، كقوله: ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ،[1] والمراد من الإحضار الجزاء، ولا يكون جزاء أعداء الله إلا النار.[2]

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾

ثم حكى الله مقالة الجِنة المؤمنة للجنة الكافرة وإن عم الإنس أيضا. ولهذا جاء بالفاء في قوله: **فإنكم وما تعبدون**. **ما**، نافية، **أنتم عليه**، على الذي تعبدون، أي على عبادته، **بفٰتنين إلا من هو صال الجحيم**. فلزم أن يكون الفاتن والمفتون في النار. وهذا كما تقول: إن المال محسوب إلا ما وصل بالأمس. ثم تقول مبينا بالفاء: فإن الأصل كيت وكيت، والمراد عليه كذلك. فقولك: "فإن" بالفاء هو برهان ما ادعيته من قبل. ثم قال تعالى حاكيا عن مقالة مؤمني الجن ومؤمني الإنس وعن الملائكة، لأن الجميع عادوا فئةً واحدة / وما [٣٦٠ظ]
عداهم في النار. فأما هؤلاء فهم المذكورون بقوله: إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ.[3]

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾

وهم يقولون لكَفَرة الجن والإنس: **وما منا إلا له مقام معلوم**، **أي في العبادة**، والأَولى في الجنة أو النار. ويكون المعنى ما منا أجمعين أي منا ومنكم.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾

ثم قالوا عن أنفسهم: **وإنا لنحن الصافون**، أي لا أنتم، وهذا تمثيل بالطير في سرعة السير، فهم والملائكة بمنزلة واحدة، وهذا مخصوص بمؤمني الجن والملائكة.

---

١ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (سورة مريم، ٧١/١٩-٧٢).

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (سورة فصلت، ٢٨/٤١).

٣ الآية ١٦٠ من هذه السورة.

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ١٦٦ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ١٦٧ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٩﴾

وقوله: **وإنا لنحن المسبحون**، يَعُمُّ الجميعَ ويخص مؤمني الإنس. وقد قيل: إن هذا كلام الملائكة فقط؛ وإنما هذا كلام الجميع، إذ تميزوا فئة واحدة عبادا مخلصين، فإليهم الإشارة بالاستثناء. فلمّا قالوا للكفار من الجن والإنس: إنكم لصالوا الجحيم[1] إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ،[2] عللوا ذلك القولَ بقولهم: فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ.[3]

ثم قالوا عن[4] أنفسهم: وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ،[5] وإنا، أي والإنس، **وإنا لنحن المسبحون**، لا أنتم.[6] فكيف يكون مُقامُنا ومُقامكم واحدا! فكيف[7] تدعون عبادتنا ونحن عبيد صافّون مسبحون! لأنه قد تقدم ذكر المشركين وأمثالهم من أهل الكتاب، فذكر الله اعتراف الجن والملائكة بأنهم عبيد لا معبودون احتجاجا بالمعبود على العابد المشرك به. ولهذا بعده: **وإن كانوا ليقولون**، أي جعلوا لله شركاء من الجن والملائكة وإن كانوا ينتظرون كتابا ويقولون: **لو أن عندنا ذكرا من**، أذكار، **الأولين لكنا عباد**، أي من عباد، **الله المخلصين**. تقديره فآتيناهم ذكرا.

﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ١٧٠ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١﴾

فكفروا به فسوف يعلمون، في الدنيا. ودل على ذلك بقوله: **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين**.

﴿إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾

إنهم لهم المنصورون، وتُبّاعُهم أبدا، لقوله بعده: **وإن جندنا لهم الغلبون**.

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٤ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ١٧٥﴾

فتول عنهم حتىٰ حين، أي حينٍ قليل في الدنيا، **وأبصرهم**، وبعدها وَأَبۡصِرۡ[8] بغير "هم". والمعنى أن الأُولى في الدنيا بنصر المؤمنين عليهم وهي تختص بالمذكورين،

---

١ انظر: الآية ١٦٣ من هذه السورة.
٢ الآية ١٦٠ من هذه السورة.
٣ الآية ١٦١ من هذه السورة.
٤ ر - عن.
٥ الآية ١٦٥ من هذه السورة.
٦ ر + أي.
٧ ش: وكفيف.
٨ يشير المؤلف إلى الآية ١٧٩ من هذه السورة.

والثانية في الأخرى وهي تَعُمُّ سائر المكذبين من المذكورين وأمثالهم. ولهذا في **الأولى والثانية**، **فسوف يبصرون**، أي بأعينهم في الدنيا.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ۝١٧٧﴾

ثم ذكر العذاب الدنيوي: **أفبعذابنا يستعجلون**، **فإذا نزل بساحتهم**، **الفضاء المتّسع** من الوطن، ويدل على عظم العذاب فإنه ينزل بالفضاء الواسع من ديارهم فيملأه فكيف ما يضيق بالضيق. **فساء صباح المنذرين**، إذا نزل.

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٨ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٩﴾

وتول عنهم حتىٰ حين، آخرَ. **وأبصر**، حالَ كل مكذب مثلهم. **فسوف يبصرون**، ما تواعدناهم به في الآخرة كما أبصروا ما تواعدناهم به في الدنيا.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٨٢﴾

ولمّا كان هذا التواعد الثاني لهم بما يجري عليهم[1] في الآخرة ختم بالحمد فقال: **سبحٰن ربك رب العزة**، الذي لا يمتنع عليه جزاؤهم، **عما يصفون**، **وسلٰم على المرسلين**، **والحمد لله رب العٰلمين**.

---

[1] ك – عليهم، صح هـ.

سورة صٓ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢﴾

صٓ والقرءان ذى الذكر، قسم وتقديره إنك لنذير، لقوله بعده: وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ.[1] وهذا كقوله: يسٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ.[2] ولهذا حَسُن أن يقول ههنا بعده: **بل الذين كفروا فى عزة وشقاق.**

﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣﴾

كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا، حين إهلاكنا لهم بذنوبهم، أي بالثبور والويل. **ولات حين مناص**، قيل: إن "التاء" مضافة إلى "لا"، والواو واو "ولكن". والحين مدة الزمن، والمناص مشتق من ناص يَنوص نَوْصًا ومَناصا، أي مَفرّا، ناص بمعنى فرّ وتأخر. وقيل: إن "التاء" دخلت في كلام العرب على "لا" كما دخلت على "ثُمّ ورُبّ"، تقول: ثُمّ وثُمّتَ ورُبّما ورُبّتما. ويكون المعنى فنادوا ولكن لا وقتَ مفرٍّ، لأن الفرار إنما كان يُمكن من قبل. وقد قال تعالى: لا ملجأ لهم،[3] لا مفرَّ،[4] لا محيص.[5] ويحتمل أنه لمّا كان في لغة العرب أن "لات" بمعنى فات ركّب عليها الواو فصار / المعنى فنادوا [٣٦١و]
وفَاتَ حينَ مناصٍ، أي وقد فات ما يطلبونه من النجاة حين المفرّ في الدنيا، لأن المفر إنما هو في الدنيا فهؤلاء نادوا وقد فاتهم الفرار في حين المفرّ. فافهم هذا.

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥﴾

ثم عطف على قوله: بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ،[6] فقال عنهم لا عن القرون المهلَكة، لكنه لمّا كان كلام المهلكين أيضا لرسلهم كذلك جاء كلام المهلَكين معترضا بين الآيتين.

---

١ الآية ٤ من هذه السورة.

٢ سورة يسٓ، ٣٦/١-٤.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ (سورة التوبة، ٩/١١٨).

٤ ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ (سورة القيامة، ٧٥/١٠-١٢).

٥ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا﴾ (سورة النساء، ٤/١٢١).

٦ الآية ٢ من هذه السورة.

ولهذا جاء في أول الأولى: بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ، وفي آخر الأخرى: **وقال الكفرون**، ولم يقل: "وقالوا" ليعرِّفنا بلفظة الكفر وإن عمَّ[1] المهلكين الأوائلَ أن المراد تخصيص هؤلاء الأواخر المخاطَبين من النبي صلى الله عليه وسلم فقال: **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكفرون هٰذا سٰحر كذاب، أجعل الآلهة إلٰها وٰحدا، إن هٰذا لشيء عجاب**، العجَب والعجيب واحد. والعُجاب هو الذي يجاوز حدَّ العَجب، وكذلك الطُّوال.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦﴾

وانطلق الملأ منهم، ولسانُ الحال يقول منهم: **أن امشوا واصبروا على**، عبادة، **ءالهتكم إن هٰذا لشيء يراد**، أي الصبر على آلهتكم يراد لا ما جاء به هذا الساحر.

﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧﴾

ما سمعنا بهٰذا، أي ما يدعونا إليه من التوحيد، **فى الملة الآخرة**. يشيرون إلى أنفسهم بدليل ما بعده: **إن هٰذا إلا اختلٰق**.

﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ٨﴾

أءنزل عليه الذكر من بيننا، دون جميعنا. **بل هم فى شك من ذكرِى، بل لما**، لم مؤكَّدة، **يذوقوا عذاب**، ولا يحتمل بل حين يذوقون عذابي يؤمنون، إذ لا يذوقونه إلا حيث لا ينفعهم الإيمانُ. ولو كان ذلك مرادَ الآية لم تكن "يذوقوا" مجزومة بل يذوقون.

﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ٩﴾

أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب، كما وهب هذا النبيَ من بينهم.

﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ١٠﴾

أم لهم ملك السمٰوٰت والأرض وما بينهما. فليرتقوا فى الأسبٰب، أي لِقطع هذه الرحمة من السماء عن[2] هذا النبي صلى الله عليه وسلم. وكلُّ ما يُتوصل به إلى المطلوب من حبل أو سُلَّمٍ أو وسيلة أو رَحِم أو طريق أو حجة ومثل ذلك فهو سبب، فافهم ذلك في مواضعه.

---

[1] ش ك: وإن أعم.

[2] ك: من.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾

وقوله: **جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب**. الجند جَمْعٌ مُعَدٌّ للحرب. والأحزاب هم الذين يتحزبون مجتمعين على غيرهم. وقد قيل: إن المعنى فليرتقوا في الأسباب جندٌ من الأحزاب، يشير إلى المخاطبين؛ ولم يوحّد الفعلَ مع الجماعة، بل كقوله: وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ.[١] ثم قال: **ما هنالك مهزوم**، ينهزم، **من الأحزاب**. ولمّا ذكر الأحزاب في آخر الآية لم يحتج إلى أن يكررها في الأول، فافهم ذلك. والأولى بالمعنى أن مراد الآية[٢] فَلْيَرْتَقُواْ فِي ٱلْأَسْبَٰبِ،[٣] أي هؤلاء. ثم قال: ما هنالك جند مهزوم ينهزم[٤] من خوفه من الأحزاب. ولمّا كان اللفظ مشتبها قدم قوله: **جند**، لأن المرتقين هم الأحزاب. فلو لم يعبر بهذه العبارة لَظَنّ الظان أن الجند الذين هم من الأحزاب لا ينهزمون. ولمّا كان ما عبر به أيضا فيه بذكر الأحزاب اشتباه قال في[٥] آخر الآية التالية: أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ،[٦] فافهم المراد بتكرير الكلمة ليزول الاشتباه.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾

كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد، أي ذو الجبال العالية، وجعلنا ٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا.[٧] وإذا وصفه بأنه صاحب الجبال وسُكّانِهم فهو صاحب السُّهول وقُطّانِهم.[٨] ويشير بذلك إلى عظم الملك، **وثمود وقوم لوط وأصحٰب لْـَٔيْكة**. ثم قال معظِّما: **أولٰئك الأحزاب**، أي أولئك ذووا البأس والقوة لا هؤلاء؛ وسُمُّوا أحزابا لأنهم تحزبوا على أنبيائهم. فعرفنا بهذه الكلمة أن الأحزابَ التي ذكرها من قبل يريد بها أحزابَ المكذبين،[٩] وأنهم لو ارتقوا كلُّهم في الأسباب ليس لهم أثرٌ ولا هنالك جندٌ ينهزم منهم، أي من خوفه من الأحزاب. وتقديره: ومع تلك القوة والبأس أهلكناهم فكيف يطمع هؤلاء بالنجاة، وقد كذبوا كما كذّب أولئك.

---

١ ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٣/٢١).

٢ ك – لم يحتج إلى أن يكررها في الأول، فافهم ذلك والأولى بالمعنى أن مراد الآية، صح هـ.

٣ من الآية السابقة.

٤ ك – ينهزم، صح هـ.

٥ ر – في.

٦ الآية ١٣ من هذه السورة.

٧ سورة النبأ، ٧/٧٨.

٨ ك: وقطائهم. | القطان: المقيمون (لسان العرب، «قطن»).

٩ ر ك: المذكورين.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥﴾

وما ينظر، [ما] ينتظر، **هؤلاء إلا صيحة وُحدة ما لها من فواق**، ولم يقل: ما لهم بعدها فواق. و"من" لتبيين الجنس. ويقال: إذا حُلبت الناقة برّكوها حتى تفيق بدرّتها، أي يرجع إليها لبنها. ثم يقال: / قد أفاقت فاحْلِبها، فنفى الله ذلك القدر. وهذا لأنه [٣٦١ظ]
ضرب لهم الأمثال بما يعرفونه.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾

ثم بعد ما أخبر عن كفرهم أخبر[١] عن حبهم للعاجلة وميلهم إلى الشهوات فطلبوا نصيبهم من الأخرى في الدنيا حتى يؤمنوا وإلا فلا، وذلك قوله: **وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب**، أي حتى نؤمن. ولهذا ذكر عنهم ذلك بلفظ العجلة كقوله: يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ.[٢] فهم جعلوا نصيبهم سببا لإيمانهم، وإنما الإيمان يكون سببا[٣] لِما يُنعِم الله به عليهم في العاجلة من نصيبهم إن شاء الله سبحانه ذلك. والقِطّ النصيب، وأصله القطع من قولك: قط الشمعةَ والقلمَ إذا قَدّه. وتقول منه: ما رأيت قَطُّ، أي قطْعَ الدهر الذي مضى.

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧﴾

فقال الله تعالى: **اصبر على ما يقولون**. وضرب المثل لقدرته على أن يؤتيهم ما طلبوه بداود عليه السلام: **واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب**، والأيد القوة على امتثال الأمر والانتهاء عن النهي؛ والأوّاب الرجّاع.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩﴾

إنا سخرنا الجبال معه يسبحن، فقط. فاعلم أنه تعالى سخّرها في التسبيح لا في السريان كما قيل. ولولا قوله تعالى: وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ،[٤] لقلنا: إن المراد

---

[١] ك – عن كفرهم أخبر، صح هـ.

[٢] ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ (سورة الإنسان، ٧٦/٢٧).

[٣] ر ك: سبب.

[٤] ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٤٤).

بالجبال أهلها، كقوله: وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ.[١] **بالعشي والإشراق، والطيرَ محشورةً**. وإنما الطير دون الجبال سخّرها محشورة. **كل له أواب**، يثوب إلى ما يأمره به، لأنه هو وسليمان عُلِّما مَنْطِقَ الطير،[٢] وهذا وإن فُهم منه التسبيح أيضا إذا أمرهم به لكنه أخّره ليكون الطير زائدا عما سخِّرت له الجبال.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾

وشددنا ملكه، بعد ذلك بملائكتنا وبما نشدد[٣] به الممالك. **وءاتينٰه الحكمة**، فيما يفعله، **وفصل الخطاب**، فيما يقوله. وهو أن يفصل بين المتخاطِبَين فيأتي بالبيان الفاصل بين الحق والباطل.

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١﴾

وهل أتىٰك نبؤا الخصم، يتناول العدد والفرد، فإنه لفظ المصدر، والمصدر للجنس، والخصم يلزم عنه خصم له. ثم أوضح بعده فقال: **إذ تسوروا المحراب**، تسور الدار إذا دخل من سُورِها لا من بابها. وعرّفَنا أنهما كانا ملكين أو ملائكة أُرسلوا إلى داود. ولهذا قالوا: لَا تَخَفْ،[٤] كما قالت الملائكة لإبراهيم.[٥] والمسطور إلى الآن في كتب أنبياء بني إسرائيل أن داود رأى زوجةَ أُورِيّا وأنه سيّره إلى الحرب. وكتب إلى مقدَّم الجيش أنه يقدِّمه أمام التابوت وهو الصُّنْدوق الذي فيه التوراة، وأن الله ضرب له مثلا ليَعلم منه داودُ إنما فتناه[٦] ليتوب.[٧] وهذه القصة بعينها مسطورة عندهم مُطوَّلةً مفصلة إلى الآن.[٨]

[في عصمة الأنبياء]

ويجب أن تعلم أن الله تعالى لم يذكر ذلك عن داود وموسى ويونس ذمّا لهم ولا أنه تعالى أراد منا أن نتأول وننفي الخطأ عنهم. وإنما أراد أن لا يقنط أحد ولا ييأس

---

١ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ (سورة يوسف، ١٢/٨٢).

٢ ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ (سورة النمل، ٢٧/١٦).

٣ ش ك: وبما تشدد.

٤ من الآية التالية.

٥ هذه العبارة ذكرت في موضعين: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ (سورة هود، ١١/٧٠)؛ و﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ (سورة الذاريات، ٥١/٢٨).

٦ ر + فيتوب.

٧ ر ك: فيتوب. وفي هامش ك: ليتوب.

٨ انظر: التوراة، صَمُوئِيل الثَّاني ١١/١-٢٧، ١٢/٧-١٥.

من فضل الله. وإذا أخطأ بواحدة من هذه لا يظن أن الله أغلق عنه باب التوبة بل يدري أن الإنسان من حيث هو بشرٌ يخطئ ولو كان نبيا، وأن الأنبياء كانوا بشرا ولم يكونوا آلهة ولا ملائكة ولم يكونوا معصومين إلا من الكَذِب خاصة كما بيناه.[1] وإذا كان مثل الأنبياء يجري لهم مثلُ ذلك ويستغفرون ويغفر الله لهم فيجب أن نطمع نحن أيضا في المغفرة، لأن الجهل منا والتقصير والغفلة والبُعد عذرٌ لنا عند الله سبحانه. ونحن أولى بأن يعفو عنا إذا تُبنا لا أولوية[2] قربٍ، لكنا لمّا كُنّا أولى بالخطأ فنحن أولى بالعفو منه سبحانه لغلبة الجهل فينا وقوة دواعينا. فإذا قَهَرْنا ما يَقْهَرنا بالتوبة عنه كان جهادنا أشدَّ من جهاد الأنبياء وعذرُنا أبلغ من عذرهم، كما تعفو عن الطفل الذي لا يعقل ولا تعفو عنه إذا عقل. فافقه حكمة ما عرّفَنا الله / به. وفكِّرْ في مثله تجد كثيرا [٣٦٢و] من مثل ما ذكرتُه.

[مقاصد ضروب الأمثال]

ويجب أن تقف مع المقاصد من ضرب الأمثال لا مع المعارضات المحتمِلة لألفاظ[3] الأمثال. فإنك تعلم أن المَلَكين المتحاكمين عند داود عليه السلام لم يَعْزُ أحدُهما صاحبه في الخطاب، وأن أحدهما لم يملك تسعا وتسعين نعجةً. ولا يقال: إن هذا من الملائكة من باب الافتراء، ولا بقية الكلام كان المقصود به ظاهرَه، بل المقصود به صحيح في نفسه. فلا تفهم من الجنة والنار والأمثال التي ذكرها الله في البعث وتبديلِ الأرض والسماوات ظواهر الكَلِم فقط، بل افقه[4] المقصودَ به وإن كانت القدرة صالحةً لذلك وغيره. وكذلك فافهم في قوله: يَدُ ٱللَّهِ،[5] وفي سائر الأسماء كما بيّنّا في موضعه، وفي كل ما يُشكل عليك وتريد أن تختلق له تأويلات[6] لتُمشّي كلام الله على الصورة الظاهرة التي تظن أنها المراد، وعلى كثافة وتجسيم مما لا يفهمه مثلك إلا كفهمك. ولا تضيّعِ الوقت والزمانَ في مثل ما يضيّعه البطّالون من الجهلة في بحثهم عن القرآن هل هو بحرف وصوت، وقديم ومحدَث، ونقطة وشكلة وغير ذلك مما ليسوا من أهله، وهو عند العالِم معلوم واضح لا يحتاج إلى الكلام فيه.

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآية ٦٣ من سورة الأنبياء.

[2] ش: لأولوية.

[3] ش: الألفاظ.

[4] ر ك: بل افهم. وفي هامش ك: افقه.

[5] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (سورة الفتح، ٤٨/١٠).

[6] جميع النسخ: تأولات.

فكأنهم عند ذلك يبحثون في تسع وتسعين نعجةً وكم كان فيهن بَلْقاء[1] وقَرْناء،[2] وكم كان عمر كل واحدة وغير ذلك مما يحتمله السؤال وهو على الباحث فيه وبالٌ. ومع هذا يكفّر بعضهم بعضا ويلعنه. وتركوا ما لأجله ذكر الله ما ذكره وشغلوا بغيره، ويحسبون أنهم مهتدون.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾

واعلم أن داود لمّا تسوروا عليه المحرابَ كان جالسا للحكومة. وكانوا جماعةً من الملائكة وفيهم الخصمان. لهذا قال: **إذ دخلوا علىٰ داوٗد ففزع منهم. قالوا لا تخف خصمان بغىٰ بعضنا علىٰ بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تُشْطِطْ**، تَبعُدْ عن الحق فتَعْسِف به. ومنه شَطّت الدار، أي بعدت. **واهدنا إلىٰ سواء الصرٰط.**

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾

إن هٰذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة وٰحدة فقال أكفلنيها، من قوله: وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا،[3] **وعزنى فى الخطاب.**

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾

قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلىٰ نعاجه، أي ليُضِيفَها إلى نعاجه. **وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم علىٰ بعض إلا الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت وقليل ما هم.** ولمّا حكم داود بذلك اعتبر نفسَه أولا لتكون أقواله مطابقة لأفعاله فذكر قضيةَ أُوريّا. **وظن داوٗد أنما فتنٰه**، اختبرناه بزوجة أوريا وأرسلناه إلى نفسه بهذه الحكومة. وقوله: **وظن**،

---

[1] البَلَق سواد وبياض. ويقال للدابة: أبلَقُ وبلقاء (لسان العرب، «بلق»).

[2] القرن: الرؤق، والجمع قرون، والأنثى قرناء، كبش أقْرَن بيِّنُ القرن (لسان العرب، «قرن»).

[3] ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (سورة آل عمران، ٣/٣٧). | **الكِفْل والكفيل: الحظ الذي فيه الكفاية، كأنه تكفل بأمره، نحو قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي اجعلني كفلا لها (المفرادات للراغب الإصفهاني، «كفل»).**

أي حين ما ظن ذلك رجع إلى الله. وقد بيّنّا في لفظة[1] الظن ما يجب في موضعه. وعلّمنا الله بهذه القصة كيف يجب أن نكون. **فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب.**

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

فغفرنا له ذٰلك، في الدنيا. **وإن له عندنا لزلفىٰ وحسن مـٰاب.**

﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

وقلنا له بعد المغفرة والرضا: **يٰداورد إنا جعلنٰك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوىٰ**، بهذا يصير كلُّ حاكم حاكما ولا يحتاج إلى تعليم من مخلوق، وتصير دنياه سُلّما إلى آخرته وبالعكس. **فيُضلّك عن سبيل الله. إن الذين يَضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب.**

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾

ثم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ما هو مبني على الكلام بالأول وهو قولهم: رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا،[2] أي في الدنيا، فقال بعده: اُذْكُرْ، من عَجّلْنا له وهو داوُد.[3] **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما بُطلا**، أي[4] حتى إذا طلبوا شيئا أجبناهم إليه إذ لا يتبع الحق أهواءَ الخلق. **ذٰلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار.**

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

أي لو فعلنا ذلك لبطل غرض التكليف الذي لأجله خلقنا السماوات والأرض فنكون قد خلقناهما باطلا. ولمّا / كان هذا الطلب الذي هو عَجّل لّنا قِطّنَا، إنما هو [٣٦٢ظ]

[1] ر: في لفظ.
[2] الآية ١٦ من هذه السورة.
[3] الآية ١٧ من هذه السورة.
[4] ش – أي.

دنيا طلبوها قال ما معناه: لم ننزل إليك دنيا نُفرّقها عليهم ونعطيهم نصيبهم منها. إنما هو،[١] **كتٰب أنزلنٰه إليك مبٰرك ليدبروا ءايٰته وليتذكر أولوا الألبٰب**، به.

﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠﴾

لمّا ذكر أنه، **نعم العبد**، بين بماذا فقال: **إنه أواب**،[٢] فبهذا كان نعم العبد، ولا يكون أوابا إلا بأن يُفتَن فيئوبَ من الفتنة سواء افتتن بها أم رجع عنها دون الافتتان. وهذا الذي يذكره عنه جميعُه إنما هو على سبيل التعظيم له والمدح، كقوله: وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ،[٣] أي اختبرناه بما يضله وجزيناه وامتحناه فوجدناه صابرا أوابا. فلذلك قال بصورة المادح: **إنه أواب**، وذكر أَوْبَة من أَوَباته فقال:

﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ٣١﴾

قيل: الصافنات[٤] هي الخَيْل التي تقف على ثلاث وتَرفع اليد اليمنى. وفي الحديث: «من أحبّ أن تقوم له الرجال صُفونا[٥] فليتبوأ مقعده من النار».[٦] والإشارة بالصافنات إلى الخيل تُربَط لعزتها لا السائمة. وأصل الجياد من الجيّد ثم صار اسما عَلَما، وهذا يدل على خيل[٧] معروفة عنده. وإنما جيء بها لتُعرَض عليه وكآن في آخر النهار.

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾

فقال، معترفا وحاكيا لا مستفهِما بل بالإنكار: **إني أحببت حب الخير**، وليس المراد إلا الخيل. فكأنه قال: إني أحببت الخيل كحب الخير، وأضاف الحب إلى الخير،[٨] كقوله: بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ.[٩] والمعنى معلوم من قوله تعالى على طريق الذم: وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ،[١٠]

---

١ ر + الكلام.

٢ ش + لما ذكر أنه نعم العبد بين بماذا فقال: إنه أواب.

٣ الآية ٣٤ من هذه السورة.

٤ ر + الجياد.

٥ كذا في جميع النسخ، ولعل الصواب "صفوفا".

٦ لم أعثر عليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر. فنحوه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من سرّه أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار» (سنن الترمذي، الأدب ١٣). وانظر نحوه أيضا: زاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٢٩٧/٧.

٧ ر - خيل.

٨ ر - وأضاف الحب إلى الخير؛ ك - وأضاف الحب إلى الخير، صح هـ.

٩ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ (سورة سبأ، ٣٣/٣٤).

١٠ سورة العاديات، ٨/١٠٠.

أي الخير الفاني. ومنه قوله تعالى: إِن تَرَكَ خَيْرًا.[1] فقال [سليمان] عليه السلام منكرا على نفسه لما رأى منها: إني أحببت هذه الخيل حب الخير الفاني، أي كمحبة الخير، لأنه يجوز أن يحبها ويكون ذلك لله تعالى فلا تكون المحبة لها من أجل الفاني بل من أجل الجهاد والباقي. وكذلك كل محبوب قد يُحَبّ لذاته الفانية وقد يحَبُّ لغيره مما يبقى. وحَذَف ذكر الخيل قبل قوله:[2] **أحببت**، لبيان ما حذفه؛ ولأنه إنما أنكر على نفسه مطلقَ المحبة التي هي كحب الخير، وبين بقوله: **عن ذكر ربي**. والذكر ههنا هو مطلق الذكر فقط، لأن الأنبياء لا يَغفُلون، فرأى من نفسه غفلة لاشتغالها، وهذ ميل عن معرفة بالميل لا عن جهل به. ومعنى [قوله:] **عن ذكر ربّي**، أي فضلا عن حبي ذكر ربي، لأن حب الله يجب أن يكون فوق كل حبّ، كقوله: وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ.[3] وقوله: **حتى**، أي إلى أن **توارت**، الشمس، **بالحجاب**، أي لم تغب بل توارت. وهذا يدل على زمن، ولم يذكر الشمس لشدة دلالةِ ما ذَكر على ما لم يذكر، كقوله:[4] مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ،[5] لأن الدابة لا تكون إلا على الأرض.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ٣٣ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤﴾

ثم قال: **ردوها عليّ**، أراد أن ينظر هل لنفسه بها تعلقٌ[6] بعد الاعتراف كما كان قبله فرَدُّوها. **فطفق**، يقال: طَفِق يَطفَق طَفَقا، أي جعل يفعل بمعنى المبادرة إلى فعل الشيء. **فطفق**، سليمان يمسح، **مسحا**، أو إلى مسح، **بالسوق**، جمع ساق، **والأعناق**. وهذا لا يلزم عنه أن سليمان ضرب أعناقَ الخيل ولا سُوقَها، وإنما مسح بيده على بعض السوق وعلى أماكنَ من الأعناق لأنها رُدّت عليه بعد الغروب. فمن حبّه لها مسح عليها بيديه كما يعمل أحدنا إذا عُرضت عليه فرسُه ليقلّبها ويعتبر يديها وعنقَها مسحا بيده. ولم يُرِد بقوله: **مسحا**، قتْلَها، لأن المسح إذا لم تُضَفْ إليه قرينة دالة على القتل -كما يقال: مسح رأسه بالسيف- / فإنه لا يُفهَم منه القتلُ، بل هو كقوله تعالى: [٣٦٣و]

١ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٨٠).

٢ ك - قوله، صح هـ.

٣ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٦٥).

٤ ر - كقوله.

٥ ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ (سورة النحل، ١٦/٦١).

٦ ش + بها.

وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ،[١] فهذه الباء كتلك، وأَولى ما فُهم القرآن بلفظ القرآن. والواقع في الوجود أن من أحب فرسا فإنه تارة إذا قلّبها أو استعرضها[٢] يمسح أحيانا بسوقها وأحيانا بعنقها. فكان المسح بيده مكان القُبْلة بفيه. ولو كان قد قتلها لذكر الله عنه الاستغفار والتوبة، ولا جائز أن يُذهب من بيت المال مثل هذه ولا ذنب لها. وإن سليمان لأَعْلى قدرا من أن يُنسب إليه مثل هذا، لأنه مَن أفعال السفهاء. ولقد مدحه الله ومدح جيشه بقوله عن النملة: لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ،[٣] إشارة إلى أنه هو[٤] وجنوده لا يؤذون نملة إلا وهم لا يشعرون. والمعنى والله أعلم أنه عليه السلام لمّا وجد من نفسه إيثارَ حبِّ الخير فضلا عن حب الذكر أراد أن يعتبر نفسه بقوله: **ردوها عليّ**، ليعلم هل بعد الاعتراف والتيقظ زال ذلك من نفسه أم لا، فرَدُّوها فطفق فأخبر الله عنه بعد الرد بقوله: **ولقد فتنا سليمٰن**. وليس المراد أن الله فتنه بالخيل فقط وإن كانت الإشارة ههنا إنما هي إلى الفتنة بها. لكن فتنه[٥] في مدة حياته فتارة أعرض عن الفتنة وتارة افتتن. ثم اعترف كقوله ههنا: إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ.[٦] ولهذا هو أَوَّابٌ[٧] ولم يقل: آئب. وقوله: **وألقينا علىٰ كرسيه جسدا ثم أناب**، فيه تقديم وتأخير للوِزان. وتقديره: ولقد فتنا سليمان ثم أناب، ثم أخذ يبين لنا ما يدل على عظم المدح له بقوله: **وألقينا علىٰ كرسيه جسدا**، لأنه كلما كانت الفتنة أكثر كان قدرُ المفتون أكبرَ بشرط الإنابة. ولهذا أيضا مع الوِزان أخّر ذكر الإنابة وإن كان الإخبار عما بعد كما نبين.[٨] وذلك أن المراد بالجسد المُلقَى على كرسيه إنما هو ما جرى له بعد موته لنعلم بذلك عظمه في حياته إشارةً إلى عظم الفتنة التي امتحنه الله بها في الحياة ولم يَضلّ بها، وهي شدة طاعة الجن له، ولا فتنة أكبرَ من الطاعة والملك ونفاذِ الامر. وقد علمت قوله تعالى: فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ،[٩] الآية. وإنما بيّن لنا بحديث موته صورة حاله في حياته لنعلم أنه بلغ إلى حد بقيت طاعة الجن له بعد الموت كما كانت قبله إلى أن جرى ما جرى. فلعظم هيبته في القلوب

---

١ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ (سورة المائدة، ٦/٥).

٢ ش: واستعرضها.

٣ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ (سورة النمل، ١٨/٢٧).

٤ ر – هو.

٥ ش: لكن فتنة.

٦ الآية ٣٢ من هذه السورة.

٧ الآية ٣٠ من هذه السورة.

٨ ر: كما تبين.

٩ ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ (سورة سبأ، ١٤/٣٤).

بقي على كرسيه جسدا بلا روح وهو يطاع. وذلك إشارة إلى عظم ما امتحنه الله به من كونه أطيع[1] إلى هذا الحد ولم يُلْهِهِ ذلك. فالمقصود تعظيم سليمان ومدحُه بالقدرة والعلم لا ذم الجنّ وإظهار جهلهم بالغيب. لكنه تعالى أفهمَنا في ضمن تعظيمه جهلهم بالغيب إلى حد لا يفرقون به بين الميت والحي مدة طويلة. وأما خطيئة سليمان التي استغفر الله بسببها ههنا فهي حب الخير الذي إنما ظهر له من نفسه عند عرض الخيل. فطلب المغفرة لهذا الذنب وأن يُمتحن بما لا ينبغي لأحد من بعده من الملك. فكان الامتحان العظيم بعد الذنب ولم يزل على ما يُرضي الرب.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾

فلمّا فُتن بالخير وأناب، **قال رب اغفر لي**، أي هذه المرة، **وهب لي**، من بعدها، **ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي**، تقديره فلا أفتتنُ به. **إنك أنت الوهاب**. ولا شك أن سليمان عليه السلام كان يتحقق أن جملة الحياة وما فيها من سائر الهِبَاتِ فتنٌ كما قال تعالى: لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا.[2] فلم يكن طلبه إلا لِما يبقى وهو حَسَن الصنيع فيما يَفنى. فلا مُلك أبلغَ من / ملك النفس ولا تَملك إلا بترك ما تَملك. فكان سليمان عليه [٣٦٣ط]
السلام مَلِكا كاملا عبدا. وجاء الإخبار من الله عنه مبينا على ما تقدم من قولهم: عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا،[3] إعلاما بأن الله يهب من يشاء ما يشاء كما وهب لداود سليمان لعلمه بهما، وأنهما يتصلان بما آتاهما، فلو عجّل لغيرهما بعضَ ذلك لهلك.

وفي هذه القصة والإعلامِ بها تنبيه من الله تعالى وإنباءٌ عن حكمته سبحانه كونه زَوَى الدنيا عن بعض المؤمنين،[4] لأن الكلام [مرتبط] بأوله، وأوله ههنا: وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا،[5] أي من الخير في الدنيا لنؤمن بك. فعرّفَهم قدرته على أن يؤتي من يشاء كما آتى داود وسليمان، ولكنه منعَ، لأن مثل هؤلاء جرى[6] لهم ما جرى.

---

١ ش: أطبع.
٢ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (سورة الكهف، ٧/١٨).
٣ الآية ١٦ من هذه السورة.
٤ ك – المؤمنين، صح هـ.
٥ الآية ١٦ من هذه السورة.
٦ ش – جرى.

فكيف حال غيرهم لو آتاه؟ ولهذا قال: وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ،[١] فهذا التقدير من تمام الكرم والرحمة، لأنه من يقدر على أن يقول إذا فُتن ما قاله سليمان؟[٢] فإنه مقام دعوى عظيم لِما تَمَكّن في قلبه من قوة الإيمان بربه وصدقِ الأَوْبَة من ذنبه كأنه قال: افعل معي هذا المطلوبَ من المغفرة عما[٣] مضى وامْتَحِنّي مهما[٤] شئت مما لا ينبغي لأحد من بعدي، فلا أفتَتِن به. فلا تظنّه طلبا للدنيا بل إظهارا للقوة على تركها. وهذا المعنى جاء عنه في العبرانية وهو: امتحنّي يا الله وجرّبني، صَفِّ كُلْيَتَيَّ وقلبي.[٥] وهذه قوةُ إيمان وقلبٍ وصدقُ عزم وجِدٍّ. فمن ههنا عرفتَه، وإن لم يكن كذلك وإلا فهو منافٍ لقوله: **اغفر لى**، لأن الفتنة ههنا كانت بحب الخير. ولهذا قال: **فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء**، لينة من الرخاوة **حيث أصاب**؛ أصبتَ من الطعام إذا أكلت منه، وأصاب السهمُ الغرض إذا وقع فيه وباشره وناله. **والشَّيٰطِينَ**، أي ومن الشياطين. ويحتمل أن يكون معطوفا على **الريح**، **كل بناء وغواص**. ويحتمل أن يكون هؤلاء شياطينَ الإنس. **وءاخرين مقرنين فى الأصفاد**، مقرنين[٦] في الأغلال.

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

هٰذا عطاؤنا فامنن، على من شئت يا سليمان، **أو أمسك بغير حساب**، أي هذا عطاؤنا بغير حساب، لأن كلَّ ما هو محسوب ينفد. ولهذا قال: **فامنن**، وهو كقوله: وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.[٧] ولو كان قوله: **بغير حساب**، يعود إلى سليمان لقال: فَأَمْسِكْ أو امنُنْ بغير حساب، لأن المَسك والمنّ عائدان إلى سليمان، وقد خيره الله. وأما من قال: **بغير حساب**، في الآخرة فذلك بضد ما تقضي به العقول والنصوص، لقوله عن الجميع: لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا،[٨] وقوله: لِيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ.[٩] ولولا ذلك لَما قال سليمان: لِيَبْلُوَنِىٓ،[١٠] بل ليمتِّعني. ولهذا بعده ههنا: **وإن له عندنا لزلفىٰ وحسن مئاب**.

---

[١] ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (سورة الحجر، ٢١/١٥).

[٢] ك + سليمان.

[٣] ش ك: عمى.

[٤] ش: بمهما.

[٥] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «جربني يا رب وامتحني. صفّ كُلْيَتَيّ وقلبي» (المَزْمُور ٢/٢٦).

[٦] ر: مقترنين.

[٧] سورة البقرة، ٢١٢/٢؛ وسورة النور، ٣٨/٢٤.

[٨] ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (سورة الكهف، ٧/١٨).

[٩] سورة المائدة، ٤٨/٥؛ وسورة الأنعام، ١٦٥/٦.

[١٠] ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ (سورة النمل، ٤٠/٢٧).

وهذا يدل على أن سليمان لم يفتتن بذلك مع عظم ما أوتي. وفي هذه الجملة تنبيه على أن الإنسان لا ينبغي له طلبُ التزيد والمال والملك إلا أن يكون ذلك الرجل الذي يَثبت في مقام الامتحان كما قال سليمان: لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ.[1]

[تزكية النفس]

واعلم أنه لا يجوز لأحدنا أن يزكي نفسه إذا اختبرها وامتحنها في حال فوجدها على الواجب، كمن جرّب نفسه فخلا بمحرَّم وخرج سالما من الفعل ظاهرا ومن الانفعال باطنا.[2] وذلك لمعنيين؛ أحدهما أن الإنسان لا يَعلم ما يخلق الله في قلبه ولا ينحصر له الفاتن الذي قد يفتتن بسببه؛ والثاني أن الإنسان إذا امتحن نفسَه بشيء فذلك بخلاف ما يمتحنه الله به، لأن امتحان الإنسان لنفسه يكون عن علم وقصد منه وامتحانَ الله له يكون بأمر خفي عنه. فالأول لعلمه به قد يصبر عليه، والثاني لخفائه عنه[3] قد يحوّل حاله إذا وصل إليه. ولهذا خُوطب بعضُ الأولياء: "أنت ابن الحال الذي تأكل فيه / طعامَك وتشرب شرابك"، أي لست ابن ما تجتلبه بالاجتهاد والاستعداد، وذلك[4] ينقص ويزيد. والمراد ما لا يتغير ولا يَبيد، بل[5] كما قيل: [٣٦٤و]

ومحكم الوُدّ لا يزداد إن وصل[6] الـ   محبوبُ حينا ولا بالهجر[7] ينتقص.[8]

وقد قيل: ما لا يفتتن[9] الإنسان به فلا يحاسَب عليه. وسليمان لم يفتتن بذلك بعد توبته بل قيل: وكان أوّابا.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾

ولمّا كانت هذه الآيات تشتمل على ذكر النعم ذكر داود وما أنعم عليه، وسليمانَ وما أنعم عليه، وأيوبَ وما أنعم عليه[10] بعد الامتحان العظيم ليعلّمنا الصبر والتوبة والدعاء، فذلك باب كل خير وكل تجارة مُمكنة في الدنيا في كل آن فقال: **واذكر عبدنا أيوب إذ نادىٰ ربه أنى مسنى الشيطٰن بنصب وعذاب**، من النصَب. وإنما خفّفت

١ سورة النمل، ٤٠/٢٧.
٢ ر – باطنا؛ ك – باطنا، صح هـ.
٣ ر ك – عنه.
٤ ر ش: ذلك.
٥ ر – بل؛ ك + بل، صح، هـ.
٦ جميع النسخ: هجر.
٧ جميع النسخ: بالوصل.
٨ لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر.
٩ ر – ما لا يفتتن.
١٠ ر ك + به.

لئلا تشتبه بقوله: وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ.[١] ولم يقل: مسَّني ربي، والوجه في كونه نسب ذلك إلى الشيطان وإن كان الله سبحانه سلّطه عليه، لأن الله تعالى إنما أذن للشيطان بذلك ترقيةً لأيوب،[٢] فهو من باب الخير الذي لا يبلغه أيوب بعمله. وأما الشيطان فإنه أراد بذلك أن يُضل أيوب ويَحجبه، فكانت إرادة الحق تعالى لأيوب خيرا، وإرادة الشيطان لأيوب شرا، فنسب أيوب ذلك إلى الشيطان بحق. وإنما أخبرَنا الله بذلك عن أيوب ومثله لنَعِيَ صورةَ ما جرى، ونعتمد[٣] مثل اعتماد أيوب، ونصبر عند البلاء ونتعلمَ من الأنبياء. وإذا أوّلنا كلامهم إلى غير المقصود به فأي شيء نتعلمه منهم، وإذا لم نتعلم منهم فممن؟ وإذا كان المخبر عنهم هو الله، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا.[٤] وإذا كان الإخبار بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ،[٥] فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ.[٦]

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾

فلمّا استغاث أيوب بربه قال له ربه: **اركض برجلك**، ولم يقل:[٧] برجليك، ولم يقل:[٨] اركض فقط ليعرّفَنا أنه أمره أن يضرب برجله الواحدة ضربة خفيفة كالركض تنشقّ الأرض عن[٩] عينِ ماءٍ ففعل فكان. فقال الله تعالى: **هٰذا مغتسل بارد وشراب**. وأخّر [قوله:] **وشراب**، للوزان. وتقديره وشراب بارد. ولمّا كان الماء الكثير يُغتسل فيه أي في وسطه والقليلُ يُغتسل به لم يقل: غاسل بل، **مغتَسل**، سماه باسم الموضع الذي يُغتسل فيه، لأنه عزيز،[١٠] اغتسل فيه أيوب وشرب منه فشُفي باطنا وظاهرا. وهذه نعمة العافية التي عليها يترتب[١١] سائرُ النعم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

---

١ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ... وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ (سورة المائدة، ٣/٥). | النُّصب: الداء والبَلاء والشر. والنصب: كل ما عُبد من دون الله تعالى (لسان العرب، «نصب»). وعن الحسن "على النصب" بفتح النون وسكون الصاد (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٢٥٠).

٢ ر - لأيوب؛ ك - لأيوب، صح هـ.

٣ ر: ويعتمد.

٤ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ (سورة النساء، ٨٧/٤).

٥ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (سورة الشعراء، ١٩٣/٢٦-١٩٥).

٦ سورة المرسلات، ٥٠/٧٧.

٧ ش ك - ولم يقل، صح هـ.

٨ ش ك - ولم يقل.

٩ ك - عن، صح هـ.

١٠ ر: غزير.

١١ ش: تترتب.

ووهبنا له أهله ومثلهم معهم، أهله وأولاده، ومثلهم[1] أولاد الأولاد. ولهذا ذكر المعية، فافهم هذا دون غيره. **رحمة منا**، لأن ذلك من باب الهبة. **وذكرىٰ لأولى الألبٰب**، أي حتى يصبروا ويدعونا.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

ومن جملة النعم: **وخذ بيدك ضغثا**، باقةً[2] من قُضْبان[3] أو مثلِه، لأنه حلف أن يجلد زوجتَه، وعلم بعد ذلك أنها بريئة، فأفتاه الله، وعلّمنا فيماذا تكون الفتوى. ثم قال: **فاضرب به ولا تحنث إنا وجدنٰه صابرا نعم العبد إنه أواب**.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾

واذكر عبٰدنا إبرٰهيم وإسحٰق ويعقوب أولى الأيدى والأبصٰر، وصَفهم بالكرم، تقول: له عندي يدٌ، أي نعمة، ووصَفهم بحُسن النظر في مصالح عباد الله، وهو أيضا بضد ما ذم به غيرَهم حين قال: أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا.[4] وقد كانت لهم هذه الجوارح ولكنهم لمّا لم ينتفعوا بها ما أغنت عنهم فعادت، كالمعدومة منهم، وهؤلاء انتفعوا بها ونفعوا.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾

إنا أخلصنٰهم بخالصة ذكرى الدار، ما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة يذكِّرهم به، فهو الذي أخلصهم به دون غيرهم مما أنزله من الصحف، هو ذكرى دار الدنيا الموجب لسلامة الحياة في الدار الأخرى.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾

وإنهم عندنا، في الآخرة، **لمن المصطفين**، المُصْطَفَايِينَ، فاستثقلت وفُتحت فاؤها لئلا تُشبه خطابَ المؤنث، **الأخيار**.

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾

واذكر إسمٰعيل واليسع وذا الكفل، / النصيبِ، وقد ذكرناه.[5] **وكل من الأخيار**. [٣٦٤ظ]

---

[1] ر + معهم.

[2] الباقة: الحزمة من البقل (المعجم الوسيط، «باق»).

[3] القضيب: الغصن، وكل نبتٍ من الأغصان يُقضَب، و(ج): قُضبان (تاج العروس للزبيدي، «قضب»).

[4] سورة الأعراف، ١٩٥/٧.

[5] يشير المؤلف رحمه الله إلى تفسير الآية ٨٥ من سورة الأنبياء.

﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٤٩ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠﴾

هٰذا ذكر، لمّا قال: وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا،[1] وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَا،[2] قال: **هٰذا ذكر**، أي ذكرٌ[3] من أنعمنا عليه من الأوّابين والتوّابين. ثم أعقبه ببقية التوابين من المؤمنين المتقين فقال: **وإن للمتقين لحسن مئاب، جنّٰت**. كَسَر "جنات" على إضمار في، **جنّٰت عدن**، وهو كما في سورة الملائكة: ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ جَنَّٰتُ [عَدۡنٍ]،[4] بالكسر. ويحتمل أن تكون الجنات ههنا منصوبة على البدل من المنصوب بإنّ، وهو أولى، ولهذا نَصَب ما بعدها فقال: **مُفَتَّحَةً لهم الأبوٰب**.

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ۝٥١﴾

متكئين فيها، على سُرُر، **يدعون**. وكرر[5] "فيها" لئلا يبقى الدعاء مقصورا مع الاتكاء كما يدعو المريض، **بفٰكهة كثيرة وشراب**. من فصاحة العرب ذكرُ الباء مع المدعوّ. وقد تكلمنا في ذلك.

﴿۞وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ۝٥٢﴾

وعندهم قٰصرٰت الطرف أتراب، أقران في سِنّ وقَدّ وجمالٍ.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝٥٣﴾

هٰذا ما توعدون، مدخَّر لكم، **ليوم الحساب**.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾

إن هٰذا لرزقنا ما له من نفاد، انقطاع.

﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٥٦﴾

هٰذا، تأتي زيادةً تدل على الانقطاع والفصل بين كلامين، كما يقال: هذا مضى، ثم تقول بعده كلاما غيره: كقوله ههنا بعد وصف أهل الجنة: **وإن للطٰغين لشر مئاب جهنم يصلونها فبئس المهاد**.

---

[1] الآية ٤١ من هذه السورة.
[2] الآية ٤٥ من هذه السورة.
[3] ك - أي ذكر، صح هـ.
[4] سورة فاطر، ٣٥/٣٢-٣٣.
[5] ر ك: كرر.

﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ ۝٥٩﴾

هٰذا فليذوقوه حميم وغسّاق، منتن. ويقال: غَسَق الجُرْح غَسَقانا إذا سال صديدُه. **وءاخر من شكله أزوٰج**، أي لا أفراد، وهذا معلوم من قوله: وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ،[1] أي هم وقرناؤهم.

ولمّا قدم قوله عن أهل الجنة: هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ،[2] حذف لفظ الوعد فيما بعد، ودل عليه بتكرير قوله: هَٰذَا. فقال في آخر وصف أهل الجنة: هَٰذَا، وتقديره هذا ما توعدون. ثم قال عن أهل النار: **هٰذا فليذوقوه**، فتقدير الكلام هذا ما يوعدون فليذوقوه. ثم قال: **وءاخر من شكله**، أي من شكل ما يوعدون، أي وأقوام أُخَر. وفسر ذلك بقوله: **هٰذا فوج**، وما ذاك إلا أن الفوج من شكل العذاب وبيّن كونه[3] عذابا بما حكى عنهم من الخصام، ولهذا قال عنهم: إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ.[4] فافهم الجملة. وقوله: **مقتحم معكم**، قَحَم في الأمر قُحوما إذا رمى بنفسه فيه، وقحّم الفرسُ فارسه تقحيما إذا رماه على وجهه.

وقوله: **هٰذا فوج**، هو من كلام الخَزَنَة من ملائكة النار. فقال الأوائل من الطاغين: **لا مرحبا بهم**، من الرحب[5] والسعة، أي لا مُتَّسعا لنا بهم، وأُخر لأجل الوزان تمام كلام الملائكة. فقوله: **إنهم صالوا النار**، منسوق بقوله: **معكم**. وتقول العرب: مرحبا بالقادم، أي وجدنا به متّسعا لا ضِيقا.

﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٦٠﴾

قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه، كقوله: فَلْيَذُوقُوهُ،[6] لنا. وهذا يدل على أن الأوائل أضلوا الأواخر، فتقدم الأوائل إلى النار. ولمّا كان الأواخر معهم في الدنيا جُعلوا معهم في الأخرى، **فبئس القرار**.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ۝٦١﴾

قالوا، جميعا: **ربنا من قدم لنا هٰذا فزده عذابا ضعفا في النار**، العذابُ غير النار وهو فيها،

[1] ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (سورة الفرقان، ١٣/٢٥).
[2] الآية ٥٣ من هذه السورة.
[3] جميع النسخ: كونهم.
[4] الآية ٦٤ من هذه السورة.
[5] ر: من المرحب.
[6] الآية ٥٧ من هذه السورة.

فهم يدعون على أنفسهم: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.[١] وفي ظنهم أنهم يدعون على من قدم لهم، وهذا كقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾.[٢]

﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾

وقالوا ما لنا لا نرىٰ رجالا كنا نعدهم من الأشرار، يسأل بعضهم بعضا: **أتخذنٰهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصٰر**، اليوم فلم نرهم معنا.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قل هو، القرآن، **نبؤا عظيم، أنتم عنه معرضون**.

﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

ما كان لى من علم بالملإ الأعلىٰ إذ يختصمون، أي ما كنت أعلم بالملائكة فأخبركم عن خصامهم اختصموا في آدم حين ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾.[٣] ولهذا قال[٤] بعد تمام الآية:[٥] **إن يوحىٰ إلىّ إلا أنما أنا نذير مبين**. من قرأ أنما بالفتح[٦] فتقديره: أن الذي أنا، وهذا موضوع، محموله **نذير مبين**، أي إن يوحى إلي / إلا أنني نذير بهذا [٣٦٥و]
القرآن وقد احتوى على الغيوب والأنباء، لأنه قدم قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾،[٧] وعطف عليه "**إن يوحىٰ إلىّ**"، إلا أن الذي أنا هو نذير لا عالم بالملأ الأعلى.

---

١ سورة المائدة، ٥/٨٠.

٢ ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ (سورة الأعراف، ٧/٣٨).

٣ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٣٠).

٤ ر - قال، صح هـ.

٥ ش ك + إذا قال.

٦ قرأ أبو جعفر بكسر الهمزة، والباقون بفتحها (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٤٧٩).

٧ الآية ٦٥ من هذه السورة.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾

إذ، ولهذا لم يقل: وإذ، بل لمّا ذكر خصام أهل النار ذكر خصام الملائكة قبله متى كان، فقال: **إذ قال ربك للملٰئكة إنى خٰلق بشرا من طين**.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾

فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له سٰجدين، وذلك يدل على شدة الامتثال للأمر بالسجود وهو حَسَن من فعل الآدميين يفعله الأديب بين يدي الملك عند رؤيته، والله أحق بذلك. واعلم أن الملائكة لم تسجد لآدم إلا بعد أن أنبأهم[1] بالأسماء. فإن قيل: قد أُمِروا بالسجود حين التسوية والنفخ فكيف تأخروا عن ذلك؟ فالجواب أنهم لم يتحققوا النفخ من روحه سبحانه إلا بما أنبأهم به من علم الأسماء وإلا لكان آدمُ كأحد الحيوانات. فلمّا شهدوا من العلم ما لم يكن لهم مثله وأقروا بعد الجحود بما شهد به الوجود لزمهم السجود.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

فسجد الملٰئكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان، قبل الاستكبار ولهذا لم يقل: فكان، **من الكٰفرين**.

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قال يٰإبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت، الآن، **أم كنت**، من قبلُ، **من العالين**، أي فتكون كبيرا لا مستكبرا.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾

قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين. انظر كيف استكبر وظن أنه من العالين فغلط، ثم أصرّ فعُوقب على إصراره بإصراره،[2] سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ.[3]

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

قال فاخرج منها فإنك رجيم، مرجوم بالألسنة والشهب وبما شاء الله.

---

١ ر - أن.

٢ ك - بإصراره، صح هـ.

٣ سورة الأنعام، ٦/١٣٩.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾

وإن عليك لعنتى إلىٰ يوم الدين، ولعنة الخلق من جملة لعنة الله له.[١] فانظر إلى هذه الموعظة بمن امتنع من سجدة واحدة للمخلوق. فكيف حال من امتنع دئما من السجود للخالق.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٧٩﴾

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ٨١﴾

قال فإنك من المنظرين. لا يدل على أن ثَمَّ منظرين وهو منهم، بل كقوله: فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ،[٢] ولم يكن هناك صاغر غيره، **إلىٰ يوم الوقت المعلوم**، يوم الساعة.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ٨٣﴾

قال فبعزتك، لمـّا ذكر السؤال بالفاء جاء بالجواب وجواب الجواب وجوابه بالفاء مماثَلة في الكلام. وقوله: **فبعزتك**، قسم من إبليس. وإنما أقسم بالعزة دون غيرها لكونه يريد الاقتدار والتحكم عليهم، كما تقول: وحقِّ كرمك لأعطينهم، ليكون القَسَم أنسبَ إلى الغرض من قوله: فورحمتِك، **لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين**.

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ٨٤﴾

قال فالحق، قلتَ، أي فيما استثنيتَ، **والحق أقول**،[٣] أي فيما أجازي به.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٥﴾

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾

قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين، أي لم أتكلَّفْهُ من تلقاء نفسي كما يفعل الشاعر فيستحق الأجر.

---

١ ر - له؛ ك - له، صح هـ.

٢ ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ (سورة الأعراف، ١٣/٧).

٣ "قال فالحق": قرأ عاصم وخلف وحمزة برفع القاف والباقون بنصبها ولا خلاف بينهم في نصب "والحق" (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٤٧٩).

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧﴾

إن هو إلا ذكر للعٰلمين، أجمعين في سائر الأزمان إلى يوم القيامة.

﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۢ ٨٨﴾

ولتعلمن نبأه بعد حين، في الدنيا بصدق الوعيد من فتح بلاد الكفار. وبذلك يستدلون على صدق الوعيد في الآخرة بعذاب النار.

سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾

تنزيل، مصدر، تقدم مثله،[1] **الكتٰب**، القرآن، والجملة مبتدأ، خبره: **من الله العزيز الحكيم**.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾

وقوله بعده: **إنا أنزلنا إليك الكتٰب**، والأول بمنزلة عنوان الكتاب، والثاني بيان ما في الكتاب، **بالحق. فاعبد الله مخلصا له الدين.**

ألا لله الدين الخالص، والذين اتخذوا من دونه أولياء، قائلين بدعواهم وحالهم: **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفىٰ**، تقدم.[2] **إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون، إن الله لا يهدى من هو كٰذب كفار.**

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾

ثم ذكر ما يهجّنهم به من قولهم في الملائكة، وقولِ النصارى في المسيح، واليهودِ في عزير: **لو أراد الله أن يتخذ ولدا**، أي ليُعبَد معه فيتقرب العابدون به إلى الله، **لاصطفى مما يخلق ما يشاء**، أي لو أراد الله سبحانه ذلك[3] لاصطفى للعبادة أشياء كثيرةً من حيوان ونبات ومَعْدِن وفلك ومَلَك. ولهذا / عبر بـ"ما". ثم قال: [٣٦٥ظ]
سبحٰنه، عما يقولون، **هو الله الوٰحد القهار**، ذكر القهر ردا على من ادعى صُلْبَ الولد ثم عَبَده.

---

[1] انظر مثلا: سورة السجدة، ٣٢/٢.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: سورة سبأ، ٣٤/٣٧.

[3] ر ك: لو أراد ذلك سبحانه.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝٥﴾

واستدل على صحة قوله "قهّار" بقوله: **خلق السمٰوٰت والأرض بالحق يكور اليل على النهار ويكور النهار على اليل**، مأخوذ من قوله عليه السلام: «نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر»،[1] أي من النقصان بعد الزيادة. وتكوير المتاع جمعُه بعضَه على بعض وشدُّه. ومنه كارَ العمامةَ على رأسه يَكُورها كَورا. وكل دَوْر كَور. وليس المعنى يزيد في أحدهما من الآخر فإن ذلك معبَّر عنه بقوله: يُولِجُ،[2] وهذا ههنا ينبئ عن التتابع دائما. ولهذا لم يقل: "في" بل، **على اليل**. والأمر أبدا كذلك في التكوير كما هو في الإيلاج. وأما ما يدعيه الفلكيّون من الاعتدال فلِقِصَر أذهانهم عن إدراك مدة الزيادة والنقصان في زمن يكون فيه الاعتدال بزعمهم. وإنما حسابهم بدَرَجٍ، كلُّ درجة ستون دقيقة، وكل دقيقة منها ستون ثانية، وكل ثانية ستون ثالثة إلى ما لا نهاية له[3] في أذهان البشر مما يقدرون على العبارة عنه. فعجزوا عن إدراك تحقيق التفصيل، فذكروا جُمَلا دالة على قدرة قادر سبحانه، وسَمَّوا زمن الرجعة اعتدالا. وليس هنالك وقوف للشمس حتى يسمى، بل الشمس تجري وبنورها كوّر الله سبحانه. **وسخّر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفٰر.**

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ۝٦﴾

خلقكم من نفس وٰحدة، آدم، **ثم جعل منها زوجها. وأنزل لكم من الأنعٰم ثمٰنية أزوٰج**، تقدم في الأنعام،[4] وعبر بلفظ الإنزال لأن كل شيء فإنه إنما خُلق بالأمر والأمر منزل.

---

[1] سنن النسائي، الاستعاذة ٤١، ٤٢؛ وصحيح ابن خزيمة، ١٣٨/٤. | أي من النقصان بعد الزيادة. وقيل: من فساد أمورنا بعد صلاحها. وقيل: من الرجوع عن الجماعة بعد أن كنا منهم (النهاية لابن الأثير، «حور»).

[2] هذه الكلمة ذكرت في آيات عديدة، منها ما ورد في سورة الحج، ٦١/٢٢؛ وسورة لقمان، ٢٩/٣١؛ وسورة فاطر، ١٣/٣٥.

[3] ش + أي؛ ك - له، صح، هـ.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ (سورة الأنعام، ١٤٣/٦).

يخلقكم فى بطون أمهٰتكم، أنتم وأنعامَكم، لهذا أتى بذكر "الأنعام" ههنا. **خلقا من بعد خلق**، مبيَّن في سوة المؤمنين،[١] **فى ظلمٰت ثلٰث**، ظلمة البطن، ثم ظلمة[٢] الرحم، ثم ظلمة[٣] المَشِيمة في الرحم. والرَّحِم موضوعة فيما بين المثانة والمِعاء المستقيم وهي مربَّطة برباطاتِ سلسة؛ وهي في نفسها عصبية يُمكن أن تمتد وتتسع عند الحاجة وتنضم وتتقلّص عند الاستغناء عن التمدد. ورقبة الرحم تمتد وتنتهي إلى الفرج من المرأة بمنزلة الإحليل من الرجل. وإذا عَلِقت المرأة انضمّ فمُ الرحم حتى[٤] لا يدخله الميل، وعند الولادة ينشقّ[٥] حتى تَخرج منه جثةُ الجنين، وهي في كِيس ككِرْش الشاة وهي المَشيْمة. وهذا كله مشاهَد دال على قدرة قادر سبحانه. **ذٰلكم الله ربكم**، لا ما تدعونه من دونه. **له الملك لا إلٰه إلا هو فأنى تصرفون**، من الصرف، صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم.[٦]

﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾

إن تكفروا، بالله بعد ما شهدت عليكم منكم أدلتُه، **فإن الله غنى عنكم، ولا يرضىٰ لعباده الكفر**. وهذا دليل واضح على بطلان قول المجبرة، إذ نسب الكفر إليهم بقوله: إن، الشرطية الدالة على متمكِّن من أن يفعل وأن لا يَفعل. ثم إن قوله: **ولا يرضىٰ لعباده الكفر**، دليل على أنه مِن فعْلهم بالقدرة التي وهبها الله إياهم.[٧] ولا يجوز أن يكون الكفر من فعل الله فإن الله[٨] تعالى لا يفعل ما لا يرضاه لعباده أن يصدر منهم في حق أنفسهم. فكيف يَصدر ذلك منه في حقهم وهو غني عنهم؛ إلا إن كان ذلك عقابا بما قدمت أيديهم، فهو وإن كان منه[٩] فهو منهم[١٠] أولا. وبهذا الاعتبار يقال: إن الخير منهم هو منه أولا، وإن الشر منه هو منهم أولا. وفي القرآن عدةُ مواضعَ يُفهَم منها هذا.

---

١ لعل المؤلف يشير إلى تفسير قوله تعالى: سورة المؤمنون، ٢٣/١٢-١٤.

٢ ش ك - ظلمة.

٣ ش ك - ظلمة.

٤ ر ك - حتى.

٥ ش ك: يتسع. وفي هامش ك: ينشق.

٦ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ (سورة التوبة، ٩/١٢٧).

٧ جميع النسخ: وهبهم الله إياها.

٨ ر: فإنه.

٩ ك - وإن كان منه، صح هـ.

١٠ ش: وإن كان منهم منه.

وإذا تأملت ما بعد هذه الآية وجدت هذا المعنى بعينه واضحا بيّنا فيها، فافهمه[1] من تحرير العبارة بقوله عن الإنسان: مُنِيبًا، وبقوله عن الله تعالى: مِنۡهُ،[2] كما نبين. **وإن تشكروا يرضه لكم، ولا تزر وازرة وزر أخرىٰ، ثم إلىٰ ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون. إنه عليم بذات الصدور.**

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾

ثم أوضح ما قدمناه بقوله: **وإذا مس الإنسٰن ضر**، أي بذنبه، **دعا ربه**، بدليل قوله بعده: **مُنيبا**، أي راجعا عن ذنبه، **إليه**، إلى ربه. **ثم إذا خوّله**، التخويل العطية العظيمة على جهة الهبة والمِنْحة، وبيّن ذلك بقوله: / **نعمة منه**، وهذا فائدة قوله: **منه**، **نسى ما كان يدعو**، إذا كان، **منيبا إليه**، من قبل، **وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله**، لام "ليضل" للعاقبة والصيرورة. **قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحٰب النار.** [٣٦٦و]

﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾

أذلك خير، **أمّن هو قٰنت ءاناء اليل سٰجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه**، وبيّن أن هذا الفعل من أوصاف العلماء، كقوله: إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ.[3] فقال ههنا: **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون. إنما يتذكر أولوا الألبٰب.**

﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾

قل، أي قل لهم بقول الله: **يٰعباد الذين ءامنوا اتقوا ربكم**، وذَرُوا المُسيئين إلى أنفسهم بترك التقوى. **للذين أحسنوا فى هٰذه الدنيا حسنة**، هذه الحسنة لكل محسن من كافر ومؤمن. والمراد بذكرها إنما هو من أجل الكافر المحسن الذي استعجل ربه ولم يصبر.

[1] ر: فافقهه.

[2] من الآية التالية.

[3] سورة فاطر، ٣٥/٢٨.

وبيَّن ذلك بقوله أخيرا: **إنما يُوَفَّى الصٰبرون**، الآية. فالكافر تلك الحسنة نَصيبُه في الدنيا، وليس له في الآخرة من خلاق.[١] وبيان هذا الشرح معلوم من الأمّ المُحكَمة وهي قوله: مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا،[٢] وتمام الآيتين. وأما المؤمن فالحسنة نصيبه من الدنيا في الدنيا وهي بحساب عمله، وله في الآخرة حسنةٌ تضاعَف بغير حساب، وهو معنى قوله: رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً،[٣] أي لا تَنْفَد، لأن كل ما في الآخرة باقٍ. وقوله تعالى: مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، هو من باب التكثير لا التحديد، وإلا يناقض قولَه: **بغير حساب**، فذكر العشرة وجعلها قُبالة قوله: فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا.[٤] ولهذا عيَّن الأمثال أولا بقوله: عَشْرُ أَمْثَالِهَا.

واعلم أن هذه الحسنة المذكورة ههنا إن كانت للكافر فهي جزاء عمله، كقوله: نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا،[٥] الآية، وإن كانت للمؤمن الذي، يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ،[٦] كما تقدم ههنا. فالحسنة في الدنيا غير محسوبة عليه بل هي من لدن الله وكرمه سبقت له من الله في الدنيا فهي من بابِ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً.[٧]

وقوله ههنا: **وأرض الله وٰسعة**، أي فهاجِروا فيها لتتمكنوا من طاعة الله، واصبروا على الهجرة وعلى الأوامر وعن النواهي. **إنما يوفى الصٰبرون أجرهم**، الأجر غير الفضل بل كلٌّ على جنس عملِه الذي عملَه. وقوله: **بغير حساب**، معناه بغير نهاية، أي لا ينقطع، لأن كلَّ ما له حساب له نهاية وحصرٌ. فلمّا قال في بعض المواضع: أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ،[٨] بيّن في هذا الموضع أن هؤلاء يتضاعف أجرهم أبدا مضاعفة لا انقضاء لها. وهذا هو جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ[٩] لا ضعف الجزاء. فيُفهَم من هذا أنّ كُلًّا يُجزَى

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٠٠).

٢ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (سورة هود، ١١/١٥-١٦).

٣ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٠١).

٤ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٦٠).

٥ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ (سورة هود، ١١/١٥).

٦ من الآية السابقة.

٧ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (سورة النحل، ١٦/٩٧).

٨ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ (سورة القصص، ٢٨/٥٤).

٩ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ (سورة سبأ، ٣٤/٣٧).

من جنس عمله لا بحسب عمله. ولهذا سمّاه أجرا ولو لم يكن كذلك لكان فضلا لا جزاء، فهو جزاء[1] معروف متكرر لا ينفد لكنه من جنس العمل، فهو غير متنوع أنواعا لا يقتضيها عمل ذلك العامل. واعلم أن لكل عمل رتبة ولكل عامل مجهودا. فالمنزلة عند الله إنما تكون على قدر المجهود لا على مقدار العمل المعمول كثر أو قلّ. فقد أمكن أن يتساوى العامّيّ والولي والنبي في الأجر إذا بذل كلٌّ منهم جهدَه في العمل الواحد، كالصلاة وإن اختلفت عددُ الركعات، أو كالصدقات وإن اختلفت[2] مقاديرُ النفقات. فإن عُشر القليل من مالكه كعشر الكثير من مالكه. كلٌّ يؤدي ما عليه من الفرض، وبهذا العدل قامت السماوات والأرض.

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١﴾

﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢﴾

وأمرت، بالعبادة مخلِصا، **لأن**، لأجل أن، **أكون أول المسلمين**، ممن اتبعني.

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾

فاعبدوا ما شئتم / **من دونه**، فإنه شاء أن تكون لكم مشيئةٌ في عبادة ما شئتم من كل شيء، فافهم. ولهذا حسُن أن يقول بعده: **قل إن الخٰسرين**، مبتدأ، خبره، **الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيٰمة ألا ذٰلك هو الخسران المبين**. [٣٦٦ظ]

﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦﴾

لهم من فوقهم ظلل من النار، كظلل الغَمام، **ومن تحتهم ظلل**، تقديره مثلَها. فالمراد المماثلة ليكون العذاب محيطا بهم بصورة واحدة. لهذا سمّى ما تحتهم باسم ما فوقهم. ولهذا لم يقل: عليهم، ولهذا قال: **ذٰلك يخوف الله به عباده**، أي ذلك الوعيد. **يٰعباد فاتقون**، أي إذا كانت الحالة هذه لِمن لم يتّقِ فاتقونِ، لهذا قال بالفاء.

[1] ر – جزاء؛ ك – فهو جزاء، صح هـ.

[2] ر: وإن اختلف.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾

والذين اجتنبوا الطٰغوت أن يعبدوها، أي اجتنبوا عبادة ما يُطغي، **وأنابوا إلى الله لهم البشرىٰ فبشر عبادِ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**، تأويلا، ومثله: وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا،[1] ليس المعنى إلا تأويلا. **والقول**، وإن كان مطلقا، فالمراد به ههنا القرآن، إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ.[2] وهذا معنى قوله: ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ. ولمّا تمم الكلام هناك عن الراسخين في العلم بقوله: لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا،[3] قال ههنا: **أولٰئك الذين هدٰهم الله**. ولمّا قدم هناك وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ،[4] قال ههنا: **وأولٰئك هم أولوا الألبٰب**. فمدحهم بأفضل أسماء العقول وإن كان لغيرهم عقولٌ، لكنّ الغير الذي لم ينتفع بعقله عاد كمن لا لبَّ له، إذ لم يتبع الأحسن.

﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾

ثم قال عنه: **أفمن حق عليه كلمة العذاب**، بضلاله تروم[5] إجباره على الهدى، **أفأنت تنقذ من فى النار**، هم من الآن فيها ولكن لا يشعرون.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾

لٰكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية، نبّه بقوله: **مبنية**، على أن فوق الغرفة الواحدة عِدّةَ غرف. ولهذا قال: **من فوقها**، ولم يقل: من فوقهن لئلا يُفهم أن فوق[6] كلِّ واحدةٍ واحدةً، فافهم الأحسن من محتمَل اللفظ وذَرِ الحسن وإن كان محتملا. ثم قال: **تجرى من تحتها الأنهٰر**، أي من تحت الجميع. **وعد الله لا يخلف الله الميعاد**.

---

[1] ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾ (سورة الأعراف، ١٤٥/٧).

[2] سورة الحاقة، ٤٠/٦٩.

[3] ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً﴾ (سورة آل عمران، ٨/٣).

[4] ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (سورة آل عمران، ٧/٣).

[5] أي أنت.

[6] ك - فوق، صح هـ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾

ثم ضرب مثلا لما ذكره وعدا بما جعله نقدا فقال: **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينٰبيع فى الأرض**، عرّفنا أصل نبع العيون. **ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوٰنه ثم يهيج**، من الهَوْجاء، وهي الريح، ونظيره: وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا.[١] ويقال: هاجت الريح إذ تحركت ثائرةً. فقوله: **يهيج**، أي يتحرك بحركة الهوجاء، لأنه لا يتحرك من تلقاء نفسه بل بالريح. ولم يقل: يتحرك ليعرّفنا أنه إنما تحرك حركةَ هَيْجٍ عن الريح الهائجة. ولهذا بعده: **فترىٰه مصفرا ثم يجعله**، الله بالريح، **حطٰما. إن فى ذٰلك لذكرىٰ لأولى الألبٰب**، يتذكرون بما شاهدوه في الدنيا عيانا فيجعلونه على ما وُعدوه في الآخرة برهانا، فإن القادر في الدنيا على الشر وضده قادرٌ في الأخرى على إنجاز وعيده ووعده.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

أفمن شرح الله صدره للإسلٰم، أي لاتباعه كمحمد وأتباعه، **فهو علىٰ نور من ربه**، كالقاسية قلوبُهم. **فويل للقٰسية قلوبهم من ذكر الله**، وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ.[٢] والقساوة الصلابة، والذكر ههنا مطلق ومخصّصه القرآن، كقوله: قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ.[٣] **أولٰئك فى ضلٰل مبين.**

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

ثم ذكر لينَ القلوب من المؤمنين عند سماع الذكر فقال: **الله نزل أحسن الحديث**، افهم يا جامعَ القرآن أيَّ شيء نزّل، فإن لم يكن في اللفظ والمعنى فليس بأحسن،

١ ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ (سورة الروم، ٣٠/٥١).

٢ الآية ٤٥ من هذه السورة.

٣ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ (سورة فصلت، ٤١/٥).

فالمراد أحسن الحديث مطلقا في كل ما هو من لوازم الحديث. وقوله: **كتٰبا متشٰبها**، أي في حروفه، ولهذا قال: **مثاني**، أي أحرفٌ هي مَثْنَى، لأن الكتاب عن الحروف والحروفُ[1] مثاني كما بيّنّاه. ولهذا قال: **تقشعر منه**، ولم يقل:[2] منها لأنها في كل كتاب وكتابة، والمراد ههنا أحسن الحديث. فمنه إذا فُهم تقشعر، **جلود الذين يخشون ربهم**. وقد علمت قوله: إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ،[3] وعلمت قوله: وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ،[4] فهم الذين يعلمون فيخشون. **ثم تلين جلودهم وقلوبهم**، معا **إلى ذكر الله**، متبعين له وهو الكتاب المنزَّلُ / على هذا النبي المرسَل. فجعل قبالة القساوة من [٣٦٧و]
قلوب أعدائه لجهلهم لينَ القلوب من أوليائه لعلمهم. **ذٰلك هدى الله**. وقوله: **يهدى به من يشاء**، أي هو[5] القادر على أن يُجبِر من يشاء من أهل النار على الهدى فكيف لا يكون قادرا على أن يهدي من يستحق الهدى ويُضلَّ من يستحق الضلال. **ومن يضلل الله فما له من هاد**.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾

ولما ذكر الإضلال بعد المشيئة وكان هذا من المتشابه بيّنه بذكر الكسب في آخر الآية التالية فقال: **أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيٰمة**، أي يجعل وجهه الوقاية التي تقيه، وذلك لأن يديه مغلولتان إلى عنقه فليس له ما يقي به وجهه. ومن ههنا تعلم صحة ما قلناه في قوله تعالى: إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً.[6] وهذا منسوق بقوله: أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ.[7] فلمّا قال ههنا: وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ،[8] قال بعده ما معناه: **أفمن يتقى بوجهه**، من الظالمين. **وقيل للظٰلمين ذوقوا ما كنتم تكسبون**، هل له من هاد.

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ثم قال: **كذب الذين من قبلهم فأتٰهم العذاب من حيث لا يشعرون**، أي من مكان لا يشعرون بإتيان العذاب منه فيحترزون قبل وقوعه بهم.

---

١ ك - والحروف، صح هـ.
٢ ر: لم يقل.
٣ سورة فاطر، ٢٨/٣٥.
٤ سورة آل عمران، ٧/٣.
٥ ر: يشاء وهو.
٦ ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ (سورة آل عمران، ٢٨/٣).
٧ الآية ١٩ من هذه السورة.
٨ من الآية السابقة.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ولقد ضربنا للناس فى هٰذا القرءان من كل مثل، يحتاجون في نجاتهم إلى ضربه، **لعلهم يتذكرون**، فكان، **قرءانا عربيا غير ذى عوج**، [تقدم شرحه] في [سورة] الكهف،[1] **لعلهم يتقون**، مخالفته فتحصل لهم النجاة.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء، يريد بهم ما دون الله، **متشٰكسون**، يريد بالشركاء ما دون الله. يقال:[2] رجل شكس بجزم الكاف وكسرها أيضا بمعنى صعب الخُلُق. قال الشاعر:

شَـكْـسٌ عَـبُـوسٌ عَـنْـبَـسٌ عَــزَوَّرُ،[3] بمعنًى.

ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا، أي في[4] المثل. فالأول ضربه الله لهم من كونهم يعبدون آلهة غير الله. فإن الخالق والمخلوق بينهم مباينةٌ أشد مما بين المتشاكِسين. ولا شك أن الإلٰه هو الحاكم. فلو فرضنا عدة آلهة لزم أن يكون كل واحد منهم حاكما. وإذا كان[5] كذلك فسد المحكوم عليه، كما بيّنّاه في قوله: لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا.[6] فقد جعل هؤلاء أنفسهم لآلهتهم كرجل مملوك لشركاء متشاكِسين لا يسامح أحد أحدا، بل كلٌّ منهم يريد أن يُمضي حكمه في ذلك الرجل، فهل يستوي هذا برجل سالم؟ فلهذا قال بعده: **هل يستويان**، أي هل يستوي الرجل الذي فيه الشركاء بالرجل السالم.[7] فالمثل الأول لهم ولآلهتهم، والمثل الثاني للنبي صلى الله عليه وسلم ولله تعالى. وكون الثاني سالما

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ (سورة الكهف، ١٨/١).

٢ ر: ويقال.

٣ وقومٌ شُكُسٌ مثال رجل صَدْقٌ وقوم صُدُقٌ. وقد شكِس بالكسر شكاسة. وحكى الفراء: رجل شكِس، وهو القياس. ومن المَجاز: الشكِس، ككَتِف: البخيل. وأصل الشَّكَاسة: العُسر في المعاملة. العنبس: الأسد لأنه عبوس. العزور: السيء الخلُق. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١٨/٢٧٣؛ ولسان العرب، «عنبس»، «عزر»؛ وتاج العروس للزبيدي، «شكس».

٤ ش ك - في.

٥ ر: وإذ كان.

٦ سورة الأنبياء، ٢١/٢٢.

٧ ك - السالم، صح هـ.

دل على أن الأول غير سالم. ثم قال: **الحمد لله**، أي على السلامة، **بل أكثرهم لا يعلمون**، أن هذا مثلهم مع أوليائهم.

فإن قيل: هذا المثل مطابق في الأولياء وغيرُ مطابق في الأصنام. فالجواب أن هذا حال عُبّاد الأصنام من جهة ما ينالهم من الضرر بها وإن لم يكن للأصنام من جهة نفسها ضرٌّ ولا نفع، بل لمّا أشركوا باتخاذ الأصنام مع الله تعالى أو عبدوها[1] من دونه نالهم الضررُ من الله عقابا على كفرهم. فالعقاب وإن كان من الله فهو من جهة أنفسهم بواسطة الأصنام، فافهم.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾

ثم قال: **إنك ميت وإنهم ميتون**، أي سترى ما وعدناك وتواعدناهم وسيرون ذلك أيضا.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾

ثم إنكم يوم القيٰمة عند ربكم تختصمون، لأنه عليه السلام خصمُهم وأيّ خصم أعظم من شاهدٍ شهادتُه على المرء تؤديه إلى النار.

﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾

ثم فصّل بعد الخصام ما يئول إليه الحالُ وزاده معنى التوبيخ بالسؤال فقال بالفاء: **فمن أظلم ممن كذب على الله**، أي فادعى النبوة، ودليله: **والذى جاء بالصدق**. وقوله: **وكذب بالصدق**، أي من الأمم. ونظيره: **وصدق به**. والصدق المشار إليه ههنا هو القرآن. وقوله: **وكذّب بالصدق**، مثله وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ[2] وعكسه، **وصدق به**، أي صدق بالصدق وهذا كذّب، **إذ جاءه. أليس فى جهنم مثوى للكٰفرين. والذى جاء بالصدق**، من الأنبياء وهم سائر الأنبياء. **وصدق به**، من الأمم، **أولٰئك هم المتقون**.

---

[1] ك: وعبدوها.

[2] ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ (سورة المائدة، ٥/٥).

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٥﴾

لهم ما يشاءون عند ربهم. ذلك جزاء المحسنين. ليكفر الله عنهم، أي [عن الذين

[٣٦٧ظ] صدّقوا ليكفر، / **أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون.** وقوله: **أسوأ**، لأن ما دون ذلك تُذهبه الحسنات منهم بغير تكفير من بارئهم سبحانه. وذكر الأسوأ منهم ليقابله بالأحسن منه جزاء، ولأن من عفا عن الكثير فهو بالعفو عن القليل أولى.

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ٣٧﴾

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم والمراد كل مؤمن: **أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه**، كقولهم: إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ،[1] فأضلك عن عبادة آلهتنا. فقال تعالى عنهم ليس الإضلال والهدى منسوبا إلى آلهتهم بل إلى الله: **ومن يضلل الله**، أي عقابا[2] له على كفره، **فما له من هاد. ومن يهد الله**، أي كما قد هداك، **فما له من مضل**، وبين أن الهدى والضلال بحق. فقال: **أليس الله بعزيز ذى انتقام.**

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾

ثم أوضح ما ضرب لهم المثل من أجله فقال: **ولئن سألتهم من خلق السمٰوٰت والأرض ليقولن الله، قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كشفت ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكت رحمته**، وهذه حجة عليهم وبرهانٌ، لقوله: أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ.[3] **قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون.**

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٩ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٤٠﴾

---

١ سورة هود، ٥٤/١١.
٢ ك: أي اعقابا.
٣ الآية ٣٦ من هذه السورة.

قل يٰقوم اعملوا علىٰ مكانتكم، أي على جهتكم التي اختَرْتُموها وتمكنتم في العلم بها. **إنى عٰمل**، على مكانتي. **فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل**، وينزل، **عليه عذاب مقيم**.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

وما أنت عليهم بوكيل، وهذه الباء تُشبه لام الجحود، كقوله: وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا،[1] وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ،[2] أي وبوجه من الوجوه.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ثم ذكر ما يدل على أنه سبحانه هو الوكيل الحاضِر معهم في الموت والنوم فلزم في غيرهما فقال: **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى**، ويتوفى التي، **لم تمت فى منامها**. التوفي بالموت كالتوفي بالنوم، وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ.[3] **فيمسك التى قضىٰ عليها الموت ويرسل الأخرىٰ**، لتبقى في الدنيا مع جسدها، **إلىٰ أجل مسمى إن فى ذٰلك لآيٰت**، تدل على البعث بعد الموت، **لقوم يتفكرون**، كقوله تعالى: ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ.[4]

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

أم اتخذوا من دون الله شفعاء. قل أولو كانوا لا يملكون، الشفاعة ولا غيرها ولا، **شيئا ولا يعقلون**.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾

---

١ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ (سورة يوسف، ١٢/١٧).

٢ ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ (سورة الرعد، ١٣/١٤).

٣ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٦٠).

٤ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٦٠).

قل لله الشفٰعة جميعا، أي جميع الشفاعة. وبرهن على ذلك بقوله: **له ملك السمٰوٰت والأرض ثم إليه ترجعون.**

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٥﴾

وإذا ذكر الله وحده اشمأزت، نفرت وانقبضت، **قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه**، من شركائهم، **إذا هم يستبشرون.**

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٤٦﴾

﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ٤٧﴾

ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعا ومثله معه. ولم يقل: وأمثاله، ولا حصر بعدة لأن التالي مثل المقدَّم دائما، فافهم، **لافتدوا به**، أنفسهم من عذاب النار وإن لم يحصل لهم شيءٌ[1] من نعيم الجنة. فلهذا قال: **من سوء العذاب يوم القيٰمة وبدا لهم من**، عذاب، **الله**، لهم، **ما لم يكونوا يحتسبون**، الاحتساب هو الاعتداد بالشيء.

﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٤٨﴾

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٩ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٥٠﴾

فإذا مس الإنسٰن ضر دعانا ثم إذا خولنٰه، تقدم،[2] **نعمة منا قال إنما أوتيته علىٰ علم**، كقول قارون،[3] أي جزاءً على علم عندي. فقال الله تعالى: **بل هى فتنة ولٰكن أكثرهم**، أكثر مَن نُخوّله،[4] **لا يعلمون.**

---

[1] ر – شيء، صح هـ.

[2] انظر: الآية ٨ من هذه السورة.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗا﴾ (سورة القصص، ٢٨/٧٨).

[4] ش ك: من يخوله.

[النعمة والفتنة]

فقد علمت أن سائر النعم الباطنة والظاهرة فِتنٌ، وإنما كانت فتنا لِيُحصِّل[1] بها النعم الباقية، كقوله: هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ.[2] فلا تكون نعمةٌ غير فتنة إلا إن كانت جزاء. فافقه قدر العمل والجزاء لا يكون في الدنيا بل ليس في الدنيا إلا فتنة. ولهذا قال بعضهم:

ميل القلوب إلى سواك حرام ما كان غيرك كلُّه أصنامُ،
جُملُ المواهب باطنا أو ظاهرا فِتنٌ لديك وكلُّها أحلام.[3]

واعلم أن الإنسان إذا تقدمت معرفته على ما سيُفتن به كان مستعدا لدفع الفتنة عن نفسه / في السرّاء والصبرِ عليها في الضراء. فلمّا كان تقدّمُ المعرفة بهذا عظيم [٣٦٨و] النفع جاءت به الكتب والرسل تعريضا. وجاء به القرآن تصريحا في عدة مواضع بصُوَر مختلفة تارة إعلاما، كقوله: إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ،[4] وكقوله: لِنَبۡلُوَهُمۡ،[5] وكقوله: ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ،[6] وأمثاله؛ وتارة تعليما على سبيل الحكاية كقصة سليمان وقارون وغيرهما بالتخصيص لنبي وعدو؛ وتارة تعريفا عامّا كقوله ههنا: وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ،[7] الآية. ومن تأمل ذلك وجد القرآن مشحونا به. وذلك لشدة الاضطرار إلى معرفته وعظم الانتفاع به. فبهذا ومثله[8] كان الرسول رحمة والقرآنُ نورا. فالحمد لله الكريم الذي أنعم وعلّم وجعل النعمة فتنة لتَرْفُض فانية فتحفظَ باقية. وهذا أدنى جزاء العبيد، وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ.[9] ولهذا قال بعض العارفين: أبَتْ صحةُ الوزن أن تُفرّق بين المباح والمحظور. فهذا جعلَ المباحَ كالمحظور لما رآه فتنة، فلم يأخذ منه إلا ما يُضطَرّ إليه ويثاب عليه. ومن تحقق عنده أن الآخرة ليس فيها فتنة وأن الدنيا ليس فيها إلا فتنة فقد لزمه أن لا يقولَ عن شيء من النعم: **إنما أوتيته على علم بل هى فتنة.**

---

[1] ش ر: لتحصل.

[2] ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ (سورة النمل، ٢٧/٤٠).

[3] لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر.

[4] سورة الإنسان، ٧٦/٢.

[5] ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ (سورة الكهف، ١٨/٧).

[6] ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ (سورة الملك، ٦٧/٢).

[7] الآية ٨ من هذه السورة.

[8] ر: أو مثله.

[9] ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ (سورة ق، ٥٠/٣٥).

ولهذا أكد هذا التعريف ههنا لفرط وجوب الحذر منه بقوله: **قد قالها**، أي هذه المقالة، **الذين من قبلهم**، قارون وأمثاله. وجمع بقوله: **قبلهم**، لأنه قدم [قوله:] **ولكن أكثرهم لا يعلمون**، يريد أكثر المفتونين. وذكر العلم لأنه لا يكون عمل إلا عن علم. فالعارف لا يرى النعمة جزاء على عمل ولا على علم فقط لئلا يكون من قوم قارون. **فما أغنىٰ عنهم ما كانوا يكسبون**.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾

قل يٰعبادى الذين أسرفوا علىٰ أنفسهم، بكثرة المعاصي والذنوب، **لا تقنطوا**، [لا] تيأسوا **من رحمة الله**، وإن عظمت ذنوبكم، إذ الرحمة واسعة. **إن الله يغفر الذنوب جميعا**، مع التوبة دائما من المعاصي ويغفر الكفر والشرك إلى ثلاث مرات.[1] وقد بيّنّا ذلك في سورة النساء.[2] وبيّنّا ما دونه وليس فوقه شيءٌ. والشرك والكفر واحد. ومع لا توبة يغفر ما دون الشرك والكفر فكيف معها؟[3] ولمّا كان هذا يحتاج إلى تفصيل بيّنه في مواضعه. وقال ههنا[4] مجملا لمن يشاء وكل واحد[5] يرجو[6] أن يكون ممن يشاء الله أن يغفر له ذنوبه. ولكنه لا يتحقق أن كان منهم[7] فهو[8] يخاف، والمؤمن بين خوف ورجاء. وهذا تعبّد بحسن الظن. كما نُقل أن رجلين أُحضرا الحسابَ فحوسب أحدُهما فوجب له النار، فأمر الله به إليها[9] فتوجهها مسرعا فقال الله سبحانه لملائكته: رُدّوا عبدي. ثم سأله: ما بالك أسرعت إلى النار إذ أمرت بك إليها؟ فقال: إلٰهي استحييت منك طولَ عمري،

---

١ ر – مع التوبة دائما من المعاصي ويغفر الكفر والشرك إلى ثلاث مرات.

٢ انظر: سورة النساء، ٤/١٨، ١٣٧.

٣ ر – وليس فوقه شيء والشرك والكفر واحد ومع لا توبة يغفر ما دون الشرك والكفر فكيف معها.

٤ أي في سورة النساء.

٥ ر: وكل أحد.

٦ ر + وليس فوقه شيء والشرك والكفر واحد ومع لا توبة يغفر ما دون الشرك والكفر فكيف معها ولما كان هذا يحتاج إلى تفصيل بينه في مواضعه وقال ههنا مجملا لمن يشاء وكل أحد يرجو.

٧ أي ولكنه يمكن أن لا يتحقق كونه منهم.

٨ ر: وهو.

٩ ر: إلى النار.

إذ لم أبادر إلى طاعتك قط. فرأيت أنه لم يَبْقَ لي بعد أمرك بي إلى النار أمرٌ منك إلا هذا، فسابقتُ الملائكة في امتثاله. فقال الله تعالى: رُدُّوا عبدي إلى الجنة فقد امتثل أمري. ثم حوسب الآخر فوجب له النار فأمر الله به إليها فتوجهها متأنيا ملتفتا.[١] فقال الله تعالى: ردوا عبدي. فقال الله:[٢] ما بالك ملتفتا[٣] بعد أمري ولا رادَّ له من خلقي؟ فقال: إلٰهي ما هكذا أُخبرتُ عنك إنما قيل لي: هو الغفور الرحيم. فقال الله تعالى: ردوا عبدي إلى الجنة، «أنا عند ظن عبدي بي».[٤]

إنه هو الغفور الرحيم، وإن لم يستغفره[٥] عباده، فلهذا قدم هو، ولأنه لا غيره[٦] كذلك، ولكن لمن يشاء فلا ييأس أحدٌ من رحمته فيترك الإنابة.

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤﴾

وأنيبوا إلى ربكم، خطاب للمؤمنين، وبعده إلى سائر العالَم، لقوله: **وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون**.

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥﴾

واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم، تأويلا، وفيه / إشعار بأن التوراة [٣٦٨ظ] والإنجيل والزبور كل[٧] حسن، والقرآن أحسن الحديث،[٨] **من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون**.

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦﴾

واحذروا، **أن تقول نفس**، عبر بالنفس ليعم الذكر والأنثى، حرا وعبدا، مؤمنا وكافرا،

---

١ ر: متلفتا.

٢ ش – فقال الله.

٣ ر: متلفتا.

٤ عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: قال الله عز وجل: «أنا عند ظنِّ عبدي بي. وأنا معه إذا ذكرني؛ فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم، وإن تَقرَّب إليَّ بشبر تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرولة» (صحيح البخاري، التوحيد ١٥، ٣٥؛ وصحيح مسلم، التوبة ١، والذكر ٢، ١٩).

٥ ر: لم تستغفره.

٦ ر – غيره، صح هـ.

٧ ش: وكل.

٨ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ٢٣ من هذه السورة.

كقوله: يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ.[١] فلا تفهم من ذلك بعث الأرواح دون الأبدان. **يٰحسرتیٰ علیٰ ما فرطت فی جنب الله**، تقول: أنا أراعي جانب فلان، فالكناية[٢] بالجنب تدل على الاختصاص بصاحب الجنب من وجه قريب. **وإن كنت لمن السّٰخرين**،[٣] أي: وإني كنت من القوم الساخرين.[٤]

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧﴾

هؤلاء هم الجبرية مقالتهم في الآخرة كمقالتهم في الدنيا، وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ.[٥]

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾

أو تقول حين ترى العذاب لو أن لی كرة، إلى الدنيا، **فأكون من المحسنين**.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾

فيقول الله سبحانه رادًا[٦] على الجبرية خاصة وعلى غيرهم عامة: **بلیٰ**، هديتك في الدنيا، **قد جاءتك ءايٰتی فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكٰفرين**.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾

فكيف يرضونه وكيف لا يخشونه.

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١﴾

وينجى الله الذين اتقوا، مخالفة الله أمرا ونهيا، **بمفازتهم**، المفازة السبيل، وسمي بذلك لأن سالكه يفوز بمقصوده، والباء للظرفية. والمفازة مطلقة تعم سبيلَي الدنيا والآخرة،

---

١ ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (سورة الفجر، ٨٩/٢٧-٢٨).

٢ ك: فالكتابة.

٣ ر + هؤلاء هم الجبرية مقالتهم في الآخرة كمقالتهم في الدنيا ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى.

٤ ر - وإني كنت من القوم الساخرين.

٥ ر - أو تقول لو أن الله هدئني لكنت من المتقين هؤلاء هم الجبرية مقالتهم في الآخرة كمقالتهم في الدنيا ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى. | سورة الإسراء، ١٧/٧٢.

٦ ر: ردا.

وتُفهم[1] منه مدة الحياة، لأنها طريقة[2] ومفازة إلى الله تعالى. ومتى كانت الكلمة أو الكلمات تحتمل معنيين فالأحسن هو المراد الأول لأنه أولى، والحسن مراد أيضا ولكن بعده. وأصل المفازة المَنْجاة، وذَكَر المفازة إعلاما أن التقوى يجب أن تكون مصحوبة في جميع المفازة لا في وقت دون وقت، لأنها خير الزاد.[3] فالواجب أن لا يَفْقِده المسافر في وقت. ومن لم يفقد الزادَ في مدة مّا من السفر فقد فاز بالسفر من آفة تعرض لمن فقده. لهذا بعده: **لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون**، أي ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾،[4] وفيه أنهم لا يحزنون على الماضي لِم فات، وفيه غير ذلك للمتأمل.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾

ولمّا قدم قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾،[5] بيّن أن الله هو الوكيل على كل شيء لأنه خالق الكل، فقال [تعالى]: **خٰلق كل شيء**. الدليل على أن ما سواه حادث استحالة وجود قديمين. وإذا كانت الأجسام لا توجِد غيرها فما لا يوجد غيره كيف يوجد نفسه. ولزم أن الواحد الأول سبحانه ليس له أول، إذ لو كان له أول لكان له موجد ولَتقدمه عدمٌ والعدم لا يوجد نفسَه. وإذ قد ثبت ذلك فمثله أنه ليس له آخر. **وهو علىٰ كل شيء وكيل**.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

له مقاليد، جمع مِقْلَدة مَقالِد ومقاليد، وهي غير القلادة التي توضع في العنق. ولهذا لم يقل: قلائد بل مقاليد. فإن القلادة لا يُجَر بها الحيوان والمقلدة يجرّ بها. فالله له، **مقاليد السمٰوٰت والأرض**، تمثيلا بما يُفهَم منه أنه تعالى قادر على إجبار العباد على الإيمان. ولهذا بعده: **والذين كفروا بـٔايٰت الله أولٰئك هم الخٰسرون**.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قل أفغير الله تأمرونى أعبد، والحالة هذه، أعني أن الله هو الخالق القادر، ولهذا بعده: **أيها الجٰهلون**، أي به.

---

١ ش ك: ويفهم.

٢ ر ك: لأنها طريقة.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٩٧).

٤ سورة الأنبياء، ١٠٣/٢١.

٥ الآية ٤١ من هذه السورة.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥﴾

ثم قال تعالى: **ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك**، أي من كل نبي، **لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخٰسرين**.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾

هذا المعنى بعينه رأيته في التوراة والإنجيل والزبور وفي كلام سائر الأنبياء المشهورين في بني إسرائيل بالوحي إلى الآن. وجملة كتب الربانيين أربعة وعشرون سِفْرا. وتجد هذا / المعنى في الكتاب الواحد في عدة مواضع خصوصا في التوراة.[1] [٣٦٩و]

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾

وما قدروا الله حق قدره، أي ما احترموه حق حرمته سبحانه، والكلام عن غير المؤمنين. وحقُّ قدره من جهتهم هو استطاعتهم، فهو كقوله: حَقَّ تُقَاتِهِۦ،[2] الذي محكمه: فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ.[3] **والأرض**، أي بما فيها، **جميعا قبضته يوم القيٰمة**، و"قبضته" مرفوعة التاء إبعادا عن توهم الظرفية، فهو بمعنى قولك: الكلّ مُلْكه، وهو كما يقول الفقهاء: قبض فلان كذا وصارت الدار في قبضته، أي في ملكه وتصرفه وتحت قدرته. وتقديره والأرض بما فيها جميعا، **والسمٰوٰت**، قبضةٌ واحدة، **مطويٰت بيمينه**، والباء في "بيمينه" للتعدية لا للظرف. ولمّا كانت العبارات إنما قيلت لنا لنفهم المراد من التعظيم بأقرب عبارة دالةٍ على التفهيم من المعلوم عندنا -والله تعالى أعلى وأجلّ- قال بعده: **سبحٰنه وتعٰلىٰ عما يشركون**.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾

---

[1] انظر مثلا: الخُروج ٢٠/١-٥، ٢٣/٢٤-٢٥، والتَّثْنِيَة ٩/٥، ويَشُوع ٢٣/٧، والمُلُوك الثّاني ١٧/٣٥، وصَمُوئِيل الأَوّل ٦/٣، ١٢/٢٠، ٢٤.

[2] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٠٢).

[3] سورة التغابن، ٦٤/١٦.

ثم ذكر من أحوال ذلك اليوم وأهواله ما فيه ترهيب وترغيب فقال: **ونفخ فى الصور فصعق من فى السمٰوٰت ومن فى الأرض إلا من شاء الله**، فإنه لا يصعق.[١] قال سعيد بن جُبير:[٢] هم الشهداء منهم.[٣] **ثم نفخ فيه أخرىٰ فإذا هم قيام ينظرون**، من النظر والقيام هم الذين صعقوا دون من شاء الله.

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩﴾

وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتٰب، الذي كتبته الملائكة على العبد من الحسنات والسيئات. وهو من قوله تعالى: وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا.[٤] **وجيء بالنبيين والشهداء**، من قوله: مَعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ.[٥] ويحتمل أن يكون من قوله: وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ،[٦] وهذا أنسب، لأنه تقدم عليه ذكر النبيين. **وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون**.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٧٠﴾

ووفيت كل نفس ما عملت. ولمّا قال أولا: وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ،[٧] قال ههنا: **وهو أعلم بما يفعلون**، أي أعلم بهم من الشهداء عليهم.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧١﴾

وسيق الذين كفروا إلىٰ جهنم زمرا، جماعاتٍ، **حتىٰ إذا جاءوها فتحت أبوٰبها**،

---

١ ك - لا يصعق، صح هـ.

٢ أبو عبد الله سعيد بن جبير الأسدي بالولاء، الكوفي. تابعي، كان أعلمهم على الإطلاق. وهو حبشي الأصل من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد. أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر. توفي سنة ٩٥هـ/٧١٤م (الأعلام للزركلي، ٣/٩٣).

٣ جامع البيان للطبري، ٢٠/٢٥١-٢٥٢. | ش ك + وإنما الشهداء منهم.

٤ ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ (سورة الإسراء، ١٣/١٧).

٥ ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (سورة ق، ٢١/٥٠).

٦ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ (سورة النحل، ٨٩/١٦).

٧ من الآية السابقة.

أي[1] حين المجيء ومن قبل كانت مغلوقة. وزيادة الواو في الجنة عند قوله: **وفتحت**، أي من قبل المجيء، لقوله تعالى: مُفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ.[2] **وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم ءايٰت ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هٰذا قالوا بلىٰ ولٰكن حقت كلمة العذاب على الكٰفرين**، أي الآن، فلم يبق للتوبيخ نفع.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾

قيل ادخلوا أبوٰب جهنم خٰلدين فيها، لو لم يقل: **فيها**، كان الخلود في الأبواب. **فبئس مثوى المتكبرين**.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾

وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا، جواب قوله: "حتى" محذوف،[3] كأنه قال: **حتى إذا جاءوها وفتحت أبوٰبها وقال لهم خزنتها سلٰم عليكم طبتم فادخلوها خٰلدين**، وصلوا إلى «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».[4]

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾

وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض، وهي أرض الجنة، وجاء بصورة التمثيل. لهذا بعده: **نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العٰملين**.

﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٥﴾

ثم قال تعالى: **وترى الملٰئكة**، أي يومئذ، **حاقين من حول العرش**، "من" لابتداء الغاية، أي إلى حيث يشاء الله سبحانه دائرين محتاطين بجميع حوافّه. **يسبحون بحمد**

---

١ ر – أي.

٢ ﴿هَٰذَا ذِكۡرٌۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ (سورة ص، ٣٨/٤٩-٥٠).

٣ أي بسبب دخول الواو على "وفتحت".

٤ انظر مثلا: صحيح البخاري، التوحيد ٣٥؛ وصحيح مسلم، الإيمان ٣١٢.

ربهم وقضى بينهم، لمّا عَلِمنا قوله: ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ،[١] وقولَه: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم،[٢] بحكمه، وأمثال ذلك دل [ذلك] على أن القضاء بين أهل الجنة وأهل النار، أي لم يقض بظلم أو باطل بل، **بالحق**. **وقيل الحمد لله رب العٰلمين**، على ما قضى. و**الحمد**، ههنا من أهل النار أيضا، فالحمد منهم على القضاء بالحق، كقوله لأهل النار: أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا.[٣] ولهذا كرر "الحمد" أخيرا، وذكر الأول بقوله: وَقَالُواْ،[٤] والثاني بقوله:[٥] **وقيل**، بما لم يُسَمَّ فاعله ليعُمَّ، لأن أهل الجنة قالوا: الحمد لله. والملائكة، **يسبحون بحمد ربهم**. فلمّا لم يَبْقَ إلا أهل النار أتبع الجميع بقوله: **وقيل**، اعترافا من الكل بالحمد لمستحق الحمد مطلقا. ومن البيّن أن الله تعالى مكّن أهلَ النار من عبادته في الدنيا ولم يخلقهم والمؤمنين والجنّ إلا لعبادته،[٦] فكفروا فعاقبهم بكفرهم. فلا يمنع عدلُه فضله، لأنه أحسن إليهم فأساءوا إلى أنفسهم، فله الحمد عليهم لإحسانه إليهم.[٧]

١ الآية ٣١ من هذه السورة.

٢ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة يونس، ٩٣/١٠؛ وسورة الجاثية، ١٧/٤٥).

٣ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ (سورة الأحقاف، ٣٤/٤٦).

٤ من الآية السابقة.

٥ ر - بقوله؛ ك - بقوله، صح هـ.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات، ٥٦/٥١).

٧ ش - فله الحمد عليهم لإحسانه إليهم، صح هـ.

[٣٦٩ظ] /

سورة المؤمن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾

حمٓ، تنزيل الكتٰب من الله العزيز العليم، غافر الذنب وقابل التوب، الرَّجْع،[١] **شديد العقاب ذى الطول**، من التطول وهو التفضل. **لا إلٰه إلا هو إليه المصير**.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤﴾

ما يجٰدل فى ءايٰت الله إلا الذين كفروا، هذا معلوم من قوله بعد هذه الآية: **وجٰدلوا بالبٰطل**، وأصل الجدل من الجَدالة،[٢] وهي الأرض، استعارة كما أن كل واحد من المتغالبين يريد أن يلقي خصمَه عليها. **فلا يغررك تقلبهم فى البلٰد**، المعنى تصرفهم وتقلباتهم في عزّهم وتمكنهم من بلادهم متقلبين كيف شاءوا. تقول: فلان له مال يتقلب فيه، أي يتصرف ويكتسب. وحذف ههنا ما ذكره في غير هذا الموضع وهو[٣] متاع قليل، ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ.[٤]

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥﴾

كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب، تقدم ذكرهم بقوله: أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ،[٥] **من بعدهم. وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجٰدلوا بالبٰطل**، رسولهم وتُبّاعَه. وقال: **ليأخذوه**، كقوله: **برسولهم**. وكان يقتضي "برسولها لتأخذه"، لكن عائد[٦] الكلام على الأحزاب والقومِ في زمن كل نبي، فهم الكل. فصاروا مما أعنى[٧] الأمة التي بُعِث فيها النبيُّ وأمثالها. ويقال:

---

١ ن: الراجع.

٢ الجَدالة الأرض لشدتها، وقيل: هي أرض ذات رمل دقيق (لسان العرب، «جدل»).

٣ ن: وهي.

٤ ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ (سورة يونس، ١٠/٧٠).

٥ ﴿وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ (سورة ص، ٣٨/١٣).

٦ ن: لكن عائدا.

٧ أعنى الأمة: أي أهمّها وأتعبها.

"هَم بالأمر" إذا عزم أن يفعله ولا بد. والباء في قوله: **برسولهم**، [متعلقة] بالاهتمام،[1] كقوله: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا[2] على ما بيّنّاه وإن اختلفت المقاصد بالاهتمام. فهَهنا بين أن الاهتمام منهم، **برسولهم ليأخذوه**، تقديره أَخْذًا وَبِيلًا،[3] أو بالعذاب، أي بالباطل لا بحق، كقوله: وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ.[4] فعطف [قوله:] **وجدلوا**، وقال: **بالبُطل**، لئلا يتكرر، **ليدحضوا به الحق فأخذتهم**، أي بالحق أَخْذًا وَبِيلًا، بالعذاب جزاء على ما هموا وكذبوا. **فكيف كان عقاب**.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ⑥﴾

وكذٰلك حقت كلمت ربك على الذين كفروا، من هؤلاء وغيرهم، **أنهم أصحٰب النار**.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ⑦﴾

ثم عرّفَنا أن هؤلاء إذا لم يؤمنوا فإن لله من يؤمن به من ملأ خيرٍ من ملئهم فقال: **الذين يحملون العرش ومن**، ليست ويحملون من، بل والذين، **حوله**، غير الحَمَلة، لقوله: وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ.[5] **يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به**، أي فمَن هؤلاء الضعفاء العاجزون حتى إنهم تركوا الإيمان ولزموا الاستكبار؟ ولمّا عظّم قدر الملأ الأعلى ذكَر أنهم مسخَّرون للمؤمنين من البشر تعظيما لقدر المؤمنين وتعريفا بأنهم خير البرية،[6] فقال: عن **الذين يحملون العرش ومن حوله... ويستغفرون للذين ءامنوا**، يقولون: **ربنا وَسِعْتَ كل شيء رحمة وعلما**، أي الرحمةُ وسعتْ، كقوله: وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ،[7] وكذلك العلم. **فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم**.

---

[1] جميع النسخ: الاهتمام.

[2] ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ (سورة يوسف، ١٢/٢٤).

[3] ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ (سورة المزمل، ٧٣/١٦).

[4] ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ (سورة آل عمران، ٣/١١٢).

[5] ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٧٥).

[6] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ (سورة البينة، ٩٨/٧).

[7] ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٥٦).

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾

ربنا وأدخلهم جنّٰت عدن التى وعدتهم ومن، وأدخلْ معهم من، **صلح من ءابائهم وأزوٰجهم وذريٰتهم**. وهذه بِشارة لمن صلح من آباء المؤمن وأزواجه وذريته يُدخله الله مع المؤمن وإن لم تكن أعمالُه كأعمال المؤمن بل يدخل في بركة المؤمن وشفاعته، لأن كل واحد منهم إن كان قد تاب واتبع السبيل فهو المؤمن الأول ولا حاجة إلى ذكره أخيرا، بل إنما الشرط الصلاح. وقد بيّن الله مثل ذلك بقوله: بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ، أي بإيمان فقط وإن لم تكن الأعمالُ كالأعمال؛[1] ولمّا جعل الذريات مع الآباء الصالحين ملحَقين بهم في درجاتهم وكان قد يقع في الأذهان أنه تعالى نقص مِن عمل الآباء ما ساوى به بينهم وبين الذريات ليلحقهم بهم قال تعالى: وَمَا أَلَتْنَٰهُم، أي وما نقصنا الآباء، مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ،[2] فافهمه ههنا وفي موضعه. **إنك أنت العزيز الحكيم**، كقول عيسى عليه السلام: وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ[3] كما بيّنّا.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

وقهم السيئات، أي عمل السيئات في الدنيا. وذلك من أعظم الثواب المعجل، كما أن ضده من أبلغ العقاب المعجَّل، إذ بهما يكون المؤجل. **ومن تق السيئات**، المعنى وقِهم[4] في الدنيا عملَ السيآت لتقيَهم في الآخرة عقابها. ومن تَقِهِ عقابَ السيئات، **يومئذ فقد رحمته**، في الدنيا والآخرة. **وذٰلك هو الفوز العظيم**.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

ولمّا ذكر حال المؤمنين قال: **إن الذين كفروا ينادون**، في النار **لمقت**، لَبغض، **الله**، / لكم، **أكبر من مقتكم أنفسكم**، الآن. وهذا إخبار عن شدة البغض منهم [٣٧٠و]

١ ن - كالأعمال.

٢ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ (سورة الطور، ٥٢/٢١).

٣ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (سورة المائدة، ٥/١١٨).

٤ ك ن + عمل السيآت.

لأنفسهم لِما جَنَتْه واكتسبته، كما يقال: فلان قد سَئِم نفسه. قال الشاعر:

وربَّ وقتٍ وجودي فيه أسْأَمه   دَع الأجانب بل روحي تُزاحمني.[1]

ويحتمل أن يقال: إن المراد بقوله: **أنفسكم**، بعضهم لبعض من الآباء والأزواج والذريات، فهم بضدِّ أهلِ الجنة، بدليلِ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.[2] ويكون بمعنى [قوله:] ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾.[3] لكنه ههنا أولى بذواتهم. وجُمع لكون الخطاب للجمع. تقول: رأيت الدار، ورأيت نفس الدار، الأول كما يرى النائم والثاني حقيقة الشيئ. وأخَّر قوله: **إذ تُدْعَون إلى الإيمٰن فتكفرون**، لأجل الوِزان. وههنا معنى يجب أن يُفهَم وهو أن مقت الله لهم في النار أكبر من مقتهم فيها[4] لأنفسهم. وكذلك مقت الله لهم في الدنيا إذ يُدْعَون إلى الإيمان فيكفرون من مقتهم أنفسهم[5] وهم في النار. ولهذا جاء مقت الله لهم مقيدا بزمن لا يمقتون فيه أنفسهم، إذ لو مقتوها في الدنيا لَمَا كفروا.

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ١١﴾

ومن البيّن أن مقتهم لأنفسهم إنما هو وَهُمْ في النار بدليل قولهم بعده: **قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل**، أي لنؤمن بالرسل. ولمّا كان مقت الله لهم حين الكفر في الدنيا قبل مقتهم أنفسهم في النار لزم أن يكون مقت الله باقيا لهم وهم في النار. وهذه الآية إذا فهمتها حق فهمها من البقرة[6] تبين لك صحةُ ما قلناه في الموتتين ولم يَبْقَ مُشكلٌ يعارض ما قلناه. ولم يقدم ذكر الحياتين على الموتتين لأن الواقع في الوجود كان كذلك. فهم اعترفوا بذنوبهم

---

[1] جزء من القصيدة التي أنشدها الشيخ سعد الدين أبو محمد سعد الله بن نجيح في مدح ابن تيمية رحمه الله. العقود درية لابن عبد الهادي، ص ٣٤٦.

[2] ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ (سورة العنكبوت، ٢٥/٢٩).

[3] ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ (سورة البقرة، ٨٥/٢).

[4] ش - فيها؛ ن: في النار.

[5] ش - وكذلك مقت الله لهم في الدنيا إذ يدعون إلى الإيمان فيكفرون من مقتهم أنفسهم.

[6] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢٨/٢).

في الحياة الثانية. والمراد بالاعتراف تحقق العدل وانتفاءُ الظلم عن الله عند المعترفين. فذكروا الموتتين والحياتين إنباءً عن اعترافهم بصحة ما وعد الله لهم،[١] كما بيّنّاه في البقرة.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

ثم خاطب الله المذكورين في النار بخطاب الحاضرين إسماعا لكل كافر فقال: **ذٰلكم**، الجزاء، **بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير**، فكيف تشركون به مَن لا حكم له.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾

﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

فادعوا الله، يخاطب [كل] من تذكّر،[٢] **مخلصين له الدين ولو كره الكٰفرون**.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾

رفيع الدرجٰت، **رفيع**، بمعنى رافع، **والدرجٰت**، مفعول، ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.[٣] والأولى أنه وصفٌ له سبحانه على طريق التمثيل والاستعارة. تقول: فلان ذو درجة رفيعة في النحو وفي العلم،[٤] فهو سبحانه، **رفيع الدرجٰت**، مطلقا، أي درجات لا تتناهى في الصفات والأسماء الحسنى. ثم ذكر من ذلك قوله: **ذو العرش**، **يلقى الروح من أمره علىٰ من يشاء من عباده**، فقد فسر بهذا[٥] ما تقدم من قوله: **رفيع الدرجٰت**. وذلك كما تقول: فلان فاضل، فإن قلت: فاضل فلان كان أبلغ، فافهم. **لينذر**، النذيرُ من عباده لمن يخشى، **يوم التلاق**، يلتقي الأحياء بالأموات والأوائل بالأواخر.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾

---

١ ك: وعدهم الله.

٢ ش - يخاطب من تذكر، صح هـ.

٣ سورة الأنعام، ٨٣/٦؛ وسورة يوسف، ٧٦/١٢.

٤ ش: في العلم.

٥ ن: هذا.

يوم هم بُرزون، وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا،[1] أي من أجداثهم. **لا يخفىٰ على الله منهم شيء**، فيقال لهم: **لمن الملك اليوم**، فهذه مناداة للخلق يوم هم بارزون، ولا فائدة إذا لم يكن من يجيب ولا من يسمع، فيقول كل مخلوق إقرارا بالحال الذي هو أفصح من المقال: **لله الوٰحد القهار**، لأن الأكثر لم يكن معتقدا ذلك.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

وينطبق على هذا الشرح قولُه بعده: **اليوم تجزىٰ كل نفس بما كسبت**، والباء كقوله: مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ.[2] **لا ظلم اليوم**، دليل على أنه في الدنيا يقع الظلم من العباد بعضِهم لبعض،[3] ولكن الظالم يعود عليه ظلمُه، والمظلوم لا يكون إما معاقَبا بذلك أو ممتحَنا ليجزى عليه. **إن الله سريع الحساب**.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾

وأنذرهم يوم الآزفة، أَزِف الأمرُ إذا دنا، والقيامة دانية إلينا في كل طرفة عين. وتقديره فقل: يا قوم اذكروا، **إذ القلوب لدى الحناجر**، تقدم في سورة الأحزاب،[4] **كٰظمين**، في موضعها مذكورة.[5] **ما للظٰلمين من حميم ولا شفيع يطاع**، والمعنى أنه في ذلك اليوم / لا يكون كيت ولا كيت ولا شفيعَ يُطيعه الله فيقبل شفاعته. ويحتمل ما معناه أنه ليس لهم في ذلك اليوم شفيع كان يطاع في الدنيا كالمَلِك المطاع في الدنيا إذا شفع فيهم في الأخرى. فلا ينفعهم من هو مثلهم كالحميم ولا من هو[6] فوقهم كالمطاع. [٣٧٠ظ]

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾

ونسق على قوله: إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ،[7] [قوله:] **يعلم خائنة الأعين**، الخائنة

---

١ ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ...﴾ (سورة إبراهيم، ٢١/١٤).

٢ سورة النساء، ١٢٣/٤.

٣ ش: بعضا.

٤ ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ (سورة الأحزاب، ١٠/٣٣).

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ (سورة آل عمران، ١٣٤/٣).

٦ ك ن – هو.

٧ الآية ١٧ من هذه السورة.

صفة للنظرة كالعاقبة، والمراد خيانة كل عين. والخيانة أن تأخذ ما ليس لك كاتما أنت[١] لذلك مستخِفّا مستقلا للذنب، كمن يفتي[٢] نفسه بوجه أو يسامحها مغالطا متَّبِعا هواه معتقدا وثوقه بتقواه. ولمّا ذكر الخائنة من العين أتبعها بقوله: **وما تخفى الصدور.**

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝٢٠﴾

ثم قال: **والله يقضى بالحق،** أي وقد علم فيجزي[٣] على مثقال ذرة ونظرة وخَطْرَةٍ. **والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء. إن الله هو السميع البصير.**

﴿۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ۝٢١﴾

أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عُقبة الذين كانوا من قبلهم. إنما كرر "كانوا" ههنا لأن الإشارة بما جاء بعدها من لفظة "كانوا" الثانية إلى الحاضرين، وهي بمعنى الاستفهام، تقديرها: أكانوا؟[٤] ولهذا زاد لفظة، هم،[٥] إشارة إلى السائرين، **أشدّ منهم،** من الأوائل،[٦] **قوة وءاثرا فى الأرض،** فلزم زيادة "كانوا" الأولى ههنا، وأما في الروم فقوله: كَانُوا،[٧] هي إخبار عن الأوائل، وههنا جاءت لفظة "كانوا" أشد إخبارا عن الأواخر دون الأوائل، ويريد بها الاستفهام. فيكون المعنى ههنا بل أولئك كانوا أشد. **فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق.**

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢٢﴾

---

١ ك - أنت، صح هـ؛ ن - أنت؛

٢ ن: كمن يفي.

٣ ش: ويجزي.

٤ ن: كانوا.

٥ ن + هم.

٦ ش ك - من الأوائل، صح هـ.

٧ ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ (سورة الروم، ٩/٣٠).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾

ولقد أرسلنا موسىٰ بٔايٰتنا وسلطٰن مبين إلىٰ فرعون وهٰمٰن، أولا، **وقٰرون فقالوا سٰحر كذاب**.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾

فلما جاءهم، موسى جاء فرعون وهامانَ فقط. وأما قارون فإنه جاء فيما بعد، لأنه كان من قوم موسى لا من قوم فرعون، فقرنه الله إليهم في الذكر لاقترانه بهم في التكذيب، **بالحق من عندنا**. ولهذا أخبر الله بعد ذكر قارون بما قاله فرعون وملؤه:[1] **قالوا اقتلوا أبناء الذين ءامنوا معه**، من آل فرعون كالسحرة، وكانوا يقتلون أبناء بني إسرائيل[2] من قبل مجيء موسى. فلمّا جاء موسى استمرّ القتل على ما كان عليه. ثم فعلوا ذلك أيضا بمن آمن معه، لأنه عاد حكمُ من آمن كحكم بني إسرائيل وصار الجميع قوما لموسى. ولهذا قال بنو إسرائيل لموسى: أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا.[3] **واستحيُوا نساءهم**. **وما كيد الكٰفرين إلا فى ضلٰل**، أي كذاهب في ضلال، فإنه لا يصل إلى مقصوده أبدا بل كلّما ازداد في سيره ازداد في ضلاله.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾

وقال فرعون ذرونى أقتل موسىٰ وليدع ربه، أي بما شاء، وهذا كفر برب موسى وأنه لا يجيب الداعي. ثم جعل فرعون قوله ذلك سببا يعود نفعُه على قومه فقال: **إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد**.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

---

[1] ش: وملأه.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ (سورة الأعراف، ١٤١/٧).

[3] سورة الأعراف، ١٢٩/٧.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

وقال رجل مؤمن، وكان قبطيا، **من ءال فرعون يكتم إيمٰنه**، ولو قدم فقال: يكتم إيمانه من آل فرعون لجاز أنه كان من بني إسرائيل. وأما من جوّز ذلك من عبارة القرآن فإنه لا يعرف الفرق بين كلام الله وبين كلام الناس. **أتقتلون رجلا**، على، **أن يقول ربى الله**، أي فهل يكون هذا ذنبا يستحق به قائلُه قتلا. وهذا دليل على أنهم كانوا يعرفون الله تعالى. **وقد جاءكم بالبينٰت من ربكم. وإن يك كٰذبا فعليه**، يعود، **كذبه.**[1] **وإن يك صٰدقا يصبكم بعض الذى يعدكم.** إنما قال: "بعض" لِيُحَجَّهم بما لا يقدرون على دفعه، إذ متى لزمهم أن يحترزوا من أن يصيبهم[2] البعض فكيف لا يحترزون من أن يصيبهم الكل، إذ متى / احتمل أن يصيبهم البعض فقد جاز أن يصيبهم الكل. وبيان [٣٧١و] ذلك أنه كان يعدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة وهم لا يؤمنون بعذاب الأخرة. فإذا كان صادقا في الوعد أصابهم عذاب الدنيا بلا شك، وهو البعض، وبيّن ذلك بقوله فيما سيأتي: لَكُمُ ٱلْمُلْكُ.[3] ثم قال تعالى: **إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب.** ويحتمل أن يكون من كلام المؤمن لقومه بمعنى ما ظهر من مخايل موسى وبان على لسانه[4] مِن صدقه فيما يدّعيه لكونه قال:[5] قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ،[6] ثم جاء به، أو قد يكون بمعنى الموعظة لقوم المؤمن، أي فلا تسرفوا ولا تكذبوا ليهديكم. وهذا الكلام هو بعض ما قاله المؤمن لقومه.

﴿يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾

ثم قال: **يٰقوم**، وهذا يدل على أنه كان منهم بلا شك. **لكم الملك اليوم**، وقد أصبحتم **ظٰهرين فى الأرض**، أي مستظهرين على غيركم أمَا تخافون على ملككم؟

---

١ ش ك: كذبه يعود.
٢ ن: أن يصبهم.
٣ من الآية التالية.
٤ ن – على لسانه.
٥ ك – قال.
٦ ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/٣٠-٣٣).

فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا، أي إذا قتلنا من يقول: رَبِّيَ ٱللَّهُ؟[1] **قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى**، من رؤية القلب، أي ما أراه لي صالحا. **وما أهديكم إلا سبيل الرشاد**، أي لا أرى إلا قتل هذا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾

وقال الذى ءامن يٰقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب، الذين تحزّبوا على أنبيائهم. وبيّن ذلك بقوله: **مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد**، لكن بظلمهم لأنفسهم عاقبهم، وقد علمتم ما جرى عليهم.

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾

ويٰقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد، يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّ.[2] والواو في قوله: **ويا**، بمعنى "وقال لهم أيضا: يا قوم". وفائدة هذه الواو التعريفُ بأنهم لمّا كانوا لا يعتقدون الآخرة، وقد خوّفهم أولا بعذاب الدنيا وزوال ملكهم بقوله: يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ،[3] فلمّا ذكر لهم حال الأحزاب في الدنيا ذكر لهم أيضا التخويفَ بما يجري في القيامة وإن لم يكونوا ممن يعتقد ذلك. وهذا غاية النصح من الناصح أن يقول ما يعتقده وإن لم يعتقده الخصم. فبيّن الله لنا أنه لم يقتصر على تخويفهم بعذاب الدنيا بل خوّفهم به[4] وخوّفهم أيضا بعذاب الآخرة.[5] فهذه فائدة الواو، فافهمها.[6] وبين [قوله:] **يوم التناد**، بقوله: **يوم تولون مدبرين**، إلى النار عن الجنة،[7] **ما لكم من الله من عاصم**، أي من عذابه. **ومن يضلل الله فما له من هاد**.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾

---

١ من الآية السابقة.

٢ فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ (سورة ق، ٥٠/٤١-٤٢).

٣ الآية ٢٨ من هذه السورة.

٤ ك - خوفهم به، صح هـ.

٥ ن: الأخرى. وفي هامش ك: الأخرى.

٦ ن: فافهمهما.

٧ أي يوم يتوجّهون إلى النار معرضين عن الجنة.

ولقد جاءكم يوسف من قبل، أي قبل موسى، **بالبينٰت**، الآيات المعجزات، وهذا كلام للجمع[1] الماضين من قبل وإلى زمن موسى، أي إنكم على سَنَن واحد في تكذيب الرسل. **فما زلتم**، في حياته، **فى شك مما جاءكم به. حتىٰ إذا هلك**، مات كقوله: إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ،[2] **قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا**، أي أقمتم على كفركم وظننتم أن الله تعالى لا يجدد عليكم إيجابَ الحجة برسول. **كذٰلك**، أي مثل ذلك[3] الضلال، **يضل الله من هو مسرف مرتاب**، أي شَاكٌّ في رُسُل الله وآياته.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾

الذين، في موضع نصب رَدًا على "مَن" المذكورة. **يجٰدلون فى ءايٰت الله بغير سلطٰن أتىٰهم**، منه ولا من غيره، إذ هو لا يبطل آياتِه وغيرُه لا يقدر. والسلطان هو ما بيّنه في قوله تعالى: وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ، أتاه من غيره وَلَا هُدٗى، أتاه من نفسه، وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ،[4] أتاه من ربه. فهذا فائدة قوله: **أتىٰهم**، لئلا يشتبه بما يتسلط به الخصم من الشر أو غيره، لو لم يقل: **أتىٰهم كبر مقتا عند الله وعند الذين ءامنوا**، أي ذلك الجدال. **كذٰلك يطبع الله علىٰ كل قَلْبِ متكبرٍ جبار**، قرئت بغير تنوين "قلب"،[5] وهو الوجه. والمعنى أنه تعالى إذا عاقبهم على التكذيب والشك بالضلال إذ لم يتوبوا طَبع على قلوبهم، فلا تُمكنهم[6] التوبة بعد الطبع، وقد كان يُمكنهم قبلُ. فغيرُ المعاقَب بالضلال والطبع يعلم أنه فاسق، وأما المعاقب بالطبع / فإنه يعتقد أنه على حق ويجادل [٣٧١ظ] عن نفسه بالباطل ولا يرى أنه إلا الحق، فافهم ذلك من الآيتين. فإن الضلال إذا لم يكن عقابا أمكن الخروج منه، وإن كان عقابا فمن يهدي من أضل الله،[7] وهذا الطبع لا يكون إلا لمن أصر وهو يعلم.

---

١ ش: الجمع.

٢ ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ﴾ (سورة النساء، ٤/١٧٦).

٣ ن – ذلك.

٤ سورة الحج، ٢٢/٨؛ وسورة لقمان، ٣١/٢٠.

٥ قرأ البصري وابن ذكوان بتنوين الباء الموحدة وغيرهما ترك التنوين (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٢٧٩).

٦ ش ن: فلا يمكنهم.

٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ (سورة الروم، ٣٠/٢٩).

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

وقال فرعون يٰهٰمٰن ابن لى صرحا، تقدم في [سورة] النمل،[1] **لعلى أبلغ الأسبٰب**. ليس الأسباب مكرَّرة ولا الثانية تفسير الأولى، ولو أراد ذلك لكفى أن يقول: **لعلى أبلغ أسبٰب السمٰوٰت**. ويحتمل أن يكون معناها -والله أعلم- لعَلِّي أبلغ بالأسباب، أي الأرضية كالصرح، **أسبٰب السمٰوٰت**، أي أسباب غيب السماوات، أي كما يدعي موسى. **فأطلع إلىٰ إلٰه موسىٰ**، وليس المراد[2] الطلوع أو التطلع بل الاطلاعَ الذي هو بمعنى العلم. والمعنى أن فرعون قال هذا القول على دعوى موسى لا أنه كان على يقين من ذلك. ولهذا بعده: **وإنى لأظنه كٰذبا**، فذلك على سبيل الاستبعاد لِما ادعاه موسى وعلى طريق التهجين له، لا لأنه أراد صرحا ولا أن هامان بنى له ذلك، فهو من باب "اعمل لي جناحا لأطير به". ويقوّي ذلك أن فرعون إنما ظهر منه ذلك على سبيل التجبر والتكبر بقوله: مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى،[3] ومثله قوله: أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ،[4] ولم يقل: ربكم الأعلى أنا.[5] فافهم أن الأول تكبرٌ والثاني اعتقاد. وقد شهد القرآنُ بذلك في قوله:[6] وَجَحَدُوا۟ بِهَا،[7] الآية، وكقوله: فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ،[8] وكقوله ههنا: **كذٰلك يطبع الله علىٰ كل قلب متكبر جبار**. وفي هذا الكلام ما يدل على أنه إذا كان المَلِك يتصرف في رعيته تصرفَ الإلٰه بغير خشية من الله فهو قد قال بالحال: مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى، ولهذا قال: لَكُم. وقد علمت أن العبادة هي الطاعة. **وكذٰلك زُيّن لفرعون سوء عمله**، عقابا، **وصُدَّ**، قومُه، **عن السبيل**، المَنجية بكيده لموسى. **وما كيد فرعون إلا فى تباب**، هلاك وتكسير.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾

---

١ ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ (سورة النمل، ٤٤/٢٧).

٢ جميع النسخ + من.

٣ سورة القصص، ٣٨/٢٨.

٤ سورة النازعات، ٢٤/٧٩.

٥ ك - ربكم الأعلى أنا، صح هـ.

٦ ش: بقوله.

٧ ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (سورة النمل، ١٤/٢٧).

٨ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ (سورة المؤمنون، ٤٥/٢٣-٤٦).

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾

يٰقوم إنما هٰذه الحيوٰة الدنيا متٰع وإن الآخرة هى دار القرار، لأهل الجنة والنار.

﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٤٠﴾

﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢﴾

ويٰقوم ما لى أدعوكم إلى النجوٰة وتدعوننى إلى النار. ثم قال استفهاما موبخا لهم: **تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم**، لأنه لا يعلم لله شريكا. **وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفٰر**.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣﴾

لا جرم، افهم "لا" بمفردها، فقوله: لا، رد للشيء من دعوى خصمك. وجرم، تحقيق لردّك عليه. ومعناها وجب بطلانُ ما تدعونني إليه من دون الله فقال: **لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة**، تُستَجاب من عبد، **فى الدنيا ولا فى الآخرة**، وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ،[1] **وأن مردنا إلى الله**، فيجازينا، **وأن المسرفين هم أصحٰب النار**، أي كل هذا وجب وحقّ.

﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤﴾

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥﴾

قال الله تعالى: **فوقٰه الله سيئات ما مكروا**، أي وقى موسى بكلام المؤمن، لأن أول[2] القصة: وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ،[3] فتكلم المؤمن بهذه الكلمات فوقاه الله بها. **وحاق**، وحاط، **بئال فرعون سوء العذاب**.

[1] سورة يونس، ٢٥/١٠.
[2] ن: لأن الأول.
[3] الآية ٢٦ من هذه السورة.

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾

النار يعرضون عليها غدوا وعشيا، الطُّعْمُ[1] يُعْرَض على البازي لا البازي يعرض على الطعم، فهم طعام النار، وهؤلاء خُصُّوا من حين موتهم إلى يوم القيامة بهذا. **ويوم تقوم الساعة أدخلوا ءال فرعون أشد العذاب**. ويا هذا لا تحسب أن آل فرعون هم النفر الذين كانوا معه في حال حياته فقط، بل هم إلى يوم القيامة آلُ فرعون من كل متَّبع له.

[٣٧٢و] ولهذا قال تعالى: وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ.[2] / وقد بيّنّا كيف يدعون.

﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧﴾

وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفٰؤا للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا، في الدنيا، **فهل أنتم**، اليوم، **مغنون عنا نصيبا**، أي واحدا، **من النار**.[3]

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ٤٨﴾

قال الذين استكبروا إنا كل فيها، فكيف نغني عنكم ولا نغني عن أنفسنا. **إن الله قد حكم بين العباد**، بالحق وقضي الأمر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩﴾

وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا، قدّم "يوما" للاتمام به، وأخّر "من العذاب" للوزان.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ٥٠﴾

قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبيّنٰت قالوا بلىٰ قالوا فادعوا، تقديره فلا يستجاب لكم، إذ لم تستجيبوا لهم. **وما دعٰؤا الكٰفرين إلا فى ضلٰل**.

---

١ الطُّعْم: الحَبُّ الذي يُلقى للطير (لسان العرب، «طعم»).

٢ سورة القصص، ٤١/٢٨.

٣ ك - إنا كنا لكم تبعا في الدنيا فهل أنتم اليوم مغنون عنا نصيبا أي واحدا من النار، صح هـ.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾

إنا لننصر رسلنا والذين ءامنوا فى الحيوٰة الدنيا ويوم يقوم الأشهٰد، الذين يشهدون من كل ملة، وهي جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب.

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾

فاصبر إن وعد الله حق، الوعد ههنا بالنصر له وللذين آمنوا في الدنيا والآخرة، كما تقدم ههنا. **واستغفر لذنبك**، المراد تعليم الأمة، لأنه إذا كان هذا الأمر لمن غُفر له[1] فهو[2] أولى بمن سواه. **وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكٰر**.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾

إن الذين يجٰدلون فى ءايٰت الله بغير سلطٰن أتىٰهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببٰلغيه، أي ليس رتبتهم ومحلهم من العلم بقدر ما في صدورهم من الكبر، فلم يبلغوا إلى حدِّ ما يزعمونه ويظنونه في أنفسهم. ويحتمل أن يكون المعنى ما تقديره: ما هم ببالغي إرادتهم من الكبر وإرادتهم دفعَ آيات الله، لقوله: **يجٰدلون**. ثم أمر الله نبيه بالاستعاذة من صفتهم،[3] وهذا من أبلغ الذمّ لهم والتحذير منهم فقال: **فاستعذ بالله إنه هو السميع**، لما يقولون،[4] **البصير**، بما يعملون.

﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ (سورة الفتح، ٤٨/١-٢).

[2] ك ن - فهو.

[3] ش ك: عن صفتهم. وفي هامش ك: من.

[4] ش - لما يقولون.

ثم قال ما معناه: بأي شيء يتكبر هؤلاء على آيات خالقهم وقد خلق ما هو أكبر منهم: **لخلق السمٰوٰت والأرض أكبر من خلق الناس**. وقوله: **ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون**، إنما نفى عنهم العلم. وأما البصر فغير منفي، والمعنى معلوم من قوله تعالى: أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُم.[1] فذكر لهم ههنا عقب[2] ذكر الاستكبار منهم أنه قادر على إهلاكهم وإيجاد غيرهم، إذ مَن خلق الأكبر -وهو السماوات- قادر على خلق الأصغر، كقوله تعالى: إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ،[3] الآية. ولهذا تواعدهم بالساعة. ثم ذكر المستكبرين وتواعدهم بدخول جهنم داخرين. فلمّا أمر بالاستعاذة من صفتهم أولا وبيّن جزاءهم آخرا علمْنا أن قوله: **ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون**،[4] جزاءُ الاستكبار وأنه يُدخل النار.[5] فلهذا كرر الكلمات بعينها في قصة فرعون بلسان المؤمن في قوله: ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ،[6] وألحقه بذكر التكبر. ثم قال ههنا: إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ.[7] فاقرأ جملة الآيات متدبرا لتفقه[8] ما قلته[9] لك في فهم المعنى من الآيات لا من كلامي بل بكلامي، فتعلمَ أنه إنما أشكل قولُه: **ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون**، لما أعدْناه على ما قبله من خلق السماوات. وما أحدٌ إلا وهو يعلم أن خلق السماوات أكبر من خلق الناس. فلمّا أعدناه إلى أنهم لا يعلمون جزاء الاستكبار انحلّ[10] الإشكال إذ لو علموا لَمَا استكبروا.

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ٥٨﴾

ولمّا كان من لا يعلم أعمى القلب قال بعده: **وما يستوى الأعمىٰ والبصير والذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت**، بالمسيء، **ولا المسىء**، بهم، أي لا يستوون في الجزاء. **قليلا ما تتذكرون**.

[1] سورة يٰس، ٨١/٣٦.
[2] ك ن: عقيب.
[3] ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ (سورة النساء، ١٣٣/٤). وانظر أيضا: سورة الأنعام، ١٣٣/٦؛ وسورة إبراهيم، ١٩/١٤.
[4] ش ك + بمعنى لا يعلمون.
[5] ن: الناس.
[6] الآية ٣٥ من هذه السورة.
[7] من الآية السابقة.
[8] ن: لتتفقه.
[9] ش: بما قلته.
[10] ش: أضل.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ٥٩﴾

ثم تواعد المستكبرين الذين لا يعلمون فهم بمنزلة العُمْي فقال: **إن الساعة لآتية**، أي فهي موعدهم لما يستحقونه من الجزاء، **لا ريب فيها ولٰكن أكثر الناس لا يؤمنون**، بها، وهم الذين لا يعلمون المتقدم ذكرُهم. ولهذا / ذكر أكثر الناس أولا وسلب عنهم [٣٧٢ظ] العلم الذي يتقدم على الإيمان.[1] ثم ذكر اللفظ بعينه، أعني قوله: **ولٰكن أكثر الناس [لا يؤمنون]**. وسلب عنهم الإيمان الذي لا يكون إلا بعد العلم.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾

ثم نبّه على الخلاص من هذه المصيبة الكبرى بقوله: **وقال ربكم ادعونى أستجب لكم**. ولمّا كان الدعاء مع الاستكبار غير مفيد قال بعده: **إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين**. ففهمنا أن المستكبرين لا يُستجاب دعاؤهم إلا إن آمنوا، وأن الدعاء بالأفعال متقدم على الدعاء بالأقوال. فالمستكبرون غير داعين بالحقيقة وإن دعوا بالأفواه. وعلمنا أن قوله: **ادعونى استجب**، من أدل دليل على الكسب. وبهذا الأمر من الله ظهرت فائدةُ الدعاء، لأنه من جملة الكسب بل أفضل الكسب عند من يَفهم. ويلزم أن المؤمن لا يدعو الله إلا بما يرضاه منه. وقد عاد الدعاء عبادةً، إذ العبادة هي امتثال الأمر.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٦١﴾

ثم قال تعالى موبخا لمن عبد غيره: **الله الذى جعل لكم اليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا**، أي لا ما تعبدونه من دونه. **إن الله لذو فضل على الناس ولٰكن أكثر الناس لا يشكرون**.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ٦٢﴾

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ٦٣﴾

١ انظر: الآية ٥٧ من هذه السورة.

كذٰلك يؤفك الذين كانوا بئايٰت الله يجحدون، أي كما أفك هؤلاء ولم يقل: أُفِك بل بلفظ المستقبل ليدل على أن الأمر كذلك إلى يوم القيامة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

ثم قال موبخا أيضا لمن عبد غيره: **الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبٰت. ذٰلكم الله ربكم فتبارك الله رب العٰلمين**.

﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

هو الحىّ، والذين تدعون[1] من دونه أمواتٌ غير أحياء،[2] **لا إلٰه إلا هو فادعوه مخلصين له الدين**، لا للشركاء الذين لا يرزقون ولا يستحقون الحمد بل، **الحمد لله رب العٰلمين**، وتمام الفاتحة. فهو تنبيه على الصلاة التي هي أُس الدِّين. وإنما ذكَر أول الفاتحة ليدل على باقيها وليُعلِّمنا أفضل الدعاء وأفضل التسبيح، كقوله: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ.[3] وقد علمت أن الصلاة بالفاتحة وأنها عبادة. فلهذا قال بعد قوله: ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى،[4] فافهم.

﴿۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

ولمّا أمر الله سبحانه بعبادته نهى عن عبادة غيره فقال: **قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينٰت من ربى وأمرت أن أسلم لرب العٰلمين**.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

---

1 ن: يدعون.

2 لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ (سورة النحل، ١٦/٢٠-٢١).

3 سورة الحجر، ١٥/٩٨؛ وسورة النصر، ١١٠/٣.

4 الآية ٦٠ من هذه السورة.

هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم، من بطون أمهاتكم **طفلا**. **ثم**، يُربّيكم لكي، **لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا، ومنكم من يتوفى من قبل**، هذه القبلية تحتمل سائر المُدَدِ المذكورة. **ولتبلغوا أجلا مسمى**، هو الأجل الذي لا يؤخَّر وهو أجل الله، والذي قبله أجل العبد الذي يُمكن أن يؤخِّر العبدُ بالطاعة بعده إلى المسمى كما بيّنّا في أول سورة الأنعام.[1] **ولعلكم تعقلون**، بهذه الآيات الدالة على عظم القدرة وجوبَ طاعة القادر سبحانه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٦٨﴾

هو الذى يحيۦ ويميت، أي هو يحيي من طال عمره إلى منتهى الأجل ويميت مَن قصّر عمره سوءُ العمل. **فإذا قضىٰ أمرا فإنما يقوله له كن فيكون**، وهذا الكلام كله للذين يجادلون في آيات الله. علّم الله رسوله كيف يجادلهم ويحتج عليهم.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ٦٩﴾

ثم ذكرهم أخيرا كما ذكرهم أولا ليكون الكلام بين الذكرين مختصا بهم وإن كان النفع به عاما فقال:[2] **ألم تر إلى الذين يجٰدلون فى ءايٰت الله أنىٰ يصرفون**.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠﴾

﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢﴾

إذ الأغلٰل فى أعنٰقهم والسلٰسل، في الأغلال، **يسحبون**، بها، **فى الحميم ثم فى النار يسجرون**. والحميم ههنا عَرَقُ أهل النار، والسَّجار ما توقد به النار كقوله: فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ.[3] والسَّجر أيضا الحبس، وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ.[4]

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾

---

١ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٢/٦).

٢ ش – علم الله رسوله كيف يجادلهم ويحتج عليهم ثم ذكرهم أخيرا كما ذكرهم أولا ليكون الكلام بين الذكرين مختصا بهم وإن كان النفع به عاما فقال، صح هـ.

٣ ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ (سورة الجن، ١٥/٧٢).

٤ سورة التكوير، ٦/٨١.

ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله. قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا، وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ.[1] **كذلك يضل الله الكافرين**، عقابا لما استحبوا العمى على الهدى فعاقبهم بالضلال، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ.[2]

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾

[٣٧٣و] **ذٰلكم بما كنتم تفرحون / في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون**، وهذا مفهوم من قوله: فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ.[3]

﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾

فاصبر إن وعد الله حق، الصبر الأول[4] وعدٌ للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين في الدنيا والآخرة، لهذا قبله: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا،[5] وتمامه، والثاني وعيدٌ للكفار لما يَحِلّ بهم في الدنيا والآخرة، لهذا بعده: **فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون**.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك، قصّتَه. **وما كان لرسول أن يأتى بـآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله**، يريد بالأمر مجيء الآية. فإذا رأوها وكذّبوا، **قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون**، أي[6] فلو جئتهم أنت بآية كما أُرسل الأولون فكذبوا بها لحق[7] عليهم العذابُ وعجّل لهم الهلاكَ[8] والاستئصال، إذ هذه سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ.[9]

---

١ سورة يونس، ٦٦/١٠.

٢ سورة الأعراف، ٣٠/٧؛ وسورة الزخرف، ٣٧/٤٣.

٣ الآية ٨٣ من هذه السورة.

٤ انظر: الآية ٥٥ من هذه السورة.

٥ الآية ٥١ من هذه السورة.

٦ ن - أي.

٧ ن: فحق.

٨ ش: العذاب. وفي هامش ك: العذاب.

٩ سورة الأحزاب، ٣٨/٣٣، ٦٢.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾

ثم أخذ يَعْنُفهم[1] أيضا على عبادة غيره فقال: **الله الذى جعل لكم الأنعٰم لتركبوا منها ومنها تأكلون.**

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

ويريكم ءايٰته، علامات القدرة في كل شيء. **فأى ءايٰت الله تنكرون.**

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عٰقبة الذين من قبلهم كانوا، يريد الماضين، **أكثر منهم**، عَدَدا وعُدَدا ومَدَدا ومُدَدا، **وأشد قوة وءاثارا فى الأرض**، بدليل ما بقي من أبنيتهم إلى[2] الآن. **فما أغنىٰ عنهم**، ذلك عقاب،[3] **ما كانوا يكسبون.**

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾

فلما جاءتهم رسلهم بالبينٰت فرحوا بما عندهم من العلم، الذي هو بخلاف ما جاءت به الرسلُ، وجعلهم مثلا لئلا يستكبر عالمٌ بعلم مخالف للوحي فيناله ما نال أولئك. **وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون**، وهو العذاب، كقوله: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ،[4] أي استهزاء لاعتقادهم أنهم لا يُعذَّبون.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾

---

[1] **العُنْف**: ضدّ الرفق (كتاب العين للخليل بن أحمد «عنف»).
[2] ك - إلى، صح هـ.
[3] ك ن: عقابا.
[4] سورة الحج، ٢٢/٤٧؛ وسورة العنكبوت، ٢٩/٥٣.

﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

فلم يك ينفعهم إيمٰنهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده، والمراد الأمم الخالية. وكذلك يوم القيامة لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ.[1] وكذلك أمر العباد في الدنيا بقوله: إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡ.[2] **وخسر هنالك الكٰفرون،** خسروا[3] أنفسهم وأهليهم.[4]

---

١ ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا﴾ (سورة الأنعام، ١٥٨/٦).

٢ ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ (سورة المائدة، ٥/٣٣-٣٤).

٣ ن: وخسروا.

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ (سورة الزمر، ١٥/٣٩). وانظر أيضا: سورة الشورى، ٤٥/٤٢.

سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ
يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا
تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾

حمٓ، اسم لجميع الحروف المجتمعة من أبجد وتمامها كأنه قال: **حمٓ**، وأخواتها، **كتٰب فصلت ءايٰته**. وقيل: **تنزيل**، مبتدأ، **من الرحمن الرحيم**، تقديره هو، **كتٰب**، خبره: **فصلت ءايٰته قرءانا عربيا لقوم يعلمون**، **بشيرا ونذيرا**، قيل: الوصفان للقرآن. والأولى أنه "مع بشير" بدليل ما بعده قوله: **فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون**. فذلك قوله: **وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى ءاذاننا وقر**، ثقل. والأكنة مأخوذة من الكِنّ، واحدها كِنَان مثل سِنَان وأَسِنّة، لأنه يَكُنّ الشيءَ بضم الكاف ويصونه. ومنه كُنَّتِ الجاريةُ إذا صِينت. **ومن بيننا وبينك حجاب**، يمنع الإبصارَ. فأخبروا عن أنفسهم أنهم بمنزلة مَن لا يفقه بقلبه ولا يسمع بأذنه ولا يَتركه الحجابُ أن يَرى بعينيه. وفائدة "مِنْ" أنها أخبرت أن الحجاب قد استوعب البين فلا يخلو مكانٌ بينهما بغير حجاب، كما تقول: المفازة من بين مكة والمدينة، أي وإلى المدينة. ولو قالوا: بيننا وبينك[1] حجاب دل على حجاب وإن لم يستوعب. ولو قالوا: بينك وبيننا لدل على أن الحجاب ابتدأ من جهته. **فاعمل**، على مكانتك وشَاكِلَتك،[2] **إننا عٰملون**، كذلك.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ
وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦﴾

قل إنما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إلى أنما إلٰهكم إلٰه وٰحد فاستقيموا، في السير، **إليه واستغفروه وويل للمشركين**.

[1] ش ك: بينك وبيننا.

[2] ش - على مكانتك وشاكلتك؛ ك - على مكانتك وشاكلتك، صح هـ.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ۝٧﴾

الذين لا يؤتون الزكوٰة وهم بالآخرة هم كفرون. زيادة "هم" إعلام بأنهم غير مجبَرين على الكفر بل هم كفروا. وعيّن من أوصاف المشركين أنهم لا يؤتون الزكاة [٣٧٣ظ] إعلاما أن من لا يؤتي الزكاة لا يعتقد الجزاءَ في الآخرة بل هو / كافر بها. وبين ذلك ببقية الآية وجعله من تمام وصف المشركين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾

إن الذين ءامنوا وعملوا الصّلحٰت لهم أجر غير ممنون، مقطوع. والمنّ في اللغة القطع، ومنه الْمَنُون،[1] والْمَنِيَّة، لأنها تقطع حبل الحياة،[2] ومنه المَن بالعطاء، لأنه يَقطع الأجر. ولهذا قال: لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ،[3] ولم يقل: لا تفسدوا. والمنّان هو[4] الرحمن سبحانه ذُكر بهذا الاسم،[5] لأنه يَقطع[6] قطعة من الفضل لمن يشاء من عباده إنعاما عليهم لا جزاء لهم، فالأصل واحد. ثم نُقل من العرف اللغوي واستعمل فيما يُستحب من الرب ويُكره من العبد. والله أعلم.

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٩﴾

قل أئنكم، إنكار وتعجب بلفظ الاستفهام، **لَتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا، ذٰلك رب العٰلمين،** أي لا الأندادُ المجعولة.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾

١ ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ (سورة الطور، ٣٠/٥٢).

٢ ك ن: الحيوان.

٣ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ (سورة البقرة، ٢٦٤/٢).

٤ ش ك: وهو.

٥ "في أسماء الله تعالى "المنان"، هو المنعم المعطي، من المنّ: العطاء لا مِن المِنّة" (النهاية لابن الأثير «منن»). عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول: "اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، أنت المنّان، بديع السماوات والأرض، ذو الجلال والاكرام. أسألك الجنة وأعوذ بك من النار". فقال النبي عليه السلام: "لقد كاد يدعو الله باسمه الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى (المصنف لعبد الرزاق الصنعاني، ٥٠٤/١).

٦ ن – يقطع.

وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقوٰتها، كما تقول: فاكهة البستان فتضيفها إليه، وتقديره **فى**، تمام، **أربعة أيام**. وقوله: **سواء للسائلين**، أخّر "للسائلين" للوزان. وقوله: **سواء**، يعود على "السائلين" كما نبين. والمعنى أنه تعالى **قدّر الأقوات** للسائلين وجعل الرواسي وبارك مع التقدير في تتمة أربعة أيام، وذلك يومان آخران. وإنما أجملهما في الذكر لِما نبينه في المستقبل. فالأقوات مقدرة بقَدْرها هي لا بقدر السائلين، وإلا لزم أنها لا تفضل. ولهذا قال: **أقوٰتَها**، ولم يقل: أقواتهم. ولا شك أن كل مُتقوّتٍ فإنه سائل بالحال الذي هو أفصح من المقال، وذلك لاضطراره إلى ما يُقيته.[١] وقوله: **وقدّر**، بعد قوله: **وجعل**، يريد ما قدّره لكل سائل إلى آخر عمر الدنيا، كقوله: وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ.[٢] فيكون المعنى وقدّر فيها أقواتها دائما للسائلين **الأقواتَ أبدا**. وجعل الأقوات لهم سواءً بمعنى أنه تعالى لا يرزق المؤمن دون الكافر، ولا البَرّ دون الفاجر، ولا الماشيَ دون الطائر، بل ساوى الكل في أنهم يقتاتون، كقوله: وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا.[٣]

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾

[معنى سجود السموات والأرض طوعا أو كرها]

ثم استوىٰ إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها. هذا[٤] الكلام مُعرِب عن غاية القدرة على هذا المخلوق الكبير، وهو في المثال كما يقال: افعل هذا شئت أم أبيت. وإنما عبّر بهذه العبارة ونسبها إلى من لا يعقل، أعني قوله: **طوعا أو كرها**، بمعنى طبعا أو قَسْرا. وذلك كالحركة المغربيّة للأفلاك والكواكب السيارة فإنها طُبعت على ذلك، وبعكسها الدورة المشرقية. فإنها أعني الأفلاك تتحرك قسرا، وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ.[٥] فالطبع والقسر ممن لا يَعقل كالطوع والكره ممن يعقل. كما إذا رميت الجسم إلى أسفلَ كان هُوِيُّه طبعا وإلى فوقٍ كان رقيُّه قسرا، وهو المعبر[٦] عنه بالكَرْه.

---

١ ن: إلى ما يفيته.

٢ ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (سورة الحجر، ٢١/١٥).

٣ سورة هود، ٦/١١.

٤ ن: وهذا.

٥ سورة الطارق، ١١/٨٦.

٦ ش: المعتبر.

لأنه تعالى لمّا أوقع الخطاب الذي يَصلح لمن يعقل على من لا يعقل عبر بعبارة من يعقل وحكى عنه جواب من يعقل، بقوله: **قالتا أتينا طائعين**، إذ المراد تفهيم من يعقل من العباد. والله أعلم بكلامه.

وقد جاء لفظ "الكُره" في الإخبار عن البشر ولم يُرَد به ما يتبادر إليه الفهم من كراهة المكروه، بل إنه لم يكن عن اختيار المفعول بل عن اختيار[1] الفاعل. وذلك قوله: حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا.[2] فلمّا لم يكن الحمل إليها سماه الله كرها. وكذلك وإن لم تكن[3] كارهة لذلك بل قد تحبه. فلمّا لم يكن ذلك الحمل من جهة قدرتها عليه بل من جهة قدرة الله سمّاه الله كرها. وكذلك قوله في سورة الرعد: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا، ثم قال: وَظِلَٰلُهُم.[4] فلمّا كان منهم من يسجد طوعا ومنهم من لا يسجد شبّه من لا يسجد بالظل الذي هو ساجد كرها، لا لأنه أعني[5] الظل[6] ذو كراهة[7] عن عقل. فلزم من ذلك أن الساجدين طوعا هم أيضا ساجدون كرها كظلالهم، فهم وظلالهم في السجود واحد. كما أن الظل منفعل لما هو ظله كذلك نفسُ وجودهم سُجودٌ وإن لم يختاروا السجود ولم يُكرَهوه. وفُهِم من ذلك أن من لم يسجد طوعا لله فهو بمنزلة الظل / الزائل وهو ساجد كرها فتسخيره لِما أريد به[8] في الوجود هو منه حقيقة السجود. لكن الكافر ساجد كرها اتباعا للحظ[9] والمؤمنَ يسجد طوعا اتباعا للحق. [٣٧٤و]

فقوله سبحانه عن السماوات والأرض: **قالتا**، ليس ثَم قولٌ منه ولا قول منها، بل لمّا وصف غير بني آدم بوصفهم في الأمر أجراه مجراهم[10] لأن الخطاب لهم، ليُفهَم من ذلك أن مثل هذا العالم الأكبر أتى طائعا فكيف لا يخاف هذا المخلوق الأصغر إذا ذهب عاصيا. وقال: **طائعين**،[11] ولم يقل: طائعات لأجل الوِزان. فلا تَقِفْ مع لفظ عربي أو عجمي ولسانٍ قالتا، به. فنفس وجودها الذي أنت الآن مشاهِده قولٌ فصيح مُعْرِب بأوجز العبارة لمن كان له قلب من العبيد، أو ألقى السمع وهو شهيد.[12]

---

١ ك – اختيار، صح هـ.

٢ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ (سورة الأحقاف، ١٥/٤٦).

٣ ش – تكن.

٤ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ (سورة الرعد، ١٥/١٣).

٥ ش: أغني.

٦ ك – الذي هو ساجد كرها لا لأنه أعني الظل، صح هـ.

٧ ن: الظل وكراهة.

٨ ك – به، صح هـ.

٩ ش: للخط.

١٠ ن: مجراها.

١١ ن + ولم يعين.

١٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (سورة ق، ٢١/٥٠).

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾

فقضٰهن، أي بـ"كُنْ"، لهذا عبر بلفظ القضاء كقوله: إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ.[١] **سبعَ سمٰوٰتٍ فى يومين وأوحىٰ فى كل سماء أمرها**، من سير كواكبها وإظهارِ عجائبها واختلاف الحركات وتأثيرات المدبرات وغيرِ ذلك. فأوحى الأمر بكيان ما يجب كونُه فيها[٢] وعنها. وأما قوله: وَهِيَ دُخَانٞ،[٣] فذلك[٤] قبل خلق الكواكب شبّهها بذلك. وفيه أن هذا المخلوق الشديد، كقوله: ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا،[٥] قد خلقه الله من أضعف الأشياء وهو الدخان الذي يلزمه السوادُ، ولا يكون له ثبات. فخلق القويَّ من الضعيف والنيرَ من المظلم. ويجب أن تَفهم أن قوله تعالى: ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ،[٦] لا يناقض قولَه: وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا،[٧] لأن السماء خُلقت قبل الأرض كما جاء في التوراة،[٨] وشهد به القرآن.[٩]

[نظرة عامة إلى تكوين العالم]

فأما التوراة فإن أول آية فيها ما هذا مقلوبه عربيا: وهو برأسيّة بَرَأ الإلٰه السماوات والأرض.[١٠] فقدم السماء في الذكر عند وصف أول الخلقَ كما قدّمها في الذكر عند[١١] قوله: فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ.[١٢] وذلك في الكتابين عبارة عن أول الكون. ثم قال في ثاني آية في التوراة: والأرضُ كانت غامرة مستبحرة، وظلام على وجه القمر، ورياح الله تَهُبُّ على وجه الماء. ثم ذكر في الثالثة: وقال الله: يكون نور، فكان نور. ورأى الله النور جيدا فأفرز الله بين النور والظلمة. وسمى الله النور نهارا والظلمة ليلا. وكان غروب وكان بُقور[١٣] يوما واحدا. ثم ذكر بعد هذه الآية أن الله خلق السماء أولا في وسط الماء

---

١ انظر مثلا: سورة البقرة، ١١٧/٢؛ وسورة آل عمران، ٤٧/٣.

٢ ن - فيها.

٣ من الآية السابقة.

٤ ش ك: وذلك.

٥ ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا...﴾ (سورة النازعات، ٢٧/٧٩).

٦ من الآية السابقة.

٧ سورة النازعات، ٣٠/٧٩.

٨ انظر مثلا: التّكوين ١/١-٢.

٩ انظر على سبيل المثال: سورة الأنعام، ٧٣/٦؛ وسورة الأعراف، ٥٤/٧؛ وسورة التوبة، ٣٦/٩؛ وسورة يونس، ٣/١٠، ٦.

١٠ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «في البدء خلق الله السماوات والأرض» (التّكوين ١/١).

١١ ك - وصف أول الخلق كما قدمها في الذكر عند، صح هـ.

١٢ من الآية السابقة.

١٣ بَقَر يبقَر بَقْرًا: شقّه، فتحه، وسّعه (المنجد للُويس المَعْلُوف، «بقر»). بُقور: أي صَباح.

فقال فيها وقال الله: يكون رَقِيع[1] بوسط الماء، ويكون فاصلا بين ماء لماء، أي بين ماء واصلٍ إلى ماء. وفسروا الرقيع بالجَلَدِ،[2] كما يكون الجَلِيد[3] من الماء. ثم قال بعد هذه الآية: وصَنَع الله الرقيع فأفرز بين الماء الذي من تحت الرقيع والماء الذي من فوق الرقيع وكان ذلك. ثم قال بعده: وسمى الله الرقيع سماء. وكان غروب وكان بقور يوما ثانيا. ثم ذكر بعد هذه الآية خلق الأرض، أعني بعد اليومين الأولين.[4] فقال: وقال الله: يجتمع الماء من تحت السماء إلى مكان واحد و وتظهر اليُبْسةُ، وكان ذلك. وسمى الله اليبسة أرضا، ومَجْمَع الماء سماه بحرا، ورأى الله ذلك جيدا. وقال الله: تُخرج الأرض عُشْبا وشجرا مثمرا من كل صنف، وكان ذلك، وكان غروب، وكان بقور يوما ثالثا.[5] فهذا نصها نقلتُه بلفظه متتابعا. وهذا الكلام لمن تأمله يفهم منه أن الله تعالى أول ما خلق ماءٌ في ظلمةِ عدم. وذلك لأن قوله تعالى: "وقال الله يكون نور"، هو[6] أمرٌ أمر به بعد خلق السماء وإلا لا يصح عدد الأيام.

فإن قيل: كيف يكون الماء أولا وقد قال: أول ما خلق الله السماوات والأرض؟ فالجواب عن التوراة أنه كما تقدم الماءُ على[7] السماوات والأرض[8] الذي[9] منه خلقهن.[10] كذلك تقدم في القرآن بقوله: وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ.[11] وإنما بيّن الله لنا أن الماء الأول غير هذا الماء. ولهذا قيل: إن ما لَطُف من الماء علا على السماء. / فإن [٣٧٤ظ]
المياه لمّا توسط الرقيع بينهما[12] صارت المياه التي فوقه لطيفةً في غاية البساطة. ومن فرط بساطتها ولطافتها ارتفعت للعلو، لأن مِن شأن كل لطيف أن يرتقي إلى العلو بلطف جرمه. وكلمّا ارتقى زاد لطافةً وبساطة. والأجسام النازلة إلى السِّفْل[13] تزيد كثافةً وثخانة. فلذلك نقول: إن تلك المياه لم يرتق منها صاعدا إلا ما كان جوهره بسيطا.

---

١ الرّقيع: السماء، أو السماء الأولى، وهي سماء الدنيا لأن الكواكب رقعتْها، سمّيت بذلك لأنها مرقوعة بالنجوم. وقيل: لأنها رُقعت بالأنوار التي فيها. وقيل: كل واحدة من السموات رقيع للأخرى (تاج العروس للزبيدي، «رقع»).

٢ ك ن: الجلد. في هامش ك: بالجلد. | الجلد: السماء أو القبة الزرقاء (المنجد لِلُويس المَعْلُوف، «جلد»).

٣ الجليد: ما يسقط من السماءِ على الأرض من الندى فيجمد (لسان العرب، «جلد»).

٤ ك – الأولين، صح هـ.

٥ التّكْوين ١/٢–١٩.

٦ ن: هذا.

٧ ن – الماء على.

٨ ك + الماء.

٩ ش + صفة.

١٠ انظر مثلا: التوراة، التّكْوين ١/٢، ٦–٧.

١١ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (سورة هود، ١١/٧).

١٢ ن: بينهما الرقيع.

١٣ ك: إلى السفلي.

وكلما صعد زاد لطافةً وبساطة إلى أن خرج عن حد الجوهر المائي وقوامه، ولم يكن فيه ضوء فكان مظلما، فشُبّه بالدخان، ومنه خلقت السماء وفوقها منه[١] ما هو ألطف. والدليل على هذا قوله: وصنع الله الرقيع. فأفرز بين الماء الذي من تحت الرقيع والماء الذي من فوق الرقيع، فصار الرقيع حجابا بين اللطائف العلوية المخلوقة[٢] من الماء الذي فوقه وبين الكثافة[٣] الجسمانية السفلية التي خُلقت من الماء الذي تحته. وهذا الإفراز لم يُرِد به الفصل[٤] بين جِرْمَيْهما بحجاب فاصل فقط، بل إن المياه التي فوق الرقيع صارت من بساطتها ولطفها جوهرا آخر غير جوهر الماء الذي تحت الرقيع. ولهذا ذكر لفظة[٥] الإفراز فأشار بها إلى ما تقدم بقوله بلفظ الإفراز، فأفرز الله بين النور والظلمة ليس ذلك الإفراز فصلا بين شيئين كانا معا واحدا[٦] ثم قُسما قسمين. وإنما هو تمييز جوهر النور أنه غير جوهر الظلام بل شيء آخر. كذلك المياه التي نزلت للسفل صارت كثيفة جدا إلى أن تجسّم منها التراب. وأما ما علا فهو جوهر لطيف لا تدركه الأبصار. فالكل أعني العالمين الروحاني الذي علا والجسماني السفليّ مخلوق من الماء. ولهذا قال تعالى: وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ.[٧] لأن الماء منشأ الحياة، كقوله: وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ.[٨]

ولمّا كان الجمهور لا يدركون إلا ما يقع عليه الحواس ذَكر أن العرش كان فوق منشأ الحياة. فوقفت العقول عند حدها من بارئها. وهذا من أبلغ التفهيم مع[٩] غاية التعظيم، وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ،[١٠] فهذا نص التوراة إلى يومنا هذا.[١١] والذي استلزموه[١٢] عنه أن الله خلق السماوات والأرض معا في ماء بقوله: "كُنْ"،[١٣] فكانت السماء حين الخلق بخارا مظلما في وسط ماء، وكانت الأرض مغمورة بماء[١٤] في جوف السماء، والسماء حينئذ خالية من كواكبها، والأرض خالية من عجائبها. ولم يَذكر في التوراة زمنا

[١] ن: منها.

[٢] ن: بالمخلوقة.

[٣] ش: الكثائف.

[٤] ش ك: به الفصل.

[٥] ر ك: لفظ.

[٦] ر ن: واحد.

[٧] سورة هود، ١١/٧.

[٨] سورة الأنبياء، ٢١/٣٠.

[٩] ن - مع.

[١٠] ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٥٥). وانظر أيضا: سورة الشورى، ٤٢/٤.

[١١] التكوين ١/٢-١٩.

[١٢] ن: التزموه.

[١٣] انظر مثلا: سورة البقرة، ٢/١١٧؛ وسورة آل عمران، ٣/٤٧، ٥٩؛ وسورة الأنعام، ٦/٧٣.

[١٤] ن - بماء.

إلا بعد خلق النور. فلمّا قال الله تعالى: يكون جَلْدٌ ظهرت صورة الفلك. فلمّا قال: يكون نور دار الفلك فكان الجزء الشرقي المقدَّر أن تُخْلَق[1] الشمس فيه صافيا ذا بَصاصة وضياء أصفى من جميع أجزاء الفلك. فكان منه ضوء ينير على كرة[2] الماء مدة اثنتي[3] عشر ساعةً، ثم غاب فكان ليل.[4] وهذا شبيه بالجنين. فإنه إذا جمدت النطفة فأصفى عضو يكون فيها موضع العينين. وكلما مضى ذلك زاد بَصاصة وصفاءً بِطول المدة حتى إذا نُفخ فيه الروحُ حلّ النور في العين. فكذلك كان النور الأول المخلوق بقوله: "كُنْ". فكان ذلك الجزء من الفلك أصفى أجزائِه. ولم يزل في زيادة صفاء ونور إلى أن عَلِق فيه جرم الشمس و[صار] موازيا له القمر. فهذا هو ما استلزمه فضلاء علماء التوراة منها.[5] وهذا جامع بين عظم القدرة واعتقاد الحدث، وهو معنى قوله تعالى: فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا،[6] فهذا دليل القدرة.

وقوله: **فقضٰهن سبع سمٰوات فى يومين**، دليل الحدث. ولا ينافي ذلك لفظ التوراة. وأما القرآن فقد قيل: خلقها قبل السماء ودحاها بعدها.[7] ولا يجوز ذلك، لأن الأرض وما يتعلق بها خُلقت في أربعة أيام جملة كما ذكر الله ذلك جملة.[8] وهذا هو فائدة الإجمال. فخلقها في يومين في وسط الماء، ثم دحاها فظهر وجهها، ثم أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا[9] في يومين. ولا يجوز أن يخرج منها ماءها ومرعاها / وهي معمورة في [٣٧٥و]
الماء الأول. فإن قلت: خلق الأرض أولا، ثم السماء، ثم بعد ذلك دحا الأرض فقد خالفت النص وأذهبت فائدة قوله: فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ. وإذا لم تفهم أن اليومين الأولين في جملة الأربعة عاد الخلق في ثمانية أيام، وهو يخالف[10] سائر النص. ولهذا لم يقل: فقضاهن سبع سماوات في ستة أيام كما قال[11] قبله: فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ.[12] وذلك ليعرّفنا[13] انفصال هذين اليومين واتصالَ تلك الأربعة. فلمّا قال: وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا،[14] تحقق أن السماء خُلقت قبل الأرض، وعُلم ما كان مشكلا من ذكر العدة، إذ لا يكون اليوم يوما

---

١ ن: أن يخلق.
٢ ن: على كورة.
٣ ك ن: اثنا.
٤ ك ن: دليل.
٥ التكوين ١/٢-١٩.
٦ من الآية السابقة.
٧ لعل قائله يستدل بقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ (سورة النازعات، ٧٩/٣٠).
٨ انظر: الآية ٩ وَ١٠ من هذه السورة.
٩ سورة النازعات، ٧٩/٣١.
١٠ ك ن: بخلاف.
١١ ش ك: كما كان.
١٢ الآية ١٠ من هذه السورة.
١٣ ن: يعرفنا.
١٤ سورة النازعات، ٧٩/٣٠.

إلا بغروب وطلوع للشمس، فعاد خلق الأرض ودحْوُها في أربعة أيام معا. وأما كونه ذكر السماوات ههنا آخرا فلو ذكر الأعلى قبل الأدنى لم يَبْقَ[١] لذكر الأدنى[٢] موقع. فلمّا أراد تعظيم إثم الكفر بهذا الخالق العظيم بدأ بذكر الأدنى فقال: أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ،[٣] وهم من جملة ما في الأرض. ثُمَّ، وهو الذي خلَق ما هو أعظم منها وهو السماء، فعطف بقوله: ثُمَّ،[٤] على كفرهم، كأنه قال: ثم أتكفرون بخالق السماء؟ فلم يُرِد ههنا الترتيب في الخلقية. ولهذا بين الترتيب[٥] بقوله: فَقَالَ لَهَا، ثم قال: لِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا.[٦] وجاء ذكر المدة في الكتابين تنبيها على غاية الحكمة مع عظم القدرة. فأما القدرة فنفس الخلق. وأما الحكمة فنفي ما عَلِمه الله من أنه سيقع في بعض الأذهان توهم القدم، فذكر مدة بها يتحقق الحدث. وعلى اعتقاد الحدث تصح الشرائع ويعظم الحقُّ في نفس الخلق. فإن خلق السماوات والأرض في ستة أيام ممن يقول للشيء: كُنْ فَيَكُون، إنما هو لحكمة يعود نفعُها على العباد. ولا نفعَ أبلغ من صحة الاعتقاد وإن انضاف إلى ذلك ما شاء الله من المراد. فقد فهمتَ من هذه الجملة أنه من البيّن أن السماء خُلقت قبل الأرض. ولو كانت الأرض مخلوقة قبل السماء ومَدْحوّة بعدها للزم أن يكون قوله تعالى: **ثم استوىٰ إلى السماء**، بعد يومين فقط، ولا نراه إلا بعد الأربعة. فمن قال: "ثُمّ"، لا يريد بها ههنا "بعد" بل هي دالة على قبل بيومين ألزمناه بمثل ذلك أنها دالة على[٧] قبل الأربعة.

وإذا عُدْنا إلى الحصر فنقول: لا يخلو إما أن السماء خُلقت قبل الأربعة أو بعدها أو في وسطها. فمن قال بعدها منعه قولُه: وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا،[٨] وقد لزم أن إخراج الماء والمرعى هو بعد[٩] أن دحا. ومن قال:[١٠] في وسط الأربعة منعه[١١] أن الأربعة ذُكرت متصلة فلزم أن تكون السماء في اليومين قبل الأربعة. وصح ذلك بموافقة التوراة وشهادة العقل، لأن العقل يقضي[١٢] بعمل ما به تَظهر العِدّةُ من الأيام أولا ويَظهر المعمولُ وهو النور، ولا يكون ذلك إلا في السماء. وكذلك يقضي بعمل ما يتعلق بالأرض

---

١ ك – لم يبق، صح هـ.
٢ ن + في.
٣ الآية ٩ من هذه السورة.
٤ من الآية السابقة.
٥ ك – في الخلقية ولهذا بين الترتيب، صح هـ.
٦ من الآية السابقة.
٧ ك – على، صح هـ.
٨ سورة النازعات، ٧٩/٣٠.
٩ ك – بعد، صح هـ.
١٠ ك ن: وإن قلت. وفي هامش ك: ومن قال.
١١ ر ك: منعك. وفي هامش ك: منعه.
١٢ ك – يقضي، صح هـ.

مع خلق الأرض. فانظر إلى حكمة هذه العبارة في ذكر الأربعة جملةً حتى عاد الكلام لُغَزًا معجِزا[1] مع كونه ظاهرا موجزا.

ومما في التوراة أن الله خلق آدم في آخر الخلق بعد خلق سائر الحيوان، وذلك في يوم الجمعة. وهذا صورة لفظ التوراة بعد ذكر اليوم الرابع والخامس. وقال الله: تُخرج الأرض كل متنفس من الدواب[2] على صنفِه، وكان. وقال الله: نصنع آدم بصورتنا كشِبْهنا ويستولي على سمَك البحر وطير السماء والبهائم وسائر الأرض وسائرِ ما دبّ عليها. وبرأ الله آدم بصورته[3] بصورة الله، برأ[4] الله ذَكَرا وأنثى برأهما وباركهما الله وقال لهما: أَثْمِروا وأَكْثِروا واملئوا الأرضَ وابنوها واستولُوا على سمك البحر وطير السماء وجميع حيوان الأرض. وكان غروبٍ، وكان بقورٌ يوما سادسا. وفُرغت السماوات[5] / والأرض وجيوشهما. وفرغ الله في اليوم السابع صنعتَه الذي عمل وعَطِل في اليوم السابع من كل صنعته التي عمل وبارك في اليوم السابع.[6] إذ به فرغ من صناعته التي برأ. ثم قال: هذا ميلاد السماوات والأرض في خلقهما بيومِ صَنَع الله أرضا وسماء، وكل شجر في الصحراء قبل كونه في الأرض وكلَّ عُشْب، إذ لم يُمطر الله الأرض وآدمُ لم يكن ليخدمها وبخارٌ يَصْعَد من الأرض ويسقي وجهها جميعا. وخلق الله آدم ونفخ في أنفه نَسَمة الحياة، فكان آدم ذا نفس حية. وغرس الله جنة عَدْنٍ وجعل فيها آدم الذي خلق.[7] [٣٧٥ظ]

فهذا صورة ما في التوراة من غير اختصار ولا تغيير بحيث لا ينكره أحدٌ من الخبيرين بلغتهم. والبَقْر هو الشق يريد انشقاق الفجر. وذكر أن حواء خُلقت من ضِلَع آدم.[8] وبعد هبوطه قال: وعاش آدم ثلاثين ومائة سنة. وأَولد بصورته كشبهه وسماه شيثا[9] بإمالة الشين. وعاش آدم تسعَمِائَة سنةٍ وثلاثين سنةً ومات.[10] وسنذكر معنى قوله:

١ ن – معجزا.

٢ ن: من الذوات.

٣ ن – بصورته.

٤ ن: برأه.

٥ ن: الشمس.

٦ ك – من كل صنعته التي عمل وبارك في اليوم السابع، صح هـ.

٧ التوراة، التّكوين ١/٢٠-٣١، ٢/١-٨.

٨ لعل المؤلف رحمه الله يشير هنا إلى ما ورد في التوراة: «وبنى الربُّ الإلٰهُ الضِلَعَ التي أخذها مِن آدمَ امرأةً وأَحضرها إلى آدمَ» (التّكوين، ٢/٢٢). وفي الحديث: «إن الله تعالى لمّا خلق آدم خُلِقَت حواء من ضلعه القصير» (سنن ابن ماجه، الطهارة ٧٧).

٩ «وعاش آدم مائة وثلاثين سنة، وولد ولدا على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثا» (التّكوين ٥/٣).

١٠ «فكانت كل أيام آدم التي عاشها تسعمائة وثلاثين سنة، ومات» (التّكوين ٥/٥).

"بصورتنا كشبهنا"[١] عند قوله تعالى: لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ،[٢] إن شاء الله تعالى. ويجب أن نعلم[٣] أنه لا يجوز لنا أن نجعل القرآن تبعا للتوراة، لأن الله تعالى يقول: إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ.[٤] وقال عن التوراة: بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ.[٥] وفرقٌ بين ما "حُفظ" وبين ما "استُحفظ". فما كان موافقا منها للقرآن كان القرآن مصدِّقا له، وجاز أن نأخذ[٦] منها برهانا أو بيانا.[٧] وما خالف كان ملحقا بالمنسوخ أو المُبدَّل،[٨] أو غير ذلك. فإن قيل: إن التوراة أَخبرت بأن الله خلق النيّرين والكواكبَ في اليوم الرابع؟ فالجواب أن القرآن لا ينافي ذلك بدليل قوله بعد ذكر اليومين: وأوحينا.[٩]

وزينا السماء الدنيا بمصٰبيح وحفظا، أي وحفظناها حفظا وقد تقدم مثله.[١٠] **ذٰلك تقدير العزيز العليم.**

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤﴾

فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صٰعقة مثل صٰعقة عاد وثمود، إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم، في زمنهم إلى انقضاء مدة الحياة، لأن بعض الأمم كان يأتيهم رسولٌ بعد رسول كما في سورة يسٓ.[١١] ولهذا قال ههنا: **من**، فهي لابتداء الغاية، فابتداؤها مجيء الرسول[١٢] إليهم، وانتهاؤها مدة العمر لمن أُرسل إليهم. وقوله: **ومِنۡ خلفهم**، أي قبلهم مما تقدم، وأرسل إلى الأمم الماضين فهم [مرسَلين] إليهم أيضا[١٣] في الدعوة إلى الله. فيكون معنى [قوله:] **من بين أيديهم**، الحاضر والمستقبَل في مدة حياتهم،

١ «نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» (التكوين ١/٢٦).

٢ سورة الشورى، ٤٢/١١.

٣ ن: أن تعلم.

٤ سورة الحجر، ١٥/٩.

٥ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾ (سورة المائدة، ٥/٤٤).

٦ ك: أن يأخذ.

٧ ن: وبيانا.

٨ ن: أو لمبدل.

٩ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾، وهي في الآية التي نحن بصدد تفسيرها.

١٠ ﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٧).

١١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۞ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ (سورة يسٓ، ٣٦/١٣-١٤).

١٢ ن: الرسل.

١٣ ن - أيضا.

ومن خلفهم، ما مضى، لأنهم خلفوه. وأما قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[1] فالتوراة كانت حاضرة بين يديه. **ألا تعبدوا إلا الله. قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملئكة**، اِذْهَبُوا عنا. **فإنا بما أرسلتم به كفرون**.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق، ولو قال: بالباطل لاحتمل أنهم استكبروا بالباطل وبالحق في بعض الأمر. فنفى الله ذلك في جميع الأمر. **وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بـٔايٰتنا يجحدون**، تقديره يجحدون الإيمانَ بآياتنا المنزَّلة بوعيدهم في الدنيا.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا، ذاتَ صَرير بل صرصرة، **فى أيام نحسات**، أنحس أيام ذلك العام وأشدِّها بَرْدا، **لنذيقهم عذاب الخزى فى الحيوٰة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزىٰ وهم لا ينصرون**.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾

وأما ثمود فهدينٰهم فاستحبوا العمىٰ على الهدىٰ. افهم قوله: **فهدينٰهم فاستحبوا**، وانظر إلى من بنى أُسَّ اعتقاده على غلط حتى جعل هاتين الكلمتين بمعنى: فأضللناهم فاستحببنا لهم فأجبرناهم. فكيف يحسُن بعده: **فأخذتهم صٰعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون**.

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾

---

[1] ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة المائدة، ٤٦/٥).

ويوم / **يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون، حتىٰ إذا ما جاءوها شهد عليهم** [٣٧٦و]
سمعهم وأبصٰرهم وجلودهم، يَعُمُّ الفروج، **بما كانوا يعملون**، والكلام من الجلود والأعضاء بنفسها كما سيبين لك. وشهادتها بكلها لا بأن يُخلَق لها ألسنٌ. وقد علمت أنك تُحدِّث صاحبك فتقول: عيناك تشهد بسَهَرك.[١] فتلك الشهادة أوضح من شهادة اللسان، إذ اللسان يحتمل أن تَكْذب به. ولمّا أخرس الناطقَ أنطق الصامت.

﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة. هذا دليل على أن هذه الشهادة هي بنفس هذه الجلود التي هي على لحومنا اليوم تشهد في يوم البعث، **وإليه ترجعون**.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

وتمام كلام الجلود: **وما كنتم تستترون**، في الدنيا حذرا، **أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصٰركم ولا جلودكم ولٰكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون**. ويحتمل أن يكون ذلك من كلام الله لهم. وقوله: **لا يعلم كثيرا**، لا تَفْهمْ أنهم كانوا يظنون أنه يَعلم القليل، إذ لا فائدة لهم إذا كانوا يظنون أن الله يعلم قليلا من أعمالهم الجيدة مع كونهم يظنون أن الله لا يعلم كثيرا من أعمالهم الرديئة، لأن التوبيخ لهم هناك على الأعمال الرديئة لا على الجيدة. ولأنهم إذا ظنوا أن الله لا يعلم الكثير فكيف يعلم القليل فلزم أنهم كانوا يظنون أنه لا يَعلم شيئا. وإنما لم يقل سبحانه كذلك لزيادة معنى، وهو أن يعرّفنا أنهم لم تكن أعمالهم الرديئة التي تَشهد[٢] جوارحُهم عليهم[٣] بها قليلةً. بل كانوا يعملون كثيرا من السيئات والفواحش، وكانوا مع ذلك يظنون أن الله لا يَعلم[٤] شيئا مما يعملون من ذلك العمل السيئ الكثير. ولو ظنوا أنه يعلم ضدَّ ذلك أعني الخيرات للزم أنه يعلم القبائح، فلزمهم تركُها. فافهم المعنى الذي من أجله قال: **كثيرا**، ما أحسنه. ثم قال:

---

١ ش ك: بشهرك.
٢ ك - عليهم، صح هـ؛ ش + عليهم.
٣ ن - عليهم.
٤ ك ن: لا يعمل.

﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾

﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾

فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين، فهذا تمام الكلام في ذلك اليوم.

﴿۞وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ٢٥﴾

ولمّا أخبر عن حالهم فيه أخبر عما أوجب[1] لهم ذلك من أعمالهم في الدنيا، وأنه عاقبهم في الدنيا بما يستحقون به عذابَ الأخرى، وأن عقابه لهم في الدنيا كان بعدل، لأنه هداهم فيها فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ،[2] فقال: **وقيضنا لهم**، أي في الدنيا عقابا على كفرهم، **قرناء**، من صاحب وزوجة وولي، كقوله في محكم هذه الآية: وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ.[3] وقيّض[4] بمعنى أتى وأتاح[5] له، ويقال: قيض فلان أباه، أي أشبهه. **فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم**، أراد بـ **ما بين أيديهم**، ما هم عاملوه في الوقت الحاضر، **وما خلفهم**، ما خلفوه من الأعمال التي سلفت ومضت. فكأنهم إنما زيّنوا لهم الماضي لئلا يتوبوا عنه ولئلا يحذروا من مثله، وزينوا لهم ما بين أيديهم من الخطأ الذي هم عليه في الحال الحاضر دائما. **وحق عليهم القول**، فدخلوا، **فى أمم قد خلت من قبلهم**، أي في أمم لا تُحصى، تقول: خرج في عَشرة، أي هو عاشرهم ومع عَشْرَة، أي هو حادي عَشَرِهم، **من الجن والإنس إنهم كانوا خٰسرين**.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾

وقال الذين كفروا، للمنافقين، **لا تسمعوا لهٰذا القرءان**، ولم يقل: هذا، والسماع هٰهنا بمعنى القبول، أي لا تجيبوا إلى التصديق به. **والغوا فيه**، أي عند التلاوة. واللغو ما لا تُفهَم له[6] حقيقة، لقوله: لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا، ثم قال: وَلَا تَأۡثِيمًا.[7] **لعلكم تغلبون**.

---

[1] ن: عما أوجبت.
[2] الآية ١٧ من هذه السورة.
[3] سورة الزخرف، ٣٦/٤٣.
[4] ن – وقيض.
[5] ن: أو أتاح.
[6] ك: منه. وفي هامش ك: له.
[7] سورة الواقعة، ٢٥/٥٦.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

فلنذيقن الذين كفروا، من القائلين وغيرهم، **عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون**.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ذٰلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد، كما تقول: دار / السرور، فهذه النار [٣٧٦ظ]
لهم دار الشرور، **جزاء بما كانوا بئايٰتنا يجحدون**.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

وقال الذين كفروا، وهم في النار: **ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين**.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقٰموا،[1] على امتثال الأمر من ربهم، فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ.[2] ومَن علم أن الله ربه كيف لا يزهد فيما نهاه عنه ويرغب فيما أمره به. **تتنزل عليهم الملٰئكة**، عند الموت وعند العَرْض وعند اللقاء في الجنة وهم الآن يتنزلون ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون. **ألا تخافوا**، مما يُخاف منه وهو أدل على المستقبل، **ولا تحزنوا**، على ما يُحزن عليه وهو أدل على الماضي، **وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون**.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

نحن أولياؤكم فى الحيوٰة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم، ولم يقل: وأنفسكم تشتهي ما فيها، إعلاما أن مشتَهَيات أهل[3] الجنة تابعة لشهواتهم.

---

١ ن + أي.

٢ ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ (سورة هود، ١١/١١٢).

٣ ك - أهل، صح هـ.

فاعرف قدر هذه الكلمة وانظر ماذا يجب أن تشتهيَه وَاشْتَهِهِ[1] من الآن. **ولكم فيها ما تدعون**. المراد ضرب المثل بإطلاق اللذة، أعني لذة مطلقة بكل صورة وليست مقيدة من وجه ولا بحاسة دون أخرى، كقول الشاعر:

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر.[2]

أي لتلتذَّ حواسّي الخمسُ بها، إذ لم يَبْقَ إلا السمع. وهذا غاية في بابه في الدنيا. فافهم من قوله: **ولكم فيها ما تدعون**، مثلَ ذلك في الأخرى، **نُزُلًا من غفور رحيم**.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع، السيئة، **بالتى هى أحسن**، شفاء الأمراضِ في أضدادها، فشفاء الشر في الخير. فلم يقل: بالحسنة بل بالحَسَنَة التي هي أحسن ما عندك. ولهذا: **فإذا الذى بينك وبينه عدٰوة كأنه ولىّ حميم**.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾

ثم قال مرغِبا في الجنة معظما لها: **وما يلقىٰها إلا الذين صبروا**، على أمر الله ونهيه. وذكر الصبر ههنا عند دفع السيئة ليرغب فيما أمر به من الصبر رغبةً في الجنة، إذ لا صبر أعظمَ مِن كظم الغيظ عن ذي السيئة. **وما يلقىٰها إلا ذو حظ عظيم**، وصفٌ للأولياء الموصوفين بالصبر، أي هؤلاء لهم[3] عند الله حظٌّ عظيم بصبرهم.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

وإما ينزغنك من الشيطٰن نزغ، هو النخس بالشيء اليسير المُحَدَّد طرفه بأدنى ما يكون منه. يقال: نزغه بكلمة، أي طعن في عرضه. وقوله: نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ،[4]

---

١ ك ن: واشتبه.

٢ تمام البيت:

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر
ولا تسقني سِرًا فقد أمكن الجهرُ.

انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٤١١/٥.

٣ ك ن – لهم.

٤ ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ (سورة يوسف، ١٠٠/١٢).

يريد[١] أفسد بصورة طعنٍ، أي نخسٍ يسير، ومثله نَسْغ[٢] ونَدْغ.[٣] فاستعذ، أي فاحترز، والعُوذَة الحرز. وأصل عاذ التجأ يلتجئ، بالله إنه هو السميع العليم.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ومن ءايٰته اليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن، راجع على الآيات، لهذا لم يقل: خلقهم، إن كنتم إياه تعبدون.

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾

فإن استكبروا فالذين عند ربك، من الملائكة، يسبحون له باليل والنهار وهم لا يسـٔمون.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

ومن ءايٰته، الدالة على البعث خاصة وعلى غير ذلك عامةً، أنك ترى الأرض خٰشعة، أي خاضعة. والخضوع التواضع والتَّطَأْمُن والاِسْتِفال.[٤] فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتىٰ. إنه علىٰ كل شىء قدير.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

إن الذين يلحدون فى ءايٰتنا. أصل الإلحاد مشتق من اللحد، فكأنهم يُلحدون الحقَّ المفهوم من الآيات فيُخفونه ويجعلونه كالميت في لحده بالزيغ عنه إلى سواه، وهذه صفة اليهود فإنهم يكتمون الحق وهم يعلمون.[٥] ويحتمل أن المراد يُلحدون الشرك في تأويل الآيات. ولهذا قال: فى ءايٰتنا، بمعنى أنهم يؤوّلون[٦] الآيات تأويلا

١ ن - يريد.
٢ نسغه: نخسه (تاج العروس للزبيدي، «نسغ»).
٣ ندغه: طعنه ونخسه بإصبعه (لسان العرب، «ندغ»).
٤ ن: والاستقال.
٥ لعل المصنف يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٤٦).
٦ ن: يتأولون.

يُخفون فيه الشركَ. وهذا الإلحاد ليس مقصورا على المنافقين والمشركين فقط بل يتناول كثيرا من العباد. ولمّا كان الإلحاد بمعنى الإخفاء قال بعده: **لا يَخْفَوْن علينا.**
[٣٧٧و] **أفمن يلقىٰ فى النار خير أم من / يأتى ءامنا يوم القيٰمة**، إلا من هو الذي عرف الله فعبده، وهذه المعرفة هي معرفة عجز عنه لا معرفة نيل له. والعمل دليل على العلم، ولهذا قال:[1] **اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير.** وهذا دليل على تمكُّنِ كلٍّ مِن العبيد مِن فعلِ ما يشاء ويريد. وفي ذلك تواعد بالجزاء على فعلهم بمثله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾

إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتٰب عزيز، لا يأتيه البٰطل من بين يديه، وهو الحاضر والمستقبل، فافهمه جيدا. **ولا من خلفه**، وهو ما مضى من الزمن وما لا يبطله لا ما قبله ولا ما بعده، كيف يبطل بعضه بعضا. وقد قال الله تعالى: وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ،[2] وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ.[3] **تنزيل من حكيم حميد.**

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ۝٤٣﴾

ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، وهو،[4] **إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم.**

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٤٤﴾

ولو جعلنٰه قرءانا أعجميا لقالوا لولا، هلا، **فصلت ءايٰته، ءأعجمى**، أي أكتاب أعجمي **وعربى**، أي ورجل عربي، أي كيف يُفهِم الرجل العربي وهو هذا النبي بالكلام

---

[1] ش - إلا من هو الذي عرف الله فعبده وهذه المعرفة هي معرفة عجز عنه لا معرفة نيل له والعمل دليل على العلم ولهذا قال.

[2] ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (سورة الحجر، ٩/١٥).

[3] ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ (سورة الأنعام، ١١٥/٦). وانظر أيضا: سورة الكهف، ٢٧/١٨.

[4] ن - وهو.

الأعجمي. ويقال: أعجمي إذا كان لا يُفصح ولو كان عربي النسب،[١] وعَجَمِي إذا كان من أولاد العجم، أي منسوبا إليهم وإن كان فصيحا. **قل هو للذين ءامنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى ءاذانهم وقر وهو عليهم عمى، أولئك ينادون من مكان بعيد**، عن الهدى والحق، كأنهم يسمعون الصوت ولا يفقهون معناه لِبعدهم عن مكانه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

ولقد ءاتينا موسى الكتٰب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك، بتأخيرهم وهو قوله: بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ،[٢] **لقضى بينهم**، أي لعجلنا لهم الانتقامَ، لأنه تعالى إذ قضى عدل فيهم فجازاهم بما يستحقونه فأهلكهم. **وإنهم لفى شك منه مريب**، ومعنى [قوله:] **منه**، من كتابهم الآن وهو القرآن. وهذا يَعُمُّ كلَّ كافر به، فلا تحسبْه كتابَ موسى بل هو منبئ عن حال العرب واليهود وكلِّ كافر. لهذا بعده: **مَن عمل صٰلحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلٰم للعبيد.**

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

إليه يرد علم الساعة، وعلمُ كلِّ شيء.[٣] **وما**، نافية، **تخرج من**، لتبيين الجنس، **ثمرٰت مِن أكمامها**، وهو جمع كُمّ يريد الظرفَ المحيط بالثمرة قبل خروجها، **وما تحمل من أنثىٰ ولا تضع إلا بعلمه. ويوم يناديهم**، أي يا ما أَعْظَمَ ذلك اليومَ. **أين شركائى قالوا ءاذنٰك**، يقال: آذنّاك سمعناك بالأذان، وءاذنٰك، أخبرناك بمعنى أسمعناك، **ما منا من شهيد**، أي ما منا من مشاهِد أحدا منهم بل ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا.[٤] ولهذا بعده: **وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا**، أنهم، **ما لهم من محيص**،

---

١ ك - النسب، صح هـ.

٢ ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ (سورة القمر، ٥٤/٤٦).

٣ ن - وعلم كل شيء.

٤ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٧٣-٧٤).

محيد عن النار، كقوله: فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا.[1] وإذا غلب على ظن الإنسان أنه لا بد من وقوعه في شدة فإن مكابدته للخوف بما يتوقع أشد عليه مما يكابده إذا وقع. فعبّر بلفظ الظن إشارة إلى تعجيل ما يَحِلّ بالقلوب قبل ما يصل إلى الجلود.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾

ثم أخبر تعالى أنه، **لا يسـٔم الإنسٰن من دعاء الخير**، أي من طلبه، ولم يقل: من الدعاء بالخير إشارة إلى أنه يريد التزيد أبدا، ويطلب منا فوق ما يستحقه سَرْمَدا. وذلك مفسد له في حاله لأنه يوجب الطغيان، وفي مآله لأنه سبب العصيان. ثم بيّن كيف ذلك فيما سيأتي بعد قوله: **وإن مسه الشر فيـٔوس قنوط**، من الرحمة.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾

ولئن أذقنٰه رحمة، كرما، لهذا قال: **منا من بعد ضراء مسته**، أي منه بما قدمت يداه، **ليقولنّ هٰذا لى**، أي عليّ باقٍ على الدوام لا يتغير. **وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلىٰ ربى إن لى عنده للحسنىٰ**. المعنى أنه يزكي نفسه ويرى أنه مستحق لما أذاقه الله، غيرُ ممتحَن. وليس كما ظن بل ذلك من فضل الله ليبلوه أيشكر[2] أم يكفر.[3] لهذا بعده:[4] **فلننبئن الذين كفروا بما عملوا**، فيما امتحنّاهم به في الدنيا. **ولنذيقنهم من عذاب غليظ**، في الأخرى.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

[٣٧٧ظ] ولما ذَكَر حال الإنسان بما تقدم في هذه الآيات من أنه في السراء يَنسى / البعث الذي به يكون الجزاءُ ويَمتنع لحسن ظنه بنفسه عن شكر النعماء ذَكَر الله بعد ذلك

١ ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (سورة الكهف، ٥٣/١٨).

٢ ك: أءشكر.

٣ ن: أم يكفره. | لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ (سورة النمل، ٤٠/٢٧).

٤ ش – لهذا بعده.

أن منْع النعماء عنه ليس عن بخل بل هو عن فضل وأيّ فضل، فبين ذلك[١] بقوله: **وإذا أنعمنا على الإنسٰن أعرض**، عن أوامرنا، **ونـٔا**، بَعُدَ بعْدَ الإعراضِ، **بجانبه**، أي أعرض بجانبه، وبعد عن الاعتراف بنعمتنا عليه، إذ الاعتراف يوجب الشكر، أي فلهذا منعناه مزيد النعم، لأنها عادت له سببا للنقم. **وإذا مسه الشر**، فتنة وابتلاءً، **فذو دعاء عريض**. ذكر العَرْض بعد ذكر الإعراض، وأراد بالعرض تعظيم ما يبدو من دعاء الداعي إذا فُتن بالضراء فأتى به من باب التمثيل، إذ ما يكون عرضه عظيما يكون طُولُه أعظم. والوجه في تكرار هذا المعنى وهو ما قدّمه في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً﴾،[٢] ثم قال بعده: **وإذا أنعمنا**، أن الأول ما يرد من الله جزاء، والثاني ما يَرد من الله ابتلاء. لهذا ذكر بعد الأول، ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾،[٣] فأخبر بالفعل من الإنسان والجزاء عنه من الله. وفي الثاني أخبر بحال الإنسان فقط، أي فهذا هو السبب الموجب أن يكون الامتحان منا للإنسان بالضراء أكثر من الامتحان منا له بالسراء، لأنه في السراء يُعرِض وفي الضراء ذو دعاء عريض. فافهم المعنى متأنيا مكرّرا متأملا. ولا يُشْكِلْ عليك كونه ذكر الرحمة منه أولا، وكذلك النعمة آخرا، فذلك لا يكون إلا منه سبحانه. وإنما الشر المذكور أولا جزاء، والثاني ابتلاء. فتأمله لتفقه هذا النظم البديع.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

قل أرءيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل، أي من أشد ضلالا، ومن ذا يكون أضل، **ممن هو فى شقاق بعيد**، عن الهدى، أي لا يكون أضلّ من هذا.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾

ثم تواعد الكفارَ بما هو وعد للمؤمنين من فتح البلاد والتحكم في العباد فقال: **سنريهم ءايٰتنا فى الآفاق**، جهاتِ الأرض، **وفى أنفسهم**، بالذّل والصَّغار والأَسْر والقتل. **حتىٰ يتبين لهم**، يتحقق بالبينات التي لا تَشتبه، **أنه الحق**، أي القرآن، لأنه متى أخبرهم

---

[١] ك - ذلك، صح هـ.

[٢] من الآية السابقة.

[٣] من الآية السابقة.

بما سيكون في الآفاق وفي أنفسهم وكان يتبين أنه الحق وصِدْقُه في وعيد الدنيا مُحَقِّقٌ لِصدقه في وعيد الأخرى. ولهذا بعده: **أولم يكف بربك أنه علىٰ كل شيء شهيد.**

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾

ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط. فكيف لا يحيط علما بأعمالهم وقدرةً على جزائهم.[1] ولأهل التأويل من المتصوفة في هذه الآية كلامٌ عجيب مناسب للفظها، يفهمون به ما يخصهم منها. وليس ذلك من غرض الكتاب وإن احتمل أن يُحمَل على لفظه من مثل ذلك ما شاء الله. فالمراد أن تعلم لتعمل، والسلام.

١ ش + جزائهم.

Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları
Yayın No. 766-1
İSAM Yayınları 227
Klasik Eserler Dizisi 37

KEŞFÜ'l-ESRÂR ve HETKÜ'l-ESTÂR
Yûsuf b. Hilâl es-Safedî

Cilt 3

Tahkik
Prof.Dr. Bahattin Dartma
İlmî kontrol Prof.Dr. Bekir Topaloğlu

Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr
TDV İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM)
Tahkik Yayın Kurulu ilmî kontrolünde hazırlanmıştır.

İcadiye-Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
Tel. 0216. 474 08 50
www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

Yayın yönetmeni M. Suat Mertoğlu
Yayın koordinasyon Erdal Cesar
Tahkik editörü Okan Kadir Yılmaz, Orhan Ençakar
İnceleme kısmı son okuma (Türkçe) Mustafa Demiray
Tashih (Arapça) Orhan Ençakar, Okan Kadir Yılmaz
(Türkçe) İsa Kayaalp, İsmail Özbilgin
Tasarım Ali Haydar Ulusoy, Hasan Hüseyin Can (Kapak),
Ramzi Haj Mustafa (Kapak Hattı)
Yayın takip Sema Doğan

Bu eser
TDV İslam Araştırmaları Merkezi'nin (İSAM)
İkinci Klasik Dönem Projesi
kapsamında yayımlanmıştır.

Proje koordinatörü Tuncay Başoğlu

Bu kitap
İSAM Yönetim Kurulu'nun
21.12.2018 tarihli ve 2018/18 sayılı kararıyla basılmıştır.

Birinci Basım: İstanbul - Beyrut, Mart 2019 m. / 1440 h.
Üçüncü Basım: Ankara, Ağustos 2023 m. / 1445 h.
ISBN 978-625-7672-69-6 (Tk.)
978-625-7672-72-6 (3. Cilt)

Basım Yayın ve Dağıtım
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No. 11
Yenimahalle/Ankara
Tel. 0312. 354 91 31 Faks. 0312. 354 91 32
bilgi@tdv.com.tr
Sertifika No. 48058

Yûsuf b. Hilâl es-Safedî
Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr [كشف الأسرار وهتك الأستار] / Yûsuf b. Hilâl es-Safedî ; tahkik Bahattin Dartma. 3. bs. – İstanbul ; Ankara : İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM) ; Türkiye Diyanet Vakfı, 2023.
Üçüncü Cilt, 632 s. ; 24 cm. – (Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları ; 766-1. İSAM Yayınları ; 227. Klasik Eserler Dizisi ; 37)

Dizin ve kaynakça var.
ISBN 978-625-7672-69-6 (Tk.) 978-625-7672-72-6 (3. Cilt)

ISAM
TÜRKİYE DİYANET VAKFI
İSLAM ARAŞTIRMALARI MERKEZİ
مركز البحوث الإسلامية

Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr

Yûsuf b. Hilâl es-Safedî
(ö. 696 h. / 1296 m.)

Tahkik
Prof.Dr. Bahattin Dartma

İlmî Kontrol
Prof.Dr. Bekir Topaloğlu

Üçüncü Cilt

TÜRKİYE DİYANET VAKFI YAYINLARI

İKİNCİ KLASİK DÖNEM PROJESİ

"İslam medeniyetinin İkinci Klasik Dönemi" olarak adlandırılabilecek olan h. 7-13. (m. 13-19.) yüzyıllar arası entelektüel birikimin gereği gibi araştırma mevzuu edilmesi ve yaklaşık yedi asırlık bu dönemin ilmî ve fikrî boyutlarıyla ortaya çıkarılması hedefiyle Türkiye Diyanet Vakfı İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM) tarafından, bünyesinde pek çok alt projeyi ihtiva edecek bir çerçeve proje olan İkinci Klasik Dönem Projesi gündeme alınmıştır. Günümüz tarih yazıcılığında İslam medeniyeti tarihi, Moğol istilası sonrası genelde İslam medeniyetinde özelde İslam düşüncesi ve ilimlerinde gelişmenin inkıtaa uğradığı varsayımıyla yazılmaya çalışılmıştır. Batı'da 19. yüzyılda oluşturulan, sömürgeleşme süreciyle birlikte müslümanlar arasında da yaygınlık kazanan bu bakış açısı İslam tarihiyle ilgili yargılarımızı eksik bırakmıştır. Neticede İslam tarihi, düşüncesi, sanatı, kurumları, önde gelen şahsiyetleri, literatürü ve olaylarıyla insicamlı bir bütünlük içinde ele alınamamı ştır.

Bu alandaki çalışmalarla sadece İslam medeniyet tarihinin bir dönemi değil aynı zamanda insanlık tarihinin çok önemli bir devresi aydınlanmış olacaktır. Bu proje vasıtasıyla İkinci Klasik Dönem'de tartışılan ilmî meseleler yeniden kazanılarak günümüz ilim ve fikir dünyasının gündemi haline getirilecek ve böylece yeni dönemin inşasında, hâlihazırdaki sorunların tespit, tahlil, tenkit ve hallinde geçmiş birikimden azami ölçüde istifade edilmesi sağlanacaktır.

Bu dönemle ilgili çalışmalar kapsamında İslam ilimleri, İslam düşüncesi, İslam bilim tarihi, İslam medeniyetinde beşerî ilimler ve sanat alanlarına dair çalışmaların yanı sıra İslam ile diğer medeniyetler arası mukayeseli çalışmalar yer alacaktır. Gerçekleştirilecek projeler Osmanlı coğrafyası, Sahrâaltı Afrikası, Delhi Sultanlığı döneminden itibaren Hint alt kıtası ve Moğol istilası sonrası Orta Asya ve İran'a yoğunlaşacaktır. Proje kapsamında kataloglama, telif, tahkik, tercüme türünden yayınlar yapılması öngörülmektedir.

M. Sait Özervarlı, *İbn Teymiyye'nin Düşünce Metodu ve Kelâmcılara Eleştirisi*, 2008; 2017
Yavuz Köktaş, *Fethu'l-bârî ve Umdetü'l-kârî'nin Metin Tahlili Açısından İncelenmesi*, 2009; 2020
Fatih Yahya Ayaz, *Memlûkler Döneminde Vezirlik*, 2009; 2017
Halil İnalcık, *Osmanlı İdare ve Ekonomi Tarihi*, 2011; 2018
Tuncay Başoğlu, *Fıkıh Usulünde Fahreddin er-Râzî Mektebi*, 2011; 2014
Adalet Çakır, *Abdülkâdir-i Geylânî ve Kâdirîlik*, I-II, 2012; 2021
İslâm Düşüncesinin Dönüşüm Çağında Fahreddin er-Râzî (ed. Osman Demir-Ömer Türker), 2013
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Kifâye fi'l-hidâye* (thk. Muhammet Aruçi), 2013; 2022
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Münteḳā min ismeti'l-enbiyâ* (thk. Mehmet Bulut), 2013; 2022
Türkiye'de Tarikatlar: Tarih ve Kültür (ed. Semih Ceyhan), 2015
Semih Ceyhan, *Üç Pîrin Mürşidi: Halvetiyye, Ramazâniyye Kolu ve Köstendilli Ali Alâeddin Efendi*, 2015
Şükrü Maden, *Tefsirde Hâşiye Geleneği ve Şeyhzâde'nin Envârü't-Tenzîl Hâşiyesi*, 2015
İstanbul Şer'iyye Sicilleri Vakfiyeler Katalogu (haz. B. Aydın, İ. Yurdakul, A. Işık, İ. Kurt, E. Yıldız), 2015
Muhammed el-İsfahânî, *Kitâbü'l-Kavâidi'l-külliyye* (thk. Mansur Koçinkağ - Bilal Taşkın), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Kâdî Beyzâvî (ed. Müstakim Arıcı), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Adudüddin el-Îcî (ed. Eşref Altaş), 2017
Osman Güman, *Nahiv ve Fıkıh Usulü İlişkisi*, 2017
Mirzazâde Mehmed Sâlim Efendi, *Selâmetü'l-insân fî muhâfazati'l-lisân* (thk. Murat Sula), 2018
Tilimsânî, *Meâni'l-esmâi'l-ilâhiyye* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
Tilimsânî, *Şerhu'l-Fâtiha ve ba'zı sûreti'l-Bakara* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
İSAM Tahkikli Neşir Kılavuzu (haz. Okan Kadir Yılmaz), 2018
Mustafa Bülent Dadaş, *Şeyh Bedreddin: Bir Osmanlı Fakihi*, 2018
Mehmed Fıkhî el-Aynî, *Risâle fî edebi'l-müftî* (thk. Osman Şahin), 2018
Kāsım b. Kutluboğa, *Kitâbü Tahrîbi'l-garîb* (thk. Osman Keskiner), 2018
Safedî, *Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr* (thk. Bahattin Dartma), I-V, 2019
M. Taha Boyalık, *el-Keşşâf Literatürü: Zemahşerî'nin Tefsir Klasiğinin Etki Tarihi*, 2019
Şeyh Bedreddin, *et-Teshîl Şerhu Letâifi'l-işârât* (thk. M. Bülent Dadaş), I-III, 2019
Rükneddin es-Semerkandî, *Câmiu'l-usûl* (thk. İsmet Garibullah Şimşek), I-II, 2020
Mahmûd el-İsfahânî, *Tesdîdü'l-kavâid fî şerhi Tecrîdi'l-akâid*; Cürcânî, *Hâşiyetü't-Tecrîd; Cürcânî'nin minhüvâtı ve başka haşiye notlarıyla birlikte* (thk. E. Altaş, M.A. Koca, S. Günaydın, M. Yetim), I-III, 2020; I-II, 2021
İbn Nüceym, *Lübbü'l-usûl* (thk. Muhammed Fâl Seyyid eş-Şinkîtî), 2020
Sığnâkī, *et-Tesdîd fî şerhi't-Temhîd* (thk. Ali Tarık Ziyat Yılmaz), I-II, 2020
M. Âkif Aydın, *Osmanlı Hukuku: Devlet-i Aliyye'nin Temeli*, 2020
Mehmet Sami Baga, *İslam Felsefesinde Cisim Teorisi: Hikmetü'l-ayn Geleneği*, 2020
Güllü Yıldız, *Siyerde Şerh-Haşiye Geleneği: Moğultay b. Kılıç Örneği*, 2020
Mehmet Çiçek, *Müfessir Olarak Ali Kuşçu*, 2021
Ali Kuşçu, *Hâşiyetü Alî el-Kuşcî alâ Şerhi'l-Keşşâf li't-Teftâzânî* (thk. Mehmet Çiçek), 2021
İbn Âbidîn, *Şerhu Ukūdi resmi'l-müftî* (thk. Şenol Saylan), 2021
Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî, *İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm* (thk. M.T. Boyalık, A. Aytep, Z. el-Kaliş, M.İ. el-Nabulsî), I-IX, 2021
İslam İlim Geleneğinde Nevevî (ed. Nail Okuyucu), 2022
Necmeddin Yûsuf b. Ahmed el-Hâsî el-Hârizmî, *el-Fetâva's-sugrâ* (thk. Abdulhalik Uygur), I-II, 2022
Tenkitli Neşir Kılavuzu (Osmanlı Türkçesi Metinleri İçin) (haz. B. Açıl, S. Yazar, K. Turgut, Ö. Kavak), 2022
Hamza b. Turgut Aydınî, *el-Hevâdî fî şerhi'l-Mesâlik* (thk. Ali Bulut), 2022
Mustafa Ateş, *Bir Osmanlı Fakihi İbn Âbidîn*, 2022
İbrâhim b. Mustafa el-Halebî el-Medârî, *el-Lüm'a fi'l-hudûs ve'l-kıdem ve'l-kazâ ve'l-kader ve tahkîki't-teklîf* (thk. Münzir Şeyhhasan), 2022
Şemseddin İbn Tolun, *el-Gurefü'l-aliyye fî terâcimi müteahhirî'l-Hanefiyye* (thk. Ali es-Seyyid Abdüllatîf), I-III, 2023



Keşfü'l-esrâr
ve hetkü'l-estâr